

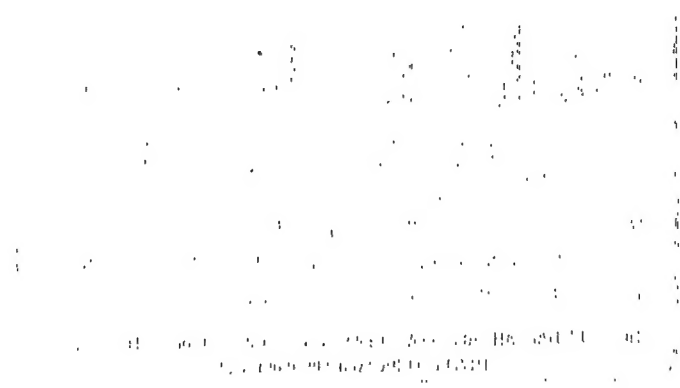


المجلد الأول
العقبات الإسلامية

١

دار الكتب والخط





الحمد لله

الْحَقِيقَةُ الْإِسْلَامِيَّة - ١

المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ

عباس محمود

العقائد

المجلد الأول

العقيدة الإسلامية - ١

يحتوي على

عقيدة محمد

عقيدة الصديق

عقيدة عمر



جميع الحقوق محفوظة للزلف والنائر

دار الكتاب اللبناني
مكتبة المدرسة
طباعة - نشر - توزيع

الادارة العامة

المستأق - مكال مثل الإزاعة اللبنانية
هاتف : ٢٤٩٠٥٥ - ٢٤٩٢٧٠ - ٢٤٩٢١٩
خرب : ٣١٧٦ - ٤٤٢٨٦٥
برقيا : كتابان . مبروت . لبرنا

المستأق

هاتف : ٢٥١٠٥٤ - ٢٣٧٥٣٧ - ٢٥٧٤٧ - ٢٥٨٣٠٤

١٩٨٤

عَبَّاسُ مُحَمَّدٍ
العَقَّالُ

عَبْقَرِيٌّ مُحَمَّدٌ

دار الكتاب اللبناني - بيروت

مقدمة

تعود بنا هذه المقدمة ثلاثين سنة ، الى اليوم الذي سمعت فيه أول اقتراح بتأليف كتاب عن محمد عليه السلام وكنت أقيم يومئذ في ضاحية العباسية البحرية على مقربة من الساحة التي كانت معدة للاحتفال بالمولد النبوي في كل عام ولنا رهط من الأصدقاء المشتغلين بالأدب يشتركون في قراءة كتبه العربية والافرنجية ، ويترددون معا على الأحياء الوطنية ، وقلما يترددون على غيرها . . فلا يزالون متنقلين فترة بعد فترة بين الحلي الحسيني والحلي الزينبي ، أو بين منشية القلعة ، وضاحية العباسية ، أو بين الروضة والحليج . . على حسب المناسبات ، وعلى غير مناسبة في كثير من الأوقات . .

وكان رهطا له نقائض الدنيا مجتمعات : نقائض الشباب ، ونقائض الحياة الفنية ، ونقائض الاختلاف في البيئة بين ناشئ في العاصمة وناشئ في الريف وناشئ في الصعيد وناشئ في الثغور ، الى غير ذلك من النقائض التي كانت حلية لهذه الجماعة ، ولم تكن فيها من دواعي التفرق والشتات . .

ومن عجائبها ان الذي كان يعربها بالأحياء الوطنية هو قراءتها في الكتب الافرنجية التي كانت شائعة بينها ، لأنهم كانوا يقرأون أكثر ما كانوا يقرأون كتب «دكنز» و«هازليت» و«لي هانت» و«كارليل» .. وهم كتاب مولعون بعرض الأخلاق الاجتماعية ودراسة العادات المحلية وتمثيل الريفيين ، والحضرين في أوضاعهم المختلفة ، ولهم فصول عن الأسواق ، والدكاكين ، والباعة ، تفيض بحسن الملاحظة وبراعة الفكاهة ومتعة القراءة ، وتعود من يدمن قراءتها أن يتحرى نظائرها حيثما رآها ففي يوم من أيام المولد - والرهط يزورني لنؤم الساحة مجتمعين في

المساء - كان الكاتب الانجليزي العظيم « توماس كارليل » هو محور الحديث كله ، لأنه كما يعلم الكثيرون بين قراء العربية صاحب كتاب « الأبطال » الذي عقد فيه فصلا عن النبي محمد عليه السلام ، وجعله نموذج البطولة النبوية بين أبطال العالم الذين اختارهم للوصف والتدليل

وانا لتذاكر آراءه ومواضع ثنائه على النبي ، اذ بدرت من أحد الحاضرين الغرباء عن الرهط كلمة نائية غضبنا لها وهتكرناها لما فيها من سوء الأدب وسوء الذوق وسوء الطوية . وكان الفتى الذي بدرت منه الكلمة متحذقا يتظاهر بالمعرفة ، ويحسب ان التناول على الأنبياء من لوازم الاطلاع على الفلسفة والعلوم الحديثة . . فكان مما قاله شيء عن النبي والزواج ، وشيء عن البطولة ، قحواه: ان بطولة محمد انما هي بطولة سيف ودماء !

قلت : « ويحك ! . . ما سوغ أحد السيف كما سوغته أنت بهذه القولة النائية ! »

وقال صديقنا المازني : « بل السيف أكرم من هذا ، وانما سوغ صاحبنا شيئا آخر يستحقه . . وأشار الى قدمه ! »

وارتفعت لهجة النقاش هنيئة ، ثم هدأت بخروج الفتى صاحب الكلمة من الندي ، واعتذاره قبل خروجه بتفسير كلامه على معنى مقبول ، أو خيّل اليه انه مقبول

وتساءلنا : ما بالناس تقنع بتمجيد « كارليل » للنبي ، وهو كاتب غربي لا يفهمه كما نفهمه ، ولا يعرف الاسلام كما نعرفه . . ثم سألتني بعض الاخوان : « ما نالك أنت يا فلان لا تضع لقراء العربية كتابا عن محمد على النمط الحديث ؟ »

قلت : « أفعل . . وأرجو أن يتم ذلك في وقت قريب » ولكنه لم يتم في وقت قريب . . بل تمّ بعد ثلاثين سنة ! . . وشاءت المصادفة العجيبة أن تتمّ فصوله في مثل الأيام التي سمعت فيها الاقتراح

لأول مرة . . فكتبت السطر الأخير فيه يوم مولد النبي على حسب
الشهور الهجرية ، واتفقت هذه المصادفة على غير تدبير منى ولا من
أحد ، لأننى لم أدبر لنفسى أوقات الفراغ التى هيات لي اتمام فصوله
وتقسيم العمل فيه يوما بعد يوم

والخيرة فى الواقع . .

والخيرة كذلك فى هذا التأخير . .

فانى لو كتبت يومئذ لعدت الى كتابته الآن من جديد ، واحتجت
الى السنين الثلاثين أضيف خبرتها وقراءتها ورياضتها النفسية والفكرية
الى محصول ذلك العمر الباكر . . اذ هو عمر يستطيع المرء أن يمتلىء
فيه اعجابا بمحمد ، لأنه عمر الاعجاب والحماسة الروحية . . بيد انه
لا يستطيع أن يقيسه بمقياسه وأن يشعر بشعوره فى مثل تجاربه ، وفى
مثل السن التى اضطلع فيها بالرسالة . وان تقارب السن هنا لضرورة
لا غنى عنها لتقريب ذلك الشأو البعيد من شتى نواحيه

أين كنا قبل تلك السنين الثلاثين ؟ . .

انها مسافات فى عالم الفكر والروح . لو تمثلت مكانا منظورا ،
لأخذ المرء رأسه بيديه من الدوار وامتداد النظر بغير قرار

كم رأي ؟ . . كم مذهب ؟ . . كم وسواس ؟ . . كم محنة ؟ . . كم
مراجعة ؟ . . كم زلزال يتضعضع له الكيان وتميد معه الدعائم
والأركان ؟ . . كم ، وكم فى ثلاثين سنة مما يطرق نفسا لا تعفيها
الحياة من التجارب والعوارض لمحة عين فى نهار ؟ . . وكم لذلك كله
من أثر فى توطيد الرأي وتهدة الثوائر وتجلية الغبار ؟ . . وكم يضيف
ذلك كله الى الشباب الباكر الذى كان يحلم يومئذ بالعظمة فى كل
أوج ، وبالأوج المحمدي فى عليا مراتب الأنبياء ؟ . .

والخيرة فى الواقع . .

والخيرة فى ذلك التأخير . .

واليوم ونحن نضع كتابنا هذا عن « عبقرية محمد » بين يدي القراء ، لا نقول اننا قد استوفيناه كما أردناه ولا اننا فصلنا فيه الغرض الذي نؤخينا . . ولكننا نقول اننا التزمنا فيه الباعث الذي أوحى الاقتراح بتأليفه لأول مرة . كأننا شرعنا في كتابته مساء ذلك اليوم قبل ثلاثين سنة ، فكتبناه ونحن نستحضر في الذهن تبرئة المقام المحمدي من تلك الأقاويل التي يلغظ بها الأغرار والجهلاء عن حذقة أو سوء نية ، ونظرنا اتفاقا ، فاذا بأطول الفصول فيه الفصلان اللذان شرحنا فيهما موقف محمد من الحرب ومن الحياة الزوجية . . لأنهما كانا مثار اللغظ تلك الليلة على مقربة من ساحة المولد ، وكانا مثار اللغظ في كل ما رددته سفهاء الشائنين من الأصلاء والمقتدين في هذا الباب . .

فسيرى القارئ أن « عبقرية محمد » عنوان يؤدي معناه في حدوده المقصودة ولا يتعداها . فليس الكتاب سيرة نبوية جديدة تضاف الى السير العربية والافرنجية التي حفلت بها « المكتبة المحمدية » حتى الآن . . لآتنا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها في هذه الصفحات ، على اعتقادنا أن المجال متسع لعشرات من الأسفار في هذا الموضوع ، ثم لا يقال انه استنفد كل الاستنفاد

وليس الكتاب شرحا للإسلام أو لبعض أحكامه ، أو دفاعا عنه ، أو مجادلة لخصومه . . فهذه أغراض مستوفاة في مواطن يشتى ، يكتب فيها من هم ذووها ولهم دراية بها وقدرة عليها

انما الكتاب تقدير « لعبقرية محمد » بالمقدار الذي يدين به كل انسان ولا يدين به المسلم وكفى ، وبالخلق الذي ييئ له الحب في قلب كل انسان ، وليس في قلب كل مسلم وكفى

فمحمد هنا عظيم . . لأنه قدوة المقتدين في المناقب التي يتمناها المخلصون لجميع الناس . .
عظيم لأنه على خلق عظيم . .

وايتاء العظمة حقها لازم فى كل آونة وبين كل قبيل . . ولكنه فى هذا الزمن وفى عالمنا هذا ألزم منه فى أزمنة أخرى ، لسبيين متقاربين لا لسبب واحد : أحدهما أن العالم اليوم أحوج مما كان الى المصلحين النافعين لشعوبهم وللشعوب كافة . . ولن يتاح لمصلح أن يهدي قومه وهو مغموط الحق ، معرض للجفوة والكنود

والسبب الآخر ان الناس قد اجترأوا على العظمة فى زماننا بقدر حاجتهم الى هدايتها . . فان شيوع الحقوق العامة قد أغرى أناسا من صغار النفوس بانكار الحقوق الخاصة ، حقوق العلية النادرين الذين ينصفهم التمييز وتظلمهم المساواة . . والمساواة هى شرعة السواد الغالبة فى العصر الحديث . .

ولقد جار هذا الفهم الخاطىء للمساواة على حقوق العظماء السابقين ، كما جار على حقوق العظماء من الأحياء والمعاصرين . ثم أغرى الناس بالجور بعد الجور غرورهم بطرائف العصر الحديث ، واعتقادهم انه قد أتى بالجديد الناسخ للتقديم فى كل شىء . . حتى فى ملكات النفوس والأذهان ، وهى مزية خالدة لا ينسخ فيها الجديد القديم

يرون ان البخار يلغى الشراع ، وربما كان الاختراع السابق أدل على القدرة وأبين عن الفضل من الاختراع الذى تلاه ، ولم يكن ليتلوه لولا ما تقدم عليه . .

وينظرون الى أقطاب الدنيا كأن الأصل فى النظر اليهم أن يتجنوا عليهم ويثابوا ذراتهم ، ولا يثوبوا الى الاعتراف لهم بالفضل الا مكرهين ، بعد أن تفرغ عندهم وسائل التجني والثلب والافتراء هذه الافة تهبط بالخلق الانساني الى الحضيض .

وتهبط بالرجاء فى اصلاح العيوب الخلقية والنفسية الى ما دون الحضيض . .

فماذا يساوي انسان لا يساوي الانسان العظيم شيئا لديه ؟ . . وأى

معرفة بحق من الحقوق يناط بها الرجاء اذا كان حق العظمة بين الناس
غير معروف ؟ . . واذا ضاع العظيم بين أناس ، فكيف لا يضيع بينهم
الصغير ؟ . .

لهذا كان تقدير محمد بالقياس الذى يفهمه المعاصرون ويتساوى في
اقراره المسلمون وغير المسلمين ، نافعا في هذا الزمن الذى التوت فيه
مقاييس التقدير . .

انه لنافع لمن يقدرون محمدا ، وليس بنافع لمحمد أن يقدروه . . لانه
في عظمتة الخالدة لا يضار بانكار ، ولا ينال منه بغى الجهلاء الا كما
نال منه بغى الكفار . .

وانه لنافع للمسلم أن يقدر محمدا بالشواهد والبيئات التى يراها غير
المسلم ، فلا يسعه الا أن يقدرها ويجرى على مجراه فيها . . لأن مسلما
يقدر محمدا على هذا النحو يجب محمدا مرتين : مرة بحكم دينه الذى
لا يشاركه فيه غيره ، ومرة بحكم السمائل الانسانية التى يشترك فيها
جميع الناس . .

وحسبنا من « عبقرية محمد » أن تقيم البرهان على أن محمدا عظيم
في كل ميزان : عظيم في ميزان الدين ، وعظيم في ميزان العلم ، وعظيم
في ميزان الشعور ، وعظيم عند من يختلفون في العقائد ولا يسعهم أن
يختلفوا في الطبائع الآدمية ، الا أن يرين العنت على الطبائع فتتحرف
عن السواء وهى خاسرة بانحرافها ، ولا خسارة على السواء .

ان عمل محمد لكافي جد الكفاية لتحويله المكان الأسنى من التعظيم
والاعجاب والثناء . .

انه نقل قومه من الايمان بالأصنام الى الايمان بالله ، ولم تكن أصناما
كأصنام يونان يحسب للمعجب بها ذوق الجمال ان فاته أن يحسب له
هدى الضمير . . ولكنها أصنام شائعات كتعاويد السحر التى تفسد

الأذواق وتفسد العقول . . فنقلهم محمد من عبادة هذه الدمامة الى عبادة الحق الأعلى . . عبادة خالق الكون الذى لا خالق سواه ، ونقل العالم كله من ركود الى حركة ومن فوضى الى نظام ، ومن مهانة حيوانية الى كرامة انسانية ، ولم ينقله هذه النقلة قبله ولا بعده أحد من أصحاب الدعوات . .

ان عمله هذا لكاف لتحويله المكان الأسنى بين صفوة الأخيار الخالدين ، فما من أحد يضمن على صاحب هذا العمل بالتوقيع ثم وجود بالتوقيع على اسم انسان

الا انا نمضي خطوة وراء هذا ، حين نقول: ان التعظيم حق « لعبقرية محمد » ولو لم تقترن بعمل محمد . .

لأن العبقرية قيمة فى النفس قبل أن تبرزها الأعمال ويكتب لها التوفيق ، وهى وحدها قيمة يعالى بها التقويم . .

فاذا رجع بمحمد ميزان العبقرية ، وميزان العمل ، وميزان العقيدة . . فهو نبي عظيم وبطل عظيم وانسان عظيم وحسبنا من كتابنا هذا أن يكون بنأناً تومىء الى تلك العظمة فى آفاقها ، فان البنان لأقدر على الاشارة من الباع على الاحاطة ، وأفضل من عجز المحيط طاقة المشير . .

عباس محمود العقاد

علامات مؤلّد

عالم

كان عالماً متداعياً قد شارف النهاية . . خلاصة ما يقال فيه انه عالم فقد العقيدة كما فقد النظام . .

أى انه فقد أسباب الطمأنينة فى الباطن والظاهر . . طمأنينة الباطن التى تنشأ من الركون الى قوة فى الغيب ، تبسط العدل ، وتحمي الضعف ، وتجزى الظلم ، وتختار الأصلح الأكمل من جميع الأمور .. وطمأنينة الظاهر التى تنشأ من الركون الى دولة تقضى بالشرعية ، وتفصل بين البغاة والأبرياء ، وتحرس الطريق ، وتخيف العائثين بالفساد . .

ببزنطة قد خرجت من الدين الى الجدل العقيم الذى أصبح بعد ذلك علماً عليها ، وتضاءلت سطوتها فى البر والبحر حتى طمع فيها من كان يحتّم بجوارها . .

وفارس قد سخر فيها المجوس من دين المجوس . . وكمنت حول عرشها كوامن الغيلة ، وبواعث الفتن ، ونوازع الشهوات ...

والحبشة ضائعة بين الأوثان المستعارة من الحضارة تارة ومن الهمجية تارة ، وبين التوحيد الذى هو ضرب من عبادة الأوثان . . ثم هى بعد هذا التشويه فى الدين ، ليست بذات رسالة فى الدنيا ولا بذات طور من أطوار التاريخ . . فليس لها عمل باق فى سجل الأعمال الباقيات . . عالم يتطلع الى حال غير حاله . . عالم يتهيأ للتبديل أو للهدم ثم للبناء .

وبين هذه الدول المتداعيات ، أمة ليست بذات دولة ولكنها تتأهب
لإقامة دولة . . هي أمة العرب وقد تيقظت لوجودها وشعرت
بمكائنها ، كما شعرت بالخطر عليها وبمواضع النقص منها
في أيديها تجارة العالمين كلها . .

فاذا سارت القوافل من خليج فارس الى بحر الروم ، فهي تسير في
البادية بين حراس من العرب لا سلطان عليهم للدول المتداعية . . أو هم
قد شعروا بذلك السلطان حينما في إبان الصولة الرومانية والصولة
الفارسية ، ثم علموا انهم مالكون لزماتهم يرضون فتتصل الأرزاق بين
المشرق والمغرب وبين المغرب والمشرق ، ويغضبون فتبور التجارة وينضب
المورد وتكسد الأسواق

واذا سارت القوافل من اليمن الى الشام أو من بحر القلزم الى بحر
الروم ، فهي في جيرة الأعراب من كلتا الطريقين

أمة تيقظت لوجودها ، وعرفت شأنها بين من يحدقون بصحرائها . .
ثم رأت هؤلاء المحيطين بها يجورون عليها ، ويريدون إخضاعها
وابتلاعها . .

فهرقل الرومي يرسل الى مكة من يحكمها ، وأبرهة الحبشي يزحف
الى مكة بمن يهدم كعبتها ويستبدل بها كعبة غيرها ، وفارس تطغى على
شرق البلاد وعلى جنوبها . .

خطر من خارجها ، يزيد الأمة يقظة واثباتها لوجودها . .
وخطر من داخلها ، يدفع بها دفعا الى الزوال أو الى استكمال النقص
المستشري في حياتها ..

مدينة واحدة تجتمع فيها ثروة الجزيرة ، وعصبة واحدة من سادة
القوم تجتمع في أيديها ثروة المدينة ..
حالة لا استقرار فيها . .

فمن هنا الترف ، والطمع ، والخمر ، والقمار ، والمتعة ، وتسخير
الأقوياء للضعفاء ..

ومن هنا الفاقة ، والحسرة ، والشك في صلاح الأمور . .
ولكنه شك يبحث ويضطرب ، وليس بالشك الذى يستجم ويستكين
فحيثما اجتمع أناس من أولي الرأي يذكرون العقيدة وطمأنينة
الضمير ، فهناك هاتف بينهم بسوء ما هم عليه . اجتمع أناس بنخلة
لأحياء عيد العزى فقال رجل منهم لأخوانه : « لله ما قومكم على شيء
وانهم لفي ضلال . . فما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا
ينفع ، ومن فوقه يجري دم النحور . يا قوم التمسوا لكم دينا غير هذا
الدين الذى أنتم عليه » . . ثم تفرقوا ، فمنهم من تنصر ، ومنهم من
اعتزل الأوثان ، ومنهم من انتظر حتى سمع دعوة الاسلام فلباها . .
وكان الذى تنصر وسمع دعوة الاسلام ورقة بن نوفل الذى كتب له أن
يتلقى بشارة النبي العربي عند ظهوره ويلقي اليه بالبشارة

هؤلاء شكوا وبحثوا عن العقيدة وطمأنينة الضمير . .

وغيرهم شكوا وبحثوا عن وازع من الضمير ، ووازع من السلطان
فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وتيم يتعاهدون باسم الله المنتقم ليكونن مع
المظلوم حتى يؤدي اليه حقه . . وذلك حلف الفضول الذى شهده
النبي العربي في شبابه وقال فيه : « ما أحب أن يكون لى بحلف حضرته
في دار ابن جدعان حمر النعم »

حالة لا تستقر ، ولا تزال في طلب الاستقرار . .

وأمة يقظى ا . .

وخطر محقق بها مما حولها ، ومما هو في دخالها وأحشائها . .

حالة تنذر بالزوال ، وقلما تزول أمة يقظى في أوان انتباهها . . فتلك
أذن حالة للتبديل والتجديد ..

قبيلة

وقبيلة تلك الأمة ، فى تلك المدينة . . لها شعبتان :
احدهما من أصحاب الترف والطمع واستبقاء ما هو قائم كما كان
قائماً على هواها . .
والأخرى من أصحاب التقوى والسماحة والتوسط بين مقام القوى
الذى يجور ويظغى ويستبقي أداة الجور والظغيان ، ومقام الضعيف
الذى يحتمل الأذى ويصبر على الكريهة ولا يملك مع السيد الأمر الا
أن يذعن له ويأكل من فضلات يديه

بيت

وبيت من تلك الشعبة الوسطى له كرم النسب العريق وليس له لؤم
الثروة الجائحة والكبرياء الجائحة ، والقسوة على من دونه من المحرومين
ذلك هو بيت عبد المطلب من صميم قریش ومن ذؤابتها العليا ، وان
لم يكن معدودا من أثرياء القبيلة القرشية فى ذلك الأوان . .
ورأس هذا البيت - عبد المطلب - رجل قوى الخلق قوى الايمان
فيما آمن به ، حكيم مع قوة طبعه وشدة ليمانه ، خلى أن ينجب العقب
الذى يبشر بدعوة وينضح عن دين
نذر لئن عاش له عشرة بنين لينحرن أحدهم عند الكعبة . . ثم أحله
قومه وأحلتها العرافة من نذره ، فأبى أن يتحلل حتى يستوثق من رضى
الرب ورضى ضميره . سألتهم العرافة : « كم الديئة فيكم ؟ »
قالوا : « عشر من الابل »
قالت : « فتقربوا اذن بعشر من الابل واضربوا على الفتى وعليها
بالقداح . . فان خرجت على صاحبكم فزيدوا من الابل حتى يرضى
ربكم » فما زالوا يزيدون حتى بلغت الابل مائة وخرجت القداح عليها .
فهتفت قریش بعبد المطلب : « لقد رضى ربك .. فأطلق فتاك » . وكان

خليقا بمن يريد أن يتحلل ويتعلل أن يقبل ولا حرج عليه ، ولكن عبد
المطلب لم يكن من المتحللين المتعللين ، فأبى الا أن يضرب عليها القداح
ثلاث مرات ، ثم نحرت الابل للجياع من الأناسى والسباع

وجاء القائد الحبشي يهدم الكعبة ويسطو على الابل والشاه . . فلما
سأله عبد المطلب أن يرد اليه ابله ، قال له مقال السياسي المخرج المداور
بالكلام : « أراك تسأل عن اهلك ولا تسأل عن الكعبة »

فأجابه عبد المطلب جواب الحكيم المؤمن : « أما الابل فأنا ربها ،
وأما البيت فله رب يحميه ! »

فكان إيمانه إيمانا كفوا لدهاء السياسة ، ولم يكن إيمان العجز
والتواكل والاستسلام ...

ومن كان له هذا الخلق ، وهذا الضمير ، وهذا الإيمان ، وهذه
الرئاسة ، فليس من عجب أن ينبج نبيا في زمان يستدعي الأنبياء ،
ومكان مهيب لهم دون كل مكان .. بل العجب أن يكون الأمر غير ما كان

اب

وإذا كان عبد المطلب جدا صالحا لنبي كريم ، فابنه عبد الله نعم الأب
لذلك النبي الكريم . .

لكأنما كان بضعة من عالم الغيب ، أرسلت الى هذه الدنيا لتعقب
فيها نبيا وهي لا تراه . . ثم تعود

كان انسانا من طينة الشهداء ، يتجه الى القلب الانساني بكل ما فيه
من حب وحنو ورحمة . فهو الفتى الذى اسمه عبد الله والذى اختير
للفداء ، فجاشت له شفقة قومه حتى تركه لهم القدر الى حين . وهو الفتى
الذى تحدثت الفتيات فى الحدور بوسامته وحيائه ، وودت مئات منهن
لو نعمن منه بنعمة الزواج . وهو الفتى الذى أقام مع عروسه ثلاثة أيام ،
ثم سافر ليتنجر فاذا هى السفرة التى لا يؤوب منها الذاهبون . وهو الفتى
الذى مات وهو غريب ، وولد له نسله الكريم وهو دفين . وهكذا تتمثل

البصائر الخاشعة آباء الأنبياء والسلالة التي تصل بين الآخرة والدنيا
وبين عالم البقاء وعالم الفناء ...

وجل

عالم يتطلع الى نبي . . وأمة تتطلع الى نبي ، ومدينة تتطلع الى
نبي ، وقبيلة وبيت وأبوان أصلح ما يكونون لانجاب ذلك النبي
ثم ها هو ذا رجل لا يشركه رجل آخر في صفاته ومقدماته ، ولا
يدانيه رجل آخر في مناقبه الفضلى التي هيئاته لتلك الرسالة الروحية
المأمولة في المدينة . . وفي الجزيرة ، وفي العالم بأسره
نبيل عريق النسب . . وليس بالوضع الخامل ، فيصغر قدره في أمة
الأنساب والأحساب . .

فقير . . وليس بالغني المترف فيطفيه بأس النبلاء والأغنياء ، ويفلق
قلبه ما يفلق القلوب من جشع القوة واليسار
يتيم بين رحماء .. فليس هو بالمدلل الذي يقتل فيه التدليل ملكة الجذ
والارادة والاستقلال ، وليس هو بالمهجور المنبوذ الذي تقتل فيه القسوة
روح الأمل وعزة النفس وسليقة الطموح ، وفضيلة العطف على الآخرين
خير بكل ما يختبره العرب من ضروب العيش في البادية والحاضرة ..
تربى في الصحراء وآلف المدينة ، ورعى القطعان واشتغل بالتجارة وشهد
الحروب والأحلاف ، واقترب من السراة ولم يتعد من الفقراء ..

فهو خلاصة الكفاية العربية في خير ما تكون عليه الكفاية العربية . .
وهو على صلة بالدنيا التي أحاطت بقومه . . فلا هو يجهلها فيغفل
عنها ، ولا هو يغامسها كل المغامسة فيغرق في لجتها

أصلح رجل من أصلح بيت في أصلح زمان لرسالة النجاة المرقوبة ،
على غير علم من الدنيا التي ترقبها ...

ذلك محمد بن عبد الله عليه السلام . .

قد ظهر والمدينة مهياة لظهوره لأنها محتاجة اليه ، والجزيرة مهياة

لظهوره لأنها محتاجة اليه ، والدنيا مهياة لظهوره لأنها محتاجة اليه ، وماذا من علامات الرسالة أصدق من هذه العلامة ؟ . . وماذا من نذير المقادير أصدق من هذا التذير ؟ . . وماذا من أساطير المخترعين للأساطير أعجب من هذا الواقع ومن هذا التوفيق ؟ . . علامات الرسالة الصادقة هي عقيدة تحتاج اليها الأمة ، وهي أسباب تمهد لظهورها ، وهي رجل يضطلع بأماتها في أوانها . .

فاذا تجمعت هذه العلامات فماذا يلجئنا الى علامة غيرها ؟ . . واذا تعذر عليها أن تجتمع فأى علامة غيرها تنوب عنها أو تعويض ما نقص منها ؟ . .

خلق محمد بن عبد الله ليكون رسولا مبشرا بدين ، والا فلاى شيء خلق . . . ولأى عمل من أعمال هذه الحياة ترشحه كل هاتيك المقدمات والتوفيقات ، وكل هاتيك المناقب والصفات ؟

لو اشتغل بالتجارة طول حياته كما اشتغل بها فترة من الزمن ، المان تاجرا أميناً ناجحاً موثقاً به في سوق التجار والشراة . . والكن التجارة كانت تشغل بعض صفاته ، ثم تظل صفاته العليا معيلة لا حاجة اليها في هذا العمل مهما يتسع له المجال

ولو اشتغل زعيماً بين قومه لصلح للزعامة ، ولكن الزعامة لا تستوفي كل ما فيه من قدرة واستعداد . .

فالذى أعده له زمانه وأعدته له فطرته هو الرسالة العالمية لا سواها ، وما من أحد قد أعد في هذه الدنيا لرسالة دينية ان لم يكن محمد قد أعد لها أكمل اعداد . .

بشائر الرسالة

والمؤرخون يجهدون أقلامهم غاية الجهد في استقصاء بشائر الرسالة المحمدية .. يسردون ما أكدته الرواة منها وما لم يؤكدوه ، وما قبله الثقات منها وما لم يقبلوه ، وما أيدته الحوادث أو ناقضته ، وما وافقته العلوم

الحديث أو عارضته ، ويتفرقون في الرأي والهوى بين تفسير الإيمان وتفسير العيان وتفسير المعرفة وتفسير الجهالة ، فهل يستطيعون أن يختلفوا لحظة واحدة في آثار تلك البشائر التي سبقت الميلاد أو صاحبت الميلاد حين ظهرت الدعوة واستفاض أمر الاسلام ؟
لا موضع هنا لاختلاف . .

فما من بشارة قط من تلك البشائر كان لها أثر في اقناع أحد بالرسالة يوم صدع النبي بالرسالة ، أو كان ثبوت الاسلام متوقفا عليها لأن الذين شهدوا العلامات المزعومة يوم الميلاد ، لم يعرفوا يومئذ مغزاها ومؤداها ، ولا عرفوا انها علامة على شيء أو على رسالة ستأتي بعد أربعين سنة . .

ولأن الذين سمعوا بالدعوة وأصاخوا الى الرسالة بعد البشائر بأربعين سنة ، لم يشهدوا بشارة واحدة منها ولم يحتاجوا الى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا اليه

وقد ولد مع النبي عليه السلام أطفال كثيرون في مشارق الأرض ومغاربها ، فإذا جاز للمصدق أن ينسبها الى مولده جاز للمكابر أن ينسبها الى مولد غيره . ولم تفصل الحوادث بالحق بين المصدقين والمكابرين الا بعد عشرات السنين . . يوم تأتي الدعوة بالآيات والبراهين غنية عن شهادة الشاهدين وانكار المنكرين

أما العلاقة التي لا التباس فيها ولا سبيل الى انكارها ، فهي علامة الكون وعلامة التاريخ . .

قالت حوادث الكون : لقد كانت الدنيا في حاجة الى رسالة . .

وقالت حقائق التاريخ : لقد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة . .

ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ . .

عَبْقَرِيَّةُ الدَّاعِي

اتفقت أحوال العالم اذن على انتظار رسالة . .
واتفقت أحوال محمد على ترشيحه لتلك الرسالة . .
وكان من الممكن أن تتفق أحوال العالم وأحوال محمد ، ولا تتفق معها
الوسائل التي تؤدي بها رسالته على أحسن الوجوه
كان من الممكن أن ينتظر العالم الرسول ، ثم لا يظهر الرسول
وكان من الممكن أن يظهر الرسول في البيت الصالح وفي البيئة
الصالحة ، ثم لا تنهياً له الصفات التي يتم بها أداء الرسالة
ولكن الذي اتفق في رسالة محمد قد كان أعجب أعاجيب الاتفاق ،
وكان المعجزة التي تفوق المعجزات . . لأنها مع ضخامتها وتعدد أجزائها
وتوافق تلك الأجزاء جميعها ، مما يقبله العقل قبولاً سائفاً بغير عنت
ولا استكراه . .

فكان محمد مستكملاً للصفات التي لا غنى عنها في انجاح كل رسالة
عظيمة من رسالات التاريخ
كانت له فصاحة اللسان واللغة . .
وكانت له القدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة . .
وكانت له قوة الايمان بدعوته وغيروته البالغة على نجاحها . .
وهذه صفات للرسول غير أحوال الرسول . . ولكنها هي التي عليها
المدار في تبليغ الرسالة ، ولو اتفقت فيما عداها جميع الأحوال

الفصاحة

فالفصاحة صفة تجتمع للكلام ، ولهيئة النطق بالكلام ، ولموضوع

الكلام . . فيكون الكلام فصيحاً وهيئة النطق به غير فصيحة ، أو يكون الكلام والنطق به فصيحين ، ثم لا تجتمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية في الأسماع والقلوب
أما فصاحة محمد . . فقد تكاملت له في كلامه ، وفي هيئة نطقه بكلامه ، وفي موضوع كلامه . .

فكان أعرب العرب ، كما قال عليه السلام : « أنا قرشي واسترضت في بني سعد بن بكر »
قله من اللسان العربي أفصح به هذه النشأة القرشية البدوية الخالصة . . وهذه هي فصاحة الكلام

ولكن الرجل قد يكون عربياً قرشياً مسترضعاً في بني سعد ويكون نطقه بعد ذلك غير سليم ، أو يكون صوته غير محبوب ، أو يكون ترتيبه لكلماته غير مأنوس . . فيتاح له الكلام الجميل ثم يعوزه النطق الجميل أما محمد فقد كان جمال فصاحته في نطقه كجمال فصاحته في كلامه ، وخير من وصفه بذلك عائشة رضي الله عنها حيث قالت : « ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد كسر دكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل ، يحفظه من جلس إليه »
واتفقت الروايات على تنزيه نطقه من عيوب الحروف ومخارجها ، وقدرته على إيقاعها في أحسن مواقعها .. فهو صاحب كلام سليم في نطق سليم ..

ولكن الرجل قد يكون عربياً قرشياً مسترضعاً في بني سعد ، ويكون سليماً في كلامه سليماً في نطقه . . ثم لا يقول شيئاً يستحق أن يستمع إليه السامع في موضوعه

فهذا أيضاً قد تنزه عنه الرسول في فصاحته السائفة من شتى نواحيها..
فما من حديث له حفظه لنا الرواة الثقات الا وهو دليل صادق على انه قد أوتي حقاً « جوامع الكلم » ، ورزق من فصاحة الموضوع كفاء ما رزق من فصاحة اللسان وفصاحة الكلام

الوسامة والثقة

وكانت له مع الفصاحة صباحة ودمائة تحببانه الى كل من رآه ،
وتجمعان اليه قلوب من عاشروه . وهى صفة لم يختلف فيها صديق
ولا عدو ، ولم ينقل عن أحد من أقطاب الدنيا انه بلغ بهذه الصفة مثل
ما بلغه محمد بين الضعفاء والأقوياء على السواء

وحسبك من حب الضعفاء اياه ان فتى مستعبدا يفقد أباه وأسرته -
كزيد بن حارثة - ثم يظهر له أبوه بعد طول الغيبة ، فيؤثر البقاء مع
محمد على الذهاب مع أبيه . .

وان خادم خديجة رضى الله عنها - ونعنى به ميسرة - يقدمه ليشير
سيده بالريح والتوفيق في تجارته ، وهو أولى أن ينفس عليه ، وأن
يدعي لنفسه ما اختصه به من الفضل والتقديم

وحسبك من حب الأقوياء اياه انه جمع على محبته اناسا بينهم من
التفاوت في المزاج والحصل ما بين أبى بكر وعمر وعثمان وخالد وأبى
عبيدة ، وهم جميعا من عظماء الرجال

ولكن الرجل قد يكون صبيحا دمثا محبوبا ، ولا يكون له من ثقة
الناس وائتمانهم اياه نصيب كبير . . لأن الرجل المحبوب غير الرجل
الموثوق به ، واذا اتفقت الحصلتان حيناً فمن الجائز أن تفرقا حيناً آخر ،
لأنهما في عنصر الحاصل لا تتلازمان

أما محمد فقد كان جامعا للمحبة والثقة كأفضل ما تجتمعان ، وكان
مشهورا بصدقه وأمانته كاشتهاره بوسامته وحنانه . وشهد له بالصدق
والأمانة أعداؤه ومخالفوه كما شهد بهما أحبابه وموافقوه . وامتلأ هو
من العلم بمنزلته من ثقة القوم ، فأحب أن يستعين بها على هدايتهم
وترغيبهم في دعوته فكان يسألهم : « أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا
بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوننى ؟ »

فيقولون : « نعم ، أنت عندنا غير متهم » . . الا أن الانسان ينفر مما
يصدمه في مألوفاته وموروثاته ، ولو صدقه وقام لديه ألف برهان عليه

فلم يكن ما بالقوم انهم لا يصدقون محمدا ولا يعلمون فيه الشرف والأمانة ، وانما كان بهم أنهم ينفرون من التصديق كما ينفر المرء من خبر صادق يسوءه فيمن يحب أو فيما يحب ، وهو مفتوح العينين ناظر الى صدق ما يلقي اليه

الايمان والغيرة

ومن المحقق أن هذه الموافقات على كثرتها ، وهذه الشوائل على ندرتها ، لا تزال تتوقف على صفة أخرى يحتاج اليها الداعي أشد من احتياجه الى الفصاحة والصباحة . . . وهى إيمانه بدعوته وغيخته على نجاحها . فقد نجح ذاعون كثيرون تعوزهم طلاقة اللسان وطلاقة القسماط ، ولم ينجح قط داع كبير يعوزه الايمان بصواب ما يدعو اليه ، والغيرة عليه . .

وقد قضى محمد عليه السلام شبابه وهو يؤمن بفساد الزمان وضلال الأوثان . . وجاوره أناس أقل منه نبلا في النفس ولطفاً في الحس ونقورا من الرجز ، آمنوا! بمثل ما آمن به من فساد عصره وضلال أهله ، ومن حاجتهم الى عبادة غير عبادة الأصنام ، وآداب غير آدابهم فى تلك الأيام فاذا جاوزهم فى صدق وعيه وسداد سعيه فقد وافق المعهود فيه ، والموروث من جده وأبيه

ولما آمن برسالته هو ودعوة ربه إياه الى القيام بأداء تلك الرسالة لم بهجم على هذا الايمان هجوم ساعة ولا هجوم يوم ، ولم يتعجل الأمر تعجل من يخدع نفسه قبل أن يخدع غيره ، ولكنه تردد حتى استوثق ، وجزع حتى اطمأن . وخطر له فى فترة من الوحي ان الله قلاه وأعرض عنه ، ولم يأذن له فى دعوة الناس الى دينه . ثم تلقى الطمأنينة من وحي ربه ومن وحي قلبه ومن وحي صحبه . . فصعد بما أمر ، ورضى ضميره بما أوتي من الهداية على النحو الذى رضيت به ضمائر الأنبياء وأصحاب القطرة الدينية ، مع ما بينه وبينهم من فارق فى الرتبة والأهبة ، وما بين

زمانهم وزمانه من فارق في الحاجة الى الاصلاح
فما من عجب اذن أن يكون محمد صاحب دعوة . .

وما من عجب أن تتجه دعوته حيث اتجهت ، وأن تبلغ من وجهتها
الغاية التي بلغت . وانما العجب ممن يغفلون عن هذه الحقيقة أو
يتغافلون عنها لهوى في الأفئدة ، فيشبهون اليوم أولئك الجاهلين الذين
أصروا أمس على الكفر به ، وحجبوا بأيديهم نوره عامدين . .

نجاح الدعوة

ما من حركة كبرى في التاريخ تتضح للفهم ان لم يكن نجاح الدعوة
المحمدية مفهوما بأسبابه الواضحة المستقيمة التي لا عوج في تأويلها ،
وما من شيء غير الغرض الأعوج يذهل صاحبه عن هذه الأسباب الطبيعية
البينة ثم يخيل اليه أن الدعوة الاسلامية كانت فضولا غير مطلوب في
هذه الدنيا ، وان نجاحها مصطنع لا سبب له غير الوعيد والوعود أو
غير الارهاب بالسيف والاغراء بلذات النعيم ومتعة الخمر والخور العبن
أي ارهاب وأى سيف ؟ . .

ان الرجل حين يقاتل من حوله انما يقاتلهم بالثبات والألوف .. وقد
كان الثبات والألوف الذين دخلوا في الدين الجديد يتعرضون لسيوف
المشركين ولا يعرضون أحدا لسيوفهم ، وكانوا يلقون عنتا ولا يصيبون
أحدا بعنت ، وكانوا يخرجون من ديارهم لياذا بأنفسهم وأبنائهم من كيد
الكائدين وتهمة الناقمين ولا يخرجون أحدا من داره

فهم لم يسلّموا على حد السيف خوفا من النبي الأعزل المفرد بين
قومه الغاضبين عليه ، بل أسلموا على الرغم من سيوف المشركين ووعيد
الأقوياء المتحكمين . . ولما تكاثروا وتناصروا حملوا السيف ليدفعوا
الأذى ويبطلوا الارهاب والوعيد ، ولم يحملوه ليدأوا واحدا بعدوان
أو يستطيّلوا على الناس بالسلطان

فلم تكن حرب من الحروب النبوية كلها حرب هجوم ، ولم تكن كلها

الا حروب دفاع وامتناع

أما الاغراء بلذات النعيم ومتعة الخمر والخور العين . . فلو كان هو باعنا للإيمان ، لكان أخرى الناس أن يستجيب الى الدعوة المحمدية هم فسقة المشركين وفجرتهم وأصحاب الترف والثروة فيهم ، ولكان طغاة قريش هم أسبق الناس الى استدامة الحياة واستبقاء النعمة . فان حياة النعيم بعد الموت محببة الى المنعمين تحبيها الى المحرومين ، بل لعلها أشهى الى الأولين وأدنى . . ولعلمهم أحرص عليها وأخفى ، لأن الحرمان بعد التذوق والاستمراء أصعب من حرمان من لم يذق ولم يتغير عليه حال

لم يكن أبو لهب أزهد في اللذة من عمر . . ولم يكن السابقون الى محمد أرغب في النعيم من المتخلفين عنه . . ولكننا ننظر الى السابقين وننظر الى المتخلفين ، فنرى فارقا واحدا بينهم أظهر من كل فارق . ذلك هو الفارق بين الأخيار والاشرار ، وبين الرحماء المنصفين والظلمة المتصلفين وبين من يعقلون ويصنعون الى القول الحق ، ومن يستكبرون ولا يصنعون الى قول

ذلك هو الفارق الواضح بين من سبقوا ومن تخلفوا . . وليس هو انفارق بين طالب لذة وزاهد فيها ، او بين مخدوع في النعيم وغير مخدوع ولعلنا لا نستبين هذه الحقيقة من مثال واحد كما نستبينها من مثال عمر رضى الله عنه في اسلامه . . فقصته في ذلك نموذج لتلبية الدعوة المحمدية ، ينفي كل كلام يقال عن الوعيد والاغراء وأثرهما في اقناع الأقوياء أو الضعفاء . .

قال ابن اسحق : « ... خرج عمر يوما متوشحا بسيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطا من أصحابه . . . قد اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين بين رجال ونساء . ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق ، وعلى بن أبي طالب ، في رجال من المسلمين رضى الله عنهم . . ممن كان

أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ولم يخرج فيمن خرج الى أرض الحبشة . فلقية نعيم بن عبد الله فقال له : « من تريد يا عمر ؟ .. » فقال : « أريد محمدا هذا الصابيء الذي فرّق أمر قريش ، وسفّه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلها ، فأقتله »

فقال نعيم : « والله لقد غرّك نفسك يا عمر !.. أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا ؟.. أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ » قال : « وأى أهل بيتى ؟ »

قال : « خنتك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو !.. وأختك فاطمة بنت الخطاب .. فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما » قال : « فرجع عمر عامدا الى اخته وخنته ، وعندهما خباب فى مخدع لهم أو فى بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذه ، وقد سمع عمر حين دنا الى البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال : « ما هذه الهينة التى سمعت ؟ » قالوا له : « ما سمعت شيئا ! . . »

قال : « بلى والله ! .. لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه .. وبطش بخنته سعيد بن زيد فقامت اليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجها ، فلما فعل ذلك قالت له أخته : « نعم . . قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك » . فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى ، وقال لأخته : « اعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرأون آثما أنظر ما هذا الذى جاء به محمد » . وكان عمر كاتباً ، فلما قال ذلك قالت له أخته : « انا نخشاك عليها »

قال : « لا تخافى » وحلف لها بآلهته ليردنها اذا قرأها اليها . فلما قال ذلك طمعت فى اسلامه ، فقالت له : « يا أخى !.. انك نجس على شركك ، وانه لايمسها الا الطاهر » . فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة وفيها « سورة طه » . فقرأها فلما قرأ منها صدرا قال : « ما أحسن هذا »

الكلام وأكرمه ! » فلما سمع ذلك خباب خرج اليه ، فقال له : « يا عمر ! والله انى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيّه ، فانى سمعته وهو يقول : « اللهم أيد الاسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب . . فאלله الله يا عمر ! »

فقال له عند ذلك عمر : « فدلّنى يا خباب على محمد حتى آتية فأسلم » فقال له خباب : « هو فى بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه . . فأخذ عمر سيفه فتوشحه ثم عمد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا بصوته قام رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر من خلل الباب فرآه متوشحا بالسيف ، فرجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فزع ، فقال : « يا رسول الله ! . . هذا عمر بن الخطاب متوشحا بالسيف » فقال حمزة بن عبد المطلب : « فأذن له . . فان كان جاء يريد خيرا بذلناه له ، وان كان يريد شرا قتلناه بسيفه »

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أئذن له ! » فأذن له الرجل ونهض اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه بالحجرة فأخذ بحجزته أو بمجمع رداءه ، ثم جبهه جبذة شديدة وقال : « ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ .. فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة ! » فقال عمر : « يا رسول الله ! . . جئتك لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله »

قال : « فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من أصحابه ان عمر قد أسلم » فتفرق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانهم وقد عزوا فى أنفسهم حين أسلم عمر مع اسلام حمزة ، وعرفوا انهما سيمعان رسول الله ويتصفون بهما من عدوهم . . . » هذه قصة اسلام عمر بن الخطاب ، وهذا موضع ما فيها من الوعيد والاغراء . . خرج بالسيف ليقتل محمدا ولم يخرج عليه احد من المسلمين بسيف ، وقرأ صدرا من « سورة طه » ليس فيه ذكر للخمر والنعيم وهو :

« طه . ما أنزلنا عليك القرآن، لتشقى . الا تذكرة لمن يخشى . تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى . الرحمن على العرش استوى . له ما فى السماوات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى . وان تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى »
فلا جبن اذاً ولا طمع فى اسلام عمر بن الخطاب ، بل رحمة واناة واعتذار . .

ولم يكن فى اسلام الفقراء الذين هم أقل من عمر ناصرا وأضعف منه بأسا جبن ولا طمع ، لأنهم تعرضوا باسلامهم للسيف ولم يخضعوا للسيف حين أسلموا لله ورسوله ، وما كفر الذين كفروا لزهد ولا شجاعة فيقال ان الذين سبقوهم الى الاسلام قد فعلوا ذلك لشغف بلذات الجنة وجبن عن مواجهة القوة . . ولكنهم اختلفوا حيث تطلب طهارة السيرة وصلاح الأمور ، فمن كان أقرب الى هذه الطلبة من غنى أو فقير ومن سيد أو مستعبد فقد أسلم ، ومن كان به زيغ عنها فقد أبى . . وهذا هو الفاصل القائم بين الفريقين قبل أن يتجرد للاسلام سيف يذود عنه ، وبعد أن تجرد له سيف تهابه السيوف . وما يقسم الطائفتين أحد فيضع أبا بكر وعمر وعثمان فى جانب اللذة والخوف ، ويضع الطغاة من قريش فى جانب العصمة والشجاعة الا أن يكون به هوى كهوى الكفار من قريش ، فى الاصرار والانكار

انما نجحت دعوة الاسلام لأنها دعوة طلبتها الدنيا ومهدت لها الحوادث ، وقام بها ذاع تهيأ لها بعناية ربه وموافقة أحواله وصفاته . . فلا حاجة بها الى خارقة ينكرها العقل أو الى علة عوجاء يلتوى بها ذوو الأهواء ، فهى أوضح شئ فهما لمن أحب أن يفهم ، وهى أقوم شئ سبيلا لمن استقام . .

عِبْرَةٌ مَحْمَدًا لِمَسْكِرَةٍ

حروب دفاع

قلنا فى الفصل السابق ان الاسلام لم ينجح لانه دين قتال كما يردد أعداؤه المفرضون ، ولكنه نجح لانه دعوة لازمة يقوم بها داع موفق ، وليس بين أسباب نجاحه سبب واحد يصعب فهمه على هذا الاعتبار

ونريد فى هذا الفصل أن نقول ان محمدا كان على اجتنابه العدوان يحسن من فنون الحرب ما لم يكن يحسنه المعتدون عليه ، وانه لم يجتنب الهجوم والمبادأة بالقتال لعجز أو خوف مما يجهله ولا يجيده . . ولكنه اجتنبه لانه نظر الى الحرب نظره الى ضرورة بغية يلجأ اليها ولا حيلة له فى اجتنابها ، ويجتنبها حيثما تيسرت له الحيلة الناجحة

وقبل ذلك ينبغى أن نستحضر فى الذهن بعض الحقائق التى تظهر لنا الاختلاف بين الدين الاسلامى والأديان الأخرى فى مسألة القتال ، لنثبت أن للاسلام شأنا فى اجتناب القوة كشأن كل دين ، وانه ما كان لينتصر بالقوة لو لم يكن الى جانب ذلك صالحا للاتصار ، وان الأديان الأخرى ما كانت لتعجم عن عمل أقدم عليه النبى لو كانت دعوتها كدعوته ، وكانت أسبابها كأسبابه

فالحقيقة الأولى ، ان مطعن القائلين بأن الاسلام دين قتال انما يصدق - لو صدق - فى بداءة عهد الاسلام كما أسلفنا ، يوم دان بهذا الدين كثير من العرب المشركين ، ولولاهم لما كان له جند ولا حمل فى سبيله سلاح . .

لكن الواقع ان الاسلام فى بداءة عهده كان هو المعتدى عليه ولم يكن من قبله اعتداء على أحد . . وظل كذلك حتى بعد تلبية الدعوة المحمدية واجتماع القول حول النبى عليه السلام ، فانهم كانوا يقاتلون من قاتلهم ولا يزيدون على ذلك : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ »

وقد صبر المسلمون على المشركين حتى أمروا أن يقاتلوهم كافة كما يقاتلون المسلمين كافة ، فلم يكن لهم قط عدوان ولا اكراه

وحروب النبى عليه السلام كما أسلفنا كانت كلها حروب دفاع . ولم تكن منها حرب هجوم الا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الايقان من نكث العهد والاصرار على القتال ، وتستوى فى ذلك حروبه مع قريش وحروبه مع اليهود أو مع الروم . . ففى غزوة تبوك عاد الجيش الاسلامى أدراجه بعد أن أيقن بانصراف الروم عن القتال فى تلك السنة ، وكان قد سرى الى النبى نبأ انهم يعبثون جيوشهم على حدود البلاد العربية . فلما عدلوا عدل الجيش الاسلامى عن الغزوة على فرط ما تكلف من الجهد والنفقة فى تجهيزه وسفره

والحقيقة الثانية ، ان الاسلام إنما يعاب عليه أن يحارب بالسيف فكرة يمكن أن تحارب بالبرهان والاقناع

ولكن لا يعاب عليه أن يحارب بالسيف « سلطة » تقف فى طريقه ، وتحول بينه وبين اسماع المستعدين للانصاف اليه

لأن السلطة تزال بالسلطة ، ولا غنى فى اخضاعها عن القوة . .

ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الاسلامية ، وإنما كانوا أصحاب سيادة موروثية وتقاليد لازمة لحفظ تلك السيادة فى الأبناء بعد الآباء ، وفى الأعقاب بعد الأسلاف . . وكل حجتهم التى بذودون بها عن تلك التقاليد أنهم وجدوا آباءهم عليها ، وان زوالها يزيل ما لهم من سطوة الحكم والجاه

وقصد النبى بالدعوة عظماء الأمم وملوكها وأمرائها لأنهم أصحاب

السلطة التى تأبى العقائد الجديدة ، وقد تبين بالتجربة بعد التجربة أن السلطة هى التى كانت تحول دون الدعوة المحمدية وليست أفكار مفكرين ولا مذاهب حكماء ، لأن امتناع المقاومة من هؤلاء العظماء والملوك كانت تمنع العوائق التى تصد الدعوة الاسلامية ، فيمتنع القتال ومن التجارب التى دل عليها التاريخ الحديث كما دل عليها التاريخ القديم ان السلطة لا غنى عنها لانجاز وعود المصلحين ودعاة الانقلاب .. ومن تلك التجارب تجربة فرنسا فى القرن الماضى ، وتجربة روسيا فى القرن الحاضر ، وتجربة مصطفى كمال فى تركيا ، وتجارب سائر الدعاة من أمثاله فى سائر البلاد

فمحاربة السلطة بالقوة غير محاربة الفكرة بالقوة . . ولا بد من التمييز بين العاملين ، لأنهما جد مختلفين

والحقيقة الثالثة ان الاسلام لم يحتكم الى السيف قط الا فى الأحوال التى أجمعت شرائع الانسان على تحكيم السيف فيها . . فالدولة التى يشور عليها من يخالفها بين ظهرانيها ، ماذا تصنع ان لم تحتكم الى السلاح ؟

وهذا ما قضى به القرآن الكريم حيث جاء فيه : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » والدولة التى يحمل أناس من أبنائها السلاح على أناس آخرين من أبنائها ، ماذا تفرض الخلاف بينهم ان لم تفرضه بقوة السلطان ؟

وهذا ما قضى به القرآن الكريم أيضا حيث جاء فيه : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احدهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تنفى الى أمر الله . فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين »

وفى كلتا الحالتين يكون السلاح آخر الحيل ، وتكون نهاية الظلم والاعتداء نهاية الاعتماد على السلاح . . ثم يأتى الصلح والتوفيق أو

يأتى التفاهم بالرضى والاختيار

والحقيقة الرابعة ، ان الأديان الكتابية بينها فروق موضوعية لا بد من ملاحظتها عند البحث فى هذا الموضوع . .

فاليهودية أو الاسرائيلية كانت كما يدل عليها اسمها أشبه بالعصية المحصورة فى أبناء اسرائيل منها بالدعوة العامة لجميع الناس . . فكان أبناؤهم يكرهون أن يشاركهم غيرهم فيها كما يكره أصحاب النسب الواحد أن يشاركهم غيرهم فيه ، وكانوا من أجل هذا لا يحركون ألسنتهم - فضلا عن امتشاق الحسام - لتعميم الدين اليهودى وادخال الأمم الأجنبية فيه ، ولا وجه اذن للمقارنة بين اليهودية والاسلام فى هذا الاعتبار . .

أما المسيحية فهى قد عنيت « أولا » بالآداب والأخلاق ، ولم تكن مثل هذه العناية بالمعاملات ونظام الحكومة وقد ظهرت « ثانيا » فى بلاد للمعاملات والنظم الحكومية فيها قوانين تحميها كما يحميها الكهان المعززون بالسلطان ، فهى قد عدلت عن فرض المعاملات والדساتير لهذه الضرورة ، لا لأن المعاملات والדساتير ليست من شأن الدين . .

وقد ظهرت « ثالثا » فى وطن تحكمه دولة أجنبية ذات حول وطول ، وليس للوطن الذى ظهرت فيه طاقة بمصادمة تلك الدولة فى ميدان القتال أما الاسلام فقد ظهر فى وطن لا سيطرة للأجنى عليه ، وكان ظهوره لاصلاح المعيشة وتقويم المعاملات وتقرير الأمن والنظام . . والا فلا معنى لظهوره بين العرب ثم فيما وراء الحدود العربية

فاذا اختلفت نشأته ونشأة المسيحية ، فذلك اختلاف موضعى طبيعى لا مناص منه ولا اختيار لأحد من الخلق فيه وآية ذلك ان المسيحية صنعت صنع الاسلام حين قامت بين أهلها الدول والجيوش ، وحين استقلت شعوبها عن الأجانب المتغلبيين . .

وأربت حروب المذاهب فيما بين أبنائها على حروب صدر الاسلام مجتمعات

والحقيقة الخامسة ، ان الاسلام شرع الجهاد ، وان النبي عليه السلام قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله » وجاء في القرآن الكريم : « فقاتل في سبيل الله لا تكلف الا نفسك وحرض المؤمنين ، عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا » . .

وحدث فعلا ان المسلمين فتحوا بلادا غير بلاد العرب ، ولم يفتحوها ولم يكن يتأتى لهم فتحها بغير السلاح الا ان هذه الفتوح تأخرت في الزمن ، ولم يتم شيء منها قبل استقرار الدولة للاسلام . فلا يمكن أن يقال انها كانت وسيلة الاسلام للظهور ، وقد ظهر الاسلام قبلها وتمكن في أرضه واجتمعت له جنود تؤمن به وتقدم على الموت في سبيله . . ثم ان هذه الفتوح كانت تفرضها سلامة الدولة ان لم تفرضها الدعوة الى دينها . .

فلو قدرنا ان الخليفة المسلم لم يكن صاحب دين ينشره ويدعو اليه ، لوجب في ذلك العهد أن يأمن على بلاده من الفوضى التي شاعت في أرض فارس وفي أرض الروم . . ووجب أن يكف الشر الذي يوشك أن ينقض عليه من كليهما ، وأن يمنع عدوى الفساد أن تسرى منهما الى حماه . . هذا الى أن الاسلام قد أجاز للأمم أن تبقى على دينها مع أداء الجزية والطاعة للحكومة القائمة ، وهو أهون ما يطلبه غالب من مغلوب

والحقيقة السادسة ، ان المقابلة بين ما كانت عليه شعوب العالم يومئذ قبل اسلامها وبعد اسلامها تدل على ان جانب الاسلام هو جانب الاقناع لمن أراد الاقناع . .

فقد استقر السلام بين تلك الشعوب ولم يكن له قرار ، وانتظمت
بينها العلاقات ولم يكن لها نظام.. واطمأن الناس على أرواحهم وأرزاقهم
وأعراضهم ، وكانت جميعها مباحة لكل غاصب من ذوى الأمر والجاه ..
فاذا قيل ان المدعويين الى الاسلام لم يقتنعوا بفضله سابقين ، فلا ينفي
هذا القول انهم اقتنعوا به متأخرين . . ان الاسلام مقنع لمن يختار
ويحسن الاختيار ، الى جانب قدرته على اكراه من يركب رأسه ويقف
في طريق الاصلاح . .

ومن نظر الى الاقتناع العقلي ، تساوى لديه من يستميلك الى العقيدة
بتوزيع الدواء والطعام ، أو بتربية الأطفال عليها وهم لا يعقلون ، ومن
يستميلك اليها بالخوف من الحاكم . . على فرض ان خوف الحاكم كان
ذريعة من ذرائع نشر الاسلام

فالشاهد الذى تطعمه وتكسوه ليقول قولك فى احدى القضايا ،
كالشاهد الذى ينظر الى السوط فى يديك فيقول ذلك القول . . كلاهما
لا يأخذ باقناع الدليل ولا بنفاذ الحجة ، ولا يدفع عن عقيدة دفع العارف
البصير . .

وصفوة ما تقدم ان الاسلام لم يوجب القتال الا حيث أوجبه جميع
الشرائع وسوغته جميع الحقوق ، وان الذين خاطبهم بالسيف قد
خاطبتهم الأديان الأخرى بالسيف كذلك . . الا أن يحال بينها وبين
انتضاها ، أو تبطل عندها الحاجة الى دعوة الغرباء الى أديانها . . وان
الاسلام عقيدة ونظام ، وهو من حيث النظام شأنه كشأن كل نظام فى
أخذ الناس بالطاعة ومنعهم أن يخرجوا عليه . .

القائد البصير

لم يكن الاسلام اذن دين قتال ، ولم يكن النبى رجلا مقاتلا يطلب
الحرب للحرب أو يطلبها وله مندوحة عنها ، ولكنه مع هذا كان نعم
القائد البصير اذا وجبت الحرب ودعته اليها المصلحة اللازمة . . يعلم من
فنونها بالالهام ما لم يعلمه غيره بالدرس والمرافة ، ويصيب فى اختيار

وفته وتسير جيشه وترسيم خطته اصابة التوفيق واصابة الحساب واصابة الاستشارة . وقد يكون الأخذ بالمشورة الصالحة آية من آيات حسن القيادة تقتزن بآية الابتكار والانشاء ، لأن القيادة الحسنة هي القيادة التي تستفيد من خبرة الخير كما تستفيد من شجاعة الشجاع ، وهي التي تجند كل ما بين يديها من قوى الآراء والقلوب والأجسام وقد كانت غزوة بدر هي التجربة الأولى للنبي عليه السلام في ادارة المعارك الكبيرة ، فلم يألف أن يستمع فيها الى مشورة الحباب بن المنذر حين اقترح عليه الانتقال الى غير المكان الذي نزل فيه ، ثم وعى من تجربة واحدة ما قل أن يعيه القادة المنقطعون للحرب من تجارب شتى .. فلو تتبع حروبه عليه السلام ناقد عسكري من أساطين فن الحرب في العصر الحديث ليقترح وراء خطته مقترحا أو ينبه الى خطأ ، لأعياء التعديل ونختار أبرع القادة المحدثين وهو نابليون بونابرت على أسلوب حرب الحركة الذي كان هو الأسلوب الغالب في العصور الماضية ، والذي ظهر في الحرب العالمية الحاضرة انه لايزال الخطوة الأخيرة في جميع الحروب ، على الرغم من الحصون والسدود . . لأن اختيار نابليون بونابرت يبين لنا السبق في خطط النبي العسكرية ، بالمضاهاة بينها وبين خطط هذا القائد العظيم . .

١ - فتابليون كان يوجه همه الأول الى القضاء على قوة العدو العسكرية بأسرع ما يستطيع ، فلم يكن يعنيه ضرب المدن ولا اقتحام المواقع .. وانما كانت عنايته الكبرى منصرفة الى مبادرة الجيش الذي يعتمد عليه العدو بهجمة سريعة يفاجئه بها أكثر الأحيان ، وهو على يقين ان الفوز في هذه الهجمة يعنيه عن المحاولات التي يلجأ اليها جلة القواد وعنده أنه يستفيد بخطته تلك ثلاثة أمور .. أن يختار الموقع الملائم له ، وأن يختار الفرصة ، وأن يعاجل العدو قبل تمام استعدادده وكان النبي عليه السلام سابقا الى تلك الخطط في جميع تفصيلاتها فكان - كما قدمنا - لا يبدأ أحدا بالعدوان ، ولكنه اذا علم بعزم

الأعداء على قتاله لم يمهلم حتى يهاجموه جهد ما تواتيه الأحوال . بل ربما وصل اليه الخبر كما حدث في غزوة تبوك والناس مجدبون والقيظ ملتهب والشدة بالغة . . فلا يثنيه ذلك عن الحطة التي تعودها ، ولا يكف عن التأهب السريع وعن حض المسلمين على جمع الأموال وجمع الرجال ، ولا يبالي ما أرجف به المنافقون الذين توقعوا الهزيمة للجيش المحمدي فلم يحدث ما توقعوه

وكان عليه السلام يعمد الى القوة العسكرية حيث أصابها ، فيقضى على عزائم أعدائه بالقضاء عليها .. ولا يضيع الوقت في انتظار ما يختاره أولئك الأعداء ، واضعاف أنصاره بتركه زمام الحركة في أيدي الهاجيين ، الا أن يكون الهجوم وبالا على المقدمين عليه ، كما حدث في غزوة الخندق ٢ - وكان نابليون يقول ان نسبة القوة المعنوية الى الكثرة العددية كنسبة ثلاثة الى واحد . .

والنبي عليه السلام كان عظيم الاعتماد على هذه القوة المعنوية التي هي في الحقيقة قوة الايمان وربما بلغت نسبة هذه القوة الى الكثرة العددية كنسبه خمسة الى واحد في بعض المعارك ، مع رجحان الفئة الكثيرة في السلاح والركاب الى جانب رجحانهم في عدد الجنود . . ومعجزة الايمان هنا أعظم جدا من أكبر مزية بلغها نابليون بفضل ما أودع نفوس رجاله من صبر وعزيمة فالنبي عليه السلام كان يحارب عربا بعرب ، وقرشين بقرشين ، وقبائل من السلالة العربية بقبائل من صميم تلك السلالة . . فلا يقال هنا ان الفضل لقوم على قوم في المزايا الجسدية أو المزايا النفسية كما يمكن أن يقال هذا في جيوش نابليون ، وكل فضل هنا فهو فضل العقيدة والايمان

٣ - وقد كان نابليون مع اهتمامه بالقضاء على القوة العسكرية لا يغفل القضاء على القوة المالية أو التجارية التي يتناولها اقتداره . . فكان يحارب الانجليز بمنع تجارتهم وسفنتهم أن تصل الى القارة الأوربية ، وتحويل المعاملات عن طريق انجلترا الى طريق فرنسا . .

وهكذا كان النبي عليه السلام يحارب قريشا في تجارتها ، ويعيث السرايا في أثر القوافل كلما سمع بقافلة منها وأنكر بعض المتعصمين من أوروبا هذه السرايا وسموها « قطعا للطريق » ، وهي هي سنة المصادرة بعينها التي أقرها « القانون الدولي » وعمل بها قادة الجيوش في جميع العصور ، ورأينا تطبيقها في الحرب الحاضرة والحرب الماضية ، رشيدا تارة وغاليا في الحمق والشطط تارة أخرى . .

٤ - وقد أسلفنا ان نابليون كان يوجه همه الى الجيش ، ولا يقتحم المدن أو يشغل باله بمحاصرتها لغير ضرورة عاجلة ونرجع الى غزوات النبي عليه السلام فلا نرى أنه حاصر محلة ، الا أن يكون الحصار هو الوسيلة الوحيدة العاجلة لمبادرة القوة التي عسى أن تخرج منها قبل استعدادها ، أو قبل نجاحها في الغدر والوقعة ، كما حدث في حصار بنى قريظة وبنى قينقاع ، فكان الحصار هنا كمبادرة الجيش بالهجوم في الميدان المختار بغير كبير اختلاف

٥ - وكان نابليون معتدا برأيه في الفنون العسكرية ولاسيما الخطط الحربية ، ولكنه كان مع هذا الاعتداد الشديد لا يستغنى عن مشاورة صحبه في مجلس الحرب الأعلى قبل ابتداء الزحف أو قبل العزم على القتال ومحمد عليه السلام كان على رجاحة رأيه يستشير صحبه في خطط القتال وحيل الدفاع ويقبل مشورتهم أحسن قبول ، ومن ذلك ما صنعه بيدر - وألعلنا اليه آثقا - حين أشار عليه الحباب بن المنذر بالانتقال الى مكان غير الذي نزلوا فيه أول الأمر ثم بتعوير الآبار وبناء حوض للشرب لا يصل اليه الأعداء ، وقيل في روايات كثيرة انه عمل بمشورة سلمان الفارسي في حفر الخندق عند المنفذ الذي خيف أن يهجم منه المشركون على المدينة . فحفر الخندق وعمل النبي بيديه الكريمتين في حفره . .

وقبول النبي مشورة سلمان عمل من أعمال القيادة الرشيدة ، وسنة من سنن القواد الكبار ، غير اننا نعتقد انه عليه السلام كان خليقا أن

يشير بحفر الخندق لو لم يكن سلمان الفارسي بين أهل المدينة في ابان
الهجمة عليها . . لأنه عليه السلام كان شديد الالتفات الى سد الثغور
وحماية الظهور في جميع وقعاته . وفي وقعة أحد جعل الجبل الى ظهره
وأقام على الشعب الذي يخشى منه النفاذ والالتفاف خمسين راميا
مشددا عليهم في التزام موقفهم ، قائلا لهم : « احموا ظهورنا فانا نخاف
أن يجيئوا من ورائنا والزموا مكانكم لا تبرحوا منه ، وان رأيتمونا
نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم ، وان رأيتمونا نقتل
فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا ، وانما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل فان
الحيل لا تقدم على النبل »

والذي يفعل هذا في شعب جبل لا يفوته أن يفعل مثله في ثغرة
مدينة ، ولكن المشاورة هنا هي المقصود بالمضاهاة بين ما سبق اليه النبي
وما نبغ فيه نابليون . فهذه خصلة معهودة في كبار القواد لا تقدح فيما
عرفوا به من قدرة على وضع الخطط وابتكار الأساليب

٦ - ولم يعرف عن قائد حديث انه كان يعنى بالاستطلاع
والاستدلال عناية نابليون . .

وكانت فراسة النبي في ذلك مضرب الأمثال ، فلما رأى أصحابه
يضربون العبددين المستقيين من ماء بدر ، لأنهما يذكران قريشا ولا
يذكران أبا سفيان ، علم بفطنته الصادقة انهما يقولان الحق ولا يقصدان
المراء ، وسأل عن عدد القوم فلما لم يعرفا العدد سأل عن عدد الجزور
التي ينحرونها كل يوم ، فعرف قوة الجيش بمعرفته مقدار الطعام الذي
يحتاج اليه . وكان صلوات الله عليه انما يعول في استطلاع أخبار كل
مكان على أهله وأقرب الناس الى العلم بفجاجة ودروبه ، ويعقد ما
يسمى اليوم مجلس الحرب قبل أن يبدأ بالقتال فيسمع من كل فيما هو
خير به من فنون حرب أو دلائل استطلاع

٧ - واشتهر عن نابليون انه كان شديد الحذر من الألسنة
والأقلام ، وكان يقول انه يخشى من أربعة أقلام ما ليس يخشاه من
عشرة آلاف حسام . .

والنبي عليه السلام كان أعرف الناس بفعل الدعوة في كسب المعارك وتغليب المقاصد ، فكان يبلغه عن بعض أفراد أنهم يخفرون الذمة التي عاهدوا عليها ويشهرون به وبالاسلام أو يثيرون العشائر لقتاله ويقذعون في هجوه وهجو دينه ، فينفذ اليهم من يحاربهم في حصونهم أو يتكفل له بالخلاص منهم . .

وعاب هذا بعض المغرضين من الكتاب الأوربيين وشبهوه بما عيب على نابليون من اختطاف الدوق دافجان وما قيل عن محاولته أن يختطف الشاعر الانجليزى كولردج الذى كان يخوض في ذمّه ويستهوئ الأسماع بسحر حديثه . .

الا أن الفارق عظيم بين الحالتين ، لأن حروب الاسلام انما هى حروب دعوة أو حروب عقيدة ، وانما هى في مصدرها وغايتها كفاح بين التوحيد والشرك أو بين الالهية والوثنية ، وليس وقوف الجيش أمام الجيش الا سبيلا من سبل الصراع في هذا الميدان

فليس في حالة سلم مع النبي اذن من يحاربه في صميم الدعوة الدينية ، ويقصده بالطنن في لباب رسالته الاسلامية ، وان لم ينفذ الناس لقتاله ولم يحرضهم على النكث بعهد ، وانما هو مقاتل في الميدان الأسيل ينتظر من أعدائه ما ينتظره المقاتل من المقاتلين ، ولا سيما اذا كانت الحرب قائمة دائمة لا تنقطع فترة الا ريثما تعود

أما نابليون فالحرب بينه وبين أعدائه حرب جيوش وسلاح ، فلا يجوز له أن يقتل أحدا لا يحمل السلاح في وجهه أو لا يدينه القانون بما يستوجب ازهاق حياته . وما نهض نابليون لنشر دين أو تنفيذ دين ، ولا كان للرسول الاسلامى من غرض لو جاز له أن يقبل المسالمة ممن يحاربونه في دينه وان لم يشهروا السيف في وجهه ، فان الضرب بالسيف لأهون من المقتل الذى يضربون فيه

تلك مقابلة مجملة بين الخطط والعادات التى سبق اليها محمد وجرى

عليها نابليون بعد مئات السنين ، ومن الواجب أن نحكم على قيمة القيادة بقيمة الفكرة أو الخطة قبل أن نحكم عليها بضخامة الجيوش وأنواع السلاح . .

لم يتخذ محمد الحرب صناعة ، ولا عمد اليها - كما أسلفنا - الا لدفع غارة واتقاء عداوة ، فاذا كان مع هذا يتقن منها ما يتولاه مدفوعا اليه ، فله فضل السبق على جبار الحروب الحديثة الذى تعلمها وعاش لها ولم ينقطع عنها منذ ترعرع الى أن سكن فى منفاه ، ولم يبلغ من نتائجه بعض ما بلغ القائد الأسمى بين رمال الصحراء

ولقد كانت خبرة النبى ببعوث الاستطلاع كخبرته ببعوث القتال ، فكانت طريقتة فى اختيار المكان والغرض أو فى اختيار القائد وتزويده بالوصايا والأتباع مثالا يحتذى فى جميع العصور ، ولا سيما العصر الحديث الذى كثرت فيه ذرائع التخبيطة والمراوغة وذرائع الكشف والدعوة ، فكثرت فيه - من ثم - حاجة المقاتلين الى استقصاء أحوال الأعداء . .

ففى الحروب الحديثة يتردد ذكر الأوامر المختومة التى تصدر الى أفراد السرايا والسفن ليفتحوها عند مدينة معلومة ، أو بعد مسيرة ساعات ، أو فى عرض البحر على درجة معينة من درجات الطول والعرض ، الى أمثال ذلك من العلامات التى تعين بها الجهات

ويتفق فى أمثال هذه البعوث أن يكون القائد وحده مطلعا على سر البعثة ورجاله جميعا يجهلونه ولا يعرفون أهم خارجون فى غزوة أم فى مناورة استطلاع ، الى ما قبل الحركة المقصودة بساعات معدودات ، وهنالك تصدر الأوامر التى لا بد من صدورهما للتهيؤ والتنفيذ ، ولا خوف من كشفها فى تلك الساعات لصعوبة الاستعداد الذى يقابلها به العدو اذا انكشف له قبل تنفيذها بفترة وجيزة ، ولا سيما اذا كانت الحركة من حركات البحار . .

هذه الأوامر المختومة ليست بحدثة . .

فقد عرفت فى المأثورات النبوية على أتم أصولها التى تلاحظ فى

أمثالها ، ومن ذلك انه عليه السلام بعث عبد الله بن جحش ومعه كتاب أمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ، وفجواه أن « سر حتى تأتي بطن نخلة على اسم الله وبركاته ، لا تكرهن أحدا من أصحابك على المسير معك ، وامض فيمن تبعك حتى تأتي بطن نخلة فترصد بها غير قرش وتعلم لنا من أخبارهم »

وهذا نموذج من الأوامر المختومة جامع لكل ما يلاحظ فيها حديثا وقدما وعند بداءة الدعوات على التخصيص

فأولها كتمان الخبر عن يحيطون بالنبي عليه السلام ، فلا يبعد أن يكون منهم مَنْ هو مدخول النية عينا عليه وعلى أصحابه من قبل قریش ، ولا يبعد أن يكون منهم من يبوح بالخبر ولا يريد به السوء أو يدرك ما في البوح به من الخطر المحذور ، ولا يبعد أن يكون منهم الضعفاء والمخالفون وأن الاستعانة على قضاء الحاجات بالكتمان لسنة حكيمة من سنن النبي عليه السلام في جميع المطالب ، وهي في حروب الدعوات على التخصيص أقمن باتباع .. ولهذا كان إذا أراد غزوة ورى بغيرها على النحو الذي يتبعه قادة الحروب الى الآن

ومما لوحظ في كتاب النبي لعبد الله بن جحش كتمان الخبر عن أصحابه ثم وصايته ألا يكره أحدا منهم على المسير معه بعد معرفته بوجهته ، وهذا هو أهم الملاحظات في هذا المقام

فقد يحارب الرجل وهو مكره مهدد بالموت الذي يتقيه اذ يفر من القتال ، ولكنه لا يستطلع وهو مكره ثم يفيد استطلاع من أرسلوه ، بل لعله ينقلب الى النقيض فيحرف الأخبار عمدا ، أو يتلقاها على غير اكتراث ، أو يطلع الأعداء على أسرار أصحابه وهم غافلون عنه

ولهذا تعاني الدول أكبر العناء في مراقبة الجواسيس بالجواسيس وفي امتحان كل خبر بالمراجعة بعد المراجعة والمناقضة بعد المناقضة ، حتى تلمئن الى سخته قبل الاعتماد عليه

وفي الحرب الحاضرة تجربة جديدة لهذا النوع من المستطلعين أو الرواد المتقدمين . .

فقد عرف أن هتلر يعتمد على أفراد من جنده يهبطون من الطائرات وراء الصفوف ، فيتسللون الى مراكز المواصلات ويعيشون بين القرى المعزولة ، فيشيعون فيها الرعب والخيرة ويوهمون من يراهم أن الجيش المغير كله على مقربة منهم فلا جدوى لهم من الاستغاثة أو المقاومة ، ويحصل معظم هؤلاء الرواد المتقدمين أجهزة للمخاطبة يستعينون بها على الاتصال برؤسائهم من بعيد

قيل في الاعجاب بهذه الخطة الهتلرية كثير ، وقيل في انتقادها والتنبيه الى خطرها كثير . .

فمن دواعي الاعجاب بها أنها أفادت في قطع المواصلات واشاعة الذعر وتضليل المدافعين ، وانها شيء جديد في شكله وان لم يكن جديدا في غايته ومرماه . .

ومن أسباب انتقادها ان كل فائدة فيها تتوقف على العقيدة وحسن النية . فهي تستلزم أن يكون الرائد غيورا على عمله متحمسا لانجازه رقبيا على نفسه وهو معزل عن رقبائه ، فليس أيسر له اذا هو انقرد وأعوزته الرغبة في انجاز عمله من أن يستأسر في أول مكان يصل اليه من بلاد الأعداء ، طلبا للسلامة ، ولا عقاب عليه الى نهاية القتال . ثم يتعلل بما شاء من المعاذير ان وجد بعد ذلك من يحاسبه ويعاقبه ، وهيهات ان تستجمع الأدلة عليه في أمثال هذه الفوضى بين معسكرين أو عدة معسكرات .

فالخطة الهتلرية فاشلة لا محالة ان لم ينفذها مريدون متعصبون غير مكرهين ولا متشككين فيما هو موكول اليهم ، وهي لهذا أخرى أن تحسب من وحى اخوان الطريق والهام العقائد لا من النظام الذي يدرب عليه كل جيش ويصلح لجميع الجنود ، فلولا ان النازيين قضوا قبل الحرب الحاضرة زهاء عشر سنين ينفخون في نفوس الناشئة جذوة البغضاء ويلهبونهم بحماسة العقيدة ويخلقون فيهم اللدد الذي يغنى عن الرقابة ساعة التنفيذ لحطت الخطة كل الحبوط وانقلبت على النازيين شر انقلاب ..

وها هنا تتجلى حكمة النبی علیه السلام فی اشتراط الرغبة والطواعية واجتناب القسر والاکراه

فهذه « أولا » بعثة منفردة لا سبيل الى الاکراه الفعال بين رجالها اذا ارید . .

وهی « ثانيا » بعثة استطلاع لا يغنی فيها عمل الكاره المقسور . وألزم ما يلزم العامل فيها لئانه وصدق نيته وحسن مودته لمن أرسلوه ، فان أعوزته هذه الصفة فقد أعوزه كل شيء

أما غرض البعثة کلها وهو الاستطلاع فقد كان النبی علیه السلام علیما بزياده معناها به غاية العناية ، يحسب العدو المجهول كالعدو المستتر بأسوار الحصون ، فی حمى من الجهل به قد يحول دون الاستعداد له بالعدة الضرورية فی الوقت الضروري ، ويحول من ثم دون الانتصار علیه . .

ونحن نكتب هذه الفصول والحرب الروسية تذكرنا كيف أصيب نابليون فی هذا الميدان حين أصيب فی وسائل الاستطلاع ، ثم تذكرنا كيف تكررت هذه الغلطة بعينها على نوع من المشابهة بين غزوة نابليون فی روسيا أمس وغزوة هتلر لتلك البلاد اليوم فمن أسباب هزيمة نابليون اهماله النصائح التي سمعها فی مجلس الحرب من بعض الثقات قبل التوغل فی الحرب الروسية ، لاعتقاده خطأ ان القيصر سيطلب صلحه بعد أسابيع

ومن أسباب تلك الهزيمة ان الروس كانوا يتراجعون أمامه تحت جنح الظلام ويخلون المدن والطرق حتى لا يرى فيها دياراً يسأله عن مكان الجيش المتراجع أو يلتقط من خلال أجوبته ما يعينه على الاستطلاع الذي كان شديد التعويل علیه

أما هتلر فقد أتى من قبل هذين النقصين كما أتى من قبله من هو أعظم منه وأولى بالتحرز والافاة

فقد أشهر انه كان فی مجلس الحرب على خلاف مع قواده الثقات الذين علموا من شأن الروس ما ليس له به علم . .

واشتهر أنه أخطأ في استطلاع أخبار القوم اذ خيّل اليه أن الشعب الروسى يتحفز للثورة ويترقّب الاغارة عليه لنصرة المغير كائنا من كان ، ولو جاءت الغارة من عنصر معاد للعنصر السلافى ، وهو عنصر الجرمان ومحمد عليه السلام لم يتعلم ما تعلمه هتلر ونابليون ، ولكنه لم يخطئ قط مثل هذا الخطأ فى جميع غزواته وكشوفه ، ولعلنا نفهم - كلما درسنا زمانه الحافل بالعبر والأمثلة الباقية - ان دراسته ضرب من دراسة العصر الحديث والقادة المحدثين

وينبغى ألا تمر بنا سرية عبد الله بن جحش دون أن نستوفى كل ما فيها من الشؤون العسكرية . لأنها تشتمل على أكثر من جانب واحد من جوانب السنّة النبوية والتشريع الاسلامى فى هذه الشؤون فهى سرية استطلاع كما علمنا لم تؤمر بقتال ولم يؤذن لها فيه لكن حدث بعد فض الكتاب أن اثنين من رجال السرية ذهبوا يطلبان بعيرا لهما ضل فأسرتهما قريش ، وهما سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان . .

ثم نزل الركب بنخلة فمرت بهم غير قريش تحمل تجارة عليها عمرو ابن الحضرمى ، آخر شهر رجب . وكانت قريش قد حجزت أموال أناس من المسلمين منهم بعض من فى السرية . فتشاوروا فى قتال أهل العير ، وحاروا فيما يصنعون : ان تركوا العير تمضى ليلتها امتنعت بالحرم وفاتهم تعويض ما حجزته قريش فى هذه الفرصة السانحة ، وان قاتلوا أهلها قتلوههم فى شهر حرام ، لكنهم اندفعوا الى القتال فأصابوا من أصابوه ورمى أحدهم عمرو بن الحضرمى بسهم فأرداه ، وأسروا رجلين وقفل عبد الله بن جحش ومن معه الى المدينة وقد حجزوا للنبي عليه السلام الخمس من غنيمتهم ، فأباه عليه السلام وقال لهم : ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام ، وعنفهم اخوانهم لمخالفة النبى ، وساءت لقياهم بين أهل المدينة . .

وراحت قريش تثير نائرة العرب ، واندس جماعة من اليهود يحضّاون نار الفتنة ، وتنادوا أن محمدا وأصحابه قد أباحوا الدماء والأموال فى

الشهر الحرام ، وقال المسلمون في مكة ، بل كان ذلك في شعبان ، ثم نزلت الآيات : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا »

فقبض النبي العير والأسيرين ، وطلبت قريش فداءهما فقال عليه السلام : « لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا ، فانا نخشاكم عليهما ، فان تقتلوهما تقتل صاحبيكم »

هذه قصة السرية وما وقع فيها خلافا لأمر النبي وما نجم عنها من تشريع .

فاذا نحن كتبناها باصطلاح العصر الحديث فكيف نكتبها ؟.. وكيف نفهمها ؟ . . .

هى لا خلاف حادثة طلائع أو حادثة حدود :

ترسل احدى الدول طليعة من جندها الى حدودها للكشف أو للحراسة ، فيقع الاشتباك بينها وبين طليعة فى بلاد دولة أخرى على غير علم من الحكومتين . .

فالذى يحدث فى هذه الحالة أن تنظر الحكومة الأخرى الى المسألة كأنها مسألة فردية عرضية لا تستوجب القتال . وتكتفى بما ينال المسؤولين على أيدي حكومتهم من جزاء أو تأنيب ، وينحسم النزاع

هذا أو تصر الحكومة الأخرى على طلب الترضية . فان قبلتها الحكومة المطلوبة فالنزاع منحسم ، وان لم تقبلها فالمفاوضة والمساومة أو امتشاق الحسام . .

ذلك اذا نظر الفريقان الى المسألة كأنها مسألة فردية عرضية ولم يشأ أحدهما أو كلاهما أن يضعها موضع التشريع العام لتقرير الحكم الذى تجريان عليه فيها وفى أمثالها ، أو تقرير ما يعترفان به وما ينكرانه من الشرائط والأصول . .

وقريش لم تكتف بالنظر الى حادثة السرية كأنها حادثة فردية عرضية ،

ولم تعلن الحرب توا لأنها تبينت النية لاعلانها بعد حين .. ولكنها أثارت مسألة تشريع عام في قتال الشهر الحرام .. فوجب أن ينصّ الاسلام على هذا التشريع صريحا لا لبس فيه ، وهذا الذى كان ليست المسألة ان عبد الله بن جحش قد خالف أمر النبي فهذا أمر مفروغ منه ولا محل للبحث فيه

انما المسألة هى : ما الحكم بعد الآن في قتال الأشهر الحرم ؟ .. وماذا يبلغ من حق المشركين في الاحتماء بحرمة هذه الأشهر اذا كانوا لا يرعون للمسلمين حرمة ولا يزالون يقاتلونهم ويردونهم عن دينهم ما استطاعوا ؟ وما الجواب على تشهير قريش واحتجاجها بالحرمت التى لا ترعاها ؟ .. هذا هو الحكم الذى وجب أن يعلنه الاسلام ، وقد أعلنه على الوجه الذى دانت به الشرائع الحديثة في علاقاتها الحربية ولا تزال تدين به حتى اليوم . فهناك حرمت دولية اذا خالفتها احدى الدول بطل احتماؤها بها وأحل لغيرها أن يخالفها كما خالفتها أو يتخذ من القصاص ما يردع الشر ويعوض الخسارة ، والا كانت الحرمت درعا للمعتدين ولم تكن مانعا لهم وسدا . في وجوههم كما أريد بها أن تكون

واليوم تنقطع العلاقة بين دولتين في حالة حرب أو جفاء فيجوز لكلتيهما أن تحجز ما عندها من أموال الدولة الأخرى وأن تأسر الذين في بلادها من رعاياها ، ويجوز لها أن تجعل تلك الأموال ضمانا لسداد المغارم التى تنزل بها وبأبنائها ، وأن تتخذ من المعتقلين رهائن تعاملهم بمثل ما يعامل به المعتقلون من أبنائها ، في سجون الدولة الأخرى فالذى حدث بعد سرية عبد الله بن جحش هو هذا بعينه ، وهو حكم القانون الدولى المتفق عليه : أسيران بأسيرين ، وأموال الغير بالأموال التى حجزتها قريش للمسلمين . ولا محل لضجة الناقدين من المبشرين والمتعصبين في تعقيهم على هذا الحادث المألوف أو على حكم النبي والاسلام فيه ، فان أصحاب هذه الضجة يعمون عما حولهم وينسون أن

المعاملات الدولية في زمانهم لم تفصل في أمثال هذه الحوادث بحكم أنفع ولا أعدل من الحكم الذي ارتضاه النبي ونزل به القرآن ، وهو حكم مساواة يدين به المسلمون كما يدافعون ، ويحار المعتسف لو شاء أن يستبدل به ما هو خير منه وأدنى الى النفاذ والاتباع

وكان هذا القائد الملهم الحبير بتجنيد بعوث الحرب وبعوث الاستطلاع خيرا كذلك بتجنيد كل قوة في يديه متى وجب القتال ، ان قوة رأي وان قوة لسان وان قوة نفوذ ، فما نعرف أن أحدا وجه قوة الدعوة نوجيها أسد ولا أنفع في بلوغ الغاية من توجيهه عليه السلام

غرضان

والدعوة في الحرب لها - كما لا يخفى - غرضان أصيلان بين أغراضها العديدة . . أحدهما اقناع خصمك والناس بحقك ، وهذا قد تكفل به القرآن والحديث ودعاة الاسلام جميعا ، فالدين كله دعوة من هذا القبيل . .

وثانيهما ، اضعافه عن قتالك باضعاف عزمه وايقاع الشتات بين صفوفه . . وربما بلغ النبي برجل واحد في هذا الغرض ما لم تبلغه الدول بالفرق المنظمة ، وبالمكاتب والدواوين ، وبدر الأموال

قال ابن اسحق ما تنقله ببعض تصرف : « ان نعيم بن مسعود العطفاني أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، اني قد أسلمت ؛ وان قومي لم يعلموا باسلامي . . فمرني بما شئت . . فقال رسول الله : انما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا ان استطعت فان الحرب خدعة . . . أي ادخل بين القوم حتى يخذل بعضهم بعضا فلا يقوموا لنا ولا يستمروا على حربنا

» فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة - وكان لهم ندبا في الجاهلية - فقال : يا بني قريظة ، قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم . .

قالوا : صدقت . . لست عندنا بمتهم

« فقال لهم : ان قريشا و غطفان ليسوا كاتم . . البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونسأؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه الى غيره ، وان قريشا و غطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتهم عليه . . وبلدهم وأموالهم ونسأؤهم بغيره . . فليسوا كاتم ! . . فان رأوا نهزة أصابوها وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به ان خلا بكم . فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشrafهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا محمدا حتى تاجزوه . . »
« فقالوا له : لقد أشرت بالرأى

« ثم خرج حتى أتى قريشا فقال لأبى سفيان بن حرب ومن معه من قريش : قد عرفتم ودى لكم وفراقى محمدا . وانه قد بلغنى أمر قد رأيت علي حقا أن أبلغكموه نصحا لكم . . فاكتموا عني ! »
« قالوا : تفعل

« قال : تعلمون ان معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا اليه : انا قد ندمنا على ما فعلنا . فهل يرضيك أن تأخذ لك من القيلتين قريش و غطفان رجلا من أشrafهم ، فنعطيك فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم ؟ .. فأرسل اليهم أن نعم . . فان بعث اليكم يهود يلتمسون رهنا من رجالكم ، فلا تدفعوا اليهم منكم رجلا واحدا

« ثم خرج حتى أتى غطفان فقال : يا معشر غطفان ، انكم أهلى وعشيرتى وأحب الناس إلي ولا أراكم تتهموننى . قالوا : صدقت ما أنت عندنا بحتهم . . »

« قال : فاكتموا عني

« قالوا : ففعل ، فما أمرك ؟ . . »

« فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم

« فلما كافت ليلة السبت من شوال سنة خمس ، أرسل أبو سفيان

ابن حرب ورؤوس غطفان الى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان ، فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقام ، وقد هلك الخف والحافر . . فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه . فأرسلوا اليهم . ان اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا ، ولسنا مع ذلك بمقاتلى محمد حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا ، فانا نخشى ان ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشملوا الى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلدنا ولا طاقة لنا بذلك منه » فلما رجعت اليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان : والله ان الذى حدثكم نعيم بن مسعود لحق ، فأرسلوا الى بنى قريظة : إنا والله لا ندفع اليكم رجلا واحدا من رجالنا فان كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا . .

« وقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل اليهم بهذا : ان الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق . ما يريد القوم إلا أن تقاتلوا ، فان رأوا فرصة انتهزوها ، وان كان غير ذلك انشملوا الى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل فى بلدكم . .

» . . . وخذل الله بينهم وبعث الله عليهم الريح فى ليل شاتية باردة شديدة البرد ، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيهم . . ثم رحلت قريش وغطفان الى بلادها ، وانصرف رسول الله عن الخندق راجعا إلى المدينة « هذه دعوة نعيم بن مسعود . .

وما نجحت دعوة قط برجل واحد نجاح هذا الرجل ، ولا انتهزت فرصة العناصر الطبيعية والعناصر التى تتألف منها جماعة الأعداء كما انتهزت هذه الفرصة . . فكل كلمة قيلت لطائفة من طوائفهم فهى الكلمة التى ينبغى أن يقال فى الوقت الذى ينبغى أن تفعل فيه فعلها ، وهذه هى دعوة الاضعاف والتمزيق كأمضى ما تكون

قائد بغير نظير

عندما تتعقد المقارنة بين المعارك القديمة والمعارك العصرية ينبغي أن ننظر الى فكرة القائد قبل أن ننظر الى ظواهر المعارك أو إلى أشكالها وأحجامها ، لأننا اذا نظرنا إلى الظواهر فلا معنى اذن للمقارنة على الاطلاق اذ من المقطوع به ان عشرة ملايين يجتمعون في ميدان واحد أضخم من عشرة آلاف ، وان حربا تدار بالمذيع والتليفون أعجب من حرب تدار بالقم والاشارة ، وان نقل الجنود بالطائرات والدبابات أبرع من نقلهم على ظهور الخيل والابل ، وان المدفع أمضى من السيف ، والرصاصة أمضى من السهم . فلا معنى اذن لمقارنة بالظواهر تنتهى إلى نتيجة واحدة . . هي استتضام الحرب الحديثة والنظر إلى القيادة الغابرة كأنها شيء صغير إلى جانب القيادة التى توجه هذه الضخامة:

لكننا اذا نظرنا إلى فكرة القائد ، أمكننا أن نعرف كيف أن توجيه ألف رجل قد تدل على براعة فى القيادة لا نراها فى توجيه مليون . . بينهم الراجل والراكب ، ومنهم من يركبون كل ما يركب من مخلوقات حية وآلات مخترعة . .



وهذه الفكرة هى التى ترىنا محمدا عليه السلام قائدا حربيا بين أهل زمانه بغير نظير فى رأيه وفى الانتفاع بمشورة صحبه ، وتبرز لنا قدرته النادرة بين قادة العصور المختلفة فى توجيه كل ما يتوجه على يدي قائد من قوى الرأى والسلاح والكلام

وهذه القدرة هى شهادة كبرى للرسول تأتى من طريق الشهادة للقائد الخبير بفنون القتال . .

فمن كانت عنده هذه الأداة النافذة فاقصر بها على الدفاع واكتفى منها بالضرورى الذى لا يحصى عنه ، فذلك هو الرسول الذى تغلب فيه الرسالة على القيادة العسكرية ، ولا يلجأ الى هذه القيادة إلا حين توجبها رسالة الهداية . .

ويزيد هذه الشهادة عظما أن الرجل الذى يجتنب القتال فى غير ضرورة رجل شجاع غير هياب . .

شجاع وليس كبعض الهداة المصلحين الذين تجوز فيهم فضيلة الطيبة على فضيلة الشجاعة ، فيحجمون عن القتال لأنهم ليسوا بأهل قتال .. إن بعض المستشرقين زعموا أنه عليه الصلاة والسلام قد اشترك فى حرب الفجار بتجهيز السهام ، لأنه عمل أقرب الى خلقه من الخوض فى معمة القتال . . وكأنهم أرادوا انه لم يكن قادرا على المشاركة فى المعمة بغير ذلك . .

فهذا خطأ فى الاحاطة بمزايا هذه النفس العظيمة التى تعددت جوانبها حتى تجمعت فيها أطيب صفات الحنان وأكرم صفات البسالة والاقدام .. فمحمد كان فى طليعة رجاله حين تحتم نار الحرب ويهاب شواظها من لا يهاب ، وكان على فارس الفرسان يقول : « كنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم .. فما يكون أحد أقرب منه الى العدو »

ولولا ثباته فى وقعة حنين ، وقد ولت جمهرة الجيش وأوشك أن ينفرد وحده فى وجه الرماة والطاعنين ، لحقت الهزيمة على المسلمين

وخروجه والليل لما يسفر عن صبحه ليطوف بالمدينة مستطلعا ، وقد هددها الأعداء بالغارة والحصار أمر لو لم تدعه اليه الشجاعة الكريمة لم يدعه اليه شيء . . لأن المدينة كانت يومئذ حافلة بمن يؤدون عنه مهمة الاستطلاع وهو قرير فى داره ، ولكنه أراد أن يرى بنفسه فلم يثنه خوف ولم يعهد بهذا الواجب الى غيره

ومشاركته فى الوقعات الأخرى هى مشاركة القائد الذى لا يعفى نفسه وقد أعفته القيادة من مشاركة الجند عامة فيما يستهدفون له ، فهى شجاعة لا تؤثر أن تتوارى حيث يتاح لها أن تتوارى ، وعندها العذر المقبول بل العذر المحمود

وإذا كان القائد خبيراً بالحرب قديراً عليها غير هباب لمخاوفها ، ثم اكتفى منها بالضرورة الذى لا يحصى عنه . . فذلك هو الرسول تأتبه الشهادة بالرسالة من طريق القيادة العسكرية ، وتأتى جميع صفاته الحسنى تبعاً لصفات الرسول

خصائص العظمة

لكن للعظمة خصائص تدعو إلى العجب ، وإن كانت معروفة لأسباب . . وناهيك بالعظمة التى ترتقى هذا المرتقى فمن تلك الخصائص أنها قد توصف بالنقيضين فى وقت واحد .. لأنها متعددة الجوانب ، فيراها أناس على صورة ويراهم غيرهم على صورة أخرى ، وربما رأتها العين الواحدة على اختلاف فى الوقتين المختلفين . .

ولأنها تبعث الحب الشديد كما تبعث البغض الشديد ، وبين الطرفين مجال للاعتدال يستقيم للراشدين ، ومجال للمغالاة من هنا وللمغالاة من هناك . .

ولأنها عميقة الأغوار فلا يسهل استبطانها لكل ناظر ، ولا يتأتى تفسيرها لكل مفسر . .

وهذا إذا سلمت النفوس من سوء النية .. فأما إذا ساءت النيات وران الهوى على البصائر فلا عجب إذن فى الضلال . .

ومن خصائص العظمة النبوية فى محمد عليه السلام أنه وصف بالنقيضين على ألسنة المتعصبين من أعداء دينه . . فهو عند أناس منهم صاحب رقة تحرمه القدرة على القتال ، وهو عند أناس آخرين صاحب قسوة تضربه بالقتل وإهدار الدماء البشرية فى غير جريرة . وتنزه محمد عن هذا وذاك ..

فاذا كانت شجاعته عليه السلام تنفي الشبهة فى رقة الضعف والخوف المغيب ، فحياته كلها من طفولته الباكرة تنفي الشبهة فى القسوة والجفاء ..

إذ كان في كل صلة من صلاته بأهله أو بمرضعته أو بصحبه أو بزوجاته أو بخدمه مثلا للرحمة التي عزّ نظيرها في الأنبياء

ولا تقف كثيرا عند الحوادث التي ذكرها المتعصبون ليستدلوا بها على إهدار الدماء في غير جريمة . فأكثرها لم يثبت قط ثبوتا يقطع الشك فيه ، ولا سيما القول بتحريض النبي عليه السلام على قتل عصماء بنت مروان اليهودية لأنها كانت تهجو الاسلام والمسلمين . فان النبي عليه السلام قد نهى في قول صريح عن قتل النساء وكرر نهيه في غير موضع ، حتى قال بعض الفقهاء بمنع قتل المرأة وإن خرجت للقتال ، ما لم يكن ذلك لدفع خطر لا يدفع بغير قتلها

والحادث الوحيد الذي يستحق الالتفات إليه هو مقتل كعب بن الأشرف الذي كان يهجو المسلمين ، ويقذح في دينهم ، ويؤلب عليهم الأعداء ، ويأتمر بقتل النبي ، ويدخل في كل دسياسة تنقض معالم الاسلام . وكان مع قومه بنى الغنمير معاهدا على أن يحالف المسلمين ، ويحارب من يحاربوهم . ولا يخرج لقتالهم ، ولا يقابلهم الا بما يقابل به الحلبف حليفه من المودة والمعونة

فنقض العهد وزاد على نقضه فأليب العرب مع قومه على النبي وصحبه ، وبانه رجع إلى المدينة « فشيب بنساء المسلمين حتى آذاهم » وافترى عليها وعليهم ما ليس يفتريه رجل شريف وليس يرضاه في عرضه عربى غيور . .

ورد في حديث مقتله أن الرهط الذين خرجوا لقتله انتهوا إلى حصنه ، فهتف به أبو نائلة - وكان حديث عهد بعرس - فوثب في ملحفته . . . فأخذت امرأته بناحيتهما وقالت : « إنك امرؤ محارب ، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة ! »

وصدقت امرأته حين وصفته بأنه محارب يعامل معاملة المحاربين وقد حنثوا في إيمانهم ، فلم يكن راعيا لعهد له ولم يكن له وازع من نفسه ولا

من قومه ، ولم يكن مأمونا على السلمين وهو لائذ بحصنه . . فهو أقل الناس حقا في أمان . .

وجاء في الخبر أن النبي عليه السلام أقر مقتله ، فعاب بعض المؤرخين الأوربيين ذلك وحسبوه خروجاً على سنن القتال يشبه فعلة نابليون الكبير حين أمر باختطاف الدوق دنجان ومحاكمته بغير حق . . مع ما بين الحادئين من بون بعيد يئناه من قبل فلا نعود إليه . .

إلا أننا نوجز هنا فلا نزيد على أن نشير إلى حكم القانون الدولي في أحلت العصور على من يؤخذون بصنيع معيب كصنيع ابن الأشرف ، وإن لم يبلغ مبلغه من الغدر والكيد والاساءة إلى الأعراض وذلك هو حكم الأسير الذي ينطلق بعهد الشرف ألا يعود إلى القتال ، فإن القانون الدولي يوجب عليه أن يوفي بعهده ويوجب على حكومته ألا تندبه إلى عمل ينقض ما عاهد الأعداء عليه ، ويقضى بحرمانه حق المعاملة كما يعامل أسرى الحرب إذا شهر السلاح على الذين أطلقوه أو على حلفائهم المحاربين في صفوفهم ويصح إذن أن يحاكم كما يحاكم المذنبون ويقضى عليه بالموت (١)

فقوانين العصر الحديث إذن تعاقب بالموت جريمة أهون من جريمة كعب بن الأشرف بكثير ، لأنه تجاوز الغدر إلى التآليب والائتثار وثلب الأعراض . .

وليس في توقيع هذه الأحكام قسوة ولا رحمة ، لأن المرجع فيها إلى الضرورة التي أوجبت القصاص وفرضته على الناس في أحوال السلم بين أبناء الأمة الواحدة ، فضلا عن أحوال القتال بين الأعداء

أسرى غزوة بدر

ويلحق بقتل ابن الأشرف ما أخذه بعض المستشرقين من قتل بعض الأسرى بعد غزوة بدر وخروج النبي إلى ساحة الحرب لرؤية صرعى

(١) « أوبنهايم » الجزء الثاني صفحة ٢٠٢

المعركة وغنائمها بعد انتهائها .. فهو أمر لا يصح الحكم فيه إلا بالنظر إلى موضعه وموقعه وأشخاصه ، لأنه ليس بالحكم العام الذى اتبعه الاسلام فى جميع الأسرى وجميع الحروب ، وإنما هى حالة أفراد كانوا معروفين بتعذيب المسلمين والتكيل بهم فى غير مبالاة ولا نخوة . وليست هى كحالة الأسرى الذين يقعون فى أيدي أعدائهم غير معروفين بماض ولا بحاضر سوى أنهم جند كسائر الجند الذين يحشدتهم الأعداء .. فقتل الأسرى بعد بدر إن هو إلا قصاص كقصاص المتهمين بالتعذيب وقد وقعوا فى أيدي من يتولى عقابهم من الغالبين . جاز هذا فى كل قانون ، وجاز أن يحاسب المغلوب على جرائمه التى ليست هى من فروض القتال أو من مباحاته فى شيء . . . وفرق بين معاملة هؤلاء ومعاملة أسير كل ما تعلمه فى شأنه انه جندي لا بغضاء بينك وبينه قبل حمل السلاح ولا بعد وضع السلاح ، وليس فى عمله محل للثأر والمحاسبة بعد انقضاء واجبه وهو القتال الشريف . .

أما رؤية القتلى فى ساحة الحرب ، فقد نسي فيها أولئك الناقدون ان اغتباط المنتصر بفوزه طبيعة انسانية لا غضاضة فيها . . ما لم تجاوز حدها إلى الفرح برؤية الدماء لمحض الفرح برؤية الدماء . وهذا ما لم يزعمه أحد من شاهدي المعركة عن النبى عليه السلام ، ولا نمّ عليه كلام أحد من المشركين أو المسلمين

ونسي أولئك الناقدون كذلك أن الرجل الذى يرى الدم فى المدينة العصرية ، غير الرجل الذى يرى الدم فى حروب البادية وفى حياة البادية على الاجمال .. ونعني بها حياة الرعاية التى تتكرر فيها إراقة الدم كل يوم ، وحياة القبائل التى كانت تغزو وتغزى فى كثير من الأيام . .

فانك لا ترمي بالقسوة طبييا قد آلف النظر إلى الجثث وأشلأها والأجسام الحية وجراحها .. لأن الطب لن يكون فى الدنيا رحمة من الرحمات إن لم يألف الأطباء هذه المناظر ويملكوا جأشهم وهم يفتحون

أعينهم عليها . ولكنك قد ترمى بالقسوة إنسانا لم تقع عينه على منظر مثلها ثم هي تفاجئه فلا ينفر منها . وما من رجل عاش في البادية وشهد غزوة من غزواتها يمكن أن يقال فيه إن ساحة الحرب تفاجئه بما لم يكن يراه ، أو بما يستلزم النظر إليه قسوة في الطباع واستراحة إلى رؤية الدماء . .

كان على أولئك الناقدين أن يشهدوا بدرا ، لينظروا بعين النبي إلى عواقب هذه الواقعة التي أوشكت أن تصبح الواقعة الحاسمة في تاريخ الاسلام . .

كان عليهم أن ينظروا هنالك بعين النبي إلى جيشين .. أحدهما فيه السلاح والخيل والعدد ، والآخر في ثلث من يقاتلونه عددا ، ويكاد أن يتجرد من كل سلاح غير السيف ومن كل مطية غير الاقدام . .

وكان عليهم أن يلمسوا إشفاق النبي من عاقبة هذه الواقعة ويستمعوا إليه وهو يناشد ربه : « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني . . اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد . . . »

وكان عليهم أن ينظروا إليه ، وقد مد يديه وشخص ببصره وجمع نفسه في صلاته .. حتى جعل رداؤه يسقط عن منكبيه وأبو بكر يرده ويناديه : « بعض مناشدتك ربك فان الله منجز لك ما وعدك .. وهو لا يلتفت إلى سقوط رداؤه ولا إلى مناداة صفيه ، لاستغراقه في الدعاء .. »

وكان عليهم أن يعلموا حرص قريش أن يستبقوا رجلا منهم ، يرجعون إلى مكة قبل المعركة أو بعدها ليثابروا على مناوأة النبي وإعادة الكرة عليه حتى لا يهدأ له بال بعد الصبر على هذا الجهد ، وليس الصبر عليه ييسر . .

كان على الناقدين أن يعلموا هذا كله ليعلموا أن الشعور بالفرح في مثل هذا الموقف العصيب أمر لا غرابة فيه ، وإنه شعور مطبوع في نفس

حيّة تجاوب كل ما يحيط بها من بواعث الحياة في مواقف السلم أو مواقف القتال . فأول ما يبادر النفس الحية من شعور مطبوع صادق في ذلك الموقف أن تغتبط بالنصر ، وتخرج من الضيق الى الفرج ، وتنظر في ساحة الحرب الى من قضى فيها من قریش ومن عاد منها الى وكره ليعيد الكرّة ويستأنف الايذاء والمكيدة ، وأن ترى ما هي تلك الأسلاب والغنائم التي أوشكت أن تفنن بعض المقاتلين لأنها أول شيء شهده من نوعه ، ولما ينزل حكم الدين في سلب أو غنيمة

إن محمداً رجل حيّ جياش النفس بدوافع الحياة ، وليس بناسك مهزول من نساتك الصوامع الذين يكتمون في حوائجهم كل دافعة وكل إحساس .. فامتناعه أن يشهد نتيجة المعركة التي سبقتها كل تلك المخاوف وستلحق بها كل تلك العواقب أمر لم يكن بالمنتظر من قائد في مثل موقفه ، ولم تكن توجهه الفطرة الانسانية على المقاتل .. وهو في اللحظة الأولى بعد الظفر خليق أن يعلم مدى انتصاره ، ومدى ما يتوقعه بعده ، ومدى ما فماته الفئة القليلة بالفئة الكثيرة ، ليقبس عليه ما تفعله مثلها فيما يليها من وقعات . وهؤلاء مراسلو الصحف الحريون الذين يدرسون اليوم أشباه هذه المواقف يجدون من واجبه ألا يتخلفوا عن ساحات القتال بعد انجلاء الفريقين ، ليشرحوا دروس النصر والهزيمة بينهما ويسجلوا ما لا غنى عن تسجيله في جميع الحروب . فانصراف محمد عن ساحة بدر على أثر النصر غسل غريب يخل بمكانة القائد وبواجب التحقيق والاستفادة من كل ما يفيد

بعد معركة الأحزاب

ونحن في صدد الحديث عن الرحمة والقسوة يحسن بنا أن نستقصي ما ذكره المؤرخون الأوربيون من مآخذ في هذا الباب ، وأهمه عدا ما قدمناه قتل المقاتلين من بنى قريظة بعد معركة الأحزاب

فإن أولئك المؤرخين يستعظمون قتلهم ويحسبونهم مخالفًا للعرف المتبع

في الحروب ، وينسون أمورا لا يصدق الحكم في هذه المسألة ما لم يذكرها ويستحضروها أتم استحضار . وهي ان بنى قريظة حنثوا في أيمانهم مرات فلا يجدي معهم أخذ الموائيق من جديد ، وأنهم قبلوا حكم سعد بن معاذ وهم الذين اختاروه ، وان سعدا انما دانهم بنص التوراة الذى يؤمنون به كما جاء في التثنية : « حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها الى الصلح ، فإن أجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك . وان لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، واذا دفعها الرب إلهك التى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمة فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك . . . » (اصحاح ١٠ الى ١٥ تثنية)

وينبغي أن يسأل الناقدون أنفسهم بعد هذا : ماذا كان مصير المسلمين لو ظفرت بهم الأحزاب ؟

فالقضاء الذى قضاه النبی فى بنى قريظة عدل وحكمة وصواب ، وما من أحد يقضي غير ذلك القضاء وهو مؤتمن على مصير أمة يرحمها من غدر أعدائها ، ومن لددهم فى خصومتها ، ومن استباحتهم كل منكر فى التربص والوثبة بعد الوثبة عليها

وان حملة تأديبية واحدة من حملات العصور الحديثة يحملها قوم مسلحون على قوم عزّل يذودون عن أوطانهم وحقوقهم ، لفيها من البطش والتعذيب ما لم يحدث قط نظير له فى عقاب بنى قريظة ، ولا فى جميع الحروب التى نشبت بين النبی عليه السلام وبين أعداء له ولدينه ، هم المتفوقون عليه فى العدد والثروة والسلاح

إن عبقرية محمد فى قيادته لعبقرية ترضاه فنون الحرب ، وترضاها المروءة ، وترضاها شريعة الله ﷻ للناس ، وترضاها الحضارة فى أحدث عصورها ، ويرضاها المنصفون من الأصدقاء والأعداء

عَبْقَرِيَّةُ مُحَمَّدٍ السَّيَّاسِيَّةِ

سياسة الخصوم والاتباع

السياسة على معان كثيرة في العرف الحديث ..

فمنها ما يكون بين بعض الدول وبعض من المراسم والعلاقات ، ومنها ما يكون بين هذه الدول من معاهدات وخطط في أعمالها الخارجية ، ومنها ما يكون بين الراعي ورعيته أو بين الأحزاب والوزارات من برامج ودعوات .. ولكل معنى من هذه المعاني اصطلاحه في العرف الحديث ، وإن جمعتها كلمة السياسة في اللغة العربية

وقد تولى النبي عليه السلام أعمالا كثيرة مما يطلق عليه لفظ السياسة في عموم مدلوله .. ولكننا لا نعرف بينها عملا واحدا هو أدخل في أبواب السياسة ، وأجمع لضروبها ، وأبعد عن المشاركة في صفة القيادة العسكرية أو صفة الوعظ العلني أو سائر الصفات التي اتصف بها عليه السلام من عهد الحديبية في مراحلها جميعا ، منذ ابتدأ بالدعوة إلى الحج إلى أن انتهى بنقض الميثاق على أيدي قريش ..

ففي عهد الحديبية تجلّى تدير محمد في سياسة خصومه وسياسة أتباعه ، وفي الاعتماد على السلم والعهد حيث يحسنان ويصلحان ، والاعتماد على الحرب والقوة حيث لا تحسن المسالمة ولا تصلح العهود بدأ بالدعوة إلى الحج ، فلم يقصره في تلك السنة على المسلمين المصدقين لرسالته .. بل شمل به كل من أراد الحج من أبناء القبائل العربية التي تشارك المسلمين في تعظيم البيت والسعي إليه ، فجعل له وللعرب أجمعين قضية واحدة في وجه قريش ، ومصلحة واحدة في وجه

مصلحتها . وفصل بذلك بين دعواها ودعوى القبائل الأخرى ، ثم أفسد على قريش ما تعمدوه من اثاره نخوة العرب وتوجيهها الى مناوأة محمد والرسالة الاسلامية . فليس محمد وأصحابه أناسا معزولين عن النخوة العربية يضعون من شأنها ويطلقون مفاخرها ، ولكنهم اذن عرب ينتصر بهم العرب ولا يذلون بانتصارهم ، أو يقطعون ما بينهم وبين آبائهم وأجدادهم . فإذا خالفوا قريشا في شيء فذلك شأن قريش وحدهم أو شأن المتنعين من قريش بالسيطرة على مكة ، وليس هو بشأن القبائل أجمعين ..

ثم أفسد على قريش من جهة أخرى ما تعمدوه من اغضاب العرب على الاسلام ، بما ادعوا من قطعه للأرزاق وتهديده للأسواق التي يعمرها الحاج ويستفيد منها الغادون الى مكة والرائحون منها .. فها هو ذا محمد نفسه يأخذ معه المسلمين الى مكة كما يأخذ معه من شاء مصاحبته من غير المسلمين قصائد البيت الحرام . فإذا حال بينهم وبين ما يقصدون اليه ، قتلك جنائته وذلك وزره على نفسه وعلى قومه .. ولا وزر فيما أصاب الأرزاق أو أصاب الأسواق على المسلمين ..

وقد سمعنا كثيرا في العصور الحديثة عن المقاومة السلبية أو المقاومة التي تجتنب العنف ولا تعتمد على غير وجه الحق والحجة

سمعنا بها في الحركة الهندية التي قام على رأسها غاندى وتابعه فيها بعض مريديه ، حتى كان لها من الأثر في ازعاج الحكومة البريطانية ما لم يكن للقبائل ولا للمشاعبات الدامية ..

وقيل يومئذ ان غاندى قد تتلمذ في هذه الحركة على المصلح الروسى الكبير ليون تولستوي .. وقيل بل هو أخرى أن يعرفها من آداب البرهمنين والبوذيين التي تحرم اىذاء الحيوان فضلا عن الانسان ، قبل أن يشرع ليون تولستوى مذهبه الجديد

والذين قالوا بهذا رأى الأخير اسنبعدوا أن يتفق المسلمون والبرهمنيون والبوذيون على حركة غاندى وتبشيره بتلك المقاومة

السلبية ، لاعتقادهم ان الاسلام قد شرع للقتال فلا يوائم المسلمين ما يوائم البوذيين والبرهميين ، من اجتناب القوة والتزام السلم وترك المقاومة ..

لكن المثل الذى قدمه النبى صلوات الله عليه فى رحلة الحديبية ينقض ما توهموه ، ويبين لهم ان الاسلام قد أخذ من كل وسيلة من وسائل نشر الدعوة بنصيب يجري فى حينه مع مناسباته وأسبابه .. فلا هو يركن الى السيف وحده ولا الى السلم وحده ، بل يضع كليهما حيث يوضع ، ويدفع بكليهما حيث ينبغي أن يدفع . وهو الحكم المتصرف حيث يختار ما يختار ، وليس الآلة التى يسوقها السلم أو الحرب مساق الاضطرار

وقد خرج النبى الى مكة فى رحلة الحديبية حاجا لا غازيا .. يقول ذلك ويكرره ويقيم الشواهد عليه لمن سأله ، ويثبت نيّة السلم بالتجرد من السلاح ، الا ما يؤذن به لغير المقاتلين فلم يفصل بهذه الخطة بين العرب وقريش وحسب .. بل فصل بين قريش ومن معهم من الأحابيش ، وجعل الزعماء وذوي الرأي يختلفون فيما بينهم على ما يسلكون من مسالك فى دفعه أو قبوله أو مهادنته ، وهو عليه السلام يكرر الوصاة لأتباعه بالمسالمة والصبر منعا للاتفاق بين خصومه على قرار واحد ، وقل من أتباعه من أدرك قصده ومرماه حتى الصفوة المختارين ..

ولما اتفق الطرفان — المسلمون وقريش — على التعاهد والتهادن ، كانت سياسة النبى فى قبول الشروط التى طلبتها قريش غاية فى الحكمة والقدرة « الدبلوماسية » كما تسمى فى اصطلاح الساسة المحدثين .. دعا بعلي بن أبى طالب فقال له : « بسم الله الرحمن الرحيم »

فقال سهيل بن عمرو مندوب قريش : « أمسك ! لا أعرف الرحمن الرحيم ، بل اكتب باسمك اللهم »
فقال النبى : « اكتب باسمك اللهم » ..

ثم قال : « أكتب (هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو) » ..
فقال سهيل : « أمسك ! لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن
اكتب اسمك واسم أبيك »

وروي أن عليا تردد فمسح النبي ما كتب بيده ، وأمره أن يكتب
« محمد بن عبد الله في موضع محمد رسول الله »

ثم تعاهدوا على أن من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده
عليهم ، ومن جاء قريشا من رجال محمد لم يردوه عليه ، وأنه من أحب
من العرب محالفة محمد فلا جناح عليه .. ومن أحب مخالفة قريش فلا
جناح عليه ، وأن يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا على أن
يعودوا إليها في العام الذي يليه ، ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من
السلاح السيوف في قربها ، ولا سلاح غيرها

ولو كان عهد الحديبية هذا قد كتب بعد قتال انهزم فيه المشركون
وانتصر فيه المسلمون ، لوجب أن يكتب على غير هذا الأسلوب .
فيعترف المشركون كرها أو طوعا بصفة النبوة ، ولا يردون أحدا من
مواليهم أو قاصريهم يذهب الى النبي ويلحق بالمسلمين

ولكنه عهد مهادنة أو عهد « إيقاف أعمال العداء الى حين » كما
يسمونه في اصطلاح العصر الحاضر.. فلا يعوزه شيء من الأصول المرعية
في أمثال هذه العهود ، من اثبات صفة المنسوديين التي لا ارغام فيها
لأحد الطرفين ولا مخالفة لدعوى الفريقين ، ومن حفظ كل لحقه في
تجديد دعواه واستئناف مسعاه ..

فلو أن النبي عليه السلام شرط على قريش أن ترد اليه من يقصدها
من رجاله لتقض بذلك دعوى الهداية الاسلامية ، وتقض الوصف الذي
نصف به المسلمين .. فإن المسلم الذي يترك النبي باختياره ليلحق قريشا

ليس بمسلم ، ولكنه مشرك يشبه قريشا في دينها وهي أولى به من نبي الاسلام ..

أما المسلم الذي يرد الى المشركين مكرما فإنما الصلة بينه وبين النبي الاسلام ، وهو شيء لا سلطان عليه للمشركين ولا تنقطع الصلة فيه بالبعد والقرب .. فإن كان الرجل ضعيف الدين ففتنوه عن دينه فلا خير فيه ، وإن كان وثيق الدين فبقي على دينه فلا خسارة على المسلمين

وما انقضت فترة وجيزة حتى علمت قريش انها هي الخسارة بذلك الشرط الذي حسبته غنما لها وخذلانا لمحمد صلوات الله عليه .. فإن المسلمين الذين نفروا من قريش ولم يقبلهم محمد في حوزته رعاية لعهد ، قد خرجوا الى طريق القوافل يأخذونها على تجارة قريش وهي أمان في عهد الهدنة بين الطرفين ، فلا استطاع المشركون أن يشكوهم الى النبي لأنهم خارجون من ولايته بحكم الهدنة ، ولا استطاعوا أن يحجزوهم في مكة كما أرادوا يوم أملوا شروطهم في عهد الحديبية ، ولو قضى العهد بولاية النبي على من ينفر من مسلمي مكة لجاز للمشركين أن ينقضوه أو يطالبوا النبي بالمحافظة عليه

وتم العهد .. فعرف من لم يعرف ما أفاء على الاسلام بعد قليل ، فجهر بمخالفة النبي من لم يكن يجهر بولائه .. واستراح النبي من قريش ، ففرغ ليهود خيبر وللممالك الأجنبية يرسل الرسل الى عظمائها بالدعوة الى دينه ، وفتح الأبواب لمن يقدون اليه ممن أنكروا بنفي قريش وأمنوا أن تكون نصرتهم للاسلام حربا يبتلون فيها بما لا يطيقون ويوم نزلت الآية الكريمة على أثر اتفاق الحديبية : « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، وَيُثَبِّتَ عَلَيْكَ جَزَآءًا مُّسْتَقِيمًا » لم يفقه الكثيرون معناها في حينها ، ولم يثبتوا موضع الفتح من ذلك الاتفاق الذي حسبوه محض تسليم .. ولكنهم فهموا أى فتح هو بعد سنتين ، وعلموا ان من الفتوح ما يكون

بغير السيف ، وما يشبه الهزيمة في ظاهره عند من يتعجلون ولا يحسنون
النظر الى بعيد ..

الفتح المبين

كان في تلك السنة فتح يراه الناظر بعين الغيب ولا يراه الناظر بعينه ،
ولكنها سنة واحدة ثم رأى الفتح المبين من لا يرون بغير العيون .. رأوه
وامتلأت عيونهم بالنظر اليه ، فسرّ قوما وساء آخري

ففى السنة التالية نادى الرسول أصحابه أن يتجهزوا للحج ولا يتخلف
أحد ممن شهد الحديبية ، فخرجوا في شوق المنطلق بعد منع ، والمنتظر
بعد صبر ، الا من استشهد في خير وأدركته الوفاة خلال العام . وخرج
معهم جمع كبير ممن لم يشهدوا الحديبية يتبعهم النساء والأطفال ،
وساقوا أمامهم ستين بدنة مقلدات للهدى ، وقد حملوا السلاح
والدروع والرماح وعلى رأسهم مائة فارس يقودهم محمد بن سلمة ..
فلما انتهى الرسول وصحبه الى ذى الحليفة قدم الخيل أمامه ، وعلمت
قريش بالنبا ففرعوا وبعثوا بمكرز بن حفص في نفر منهم فجاءوا يقولون :
« والله يا محمد ما عرفت صغيرا ولا كبيرا بالقدر .. تدخل بالسلاح في
الحرم على قومك وقد شرطت عليهم ألا تدخل الا بسلاح المسافرين :
السيوف في القرب ؟ » فقال عليه السلام : « انى لا أدخل عليهم
بسلاح » قال مكرز : « هو الذى تعرف به . البر والوفاء »

وانما حمل النبي السلاح للحيفة كما قال لصحبه : « ان هاجنا هائج
من القوم كان السلاح قريبا منا » ... وتركه في الحراسة على مقربة من
مكة حيث يوصل اليه عند الحاجة اليه

ثم أقبل عليه السلام على ناقته القصواء وجموع المسلمين محدقون به
متوشحون بالسيوف يلبون ويهللون ، وأخذ عبد الله بن رواحة بزام
القصواء وهو ينشد :

خَلُّوا بني الكفار عن سبيله خلوا فكل الخير في رسوله
يا رب اني مؤمن بقبيله انى رأيت الحق في قبوله
وأوشك وقد هزته النخوة أن يصيح في قريش صيحة الحرب ، فنهاه
عمر رضى الله عنه وأمر النبي أن ينادي ولا يزيد : « لا إله الا الله
وحده نصر عبده ، وأعز جنده ، وخذل الأحزاب وحده » . فرفع ابن
رواحه بها صوته الجهير ، وتلاه المسلمون يرددونها وتهتز بها جنات
الوادى القريب ، فيسمعها من فارقوا مكة لكيلا يسمعوها ولا يروا
ركب النبي يخطو في نواحيها ..

وكان الفتح الذى بصر به عَيَاناً من لم يره يوم الحديبية بنور البصيرة ،
وأسلم من الضعفاء والأقوياء من كان عصياً على الاسلام : فريق منهم
بهَرَّهم وفاء النبي بعهده مع استطاعة تقضه ، وفريق منهم راعهم سَمَتْ
الدين ورحم الاسلام فيما بين المسلمين ، وجمال ما بينهم وبين نبيهم من
طاعة وتمكين ، وفريق منهم علموا أن العاقبة للاسلام فَجَحُّوا الى طريق
السلامة والسلام ، وحسبك ان عمرة القضاء هذه قد جمعت في آثارها
من أسباب الاقتناع بالدعوة المحمدية ما أقنع خالد بن الوليد وعمر بن
العاص ، وهما في رجاحة الخلق والعقل مثلان متكافئان ، وان كانا
لا يتشابهان ..

وهكذا تجلت عبقرية محمد في سياسة الأمور كما تجلت في قيادة
الجيوش . فكان على أحسن نجاح في سياسته اذ نادى بعزيمة الحج وهو
لم يفتح مكة بعدده وعدته ، واذا دعا المسلمين وغير المسلمين الى
مصاحبته في رحلته ، واذا توخى ما توخى من طريقة المسالمة واقامة الحجة
في انفاذ عزمته ، واذا قبل العهد الذى كبر قبوله على أقرب المقربين من
عترته ، واذا نظر الى عقباه ووصل به الى القصد الذى توخاه

عَبْرَةُ مُحَمَّدٍ لِإِدَارَتِهِ

ملكات شخصية

فى الاسلام أحكام كثيرة مما يدخل فى تصرف رجال الادارة كما نسميهم اليوم .. وفيه وصايا كثيرة عن المعاملات ، كالمساندة والمبايعة والاستقراض والشفعة والتجارة وسائر شئون المعيشة الاجتماعية يقتدى بها المسترعون فى جميع العصور

ولكننا لا نريد بما نكتب عن النبى أن نسرد أحكام الفقه ونبسط وصايا الدين ، فهى مشروحة فى مواطنها لمن شاء الرجوع اليها وانما نريد أن نعرض لأعماله ووصاياه من حيث هى ملكات شخصية وسلائق نفسية ، تلازمه حيث كان مؤديا لرسالة الدين ، أو مؤديا لغير الرسالة من سائر أعمال الانسان

كذلك لا يعنينا مثلا أن نتكلم عن « الادارة » كأنها نصوص المنشورات و « اللوائح » التى تدار بها الدواوين وتجرى عليها تفصيلات الحركة فى مكاتب الحكومة ، فإن هذه وما اليها هى أعمال منفذين مأمورين وليست أعمال مديرين آمرين ، وانما نغنى الملكة الادارية من حيث هى أساس فى التفكير : من اعتمد عليه استطاع أن يقيم بناء الادارة كلها على أسس قوية ، ثم يدع لغيره تفصيلات الأضابير والأوراق فليس فى وسع رجل مطبوع على الفوضى مستخف بالتبعية أن يؤسس ادارة نافعة ولو كان فيما عدا ذلك كبير العقل كبير الهمة

أما السليقة المطبوعة على انشاء الادارة النافعة فهى السليقة التى تعرف النظام ، وتعرف التبعية ، وتعرف الاختصاص بالعمل ، فلا تسنده الى كثيرين متفرقين يتولاه كل منهم على هواه

وقد كانت هذه السليقة في محمد عليه السلام على أتم ما تكون
كان يوصي بالرياسة حيثما وجد العمل الاجتماعي أو العمل المجتمعي
الذي يحتاج الى تدبير . ومن حديثه المأثور : « اذا خرج ثلاثة في سفر
فليؤمّروا أحدهم » . ومن أعماله المأثورة انه كان يرسل الجيش وعليه
أمير وخليفة للأمير وخليفة للخليفة اذا أصيب من تقدمه بما يقعده عن
القيادة . وكان قوام الرئاسة والامامة عنده شرطان هما جماع الشروط
في كل رئاسة ، وهما الكفاءة والحب : « أيما رجل استعمل رجلا على
عشرة أنفس علم أن في العشرة أفضل ممن استعمل فقد غش الله وغش
رسوله وغش جماعة المسلمين » ..

و « أيما رجل أمّ قوما وهم له كارهون لم تجز صلاته أذنيه »
وكان الى عنايته باسناد الأمر الى المدير القادر عليه حريصا على تقرير
التبعات في الشئون ما كبر منها وما صغر ، على النهج الذي أوضحه
صلوات الله عليه حيث قال : « كلکم راع وكلکم مسئول عن رعيته
فالأمير الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على
أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وهي مسئولة
عنه ، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه . ألا فكلکم راع
وكلکم مسئول عن رعيته »

وقد كانت أوامر الاسلام ونواحيه معروفة لطائفة كبيرة من المسلمين
أنصارا كانوا أو مهاجرين ، ولكنه عليه السلام لم يترك أحدا يدعي
لنفسه حقا في اقامة الحدود ، واكرام الناس على طاعة الأوامر ، واجتتاب
النواهي غير من لهم ولاية الأمر وسياسة الناس
فلما قتل بعض المسلمين غداة فتح مكة رجلا من المشركين غضب عليه
السلام ، وقال فيما قال من حديثه المبين « ... فمن قال لكم ان رسول
الله قد قاتل فيها فقولوا ان الله قد أحلها لرسوله ولم يحلها لكم يا معشر
خزاعة ... » . ولما أراد أن يصادر الخمر نهج في ذلك منهجا يقصد به
الى التعليم والاستئذان كما جاء في رواية ابن عمر حيث قال :

« أمرني النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن آتية بمدينة ، فأتيته بها ، فأرسل بها فأرهفت ثم أعطانيها فقال أعده عليّ بها . ففعلت ، فخرج بأصحابه الى أسواق المدينة وفيها زقاق الخمر قد جلبت من الشام . فأخذ المدينة مني فشق ما كان من تلك الزقاق بحضرته ثم أعطانيها ، وأمر الذين كانوا معي أن يعضوا معي ويعاونوني ، وأمرني أن آتي الأسواق كلها فلا أجد فيها زق خمر الا شققته ففعلت ، فلم أترك في أسواقها زقا الا شققته » وهذا تصرف المدير بعد تصرف النبي الذي يبين الحرام ويبين الحلال فالخمر شربها وبيعها ونقلها حرام يعلمه جميع المسلمين ، من تفقّه منهم ومن لم يتفقّه في الدين ، ولكن المحرمات الاجتماعية ينبغي أن تكون في يد ولي المسلمين لا في يد كل فرد يعرف الحلال والحرام . وليست المسألة هنا مسألة تحريم وتحليل ، ولكنها مسألة ادارة وتنفيذ في مجتمع حافل يشتمل على شتى المصالح والأهواء ، ولا يصاب ببلاء هو أضر عليه من بلاء الفوضى والاضطراب واختلاف الدعاوى وانتزاع الطاعة وتجاهل السلطان ، فلم يكتف النبي عليه السلام بصريح التحريم في القرآن ، ولا اكتفى بإسناد الأمر الى غير معروف الصفة في تنفيذ الاحكام ، بل خرج بنفسه ثم أمر رجلا بعينه وأناسا بأعينهم أن يعضوا في اتمام عمله ، ولم يجعل ذلك اذنا لمن شاء أن يفعل ما شاء ..

وما أكثر ما سمعنا في أيامنا الأخيرة عن الأمن والنظام ، وتوطيد أركان الشريعة والقانون ، ولكننا لا نعرف في كل ما قيل كلاما هو أجمع لوجوه الصواب في هذه المسألة من قول النبي : « السمع والطاعة حق ما لم يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » . ومن قوله فيما رواه عبادة بن الصامت : « ... ألا تنازع الأمر أهله الا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان » . ومن قوله : « الامام الجائر خير من الفتنة ، وكل لا خير فيه . وفي بعض الشرخيار » . ومن قوله : « ان الأمير اذا ابتغى الريّة في الناس أفسدهم » الى أحاديث في هذا المعنى هي جماع الضوابط التي تقوم عليها الادارة الحكيمة ، والخطوة السليمة المستقيمة ، بين أمر ومأمور ..

نظام وفوق النظام سلطان ، وفوق السلطان برهان من الشرع والعقل
لا شك فيه ، وجميع أولئك على سماحة لا تتعسف النزاع ولا تتعسف
الريية ولا تلتمس الغلواء

هذا الالهام النافذ السديد في تدير المصالح العامة ، وعلاج شئون
الجماعات ، هو الذى أوحى الى الرسول الأمي قبل كشف الجرائم ،
وقبل تأسيس الحجر الصحى بين الدول ، وقبل العصر الحديث بعشرات
القرون ، أن يقضى فى مسائل الصحة واتقاء نشر الأوبئة بفصل الخطاب
الذى لم يأت العلم بعده بمزيد ، حيث قال : « إذا سمعتم بالطاعون
بأرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها »
فتلك وصية من ينظر فى تديره الى العالم الانسانى بأسره لا الى
سلامة مدينة واحدة أو سلامة فرد واحد .. اذ ليس أصون للعالم من
حصر الوباء فى مكانه ، وليس من حق مدينة أن تنشُد السلامة لنفسها
أو لأحد من سكانها بتعريض المدن كلها لعدواها ..

تدير الشئون العامة

على ان الادارة العليا انما تتجلى فى تدير الشئون العامة حين تصطدم
بالأهواء وتنذر بالفتنة والنزاع ، فليست الادارة كلها نصوصا وقواعد
يجرى الحاكم فى تنفيذها مجرى الآلات والموازين التى تصرف الشئون
على نسق واحد ، ولكنها فى كثير من الأحيان علاج نفوس وقيادة أخطار
لا أمان فيها من الانحراف القليل هنا أو الانحراف القليل هناك
وذلك هو المجال الذى تمت فيه عبقرية محمد فى حلول التوفيق واتقاء
الشُرور أحسن تمام . فما عرض له تدير أمر من معضلات الشقاق بعد
الرسالة ولا قبلها الا أشار فيه بأعدل الآراء ، وأدناها الى السلم والارضاء
صنع ذلك حين اختلفت القبائل على أيها يستأثر بأقامة الحجر الأسود
فى مكانه ، وهو شرف لا تنزل عنه قبيلة لقبيلة ، ولا تؤمن عقبى الفصل
فيه بإيثار احدى القبائل على غيرها ولو جاء الايثار من طريق المصادفة
والاقتراع ، فأشار محمد بالرأي الذى لا رأي غيره لحاضر الوقت ولتقبل

الغيب المجهول . فجاء بالتوب ووضع الحجر الأسود عليه وأشرك كل زعيم في طرف من أطرافه ، وكان من قسمته هو على غير خلاف بين الناس أن يقيمه بيده حيث كان ، وأن ينسلف الدعوة وهي مكتونة في طوايا الزمان ، ولو علموا بها يومئذ لما سلموا ولا سلم من عدوان وشنآن وصنع ذلك يوم هاجر من مكة الى المدينة فاستقبلته الوفود تتنافس على ضيافته ونزوله ، وهو يشفق أن يقدح في نفوسها شرر الغيرة بتمييز أناس منهم على أناس أو اختيار محلة دون محلة .. فترك لناقته خطامها تسير ويفسح الناس لها طريقها حتى بركت حيث طاب لها أن تبرك ، وفصلت فيما لو فصل فيه انسان كبير أو صغير لما مضى فصله بغير جريرة لا تؤمن عقباها بعد ساعتها ، ولو أمنت في تلك الساعة على دخل وسوء طوية ..

وصنع ذلك يوم فضل بالغنائم أناسا من أهل مكة الضعيف إيمانهم على الناس من الأنصار الذين صدقوا الاسلام وثبتوا على الجهاد ، فلما غضب المفضلون لم يكن أسرع منه الى ارضائهم بالحجة التي لا تغلب من يدين بها ، بل تريه انه هو الغالب الكاسب وانها تصيب منه المقنع والاقناع في وقت واحد : « أوجدتم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم ؟ .. ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟ .. فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار .. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ... »

كلام مدير فيه الادارة والرياسة هبة من هبات الخلق والتكوين ... فهو مدير حين تكون الادارة تدير أمور ، ومدير حين تكون الادارة تدير شعور ، وهو كميل ألا يلي مصلحة من المصالح تعتورها القوضى ويتطرق اليها الاختلال ، لأنه يسوسها بالنظام والتبعية ، وبالاختصاص وبالسماحة ، وما من مجتمع يساس بهذه الخصال ويبقى فيه منفذ بعدها لاختلال أو انحلال ، أو لخلل في ادارة الأعمال ..

البليغ

« اللهم هل بلغت ! »

هذه هي اللازمة التي رددها النبي في أطول خطبه الأخيرة ، وهي
خطبة الوداع ..

وهي لازمة عظيمة الدلالة في مقامها ، لأنها لخصت حياة كاملة في
ألفاظ معدودات . فما كانت حياة النبي كلها بعملها وقولها وحركتها
وسكونها الا حياة تبليغ وبلاغ ، وما كان لها من فاصلة خاتمة أبليغ من
قوله عليه السلام وهو وجود بنفسه « جلال ربي الرفيع فقد بلغت ! »
ولصدق هذه الدلالة ترى ان السمة الغالبة على أسلوب النبي في
كلامه المحفوظ بين أيدينا هي سمة الابلاغ قبل كل سمة أخرى .. بل
هي السمة الجامعة التي لا سمة غيرها ، لأنها أصل شامل لما تفرق من
سمات هي منها بمثابة الفروع ..

وكلام النبي المحفوظ بين أيدينا اما معاهدات ورسائل كتبت في
حينها ، واما خطب وأدعية ووصايا وأجوبة عن أسئلة كتبت بعد حينها
وروعيت الدقة في المضاهاة بين رواياتها جهد المستطاع

والابلاغ هو السمة المشتركة في أفانين هذا الكلام جميعا ، حتى
ما جرى منه مجرى القصص أو مجرى الأوامر الى الرؤوسين أو مجرى
الدعاء الذي يلقيه المسلم ليدعوه الله على مثاله

انظر مثلا الى قصة أصحاب الغار الثلاثة وتوسلهم بصالح الأعمال
وهي كما جاء في مختار مسلم :

« ... بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر فأووا الى غار في جبل .
فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم . فقال بعضهم
لبعض : انظروا أعمالا عملتموها صالحة لله فادعوا الله تعالى بها ، لعل

الله يفرجها عنكم ، فقال أحدهم : اللهم انه كان لى والدان شيخان كبيران ، وامرأتى ، ولى صبية صغار أرعى عليهم . فاذا أرحت عليهم حلبت فبدأت بوالدى فسقيتهما قبل بنى . وانه نأى بى ذات يوم الشجر فلم آت حتى أمسيت ، فوجدتهما قد ناما . فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب فقامت عند رؤوسهما أكره ان أوقظهما من نومهما ، وأكره أن أسقى الصبية قبلهما والصبية يتضاغون عند قدمى . فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر . فان كنت تعلم انى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة نرى منها السماء

» ففرج الله منها فرجة فرأوا منها السماء ..

» وقال الآخر : اللهم انه كانت لى ابنة عم أحببتها كأشلى ما يحب الرجال النساء ، وطلبت اليها نفسها فأبت حتى آتيتها بمائة دينار .. فتعبت حتى جمعت مائة دينار ، فحجتها بها

» فلما وقعت بين رجلها قالت : يا عبد الله ! اتق الله ولا تفتح الخاتم الا بحقه . فقبت عنها ، فان كنت تعلم انى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة . ففرج لهم

» وقال الآخر : اللهم انى كنت استأجرت أجيرا بفرق (١) أرز ، فلما قضى عمله قال : أعطنى حقى ، فعرضت عليه فرقة فرغب عنه .. فلم أزل أرزعه حتى جمعت منه بقرا ورعاءها فقال : اتق الله ولا تظلمنى حقى ! قلت : اذهب الى تلك البقر ورعائها فخذها فقال : اتق الله ولا تستهزى بى ! فقلت : انى لا أستهزى بك . خذ ذلك البقر ورعاءها .. فأخذه فذهب به ..

» فان كنت تعلم انى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقى

» ففرج الله ما بقى «

(١) اثناء يسع ثلاثة أصح

توجيه الامراء والولاة

هذا أسلوبه عليه السلام في التعليم بالقصص
فانظر الى أسلوبه في توجيه الأمراء والولاة كما جاء في مختار مسلم
حيث قال : « كان رسول الله إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه في
خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال : اغزوا باسم الله
في سبيل الله . قاتلوا من كفر بالله . اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا
تمثلوا ولا تقتلوا وليدا . وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى
ثلاث خصال فأيتن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . ثم ادعهم الى
التحول من دارهم الى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم ان فعلوا ذلك
فلهم ما للمهاجرين ، فان أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون
كأعراب المسلمين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء ، الا أن يجاهدوا
مع المسلمين ، فان هم أبوا فسلهم الجزية . فان هم أجابوك فاقبل منهم
وكف عنهم . فان هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم
» وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيّه
فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيّه . ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة
أصحابك ، فانكم ان تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن
تخفروا ذمة الله وذمة رسوله

» وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا
تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك ، فأنت لا تدري أتصيب
حكم الله فيهم أم لا »

وهذا أسلوبه عليه السلام في تعليم الولاة بالأوامر والوصايا
فانظر الى أسلوبه في الرسائل من رسالته الى النجاشي حيث قال :
« سلم أنت . فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو ، الملك
القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله
وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلق الله
من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه

« واني أدعوك الى الله وحده لا شريك له ، والموالاته على طاعته ،
وأن تبغنى وتؤمن بالذى جاءني فاني رسول الله
» وقد بعثت اليك ابن عمى جعفرا ونفرا معه من المسلمين ، فاذا
جاءك فأقرهم ودع التجبر .. فاني أدعوك وجنودك الى الله فقد بلغت
ونصحت فاقبلوا نصحي ..
« والسلام على من اتبع الهدى »

المعاهدات والمواثيق

أما أسلوبه فى المعاهدات والمواثيق فهذا طرف مما جاء فى كتابه عليه
السلام بين المهاجرين والأنصار واليهود
« ... المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يقدون
عانيتهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين
» وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأول ، وكل طائفة تفدي
عانيها بالقسط بين المؤمنين
» وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة
تفدي عانيها بالقسط بين المؤمنين
» وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة
تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .. »
وهكذا الى آخر الكتاب

تلك نماذج من كلام النبي فى أربع أبواب مختلفات ، تتفرق موضوعاتها
كما تتفرق القصص والأوامر والرسائل والمواثيق ، ولكنها كلها موسومة
بسمة واحدة لا اختلاف فيها ، وهى سمة الابلاغ أو البلاغ المبين .
وأصدق ما يقال فى تعريفها ما قيل فى تعريف الخط المستقيم عند أهل
الهندسة : أقرب موصل بين نقطتين

فليس أقرب من هذا الأسلوب فى ابلاغ الغرض منه ...
لا كلفة ولا غموض ولا اغراب ، وقلة الغريب — بل ندرته — فى كلام
النبي أجدر الأمور بالملاحظة فى اقامة المثل والنماذج لأساليب

البلاغة العربية ..

فمحمد العربي القرشي الناشئ في بنى سعد العالم بلهجات القبائل حتى ما تفوته لهجة قبيلة نائية في أطراف الجزيرة ، لم يكن في كلامه كله غريب يجهله السامع أو يحتاج تبيانه الى مراجعة ... وسر ذلك انه يريد أن يبلغ أو يريد أن يصل الى سامعه ، ولا يريد أن يقيم بينه وبين السامع حاجزا من اللفظ الغريب أو المعنى الغريب ، ومن ذلك ما روى عنه عليه السلام انه كان يعيد الكلمة ثلاثا لتعقل عنه ، وانه كان يبغض التكلف والاعتراة بالبلاغة كما قال : « ان الله تعالى يبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها »

وقد عرف عن النبى عليه السلام في حياته الخاصة والعامة انه كان قليل الكلام معرضا عن اللغو لا يقول الا الحق وان قاله في مزاح .

فمن ثم لا عجب أن يخلو كلامه من الحشو والتكرار والزيادة . فاذا كرر اللفظ بعينه كما جاء في بعض المعاهدات فذلك أسلوب المعاهدات الذى لا محيص عنه ، لأن تكرار النص يمنع التأويل عند اختلافه . فهو أيضا سمة من سمات الابلاغ على سبيل التوكيد والتحقيق ، أو على سبيل الاعداء التى روي انه كان يتوخاها عليه السلام أحيانا ليعقل عنه كلامه ..

وفى كتابه الى النجاشي زيادة من أسماء الله الحسنى ومن الاشارة الى المسيح وأمه لم تؤثر فى الكتب الأخرى .. ولكنها ألزم ما يلزم فى خطاب ملك مسيحي يراد منه أن يفهم كيف تتفق صفات الله والمسيح فى دينه وفى دين المسلمين الذى يدعى اليه ، وكيف يتغنى طريق المقابلة بين العقيدتين اذا شاء .. ما على الرسول الا البلاغ

وهذا هو البلاغ فى التعبير : كل كلمة تصل الى سامعها ، وكل كلمة مقصودة بمقدار ..

ولا زخرف ولا حيلة ولا مشقة متعمل فى ابتغاء التأثير ، الا الابلاغ الذى يليق بالرجولة والكرامة ، وعلى المعرض بعد ذلك وزر الاعراض

سجع كحلية الذهب

وكان عليه السلام يكره « سجع الكهان » الذى يخدعون به السامع ليوهموه انه يستمع الى طلسم السحرة والشیاطین ، ولكنه لم يكن يأبى السجع بنة ولا يخلو كلامه من سجع يأتى على السجیة ، ويغلب أن يكون ذلك فيما یرتل علانية كالآذان وما هو فى حكمه ، أو فيما یحفظ من الوصايا الجامعة كقوله : « ما بال أقوام یشرطون شروطا لیست فى كتاب الله ؟ ما كان من شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل وان كان مائة شرط . قضاء الله حق ، وشرط الله أوثق ، وانما الولاء لمن أعتق » أو قوله : « ان الله حرم علیكم عقوق الأمهات ووآد البنات ، ومنعا وهات ، وكره لكم قیل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال »

ومذهبه فى هذه الحلیة اللطيفة مذهبه فى كل حلیة تلحق بالرجل : فحولة فى القول وفحولة فى الزينة ، فسجعه عليه السلام كحلیة الذهب التى یلیق بالرجل أن يتحلّى بها ، ولا مزيد
كتب اليه أبو سفیان كتابا یقول فى آخره :
« ... نريد منك نصف نخل المدينة ، فان أجبتنا الى ذلك والا أبشر

بخراب الديار وقلع الآثار

تجاوبت القبائل من نزار لنصر اللات فى البيت الحرام
وأقبلت الضراغم من قريش على خيل مسومة ضرام

فأجابه بكتاب جاء فيه : « وصل كتاب أهل الشرك والنفاق والكفر والشقاق ، وفهمت مقالتيكم . فوالله ما لكم عندي جواب الا أطراف الرماح وأشفار الصفاح ، فارجعوا ويلكم عن عبادة الأصنام ، وأبشروا بضرب الحسام ، وبفلق الهام ، وخراب الديار ، وقلع الآثار ... »
فهذا السجع فى هذا المقام أصلح لخطاب الجاهليين ، لأنهم يعرفون منه معنى التوثيق والتمكين ، كما يعرفون منه معنى المناجزة والتخويف . ومن هنا أقر النبي نص الحلف الذى كان بين جده وخزاعة على ما كان به من سجع وتفخيم يجعلونهما موثقا تعقد به المواثيق وتؤكد به

الحرمان . وهذا نصه :

« باسمك اللهم . هذا حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة حلفا جامعا غير مفرق : الأشياخ على الأشياخ ، والأصاغر على الأصاغر ، والشاهد على الغائب . قد تعاهدوا وتعاهدوا أوكد عهد ، وأوثق عقد ، لا ينقض ولا ينكث ما أشرقت شمس على ثبير ، وحن بفلاة بعير ، وما أقام الأخشبان (١) واعتمر بمكة انسان : حلف أبد لطول أمد ، يؤيده طلوع الشمس شدا ، وظلام الليل مدا . وإن عبد المطلب وولده ومن معهم ورجال خزاعة متكافئون متضافرون متعاونون . على عبد المطلب النصرة لهم بمن تابعه على طالب ، وعلى خزاعة النصرة لعبد المطلب وولده ومن معه على جميع العرب في شرق أو غرب . أو حزن أو سهل ، وجعلوا الله على ذلك كفيلا ، وكفى به جميلا ... »

هذه أمثلة السجع الذي فاه به الرسول أو أقره من كلام غيره ، وما عداه من تجميل الكلام فهو تجميل البلاغ الذي لا كلفة فيه

وقد أعانه عليه السلام على أسلوب البلاغ أن الذين كانوا يستمعون إليه إنما كانوا يستمعون الى كلام نبي محبوب مطاع . فهو نافذ في نفوسهم بغير حيلة ، مستجمع لأسماهم بغير تشويق ، قائم بالكفاية الوسطى التي لا حاجة بها الى افراط ولا خوف عليها من تفريط .

أما رسائله الى الملوك والأمراء — ممن لم يسلم ولم يهتد — فانما كانت للبلاغ أول الأمر ، ثم يأتي بعدها التفسير والتفصيل على السنة المرشدين والموكلين بالاجابة فيما يسألونه عنه ، فهي كذلك قائمة على كفاية البلاغ ، تلك الكفاية الوسطى التي لا افراط فيها ولا تفريط

ونقول ان الأمرين أعانا النبي على أسلوبه المبلغ البليغ ولا نقول انهما أنشأه وأوحياه .. فان الحوار القليل الذي حفظ لنا من أيام الدعوة الأولى قبل استفاضة الدين واقبال الاتباع المؤمنين قد كانت له صبغة هذا الأسلوب بعينه غير ظاهر فيها أثر من الكلفة والاصطناع .. لأن

(١) جبلا مكة

مصدر الفحولة في الإبلان بقوله لا ثقة المستمعين إليه . فكلامه كله نسق واحد في هذه الحصلة ، وخطابه كله خطاب سهولة وكرامة ، وسياقه كله مطواع لا احتيال فيه ، ووصاته لمن يقتدى به أن يقصر الخطبة ويقل الكلام كما كان يقول لمن يبعث بهم من الولاة

ولا يفهم من هذا أن مقتضيات الكلام لم يكن لها أثر في اختلاف الوضع أو اختلاف الموقف وهو يخاطب الناس . فقد كان عليه السلام يلاحظ هذا الاختلاف ويعطيه حقه كما كان يفعل حين يتكلم على قوس وهو يخطب في الحرب ، أو يتكلم على عصا وهو يخطب في العظا ، وكان يبدو على وجهه ما يختلج بصدره اذا غضب أو أنذر « فكان اذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش : صبحكم مساكم » ..

أسلوب عصري

ولمن شاء أن يحسب أسلوب النبي — كتابة وخطابا — أسلوبا عصريا يقتدي به المعاصرون في زماننا هذا وفي كل زمان ... لأن الأسلوب الذي يخرج من الفطرة المستقيمة هو أسلوب عصري في جميع العصور ، ويخطئ من يحسب الوصل بين الجمل شرطا للكلام العربي القديم والفصل بينها علامة من علامات الأساليب المبتدعة في الزمن الأخير ، ويخطئ كذلك من يحسب قبول الكلام لآشارات الترقيم علامة أخرى من علامات هذه الأساليب . فإليك الحديث الذي نقلناه آنفا وهو مثل من أمثلة كثار حيث يقول عليه السلام : « ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست في كتاب الله ؟ ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل ، وإن كان مائة شرط : قضاء الله حق ، وشرط الله أوثق ، وإنما الولاء لمن أعنق » هذا الحديث رضى البلاغة العربية في وصله وفصله ، ورضى الأسلوب العصري في آشارات ترقيمه ، وآية على خطأ الذين يفرقون بين شروط البلاغة العربية ذلك النحو من التفريق

رأى النبی فی الشعر

وقد نقلت الينا تعقيبات معدودة عن رأی النبی فی الشعر والشعراء لا تدخل فی النقد الفني وتدخل فی كلام الأنبياء الذين يقيسون الكلام بقياس الخير والصلاح والمطابقة لشعائر الدين وسنن الصدق والفضيلة . ومنها قوله : « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد » ألا كل شيء ما خلا الله باطل » . وقوله عن امرئ القيس انه صاحب لواء الشعراء الى النار ، وانه كان يتمثل بشطرات من أبيات يبدل وزنها كلما أمكن تبديله مع بقاء المعنى المقصود ، فكان يقول مثلاً : « ويأتيك بالأخبار من لم تزود » لأنها لا تقبل التبديل مع بقاء المعنى ، ولكنه اذا نطق بقول سحيم عبد بنى الحسحاس : « كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا » قدم كلمة الاسلام فقال : « كفى الاسلام والشيب للمرء ناهيا » لينفي ما استطاع انه شاعر ينظم القصيد وان سور القرآن قصائد مرتلات كما زعم المشركون .

وقد استحسن ما قيل من الشعر في النضح عن الاسلام والذود عنه وعن آله ، فكانت آراؤه هذه وشبهاتها آراء الأنبياء فيما يحمدون من كلام ، لأنهم قد بعثوا لتعليم الناس دروس الخير والصلاح ، ولم يبعثوا ليلقنهم دروسهم في قواعد النقد والانشاء

جوامع الكلم

الا ان البلاغ أقوى البلاغ في كلام النبی هو اجتماع المعاني الكبار في الكلمات القصار ، بل اجتماع العلوم الوافية في بضع كلمات وقد يبسطها الشارحون في مجلدات

ومن أمثلة ذلك علم السلوك في الدنيا والدين وقد جمعه كله في أقل من سطرين قصيرين من قوله : « احرث لدينك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا »

ومن أمثله علم السياسة الذي اجتمع كله في قوله : « كما تكونوا يولّ عليكم » ..

فأى قاعدة من القواعد الأصيلة في سياسة الأمم لا تنطوى بين هذه الكلمات ؟ ..

ينطوى فيها ان الأمم مسؤولة عن حكوماتها ، لا يعفيها من تبعة ما تصنع تلك الحكومات عذر بالجهل أو عذر بالاكراه ، لأن الجهل جهلها الذي تعاقب عليه ، والاكراه ضعفها الذي تلقى جزاءه

وينطوى فيها ان العبرة بأخلاق الأمة لا بالنظم والأشكال التي تعلنها الحكومة ، فلا سبيل الى الاستبداد بأمة تعاف الاستبداد ولو لم يتقيد فيها الحاكم بقيود القوانين ، ولا سبيل الى حرية أمة تجهل الحرية ولو تقيد فيها الحاكم بألف قيد من النظم والأشكال

وينطوى فيها ان الولاية تبع تابع وليست بأصل أصيل ، فلا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وأخرى ألا يغير الوالى قوما حتى يغيروا هم قبل ذلك

وينطوى فيها « ان الأمة مصدر السلطات » على حد التعبير الحديث وينطوى فيها ان الأمة تستحق الحكم الذي تصبر عليه ولو لم يكن حكم صلاح واستقلال

وذلك هو الابلاغ الذي ينفذ في وجهاته كل نفاذ ويلحق بهذا في العلم بالتبعات قوله عليه السلام : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل »

فالمزايا الانسانية واجبات وأعباء وليست بالمتع والأزياء ، وعلم الانسان بالخير والشر يفرض عليه الفرائض التي يتلى بها ، ولا يهنئه بالراحة التي يصبو اليها . وهو محسوب عليه وكذلك ذكاؤه محسوب عليه

وأمثال هذه الأحاديث في أصول السياسة والأخلاق والاجتماع مما لا يتناوله الاحصاء في هذا المقام

كان محمد فصيح اللغة فصيح اللسان فصيح الأداء...
وكان بليغا مبثغا على أسلس ما تكون بلاغة الكرامة والكفاية ، وكان بلسانه وفؤاده من المرسلين ، بل قدوة المرسلين .

مُحَمَّدُ الصِّدِّيقِ

عطوف ودود

إذا كان الرجل محبا للناس ، أهلا لحبهم إياه ، فقد تمت له أداة الصداقة من طرفيها ..

وانما تتم له أداة الصداقة بمقدار ما رزق من سعة العاطفة الانسانية ومن سلامة الذوق ، ومثانة الخلق ، وطبيعة الوفاء فلا يكفي أن يحب الناس نحبوه . لأنه قد يحبهم وفي ذوقه نقص ينقّرهم منه ويذهّدهم في حبه ..

ولا يكفي أن يكون محبا سليم الذوق ليبلغ من الصداقة مبلغها . فقد يكون محبا محبا با حسن الذوق ثم يكون نصيبه من الخلق المتين والطبع الوفي نورا ضعيفا لا تدوم عليه صداقة ، ولا تستقر عليه علاقة

انما تتم أداة الصداقة بالعاطفة الحية ، والذوق السليم ، والخلق المتين ، وقد كان محمد في هذه الخصال جميعا مثالا عاليا بين صفوة خلق الله كان عطوفا يزأم من حوله ويودهم ويدوم لهم على المودة طول حياته ، وان تفاوت ما بينه وبينهم من سن وعرق ومقام

كان صبيا في الثانية عشرة يوم سافر عمه ، فتعلق به حتى أشفق العم أن يتركه وحده فاصطحبه في سفره

وكان شيخا قارب الستين يوم بكى على قبر أمه بكاء من لا ينسى وليس في سجل المودة الانسانية أجمل ولا أكرم من حنانه على مرضعته حليلة ومن حفاوته بها وقد جاوز الأربعين ، فيلقاها هاتفا بها : أمي ! أمي ! ويفرش لها رداءه ويمس ثديها بيده ... كأنه يذكر ما لذلك

الذي عليه من جميل ، ويعطيها من الابل والشاه ما يغنيها في السنة
الجدباء ..

ولقد وفدت عليه هوازن وهي مهزومة في وقعة حنين وفيها عم له من
الرضاعة ... لأجل هذا العم من الرضاعة تشفع النبي الى المسلمين أن
يردوا السبي من نساء وأبناء ، واشترى السبي ممن أبوا رده الا بمال
وحضنته في طفولته جارية عجماء فلم ينس لها مودتها بقية حياته ،
وشغله أن تنعم بالحياة الزوجية ما يشغل الأب عن أمر بناته ورحمه ،
فقال لأصحابه : « من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم
أمن ... وما زال يناديها يا أمة يا أمة كلما رآها وتحدث إليها ، وربما
رآها في وقعة قتال تدعو الله وهي لا تدري كيف تدعو ولكنها الأعجمية ،
فلا تنسيه الوقعة الحازبة أن يصغى إليها ويعطف عليها

وكان هذا عطفه على كل ضعيف ولو لم يذكره بحنان الطفولة ورحم
الرضاع . فما نهر خادما ولا ضرب أحدا ، وقال أنس : « خدمت النبي
صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لي أف قط ، ولا قال لشيء
صنعت : لم صنعت ؟ .. ولا لشيء تركته : لم تركته ؟ .. »
وكان من أضعك الناس وأطيبهم نفسا ، صافي القلب اذا كره شيئا
رؤي ذلك في وجهه ، واذا رضي عرف من حوله رضاه

وقد اتسع عطفه حتى بسطه للأحياء كافة ولم يقصره على ذوي الرحم
من الناس ولا على الناس من غير ذوي الرحم . فكان يصغي الاناء للمهرة
لتشرب ، وكان يواسي في موت طائر يلهو به أخو خادمه ، وأوصى
المسلمين « اذا ركبتم هذه الدواب فأعطوها حظها من المنازل ولا تكونوا
عليها شياطين » وكرر الوصاية بها أن « اتقوا الله في البهائم المعجمة
فاركبوها صالحة وكلوها صالحة »

وقال : « ان الله غفر لامرأة مومسة مرت بكلب على رأس ركي يلهث
قد كاد يقتله العطش ، فمزعت خفها فأوثقته بخمارها ، فمزعت له من الماء

فغفر لها بذلك » .

وقال في هذا المعنى : « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض »

لا بل شمل عطفه الأحياء والجماد كأنه من الأحياء ، فكانت له قصعة يقال لها الغراء . وكان له سيف محلى يسمى ذا الفقار ، وكانت له درع موشحة بنحاس تسمى ذات الفضول ، وكان له مرج يسمى الداج وبساط يسمى الكز وركوة تسمى الصادر ، ومراة تسمى المدلة ، ومقراض يسمى للجامع ، وقضيب يسمى المشقوق ..

وفي تسمية تلك الأشياء بالأسماء معنى الألفة التي تجعلها أشبه بالأحياء المعروفين ممن لهم السمات والعناوين ، كأن لها « شخصية » مقربة تميزها بين مثيلاتها ، كما يتميز الأحباب بالوجوه والملامح وبالكنى والألقاب ..



هذه العاطفة الانسانية التي رحبت حتى شملت كل ما أحاطت به وأحاط بها لم تكن هي كل أداة الصداقة في تلك النفس العلوية ، بل كان معها ذوق سليم يضارعها رفعة ونبلًا ويمثل - فيما يرجع الى علاقات النبي بالناس - في رعاية شعورهم أتم رعاية وأد لها على الكرم والجود ..

« كان اذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه قام معه ، فلم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذى ينصرف عنه . واذا لقيه أحد من أصحابه فتناول يده فاوله اياها فلم ينزع يده منه حتى يكون الرجل هو الذى ينزع يده منه ... »

« وكان اذا ودع رجلا أخذ بيده فلا يدعها حتى يكون الرجل هو الذى يدع يده ... »

« وكان أرحم الناس بالصبيان والعيال » ... « واذا قدم من سفر تلقى بصبيان أهل بيته »

« وكان أشدَّ حياء من العذراء في خدرها ، وأصبر الناس على
أقدار الناس » ..

يحفظ مغيبهم كما يحفظ محضرهم ويقول لصحبه : « من اطلع في
كتاب أخيه بغير أمره فكأنما اطلع في النار »
ومع العاطفة الانسانية والذوق السليم والأدب الكريم : سمت جميل
ونظافة بالغة وحرص على أن يراه الناس في أجمل مرآه

ومع هذا كله أمانة يثق بها العدو فما بال الصديق ؟ .. وحسبك من
ثقة الناس به ما أودعوه من أمانات وهم ينصبونه العدا ، فلم يخرج
للهجرة وهو مهتد في سربه حتى رد الأمانات الى أصحابها ، وقد يكون
في ردها ما ينبههم الى خروجه ويأخذ عليه سبيل النجاة ، وهذا الى
اشتهاره بالأمانة في صباه حتى سمي بالأمين قبل أن يتجرد لدعوة تنبئي
لداعيها أمثال هذه الصفات

كل هذه المزايا النفسية — بل بعض هذه المزايا النفسية — خلق أن
يتم لصاحبه أداة الصداقة أوفى تمام ، وأن يجعله محباً لمن حوله جديراً
منهم بأحسن حب وولاء . فلم يعرف في تاريخ العظيمة — لا بين الأنبياء
ولا غير الأنبياء — انسان ظفر بنخبة من الصداقات على اختلاف الأقدار
والبيئات والأمزجة والأجناس كالتي ظفر بها محمد ، ولم يعرف عن انسان
أنه أحيط من قلوب الضعفاء والأقوياء بما يشبه الحب الذي أحيط به
هذا القلب الكبير .

تقدم في بعض فصول هذا الكتاب حديث زيد بن حارثة الذي خطف
من أهله وهو صغير ثم اهتدى اليه أبوه واهتدى هو الى أبيه على لهفة
الشوق بعد يأس طويل ، فلما وجب أن يختار بين الرجعة الى آله وبين
البقاء مع سيده «محمد» اختار البقاء مع السيد على الرجعة مع الوالد ،
وشق عليه أن يحتجب عن ذلك القلب الذي غمره بحبه ومواساته ، وهو
ضعيف شريد لا يرى ذويه ولا يدري من هم ذووه

وكان لا يغنى من لازموه أن يلزموه في الحياة حتى يثقوا من ملازمتهم
اياهم بعد الممات . فضعف مولاه ثوبان ونحل جسمه وألح عليه الحزن في
ليله ونهاره ، فلما سأله السيد العطوف يستفسره علة حزنه ونحوه قال
في طهارة الأبرار : « انى اذا لم أرك اشتقتك واستوحشت وحشة عظيمة ،
فذكرت الآخرة حيث لا أراك هناك لأنى ان دخلت الجنة فأنت تكون في
درجات النبيين فلا أراك » ورويت هذه القصة في أسباب نزول الآية
الكريمة : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم
من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا »
وأدرك الموت بلالا فأحاط به أهله يصيحون وا كرباه وهو يجيبهم :
« وا طرباه .. غدا ألقى الأحبة محمدا وصحبه .. ا »

وقد غنيا مما تقدم بحب الصداقة بين الانسان والانسان لأننا لم
نقصد حب المؤمن لنبيه في هذا الباب . فقد بلغ من امتلاء قلوب
المسلمين والمسلمات بهذا الحب أن المرأة كانت تسمع أنباء المعركة فينعى
اليها خاصة أهلها وهى تسترجع وتعرض عن هذا لتسأل عن النبى وتهتم
بسلامته قبل اهتمامها بسلامة الأخوة وبنى الأعمام . الا اننا غنيا محبة
الصداقة في هذا الباب لأنها هى المحبة التى جعلت كثيرا من الناس
يؤمنون بمحمد لمحبتهم اياه واطمئنأناهم اليه ، فكانت سابقة فى قلوبهم
وأرواحهم لحب العقيدة والايان

عظمة العظمت

ان عطف العظيم على الصغير حتى يستحق منه هذا الحب لفضيلة
بشرف بها مقام العظيم فى نظر بنى الانسان
ولكن قد يقال ان استحقاق العظيم أن يحبه العظماء لأشرف من ذلك
رتبة وأدل على حظه الجليل من فضائل التفوق والرجحان ... وهذا
صحيح لا ريب فيه ..

وهنا أيضا قد تمت لمحمد معجزته التي لم يضارعه فيها أحد من ذوى الصداقات النادرة ..

فأحدثت به نخبة من ذوى الأقدار تجمع بين عظمة الحسب وعظمة الثروة وعظمة الرأى وعظمة الهمة ، وكل منهم ذو شأن فى عظمتة تقوم عليه دولة وتنهض به أمة ، كما أثبت التاريخ من سير أبى بكر ، وعمر ، وخالد ، وأسامة ، وابن العاص ، والزبير ، وطلحة ، وسائر الصحابة الأولين ..

وربما عظم الرجل فى مزية من المزايا فأحاط به الأصدقاء والمريدون من التابعين فى تلك المزية ، كما أحاط الحكماء بسقراط والقادة بنابليون بل ربما أحاط الصالحون بالنبي العظيم كما أحاط الحواريون بالمسيح عليه السلام وكلهم من معدن واحد وبيئة متقاربة

أما عظمة العظمت فهى تلك التى تجذب إليها الأصحاب التابعين من كل معدن وكل طراز ، وهى التى يتقابل فى حبها رجال بينهم من التفاوت مثل ما بين أبى بكر وعلي ، وبين عمر وعثمان ، وبين خالد ومعاذ ، وبين أسامة وابن العاص : كلهم عظيم وكلهم مع ذلك مخالف فى وصف العظمة لسواه تلك هى العظمة التى اتسعت آفاقها وتعددت نواحيها حتى أصبحت فيها ناحية مقابلة لكل خلق ، وأصبح فيها قطب جاذب لكل معدن ، وأصبحت تجمع إليها البأس والحلم ، والحيلة والصرافة ، والألمعية والاجتهاد ، وحكمة السن وحمية الشباب

تلك هى بلا ريب عظمة العظمت ، ومعجزة الاعجاز فى باب الصداقات وما استحقها محمد الا بنفس غنيت بالحب وخلصت له حتى أعطت كل محب لها كفاء ما يعطيها : مودة بمودة وصفاء بصفاء ، وعليها المزيد من فضل التفاوت فى الأقدار

ولقد كان صاحب الفضل على أصفياه جميعا بما هداهم اليه من نور العقل ونور البصيرة ، وهما أشرف من نور البصر لأنه نعمة يشترك فيها

الانسان والمجماوات ، ونور العقل ونور البصيرة نعمتان يختص بهما الانسان . ومع هذا كان يذكر فضلهم ويشيد بذكرهم كما قال عن أبي بكر « ما أحد أعظم عندي يدا من أبي بكر : واساني بنفسه وماله وأنكحني ابنته » وكما قال عن أبي بكر وعمر : « أبو بكر وعمر مني بمنزلة السمع والبصر » وكما قال عن علي : « علي أخي في الدنيا والآخرة » وكما قال عن بعض أصحابه : « ان الله تعالى أمرني بحب أربعة وأخبرني انه يحبهم : علي منهم ، وأبو ذر ، والمقداد ، وسلمان » وكما قال عن الأنصار جميعا وهو في مرض الموت : « استوصوا بالأنصار خيرا . انهم نبيتي التي أويت اليهم ، فأحسنوا الى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم .. » وغير ذلك كثير عن الصحابة كافة وعن بعضهم المذكورين بأسمائهم .

على اثنا نلمس دلائل هذا القواد الرحب وهذا العطف الانساني الشامل في معاملته لأعدائه وشائتيه فضلا عن معاملته للأصفياء ، ومن ليس بينهم وبينه عدااء ولا صفاء ..

فما ثار من أحد أساء اليه في شخصه ، وقد عفا عن رجل هم بقتله وهو نائم ورفع السيف ليهوي به فسقط من يده على كره منه ، وما حارب قط أحدا كان في وسعه أن يناله ويحاسنه ويتقي شره .

ومعاملته لعبد الله بن أبي الذي كان المسلمون يسمونه رأس النفاق مثل من أمثلة الاغضاء والصفح الجميل . فقد عاهد وغدر ثم عاهد وغدر ، وعاش ما عاش يكيد للنبي في سره ويماليء عليه أعداءه ، وشاع أن النبي عليه السلام قضى بقتله فتقدم ابنه وقال له : « يا رسول الله ، انه بلغني انك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فان كنت فاعلا فمروني به فأنا أجمل اليك رأسه . فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني ، واني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر الى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل رجلا مؤمنا بكافر فأدخل النار » فأبى النبي أن يقتله وآثر الفرق به ، وزاد في افضاله واجماله فكافأ

الولد خير مكافأة على خلوص نيته وإيثاره البر بدينه على البر بأبيه .
فأعطاه قميصه الطاهر يكفن به أباه وصلى عليه ميتا ووقف على قبره
حتى فرغ من دفنه ، وقد حاول عمر أن يثنيه عن الصلاة على ذلك العدو
الذي آذاه جهد الأيذاء فذكر الآية : « ... استغفر لهم أو لا تستغفر
لهم . ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ... » فقال : « لو
أعلم أنني ان زدت على السبعين غفر له زدت »

هذه النفس المطبوعة على الصداقة والرحمة والسماحة ما أعجب
اتهمها بالقسوة على السنة بعض المؤرخين الأوربيين ! ..
ما أعجب اتهمها بالقسوة لأنها دانت اناسا بالموت كما يدين القاضي
مجرما بذنبه وهو من أرحم الرحماء ؟ ..
ما أعجبهم اذ يذكرون العقوبة وينسون الذنب الذي استوجب العقوبة
كما يستوجب السبب النتيجة .
وأي ذنب ؟.. ذنب لو قوبل به غير محمد لأراق فيه أنهارا من الدماء
وله حجة من سلطان الدنيا والآخرة .
فلا نذكر استهزاء المشركين به واعانتهم اياه والقضاءهم عليه القذر
والخجارة ، واثمارهم بحياته وحياة أصحابه واخراجهم المسلمين من
ديارهم الى أقصى الديار ، ولا نذكر العناد والاغظة والاستشارة لغير
جريرة الا أنهم دعوا الى عبادة الله والتحلي بمكارم الأخلاق وترك عبادة
الأصنام وترك الرذيلة

لا نذكر شيئا من هذا فهو أطول من أن يحصيه هذا الكتاب ، ولكننا
نذكر حادثا واحدا تجمع فيه من اللؤم ما تفرق في كثير غيره ، وذلك
حادث الرسل الأربعين - وقيل السبعين - الذين قتلوا في بئر معونة ولا
ذنب لهم الا أنهم ذهبوا تلبية لدعوة الداعين ليعلموا من ينشد علم
القرآن والدين ، غير مغضوب عليه

فماذا كانت دول الحضارة صانعة بالقاتلين الغادرين لو كان هؤلاء الأربعة أو السبعون مبشرين بالدين المسيحي قتلوا في قبيلة من الهمج الذين يأكلون الآدميين ومن حقهم أن يعذروا كما تعذر الوحوش .. ان بقي من أبناء القبيلة من يروي أبناء المقتلة ، فقد يقال ان القوم لرحماء في العقاب ! ..

ولم يكن حادث بئر معونة بالحادث الوحيد من حوادث الغدر بالرسل الأبرياء . فلعلنا نختم هذا الفصل عن الصداقة بخير ما يختم به حين نشير الى غدر قبيلة هذيل بالرسل الستة الذين ذهبوا اليهم ليعلموا من شاء أن يتعلم أحكام الدين وهو آمن في داره ، لا اكراه له ولا بنفي عليه . فقتلوا جميعا وجيء بأحدهم زيد بن الدثينة أسيراً ليبيع .. فاشتراه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه ، ونصب للقتل فسأله أبو سفيان مستهزئاً : أنشدك الله يا زيد . أتحب أن محمدا الآن عندنا في مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك ؟ » فأجابه زيد : « والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي ... »
نصاح أبو سفيان دهشاً : « ما رأيت من الناس أحدا يحبه أصحابه ما يحب أصحاب محمد محمدا ... »

من فعلة كهذه تعلم مدى ما استحقه محمد من حب الأصدقاء ومدى ما استحقه أعداؤه من جزاء ، فقد أحب أسدقاءه وأجبه لأنه طبع على الصداقة . أما أعداؤه فقد لقوا جزاءهم لأنهم هم طبعوا على العداة والاعتداء ..

مُحَمَّدُ الرَّئِيسِ

الرئيس الصديق

من الحسن أن نكتب عن محمد الرئيس بعد كتابتنا عن محمد الصديق .
لأنه هو قد جعل للرئاسة معنى الصداقة المختارة ، فمحمد الرئيس هو
الصديق الأكبر لرؤوسه ، مع استطاعته أن يعتز بكل ذريعة من ذرائع
السلطان ..

فهناك الحكم بسلطان الدنيا

وهناك الحكم بسلطان الآخرة

وهناك الحكم بسلطان الكفاءة والمهابة

وكل أولئك كان لمحمد الحق الأول فيه : كان له من سلطان الدنيا كل
ما للأمر المطلق اليدين في رعاياه ، وكان له من سلطان الآخرة كل ما
للنبي الذي يعلم من الغيب ما ليس يعلم المحكومون ... وكان له من
سلطان الكفاءة والمهابة ما يعترف به بين أتباعه أكفأ كفؤ وأقر مهيب
ولكنه لم يشأ إلا أن يكون الرئيس الأكبر ، بسلطان الصديق الأكبر..
بسلطان الحب والرضا والاختيار ..

فكان أكثر رجل مشاورة للرجال ، وكان حب التابعين شرطا عنده من
شروط الامامة في الحكم بل في العبادة . فالامام المكروه لا ترضى له صلاة .
وكان يدين نفسه بما يدين به أصغر أتباعه .. فروي أنه كان في سفر
وأمر أصحابه باصلاح شاة . فقال رجل : يا رسول الله ! عليّ ذبحها . وقال
آخر : عليّ سلخها . وقال آخر : عليّ طبخها .. فقال عليه السلام : وعليّ
جمع الخطب . فقالوا : يا رسول الله تكفيك العمل . قال : علمت أنكم

تكفونني ، ولكن أكره أن أتميز عليكم ، ان الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يواه متميزا بين أصحابه «
وأبى ، والمسلمون يعملون في حفر الخندق حول المدينة ، الا أن يعمل معهم بيديه . ولولا أنها سنة حميدة يستنها للرؤساء في حمل التكاليف لأغفى نفسه من ذلك العمل وأغفاه المسلمون منه شاكرين
وجعل قضاء حوائج الناس أمانا من عذاب الله أو كما قال : « ان لله تعالى عبادا اختصهم بحوائج الناس يفرع اليهم الناس في حوائجهم . أولئك الآمنون من عذاب الله »

وقد كان أعلم الناس أن الأعمال بالنيات . ولكنه علم كذلك « ان الأمير اذا ابتغى الرية في الناس أفسدهم »: فوكل الضمائر الى أصحابها والى الله ، وحاسب الناس بما يجدي فيه الحساب
سمع خصومة بباب حجرته فخرج اليهم قائلا : « انما أنا بشر . وانه يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق ، فأقضي له بذلك . فمن قضيت له بحق مسلم فانما هي قطعة من النار فليأخذها أو فليتركها »

واليوم يكثر اللاغظون بحرية الفكر ويحسبوننها كشفا من كشوف الثورة الفرنسية وما بعدها ، ويحرمون على الحاكم أن يؤاخذ الناس بما فكروا به ما لم يتكلموا أو يعملوا ويكن في كلامهم وعملهم ما يخالف الشريعة ..

فهذا الذى يحسبونه كشفا من كشوف العصر الأخير قد جرى عليه حكم النبي قبل أربعة عشر قرنا ، وشرعه لأمته في أحاديثه حيث قال عليه السلام : « ان الله تجاوز لأمتي عما حدثت به نفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به » ..

وزعموا كذلك أن تقديم الرحمة على العدل في تطبيق الشريعة دعوة من دعوات المصلحين المحدثين لم يسبقوا اليها ، وهي هي دعوة النبي

العربي التي كررها ولم يدع قط الى غيرها فقال : « ان الله تعالى لما خلق الخلق كتب بيده على نفسه ن رحمتي تغلب غضبي » وقال : « ان الله تعالى رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف » وقال : « ان الله تعالى لم يبعثني معنتا ولا متعنتا ، ولكن بعثني معلما ميسرا » وروى عنه غير صاحب من أصحابه انه ما خير بين حكمين الا اختار أيسرهما ، ما لم يكن فيه خرق للدين ..

وكان يوصي بالضعفاء ويقول لصحبه : « أبغوني الضعفاء فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم » ويذم الترفع على الخدم والفقراء « فما استكبر من أكل مع خادمه وركب الحمار بالأسواق واعتقل الشاة فحلبها » لكنه مع الرحمة بالصغير لا ينسى حق الكبير : « من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا »

اذ ليس الانصاف حراما على الكبراء حلالا لمن صغر دون من كبر ، فلكل حق ولكل انصاف . وانزال الناس منازلهم كما أمر قومه هو خير شعار تستقيم عليه الحكومة ، وتنعكس أمور الأمم بانعكاسه

وكان النبي الرئيس يعلم أن الرئاسة لجميع المرءوسين وليست للموافقين منهم دون المخالفين ، فيأمر قومه أن « اتقوا دعوة المظلوم وان كان كافرا فانها ليس دونها حجاب »

واذا قال هذا رئيس ونبي فانها لأولى السنن أن يتبعها الرؤساء كافة ، لأنهم لم يبعثوا لنشر الدين ومحو الكفر كما بعث الأنبياء . لقد كانت سنة الرئاسة عند محمد هي سنة الصداقة .. فلو استغنى حكم عن الشريعة لاستغنى عنها حكم هذا الرئيس الذي جاء بالشرعية لجميع متبعيه ..

الزَّوْج

حق المرأة

الكلام عن زوج يستدعي الكلام عن مكانة امرأة عند رجل ، وعن مكانة النساء عامة عند الرجال عامة

وانما تعرف مكانة المرأة التي وصلت اليها بفضل محمد ودينه ، متى عرفت مكانة المرأة التي استقرت عليها في الجاهلية ، ومكانة المرأة التي استقرت عليها في عصره - وبعد عصره - وبين أمم أخرى غير الأمة العربية ..

وقياسان اثنان كافيان لبيان الفارق البعيد بين ما كانت عليه المرأة في الجاهلية وما صارت اليه بعد رسالة محمد :

كانت متاعا يورث ويقسم تقسيم السوائم بين الوارثين ، فأصبحت بفضل الاسلام ونبئه صاحبة حق مشروع ، ترث وتورث ولا يمنعها الزواج أن تتصرف بماله وهي في عصمته كما تشاء

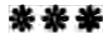
وكانت وصمة تدفن في مهدها فرارا من عار وجودها ، أو عبئا تدفن في مهدها فرارا من نفقة طعامها .. فأصبحت انسانا مرعى الحياة ينال العقاب من ينالها بمكروه

ولم تكن في البلاد الأخرى بأسعد حظا منها في البلاد العربية فلا نذكر شرائع الرومان واستعبادها النساء . ولا نذكر المتنطسين في صدر المسيحية وتسجيلهم عليها النجاسة وتجريدهم اياها من الروح وكفى أن نذكر عصر الفروسية الذي قيل فيه انه عصر المرأة الذهبي بين الأمم الأوربية ، وإن الفرسان كانوا يفدون النساء بالدم والمال .. فهذا العصر كان كما قال الدارسون له : عصر الحصان قبل أن يكون

عصر المرأة أو عصر « السيدة المفداة »
وقد أجمله جون لانجدون دافيز صاحب « التاريخ الموجز للنساء » (١)
فقال : « ان عصر الفروسية كان معروفا بما لحظ فيه من فقدان الشبان
على الجملة الاهتمام بالجنس الآخر . ولعلنا نقلل من الدهشة لذلك لو
أننا وعينا كلمة الفروسية وذكرنا أنها لم تكن ذات شأن بالسيدات كما
كانت ذات شأن بالخيال على خلاف ما يروق الكثيرين أن يذكروه . فقلنا
بلغ الاهتمام بالمرأة مبلغ الاهتمام بالحصان في عصر الفروسية الا على
اعتبار أنها عنوان ضيقة »

الى القارئ محادثة من كتاب أغاني الآداب والتحيات Chansons de Geste
يروى فيها أن ابنة أوسيس Ausies جلست في نافذتها ذات يوم فعبر بها
فتيان — هما جاران وجربرت — وقال أحدهما : « أنظر . أنظر يا جربرت :
وحق العذراء ما أجملها من فتاة ! فلم يزد صاحبه على أن قال : يا لهذا
الجواد من مخلوق جميل !.. دون أن يلتفت بوجهه .. وعاد صاحبه يقول
مرة أخرى : « ما أحسبني رأيت قط فتاة بهذه الملاحه . ما أجمل هاتين
العينين السوداوين ! » وانطلقا وجربرت يقول : « ما أحسب أن جوادا
قط يماثل هذا الجواد » وهى حادثة صغيرة ولكنها واضحة الدلالة ، اذ
قلة الاهتمام تورث الازدراء ... ولحق أن عصر الفروسية يرينا بعض
الشواهد الواضحة على هذا الازدراء . واليك مثالا حادثة في الكتاب
المتقدم يروى فيها أن الملكة بلانشفلور ذهبت الى قرينها الملك بين Pepin
تسأله معونة أهل اللورين . فأصغى اليها الملك ثم استشاط غضبا ولطمها
على أنفها بجمع يده فسقطت منه أربع قطرات من الدم وصاحت تقول :
« شكرا لك . ان أرضاك هذا فأعطني من يدك لكمة أخرى حين تشاء »
ولم تكن هذه حادثة مفردة لأن الكلمات على هذا النحو كثيرا ما
تتكرر كأنها صيغة محفوظة .. وكأما كانت اللكمة بقبضة اليد جزءا كل
امرأة جسرت في عهد الفروسية على أن تواجه زوجها بعشورة

«... .. ومتى كانت المرأة تزف الى زوجها غفو الساعة وكثيرا ما تزف الى رجل لم تره قبل ذلك ، إما لتسهيل المحادثات الحربية والمدد العسكري ، أو لتسهيل صفقة من صفقات الضياع. ومتى كانت بعد زفافها الى فارس مجنون بالحرب معطل الذكاء قد يكون في معظم الأحوال من الأميين - عرضة للضرب كلما واجهته بمخالفة - أترى سيدة القصر اذن واجدة لها رحمة أو ملاذا من حياة الشقاء أو من صحبة قرين ليس لها بأهل ؟ »



ولقد تقدم الزمن في الغرب من العصور المظلمة الى عصور الفروسية الى ما بعدها من طلائع العصر الحديث ولما تبرح المرأة في منزلة مسفئة لا تفضل ما كانت عليه في الجاهلية العربية ، وقد تفضلها منزلة المرأة في تلك الجاهلية ..

ففى سنة ١٧٩٠ ، بيعت امرأة في أسواق انجلترا بثلثين لأنها ثقلت بتكاليف معيشتها على الكنيسة التي كانت تؤويها ..
وبقيت المرأة الى سنة ١٨٨٢ ، محرومة حقها الكامل في ملك العقار وحرية المقاضاة ..

وكان تعلم المرأة سبة تشمئز منها النساء قبل الرجال ، فلما كانت الیصابات بلاكويل تتعلم في جامعة جنيف سنة ١٨٤٩ - وهي أول طبيبة في العالم - كان النسوة المقيمات معها يقاطعنها ويأبين أن يكلمنها ، ويزوين ذيولهن من طريقها احتقارا لها كأنهن متحرزات من نجاسة يتقين مساسها .
ولما اجتهد بعضهم في اقامة معهد يعلم النساء الطب بمدينة فلادلفيا الأمريكية أعلنت الجماعة الطبية بالمدينة أنها تصدر كل طبيب يقبل التعليم بذلك المعهد وتصدر كل من يستشير أولئك الأطباء .
وهكذا تقدم الغرب الى أوائل عصرنا الحديث ولم تتقدم المرأة فيه تقدا يرفعها من مراغة الاستعباد التي استقرت فيها من قبل الجاهلية العربية ..

فماذا صنع محمد ؟ وماذا صنعت رسالة محمد ؟

حكم واحد من أحكام القرآن الكريم أعطى المرأة من الحقوق كفاء ما فرض عليها : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف »

وحكم آخر من أحكامه العالية ، أمر المسلم باحسان معاشرتها ولو مكروهة غير ذات حظوة عند زوجها : « وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا »

وأباح لها الدين في الجهاد أن تكسب كما يكسب الرجال : « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن »
ولم يفضل الرجل عليها الا بما كلفه من واجب كفالتها واقامه أودها والسهر عليها ..

أما محمد فقد جعل خيار المسلمين خيارهم لنسائهم : « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائهم »

وأمر بمداواة ضعفها وتقصصها لأن « المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقة ، فان استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج ، وان ذهبت تقيمها كسرتها ، وكسرها طلاقها »

وأوجب على الرجل أن يتجمل لامرأته ويبدو لها في المنظر الذي يروقها ، فقال عليه السلام مما قال في هذا المعنى وهو كثير : « اغسلوا ثيابكم وخذوا من شعوركم واستاكوا وتزينوا وتنظفوا ، فان بنى إسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم »

وأوجب على الرجل اذا خطب امرأة أن يظهرها على عييه ان كان به عيب مستور : « اذا خطب أحدكم المرأة وهو يخضب بالسواد فليعلمها انه يخضب » ..

وبلغ من رعاية شعورها ومداواة خجلها الذي فطرت عليه أنه أوجب الرجل أن يمتعها كما تمتعه لأنها لا تطلب لنفسها ما يطلبه الرجل منها : « فاذا جامع أحدكم أهله فليصدقها . ثم اذا قضى حاجته قبل أن تقضي حاجتها فلا يعجلها حتى تقضي حاجتها »

وكان تأديبه المسلمين في هذه الصلة غاية في الكياسة والترفق ، فقال
مما قال في هذا المعنى : « اذا دخلت ليلا فلا تدخل على أهلك حتى
تستحد المغيبة وتمشط الشعثة ... الكيس ، الكيس ! »

معاملته لزوجاته

وانما نلخص ما أوجهه النبي على المسلمين عامة في معاملاتهم لزوجاتهم ،
وهي دون ما أوجهه على نفسه في معاملة زوجاته بكثير
فكان يشفق أن يرينه غير باسم في وجوههن ، ويزورهن جميعا في
الصباح والمساء ، واذا خلا بهن « كان ألين الناس ضاحكا سائما » كما
قالت عائشة رضي الله عنها

ولم يجعل من هيبة النبوة سدا رادعا بينه وبين نسائه ، بل أنساهن
برفقته وابتأسه انهن يخاطبن رسول الله في بعض الأحيان . فكانت منهن
من تقول له أمام أبيها : « تكلم ولا تقل الا حقا ... » ومن تراجعته أو
تغاضبه سحابة نهارها ، ومن تبلغ في الاجترار عليه ما يسمع به رجل كعمر
ابن الخطاب في شدته ، فيعجب لهم ويهمُّ بأن يبطش بابنته حفصة لأنها
تجترى كما يجترى الزوجات الأخريات . وإذا رأى النبي غضبا كهذا
من جرأة كتلك كف من غضب الأب وقال له : ما لهذا دعوناك !
وقد كان يتولى خدمة البيت معهن ، أو كما قال : « خدمتك زوجتك
صدقة » ..

وكان يستغفر الله فيما لا يملك من التسوية بين احداهن وسائرهن وهو
ميل قلبه : « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك »
ولما أقعده مرض الوفاة أن يزورهن كل يوم كما عودهن بعث اليهن
فتلطف في سؤالهن : « أين أنا غدا ؟ أين أنا غدا ؟ » .. ليقلن عند
عائشة ويأذنَّ له في الإقامة ببيتها . ولو أنه أحل لنفسه أن يقيم حيث
أقام وهو مريض لما كان في ذلك من حرج
والمعاملة الطيبة في الزمن الطويل خلق نادر بين الناس ، ولكنه في
حالة الرضى خلق لا يشق فهمه على كثيرين

الا أن الخلق الذي يشق فهمه على الأكثرين هو طيب المعاملة عندما تتعرض الحياة الزوجية لأخطر ما يمسها من خطر وهو المساس بالوفاء ، في هذه الحصلة تتسامى الحضارة الحديثة ما تتسامى فلا نخالها تحلم بمعاملة أطيّب ولا أكرم من المعاملة التي أثرت عن النبي في قصة عائشة بنت الصديق وهي أحظى نسائه لديه ، ونلخصها مما روته بلسانها اذ تقول رضى الله عنها :

«...كان رسول الله اذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه ، فأياها خرج سهمها خرج بها رسول الله معه . وأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي ، ثم قفلنا من الغزوة الى أن دنونا من المدينة ، فقامت حين أذنوا بالرحيل فتمشيت حتى جاوزت الجيش وقضيت من شأني ، وأقبلت الى الرجل فلمست صدري فاذا عقدي قد انقطع ، فرجعت ألتمسه فحبسني ابتغاءؤه .. وأقبل الى الرهط الذين كانوا يرحلون لي (١) فحملوا هودجي وهم يحسبون أنني فيه . وكانت النساء اذ ذاك خفافا لم يهبلن (٢) ولم يعشمن اللحم . انما يأكلن العلقة من الطعام . فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه اذ كنت مع ذاك جارية حديثة السن . » ووجدت عقدي فجئت منازل الجيش وليس بها داع ولا مجيب ، فتيّمت منزلي الذي كنت فيه وظننت أن القوم سيفتقدوني فيرجعون الي « فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت . وكان صفوان بن المعطل السلمي قد عرس من وراء الجيش فأدلى (٣) فأصبح عند منزلي فرأى سواد انسان نائم . فعرفني حين رأيته واسترجع . فاستيقظت وخبرت وجهي بجلبابي ، ووالله ما يكلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته وركبتها وانطلق يقودها حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا في نحر الظهيرة (٤)

« فهلك من هلك في شأني ، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ابن سلول ..

(١) أي يحملون الرجل على البعير (٢) يثقلهن اللحم والشحم
(٣) سار آخر الليل (٤) أي في شدة الحر

واشتكيت حين قدمنا المدينة شهرا والناس يفيضون في قول أهل
الافك ولا أشعر بشيء من ذلك

« ... ويربني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله اللطف الذي
كنت أرى منه حين أشتكى . أما يدخل رسول الله فيسلم ثم يقول :
كيف تيكم ؟ فذاك يربني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهت
وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع (١)

« ثم عدنا فعثرت أم مسطح في مرطها ، فقالت : تعس مسطح !
« قلت : بئس ما قلت ! أتسين رجلا قد شهد بدرا ؟
« قالت : أي هتاه (٢) ! أو لم تسمعي ما قال ؟
« قلت : وماذا قال ؟

« فأخبرتني بقول أهل الافك .. فازددت مرضا الى مرضي فلما
رجعت الى بيتي فدخل علي رسول الله فسلم . ثم قال : كيف تيكم ؟
استأذنت أن آتي أبوي : أريد أن أتقن الخبر من قبلهما ، فأذن لي
« قالت أمي : يا بني هوني عليك . فوالله لقلما كانت امرأة قط
وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا كثرن عليها
« قلت : سبحان الله ! وقد تحدث الناس بهذا ؟ فبكيت تلك الليلة
حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا اكتحل بنوم
« ودعا رسول الله علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد يستشيرهما في
فراق أهله . فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله بالذي يعلم من
براءة أهله ، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود ، وقال لرسول الله : هم
أهلك ولا تعلم الا خيرا

« وأما علي بن أبي طالب فقال : لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها
كثير . وإن تسأل الجارية تصدقك ...

« فدعا رسول الله بريدة يسألها : هل رأيت من شيء يريك من عائشة ؟
قالت : والذي بعثك بالحق ان رأيت عليها أمراً قد أغمصه (٣) عليها أكثر

(٢) أمي

(١) أماكن في خلاه المدينة المقصد لحاجة بمكائد الناس
(٢) كأنها تنمي عليها طيباتها وقلة معرفتها

من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها ، فتأني الداجن (١) فتأكله
» ... وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا اكتحل بنوم ثم بكيت
ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا اكتحل بنوم ، وأبواي يظنان أن البكاء
فالق كبدي ..

» فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله فسلم ثم جلس وتشهد ثم
قال : أما بعد يا عائشة فاني قد بلغني عنك كذا وكذا . فان كنت بريئة
فسيرئك الله ، وان كنت ألمت بذنب فاستغفري الله وتوبي اليه فان
العبد اذا اعترف بذنب ثم تاب ، تاب الله عليه ...
» فلما قضى رسول الله مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة .
فقلت لأبي : أجب عني رسول الله ! فقال : والله ما أدري ماذا أقول
لرسول الله ..

» فقلت لأمي : أجيبني عني . فقالت كذلك . والله ما أدري ماذا أقول
لرسول الله ..

» قلت - وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن - اني والله
لقد عرفت انكم سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به : فان
قلت لكم اني بريئة ، والله يعلم اني بريئة ، لا تصدقوني . ولئن اعترفت
لكم بأمر ، والله يعلم اني بريئة ، لتصدقوني ، واني والله ما أجد لي ولكم
مثلا الا كما قال أبو يوسف : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون
» ثم تحولت فاضطجعت على فراشي

» ... فوالله ما رام رسول الله مجلسه ولا خرج من أهل البيت
أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيّه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء
عند الوحي ، حتى انه ليتحدر منه مثل الجمان (٢) في اليوم الشاتئ
» فلما سرى عن رسول الله وهو يضحك كان أول كلمة تكلم بها أن
قال : « أبشري يا عائشة ! .. أما الله فقد برأك

قالت لي أمي : قومي اليه

(١) أي الحيوان الذي يألف البهيمة
(٢) الدر

«قلت : والله لا أقوم اليه ، ولا أحمد الا الله ، هو الذي أنزل براءتي.. وكان أبو بكر ينفق على مسطح لقرايته منه وفقره .. فاقسم لا ينفق عليه شيئا أبدا . فأنزل الله عز وجل : « ولا يَأْتِلْ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِيَ الْقُرْبَى.. الى قوله : ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ » فقال أبو بكر : والله اني لأحب أن يغفر الله لي ، ورجع الى مسطح النفقة التي كان ينفقها عليه »

تلك هي القصة التي عرفت بقصة الافك كما روتها لنا السيدة عائشة رضي الله عنها . وهي مسبار صادق يسبر لنا أغوار المروءة والرفق في معاملة النبي لزوجاته حيث لا رفق ولا مروءة عند الأكثرين . فليس النبي هنا في حالة من حالات الرضى التى تسلس الطباع ولا تستغرب معها المودة وطول الاناة ، ولكنه في حالة من تلك الحالات التى تثير الحمية وتثير الحب وتثير النعمة وتثير في النفس البشرية كل ساكنة تدعو الى طيب المعاملة ، فلم يكن في هذه الحالة الا كرما خالصا بما سلك في أمر نفسه وفي أمر أهله وفي أمر دينه ، ولم يدع لحالم من حالمي الحضارة الحديثة مرتقى يتطلع اليه في جميع هذه الغايات

سمع النبي حديثا يلاك بين المنافقين ويسري الى المسلمين بل الى خاصة ذويه الأقربين : حديثا يسمعه رجل كعلي بن أبي طالب في بره وكرم نحيته فلا يرى بعده حرجا من الطلاق والنساء كثيرات...

سمع النبي ذلك الحديث المريب فلم يقبله بغير بينة ولم يرفضه بغير بينة ، وكان عليه أن يعود زوجه المريضة أو يجفوها الى حين .. فعادها وبه من الرق والانصاف ما يأبى عليه أن يفتحها في مرضها بما يخامر نفسه الكريمة .. وبه من المودة والترقب ما أبى عليه أن يقابلها بما كان يقابلها به والنفس صافية كل الصفاء . وظل يسأل عنها سؤال متعجب ينتظر أن تشفى وأن تأتية البينة فيشتد كل الشدة أو يرحم كل الرحمة ، ولا يعجله لفظ الناس أن يأخذ في هذا الموقف الأليم بما توجهه الحمية وما توجهه المروءة في آن .

وسأل من ينبغي أن يسأل : عليا واسامة وهما بمقام ولديه ، وبربرة الجارية التي تعرف عائشة وتخلص لسيدها كما تخلص لسيدها ، وضرة لعائشة تنافسها وتكاد أن تضارعا في حظوتها لديه : زينب بنت جحش التي كانت أسرع من يقول لو علمت شيئا يقال . فاستعاذت بالله وقالت : « أحمي سمعي وبصري ، والله ما علمت الا خيرا »

واتصل الحديث بعائشة فاستأذنته في زيارة أهلها ، وآذن له أن يفتحها وقد وصل النبأ الى سمعها . ولم يثن له قبل ذلك وهو كاظم ما في قواده قادر على كتمانته مخافة أن يؤذيها بغير حق وهي تشكو سقامها .. ففتحها لتبرئ نفسها أو تستغفر الله

وغضبت غضب البريء المشكوك فيه ، وانها لبريئة في نظر كل منصف يفهم أن امرأة كعائشة لا تعرض نفسها لهذه الريبة أمام جيش ، وفي وضوح النهار ، ولغير ضرورة ، ومع رجل من المسلمين يتقي ما يتقيه المسلم في هذا المقام من غضب النبي وغضب المسلمين وغضب الله . فتلك خلة ترفع عنها من هي أقل من عائشة منبتا ومنزلة وخلقا واثقة ، فكيف بها في مكانها المعلوم ..

الا أن النبي أراد لها البراءة أمام الخلق عامة وأمام نفسه المحبة ، حذرا أن تكون تبرئته اياها عن محبة وضعف لا عن تبين واستيثاق ، فلما قضى كل حق وانتهى به الاستيثاق الى الثقة كان قد وفي الكرم والحمية والانصاف والرحمة أجمعين .

نعم وفي الرحمة حتى باللاغطين المتعجلين الذين أبدؤوا وأعادوا في ذلك الحديث المريب . وما أحد أرحم ممن يرحم المفتريين على سمعة أهله وهناءة بيته وأمان سربه ، ولا يعذر الناس أحدا كما يعذرون نبيا مطالعا ينال في عرضه فينال بالعقاب العدل من استحقوه

ولقد علمنا من رواية السيدة عائشة كما علمنا من روايات شتى أن عبد الله بن أبي بن سلول كان أكبر اللاعطين بحديث الافك عن سوء نيّة وكيد مبيت للنبي ودينه ، وكان هذا الرجل كما تقدم في بعض فصول هذا الكتاب بغیضا الى المسلمين متهما عندهم يتوجسون منه ويسمونہ رأس المنافقين ولا يكفون عن طلب دمه واستئذان النبي في قتله . فما ضر النبي لو خلى بين المسلمين وبينه يحاسبونه على فريته ويحاسبونه على كيدہ وينقمون لعرض النبي منه ليأمنوا شره ويجعلوه عبرة لغيره ؟ وإذا قيل ان عبد الله بن أبي كان من أصحاب العصية التي يحسب حسابها وتتقى بوادرها ، فماذا يقال في مسطح وهو مكفول أبي بكر وصنيعته الذي يأكل من ماله ؟ ما الذي أنجاه من السخط والعقاب وكفل له دوام البر والمعونة لولا سماحة النبي وسماحة أبي بكر وسماحة القرآن على ان العصية التي كان عبد الله بن أبي يلوذ بها لم تكن لتحميه عقاب النبي لو أرادہ بعقاب ولو كان أصرم عقاب .. فما من عصية هي أقرب الى رحم الرجل وأولى بالذود عنه من ولده المشهور بیره . وقد أسلفنا أن ولد عبد الله قد تطوع لقتله يوم قيل له إن النبي يهدر دمه ويقضي بموته .. انما هي سماحة الكريم ..

انما هي السماحة التي شملت مسطحا كما شملت كبير المنافقين ، وخرجت من حديث الافك كله بالعفو عن جميع المسيئين مخلصين في الرأي وغير مخلصين ، وهي التي سبرت غورا في قصة هذا الحديث فتكشفت عن أطيب معاملة للزوجات في أخرج الحالات ، وتلك هي المعاملة الطيبة في مثلها الأعلى ، معاملة لا تتبدل بعد أيام وشهور بل تطول مدى السنين ، وتطول مدى السنين مع نساء مختلفات لا مع امرأة واحدة ، وتطول في جميع الحالات ومنها حالة الألم البالغ ولا تنحصر في حالة الرضى والطمأنينة . وأقل من ذلك أمنية يتمناها الحالمون بالوئام بين الأزواج في العصر الذي وصفوه بعصر المرأة ، لفرط ما

أطلب فيه المظنون من اكبار شأنها والدعوة الى انصافها

تعدد الزوجات

هنا يعرض لنا الكلام عن تعدد زوجات النبي وهو الهدف الثاني الذي يرميه المشهورون بالاسلام فيكثرون من رمية كلما تكلموا عن أخلاق محمد عليه السلام وذكروا منها ما يزعمونه منافيا لشمائل النبوة ، مخالفًا لما ينبغي أن يتصف به هداة الأرواح .. السيف والمرأة ! .. كأنهم يريدون أن يجمعوا على النبي بين الاستسلام للغضب والاستسلام للهوى ، وكلاهما بعيد من صفات الأنبياء أما السيف فقد أسلفنا الكلام فيه ..

أما المرأة فالظنة فيها أضعف من الظنة في السيف على ما نراه ، لأن الاستسلام للشهوة آخر شيء يخطر على بال الرجل المحقق — مسلما كان أو غير مسلم — حين يبحث في تعدد زوجات النبي ، وفيما يدل عليه ذلك التعدد ، وفيما اقتضاه

قال لنا بعض المستشرقين ان تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية ..

قلنا لك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية Undersexed لأنه لم يتزوج قط ، فلا ينبغي أن تصف محمدا بأنه مفرط الجنسية Oversexed لأنه جمع بين تسع نساء ..

ونحن قبل كل شيء لا نرى ضيرا على الرجل العظيم أن يحب المرأة ويشعر بمتعتها . هذا سواء الفطرة لا عيب فيه ، وما من فطرة هي أعمق في طبائع الأحياء عامة من فطرة الجنسين والتقاء الذكر والأنثى ، فهي الغريزة التي تلهم الحي في كل طبقة من طبقات الحياة ما لا تلهمه غريزة أخرى . أرايت الى السمك وهو يعبر الماء المالح في موسمه المعلوم فيطوي ألوفًا من القراسخ ليصل الى فرجة نهر عذب يجدد فيها نسله ثم يعود أدراجه ؟.. أرايت الى العصفور وهو يبنى عشه ويعود من هجرته الى وطنه ؟ أرايت الى الزهر وهو يتفتح ليغري الطير والنحل بنقل لقاحه ؟

أرأيت الى سنة الحياة فى كل طبقة من طبقات الأحياء ؟ ما هى سنتها
ان لم تكن هى سنة الألفة بين الجنسين ؟ وأين يكون سواء الفطرة ان
لم يكن على هذا سواء ؟ .
فحب المرأة لا مُعابة فيه ..

هذا هو سواء الفطرة لا وراء ..

وانما المعابة أن يطغى هذا الحب حتى يخرج عن سوائه ، وحتى يشغل
المرء عن عرضه ، وحتى يكلفه شططا فى طلابه فهو عند ذلك مسخ
للفطرة المستقيمة يُعاب كما يُعاب الجور فى جميع الطبائع ..
فمن الذى يعلم ما صنع النبى فى حياته ثم يقع فى روعه ان المرأة شغلته
عن عمل كبير أو عن عمل صغير ؟

مَنْ مِنْ بناة التاريخ قد بنى فى حياته وبعد مائة تاريخا أعظم من
تاريخ الدعوة المحمدية والدول الإسلامية ؟

ومَنْ ذا الذى يقول ان هذا عمل رجل مشغول ؟
عم شغلته المرأة ؟ ومن ذا تفرغ لعظيم من المسعى فبلغ فيه شأو
محمد فى مسعاه ؟

فان كانت عظمة الرجل قد أتاح له أن يعطى الدعوة حقها ويعطى
المرأة حقها فالعظمة رجحان وليست بنقص ، وهذا الاستيفاء السليم كمال
وليس بعيب . ورسالة محمد اذن هى الرسالة التى يتلقاها أناس خلقوا
للحياة ولم يخلقوا نابذين لها ولا منبوذين منها . فليست شريعة هؤلاء
بالشريعة المطلوبة فيما يخاطب به عامة الناس فى عامة العصور
وأعجب شئ أن يقال عن النبى انه استسلم لِكذات الحس وقد
أوشك أن يطلق نساءه أو يخيرهن فى الطلاق لأنهن طلبن اليه المزيد من
النفقة وهو لا يستطيعها

فقد شكَّوه — على فخرهن بالانتماء اليه — انهن لا يجدن
نصيبهن من النفقة والزينة ، واجتمعت كلمتهن على الشكوى واشتددن
فيها حتى وجهم النبى وهم بتسريحن ، أو تخيرهن بين الصبر على
معيشتهن والتسريح

وذهب اليه أبو بكر يوماً « يستأذن عليه فوجد الناس جلوساً لا يؤذن لأحد منهم . ثم دخل أبو بكر ، وعمر من بعده ، فوجدا النبي جالسا وحوله نساؤه واجما ساكتا . فأراد أبو بكر أن يقول شيئا يسري عنه ، فقال : « يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة ! سألتني النفقة فقلت اليها فوجأت عنقها » فضحك رسول الله وقال : هنّ حولي كما ترى يسألنني النفقة !.. فقام أبو بكر الى عائشة يجأ عنقها ، وقام عمر الى حفصة يجأ عنقها ويقولان : « تسألن رسول الله ما ليس عنده ؟ »

فقلن : « والله لا نسأل رسول الله شيئا أبدا ليس عنده » . ثم اعتزلهن الرسول شهرا أو تسعة وعشرين يوما فنزلت بعدها الآية التي فيها التخيير وهي : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِذْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأَسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ، وَإِن كُنْتُنَّ تُرِذْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ ، فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً »

فبدأ الرسول بعائشة فقال لها : « يا عائشة !.. اني أريد أن أعرض عليك أمرا أحب ألا تتعجلي فيه حتى تستشيرني أبويك .. »
قالت : « وما هو يا رسول الله ؟ » فتلا عليها الآية ..

قالت : « أفيك يا رسول الله أستشير أبوي ؟ .. بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة .. » ثم خيّر نساءه كلهن فأجبن كما أجابت عائشة ، وقتعن بما هنّ فيه من معيشة كان كثير من زوجات المسلمين يظفرن بما هو أنعم منها ..
علام يدل هذا ؟ ..

نساء محمد يشكون قلة النفقة والزينة ولو شاء لأغدق عليهن النعمة وأغرقهن في الحرير والذهب وأطايب الملذات...

أهذا فعل رجل يستسلم لَلذّات حسه ؟

أما كان يسيرا عليه أن يفرض لنفسه ولأهله من الأثقال والغنائم ما يرضيهن ولا يغضب المسلمين ، وهم موقنون ان ارادة الرسول من ارادة الله ؟ ..

وماذا كلفه الاحتفاظ بالنساء حتى يقال انه كان يفرط في ميله الى النساء ؟ .. هل كلفه أن يخالف ما يحمد من سننه أو يخالف ما يحمد من سيرته أو يترخص فيما يرضاه أتباعه ولا ينكروه عليه ؟
لم يكلفه شيئا من ذلك ، ولم يشغله عن جليل أعماله وصغيرها ، ولم نرَ هنا رجلا تغلبه لذات الحس كما يزعم المشهورون ، بل رأينا رجلا يغلب تلك الملهات في طعامه ومعيشته وفي ميله الى نسائه .. فيحفظها بما يملك منها ولا يأذن لها أن تسومه ضريبة مفروضة عليه ، ولو كانت هذه الضريبة بسطة في العيش قد ينالها أصغر المسلمين ، ولا شك في قدرة النبي عليها لو أراد

رجل الجدة والرصانة

وهكذا نبحت عن الرجل الذي توهمه المشهورون من مؤرخي أوربا فلا نرى الا صورة من أعجب الصور التي تقع في وهم واهم ..
نرى رجلا كان يستطيع أن يعيش كما يعيش الملوك ويقنع مع هذا بمعيشة الفقراء ثم يقال انه رجل غلبته لذات حسه !!
ونرى رجلا تألّبت عليه نساؤه لأنه لا يعطينهن الزينة التي يتحلّين بها لعينيه ثم يقال انه رجل غلبته لذات حسه ! ..
ونرى رجلا آثر معيشة الكفاف والقناعة على ارضاء نسائه بالتوسعة التي كانت في وسعه ثم يقال انه رجل غلبته لذات حسه ! ..
ذلك كلام لو شاء المشهورون أن يرسلوه كلاما مضحكا مستغربا لأفلحوا فيما قالوه أحسن فلاح . أو لعله أقبح فلاح ! ..
ويزيد في غرابته أن الرجل الذي توهموه ذلك التوهم لم يكن مجهولا قبل زواجه ولا بعد زواجه فتخبط فيه الظنون ذلك الخبط الذريع
فمحمد كان معروف الشاب قبل قيامه بالدعوة الدينية كأشهر ما يعرف فتى من قریش وأهل مكة
كان معروفا من صباه الى كهولته فلم يعرف عنه أنه استسلم لـلذات

الحس في ريعان صباه ، ولم يسمع عنه أنه لها كما يلهو الفتيان حين كانت الجاهلية تبيح ما لا يباح .. بل عرف بالظهر والأمانة واشتهر بالجد والرصانة . وقام بالدعوة بعدها فلم يقل أحد من شائيه والناعين عليه والمنقبين وراءه عن أهون الهنات : تعالوا يا قوم فانظروا هذا الفتى الذى كان من شأنه مع النساء كيت وكيت يدعوكم اليوم الى الطهارة والعفة ونبذ الشهوات .. كلا .. لم يقل أحد هذا قط من شائيه وهم عديد لا يحصى . ولو كان لقوله موضع لجرى على لسان ألف قائل ..

ولما بنى بأولى زوجاته - خديجة - لم تكن لذات الحس هى التى سيطرت على هذا الزواج . لأنه بنى بها وهى فى نحو الأربعين وهو فى نحو الخامسة والعشرين ، ونيف على الخمسين وأوتي الفتح المبين وليس له من زوجة غيرها ولا من رغبة فى الزواج بأخرى ولم يكن وفاؤه لها بقية حياته وفاء المرء للذات حس أو ذكرى متاع جميل . لأنه فضلها على عائشة فى صباها وهى أحب نسائه اليه ، وكانت عائشة تغار منها فى قبرها فلم يكتما قط أنه يفضلها عليها ..

قالت له مرة : هل كانت الا عجوزا بكذلك الله خيرا منها ، فقال لها مغضبا : « لا والله ما أبدلنى الله خيرا منها .. آمنت بى اذ كفر الناس ، وصدقتنى اذ كذبنى الناس ، وواستنى بما لها اذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء »

فلهذا أحب خديجة ووفى لها وفضلها ولم يحج ذكرها من نفسه قط من أعقبتها من الزوجات الفتيات : وفاء قلب وليست لذات حس ولا ذكرى متاع جميل ..

اسباب تعدد زوجاته

ولو كانت لذات الحس هى التى سيطرت على زواج النبى بعد وفاة خديجة لكان الأحجى بارضاء هذه الملمات أن يجمع النبى اليه تسعا من الفتيات الأبنكار اللبئى اشتهرن بفتنة الجمال فى مكة والمدينة والجزيرة

العربية ، فيسرعن اليه راضيات فخورات ، وأولياء أمورهن أَرْضِي
منهن وأفخر بهذه المصاهرة التي لا تعلوها مصاهرة
لكنه لم يتزوج بكرا قط غير عائشة رضى الله عنها ، ولم يكن زواجا
بها مقصودا في بداية الأمر حتى رَغِبَتْه فيه خولة بنت حكيم التي عرضت
عليه الزواج بعد وفاة خديجة.

قالت عائشة رضى الله عنها : « لما توفيت خديجة قالت خولة بنت حكيم
امراة عثمان بن مظعون للنبي : « أي رسول الله ! .. ألا تتزوج ؟
قال : « من ؟ »

قالت : « ان شئت بكرا وان شئت ثيبا ؟ » ..

قال : « فمن البكر ؟ »

قالت : « بنت أحب الناس اليك عائشة بنت أبي بكر »

قال : « فمن الثيب ؟ »

قالت : « سودة بنت زمعة آمنت بك واتبعتك »

ثم كانت سودة هي أولى النساء اللاتي بنى بهن بعد وفاة خديجة
وكان زوجها الأول - ابن عمها - قد توفي بعد رجوعه من الهجرة الى
الحبشة . وكانت هي من أسبق النساء الى الاسلام فأمنت وهجرت أهلها
ونجا بها زوجها الى الحبشة فرارا من اعنات المشركين له ولها . فلما مات
لم يبق لها الا أن تعود الى أهلها فتصبأ وتؤذى ، أوتتزوج بغير كفؤ أن
بكفؤ لا يريد لها . فضمها النبي اليه حماية لها وتأليفا لأعدائه من آلها
وكان غير هذا الزواج أولى به لو نظر الى لذات حس ومال الى متا

وكانت للنبي زوجة أخرى وسمت بالوضاءة والفتاء وهي زينب بنت
جحش ابنة عمته عليه السلام التي زوجها زيدا بن حارثة بأمره وعلى غي
رضى منها ، لأنها أنفت - وهى ما هى فى الحسب والقرابة من رسول
الله - أن يتزوجها غلام عتيق ..

هذه أيضا لم يكن « للذات الحس » المزعومة سلطان فى بناء النبوة
بها بعد تطليق زيد إياها وتعذر التوفيق بينهما ، ولو كان للذات الحس

سلطان في هذا الزواج لكان أيسر شيء على النبي أن يتزوجها ابتداء ولا يروضها على قبول زيد وهي تأباه . فقد كانت ابنة عمته يراها من طفولتها ولا يفاجئه من حسننها شيء كان يجهله يوم عرض عليها زيدا وشدد عليها في قبوله . فلما تجافى الزوجان وتكررت شكوى زيد من اعراضها عنه وترفعها عليه واغلاظها القول له ، كان زواج النبي بها «حلا لمشكلة» بيتية بين ربيب في منزلة الابن وابنة عمه أطاعته في زواج لم يقرن بالتوفيق أما سائر زوجاته عليه السلام فما من واحدة منهن - رضي الله عنهن - الا كان لزواجه بها سبب من المصلحة العامة أو من المروءة والنخوة دون ما يهذر به المرجفون من لذات الحس المزعومة

فأم سلمة كانت كهلة مستنة يوم خطبها ، كما قالت له معتذرة اليه لاعفائه من تكليف نفسه أن يتزوجها ، جبرا لخطرها بعد موت زوجها عبد الله المخزومي من جرح أصابه في غزوة أحد . ولما برح بها الحزن لوفاته واساها رسول الله قائلا : « سلي الله أن يؤجرك في مصيبتك وأن يخلفك خيرا » ..

فقالت : « ومن يكون خيرا من أبي سلمة ؟ » فأوجب على نفسه خطبتها لأنها تعلم أنه خير من أبي سلمة ، ولأنه يعلم أن أبا بكر وعمر خطباها فترققت في الاعتذار ، وهما أعظم المسلمين قدرا بعد النبي عليه السلام ..

وجويرة بنت الحارث سيد قومه كانت إحدى السبايا في غزوة بني المصطلق فتزوجها النبي ليعتقها ويحض المسلمين على عتق أسراهم وسباياهم تفريجا عنهم وتألفا لقلوبهم ، فأسلموا جميعا وحسن اسلامهم ، وخيرها أبوها بين العودة اليه والبقاء في حرم رسول الله فاختارت البقاء في حرم رسول الله ..

وحفصة بنت عمر بن الخطاب مات زوجها ، فعرضها أبوها على أبي بكر فسكت وعلى عثمان فسكت . وبث عمر أسفه للنبي فلم يكن للنبي عليه السلام أن يرضن على وليه وصديقه بالمصاهرة التي شرف بها أبا بكر من

قبله ، وقال : يتزوج حفصة من هو خير من أبي بكر وعثمان .
ورملة بنت أبي سفيان تركت أباهما لتسلم وتركت وطنها لتهاجر مع زوجها الى الحبشة ، ثم تنصّر زوجها وفارقها وهي غريبة هناك بغير عائل . فأرسل النبي الى النجاشي في طلبها لينقذها من ضياع الغربة وضياع الأهل وضياع القرين . فكانت النجدة الانسانية باعث هذا الزواج ولم يكن له باعث من المتعة والاستزادة من النساء ، وكان للنبي مقصد جليل من وراء هذا الزواج الذي لم يفكر فيه حتى ألجأته النجدة الى التفكير فيه ، وهو أن يصل بينه وبين أبي سفيان بأصرة النسب ، عسى أن يهديه ذلك الى الدين ، بما يعطف من قلبه ويرضي من كبريائه وكان اعزاز من ذلوا بعد عزة : سنّة النبي عليه السلام في معاملة جميع الناس ولا سيما النساء اللاتي تنكسر قلوبهن في الذل بعد فقد الحماة والأقرباء ، ولهذا خير صفة الاسرائيلية سيدة بني قريظة بين أن يلحقها بأهلها وأن يعتقها ويتزوج بها ، فاخترت الزواج منه عليه السلام . وآية الآيات في رعاية الشعور الانساني انه عليه السلام أثب صفيّه بلالا لأنه مرّ بها وبابنة عمها على قتلى اليهود . فقال له مفضبا : « أتزعّت الرحمة من قلبك حين تمر بالمرأتين على قتلاهما ؟ » واحتقرتها زينب فلقبتّها يوما باليهودية فهجّرها شهرا لا يكلمها ليأخذ بناصر هذه الغريبة ويدفع عنها الضيم ..

تتكشف لنا مراجعة الحياة الزوجية لمحمد عليه السلام عن هذه الأسباب وشبهاتها من دواعي اختياره لنسائه واستجماعه لهذا العدد من الزوجات في حين واحد ..

ولا حرج — كما أسلفنا — على رجل قويم الفطرة أن يلتمس المتعة في زواجه . ولكن الذي حدث فعلا أن المتعة لم تكن قط مقدمة في الاعتبار عند نظر النبي في اختيار واحدة من زوجاته قبل الدعوة أو بعدها ، وفي ابان الشباب أو بعد تجاوز الكهولة ..

وآخر صورة يتصورها النصف هنا هي صورة رجل فرغ لذاته وجلس ينتقى واحدة بعد واحدة من الحسان على حسب ما يرجوه عندها من متاع . فانما كان الاختيار كله على حسب حاجتهن الى الايواء الشريف أو على حسب المصلحة الكبرى التى تقضى باتصال الرحم بينه وبين سادات العرب وأساطين الجزيرة من أصدقائه وأعدائه ، ولا استثناء فى هذه الخصلة لزوجة واحدة بين جميع زوجاته حتى التى بنى بها فتاة بكرا موسومة بالجمال ، وهى السيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنه ..

الا أن المشهرين المتقولين نسبوا كل حقيقة من حقائق هذه الحياة الزوجية التى سجلت لنا بأدق تفصيلاتها ولم يذكروا الا شيئا واحدا حرفوه عن معناه ودلالته ، ليفتروا على النبى ما طاب لهم أن يفتروه ، وذلك انه جمع فى وقت واحد بين تسع زوجات

نسوا انه اتسم بالطهر والعفة فى شبابه فلم يستبح قط لنفسه ما كان شباب الجاهلية يستبيحونه لأنفسهم من اللهو المطروق لكل طارق ، فى غير مشقة عندهم ولا معابة..

ونسوا انه بقى الى نحو الخامسة والعشرين لم يتعسف فى طلب الزواج الحلال وهو ميسر له تيسره لكل فتى وسيم حسيب منظور اليه بين الأسر وبين الفتيات ..

ونسوا انه لما تزوج فى تلك السن كان زواجه بسيدة فى الأربعين اكتفى بها الى أن توفيت وهو يجاوز الخمسين ..

ونسوا انه اختار احسابا فى حاجة الى التألف أو الرعاية ولم يختار جمالا مطلوبا للمتاع ..

ونسوا أن الرجل الذى وصفوه بما وصفوا من تغليب لذات الحس لم يكن يشبع فى بعض أيامه من خبز الشعير ، ولم يجاوز حياة القناعة قط لأرضاء نسائه وأرضاء نفسه ، ولو شاء لما كلفه أرضاء نفسه وأرضاءهن غير القليل بالقياس الى ما فى يديه ..

نسوا كل هذا وهو ثابت فى التاريخ ثبوت عدد النساء اللاتى جمع
بينهن عليه السلام .. فلماذا نسوه ؟
نسوه لأنهم أرادوا أن يعيىسوا وأن يتقوّلوا وأن ينحرفوا عن
الحقيقة ، وقد كانت رؤية الحقيقة أيسر لهم من الاغضاء عنها ، لو أنهم
أرادوها وتعمدوا ذكرها ولم يتعمدوا نسيانها

الوجهة الخلقية

ونستطرد الى تعدد الزوجات من الوجهة الخلقية أو الأدبية فلا نطيل
فيه ، لأننا نقصر هذا الكتاب على عبقرية محمد وما له اتصال بجوانب
هذه العبقرية فى تعدد مناحيها ، ولم نرد به أن نتناول حكمة الشريعة
الاسلامية فى تفصيلها ولا مسوغات الأصول الدينية على اختلافها .

فأوجز ما نقوله فى تعدد الزوجات من الوجهة الخلقية أو الأدبية أن
النبي عليه السلام لم يجعله حسنة مطلوبة لذاتها أو مباحا يختاره من
يختاره وله مندوحة عنه .. وانما جعله ضرورة يعترف بها الرجل وتعترف
بها الأمة فى بعض الأحوال لأنها خير من ضرورات . ولن ينكر هذا الا
متعنت يصدّم الحقائق ويتجاهل المحسوس المائل للعيان .

ففى حياة محمد الخاصة لا ينكر أحد أن بناءه بنسائه قد كان خيرا من
الاخلاء بينهم وبين التأيم والمذلة والرجعة الى الكفر والضلالة ، وكان
خيرا من قطع تلك الآصرة التى وصلت بينه وبين البيوت والعشائر فكان
لها ما كان من فضل فى نفع الدين والمتدينين به ، وهى ضرورة يلجأ الى
الاعتراف بها كل مسئول عن شئون أمة بل أمم تمارس الحياة الدنيا ،
وكل امام عليهم بطائع الناس .

أما الضرورة الاجتماعية العامة فقد اعترفت بها الشرائع المدنية
الحديثة جميعا ثم تحللت منها باباحة الزنى وعلاج مشكلة الزواج بحل
خارج عن نطاق الزواج أو خارج عن نطاق البيت والأسرة . ولو اهتمت
هذه الشرائع المدنية الى حل خير من هذا لجاز لها أن تنكر تعدد

الزوجات ، وتنكر أنه ضرورة أكرم من ضرورات .
فلا شك ان الجمع بين المرأة العقيم أو المرأة المريضة وبين غيرها أكرم
لها وللمجتمع من نبذها في معترك هذه الدنيا الضروس بغير ولد وبغير
زوج وبغير عاصم ، ثم هو أكرم للزوج نفسه وهو كائن حي يريد أن
يصل ما بينه وبين الحياة بذرية صالحة هي الغرض الأكبر من كل زواج ،
ولولاها لاتنقض في المجتمع الانساني أساس كل زواج .
ولا شك أن الجمع بين المرأة المزهود فيها وبين زوجة أخرى أكرم لها
وأصلح من الجمع بينها وبين خلية أو عدة خيلات .

ولا شك أن تسهيل الزواج وبخاصة في أوقات الحروب التي ينقص
فيها الرجال أكرم للمجتمع الانساني وأصلح من تسهيل العلاقات
الأخرى التي لا تنفع النوع ولا تنفع الأخلاق ، ولا ترفع مكانة المرأة
في عصمة رجل أو في متناول كثير من الرجال .
هذا شيء جائز ..

بل هذا شيء أكثر من جائز ، لأنه واقع لا محيد عنه ولا حيلة فيه .
وغير ملوم من يواجه بحل أكرم من حلول شتى .. بل اللوم عليه أن
ينظر في شؤون العالم ثم يغمض عينيه عن حقائقه التي تصدم كل عين
ومن السهل — على من أراد — أن يسوس العالم في خياله بالفضائل
التي تزوقه وترضيه .. وليس من السهل عليه أن يخلق العالم الذي
يساس له ويرضى بما ارتضاه . وقد علم هذا كل رجل واجهته مشكلة
واحدة من المشكلات التي واجهت محمدا بادیء الرأي على غير مثال
سابق يحتذيه ، الا ما ألهمه الله ..

ماذا صنع نابليون في عصرنا الحديث ؟ ..

وانما ضرب المثل بنابليون لأنه حضر انقلابا في الأطوار والعادات
يشبه نشأة الدين في أيام الدعوة المحمدية ونعني به الثورة الفرنسية ،
وحضر انحدارا في الأخلاق والآداب يشبه الانحدار الذي أصيب به

العرب في أواخر عهد الجاهلية ، وأسّس دولة ، ونظر في سنّ قانون ،
وحاول ضروبا من الإصلاح ..
نابليون قد طلق امرأته وأكره أجبار المسيحية على قبول هذا
الطلاق، وقد اشتهرت له علاقات بخليلات متعدّدات ، غير الخليلات
المجهولات ..

ونابليون يقول عن المرأة : « لقد صنعت كل ما وسعني أن أصنع
لتحسين حال أولئك المساكين الأبرياء أبناء الزنى . إلا انك لا تستطيع
أن تصنع لهم الشئ الكثير دون مساس بقواعد الزواج . والا أحجم
الناس عن الزواج الا القليل »
« ولقد كان للرجل في العهد القديم سريات الى جانب الزوجات ،
ولم يكن أبناء الزنى محترقين بين الناس احتقارهم اليوم .. انه لمن
المضحك أن يحظر على الرجل الزواج بأكثر من واحدة . فتحمل هذه
الزوجة الواحدة ، وكان الرجل في أثناء حملها أعزب أو عقيم ..

« واليوم لا سريات للرجال ولكنهم يعاشرون الخليلات وهن أقدر
على التبديد والافساد ..
« انهم في فرنسا يخولون النساء فوق حقهن من التعظيم . وانما
الواجب ألا ينظر اليهن كأنهن مساويات للرجال .. فما هن في الحقيقة
الا آلات لتخريج الأطفال
« وقد تمردن في ابان الثورة وعقدن الجماعات لأنفسهن وبدا لهن
أن يؤلفن فرقا منهن في الجيش
« وكان لابد من صدّهن .. لأن المجتمع الانسانى عرضة للخلل
والفوضى اذا ترك النساء حالة الاعتماد على الرجال وهى مكانهن الحق
في الحياة . نعم ان المجتمع لوشيك اذن أن يتمزق بددا بغير انتهاء
« وعلى جنس من الجنسين أن يخضع للآخر لا محالة ... فاذا نشبت
الحرب بينهما ، فلن تكون كحرب الأغنياء والفقراء أو حرب البيض
والسود ! ..

« ألا وإن الطلاق لأضر بالمرأة دون مرأ . فالرجل الذى يجمع بين زوجات لا يبدو عليه من ذلك أثر كالأثر الذى يبدو على المرأة بعد التزوج بعدة رجال . انها تضمحل اذن كل الاضمحلال »
كذلك اعترف نابليون بالضرورات الزوجية فى العصر الحديث . فكيف اعترف بها « .لنين » فى الثورة الكبرى بعد الثورة الفرنسية ؟ ..
حل مشكلة الزواج بحل رابطة الزواج .. فلا رابطة بين الزوجين أوثق من رابطة الرفيقين فى الفندق أو الطريق . وليس أعجب ممن جعل الزواج شريعة ملائكة الا الذى جعله على هذا النحو شريعة عجماءات .
عقوبة الزوجات

ولا نختم هذا الفصل عن النبى فى حياته الزوجية قبل أن نعرض لعقوبة الزوجات فى الاسلام وللعقوبة التى اختارها عليه السلام . لأن عقوبة الرجل لامرأته فى حالة الغضب كمحاسنته لها فى حالة الرضى — كلاهما ميزان صادق لمكاتها عنده ، ومكانة المرأة عامة فى تقديره
والقرآن ينص على العقوبات السائغة فى حالة النشوز وهى العظة والهجر فى المضاجع والضرب ، والتسريح باحسان : « وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ : فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا » . « ... وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ قَبْلَ أَنْ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ... »

والنبى عليه السلام لم يطلق زوجة من زوجاته دخل بها وعاشرها ولم يضرب قط واحدة منهن ، ولم يرو عنه قط أنه ضرب أو نهر خادمها فضلا عن زوجة ، بل روي عنه ما ينفي ذلك ممن عاشروه ولازموه
بل كان عليه السلام يكره ضرب النساء ويعيبه كما قال : « أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد ؟ .. يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره ! » ..

فما نص القرآن عليه من عقوبة الضرب فانما نص عليه لعلاج النشوز

الذى لا يستقيم بغيره ، وقيده المفسرون بشروط تمنع الايذاء وتحصره
فى القدر الذى يستقيم عليه الجزاء
فغاية ما يفهم من ذكر الضرب بين العقوبات ان بعض النساء يتأدبن
به ولا يتأدبن بغيره ، وقد يعلم الكثيرون ان هؤلاء النساء لا يكرهنه
ولا يسترذلنه ، وليس من الضرورى أن يكنَّ من أولئك العصبيات
المريضات اللائى يشتهن الضرب كما يشتهى بعض المرضى ألوان العذاب
انما العقوبة التى آثرها النبى عليه السلام هى الهجر الطويل أو
القصير ، بعد العظة والعتاب الجميل



والهجر — ولا سيما الهجر فى المضاجع — عقوبة نفسية بالغة وليست
كما يسبق الى بعضهم عقوبة حسية تؤلم المرأة لما يفوتها من سرور
ومتعة فان فوات السرور والمتعة أياما ، لا يؤلم المرأة هذا الايلام الذى
يجعل الهجر فى المضاجع من أصعب العقوبات دون الطلاق
قال الأستاذ رشيد رضا رحمه الله فى كتابه نداء الجنس اللطيف :
« أما الهجر فهو ضرب من ضروب التأديب لمن تحب زوجها ويشق عليها
هجره اياها ، ولا يتحقق هذا بهجر المضجع نفسه وهو الفراش ، ولا
بهجر الحجرة التى يكون فيها الاضطجاع ، وانما يتحقق بالهجر فى الفراش
نفسه . وتعتمد هجر الفراش أو الحجرة زيادة فى العقوبة لم يأذن بها الله
تعالى . وربما يكون سببا لزيادة الجفوة . وفى الهجر فى المضجع نفسه
معنى لا يتحقق بهجر المضجع أو البيت الذى هو فيه ، لأن الاجتماع فى
المضجع هو الذى يهيج شعور الزوجية فتسكن نفس كل من الزوجين
الى الآخر ويزول اضطرابها الذى أثارته الحوادث قبل ذلك . فاذا هجر
الرجل المرأة وأعرض عنها فى هذه الحالة رجي أن يدعوها ذلك الشعور
والسكون النفسى الى سؤاله عن السبب ويهبط بها من نشز المخالفة
الى صف الموافقة ، وكأنى بالقارىء وقد جزم بأن هذا هو المراد ، وان
كان مثلى لم يره لأحد من الأموات ولا الأحياء »

والذى نراه ان الأستاذ رحمه الله قد أخطأه المراد الدقيق من هذه العقوبة النفسية . وان الحكمة فى اثارها أعمق جدا من ظاهر الأمر كما رآه الأستاذ ..

فأبلغ العقوبات ولا ريب هى العقوبة التى تمس الانسان فى غروره وتشككه فى صميم كيانه : فى المزية التى يعتز بها ويحسبها مناط وجوده وتكوينه ..

والمرأة تعلم انها ضعيفة الى جانب الرجل ، ولكنها لا تأسى لذلك ما علمت انها فاتنة له . وانها غالبته بفتنتها وقادرة على تعويض ضعفها بما تبعته فيه من شوق اليها ورغبة فيها

فليكن له ما شاء من قوة ، فلها ما تشاء من سحر وفتنة وعزائرها الأكبر عن ضعفها ان فتنتها لا تقاوم ، وحسبها انها لا « تقاوم » بديلا من القوة والضلالة فى الأجساد والعقول :

فاذا قاربت الرجل مضاجعة له وهى فى أشد حالاتها اغراء بالفتنة ثم لم يبالها ولم يؤخذ بسحرها فما الذى يقع فى قرها وهى تهجس بما تهجس به فى صدرها ؟

أفوات سرور ؟ أحنين الى السؤال والمعاتبة ؟ كلا .. بل يقع فى قرها أن تشك فى صميم أنوثتها وأن ترى الرجل فى أقدر حالاته جديرا بهيبتها واذعانها ، وأن تشعر بالضعف ثم لا تتعزى بالفتنة ولا بغلبة الرغبة . فهو مالك أمره الى جانبها وهى الى جانبه لا تملك شيئا الا أن تثوب الى التسليم ، وتفر من هوان سحرها فى نظرها قبل فرارها من هوان سحرها فى نظر مضاجعها ..

فهذا تأديب نفس وليس بتأديب جسد ، بل هذا هو الصراع الذى تتجرد فيه الأنثى من كل سلاح ، لأنها جربت أمضى سلاح فى يديها فارتدت بعده الى الهزيمة التى لا تكابر نفسها فيها . فانما تكابر ضعفها

حين تلوذ بفنتتها .. فاذا لاذت بها فخذلتها فلن يبقى لها ما تلوذ به
بعد ذلك ..

وهنا حكمة العقوبة البالغة التي لا تقاس بفوات متعة ولا باغتنام
فرصة للحديث والمعاتبة

انما العقوبة ابطال العصيان ، ولن ييطل العصيان بشيء كما ييطل
باحساس العاصي غاية ضعفه وغاية قوة من يعصيه . والهجر في المضاجع
هو مثابة الرجوع الى هذا الاحساس

على ان عقاب النبی لزوجاته كان من الندره بحيث لا يذكر لولا ما
تعود المسلمون من ذكر كل كبيرة وصغيرة في حياته الخاصة والعامة على
السواء ، وهذا مع طول العشرة وتعدد الزوجات وكثرة الحوادث الجسام
وقلة النسل الذى يصل المقطوع ويرأب المصدوع

وكان معظم عقابه أشبه بعقاب نبي لمسلمات منه بعقاب زوج لزوجات .
وهو في حالتي عقابه واحسانه انسان على أكمل ما يكون الانسان من
رحمة وكيس وانصاف

واذا حارت الأدلة في قوام تلك الحياة الزوجية فالدليل الذى لا يحار
أن ينقضى نحو أربعين سنة عليها وهى على ذلك الصفاء والولاء الذى
لم يعرف مثله في علاقات الرجال والنساء : هذه حياة زوجية لا تقوم على
الحس والمتعة ، ولن تدوم ذلك الدوام لو كان لها قوام غير مودة القلوب
وراحة النفوس وحب الخير ومبادلة العطف والتعظيم .

الأب

الابوة الروحية والابوة النوعية

حفظ النوع سر من أسرار الحياة الكبرى التي دقت عن الفهم وحارت في تعليلها عقول الأساطين من أهل العلم والحكمة وهو ولا ريب يجري على قانون مطرد في جميع طبقات الأحياء وان كنا نحن لا نعلم كنهه ولا نسبر عمقه ، ولا نزيد عن استقصاء بعض الملاحظات التي تقارب الحقيقة ، أو هي أقرب ما نستطيع الوصول إليه وأهم هذه الملاحظات التقريبية انه يجري على سنّة المكافأة والتعويض في معظم حالاته . فيقابل النقص في جانب بالزيادة في جانب آخر ، ويقابل القصور في مزية من المزايا بالافتقار في مزية أخرى فالأحياء السفلى عرضة للعطب الكثير في طور الولادة والحضانة ، فيقابل هذا أن الأحياء السفلى ترسل ذرياتها بالآلوف والآلوف ، فيبقى منها القليل الكافي لدوام النوع بعد فناء الكثير .. والأحياء العليا يقل عدد المولود منها في البطن الواحد . فيقابل هذا أن تطول حضانتها والعناية بها ، وتجد من وسائل الصيانة ما يعوض الكثرة في الأحياء السفلى

ويغلب أن يزيد النسل حين تكون زيادة النسل هي الوسيلة الوحيدة التي يستطيعها الفرد لخدمة نوعه وضمان دوامه . فإذا تيسرت للفرد وسائل مختلفة لخدمة نوعه فقد يجور ذلك على نسله وينتقص من قسمته في أبنائه ، كأنما خدمة النوع ضريبة مفروضة على كل فرد في صورة من الصور ، فإذا أداها في صورة أعفى منها في الصور الأخرى . أو كأنما هي مواهب وأزراق لا يستوفيها الفرد الواحد الا بثمن غال يحسب عليه ،

ويؤدي حسابه للنوع على نحو من الأنحاء
والانسان هو أقدر المخلوقات الحية على خدمة نوعه بوسائل كثيرة

لا تنحصر في تحديد النسل وزيادة عدده
فهل يجوز لنا أن نقول ان العظماء الذين حرّموا النسل قد أدوا
ضريبتهم باصلاح شئون الناس فلم يبق من اللازم المفروض عليهم أن
يؤدوا هذه الضريبة من طريق الذرية ؟ ..

ان قلنا ذلك فأنما نقوله على سبيل الملاحظة التقريبية التى أشرنا اليها .
ولا نبلى بتلك الملاحظة فوق مبلغها من اليقين الذى تستحقه ، فغاية
مبلغها عندنا انها تستوقف النظر للتأمل والمراجعة ولا تفضى بنا الى
الجزم أو الى التغليب ..

فبعض العظماء من أكبر خدام النوع لم يتزوجوا ، وفيهم أنبياء
معظمون لا شك في سيرتهم من هذه الناحية ، كعيسى عليه السلام
وبعض العظماء الذين تزوجوا لم يرزقوا الذرية ، أو رزقوا ذرية كلها
اناث ، أو رزقوا ذرية من الاناث والذكور ولم يعيشوا ، أو عاشوا ولم
يعمروا ولا كانوا على حالة مستحبة من الصحة والنجابة

وتواريخ العظماء في جميع نواحي العظمة ، وفي جميع الأمم ، وفي
جميع العصور ، حافلة بالشواهد التى تعزز تلك الملاحظة وتجعلها خليفة
بالتأمل والمراجعة : يدخل فيهم القديسون كما يدخل فيهم الحكماء ،
ويدخل فيهم العلماء كما يدخل فيهم رجال الفنون والمخترعون ، ويدخل
فيهم القادة العسكريون والسياسيون ، ولا يصعب على أحد أن يدير
بصره الى فترة من الزمن في بلد قريب يعرفه حق المعرفة ليشاهد مصداق
ذلك في نفر من عظمائه ومشهوريه ، وحسبنا في مصر أسماء جمال الدين
الأفغانى ، ومحمد عبده ، وسعد زغلول ، وعبد الله نديم ، ومصطفى
كامل ، ومصطفى فهمى ، ومحمود سامى البارودى ، وحافظ ابراهيم

فاذا جاز لنا أن نقف عند تلك الملاحظة وأن نتأمل مغزاها ، وجاز لنا
أن نفهم أن اصلاح شئون النوع الانسانى ضريبة تغنى عن ضريبة الذرية

فى بعض الأحوال - فأين ترانا نجد تلك الضريبة فى أرفع حالة وأعلى قيمة أن لم نجدها فى رسالة نبوية تتناول الأجيال بعد الأجيال وتتناول الملايين فى كل جيل ؟ .. وأى أبوة انسانية تغنى عن أبوة اللحم والدم كما تغنى أبوة النبى الذى يتكفل بتربية الأرواح فى أمته ، وفى أمم لا يلقاها فى زمانه ، وأمم لا تزال تستجد بعد زمانه الى أقصى الزمان ؟

نذكر هذا حين نذكر حظ محمد من الأبوة الروحية ومن الأبوة النوعية ، ونرى تكافؤا فى الجانبين جديرا بالملاحظة والاعتبار ..
ألا ما أثقل ثمن الإصلاح ! ..

ألا ما أحق المصلحين بالتمجيد وحسن الجزاء
فمحمد الأب كان أصلح الآباء ، ثم فجع فى بنيه فجعة لا يدارى فيها
ألم الانسان الا صبر الأنبياء
ومن الناس من لا يكون صديقا صالحا ولا سيدا صالحا ولا زوجا
صالحا ، ولكنه أب صالح برّ بينه ..

لأن الرحم بين الآباء والأبناء أدنى الأرحام الى المودة وأحراها
بتحريك الشفقة فيمن لا يشفقن على أحد ..
فكيف تكون الأبوة فى نفس صلحت للصدقة وصلحت للسيادة
وصلحت للزوجية لأنها تصلح للعطف الذى يعم القريب والغريب ،
ويشمل القوى والضعيف ؟

ذلك أب نعلم كيف يفرح بأبنائه
ونعلم كيف يحزن حين يفجع فى أولئك الأبناء
ومن الراجح أن العطف الأبوى لم يتمثل قط فى مولد أحد من أبناء
محمد عليه السلام كما تمثل فى مولد ابنه الذى سماه باسم جده الأكبر
أملا فى أن يصبح بعده خليفته الأكبر . ولعل العطف الأبوى قد تمثل فى
تبشيع هذا الطفل الصغير أشد من تمثله فى استقباله يوم ميلاده
كانت أسباب كبيرة توجى الى قلب محمد العظيم شوقه الطويل الى

استقبال ذلك الوليد ..

كان منها ان محمدا عربى يحرص على العقب من بعده كحرص كل رجل من أبناء القبائل وأصحاب العصبية : هم فخورون بالنسب فخورون بالعقب ، يحفظون سيرة السلف ويتوقون الى استبقاء الخلف على نحو لا يعهده الحضريون وان كان حب الذرية فطرة مركبة في جميع الطبائع ومحمد كان يجب التكاثر لنفسه ويحبه لأمته ويوصى المسلمين أن يستكثروا من النسل ما استطاعوا ليفاخر بهم الأمم وفرة وعزة . فاشتياقه الى العقب من الذكور خليفة عربية تقترن بالخلقة الانسانية والخلقة النبوية ، فتزداد قوة على قوتها التى ركبت في جميع الطبائع ..

وكان من أسباب هذا الشوق القوى طول العهد بالأبناء بعد من ولدتهم له السيدة خديجة رضى الله عنها ، وشماتة أناس من شائتيه سماه بعضهم بالأبتر لانقطاع معظم نسله : وفي ذلك نزول الآية الكريمة : « ان شائتك هو الأبتر »

فقد مضى نيف وعشرون سنة لم تلد له في خلالها زوجة من زوجاته . ومات في هذه الفترة كل أولاده ما عدا فاطمة رضى الله عنها التى ماتت بعده بقليل : مات القاسم ، والطاهر ، طفلين . وماتت زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، بعد أن تزوجن ، ولم يتعوض من فقدهن ما يعزيه بعض العزاء ..

فجیعة تضاعف الشوق الى الوليد المأمول

وطول انتظار يضاعف الحب له كما يضاعف الشوق اليه

ولسنا ندرى لم طالت الفترة التى مضت على أزواج النبی جميعا بغير عقب .. ولكننا لا نستبعد تعليلها باجتماع المصادفات التى لا يندر أن تجتمع في أمثال هذه الأحوال . فعائشة البكر التى لم يتزوج النبی بكرا غيرها قد مات عنها عليه السلام وهى دون العشرين . وهى سن قد تبلغها المرأة ولا تلد ، وان كانت ولودا فيما بعدها

أما أزواجه الأخريات اللاتى تزوجن قبله فلا نعلم من أخبارهن أنهن

أعقبن لأزواجهن الأولين خلفا غير رملة أم حبيبة ، وهند بنت أمية المخزومية ، وهذه كانت مسنة يوم بنى بها النبي عليه السلام ، وفي عمر لا يستغرب فيه امتناع الولادة

فكلهن ما عدا هاتين لم يلدن للنبي ولا لزوج قبله ، واجتماع هذه المصادفة ليس بالعجبية المعضلة التي يصعب تعليلها اذا تذكرنا أن النبي قد توخى في اختيارهن تلك الأغراض العامة التي أجملناها في الفصل السابق ولم يتحرر منها النسل خاصة : وهى الايواء الشريف والمصاهرة . وبعضهن — بل معظمهن — قد لقين من الشدائد والمخاوف وعناء الهجرة البعيدة ، ما يعقم الولود

فاذا أضفنا الى ذلك معيشة الكفاف وضربة العظمة النبوية التي أشرنا اليها على سبيل الاحتمال ، واشتغال النبي فيما بين الحسين والستين بتعزيز الدين وقمع الفتن ودرء الأخطار — لم يكن فهم تلك الظاهرة الحيوية بالأمر العصى على التعليل

حزن الابوة

طال اشتياق النبي الى الوليد المأمول ، وتجدد اشتياقه في أثر كل زواج حتى جاءت مارية القبطية من قطر بعيد ، ومن معدن غير المعدن الذى يختار لايواء المحزونات وتقريب الأسر والعصبيات ، فبشرت النبي بعقب لعله غلام ، واجتمع في هذه البشارة اشتياق نيف وعشرين سنة ، ورجاء لا ينتهى باقتهاء الزمان وولد ابراهيم ! ..

ولد الطفل الذى نظر أبوه اليه يوم مولده فامتد به الأمل مئات السنين ، بل ألوف السنين ، وتخير له الاسم الذى وراءه أعقاب كأعقاب جده الأعلى ، ليكون أباً ويكون له أحفاد ، ويكون لأحفاده من بعدهم أحفاد ..

ثم مات ذلك الطفل الصغير ..

ومات ذلك الأمل الكبير ..

مات كلاهما والأب في الستين .. أى صدمة في ختام العمر ؟ .. أى
أمل في الحياة ؟ .. الدين قد تم ، وهذه الآصرة قد انقطعت ، فليس في
الحياة ما يستقبل وينتظر : كل ما فيها للاشاحة والادبار
مات الطفل ولما يدرك الستين

مصاب صغير ان كانت المصائب تقاس بسنوات المفقودين

ولكن المصائب في الأعمام انما تقاس بمبلغ عطفنا عليهم ، والصغير
أحوج الى العطف من الكبير المستقل بشأناه .
انما تقاس بمبلغ تعويلهم علينا ، وتعويل الصغير على وليه أكبر من
تعويل الكبير ..

وانما تقاس بمبلغ الأمل فيهم ، والأمل يطول في بداءة الطريق وقد
يقصر في منتصف الطريق

انما تقاس آلام المفقودين بأعمار الفاقدين . وأى مصاب أفدح من
مصاب الستين وما بعدها في الأمل الوحيد الواصل بينها وبين الزمان
ماضيه وآتيه ؟

ما تخيلت محمدا في موقف أدنى الى القلوب الانسانية من موقفه على
قبر الوليد الصغير ذارف العينين مكظوم الوجد ضارعا الى الله
نفس قد نفثت الرجاء في نفوس الألوف بعد الألوف ، وهى في ذلك
الموقف قد انقطع لها رجاء عزيز : رجاء وا أسفاه لا يحييه كل ما ينفته
المصلح في الدنيا من رجاء

وكأنى بمحمد كان يومئذ أقرب الى قلوب الخائفين من بعده مما كان
مع الجالسين حوله ، ومع أقرب الناس اليه

كان أقرب الناس اليه زوجاته أمهات المسلمين . وكنَّ يجبنه غاية ما
يجب النساء الأزواج ، ولكن حبهن اياه لم يكن في هذا الموقف من
حب المقربات العاطفات ، لأنه حب أثار غيرتهن من أم الوليد المأمول ،
فاحتجب من عطفهن بمقدار تلك الغيرة بمقدار ذلك الحب . ولا لوم
عليهن فيما طبع عليه الانسان وفيما لا يقصده ولا يقدرن عليه

وكان أقرب الناس إليه أصحابه الخاشعون بين يديه ، وكان اكبارهم
لسيد الأنبياء ينسبهم انه أب من الآباء ، بل انه أب أرحم من سائر
الآباء ..

ظنوا أن النبي لا يحزن ، كما ظن قوم أن الشجاع لا يخاف ولا
يجب الحياة ، وأن الكريم لا يعرف قيمة المال
لكن القلب الذي لا يعرف قيمة المال لا فضل له في الكرم ، والقلب
الذي لا يخاف لا فضل له في الشجاعة ، والقلب الذي لا يحزن لا فضل
له في الصبر . إنما الفضل في الحزن والغلبة عليه ، وفي الخوف والسمو
عليه ، وفي معرفة المال والايثار عليه

وفضل النبي في نبوته وفي أبوته أنه حزن وبكى ، وتلك هي الصلة
بينه وبين قلب الانسان ، وبينه وبين الناس ، وأي نبي تنقطع بينه وبين
القلب الانساني صلة كهذه الصلة التي تجمع أشتات القلوب ؟ ..

روى أسامة بن زيد أن زينب بنت النبي أرسلت اليه : « ان ابنتي
قد حصرت فاشهدنا » فأرسل اليها عليه السلام يقول : « ان الله ما أخذ
وما أعطى ، وكل شيء عنده مسمى . فلتحسب ولتصبر » . فأرسلت
تقسم عليه ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم وقمنا . فرفع الصبي في
حجر النبي ونفسه تقعقع . ففاضت عينا النبي صلى الله عليه وسلم .
فقال له سعد : « ما هذا يا رسول الله ؟ »

قال : « هذه رحمة وضعها الله في قلوب من شاء من عباده . ولا
يرحم الله من عباده الا الرحماء »
ما هذا يا رسول الله ؟ !

هذا رسول الله في أصدق ما تكون عليه رسالة الرسل : في الرحمة ،
وفي الآصرة الانسانية ، وغير هذا لن يكون
ومحمد قد اتقى رؤية طفل يموت لابنته وهو كهل غير يائس من
العقب ، فكيف يكون حزنه على فلذة كبده ابراهيم وهو بعده ذاهب
الرجاء في الأبناء ؟ ! ..

لقد كان حزنه لموته بمقدار فرحه بمولده ، وكان فرحه بمولده بمقدار
أمله فيه واشتياقه اليه

وان العطف الانساني كله ليتجه الى تلك النفس الزكية وهى تتوسع
فرحا بالوليد المأمول ... حلق الأب المتهلل شعر ولده وتصدق بزته
فضة على المساكين ، وذلك هو التوسع الذى وسعه رجل كان أقدر
الرجال على وجه البسيطة غير مستثنى فيها رؤساء ولا سملوك
جاء بأقصى ما عنده من الفرح وأقصى ما عنده من التوسعة ، ولو
شاء لقد كان وزن الوليد كله درا وجوها بعض ما يستطيع فى ذلك
اليوم الأغر الميمون ..

وبمقدار هذا الفرح الطهور يوم الاستقبال كان الحزن الوجيع يوم
الوداع :

خرج الرجل الذى اضطلع بأعباء الدنيا ومن فيها ، وهو لا يضطلع
بحمل قدميه : خرج يتوكأ على صديق عطوف الى حيث يحمل الوليد
آخر مرة فى حجره الأبوى قبل أن يودعه حجر التراب .. وكان يستقبل
الجبل بوجهه فقال : يا جبل !.. لو كان بك مثل ما بى لهدتك . ولكن
انا لله وانا اليه راجعون ..

أى والله ! .. انها لاحدى الفواق التى يحملها اللحم والدم ولا
تحملها صخور الجبال ..

وصرخ أسامة حين بكى رسول الله . فنهاه رسول الله وقال : البكاء
من الرحمة والصراخ من الشيطان

حزن كما ينبغى له أن يحزن .. أما الحزن الذى لا ينبغى له فهو
الصراخ الذى نهى عنه ، وهو أن تنكسف الشمس يوم موت ابراهيم
فيحسب المسلمون أنها انكسفت لموته ، ويقول الأب الذى انكسفت
الشمس حقا فى عينيه : « كلا .. ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله
لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته ! »

أو تخسفان ولكن فى أكباد المحزونين ، وليس فى كبد السماء

أكرم الآباء

أو كان من الحتم أن يكون محمد مثال الآباء كما كان مثال الأنبياء ؟ ..
كذلك شاء القدر القادر ، وكذلك رأينا محمداً مثال الأب يوم ولد له
إبراهيم ، ومثال الأب يوم ذهب عنه إبراهيم
ما يتمنى طفل - لو جاز أن يتمنى الأطفال - أبوة أرحم ولا أذكى
من هذه الأبوة في الحالتين ..
بل كان محمد مثال الأب حيشما كان له نسل قريب أو بعيد ، وذكر أو
أنثى ، وصغير أو كبير
أرأيت الى الحسن بن فاطمة وقد دخل عليه فركب ظهره وهو ساجد
في صلاته ؟ ..
ان النبي في صلاته لهو النبي في مقامه الأسنى . وان النبي في مقامه
الأسنى ليشفق أن يشغل الصبي عن لعبه فيطيل السجدة حتى ينزل
الصبي عن ظهره غير معجل . ويسأله بعض أصحابه : لقد أطلت
سجودك ؟ .. فيقول : ان ابني ارتحلنى فكرهت أن أعجله !
أرأيت الى فاطمة تدخل البيت أشبه الناس مشية بمشية محمد ؟ ..
أرأيت الى حنان يفيض على القلب كحنانه حين يرى فتاة تشبه أباها
في مشيته وسمته ! ..
تلك فاطمة بقية الباقيات من الأبناء والبنات ، يغتصها النبي بمناجاته
في غشية وفاته : انى مفارق الدنيا فتبكي . انك لاحقة بي فتضحك ...
في هذا الضحك وفي ذلك البكاء على برزخ الفراق بين الدنيا والآخرة
أخلص الود والحنان بين الآباء والأبناء
سرّها بنبوته ، وسرّها بأبوتّه ، فضحكت ساعة الفراق لأنها ساعة
الوعد باللقاء ..
وكذلك فارق الدنيا أكرم الأنبياء وأكرم الآباء

السَّيِّد

الخير المطبوع

قدمنا الكلام في فصول هذا الكتاب عن محمد رئيسا ، ومحمد صديقا ،
ومحمد زوجا ، ومحمد أبا ، بعد الكلام على عبقريته في الدعوة ، وعبقريته
في قيادة الجيوش ، وعبقريته في السياسة والادارة والبلاغة
وبقي جانب لا تتم بغيره الاحاطة بجوانب النفس الانسانية في العلاقات
بينها وبين سائر النفوس ، وهو جانب المعاملة التي تكون بين الرجل ومن
هم دونه ممن يملك أمرهم ويقبض على زمامهم ولا يعتصمون منه بعاصم
غير عواصم طبعه وخلقه. ونريد بهم الخدم والعييد والأرقاء ، وهى معاملة
لها من الدلالة على الأخلاق ، ما يندر أن تدل عليه معاملة أخرى ، لأنها
تأتي من طبائع النفس وعقائدها ، ولا تأتي بأمر آمر أو بدعوة داع
فالصدقة لها الحقوق المتكافئة بين الصديقين . لا يستطيع أحدهما
أن ينسأها زما طويلا الا ذكره بها مذكر من صديقه الحافظ لحقوقه ،
القادر على مقابلة الجفاء بمثله ، ولو في طوية نفسه
والرئاسة قد تخول الرئيس حق السيطرة ، وتفرض على الرؤوسين
واجب الطاعة ، غير أنها قلَّ أن تنطلق بغير وازع من خشية الغضب أو
خشية الانتقاص يحسب له الرئيس كل الحساب ، أو بعض الحساب
والأب يعطف على بنيه فلا يعجب الناس لعطفه عليهم ، لما ركب في
طباع جميع الأحياء من حب الأب لولده ، وإن اختلف الآباء في صفات
العطف وفي استحقاقهم لبر الأبناء ..
وكذلك الزوج يرفق بزوجه وليس له كل الاختيار في رفقه ، لما
يكون بين الزوجين من دالة يعتز بها الضعيف ، ويستغنى بها أحيانا عن
القوة والرئاسة ..
أما العبد المملوك فلا عاصم له غير ما في نفس سيده من رحمه وخير ،

وانه لمن الرحمة والخير أن يتبع السيد أمر الدين مع عبيده وخدمه الذين لا ينصرهم عليه ناصر في هذه الدنيا .. بل انها لرحمة تؤثر ولو وقعت عند حدود الأوامر الالهية ، فاذا تجاوزتها الى طوعية في الخير لم يفرضها الدين ولم يفرضها العرف ولم يطلبها العبد نفسه فتلك هي الرحمة في أصدق معانيها ، وهي أدل الدلالات على لباب الأخلاق

ولقد علم القارئ من فصولنا السابقة اننا لم نكتب هذا الكتاب لشرح الأصول الاسلامية وتفصيل محاسن الدعوة المحمدية . فذلك غرض لا تتسع له هذه الفصول وليس لنا أن نتصدى له بعد من فصلوه وكرروا الكتابة فيه ..

وانما قصد بهذه الفصول الى غرض قدمناه على كل غرض في موضوعه ، وهو بيان البواعث النفسية التي توحى الى النبي أعماله ومعاملاته ، ولا شك في مطابقة هذه البواعث لكل أمر من أوامر الدين وكل نهى من نواهيه . الا أن الخير المطبوع شيء والخير المأمور شيء آخر . والخير المطبوع هو الذي قصدنا الى بيانه بكل ما بيناه

ففى كتابنا عن معاملة محمد للعبيد والخدم لا ننوى أن تفصل أحكام الاسلام وأوامر القرآن في هذه المعاملة ، وانما ننوى أن نبين مزية محمد على جميع السادة في هذا الباب ، وهي مزية لا تتوافر لمن يقنعون بالتزام الأوامر والحدود ، ولا للذين يرتفعون الى أرفع مرتبة تفرضها هذه الأوامر والحدود

الاسلام والرق

على أن هذا لا يمنعنا أن نوجز الاشارة بداءة الى مزية الاسلام بين الأديان الأخرى في مسألة الرق والاستعباد ، لأن أناسا يخلطون بين اعتراف الاسلام بنوع من الرق وبين اعتباره مسئولاً عن وجوده في الزمن القديم ، ويردون شيئاً من ذلك الى عمل النبي عليه السلام .. فمن الواجب أن نذكر أولاً أن ديننا من الأديان الأخرى لم يأمر بالغاء

الرق في شكل من أشكاله ، سواء رق الحرب أو رق النخاسة والبيع والشراء ، وإن أناسا من أقطاب المسيحية كالقديس أغسطين سوغوه واعتبروه جزاء عادلا للخطايا التي يقتربها المسترقون ، وجاء بعض أحنبار الكنيسة فحرموا على الأرقاء شرف الخدمة فيها بالوعظ والهداية ، انفة لها أن يدنسها لؤم العنصر الذي وسموا به الرقيق

ويجب أن نذكر بعد هذا أن النظام الاقتصادي القديم في أساسه كان مرتبطا بالاسترقاق أشد الارتباط . فكان الغاؤه طفرة واحدة أقرب شيء الى المستحيلات ، ولم يكن أنفع في علاجه من التدرج خطوة خطوة والابتداء بتصعيبه وترغيب الناس عنه ، وهو ما شرعه الاسلام فالاسلام قد بدأ بتحريم كل رق غير رق الأسرى في الحروب ، ثم حسن اطلاقهم وسماه منأ وعفوا يشكر فاعله عليه : « فاما منأ بعد واما فداء » ..

ثم أجاز للأسير أن يشتري نفسه ، وأوجب حريته في حالات كثيرة يرجع معظمها الى ارادته هو ، اذا استطاع والحق الذي لا مراء فيه أن صنيع الاسلام هذا كان أجمل صنيع لقيه الأرقاء من دين أو شريعة ، وأنه اذا كان هناك تمهيد لالغاء الرق بتة فذلك هو تمهيد الاسلام دون غيره ، وهو أقصى ما كان مستطاعا في نظام العالم القديم : نظام كان عدد الأرقاء فيه يقارب عدد الأحرار ، كما جاء في بعض الاحصاءات المروية عن الحضارتين الرومانية واليونانية وقد نظر في مسألة الرق عقل من أكبر العقول التي نبغت في أمة اليونان بل في الأمم كافة - ونعني به ارسطو - فأقره وأوجبه لأنه جعله سنة من سنن الفطرة وقيدا لا فكاك منه لطائفة من الناس ، خلقت عاجزة عن ولاية أمرها فلا غنى لها عن سيد ولا موئل لها من وال

معاملة محمد لعبيده

ولو وقف النبي عند هذا الحد في معاملة الأرقاء لأحسن وأجمل وامتناز بأمر دينه على كل محسن الى الأرقاء في زمانه الا اننا نقرر الواقع ولا

تتعداه قيد شعرة حين تقول ان كثيرا من الأبناء لا يتمنون عند آبائهم خيرا من المعاملة التى ظفر بها خدم محمد وعبيده . ومن الآباء يحسن الى أبنائه خيرا من احسان محمد لزيد بن حارثة ولابنه أسامة ؟ فقد أعتق زيدا ورآه أهلا للزواج بعقيلة من أقرب قرياته اليه وأولاهن بحدبه وتوقيره ، وهى التى رآها بعد ذلك أهلا لزواجه بها وحظوتها لديه . فلم يعطه الحرية وكفى ، ولم يعطه المساواة فى العيش وكفى ، بل رفعه الى المنزلة الاجتماعية التى يرتفع اليها السادة ، ولا يشتها شئ كما يشتها شرف المصاهرة

ثم حفظ هذا البر الأبوى لابنه أسامة ، فوله جيش الشام وهو دون العشرين ، وفى الجيش طائفة من أكابر الصحابة . فلو كان للنبي ولد فى سنه لما تكفل به أحسن من هذه الكفالة ، ولا ميّزه أشرف من هذا التمييز ..

نعم لم نعد الواقع ، ولا تجوزنا فى الوصف ، حين قلنا إن الابن لا يتمنى خيرا من معاملة محمد لعبده . فقد عرف زيد فعلا أن محمدا خير من أب وخير من أسرة كاملة يرجع اليها وترجع اليه . فبقى معه ولم يذهب مع أبيه ، ولم يبق معه ايثارا لبركة النبوة فان محمدا لم يكن قد أرسل بالدعوة يوم اختاره زيد وآثره على جميع آله . وإنما بقى معه لأنه الانسان الذى يعرف حتى العبد الرقيق أن آصرة الانسانية عنده أوثق من آصرة الأبوة عند آخرين

ان حب الوالد لوليد وراثته ألوف الألوف من الأجيال . بل وراثته الحياة فى جميع الأحياء . فاذا بلغ البر بالضعفاء مبلغ الحب الأبوى من القوة فقد بلغ الذروة العليا التى لا متستهم فوقها لراق .. لقد خيرت شريعة الاسلام المحسنين بين المن واعتاق الأسرى ، وبين الفداء بالمال أو البادلة .. فأيهما اختار المالك فهو احسان ..

أما محمد فقد اختار المن وزاد عليه . فأعتق كل أسير صار الى حوزته ، وزاد على العتق تلك الرحمة الأبوية التى شملت كل منتهم اليه ، ولم يستبح فى غضبه ما يستبيحه المعلم والوالد من ضرب وتعزير .. وربما

كانت كلماته للخادم المخالف أقرب الى الملاطفة منها الى العقاب . ومن ذلك قصة الوصيفة التي أرسلها فأبطأت في الطريق ، فما زاد على أن قال لها حين عادت : « لولا خوف القصاص لأوجعتك بهذا السواك ! »

ضرب سواك لابن عزيز ليس بالشيء الكثير

ولكن محمدا يخشى القصاص اذا استباحه في معاملة وصيفة تهمل أمره ، وهو الذي لا يهتم له أمر عند سادة الشرفاء ..

وروى أنس أن النبي أرسله في حاجة فأنحرف الى صبيان يلعبون في السوق : « واذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبض ثيابي من ورائي ، فنظرت اليه صلى الله عليه وسلم وهو يضحك ، فقال : يا أنيس ! .. اذهب حيث أمرتك ! »

كلمة أمر لا يقولها لخدمته الا وقد ناداه مدلا وقابله ضاحكا كأنه يعتب على قرين . وقد يلام القرين بأشد من هذا الملام

وكانت رحمته بعبيد غيره كرحمته بعبيده .. فكان يجاملهم ويجبر كسرهم ويقبل منهم الهدية ويكافئ عليها ، ويلبى دعوتهم اذا دعوه الى طعام ، ويوصي بهم قائلًا : « هم اخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فان كلفتموهم فأعينوهم » و « اتقوا الله في الضعيفين النساء والرقيق »

البر بالخدمة

وربما كان البر بالخدمة في هذا المقام أكرم وأنقى للهوان من البر بالخدم .. فالبر بالخادم عطف عليه . أما البر بالخدمة فارترفاع بالخادم الى مقام السادة حيث لا يأنف السادة من خدمة أنفسهم بأيديهم ، وذلك هو البر بالخدمة كما عنيناه ، وذلك هو دأب النبي الذي جرى عليه في بيته وبين أهله وخدمه

فقد كان يحلب شاته ويخصف نعله ويخدم نفسه ويعلف ناضحه أى البعير الذي يستقى عليه الماء . فاذا رأى الخدم لهم عملا في البيت يماثل

عمل سيدهم ومالك أمرهم فتلك هي المساواة التي تسمح ضمير الخدمة وتجبر كسرهما ، ولا تقتصر على العطف والرحمة ولم يقبل عليه السلام خدمة من خادم يأثم الأحرار أن يقضوها له شاكرين . فما كان في رجالات المسلمين كابر ابن كابر الا كان يتمنى أن يؤدي لنبيّه تلك الخدمة التي تطوعت بها نفوس مواليه وأتباعه . وهذا ضرب آخر من ضروب البر بالخدمة والتسوية فيها بين مقام الخادم ومقام المريد . فكان عمل الخادم عنده عمل التلميذ الذي يجلس الى قدمي أستاذه ، حبا لا خنوعا ، وتوقيرا لا مذلة ، وأدبا يفرضه على نفسه وليس بضريبة مكتوبة يفرضها عليه العرف والتأديب

وعلى هذا كان النبي عليه السلام يكره أن تقبل يده مخافة أن تجرى العادة بهذا بين الناس فتحمل بينهم على محمل الذلة والخضوع . قال أبو هريرة رضى الله عنه : « دخلت السوق مع النبي صلى الله عليه وسلم فاشتري سراويل ، وقال للوزان : زن وأرجع ... فوثب الوزان الى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلها ، ف جذب يده وقال : هذا تفعله الأعاجم بملوكها ، ولست بملك ، انما أنا رجل منكم . ثم أخذ السراويل فذهبت لأحملها فقال : صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله »

ولقد يصح أن يقال ان حصة النبي من خدمة نفسه كانت أعظم من حصة خدمه . وان تعويلهم عليه كان أكبر من تعويله عليهم وانه جعل الخدمة على سنته ضربا من توزيع الأعمال ، أو ضربا من تعاون أبناء البيت الواحد فيما يستطيعه كل منهم من تديره وقضاء شئونه

« انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » هذه كلمة السيد بامامته ، السيد بنسبه ، السيد بسلطانه ، السيد بالتفاف القلوب حوله ، السيد بسيادته على سره وعلائيته ورأيه وهواه . ولو عمت هذه السيادة لبطل الاستعباد وأصبح تفاوت الدرجات كتناوت الأعمار شيئا لا غضاضة فيه على صغير ولا خنزوانة فيه لكبير . انما هو تقسيم أعمال ، وتعاون بين اخوان ، وان لم يكن تعاونا بين أمثال .

المكابد

الطبائع الاربع

طبيعة العبادة ، وطبيعة التفكير ، وطبيعة التعبير الجميل ، وطبيعة العمل والحركة ...

هذه طبائع أربع تتفرق في الناس وقلما تجتمع في انسان واحد على قوة واحدة . فاذا اجتمعت معا فواحدة منهن تغلب سائرهن لا محالة ، وتلحق الأخريات بها في القوة والدرجة على شيء من التفاوت

طبيعة العبادة تدعونا الى الاتصال بأسرار الكون للمعاطفة والتآلف بيننا وبينها : تدعونا الى الحلول من الكون في أسرة كبيرة

وطبيعة التفكير تثير في نفوسنا ملكات الكشف والاستقصاء : تدعونا الى الحلول من الكون في معمل كبير

وطبيعة التعبير الجميل تشب النار المقدسة في سرائرنا ، فتصهر معادن الجمال من هذه الدنيا وتفرغها في قوالب حسناء من صنع قرائننا والسنتنا ، أو صنع قرائننا وأيدينا ، أو صنع قرائننا وأوصالنا ، تدعونا الى الحلول من الكون في متحف كبير

وطبيعة العمل والحركة تعلمنا كيف تتأثر بدوافع الكون وكيف تؤثر فيها ، وتجذبنا اليها فنستمد منها القدرة التي تجذبها اليها : تدعونا الى الحلول من الكون في ميدان صراع ومضمار سباق

وقلما تشعر بالكون بيتا لأسرة ، ومعملا لباحث ، ومتحف فن ، ومضمار سباق في وقت واحد . انما هي حالة من هذه الحالات تجب سائر الحالات ، وقد تلحقها بها الحاق التابع بالمتبوع والمساعد بالعامل الأصيل

محمد بن عبد الله كانت فيه هذه الطباع جميعا على نحو ظاهر في كل طبيعة : كان عابدا ومفكرا وقائلا بليغا وعاملا يغير الدنيا بعمله . ولكنه عليه السلام كان عابدا قبل كل شيء ، ومن أجل العبادة قبل كل شيء كان تفكيره وقوله وعمله ، وكل سجيّة فيه تهيأ للعبادة بعمرائه ونشأته وتكوينه . فولد في بيت السدانة والتقوى وتقدمه آباء يؤمنون ويوفون بإيمانهم ، ويعتقدون ويخلصون فيسا اعتقدوه ..

ونشأ يتيما من طفولته فانطوى على نفسه وتعود التأمل والجد والعزوف عن عبث الصغار ، والنظر الى ما حوله بعين الناقد المرفع عن الدنيا ، الجانح الى الطهر واستقامة الضمير وتكوّن في بنيته عابدا من صباه ..
قل انه في الثانية أو الثالثة من عمره قد أدركته حالة يختلف شراح التاريخ في تفسيرها ، ويرونها من سمعوا بها على روايات مختلفات لا يرى ما هو الواقع الصحيح منها ، ويتمجل بعض المؤرخين الأوربيين فيحسبها ضربا من الصرع على غير سند علمي أو تاريخي محقق يستند اليه ..

كل ما يمكن أن نجزم به من هذه الحالة أو من غيرها أن محمدا قد تكوّن ليتلقى الوحي الالهي ، وأن لهذا التكوين استعدادا لا بد أن يلحظ من أوائل صباه ، لأن البنية الحية لن تنهأ له في أيام ولا في شهر ولا في سنوات ، ولن تستطيعه الا اذا تمّت أهبتها له والمولود في صلب أبيه ، ولا نقول في المهد أو في الرضاع
فمن الأقوال المتواترة انه كان عليه السلام اذا نزل عليه الوحي نكس رأسه ، وكرب لذلك وتريد وجهه ، وأخذته البرحاء حتى انه ليتحدر منه مثل الجمان في اليوم الشتاتي ، وسمع عند وجهه كدوي النحل ، وقد يصدع فيغلف رأسه بالحناء . وقد شاب فقال : « شيبتي هود وأخواتها » وعدّد حين سئل عن أخواتها سورا أخرى من القرآن الكريم .

وليس هذا من خليفة كل بنية انسانية : انما هو خليفة البنية التي
تتلقى وحيا وتستوعب سرا وتهتز لنبا عظيم

صفة العابد

وكانت أوصافه في غير حالة الوحي توافق الاستعداد الذي يرشحه
لتلقى الوحي والنبوة . فكان حسا كله وحياة كله . يراه من ينظر اليه
فيرى فؤادا يقظا يتبته لكل خالجة نفسية وكل نبأة خفية . يسرع في
مشيته ويلتفت فيلتفت بكل جسمه ، ويشير فيشير بكل كفه ، ويفكر
فلا يزال يطرق الى الأرض أو يرفع بصره الى السماء ، ويدعو فيرفع
يديه حتى يرى بياض ابطيه ، ويفضض فتحمر عيناه ووجنتاه ، ويمتليء
عرق جبينه وينام وقلبه يقظ لا ينام : حس مرهف يدنى اليه ما وراء
الحجاب ، ويوقظ سريره لأخفى البواطن ، ويجعله أبدا في حالة قريبة
من حالة الوحي حيثما هبط الوحي عليه ..

هذه صفة عابد يفكر ويعبّر ويعمل ، وليست بصفة عابد ينقطع
للعادة أو ينقطع للتفكير ، أو يعمل كما يعمل بعض النساك الذين هزلت
بنيتهم الجسدية فلم يبق لهم الا عكوف الصومعة أو رحلة الزهادة
كانت عبادة محمد خلوا بالنفس الى حين ، أو عجبا من بدائع الكون
التي ألفها الناس لأنهم لم يوهب لهم في أبصارهم وبصائرهم تلك النظرة
الجديدة التي ترى كل شيء كأنه في خلق جديد
ما أعظم دهشة الناظر أن يرى الشمس قد خلقت اليوم أمام عينيه
دهشة لا تعدلها دهشة ..

وهي هي دهشة العين التي أبت أن تكلم من الألفة لأنها أبدا في نظر
جديد ، أو في نظر الى كل منظور كأنه مخلوق جديد
وهكذا كانت عبادة محمد عليه السلام : عجب من بدائع الكون في كل
نظرة يراها لأول مرة ، وتفكير في الخلق ينتهي الى الايمان لأنه يبدأ
بالعجب ، ولا يزال أبدا بين العجب والايمان

وان محمدا باعث الايمان الى القلوب . لقد كان يجدد ايمانه كما يجدد
عجبه كل يوم . وكان يدعو الله فيقول : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي
على دينك » ... وقيل له في ذلك فقال : « انه ليس آدمي » الا وقلبه بين
أصبعين من أصابع الله . فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ »
حركة متجددة في الحس وفي الفكر وفي الضمير

فلا انقطاع عن الحس للعبادة كل الانقطاع
ولا انقطاع عن الحس للتفكير كل الانقطاع
وانما هو تفكير من ينتظره العمل ، وليس بتفكير من ترك العمل
ليوغل في الفروض ومذاهب الاحتمال والتشكيك : ثلث آيame لربه
وثلاثها لأهله ، وثلاثها لنفسه ، وما كان في فراغه لنفسه ولا لأهله شيء
يخرجه عن معنى عبادة الله والاتصال بالله ، على نحو من التعميم

بهره الجمال من صباه : جمال الشمس والقمر والنهار والليل والروض
والصحراء ، وجمال الوجوه التي يلمح عليها الحسن فيطلب عندها الخير .
انما هو الخير على كل حال ما قد طلب من الجمال . وانما جمال الله هو
الذي قد كان يدعوه اليه ، كلما نظر لى خلق جميل
فكّر في الخلق فأمن بالخالق واستقر هنالك لا يتقدم ولا يتأخر
فقال : « ان الشيطان يأتي أحدكم فيقول : من خلق السماء ؟ فيقول
الله ، فيقول : من خلق الأرض ؟ فيقول : الله . فيقول : من خلق الله ؟
فاذا وجد ذلك أحدكم فليقل : آمنت بالله ورسوله »
تلك هي نهاية التفكير التي ينتهي اليها عقل مستقيم خلق لعبادة
عامل ، وتعليم الناس عبادة وعملا ، ولم يخلق ليوغل في الفروض ويتقلب
بين الشكوك ..

وانا لنسأل مع هذا : الى أين انتهى المفكرون الذين أوغلوا في
شكوكهم وتطوخوا بها الى قصوى ما تفرضه الفروض ؟
الى أين انتهى « كانت » Kant امام المفكرين في هذا الباب بين

فلاسفة العصر الحديث ، ان لم تقل الحديث والقديم ؟
اتهى الى أن النفس نفسان والوجود وجودان : نفس حسية ونفس
حقيقية .. ووجود محسوس ووجود حق هو ذات الوجود
النفس الحقيقية تدرك الوجود الحقيقى عندما ترجع الى قرارها ، ثم
لا تتخطى بأدراكها عالم الباطن الى عالم المحسوسات التى يتناولها التعبير
وتصدير الكلام ..

أليس معنى هذا أن إيمان النفس الباطنة أمر لا يتعلق بالبرهان ؟ وأن
المرجع غاية المرجع انما هو الايمان ولا شىء غير الايمان ؟
بل حتى البرهان الأكبر على وجود الله نعود اليه لنسأله ونسمع منه
فماذا يقول ؟ ..

يقول لنا ان العدم معدوم فالوجود اذن موجود ، وانك اذا آمنت
بالوجود فلا مناص لك من الايمان به فى صفته المثلى ، لأنك تحتاج الى
مقتضى لفرض النقص ولا تحتاج الى مقتضى لفرض الكمال فى وجود
لا يتطرق اليه العدم

وما الفارق بين الايمان بالله والايمان بالوجود فى صفته المثلى ؟
هنا ينتهى الايمان فى الفروض والشكوك
وهناك انتهى الايمان ، بغير ايمان فى فروض ولا شكوك ..
ألا تتلاقى النهايتان ؟ .. أو لا تفضل الفروض والشكوك حيث تفضل
ثم لا يخطو لها قدما وراء خطو الايمان ؟

لهذه السنة التى استتتها النبى عليه السلام فى عبادته الروحية كثرت
وصاياه بأدمان التفكير فى خلق الله واجتناب التفكير فى ذات الله . فقال
فى حديث : « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله » وقال فى هذا
المعنى : « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله فتهلكوا » وقال فى
حديث قدسى : « كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق
فعرفت » أو كما جاء فى رواية : « فخلقت الخلق فبى عرفوني »

طريق الوصول

وخلاصة هذه الأحاديث وما في معناها ان التفكير في حقائق الوجود
ريق الوصول الى الله ولا طريق غيره للحواس ولا للعقل ولا
ال . ة : ايمان بالوجود الأبدى في صفته المثلى ، وتفكير في حقائق
ال . ود كما نراها ونحسها ونعقلها ، وذلك قصارى ما عند العقيدة ،
وإسارى ما عند الفلسفة ، وقصارى ما عند العلم اذ يقف العلم عند
حده ، وهذا هو العلم الذى فرضه الاسلام على كل مسلم ومسلمة ،
وقال النبى في رواية ابن عباس : « انه أفضل من الصلاة والصيام والحج
والجهاد في سبيل الله » لأنه سبيل الوصول الى الله

ومن الواجب أن تذكر بعد هذا جميعه أن محمدا نبى ، وان النبى يعلم
جميع الناس الايمان ، وتلك سبيل جميع الناس فيما يفتح لهم من أبواب
التفكير وأبواب الاعتقاد . فهم يضلون في تيه الشكوك والمناقضات التى
يتعمق فيها الفلاسفة والمنطقيون ، ولا يبلغون الى هداية أقوم وأسلم من
هداية الايمان بالخالق والتفكير فى الخليفة . فاما هذه الهداية واما
الضلال الذى لا هداية وراءه . وليس لنبى أن يحجب طريق الهداية
ويفتح طريق الضلال

وقد تكلمنا فى هذا الفصل عن روح العبادة أو عن فطرة العابد التى
توحى اليه « عبادته الروحية » ..

أما عبادة الشعائر الظاهرة فهى عبادة الاسلام كما فرضت على جميع
المسلمين : يصلّى النبى ويصوم ويحج ويؤدى الزكاة على الشريعة التى
يتبعها كل مسلم ، وقد يطلب الى نفسه فى هذه العبادات ما ليس يطلبه
الى غيره ، على سنة السماحة والتيسير التى أثيرت عنه فى كل عمل من
أعماله وكل سجيّة من سجاياه ..

« فكان أخف الناس صلاة على الناس وأطول الناس صلاة لنفسه »
وربما قام الليل أكثره أو أقله ولا يدين أحدا بالتهجد كما كان يتهجد

أو بالصلاة والصيام كما كان يصلى ويصوم ، بل قد نهى الناس أن يشتدوا فى العبادة فيصبحوا كالمنبت « لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » لأن الناس جميعا يتلقون الأمر بالعبادة كما يتلقون الأمر بفريضة واجبة ، فهم فى حاجة الى الرفق والتيسير أما النفس المفطورة على العبادة فالصلاة عندها مناجاة حب وفرحة لقاء ، ومطاوعة ليل الضير وميل الجوارح على السواء

وكان محمد « اذا حزبه أمر صلى » كذلك اذا حزبه الأمر نفسا رجعت الى من تعب فخفف وقرها وانفرج كربها ، وأنست بعد وحشة واهتدت بعد حيرة ومتى وجدت النفس « فرحة اللقاء » فى الصلاة فلا اجهاد فيها لجسد ولا تضيق فيها لوقت ، بل فيها الترويح عن الجهد والتنفيس عن الضيق ، ولا سيما اذا كانت النفس من سعة الأفق بحيث تحبى ما تحبى من ليلى ونهارها فى الصلاة والعبادة ثم تؤدى عملها وتشكر تفكيرها ، ولا يحسب أحد يعرفها انها تنقطع بالصلاة والعبادة عن حق من حقوق حياتها ، أو عن حق من حقوق بنى الانسان

الرَّجُل

المختار

عاش في العصور الماضية كثير من العظماء الذين تواترت الأبناء بأوصافهم السماعية وأوصافهم المرسومة في الصور والتماثيل . غير اننا لا نعرف أحدا من هؤلاء العظماء تمت صورته السماعية أو المنقولة كما تمت صورة محمد عليه السلام من رواية أصحابه ومعاصريه ، فنحن نعرفه بالوصف خيرا من معرفتنا لبعض المخلدين بصورهم وتماثيلهم التي نقلت عنهم نقل الحكاية والمطابقة ، لأن هذه الصور والتماثيل قد تحكى للناظرين ملامح أصحابها ومعارفهم الظاهرة ، وقد تحكى للمتفرسين شيئا من طبائعهم التي تتم عليها سيماهم ، الا أنها لا تحفظهم لنا كما حفظت الروايات المتواترة أوصاف النبي في كل حالة من حالاته وكل لمحة من لمحاته : في سيماه وفي هندامه ، وفي شرابه وطعامه ، وصلاته ، وصيامه ، وحلته ومقامه ، وسكوته وكلامه ، لأن الذين وصفوه وأحبوه وأحبوا أن يقتدوا به فتخرجوا في وصفه كما يتخرج المرء في الاقتداء بصفات النجاة والأخذ بأسباب السلامة ، فكانت أمانة الوصف هنا مزيجا من العطف والتدين ، وضربا من اتباع السنن وقضاء الفروض ، لم يختلف الوصف مرة الا كما تختلف نظرة الناظر الى وجه واحد بين ساعة وأخرى. فيقول غير ما قال آتفا ثم لا يبدو التناقض ولا قصد التحريف بين القولين..

وخلاصة المحفوظ من الروايات المتواترة أن النبي عليه السلام كان مثلا نادرا لجمال الرجولة العربية ، كان كشأنه في جميع شمائله مستوفيا للصفة من جميع نواحيها . فرب رجل وسيم غير محبوب ، ورب رجل وسيم محبوب غير مهيب ، ورب رجل وسيم يحبه الناس ويهابونه وهو

لا يحب الناس ولا يعطف عليهم ولا يبادلهم الولاء والوفاء ، أما محمد عليه السلام فقد استوفى شمائل الوسامة والمحبة والمهابة والعطف على الناس. فكان على ما يختاره واصفوه ومحبوه ، وكان نعم المسمى بالمختار.

إذا نظر إليه الناظر رأى رجلا أزهر اللون ، عظيم الهامة ، مفاض الجبين ، سبط الشعر ، أزج الحاجبين بينهما عرق يدره الغضب . أدعج العينين في كحل ، اقنى الأنف يحسبه من لم يتأمله أشم العرنين ، أسيل الخد ، ضليع الفم ، غزير اللحية ، جميل الجيد ، عريض الصدر ، واسع ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس ، طويل الزندين ، رجب الراحة ، شثن الكفين والقدمين ، لا بالمشذب ولا بالقصير ، مربوعا أو أطول من المربع ، معتدل الخلق متماسكا لا بالبدين ولا بالنحيل ..

وإذا أقبل يتحرك نظر إليه الناظر فرأى رجلا يصفه الأقدمون بأنه « حي القلب » ويصفه المحدثون « بالحركة والحيوية » ..

عشى فكأنما ينحدر من جبل وينحط من صلب ، ويرفع قدمه فيرفعها تقلعا كأنما ينشط بجملة جسمه ، ويلتفت فيلتفت كله ، ويشير فيشير بكفه كلها ، ويتحدث فيقارب يده اليمنى من اليسرى ويضرب بابهام اليمنى راحة اليسرى ، ويفتح الكلام بأشداقه ويختمه بأشداقه ، وربما حرك رأسه وعض شفته في أثناء كلامه . وهو على هذه الحركة الحية جم الحياء : أشد حياء من العذراء ، نضاح المحيا إذا كره شيئا عرف ذلك في وجهه وإذا رضى تطلعت أساريره وتبين رضاه

واقترن النشاط والحياء بالقوة والمضاء في هذه البنية الجميلة ... فكان عليه السلام يصرع الرجل القوى . ويركب الفرس عاريا فيروضه على السير ، ويداعب من يحب بالمسابقة في العدو . قالت عائشة رضي الله عنها : « خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم . فقال صلى الله عليه وسلم للناس : تقدموا .. فتقدموا .. ثم قال : تعالي حتى أسابقك . فسابقته فسبقته ، فسكت « حتى إذا حملت اللحم وكنا في سفرة أخرى قال صلى الله عليه وسلم

للناس : تقدموا .. فتقدموا .. ثم قال : تعالي آسابقك فسابقته فسبقني
فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك ويقول : هذه بتلك ! »
وهذا بعد أن قارب الستين . انها لمسابقة تنم على فتوة الروح فوق
ما نمت عليه من فتوة الأوصال .

وتجلت هذه الأريحية في علاقته بكل انسان من خاصة أهله أو من
عامة صحبه . فرقت حاشية جده حتى عطف على كل أسي ، ورحمت
كل ضعف ، وامتزجت بكل شعور

قال أنس بن مالك رضى الله عنه : « دخل النبي عليه السلام على
أمي فوجد أخى أبا عمير حزينا . فقال : يا أم سليم .. ما بال أبى عمر
حزينا ؟ ..

فقالت : يا رسول الله مات نغيره . تعني طيرا كان يلعب به ..
فقال صلى الله عليه وسلم : أبا عمير ! .. ما فعل النغير ؟ .. وكان
كلما رآه قال له ذلك » ..

وهذه قصة صغيرة تفيض بالعطف والمروءة من حيثما نظرت إليها ،
فالسيد يزور خادمه في بيته ، ويسأل أمه عن حزن أخيه ، ويواسيه في
موت طائر ، ولا يزال يرحم ذكره كلما رآه .

ومثل هذا عطفه على الضعف البشري في رجل مثل عبد الله الحمار
الذى لقّب بهذا اللقب لما اشتهر به من السكر والدعابة ، فكان النبي
عليه الصلاة والسلام يحده في الحمر ولا يتمالك أن يضحك منه .

قبوله للدعابة

وكان نعيمان بن عمرو أشهر الأنصار بالدعابة ، لا يقلل منها أحدا ولا
يراه النبي فيتمالك أن يتسم .. وربما قصد النبي ببعض هذه الدعابات
لطمعه في حلمه وعلمه بموقع الفكاهة من نفسه : جاء اعرابي الى الرسول
فدخل المسجد وأناخ راحلته بفنائيه ، فقال بعض الصحابة لنعيمان :
« لو نحررتها فاكلناها ؟ .. فانا قد قرمنا الى اللحم ، ويفرم النبي صلى الله
عليه وسلم حقها » فنحرها نعيمان . وخرج الاعرابي فرأى راحلته فصاح :

« وا عقراه يا محمد !... » . فخرج النبي يسأل : « من فعل هذا ؟ » قالوا : « نعيمان » ... فاتبعه النبي حتى وجده بدار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب قد اختفى في خندق وجعل عليه الجريد . فأشار اليه رجل ورفع صوته : « ما رأيته يا رسول الله » وهو يشير بأصبعه الى حيث هو ، فأخرجه رسول الله وقد تغفر وجهه بالتراب فقال : « ما حملك على ما صنعت ؟ » قال : « الذين دلوك عليّ يا رسول الله هم الذين أمروني ! » فجعل رسول الله يسح عن وجهه التراب ويضحك.. ثم غرم ثمن الرحلة.. ونعيمان هذا هو الذي باع عاملا لأبى بكر الصديق وهو يعلم أن النبأ وصل الى النبي لا محالة

سافر أبو بكر الى بصرى تاجرا ومعه نعيمان وسويط بن حرملة عامله على زاده . فجاءه نعيمان وطلب اليه طعاما فأباه عليه حتى يأتي أبو بكر . فأقسم نعيمان ليغيظنه . وذهب الى قوم فقال لهم : « تشترون مني عبدا لي ؟ » قالوا : « نعم ! » قال : « انه عبد له كلام ، وهو قائل لكم : لست بعبد . أنا رجل حر... الى أشباه ذلك . فان كان اذا قال لكم هذا تركتموه فلا تشتروه ولا تفسدوا عليّ عبدي ... » قالوا : « لا .. بل نشتريه ولا ننظر الى قوله » فاشتروه منه بعشر قلائص ، ثم أراهم اياه فوضعوا عمامته في عنقه ولم يحفلوا بقوله ، وجعلوا كلما قال لهم : « أنا حر !.. انه يتهازأ ولست أنا بعبد » سخروا منه وقالوا : بل عرفنا خبرك فدع عنك اللجاجة ... فلما جاء أبو بكر سأل عنه فقص عليه نعيمان قصته ، وذهبوا جميعا ليلحقوا بالقوم فيفتدوه ويعيدوه . ثم قدموا على رسول الله فضحك من فعلة نعيمان ، وجعل يذكرها حولا كاملا كلما رآه .

من سعة النفس أن ينهض الرجل بعظائم الأمور بل بأعظمها جدا ووقارا وهو اقامة الأديان واصلاح الأمم وتحويل مجرى التاريخ ، ثم يطيب نفسا للفاكهة ويطيب عظفا على المتفكهن ، ويشركهم فيما يشغلهم من طرائف الفراغ . فللجد صرامة تستغرق بعض النفوس فلا تتسع لهذا

الجانب اللطيف من جوانب الحياة .. ولكن النفوس لا تستغرق هذا الاستغراق الا دلت على شيء من ضيق الحظيرة وتقص المزاي وان نهضت بالعظيم من الأعمال ..

فاستراحة محمد الى الفكاهة هي مقياس تلك الآفاق النفسية الواسعة التي شملت كل ناحية من نواحي العاطفة الانسانية ، وهي المقياس الذي يبدى من العظمة ما يبدىه الجد في أعظم الأعمال

وكان محمد يتفكه ويمزح كما كان يستريح الى الفكاهة والمزاح ، وكان دأبه في ذلك كدأبه في جميع مزاياه : يعطى كل مزية حقها ولا يأخذ لها من حق غيرها ، أو يعطى الفكاهة حقها ولا ينقص بذلك من حق الصدق والمروءة . فعبد الله الحمار كان يجد من قلب النبي عطف القلب الكبير على تقيصة الضعف في الرجل السكير ، ولكنه كان يجد من تأديب النبي جزاء الشارب الذي يخالف الدين ويخل تمامه بالشرعية . عطف يجمل بالنبي على أحسن ما يكون ، لأنه يجمل بالانسان على أفضل ما يكون.

واذا مزح محمد فأنما كان يعطى الرضى والبشاشة حقهما ولا يأخذ لهما من حق الصدق والمروءة .. فكان مزاحه آية من آيات النبوة لأنه كان كذلك آية من آيات الانسانية ، ولم يكن بالتقيض الذي يستغرب من نبي كريم ..

قال لعنته صفيه : لا تدخل الجنة عجوز ! .. فبكت ، فقال لها وهو يضحك : الله تعالى يقول : « إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنثَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرْبًا أَثَرَابًا » ... ففهمت ما أراد وثابت الى الرضى والرجاء .

وطلب اليه بعضهم أن يحمله على بعير . فوعده أن يحمله على ولد الناقة . فقال : يا رسول الله !.. ما أصنع بولد الناقة ؟ .. فقال : وهل تلد الابل الا النوق ؟

وكان عليه السلام يقول لحاضنته السوداء أم أيمن وهي عجوز : « غطي قناعك يا أم أيمن ! »

وسمعا في يوم حنين تنادي بلكنتها الأعجمية : « ست الله أقدامكم ! »

فلم تنسه الغزوة القائمة أن يصغى إليها ويداعبها بين نذر الحرب وصيل
السيوف ، وأقبل عليها يقول : « اسكتي يا أم أيمن فانك عسراء
اللسان ! » فكانت هذه الدعابة في ذلك الموقف المرهوب كأنها تربيت
سيد الفصحاء على تلك اللكنة البريئة .

أريحية محمد

هذه الأريحية الفياضة هي الحلية الباطنة التي تمت بها حلية محمد في
عيون الناس ، وهي جواب محمد لما كان له في قلوبهم من حب واعظام ،
أو هي الآصرة التي تجمع بين قلبه وتلك القلوب في نطاق الأسرة
الإنسانية : يحبونه ويحبهم ويشعرون به ويشعر بهم ، وليس قصارى
الأمر أنه وسيم وأنه محبوب وأنه مهيب ..

سمت يقابل العيون بجمال
وأريحية تقابل النفوس بجمال

وقد سرت هذه الأريحية في صميم طويته فامتزجت طواعية وارتجالاً
بجميع خصاله وجميع علاقاته بالناس ولا سيما الضعفاء والمكسورين .
فكان أحرص انسان على جبر القلوب وتطبيب الخواطر وتوخي المؤاساة
واجتناب الاساءة ، يتفقد أصحابه كباراً وصغاراً ويسأل عنهم ، ويتحدث
الى ذوي الأقدار وعامة الناس فلا يحسب صغيرهم ان أحداً أكرم عليه
منه ، ويتحدث اليه من شاء فلا يقطع عليه حديثه وان طال . واذا انتهى
الى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ، ومن جالسه صابره حتى يكون
هو المنصرف ، وما أخذ أحد بيده فأرسلها حتى يكون الآخذ هو الذي
يرسلها ..

ومن سننه التي اتبعها وأوصى باتباعها أن يجيب دعوة من دعاه ولا
يرد دعوة عبد ولا خادم ولا أمة ولا فقير ، وفي ذلك يقول من وصاياه
في آداب الولائم والمحافل : « اذا اجتمع الداعيان فأجب أقربهما بابا ،

فان أقربهما بابا أقربهما جوارا ، وان سبق أحدهما فأجب الذى سبق «
يبدأ من لقيه بالسلام ويمر بالصبيان فيقرئهم سلامه . وربما خفف
صلاته اذا جاءه أحد وهو يصلى ليسأله عن حاجته ويلقاه بالتحية .

يتقي الفضب جهده ويعالجه اذا أحسه بعلاج من الروح فيقبل على
الصلاة والتسبيح ، أو بعلاج من الجسد فيجلس اذا كان قائما ويضطجع
اذا كان جالسا ، ويأبى الحركة التى ينزع اليها وهو غضبان .

آدابه الاجتماعية

وكان فى آدابه الاجتماعية قدوة الرجل المذهب فى كل زمان . فلم ير
قط ماداً رجليه بين أصحابه ، وتعود كلما زار أحدا ألا يقوم حتى
يستأذنه ، ولم يكن ينفخ فى طعام ولا شراب ولا يتنفس فى اناء ، واذا
أخذ العطاس وضع يده أو ثوبه على فيه ، وربما نهض بالليل فيشوص
فاه بالسواك ، ولا يزال يستاك ويوصى بالاستياك بعد الطعام واليقظ
من النوم ، وكان يتطيب ويتحرى النظافة ويقول لصحبه : « اغتسلوا
يوم الجمعة ولو كاسا بدينار » .

وقد تختلف العادات الاجتماعية بين جيل وجيل فى شئون عرضية
لا تتصل بلباب الذوق والشعور . فيأكلون فى جيل بأصابع اليد ويأكلون
فى الجيل الآخر بالشوكة والسكين ، ويخرج أناس بالثياب السود
ويخرج غيرهم بالثياب البيض . وهى عرضيات يقاس بها عرف البيئة
ولا يقاس بها تهذيب الطباع ، فلا ضير على الناس أن تختلف عاداتهم
باختلاف بيئاتهم من أمة لأمة ومن جيل لجيل . وانما الضير فيما يتناول
الطبع السليم والذوق الحسن وهما الخصلتان اللتان كان عليهما السلام
قدوة فيهما لكل رجل مذهب فى كل أمة وفى كل زمان .. فلم يكن يهفو
فى حق أحد . ولم يكن أحد يشكو من محضره بانصاف ، وذلك هو
ملاك التهذيب الكامل فى أصدق معانيه ..

صاحب هذا السمت رسول ..

وصاحب هذه الآداب رسول ..

وخلاصة سمته وآدابه أنها سماحة في الأنظار وسماحة في القلوب ..
فالسماحة هي الكلمة الواحدة التي تجمع هذه الخصال من أطرافها ،
والسماحة هي الصفة التي ترقى في محمد الى ذروة الكمال

ومن يكون الرسول ان كان لابد من تعريف وجيز لعلامات الرسالة ؟
الرسول هو الذى له وازع من نفسه في الكبير والصغير مما يتعاطاه من
معاملات الناس ، لأن عمل الرسول الأول أن يقيم للناس وازعا يأمرهم
بالحسن وينهاهم عن القبيح ويقرر لهم حدودهم التي لا يتخطونها فيما
بينهم ، ومن كان هذا عمله الأول فينبغي أن تكون صفته الأولى - بل
صفته الكبرى - أن يستغني عن الوازع وأن يغني الناس عن محاسبته
وطلب الحق منه . وهذه هي السليقة الشاملة التي سرت في خلايق محمد
وامتزجت بجميع أعماله وأقواله فلم يحاسبه أحد قط كما حاسب نفسه
في رعاية حق الصغير والكبير ، وصيانة الحرمات للعاجز والتقدير

هذه علامة رسالة لا علامة أصدق منها ولا أجدر منها بالقبول ، لأنها
علامة من داخل السريرة .. وليست علامة من خارجها قد تلازم أوتفارق
من تغروه .. وليس للنوع البشري مقياس صحيح يقاس به محمد فيعطيه
مرتبة دون مرتبة الحب والتبجيل .. يعطيه هذه المرتبة من يدين بالاسلام
ومن يدين بغير الاسلام ومن ليس له دين من أديان التنزيل .

فليس للنوع البشري أصل من أصول الفضائل يرمي الى مقصد
أسمى وأنبل من تقديس تلك المناقب التي كان محمد قدوة فيها للمقتدين

عزيمة الزهد والايمان

وليس أولى بالحب والتبجيل ممن يطلب خير الناس ويؤهد في نعمة
العيش وهي بين يديه
فقد ثبت أن محمدا لم يستمتع بدنياه ولم يشبع ثلاثة أيام تباعا حتى

مصى لسييله ، وقالت عائشة رضى الله عنها : « لقد كنت أبكي رحمة له مما أرى به وأمسح بيدي على بطنه مما أرى به من الجوع وأقول : « نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقوتك » فيقول : « يا عائشة ! مالي وللدنيا ... اخواني من أولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا » ..

وقالت زوجه أم سلمة تصف ما وجدته في بيته ليلة عرسها : «... فإذا جرة فيها شيء من شعير ، وإذا رحي وبرمة وقدر وكعب فأخذت ذلك الشعير فطحنته ثم عصدته في البرمة ، وأخذت الكعب فأدمته ، فكان ذلك طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم وطعام أهله ليلة عرسه ! » رآه عمر وقد أثر في جنبه حصير فقال له : « يا رسول الله ! قد أثر في جنبك رمل هذا الحصير وفارس والروم قد وسَّخَ عليهم وهم لا يعبدون الله » فاستوى جالسا وقال : « أفي شك أنت يا ابن الخطاب ؟.. أولئك قوم قد عجبت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا ! » ولقد مات ودرعه مرهونة ، ولا ميراث لأهله مما ترك من عقار ، وهو قليل ..

فما عسى أن يقول قائل في قدر هذا الرجل .. آمن به أو لم يؤمن ؟ أيقول انه رسول وانه كان يعلم انه رسول فصدع بأمر ربه واحتمل ما احتمل في سبيل طاعته وفي سبيل اصلاح خلقه ؟ تلك اذن منزلة الأنبياء التي تستوجب له مقام أصفياء الله عند من يؤمن بالله ..

أم ينكر النبوات ويقول: انه رجل أراد الخير وهو لا يعلم انه رسول ولا ان الله مطالبه برسالاته الى خلقه ، ولكنه تجرد لهدايتهم في غير مأرب يناله ولا نعمة ينعم بها لأنه لا يطيق لهم شرا ولا ينتظر في الدنيا ولا الآخرة جزاء ؟

من قال هذا وغض من قدر رجل يحب الناس ذلك الحب ويفار على هدايتهم تلك الغيرة فهو انسان ممسوخ الضمير .

فمحمد الرجل فى المقام الأول بين الرجال : فى المقام الأول بخلقته ،
وفى المقام الأول بنيتة ، وفى المقام الأول بعمله ، وفى المقام الأول بالقياس
الى المشبهين له فى دعوته .

ونرى عن يقين انه لم يحرم نفسه ذلك الحرمان الا استزادة لأسباب
الايان وشحذا للعزيمة فى سبيل ذلك الايمان ، واعذارا الى الله والى
الناس فيما تجرد له من اصلاح

لأن محمدا لم يكن كارها لطيبات الدنيا ولا حاضا لأحد على كراهتها
والاعراض عنها . فاذا قنع بما قنع فانما فعل ذلك ليرتفع بإيمانه عن ظنه
هو لا عن ظنون غيره ... كأنه يخشى اذا استوفى حظوظ النعيم
الميسرة له أن يحسب تلك الحظوظ غرضا من الأغراض التى نظر اليها
حين نظر الى هداية الناس ..

فليكن الايمان اذن هو كل غرض وكل عمل وكل جزاء ... وتلك راحة
ضميره ، ومن وراء راحة ضميره أن يظفر الناس بجهد كفه فى هدايتهم
غير منقوص ولا مطنون ..

اذا هدى الناس واستمتع بالعيش خشي أن يحسب المتعة من آماله ..
واذا هدى الناس وكفى كانت الهداية هى جملة الآمال وغاية الآمال ..
فليقتص حظه من العيش ليكمل حظه وحظ أمته من إيمانه ، وليتم بذلك
حسابه لنفسه وحسابه عند الله وحسابه بين الناس ..

وما حساب أولئك جميعا ؟

حساب رجل هو وازع نفسه فى السر والعلانية ، وهو أحق الناس
أن يقيم وازعا للناس ..
رجل ولا كمثل الرجل ..

مُحَمَّدٌ فِي التَّارِيخِ

اتصال التاريخ بمحمد

أردنا بالفصول المتقدمة أن نصف محمدا في عبقريته ، أو محمدا في نفسه ، أو محمدا في مناقبه التي يتفق على تعظيمها من يدين برسائله الاندينية ، ومن لا يدين له برسالة .

ونريد بهذا الفصل - وهو خاتمة الكتاب - أن نذكر كلمة موجزة عن محمد في التاريخ ، أو محمد في العالم وأحداثه الخالدة . وهو بحث يغنينا فيه الإيجاز ، لأن العالم كله صفحات تنبئنا بمكان محمد فيه .

محمد في نفسه عظيم بالغ في العظمة ، وفاقا لكل مقياس صحيح يقاس به العظيم عند بني الانسان في عصور الحضارة .

فما مكان هذه العظمة في التاريخ ؟ .. ما مكانها في العالم وأحداثه الباقية على تعاقب العصور ؟

مكانها في التاريخ ان التاريخ كله بعد محمد متصل به مرهون بعمله ، وان حادثا واحدا من أحداثه الباقية لم يكن ليقع في الدنيا كما وقع لولا ظهور محمد وظهور عمله

فلا فتوح الشرق والغرب ، ولا حركات أوربا في العصور الوسطى ، ولا الحروب الصليبية ، ولا نهضة العلوم بعد تلك الحروب ، ولا كشف القارة الأمريكية ، ولا مساجلة الصراع بين الأوربيين والآسيويين والافريقين ، ولا الثورة الفرنسية وما تلاها من ثورات ، ولا الحرب العظمى التي شهدناها قبل بضع وعشرين سنة ، ولا الحرب الخاضرة التي نشهدها في هذه الأيام ، ولا حادثة قومية أو عالمية مما يتخلل ذلك جميعه كانت واقعة في الدنيا كما وقعت لولا ذلك اليتيم الذي ولد في شبه

الجزيرة العربية بعد خمسمائة واحدى وسبعين سنة من مولد المسيح..
كان التاريخ شيئاً فأصبح شيئاً آخر ، توسط بينهما وليد مستهل في
مهده بتلك الصيحات التي سمعت في المهود عداد من هبط من الأرحام
الى هذه الغبراء .. ما أضعفها يومئذ صيحات في الهواء .. ما أقواها
بعد ذلك أثراً في دوافع التاريخ .. ما أضخم المعجزة .. وما أولانا أن
نؤمن بها كلما مضت على ذلك المولد أجيال وأجيال ، وما أغنانا أن
نبحث عنها قبل ذلك بسنين حيثما بحث عنها المنجمون والعرافون ..

فتوح ايمان

على أننا نستعظم الأحداث العظام في تاريخ بنى الانسان بمقدار ما
فيها من فتوح الروح ، لا بمقدار ما فيها من فتوح البلدان
وجائز أن يقع في الدنيا طوفان أو زلزال ، فيتصل به من أحداث الزخوف
والفتوح ما يبدل في التاريخ ، ويتعث دوافع الشعوب
أما غير الجائز فهو أن تنفتح للانسان آفاق جديدة من عالم الضمير
بغير عظمة روحية يوحىها الايمان ، وبغير رسالة باطنية تسبق هذه
الظواهر التي تهول الأنظار .

ولقد فتح الاسلام ما فتح من بلدان لأنه فتح في كل قلب من قلوب
أتباعه عالماً مغلقاً تحيط به الظلمات ، فلم يزد الأرض بما استولى عليه
من أقطارها فإن الأرض لا تزيد بغلبة سيد على سيد أو بامتداد التخوم
وراء التخوم ، ولكنه زاد الانسان أطيب زيادة يدركها في هذه الحياة ،
فارتفع به مرتبة فوق طباق الحيوان السائم ، ودنا به مرتبة الى الله .
يدين بهذه الحقيقة كل من يدين بحقيقة في عالم الضمير . فمن
أنكرها فأنما ينكر تقدم الانسان كثيراً أو قليلاً في هذه الطريق .
عقد عالم أوربى (١) مقارنة بين محمد وبوذا والمسيح فسأل : « أليس

(١) الدكتور ماركس دودل في كتابه « محمد وبوذا والمسيح »

Mohammed, Buddha, and Christ by Dr, Marcus Dodds.

محمد نبيا على وجه من الوجوه ؟ » ثم أجاب قائلا : « انه على اليقين لصاحب فضيلتين من فضائل الأنبياء : فقد عرف حقيقة عن الله لم يعرفها الناس من حوله ، وتمكنت من نفسه نزعة باطنية لا تقاوم لنشر تلك الحقيقة ، وانه لخليق في هذه الفضيلة أن يسامي أوفر الأنبياء شجاعة وبطولة بين بني اسرائيل ، لأنه جازف بحياته في سبيل الحق ، وصبر على الايذاء يوما بعد يوم عدة سنين ، وقابل النفي والحرمان والضعينة ، وفقد مودة الأصحاب بغير مبالاة ، فصابر على الجملة قصارى ما يصبر عليه انسان دون الموت الذى نجا منه بالهجرة ، ودأب مع هذا جميعه على بث رسالته غير قادر على اسكاته وعد ولا وعيد ولا اغراء وربما اهتدى الى التوحيد أناس آخرون بين عباد الأوثان ، الا أن أحدا آخر غير محمد لم يقم فى العالم مثل ما أقام من ايمان بالوحدانية دائم مكين ، وما أتيح له ذلك الا لمضاء عزمه أن يحصل الآخرين على الايمان . فاذا سأل سائل : ما الذى دفع بمحمد الى اقناع غيره حيث رضي الموحدون بعبادة العزلة ؟ .. فلا مناص لنا أن نسلم انه هو العمق والقوة فى ايمانه بصدق ما دعا اليه . »

والحقيقة التى يراها النصف مسلما كان أو غير مسلم ، هي هذه : هي أن فتوح محمد فتوح ايمان ، وان قوة محمد قوة ايمان ، وانه ما من سمة لعمله أوضح من هذه السمة ، ولا من تعليل لها أصدق من هذا التعليل . لقد جاء الاغراء الذى أشار اليه العالم الأوربي وهو داع مهدد فى سربه ، وجاءه وهو عزيز الشأن بين المؤمنين بدعوته ، فما حفل بالاغراء وهو بعيد من مقصده ولا حفل به وهو واصل اليه ..

جاءه سيد قومه عتبة بن ربيعة وهو فى مبدأ أمره فقال له واعدنا ملاطفا بعد أن أعياهم تخويفه متوعدين : « يا ابن أخى ، انك منا حيث قد علمت من خيارنا حسبا ونسبا ، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفقت أحلامهم وعبت آلهتهم ودينهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل

منا بعضها . فقال عليه السلام : قل يا أبا الوليد . فقال : يا ابن أخى ! ..
ان كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى
تكون أكثرنا مالا ، وان كنت تريد شرفا سودناك علينا حتى لا تقطع
أمرا دونك ، وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وان كان الذى يأتيك
رئيا من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه
أموالنا حتى نبرئك منه » . فما زاد عليه السلام على أن أجابه بآيات
من القرآن الكريم ، ثم تركه يعود كما أتى ..

ثم أدرك النبى غاية ما سعى اليه فلم يدخل له المال ولا المتاع فى
حساب ، ولم يكن النعيم المستطاع آفعل فى اغرائه من النعيم الموعود ،
بل كان النعيم المستطاع فوق ما حلم به عتبة بن ربيعة ، وكان النبى أزهد
فيه من زهده فى النعيم الموعود فلم كل هذا ؟ لم هذا الجهاد ؟ ولم هذا
العناء ؟ ولم هذا الصبر ان لم يكن فى سبيل الايمان ؟ وأى نبى له من
الايمان شفاعة أكبر من هذه الشفاعة ورسالة أكبر من هذه الرسالة ؟ ..
وأى انسان يعرف تعظيم الأنبياء ان لم تظهر نبوة محمد عنده بالتعظيم ؟

التاريخ هو فيصل التفرقة بين محمد وشائيه : حكمه أنفذ من حكم
الشائين والأصدقاء ، وأنفذ من حكم المشركين والموحدين ، وأنفذ من
حكم المتدينين والملحدن ... لأنه حكم الله

وقد حكم له انه كان فى نفسه قدوة المهدين ، وكان فى عمله أعظم
الرجال أثرا فى الدنيا ، وكان فى عقيدته مؤمنا يبعث الايمان ، وصاحب
دين يبقى ما بقيت فى الأرض أديان .

وسيطلع فى الأفق هلال ويغيب هلال ، وسيذهب فى الليل قمر ويعود
قمر ، وتتعاقب هذه الشهور التى كأنها جعلت لتاريخ ما بين الصدور ،
لأن الناس لا يؤرخون بها مواسم الزرع ولا مواعيد الأشغال ولا أدوار
الدواوين والحكومات ، ولا ينتظرونها الا هداية مع الظلام وسكينة مع
الليل : أشبه بهداية العقيدة فى غياهب الضمير .

التاريخ الهجري

ستطلع الأقمار بعد الأقمار ، وتقبل السنة القمرية بعد السنة القمرية ، وكأنها تقبل بعلم من معالم السماء يومئ الى بقعة من الأرض هي غار الهجرة . أو يومئ الى يوم لمحمد هو أجمل أيام محمد ، لأنه أدل الأيام على رسالته ، وأخلصها لعقيدته ورجاء سريرته ، وهو يوم التقويم الذي اختاره المسلمون بالهام لا يعلوه تفكير ولا تعليم لم كان يوم الهجرة ابتداء التاريخ في الاسلام ، ولم يكن يوم الدعوة ؟ ولم لم يكن يوم بدر، أو يوم ولادة النبي، أو يوم حجة الوداع يوم ابتداء التاريخ.. كل يوم من هذه الأيام كان في ظاهر الرأي وعاجل النظر أولى بالتأريخ والتمجيد من يوم الفرار بالنفس والعقيدة في جنح الظلام فالرجل الذي اختار يوم الهجرة بدءا لتاريخ الاسلام قد كان أحكم وأعلم بالعقيدة والايان ومواقف الخلود من كل مؤرخ وكل مفكر يرى غير ما رآه ..

لأن العقائد انما تقاس بالشدائد ولا تقاس بالفوز والغلب : كل انسان يؤمن حين يتغلب الدين وتفوز الدعوة . أما النفس التي تعتقد حقا ويتجلى فيها انتصار العقيدة حقا فهي النفس التي تؤمن في الشدة وتعتقد ومن حولها صنوف البلاء

وليس يوم أحق بالتأريخ اذن من اليوم الذي هجر فيه النبي بلده ... « إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ ، إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ، اذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا . فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » ليقل من قال ان التوقيت بما قبل الهجرة وما بعدها كان توقيتا معروفا على عهد النبي عليه السلام .. وليقل من قال ان دخول المدينة هو المقصود بالتأريخ من الهجرة ، وهو يوم عظيم .. ليقل من قال هذا أو ذلك ، فان تاريخ النصر في القرآن ظاهر اذ هو « ثاني اثنين » في الغار وان ابن الخطاب لنيل ملهم الفؤاد - سواء كان هو المقترح أو محجب

الاقتراح - حين نظر الى غار « ثور » ولم ينظر في التأريخ الى نصر المدينة، ولا الى نصر بدر، ولا الى نصر أحد، ولا الى نصر فارس ، ونظر الى تارك « الجنود التي لم تروها » وقد نراها نحن الآن ..

يوم الدعوة لم يكن يوم الاسلام الأول ، لأن الدعوة كلمة يستطيعها كل انسان ويستطيع النكول عنها بعد قليل أو كثير ..

ويوم ميلاد النبی لم يكن يوم الاسلام الأول ، لأن ميلاد محمد لم يكن معجزة الاسلام كما كان ميلاد عيسى معجزة المسيحية ، ولأن محمدا بشر مثلنا في مولده ولكنه سيد الرسل يوم دعا ويوم نجا بالدعوة الى حيث تنجو وحيث تسود ، وحيث يكون امتحانها الأول في قلب صاحبها وقلب صاحبه الصديق ، وهما اثنان في غار

كذلك تؤرخ العقائد والأديان : بالشدة تأريخها وليس بالغنائم والفتوح، وانها لشيء في القلوب فلنعرفها اذن حين لا تكون الا في القلوب ، وحين يكون كل شيء ظاهراً كأنه ينكرها وينفى وجودها وهي يومئذ من الوجود في الصميم ..

يوم عقيدة ورجاء

ان يوم الغار ليوم له عبرته وعزائه في كل يوم ولا سيما ايام القلق والحيرة والانتظار ..

انه يوم عقيدة فهو يوم رجاء، ويوم نظر الى المستقبل الذي ينظر اليه من ليس له رضى في حاضر عهده . وحاضر العالم في عهده لا يرضي أحداً من محبيه .. حيثما غلبت الحيرة والقلق في العالم فهناك أمر واحد كن منه على أتم اليقين . كن على يقين ان العالم يبحث عن عقيدة روحية ! لأنه يضيق بالحاضر وينظر الى المستقبل ، وكل مستقبل فلا محل له من جوانح الصدور ان لم يكن موضع رجاء ومرجع إيمان ، وغاية سعي يستحق الكفاح .. وفي التاريخ الانساني كله لم تقم قط حركة عظيمة على الماضي الذي لا مستقبل بعده ، انما تقوم الحركات العظمى جميعا على الرجاء في غد محبوب ، أو على شيء يمكن أن يتحقق في حياة

الانسان ، وشيء يبقى أبدا موضع الرجاء البعيد ..
لقد كان عليّ فتى يستقبل الدنيا ، وكان أبو بكر كهلا يدبر عنها ،
يوم أعانا محمدا في يوم حراء .. ولكنهما كانا معا على أبواب غد واحد
ورجاء واحد ، يستوي فيه الفتى والكهل والشيخ الدالف الى قبره ،
لأنه رجاء الايمان لا رجاء العيان .

المستقبل للايمان

ماذا فتح الاسلام لأبي بكر من عوالم الحياة ؟.. هل رجع به الى الماضي
أو أقبل به على المستقبل .. هل مشى به في حركة الى أمام أو قفل به في
رجعة الى وراء ؟.. الحق ان الاسلام مثل المستقبل للشيخوخة كما مثل
المستقبل للشباب ، وانفصل من حالة لا تبقى ليتصل بحالة يرجى لها
البقاء ، وكان يفتح أمام أبي بكر - وليس أمام علي وحده - باب الحياة
الصالحة في الدنيا وباب الحياة الخالدة في الآخرة ... وهكذا كل عقيدة
فما هي بعقيدة على أى معنى من معاني الاعتقاد ان كان خيرها كله شيئا
يناله الانسان في أيامه ... فلا مناص في العقيدة من خير وراء أيام الفناء
ليذكر هذا جميعه من يتحفزون للنهوض ، ومن يبتغون الحركة ،
ويقودون الخطوات المقبلة في عجلة أو اناة ..

لن تتحرك أمة الا اذا فتحت أمامها باب المستقبل ، ولن تلتفت الى
الماضي الا اذا كان فيه التقاء بالمستقبل ، ولن تعيره الحياة الا وهو
مبعوث من جديد في صورة الخلق الجديد .

ليذكر هذا من يحارون في أمر العالم اليوم وهو غارق في دمائه ،
ضائق بحاضره ، معرض عن ماضيه .. فيمّ يحار ؟ ..

في طلب المستقبل ، في طلب العقيدة ، في طلب المسوّغ للوجود ، لأن
الوجود وحده لا يكفي الانسان الا أن يكون على طبقة مع الحيوان ..
فالايان للمستقبل .. وعسى أن يكون المستقبل للايمان ..

وعسى أن يجد العالم عزاء باقيا من يوم الغار ومن صاحب يوم
« الغار » ..

عَبَّاسُ مُحَمَّدٍ
العَقْدُ

عَبْقَرِيَّةُ الصِّدِّيقِ

دار الكتاب اللبناني - بيروت

عَبَقَرَيْنَا الصِّدِّيقَ

تقديم

في تقديم كتابي هذا عن أبي بكر الصديق أقول ما قلته في « عبقرية محمد » و « عبقرية عمر » وكل كتاب من هذا القبيل ، وفحواه أنني لا أكتب ترجمة للصديق رضي الله عنه ، ولا أكتب تاريخاً لخلافته وحوادث عصره ، ولا أعني بالوقائع من حيث هي وقائع ولا بالأخبار من حيث هي أخبار ، فهذه موضوعات لم أقصدها ولم أذكر في عناوين الكتب ما يعد القارئ بها ويوجه استطلاعه إليها ، ولكننا قصدت أن أرسم للصديق صورة نفسية ، تعرفنا به وتجلو لنا خلايقه وبواعث أعماله ، كما تجلو الصورة ملامح من تراه بالعين . فلا تعنينا الوقائع والأخبار إلا بمقدار ما تؤدي أدائها في هذا المقصد الذي لا مقصد لنا غيره ، وهي قد تكبر أو تصغر فلا يهمنا منها الكبير أو الصغير إلا بذلك المقدار ، ولعل حادثاً صغيراً يستحق منا التقديم على أكبر الحوادث إذا كانت فيه دلالة نفسية أكبر من دلالاته ، ولحمة مصورة أظهر من لحته . بل لعل كلمة من الكلمات الموجزة التي تجيء عرضاً في بعض المناسبات تتقدم لهذا السبب على الحوادث كبيرها وصغيرها في مقياس التاريخ .

ومن هنا أن تكون الصورة صادقةٌ كلُّ الصدق في جملتها وتفصيلها...
فليس من غرضنا التجميل الذي يخرج بالصورة عن حقيقتها ، ولسنا نريد أن يطلع القارىء على تلك الصورة فلا يعرفها ولا يعرف أبا بكر منها ، ولكن تجميل الصورة شيء ، وتوقير صاحبها شيء آخر ، فإنك إذا صورت أبا بكر ورفعت صورته مكاناً علياً لم تكن قد أضفت إليه جمالاً غير جماله أو غيرت ملامحه النفسية بحيث تخفى على من يعرفها ، فهذا هو التوقير الذي لا يُخيلُ بالصورة ولا يعاب على المصور ، وليس هو بالتجميل المصطنع الذي يضلُّ الناظر عن الحقيقة .

فكل فضيلة أثبتناها لأبي بكر في هذه الصفحات فهي فضيلته التي لا نزاع فيها ، وكل عمل استطاعه ووصفناه بقدرته فقد استطاعه بغير جدال ، وما من عمل لم يعملهُ قلنا إنه قد عمله ، ولا من قدرة لم تظهر منه جعلناها من صنوف قدرته ، ثم يتوسم القارىء بعد هذا فيرى صورة مميزة بين صور العظماء من أمثاله ، فهو محمود موقرٌ وعمر بن الخطاب في صورته محمود موقر ، ولكنها مع ذلك لا يتشابهان ولا يترأى أحدهما في ملامح الآخر ، وهذا قصارك من صدق الصورة في تمييز الرجل بين نظرائه ، وفي تمثيله بما فيه وما ليس فيه .

إنك حين تعدد ثروة رجل فتقول : إنه صاحبُ عشرة بيوت ، لا يلزمك بعد ذلك أن تقول : ولكنه ليس بصاحب أرض زراعية ولا أوراق مالية ولا معاملَ صناعية ولا مرتبات حكومية ، وإذا أنت

سكتٌ عن هذا قاصداً أو غير قاصد لم يجوز لأحد أن يلومك أو يظن بك
تعمد الإخفاء والسكوت ، فحسبك أنك ذكرت ثروته الصحيحة
ولم تُضيف إليه ما ليس من ماله لتكون قد أعلمت من يريد العلم بثروته
غاية ما ينبغي أن يعلم .

وكذلك الشأن في ثروات النفوس حين يحصيها المقذرون : تصدق
إن ذكرت له ما يملك ، ولا يفوتك الصدق إن فاتك أن تحصي كل ما ليس
له بملك ، فليس هذا بغرض من أغراض الإحصاء أو التعريف .

ومذهبنا الذي نتوخاه في الكتابة عن العظماء الذين حسنت نياتهم
في خدمة الإنسان أن نوفيهم حقهم من التوقير ، وأن نرفع صورهم
إلى مكان التَّجِلَّةِ ، وإن لم يمنعنا هذا أن نصدقهم الوصف والتصوير
وقد عبرت عن هذا المذهب شعراً قبل ثلاثين سنة فقلت من أبيات :

لا تَلَحُ ذا بأسٍ وذاهمة على ذنوب العُصبة الغلبِ
فليس مقياسُك مقياسهم ولا همُ مثلك في الماربِ
انظر إلى ما خلَّفوا بعدهم من المعالي ثم لُم واعتب
من ركب الهائل من أمره فعذره في ذلك المركبِ

ونحسب هذا المذهب في زماننا هذا أوجب مما كان في الأزمان الغابرة ،
لأن الأسباب التي تَغُضُّ من وقار العظمة لم تزل تتكاثر منذ القرن الثامن
عشر إلى الآن ، وهي مما يحدث عفواً في بعض الأحيان ، وما يأتي قصداً

في أحيان أخرى ، وقد تفيد الإشارة إليها في اتقانها إذا كان إلى اتقانها سبيل .

بدأت هذه الأسباب بفهم سيء للمنازعات التي شجرت بين رجال العلم ورجال الدين منذ النهضة العلمية الحديثة . فوقر في بعض الأذهان أن العلم الحديث قد ألغى ما قبله من جهود المصلحين وطلاب المعرفة الإلهية والدينية ، وخلط أناس بين دعاة الأديان الذين أخلصوا العقيدة في الإصلاح وبين رجال الأديان الذين استغلوا العقائد وتعمدوا إنكار الحقائق ووقفوا بعنادهم ولجاجتهم عقبة في طريق التقدم والتهديب .

فالمصلحون من عظماء الأديان أهل لكل تعظيم واعتراف بالجميل ، لا يعيبهم أنهم سبقوا عصر العلم الحديث ، بل يُزكّيهم ذلك ويضاعف حقهم في الثناء وعرفان الجميل ، ويدل على أن الحاجة إليهم كانت أمسّ وألزم وأنهم كانوا في خدمتهم الإنسانية أقدرَ وأعظم ، مع ما هو مفهوم من الفارق بين حاجة الناس إلى الدين وحاجتهم إلى العلوم . فهذه حاجة ذهنية وتلك حاجة حيوية أو روحية لا تغني فيها علوم العلماء .

ثم جاءت الديمقراطية وأساء بعض الناس فهمها كما أساءوا فهم النزاع بين العلم والدين ، فظنوا أن حرية الصغير تجعله في صف الكبير ، وأن المساواة القانونية تلغي الفوارق الطبيعية ، وأن الثورة على الرؤساء المستبدين

معناها الثورة على كل ذي مكانة من العظماء ، وهو وهم ظاهر البطلان ولكنه قد سرى مسراه إلى الأذهان ، فكثر التطاول على كل عظمة إنسانية ، وفشت ببدعة الاستخفاف والزراية حتى أوشك التوقير لمن يستحق التوقير أن يعاب .

ثم جاءت الشيوعية وهي قائمة على أن الأبطال صنائع المجتمع وليسوا بأصحاب الفضل عليه ، وأن تعظيم الأبطال الغابرين يصرف الناس عن عيوب النظم الاجتماعية التي أنشأت أولئك الأبطال فخدموها قاصدين مدبرين أو على غير قصد منهم وتدير ، وأفرط الشيوعيون في تلويث كل عظمة يؤدي توقيرها إلى تقض مذهبهم ومخالفة دعوتهم ، حتى بلغ من سخفهم في هذا أنهم غيروا أبطال الروايات في مسرحيات شكسبير وأمثاله فعرضوا « هملت » على المسرح لثيما ماكرأ سييء النية على خلاف ما صورّه الشاعر ، لأن تصوير أمير من أمراء القرون الوسطى في صورة حسنة يُخلُّ بما قرروه عن النظم الاجتماعية والسياسية في تلك القرون .

وتكاثرت على هذا النحو أسباب الغض من العظماء حتى صحّ عندنا أن العظمة في حاجة إلى ما يسمى « برد الاعتبار » في لغة القانون ، فإن الانسانية لا تعرف حقاً من الحقوق إن لم تعرف حقّ عظمائها ، وإن الإنسانية كلّها ليست بشيء ، إن كانت العظمة الإنسانية في قديمها أو حديثها ليست بشيء .

ومن ثمّ مذهبنا في توقير العظمة مع التفرقة بين التوقير المحمود والتجميل المصطنع الذي يعيب المصورَ ويُضِل الناظر إلى الصورة . فليس لنا أن نُثبت جمالاً غير ثابت ، ولكن لنا - بل علينا - متى أثبتنا الجمال في مكانه أن نرفع الصورة إلى مقام التوقير .

قال زميلنا الباحث الفاضل الأستاذ أحمد أمين من نقده لكتاب هيكل (باشا) في الصديق وكتابي في عبقرية عمر : « ... بقيت مسألة هامة كثيراً ما اختلفت وجهة نظر الكتاب فيها ، وهي أن العظم مهما عظم له خطأت ، وإلا ما كان إنساناً والعصمة لله وحده . فهل واجب المترجم له أن يعرض لكل ذلك في تفصيل ، فيذكر كل ما له ويشيد بذكره ، ويذكر خطأته وينقدها ، ويعلم بذلك درساً في نواحي مجده ، ودرساً آخر في مواضع خطئه ، أو واجبه فقط تجلية نواحي العظمة والتأويل والدفاع الدائم عن نواحي الخطأ ؟ أنا أرى أن الرأي الأول أوجب ، متأسياً بابي بكر وعمر نفسيهما ، والمؤلفان الفاضلان إلى الرأي الثاني أميل » .

والواقع أننا إلى الرأي الثاني أميل كما قال زميلنا الأستاذ ، ولكنّه الميل الذي نُجده بما قدمناه من حدود ، ونحتج له بما بيناه من أسباب .

ويخيل إلينا أن الأستاذ نفسه يستطيع هذا الميل حين قال في صدر مقاله عن الكتابين : « ... إن الأوروبيين قد وجدوا من علمائهم من يشيد بعظائمهم ويستقصي نواحي مجدهم ، بل قد دعتهم العصبية أحياناً

أن يتزَيَّدوا في نواحي هذه العظمة ، ويعملوا الخيال في تبرير العيب
وتكميل النقص تحميساً للنفس وإثارة لطلب الكمال . أما نحن فقد كان
بيننا وبين عظمائنا سدودٌ وحواجزُ حالت بين شبابنا وجمهورنا
والاستفادة منهم ... ١

فهذه السدود كثيرة في الشرق، كثيرة في العصر الحاضر حيث كان ،
وهي التي تُجَيِّز لنا - بل تفرض علينا - أن نوفي العظماء حقهم من
التوقير ، وأن نصورهم كما خلقهم الله، ثم لا علينا أن نرفع الصورة حيث
شئنا بعد الصدق في التصوير .

عباس محمود العقاد



إِسْمٌ وَصِفَةٌ

عُرف الخليفة الأول في التاريخ بأسماء كثيرة : أشهرها أبو بكر
والصديق ، ويليهما في الشهرة عتيق وعبد الله .

وقيل إنه عُرف بهذه الأسماء أو الألقاب في الإسلام والجاهلية على
السواء .

عُرف في الجاهلية بلقب الصديق لأنه كان يتولى أمر الديات وينوب
فيها عن قريش ، فما تولاه من هذه الديات صدقته قريش فيه وقبيلته ،
وما تولاه غيره خذلته وترددت في قبوله وإمضائه .

وعُرف بالعتيق لجمال وجهه ، من العتاقة وهي الجودة في كل شيء ،
وقيل : بل من العتق ، لأن أمه لم يكن يعيش لها ولد فاستقبلت به الكعبة
وقالت : اللهم إن هذا عتيقك من النار فهبه لي . فعاش فعرف باسم
عتيق...وقيل غير ذلك : إنه أحد ثلاثة أبناء هم : عتيق ومعتق ومعتيق ،
سموا بذلك تفاؤلاً بالعيش والعتق من الموت .

وعرف كما قيل في بعض الروايات باسم عبد الكعبة في الجاهلية ، ثم عبد الله في الإسلام .

وسُمي في الإسلام بالصدِّيق لأنه صدَّق النبي عليه السلام في حديث الإسراء ، وبالعتيق لأنه عليه السلام بشره بالعتق من النار .

ومن الجائز أنه عُرف بهذه الألقاب على حَمَلِها في الجاهلية ومَحْمَلِها في الإسلام . ففي حياته وسيرته قبل الإسلام وبعده ما يحقق هذه التسمية أو هذا التلقب .

وُلِدَ للسنة الثانية أو الثالثة من عام الفيل ، فهو أصغر من النبي عليه السلام بنحو سنتين ، وهو عبد الله بن عثمان الذي عُرف باسم أبي قحافة ، وَيَلْتَقِي نسبه ونسب النبي عليه السلام عند مُرَّة بن كعب ، بعد ستة آباء . وَكِلَا أبويه من بني تيم ، وهم قومُ اشتهر رجالهم بالدمامة والأدب ، واشتهر نساؤهم بالدَّل والحُظوة ، وقيل إن بنات تيم أدل النساء وأحظاهن عند الأزواج . وربما كان مرجع ذلك إلى طول عهد القبيلة بحياة المدينة وأشغالها ، وأن اشتغالها بالتجارة كان يقوم على المودة وحسن المعاملة ولا يقوم على بَسْطَةِ النفوذ وصوله الوافر والغلبة . فبنو أمية - مثلاً - كانوا يتجرون وكان زعيمهم أبو سفيان يُرسل القوافل بين الحجاز والشام ، ولكنها قوافل أشبه بالحمولات والبعوث ، معولهم فيها على الوفر والوفرة ، وليست كذلك تجارة أبي بكر وإخوانه من أبناء

البُطون القرشية التي لها شرف النسب في غير مكاثرة بالعدَد والعدَّة ،
ومغالبة بالصَّولة ودهاء القوة ، كمغالبة الأمويين .

ومهما يكن من أثر المعاملة الودية وآداب الأسرة والمدنية في بني تيم،
فهذه الآداب واضحة في أسرة الصديق رضي الله عنه أجمل وضوح ،
لم تُذكر لنا قط أسرة كانت في عصره على مودة أجمل من المودة التي
اتصلت بينه وبين أبيه وأمه وأبنائه ، مدى الحياة . وقد كان له ابن
حارَب في صفوف المشركين ، وأوشك أن يكون بينه وبين أبيه قتال ،
ولكننا إذا تجاوزنا هذه الفلّة من قلات السن رجعنا إلى أبوة
لاعقوق فيها بعد اهتداء ذلك الابن إلى الإسلام ، كما اهتدى إليه
سائر ذويه .

عاش أبو قحافة حتى رأى ابنه خليفةً يرفع صوته على أناس لم يكن
في مكة أرفع منهم صوتاً وأعظم خطراً ، وكان مكفوف البصر على باب
داره بمكة يوم أقبل أبو بكر إليها معتمراً بعد مبايعته بالخلافة ، فقبل
له : هذا ابنك : فنهض يتلقاه ، وراه ابنه يهْمُ بالنهوض فعجل نازلاً
عن راحلته وهي واقفة قبل أن يُنيخها ، وجعل يقول : يا أبت لا تقم !
ثم لاقاه والتزمه وقبل بين عينيه ، ولم ينتظر - وهو في نحو الستين - أن
يُنِيخ لينزل منها ، مخافة على أبيه من مشقة النهوض .

ودعا الخليفة بأبي سفيان لأمر أنكره فاخذته الحدة التي كانت
تراجعه في بعض ثورات نفسه ، وأقبل يصيح على أبي سفيان وهويلين له

ويسترضيه . فسأل أبو قحافة قائده : على من يصيح ابني ؟ فقال : على أبي سفيان ! ... فدنا منه يقول له وفي كلامه من الغبطة أكثر مما فيه من الإنكار ، وفيه من دهاء الطيبة أكثر مما فيه من سهو الشيخوخة : أعلّى أبي سفيان تصيح وترفع صوتك يا عتيق ؟ لقد عدّدت طورك وُجزت مقدارك !

فابتسم أبو بكر والصحابة ، وقال لأبيه المنكر في رضاه الراضي في إنكاره : يا أبت إن الله رفع بالإسلام قوماً وأذل به آخرين .

وهذه الطيبة التي لا تخلو من دهائها هي التي ظهرت من هذا الأب الصالح ، يوم نعوأ إليه رسول الله فقال : أمر جَلَل . وسأل : ومَنْ وَلَّى الأمرَ بعده ؟ قالوا : ابنك ؛ فعاد يسأل : فهل رَضِيتَ بذلك بنو عبد مناف وبنو المغيرة ؟ قالوا : نعم ... قال : لا مانع لما أعطى الله ، ولا معطى لما منع !

بل هذه الطيبة التي لا تخلو من دهائها هي التي ظهرت منه حين هاجر ابنه مع النبي عليه السلام فأقبل على أحفاده يسألهم : ما تَرَكَ لَكُمْ بعد هجرته من المال ؟ وهي التي ظهرت منه حين ذهب ابنه يُنفق من ماله لإعتاق الأرقاء الذين عذبهم المشركون فكان يقول : لو أنكَ إذ فعلتَ ما فعلتَ أعتقت رجالاً جُلداً يَمنعونكَ ويقومون دونكَ ؟ ويقول له ابنه : يا أبت إنني أريد ما عند الله .

ثم عاش الأب الصالح حتى قبض ابنه العظيم فرد ميراثه منه إلى
أحفاده وسأل حين بلغته وفاته وهو يقول : رزء جلل ، رزء جلل . فمن
ولى الأمر بعده ؟ قالوا : عمر ؛ قال صاحبه ... يعني صاحب الأمر أو
صاحب الصديق ، في إيجاز كافٍ لإيجاز ابنه العظيم .

كثير مما في أبي بكر من هذا الأب الصالح : طيبة في يقظة في استقامة ،
ويزيد عليه ابنه في كل وصف حميد ..



الصِّدِّيقُ الْأَوَّلُ وَالْخَلِيفَةُ الْأَوَّلُ

في رواية من أشهر الروايات عن مرض النبي صلى الله عليه وسلم أن مُؤَدَّته بلالاً جاءه يوماً ، وقد اشتد به المرض فقال عليه السلام :
مُروا أبا بكر فليُصل بالناس .

قالت عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله ! إن أبا بكر رجل أسيِّف ، وإنه متى يقيم مقامك لا يسمع الناس . فلو أمرت عمر ؟
فقال عليه السلام مرة أخرى : مروا أبا بكر فليصل بالناس .
فَعَادَت عائشة تقول لحفصة : قولي له : إن أبا بكر رجل أسيِّف ،
وإنه متى يقيم مقامك لا يسمع الناس . فلو أمرت عمر ؟
فَعَادَت حفصة ما قالت له عائشة .

وَصَجِّر عليه السلام من هذه المراجعة ، فقال : إِنَّكُنَّ أَتْنِ صَوَاحِبِ يَوْسُفَ . ثم قال لثالث مرة : مروا أبا بكر فليصل بالناس .

وروى عبد الله بن زمعة أنه خرج من عند النبي ، فإذا عمر في المسجد

وأبو بكر غائب . فقال : يا عمر . قم فصل بالناس . فتقدم فكبر ، وكان رجلاً مجهرًا . فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته سأل : فإين أبو بكر ؟ يابى الله ذلك والمسلمون ، يابى الله ذلك والمسلمون .

ولام عمر عبد الله بن زمعة قائلاً : ويحك ! ما صنعتَ بي يا ابن زمعة ؟ والله ما ظننتُ حين أمرتني إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك بذلك . ولولا ذلك ما صليت بالناس .

قال ابن زمعة : والله ما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء ، ولكنني حين لم أر أبا بكر رأيتُك أحقَّ من حضر بالصلاة بالناس .

وموضع العجب في هذه الرواية تردد السيدة عائشة رضي الله عنها في تبليغ أمر النبي بإقامة أبيها مقامه في الصلاة ، وقد تكرر الأمر أكثر من مرة .

فهذا التردد عجيب من وجوه :

عجيب أن تتردد في تبليغ أمر محمد عليه السلام ، وهو الزوج المحبوب والنبى المطاع .

وعجيب أن تتردد في تبليغه ، وهو تشریف لأبيها بمقام كريم تتطاول إليه الرقاب .

ويزيده عجباً أن يحدث في شدة المرض والنبى مجهد يطلب الراحة ، وهي أشد نساؤه سهرًا عليه في مرضه ، وأرعام له بما يريحه ، ويخفف الجهد عنه .

نعم إن عائشة رضي الله عنها كانت أكثر الناس دالة على النبي وأجرأهم على مراجعته ، والتلطف في إبلاغه ما يتَّهَب القوم أن يبلغوه فلئن كانت هي أولى الناس أن تطيعه وتبلغ أمره ، لقد كانت كذلك تعلم من مكائنها عنده ما يُبيح لها أن تراجعهُ وتأمين غضبه ، لدالتها عليه وثقته من مضمَر حبها له وامتنالها لأمره .

إلا أنها قد بلغت مكان الدالة عند رسول الله بما لها من صفات كثيرة غير الصَّباحة والجمال ، وأول تلك الصفات فرط الذكاء ولطافة الحس وحسن التقدير .

وخليق بمن كانت في مثل ذكائها ولطافة حسها وحسن تقديرها أن تفتن إلى الجدل في ذلك الموقف العصيب ، وفي ذلك البلاغ الخطير .. وهيهات أن تتردد يومئذ عن دلال في غير موضعه ، ولأسباب غير السبب الذي يمكن أن يوحى إليها ذلك التردد ، ولا بدَّ له من سبب عظيم . ولقد كان له سبب عظيم .

بل هو أعظم الأسباب التي يمكن أن توحى إليها ذلك التردد ، ولولاه لما أقدمت عليه .

وما نحسب أن شيئاً حفظته الروايات التاريخية لنا عن ذكاء السيدة عائشة يدل على قوة ذلك الذكاء ، كما دل عليه تردها في ذلك الموقف العصيب .

يكفي أن نستحضر اليوم ما قيل عن الخلافة بعد النبي عليه السلام
لنعلم مبلغ ذلك الذكاء العجيب في مقتبل الشباب ونكبر ذلك النظر
الثاقب إلى أبعد العواقب ، ونلتمس لها العذر الذي يَجْمُلُ بامرأة أحبها
محمد ذلك الحب وأعزها ذلك الإعزاز .

فقد قيل في الخلافة بعد النبي كثير :

قيل فيها ما يخطر على بال الأكثرين ، وما يخطر على بال الأقلين ،
وما ليس يخطر على بال أحد إلا أن يَجْمَعَ به التَّعَنُّتُ والاعتساف
أغرب جراح .

قيل : إن وصول الخلافة إلى أبي بكر إنما كان مؤامرة بين عائشة
وأبيها .

وقيل : إنه كان مؤامرة بين رجال ثلاثة أعانتهم عائشة على ما
تأمروا فيه ، بما كان لها من الخطوة عند رسول الله ، وكان هؤلاء الرجال
على زعم أولئك القائلين أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح ، وهم الذين
أسرعوا - من المهاجرين - إلى سقيفة بني ساعدة ليُدْرِكُوا الانصار قبل
أن يتفقوا على اختيار أمير أو خليفة لرسول الله .

وقيل : إن هؤلاء الرجال الثلاثة اتفقوا على تعاقب الحكم واحداً
بعد واحد: أبو بكر فعمر فابو عبيدة ؛ ولهذا قال عمر حين حضرته الوفاة:
لو كان أبو عبيدة حياً لمهدت إليه لأنه أمين الأمة ، كما قال فيه رسول
الله ، وهذا زعم رُوِّجَ به بعض المستشرقين ولَقِيَ بين القراء الأوربيين

كثيراً من القبول، لأنه شبيه بما عهدوه في أمثال هذه المواقف من أحاديث التديير والتمهيد وروايات التواطؤ والائتار .

فالسيدة عائشة مسعودة الحظ لا مراء ، لأنها لم تخالف محمداً قط في أمر خطير ، وحين مخالفته أو ترددت في تبليغ كلامه في أمر من أخطر الأمور ، كان هذا التردد أدل على مكانتها وفضلها وعلى استحقاتها لمنزلة الإيتار في ذلك القلب العظيم .

فهي قد ترددت لتبريء نفسها من القالة ، وتبريء ذلك الموقف الخطير من المظننة ، وتبريء الخلافة من أسباب الادعاء ، وقد يكون فيها إضعاف وإيذاء .

وأشهدت على نفسها أولى الناس بالشهادة في ذلك الموقف الخطير حفصة بنت عمر رضى الله عنها .

فإذا علمت حفصة أن عائشة راجعت رسول الله مرتين في تبليغ الأمر إلى أبيها أن يصلى بالناس ، فقد علمت ذلك من هي أحق بعلمه من سائر أمهات المسلمين ، إذ كان عمر رضى الله عنه أحد اثنين في حق الخلافة لا يذكر أحدهما إلا ذكر الآخر ، كما ظهر ذلك من واقع الأمور ، أو كما ظهر من قول عبد الله بن زمعة لعمر : « حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة بالناس » .

فتردد عائشة في ذلك الموقف الخطير لم يضر بل نفع ، وكان أنفع من

إسراعها بالتبليغ ، وأول ما نفع به أنه أظهر رغبة النبي لإظهار آلا مجال للظنة فيه ، فكان ذلك من أدعى دواعي الاتفاق على الاختيار وقطع السبيل على الفتنة والشقاق .

نعم إن رواية من الروايات تزعم لنا أن السيدة عائشة رضي الله عنها ترددت في التبليغ لأنها أشفقت أن يتشأم الناس برؤية أبيها في مقام يُذكرهم بالخطر على أحب الناس إليهم في ذلك المقام ، وتلك سانحة يجوز أن تسنح لها وهي أشد الناس إحساساً بذلك التشاؤم ووقعه في نفوس المسلمين . ولكننا إذا سلمنا أنها رضي الله عنها قد تعمدت الإبطاء في التبليغ ، فالسبب الذي أومأنا إليه آنفاً أولى وأليق بالمعهود من ذكائها وخلقها الكريم . لأنها لا تجهد النبي في مرضه ولا تفوت على أبيها شرف الخلافة حذراً من التشاؤم وحده ، ثم هي لا تدعو حفصة إلى تعريض عمر لموقف تصون عنه أباه . فإن كان تعمّد الإبطاء في التبليغ فذلك السبب الذي أومأنا إليه آنفاً أحق الأسباب أن يرجح على غيره لتفسير ذلك الإبطاء ، فهو أدعى أن يبطّل به العجب ولا يمتنع مع هذا أن يقرن بغيره من الأسباب .

* * *

ويقل العجب من تردد السيدة عائشة كلما ازداد العجب من تلك الفروض والآاويل التي خاض فيها من خاض عن « مؤامرة » الخلافة المزعومة ، وليس لها سند من التاريخ ، ولا من التفكير القويم ، ولا من

المعهود في أخلاق الرجال والنساء الذين عُزيت إليهم تلك المؤامرة بغير
بَيِّنَةٍ قاطعة ولا ظن راجح .

فليس في شيء رواه الرواة عن الخلافة بعد النبي عليه السلام كلمةً
واحدة تُرجِّح تلك الفروض والأقاويل ، سواء كان قائلها من أسرعوا
إلى بيعة الصديق أو تباطئوا في بيعته ، أو قضوا حياتهم ولم يبايعوه .

وليس في شيء من خلائق أبي بكر وعمر وأبي عبيدة التي عهد بها
الناس منهم في حياة النبي أو بعد وفاته ما يآذن لمتوهم أن يتوهم فيهم
التآمر على خلافته وهو بقيد الحياة ، دون أن يطلعوه على جليلة أو دقيقة
مما يفكرون فيه .

وليس في سيرة أبي بكر وعمر بعد أن وليا الخلافة ما ينم على طمع
في السطوة ، وحرص على زهو الملك يغيرها باستباحة ثقة النبي في حياته
بما لا يليق . وهو عندهما بمكان من التجلُّة والحب لا تتطرق إليه الشكوك
ولا ترتفع إليه الشبهات .

وعلى تقيض ذلك تدلُّ الحوادث والروايات التاريخية على أن الأمر
قد وقع منهم جميعاً موقع المفاجأة التي لم يتدبروا فيها إلا بعد وقوعها ،
ولم يبرموا فيها الرأي على نحو من الأنحاء قبل اجتماع الأنصار بسقيفة
بني ساعدة .

فالأقوال تتفق — أو تكاد تتفق — على أن أبا بكر لم يكن قريباً من

النبي عليه السلام يوم أمر النبي بلالاً أن يدعو إلى الصلاة بالناس ، ولو كان بينه وبين السيدة عائشة إتفاقٌ في هذا الصدد لكان اقترابه من المسجد أو بيت النبي في تلك اللحظة لازماً كل اللزوم لإنجاز ذلك الاتفاق ، وإلا توجهت الدعوة إلى غيره وخرج الأمر من أيدي المتفقين .

وقد توفي النبي عليه السلام وليس في أصحابه الأقربين من كان يتوقع وفاته ، فتركه أبو بكر بعد الصلاة وهو يقول : يا نبي الله ! إني أراك قد أصبحت بنعة من الله وفضل كما نُحِب واليوم يوم بنت خارجة ، أفأتيتها ؟

فأذن له النبي في الانصراف : وخرج أبو بكر إلى « السُّنْح » حيث كان يقيم .

أما عمر فقد دهش لِنَعْي النبي تلك الدهشة التي لم يكن لها على أهبة ، ولو كان على أهبة لها لقد كان الأحرى أن يؤكد الوفاة ولا يستغربها ، تمهيداً لذلك الاتفاق المزعوم الذي سيتلوها .

وبلغ أبا بكر وعمر أن الأنصار مجتمعون في سقيفة بني ساعدة لاختيار الخليفة منهم ، فخرجا إلى السقيفة على غير اتفاق بينهما أيهما الذي يخاطب القوم . فكان عمر يخشى حدة أبي بكر فيهييء في نفسه كلاماً يقوله ، وكان أبو بكر يخشى حدة عمر فيستمهله ويخاطب القوم قبله ، وليس في ذلك دليلٌ إتفاق قديم .

وكان لقاؤهما أبا عُبَيْدة يومئذ لقاء مصادفة في الطريق . وجاء في

رواية مشهورة أن عمر فاتح أبا عبيدة قبل ذلك فقال له : أبسط يدك فلابايعك . فانت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله . فقال له أبو عبيدة : ما رأيت لك فهة^(١) قبلها منذ أسلمت . أتبايعني وفيكم الصديق وثاني اثنين ! فإذا صحّت هذه الرواية فهي تنفي ما قيل عن تفاهم هؤلاء الرجال الثلاثة على مبايعة أبي بكر وتعاقب الخلافة بعده ، وقد يكون عمر فاتح أبا عبيدة عازماً على مبايعته ، أو فاتحه لاستطلاع ما عنده من الرأي والرغبة ، فعلى كلتا الحالتين لا تفاهم من قبل على ذلك الرأي ولا اتفاق .

هكذا تلقى الصحاب الأجلاء نعي النبي ، وهكذا كانوا في أثناء شدة المرض عليه فتى كان التفاهم المزعوم ؟ أقبل أن يرض رسول الله يعقل عاقل أن يجتمع صفوة أصحابه والمؤمنين برسائله للتأمر على ورائته واغتنام موته ؟ إن جاز في عقل عاقل هذا ، فمن أدرهم إذن أن القرآن الكريم لا يوحى برأي في الخلافة غير الذي رآوه ؟ ومن أدرهم إذن — سلفاً — أن النبي عليه السلام يفارق هذه الدنيا ولا يُوصي في أمر الخلافة بوصاة يشهدها الناس عامة وتخالف ما اتفقوا عليه ؟

إن الأمر لم يكن قابلاً لأن يحصل فيه غير ما حصل ، بعد حسابات كل حساب ، واستقصاء كل فرض ، وتمحيص كل رواية .

ولم يكن فيه اتفاق مدبّر على صورة من الصور ، وإنما هو كما قال

(١) الفهة : الزلة .

عمر رضى الله عنه : « إن بيعة أبي بكر كانت فَلَئْتة ... ألا وإن الله وقي شرها » .

وما حاجة الأمر إلى تمهيد وقد كان في غنى عن التمهيد ؟

لقد كان اختيار أبي بكر للخلافة « خيرة الواقع » الذي لا يحتاج إلى تدبير ، بل يقاوم كل تدبير .

فن غير أبي بكر كانت تُجتمع له الشرائط كما اجتمعت له ، وتتلاقى عنده الوجاهات كما تلاقت عنده ؟

كانت تُجتمع له شرائط السن ، والسبق إلى الإسلام ، وصحبة النبي في الغار ، والمودة المرحية بين أجلاء الصحابة ، ومعظمهم ممن دخلوا في الدين على يديه .

وكانت آمارات استخلافه ظاهرة من طلائعها الأولى قبل مرض النبي عليه السلام بسنوات . فكان أول أمير للحج بعث به النبي عليه السلام وهو بالمدينة . وكان ذلك سنة تسع من الهجرة ، واتفق في طريقه أنه دعا إلى صلاة الصبح فسمع رغبة ناقة وراء ظهره ، فوقف عن التكبير وقال : هذه رغبة ناقة النبي - صلى الله عليه وسلم - الجذعاء فلعله أن يكون رسول الله فنصلي معه . فإذا علي ابن أبي طالب على الناقة . فسأله أبو بكر : أمير أم رسول ؟ قال : لا . بل رسول . أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم ببراءة أقرؤها على الناس . فلما قدموا مكة قام أبو بكر فخطب الناس محدثاً عن الناسك ، وقرأ علي³ سورة براءة حتى ختمها ، ثم كان يوم عرفة

فخطب أبو بكر وقرأ على السورة ، وهكذا حتى انتهت المناسك .

وكان قتال بين جماعة من الأوس فذهب النبي عليه السلام يُصلح بينهم وقال لبلال: إن حضرت الصلاة ولم آت فمر أبا بكر فليُصلِّ بالناس.

وأثبت البخاري عن جُبَيْر بن مطعم أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم فأمرها أن ترجع إليه . قالت : أرأيت إن جئتُ فلم أجِدك ... كأنها تريد الموت . قال : إن لم تجديني فإني أبا بكر .

وهذه أمارات مشهودة متفق عليها ، وغيرها أمارات شتى بعضها أصرح وبعضها أحوج إلى التأويل ، لا ضرورة لاستقصائها لأنها لا تبلغ في الجزم والتوكيد مبلغ ما قدمناه .

* * *

واقترنت بتلك الأمارات جميعاً أمارات أخرى لا تقل عنها صراحة وتواتراً تدل على رغبة قوية في اجتناب كل ما يُثير العصبية ، ويلبس الأمر على الجهلاء والمغرضين بين دعوة النبوة وطلب السلطان والاستعلاء .

فلا نحسب أن محمداً عليه السلام دل بعمله وقوله ومضامين رأيه على شيء واضح مطرد كما دل على هذه الرغبة القوية ، ولا ظهر منه الحرص على شيء كما ظهر حرصه على تنزيه النبوة من مطامع السيادة الدنيوية ومفاخر العصبيات .

فأبغض شيء كان إلى نفسه الكريمة قول من كانوا يقولون: إن النبوة تمهد لدولة هاشمية أو وراثة دُنيوية .

ولهذا أثر عنه أنه لم يُؤَلَّ أحدًا من قرابته ولاية أو عمالة في مكة والمدينة أو في غيرها .

بل لهذا أصهر إلى أبي سفيان ، واتخذ معاوية كاتباً للوحي ، وأمر يوم فتح مكة منادياً ينادي في الناس « ... من دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن » ليمحو من نفوس بني أمية حزازة العصبية بينهم وبين بني هاشم ، ولا يدع في سرائرهم مجالاً للظن بأنها غلبة أسرة على أسرة ، أو بطن من قريش على سائر بطونها .

وقال عليه السلام : « ان هذا الأمر في قريش لا يعادهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين » . ولم يقل « في بني هاشم » أو في بني عبد المطلب ، ولو شاء لقال .

ولا ريب أنه عليه السلام لم يُؤثر قريشاً بالأمر يومئذ لأنه يؤثر العصبية لبني قبيلته وقومه ، ولكنه آثرهم للحكمة السياسية البينة التي لا يسهو عنها الهداة المستولون عن مصائر الأمم في عصر من العصور . فقريش هم أصحاب السيادة في مكة وهي كعبة الإسلام وعاصمة الدول الإسلامية في ذلك الحين . ولن تغلح دولة يكون أهل العاصمة فيها أولَ الثائرين عليها والتكرين لنوعها .

ويغلب على اعتقادنا أنه عليه السلام ترك أمر الخلافة بغير وصية ظاهرة لأنه علم أن الخلافة مُنتهية إلى مثل ما انتهت إليه ، ولاسيما بعد تقديمه أبا بكر للصلاة بالناس .

ونص على « قريش » ولم يتجاوز ذلك لأنه علم أن قريشاً تتفق على مثل ما اتفقت عليه ، وأن الخلاف إنما يجيء - إن جاء - من جانب الأنصار أهل المدينة . فالحاجة ماسة إلى هذا التخصيص لدفع الخلاف المنظور ، ومع هذا التخصيص اللازم وصية مكررة بإكرام الأنصار أوصى بها المسلمين بعده ، وهي وصية معناها الواضح في هذا المقام أنه عليه السلام كان يتربص أن تؤوّل الخلافة إلى المهاجرين فهم الذين تتجه إليهم الوصية بإكرام مثوى إخوانهم الأنصار، ولولا ذلك لما اتجهت الوصية لفريق منها دون فريق .

وتقول إن النبي علم بمصير الخلافة على الوجه الذي صارت إليه ، لأننا لا نستطيع أن نفهم أنه عليه السلام ترك هذه المسألة وهو يتوقع فيها الفشل والفتنة ولم يُبرم فيها حكماً يدفعهما به ما استطاع .

فإذا انحصرت الخلافة يومئذ في قريش فهي صائرة إلى أبي بكر دون غيره ولا حاجة إلى تدبير لن يغيّر مصير الأمور .

ولأفكيف كانت الخلافة صائرة إلى غير ما صارت إليه وهي محصورة يومئذ في قريش ؟

وإلى من كانت تصير ؟

إن الذين تولوها بعد أبي بكر من صحابة النبي هم عمر وعثمان وعلي ومعاوية . فأي هؤلاء كان أظهر حقاً وأقرب طريقاً وأدنى من الصديق إلى اتفاق المسلمين عليه ؟

أهو عمر ؟ لقد كان أصغر من أبي بكر بنحو عشر سنين ، ولم تكن له سابقة في الإسلام وفي صحبة النبي ، ولم تكن ألفه الناس له كالفهم لأبي بكر ، وليس هو بأقوى عصبه منه بين بطون قريش ، وليس هو بالذي يشغَب على أبي بكر ويعصيه لطمع في الخلافة إذا تقدم إليها بل كان هو أول من بايعه وحث الناس على بيعته . وقال له : أنت أفضل مني . فقال أبو بكر : وأنت أقوى مني . فعاد عمر يقول : وإن قوتي لك مع فضلك ، وكان هذا فصل الخطاب ومرجع الاختيار الذي لا تفويت فيه لفضل ولا قوة ، ولا تضييع فيه لفرصة أبي بكر التي لا فرصة بعدها . أما عمر فله بعد ذلك فرصته حين يأتي أوانها .

أفكانت تصير إذن إلى عثمان بن عفان ؟

إن عثمان رضي الله عنه أسلم على يدي أبي بكر ، وقد كانت معه عصبية بني أمية وهي عصبية قوية ، ولكن زعامة تلك العصبية كانت في يدي سفيان يومذاك ولا طريق له إلى الخلافة وإن طمع فيها . وتنز عثمان مع هذا أن يركن إلى تلك العصبية ليزاحم أبا بكر في حق لا ينكر ولا يتنفسه عليه .

أفكانت تصير إذن إلى علي بن أبي طالب ؟

إنما كانت تصير إليه بحجة بني هاشم وهي الحجة التي اتقاها النبي
جهده كما قدمنا ، وكان بنو هاشم مع هذا لا يتفقون على اختيار واحد
من رؤسائهم الثلاثة العباس وعلي وأخيه عقيل ، ولم يكن علي بعد هذا
وذاك قد جاوز الثلاثين إلا بسنوات قلائل ، وهي عَقَبَة من العقبات
التي لا يسهل تذليلها في أمة ترعى حق السن ومكانة الشيوخ إلا بوصية
ظاهرة من النبي عليه السلام . ولم تكن هناك وصية من هذا القبيل كما
اتفق عليه كل سند وثيق .

أفكانت تصير إذن إلى معاوية بن أبي سفيان ؟

ما نحسب أن معاوية نفسه قام بخلده أن يرشح نفسه لخلافة النبي في
تلك الآونة . ولو توافرت له السن وتوافرت له الذرائع التي تقربه من
ذلك الأمل لآثرت قریش بالمبايعة كل بطن من بطونها غير بطن بني
أمية ، لأن الخلافة في بني أمية معناها دولة بني أمية ، لاستطاعتهم
بالخلافة وقوة العصبية أن يفرضوا دولتهم على سائر البطون وسائر
القبائل ... أما الخلافة في بني تميم ، رهط أبي بكر ، فهي خلافة قریش
كلها ومعهم جميع المسلمين ، لتعذر قيام الدولة ببطن واحد من البطون
الصغيرة واحتياج الحاكم إلى اتفاق هذه البطون من حوله . ويقال مثل
ذلك في بني عَدِي رهط عمر ، وفي سائر البطون القرشية ما عدا
هاشما وأمية .

فإذا كان انتخاب أبي بكر للخلافة هو رأي قریش الذي لا محيدَ

عنه ، وهو نية النبي التي ظهرت من أعماله وإشاراته ، فما الحاجة إلى التديير بين السيدة عائشة وأبيها ، أو بين الرجال الثلاثة أبي بكر وعمر وأبي عبيدة ؟ ومن أين يأتي تخيل التديير ولا موجب له من الفروض ولا من الإسناد ؟

ربما كان الدليل الذي هو أقطع من كل دليل على نفي التديير المزعوم أن نُقدّر أن التديير لم يحصل قط فإذا كان يحصل بعد امتناعه — أكان يقع في مسألة الخلافة شيء غير الذي وقع ؟ وما هو ؟ وما حيلة التديير في منعه ؟

فإن كان الجواب أن التديير وترك التديير يستويان ، وأن الحاجة إليه لا تخطر على بال عاقل ، ففي ذلك غنى عن الأدلة الأخرى التي تنقضه وتُلقي به في مراجع الظنون والأوهام .

نظر النبي إلى ذلك كله بالبصيرة الثابتة التي تكشف له ما لا ينكشف لغيره ، فسكت بالقدر اللازم ، وأشار بالقدر اللازم ، وعلم أنه قد أشار بما فيه الكفاية ، وأن ما زاد على ذلك فهو زيادة على الكفاية .

وما نشك لحظة في أنه عليه السلام قد أحاط بكل ما يحاط به في هذه المسألة خلال مرضه وقبل مرضه ، وقد اطمأن إلى كل ما يوجب الاطمئنان في تقديره ، وأنه لو رأى حاجة إلى المزيد من التصريح بالقول القاطع لصرح وقطع بالقول ، لأننا لا نستطيع أن نفهم أنه عليه السلام

يترك الإسلام والمسلمين عرضة للفشل والفتنة ثم لا يدفع ذلك بما في وسعه .
فاكتفاؤه بما صنع هو الدليل على علمه بما سيحدث واستغنائه عن المزيد
من التدبير .

وقد نظر عليه السلام - ولا ريب - إلى كل ما يستحق النظر في
مسألة الخلافة وهو يرشح لها أبا بكر ذلك الترشيح الأبوي الذي يؤنس
بالرأي ولا يُقحمه على القلوب .

نظر إلى حق أبي بكر كما نظر إلى مصلحة المسلمين .
فحق أبي بكر في قيامه مقام النبي ظاهر ما فيه خلاف ، ولا موجب
لتخطيه إلى غيره على وجه من الوجوه .

ومصلحة المسلمين في ولايته راجحة في كل حساب ، لأن المسلمين
كانوا يومئذ أحوج إلى عهد يكون امتداداً لعهد النبي حتى يحين وقت
التوسع والتصرف ، وأحوج إلى ألفة غير مخشية ولا منقوسة تعوضهم من
طاعتهم للنبي بتعاونهم على النصيحة والمودة . وكل أولئك ميسور لأبي
بكر قبل تيسره لغيره من جلة الصحابة الأقربين . فهو في حرص شديد
على الاقتداء بالنبي حرفاً حرفاً وخطوة خطوة لن يكون عهده إلا
امتداداً للعهد النبوي حتى تتغير الأحوال فتأذن بالتغيير ، وهو في ألفته
 واجتماع القلوب إليه خير من يخلف الطاعة بالمودة ، ويعالج الفرقه
 والانقسام بالرفق والتؤدة . فإن جدّ ما يدعو إلى التصرف أو يدعو إلى
 الشدة فهناك الأعوان المخلصون له وللدن ، وهناك المشيرون الذين يقلّبون

الرأي على جميع الوجوه : فضله مع قوتهم وقوته مع فضلهم ، نعم العون
ونعم الكفيل باجتماع أسباب الحول والحيلة ، كما ألمع إلى ذلك عمر
ابن الخطاب.

ثم حانت الساعة التي تهيأت لها مشيئة القدر وتهيأت لها مشيئة الناس
على ذلك النحو المستقيم .

فتم في يوم واحد كل ما ينبغي أن يتم في يوم .

ولاح للوهلة الأولى أن الخطر عظيم وأنه موشك أن يعصف بكل شيء
وأن يخرج على كل سواء .

إذا اجتمع الأنصار يتحدثون بحقهم في الخلافة دون المهاجرين ،
وهمت الفتنة أن تنطلق بغير عنان في طريق لا تُعرف عقباه ، ولكنها
فتنة مكبوحة قُدر لها ألا تقوى على الانطلاق من باب السقيفة التي
نَجَمَتْ فيها .

فكان سعد بن عباد زعيم القوم مريضاً لا تؤاتيه في ذلك اليوم حركة
النفس التي لا غنى عنها في ذلك المقام ، لأنها تعدي بالهيبة والثقة من
يستمعون إليه . فحملوه من بيته إلى السقيفة وهو لا يملك زمام عزمه
ولا يقدر على الكلام ، فجعل يخاطبهم بلسان القرييين منه وجعلوا
يصغون إليه إصغاءهم إلى مريض يشعرون بضعفه لا إلى زعيم يشعرون
بقوته وبأسه .

وكان القوم فريقين متنافسين منذ زمن قديم ، وهم الخزرج والأوس وبينهما ملاحاة دائمة تَهُونُ معها كل ملاحاة بين الأنصار والمهاجرين .

وكانت يقظة عمر وأصحابه أسرع من فتنة القوم . فبلغوا السقيفة في إبانها وعالجوا الأمر حق علاجه ، وقال كل منهم كلمة كانت أنفذ من سهم وأقهر من جيش . قال أبو بكر : « إن هذا الأمر إن تولته الأوس نَفَسَتْهُ عليهم الخزرج وإن تولته الخزرج نفسته عليهم الأوس ، ولا تدين العرب لغير هذا الحي من قريش ... نحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا تُقضى دونكم الأمور » وقال عمر : « إن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم وولي أمورهم منهم » . وقال أبو عبيدة : « يامعشر الأنصار ! كنتم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدّل وغير » .

ونادى أبو بكر القوم : هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأبهما شتم فبايعوا . فقال عمر وقال أبو عبيدة مثل مقالته : « لا والله ! لا نتولى هذا الأمر عليك . فإنك أفضل المهاجرين ، وثاني اثنين إذ هما في الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا الذي ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك .

ابسط يدك نبايعك .

فبايعه زعيم الأوس ، بشير بن سعد ، وهو يقول : « كرهت أن

أنازع قوماً حقاً جعله الله لهم ، وقال النقيب أسيد بن حضير : « والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ، ولا جعلوا لكم معهم نصيباً أبداً فقوموا بايعوا ... » .

وبايع عمر وأبو عبيدة فكأنما بايع المهاجرون معهما ، ولم يبق للخزرج الحاضرين عزمٌ خلاف ، فتراحموا على البيعة حتى أوشكوا أن يطئوا زعيمهم المريض ، وماتت الفتنة في مهدها لأنها ولدت بـعلة الموت .

ولدت بـعلة الموت فماتت وما اصطدمت بأكثر من ثلاثة رجال ، لم يستعدوا لها بأكثر من استعداد الساعة . بل لعلمهم أفلحوا في القضاء عليها لأنهم كانوا أولئك الثلاثة بعينهم ولم يكونوا جمعاً حاشداً من المهاجرين الناظرين فلاحوا للقوم هداة ينصحون ولم يلوحوا لهم غزاة يقتحمون ، وكان ذلك أدعى أن يستمعوا إليهم . كما يستمعون إلى الضيف الناصح دون أن تثار فيهم نخوة الغاضب لذماره ، المطروق عليه في عُقر داره .

ولو أن سعد بن عبادة كان صحيحاً غير مريض ، وكان الأنصار حزباً واحداً غير منقسم ، وكان المهاجرون الثلاثة متخلفين عن الموعد الحاسم ، أو كانوا غير أبي بكر وعمر وأبي عبيدة ، أو كانوا جمعاً كثيراً يحفز العداء والمقاومة ، لجاز أن يتغير مجرى الأمور وأن يكون للتاريخ الإسلامي شأن غير شأنه الذي عرفناه .

ولكننا نخطئ كثيراً إذا نسينا فضل الأنصار أنفسهم فيما صارت

إليه الأمور ، فقد كانت لهم فيه مشيئة مستورة إن لم تقل مشيئة ظاهرة .

كانوا على الأرجح يقضون حق المجاملة لسعد بن عباد ولا ينوون الزيادة أو يجدون في الكفاح لانتزاع الخلافة : كانوا مسلمين قبل كل شيء ولم يكونوا طلاب مُلك قبل كل شيء ، وكانوا يحسون ما أحسه المسلمون جميعاً إذ قالوا : إن النبي قد اتّمن أبا بكر على الدين بتقديمه للصلاة فكيف لا يؤتمن على الدنيا ؟ وكانوا يعلمون أن المهاجرين مقدّمون في القرآن على الأنصار : «وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ» . فلم يكن إيمانهم بحقهم في الخلافة إيمان من يغضب لفواتها ويستमित في طلبها ، ولم يكن حرصهم على السلطان أشد من حرصهم على الدين ومصلحة المسلمين ، ولم يكن أملهم فيها إذا نازعتهم قريش عليها بالأمل الذي يطغى على كل تفكير ، فما هو إلا أن أشار بعضهم إلى منازعة المهاجرين حتى قالوا : «منا أمير ومنهم أمير» قبل أن تستفيض بينهم حجج المهاجرين . ثم تمت البيعة فلم يعودوا إلى تمحل الأسباب للخروج على صاحب الأمر كما يفعل كل حريص على السلطان لجُوج فيه .

فهم ولا ريب أصحاب مشيئة فيما صارت إليه الأمور ، على هذا النحو من المشيئة التي قد يجهلها صاحبها وهي حاضرة .

وهم ولا ريب إخوان يطلبون حقاً في الإرث المشروع إن ثبت لهم

حق فيه ، وليسوا بأعداء ينظرون إلى أسلاب العدو ويستحقونها بالغبلة عليها ، كائنة ما كانت ذريعتهم إليها من حق أو باطل .

على أنهم لو كانوا غير ذلك وكان نزاعهم إلى السلطان نزاعاً طاعياً لا يبالون فيه بالحقوق والحرمان لبطل في هذا النزاع كل تدير سابق لأبي بكر وصاحبيه ، ولكان مآل الفتنة إلى حكم الواقع الذي لا تغني فيه الخطط السابقة ولا العظات البالغة . إذ قصارى التدير من أبي بكر وصاحبيه أن يجمعوا حولهم كلمة قريش ورؤسائها وبطونها . فاما أن يُخضعوا بالتدير من لا يخضع لغير السيف ، وأن يدفعوا بالاتفاق بينهم ما ليس له دافع ، فذلك هو الحال بعينه ، أو ذلك هو الاتفاق على أناس خارجين من نطاق الاتفاق .

وصفوة القول أن خلافة أبي بكر كانت نتيجة لكل مقدمة سبقتها من فعل الحوادث ، أو من فعل أحد عامد أو غير عامد .

وغير هذه الخلافة ما كان ليكون ، إلا الفتنة التي لا يجدي فيها اختيار هذا ولا اختيار ذاك ، ولا يُغني فيها تدير ولا تقدير .

ولسنا نحب أن يُفهم من هذا أن أحداً من كبار الصحابة كان يعاف الخلافة ولا يسره أن يُختار لهذا المقام العظيم ، وأن يراه الناس أهلاً للاضطلاع بعبئه الجسيم . فخلافة النبي شرف لا ياباه أحد يحبه ويعظمه ويتتبع خطاه ، وأقل من هذا المقام الأسنى كان حقيقاً عند الصحابة أن

يستشرفوا له ، ولا يكتموا طموحهم إليه . جاء أهل نجران إلى النبي عليه السلام فقالوا : «ابعث لنا رجلاً أميناً فقال : لأبعثن إليكم أميناً حق أمين» فاستشرف لها الناس . فبعث أبا عبيدة بن الجراح .

وروى أبو بكر هذه القصة حيث قال : « قدم إلينا وفد نجران فقالوا : يا محمد ابعث لنا من يأخذ لك الحق ويُعطينا . فقال : والذي بعثني بالحق لأرسلنَّ معكم القوي الأمين » فما تعرضت للإمارة غيرها . فرفعت رأسي لأريه نفسي ، فقال : قم يا أبا عبيدة .

ولقد ساء أبا بكر بعد مبايعته الأولى أن ينقبض أناس عنه فظهر منه الاستياء حيث قال : « أيها الناس ! أأست أحق الناس بها؟ أأست أول من أسلم ؟ » .

وغير ذلك - أيضاً - لم يكن ليعقله العقل ولا بالذي يحمل بالكريم ، فكل رجل كريم يسوءه أن ينقبض أناس عنه وهو جدير منهم بغير الانقباض .

ولكن الغبطة بالخلافة شيء والاحتياال لها بالحيلة والديسة شيء آخر ، فهذا الذي نُنكره لأننا لم نجد دليلاً واحداً عليه ، ووجدنا أدلة كثيرة على تقيضه .

كذلك دبر أبو بكر وأصحابه كل ما يُحمد تدييره بعد قيامه بالخلافة لتوطيد أركانها وحماية الإسلام غوائل عصيانها والتمرد عليها ، وجهدوا أن يفرقوا كل اجتماع يخشون مَغْبَتَه على وحدة المسلمين . فاقترحوا على

العباس بن عبد المطلب أن يجعلوا له نصيباً يكون له ولعقبه من بعده
ليمنعوا الاتفاق بينه وبين علي ابن أخيه ، إن سعى إليهما من يسعى إلى
التأليب والتخريب ، كما هم أبو سفيان أن يفعل باسم البطون القوية في
قريش : بني هاشم وبني أمية ، وصنع أبو بكر وأصحابه نظائر ذلك في
سبيل الوحدة العربية والجماعة الإسلامية ، ولكن الذي صنعه هو
التدبير الواجب الذي لا يضير ، وقد يكون في تركه ضير كبير .

لقد كان أبو بكر الخليفة الأول لأنه كان الصديق الأول ، ولأن
شروط الخلافة التي اجتمعت له لم تجتمع لأحد غيره ، وليس له من منازع
فيها بين أهل عصره ، ولأن المزايا التي قد يرجح بها أنداده وقرنائه لا تضع
على الإسلام بولايته عليهم ومعوتتهم إياه . فكان اختياره أصح اختيار
عرف في تاريخ الولاية ، وكانت التوفيقات فيها غنية عن التدبير
والتمهيد . فإن لج بعض المكابرين مع هذا في دعوى التدبير فأنعم به
تدبيراً ينقطع به الخلاف ، ويتم به أصح استخلاف .



صفاته

كان أبو بكر في جملة ما وصفوه به أبيض تحالطه صفرة ، وسيماً ، غزير شعر الرأس ، خفيف العارضين ، ناتيء الجبهة ، غائر العينين معروق الوجه ، نحيفاً مسترخي إزاره عن حَقْوَيْهِ ^(١) حمش الساقين ^(٢) ، محوص الفخذين خفيف اللحم في سائر جسمه .

وكان أجناً - أي منحني القامة - وقيل في وصف آخر : إنه حسن القامة لا يُلاحظ عليه انحناء ، ولعله كان كذلك أيام الشباب ، ولم يرد في أخباره وصف قاطع عن الطول والقصر ، ولكنه على ما يؤخذ من بعض تلك الأخبار كان أميل إلى القصر ، ولا سيما أخبار الهجرة مع النبي عليه السلام .

فقد جاء في خبر الهجرة أن النبي عليه السلام « كان على بعير ، وأبو بكر على بعير ، وعامر بن فهيرة على بعير ، فكان رسول الله صلى الله عليه

١ - الحقو : موضع شد الإزار وهو الحاصرة ٢ - دقيق الساقين خلص من الاسترخاء .

وسلم يثقل على البعير فيتحول عنه إلى بعير أبي بكر ، ويتحول أبو بكر إلى بعير عامر ويتحول عامر إلى بعير رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ،

فكان هو أخف من عامر بن فهيرة .

وكان عامر بن فهيرة أخف من رسول الله عليه السلام .

وكان رسول الله كما علمنا من وصفه ربعة في الرجال فوق القصير ودون الطويل ، ولم يكن بين الامتلاء ، بل معتدلاً لا إلى السمن ولا إلى النحافة ، فلو كان أبو بكر رضي الله عنه أطول من الربعة لما كان أخف كثيراً من رسول الله ، وأخف كذلك من عامر بن فهيرة ، بحيث يظهر الفرق بينه وبينها في حركة البعير الذي يتعاقبون ركوبه .

أما صفاته الخلقية فقد اتفقت فيها أقوال وإصفيه ، ودلائل أعماله في الجاهلية والإسلام ، فكان أليفاً ودوداً حسن المعاشرة ، وكان مطبوعاً على أفضل الصفات التي تتألف له الناس فيالفونه ، ومنها التواضع ولين الجانب . فلم يتعال على أحد قط في جاهليته ولا في إسلامه ، وكان في خلافته أظهر تواضعاً منه قبل ولايته الخلافة . فإذا مدحه مادح قال: اللهم أنت أعلم مني بنفسي ، وإذا سقط منه خطام ناقته وهو راكب نزل منها لياخذه ولم يأمر أحداً بمناولته إياه . وبلغ من بغضه الخيلاء أنه كان يبغضها حتى حيث يغتفرها الناس من ربّات الحجال . فدخل يوماً على السيدة عائشة رضي الله عنها وهي تمشي وتنظر إلى ذيل ثيابها

فقال : يا عائشة ! أما تعلمين أن الله لا ينظر إليك الآن ؟ قالت : ومم ذاك ؟ قال : أما علمت أن العبد إذا دخله العُجبُ بزينة الدنيا مَقَّتَه ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة ؟ فلما نزعَت تلك الزينة التي أعجبتُها فتصدقت بها قال : عسى ذلك يكفر عنك .

ولم يكن تآلفه الناس مُحضَ مجاملة باللسان مما يستسهله معظم المشهورين بالتودد والمجاملة ، ولكنها كانت ألفة النجدة والكرم والسخاء ، فكان كما قال ابن الدُّغْنَة لقريش ، وقد همَّ أبو بكر أن يهجر بلده : « أُتخرجون رجلاً يُكسب المعدوم ويَصِل الرحم ويحمل الكلّ ويقرى الضيف ويعين على نوائب الحق ؟ »

فهو ودود كريم لا يرضن بماله وجاهه في سبيل الكرم والسخاء .

ومع هذه المودة وهذه الألفة كانت فيه حِدَّةٌ يغالبها ولا يستعصي عليه أن يكبح جماحها . ووصف بها نفسه ووصفه بها أقرب الناس إليه وأصدقهم في وصفه . فقال في خطبة من أوائل خطبه بعد مبايعته : « ... اعلّموا أن لي شيطاناً يعتريني فإذا رأيتُني غَضِبْتُ فاجتنبوني .. »

وقال عمر بن الخطّاب : « وكنت أداري منه بعض الحد - أي الحدة - » وذلك حين أعدّ كلاماً يقوله في سقيفة بني ساعدة ، مخافة أن يحتدّ أبو بكر في ذلك المقام .

وسئل عنه ابن عباس فقال : « كان خيراً كله على حدة كانت فيه » .

إلا أنها كانت حدة تنم على سرعة التأثر فيه ، فإذا لم تكن غضباً يغالبه ويكبحه فهو سريع التأثر إلى الرحمة والرفق في جملة أحواله ،
يميل إلى الحزن والأسى ويعطف على الحزين والأسوان ، أو كان كما وصفته عائشة رضي الله عنها : « غزير الدمعة وقيد الجوانح ^(١) »
شجي النشيج ... « أسيفاً متى يقيم مقامك - مخاطب رسول الله - لا يسمع الناس » .

وكان في جاهليته وإسلامه وقوراً جميلاً السمت يغار على مروءته ويتجنب ما يريب . فلم يشرب الخمر قط لأنها مُخلّصة بوقار مثله ،
وسئل : لم كان يتجنبها في الجاهلية . فقال : « كنت أصون عرضي وأحفظ مروءتي ، فإن من شرب الخمر كان مُضيئاً في عقله ومروءته » ، ومن مروءته أنه كان يتقي كل ما يورده موارد الشبهات . دعاه رجل في الجاهلية أن يستصحبه لحاجة يُعينه عليها ، فرآه يمر في طريق غير التي يمر منها فسأله : أين تذهب ؟ هذه الطريق ... قال الرجل : إن فيها أناساً نستحي منهم أن نمر عليهم . قال رضي الله عنه : تدعوني إلى طريق

١ - الوقيد الجوانح : الحزون القلب .

نستحي منها ؟ ما أنا بالذي أصاحبك .

وكان لمروءته يتحاشى السقط من الكلام ، فلا يتكلم إلا أن يدعو دواع إلى قوله خير فيقولها إذن ويصدق في مقاله . ومن وصاياه لبعض عماله : « إذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام يُنسي بعضه بعضاً »

وقد اشتهر بالصدق في الجاهلية والإسلام ، فكان « ضامن » قريش المقبول الضمان . لا يعد أحداً إلا وفي وصدق الدائن والمدين . ووكلت إليه الديات والمغارم فلم يكن يحمل شيئاً منها إلا اطمأن إليه الناس ، فإن احتملها أحد غيره خذلوه ولم يصدقوه .

وما امتحن صدقه بشيء إلا كذب صدقه أثبت وأقوى . فخطب رسول الله ابنته عائشة حين ذكرتها له خوله بنت حكيم . وكان المطعم ابن عدي قد خطبها قبل ذلك لابنه ، فقال أبو بكر لزوجه أم رومان : « إن المطعم بن عدي قد كان ذكرها على ابنه والله ما أخلف أبو بكر وعداً قط ... » ثم أتى مطعماً وعنده امرأته ، فسأله : ما تقول في أمر هذه الجارية ؟ فأقبل الرجل على امرأته ليسألها : ما تقولين ؟ فأقبلت هي على أبي بكر تقول : لعلنا إن أنكحنا هذا الصبي إليك تُصبئه وتدخله في دينك الذي أنت عليه . فلم يجبهها أبو بكر وسأل المطعم بن عدي : ما تقول أنت ؟ فكان جوابه : إنها تقول ما تسمع .

فتحلل أبو بكر عند ذلك من وعده ، ولم يتحلل منه قبل ذلك على

ما في نسب الرسول من شرف ، وما في قلبه من إعزاز له يفوق كل
إعزاز .

وكانت شجاعته كفاءة صدقه ووفائه بوعده : سواء منها شجاعة
الرأي وشجاعة القتال . فلما أسلم لم يبال أن يعلن إسلامه وأن يجهر
بصلاته ودعائه ، يصيبه في ذلك ما يصيب ، ولما وجب القتال كان هو
أقرب المقاتلين إلى رسول الله في كل غزوة وكل مازق من مازق الجلال ،
وانهزم كثير من الشجعان في بعض الملاحم الحازبة ، ولم تذكر له قط
هزيمة في ساعة من ساعات الشدة ، ولا ثبت نفر قط حيث يصعب الثبات
إلا كان هو بين أول الثابتين . ولم تكن وقعة قط أشد على المسلمين من
وقعتي أحد وحنين ، ولّى فيهما مَن ولّى واستشهد من استشهد وتردد في
صفوف العسكرين أن الرسول عليه السلام كان بين المستشهدين . فذعر
الضعيف وقال القوي : ما تصنعون بالحياة بعده ؟ فموتوا على ما مات
عليه رسول الله ...

ففي وقعة أحد - أشد هاتين الوقعتين - كان أبو بكر في طليعة
الثابتين ، ونظر إلى حلقة من درع قد نشبت في جبين صديقه وصفيه ونبيه
فشغله أن يصاب هذا المصاب ، وانكب عليها لينزعها ، لولا أن
أقسم عليه أبو عبيدة ليسبقنه هو إلى نزعها ، فجذبها بثنيته جذباً رقيقاً
حتى نزعها وسقطت ثنيته .

وعلى هذا الحظ الوافر من المزايا الخلقية كان له قسط محمود من المزايا العقلية التي يمتاز بها ذوو الأقدار من أهل زمانه ، فقليل فيه وفي صاحبه أبي عبيدة : لإنهما « داهيتا قريش » . وأثر عنه أنه كان أسرع الناس إلى الفطنة لما يوحى به النبي عليه السلام بالتلميح دون التصريح . ومما جاء في الحديث الشريف عن علمه وفطنته أنه عليه السلام قال :

« كَأَنِّي أُعْطِيتُ عَسًا^(١) مَمْلُوءًا لَبِنًا فَشَرِبْتُ مِنْهُ حَتَّى امْتَلَأْتُ ، فَرَأَيْتَهَا تَجْرِي فِي عُرُوقِي بَيْنَ الْجِلْدِ وَاللَّحْمِ ، فَفَضَّلْتُ مِنْهَا فَضْلَةً فَأَعْطَيْتَهَا أَبَا بَكْرٍ . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! هَذَا عِلْمٌ أَعْطَاكَ اللَّهُ ، حَتَّى إِذَا امْتَلَأْتُ فَضْلَتُ فَضْلَةً أَعْطَيْتَهَا أَبَا بَكْرٍ . قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قَدْ أَصَبْتُمْ . »

وكان لأبي بكر حظ وافر من الملكة الروحية إلى جانب ما عنده من هذه الملكة الذهنية ، وتلك الملكة الخلقية ، ونعني بالملكة الروحية ما نسميه اليوم بيقظة الضمير .

ومناط الضمير أن يرعى الإنسان حق غيره ، وأن يُحْسِنَ ولا يسيء ، وهي خصلة كانت ملحوظة في أبي بكر من أيام الجاهلية قبل أن يدين بالدين الذي يأمر بالخير وينهى عن الشر ، ويدعو إلى اتباع الحق واجتناب الباطل . فلما جاء هذا الدين بنى منه على أساس قديم ، وبلغت به نفسه

(١) العس : الإثاء الكبير أو القدح الكبير

قصارى ما تبلغه نفس طيبة من رعاية حقوق الناس : ومن كلف بالخيرات
وسخط على الشرور .

قال ربيعة الأسلمي : « جرى بيني وبين أبي بكر كلام فقال لي كلمة
كرهتها وندم ، فقال : يا ربيعة ! ردّ عليّ مثلها حتى يكون قصاصاً .
قلت : لا أفعل ! قال : لتقولن أو لأستعدينّ عليك رسول الله صلى الله
عليه وسلم . فقلت : ما أنا بفاعل . فانطلق أبو بكر وجاء أناس من أسلم
فقالوا لي : رحم الله أبا بكر ، في أي شيء يستعدي عليك وهو الذي قال
لك ما قال ؟ فقلت : أتدرون من هذا أبو بكر الصديق ؟ هذا ثاني اثنين ،
وهذا ذو شيبة في الإسلام . إياكم لا يلتفت فيراكم تنصرونني عليه فيغضب ،
فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيغضب لغضبه ، فيغضب الله لغضبهما
فيهلك ربيعة . وانطلق أبو بكر وتبعته وحدي حتى أتى رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، فحدثه الحديث كما كان . فرفع إليّ رأسه فقال :
يا ربيعة ! مالك والصديق ؟ فقلت يا رسول الله : كان كذا وكذا ، فقال
لي كلمة كرهتها ، فقال لي قل كما قلت حتى يكون قصاصاً فأبيت . فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجل لا ترد عليه ، ولكن قل : قد غفر الله
لك يا أبا بكر .. »

وهو يكره أن يسيء لأنه يكره أن يُساء ، ويعلم ما تُوقعه الإساءة في
النفس من ألم يغلبها على الحلم والأناة حتى في المحضر الذي تُراض فيه على
غاية الحلم وغاية الأناة .

بينما رسول الله جالس ومعه أصحابه وقع رجل بأبي بكر فأذاه ، فصمت عنه . ثم آذاه الثانية فصمت عنه . ثم آذاه الثالثة فانتصر منه . فقام رسول الله حين انتصر أبو بكر . فقال : أوجدت عليّ يا رسول الله؟ فقال رسول الله : نزل ملك من السماء يكذبه بما قال ، فلما انتصرت وقع الشيطان .

ولا شك أنه درس من الدروس النبوية يداوي به نوازع الحدة في صاحبه الأمين ، لأنه كان يهيئه لأمر عظيم : أمر ينبغي لمن تولاه أن تؤله إساءته إلى الناس فوق ألمه لإساءة الناس إليه .

ومن يقظة الضمير فيه أنه لم يطق أن تستقر في جوفه لقمة يشك في مآلاتها : فكان له مملوك يغسل عليه ، فأثابه ليلة بطعام فتناول منه لقمة . قال المملوك : مالك كنت تسألني كل ليلة ولم تسألني الليلة ؟ قال : حملني على ذلك الجوع ... من أين جئت بهذا ؟ فأنبأه المملوك أنه مرّ بقوم كان يرقي لهم في الجاهلية فوعده ، فلما أن كان ذلك اليوم مرّ بهم فإذا عرس لهم فاعطوه ذلك الطعام !

قال الصديق : إن كدت لتهلكني .

وأدخل يده في حلقه فجعل يتقيأ - وجعلت اللقمة لا تخرج - فقيل له : إن هذه لا تخرج إلا بالماء ...

فدعا بطست من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها .

قيل له : يرحمك الله ! كل هذا من أجل لقمة ؟ فقال : لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها .

وما نحسب أن يوماً مرَّ به دون أن يُطيع فيه داعي الإحسان، وسليقة البر والمودة سُئل عنها أو لم يُسال .

فكان من عادة النبي عليه السلام أن يسأل أصحابه حيناً بعد حين عما ابتدروه من الخيرات فلا يكتمونه شيئاً لأنه يسأل ويريد أن يجاب ، ليُتبع جوابهم عظة من العظات ، أو يعقبه بحديث يؤثرونه عنه .

صلى النبي ذات صباح فلما قضى صلاته سأل : أيكم أصبح اليوم صائماً ؟

قال عمر : أما أنا يا رسول الله فقد بت لا أحدث نفسي بالصوم ، وأصبحت مفطراً .

وقال أبو بكر : أنا يا رسول الله ، بت الليلة وأنا أحدث نفسي بالصوم ، فأصبحت صائماً .

ثم سأل النبي : أيكم عاد اليوم مريضاً ؟

قال عمر : إنما صلينا الساعة ولم نبرح ، فكيف نعود المريض ؟

وقال أبو بكر : أنا يا رسول الله . أخبروني أن أخي عبد الرحمن بن

عوف مريض وجع ، فجعلت طريقي عليه ، فسالت عنه ، ثم أتيت المسجد .

ثم قال النبي : فايكم تصدق اليوم بصدقة ؟

قال عمر : يا رسول الله . ما برحنا معك مذصلينا فكيف نتصدق !

وقال أبو بكر : أنا يا رسول الله ، دخلت المسجد ، فإذا سائل يسأل وابنُ لعبد الرحمن بن أبي بكر معه كسرة خبز ، فأخذتها فأعطيتها السائل .

فقال النبي : فأبشر بالجنة . أبشر بالجنة !

لا جرم يقول عمر : ما سابقت أبا بكر إلى خير قط إلا سبقني إليه .

ولا جرم يقول علي : هو السباق . والذي نفسي بيده ما استبقنا إلى خير قط إلا سبقنا إليه أبو بكر .

لقد وصف لنا الصديق بأوصاف نستطيع أن نعيدها اليوم بما ألفناه من أساليب العصر فنراها على وفاق لحقائق تلك الأوصاف ودلالاتها ، وذلك أبين البينات عن صدق ما وصفوه به في الجاهلية أو الاسلام .

فمن جملة الملامح والسمات التي وصف بها يتبين لنا أنه كان من أصحاب

المزاج العصبي الناشئين في وراثة كريمة ، فهو عصبي كريم النزعات والطوايا .

ولا يندر في أصحاب هذا المزاج أن يتميزوا بحدة الذكاء وسرعة التأثر والطموح إلى المثل العليا والحماسة لما يعتقدونه ، والتعلق بما يؤمنون به ويصدقونه ، والتقدم في العقائد والدعوات .

بل هذا هو الغالب فيهم ، كما نشاهد اليوم في كل دعوة دينية أو اجتماعية أو سياسية ، لن تخلو من إناس في مزاج أبي بكر وخلاته الجسدية والنفسية ، ينصرونها ويتشبثون بها ويؤمنون بدعائها ولا ينكصون عن سبيلهم أو سبيلها .

وإذا كان الرجل من بيت من بيوت الشرف والوجاهة فشانه - إذ يكون على هذا المزاج - أن يعتصم بالوقار ودواعيه ، وأن يستزيد من خلائق الصدق والمروءة التي رُكبت فيه .

ولم يكن أبو بكر على علمنا صاحب ' الشخصية الباطشة ' التي تروع الناظر إليها لأول وهلة .

ولم تكن سيادة بيته سيادة جبارين يملكون الناس بالبأس والسطوة .

فسبيله إذن أن يعتصم بصدقه ومروءته ليحفظ بها كرامة الشرف الذي ينتمي إليه ، وأن يستزيد من ذلك الصدق وتلك المروءة بما يزيدهما

في التمكين ويُملِي لها في الثبات والرسوخ، وأن يتجنب فلتات الطبع واللسان ويتنزه عن كل مغلّ بالوقار مُزّر بالصيان، لأن وقاره وصيانه هما الحجاز القائم بينه وبين كل مهانة واستخفاف، ولو كان باطش المظهر أو باطش السيادة لقد يستغني عنها بعض الاستغناء في بعض الأحيان. أما وهو بعيد من البطش في مظهره وسيادته فليس من شأنه أن يغفل عن سُمّت الوقار والمروءة طرفة عين .

وقد عرف الصديق بالحدة وهي أيضاً من خلائق هذا المزاج التي يُغالِبها مَنْ يحرصون على وقارهم ومروءتهم أن يستهدفا لجرائر الحدة أو يندفعا في غير عمل حميد .

إلا أن يُمس الرجل فيما هو من أخص الخصائص التي يقوم عليها مزاجه وتستقيم عليها عاداته وسماته فعندئذ تعسر المغالبة وتبرز الحدة من مكمّنها، وهي على حق إذن في بروزها .

لهذا نرجع الى حوادث أبي بكر في الحدة والصرامة على خلاف عادته من الرحمة والألفة، فإذا هي كلها مما يمس الصدق والتصديق أو يمس الإيمان، أو يجري مجرى الاستهزاء الذي يمس الوقار .

بلغ أقصى ما بلغ من غضب وحدة في عقاب الفُجاءة بن إياس ابن عبد ياليل . وبقي طوال حياته يندم على حدته في ذلك العقاب ..

وماذا صنع الفجاءة حتى هاج منه تلك الحدة التي يغالبها أقوى مغالبة؟

أثاره في مكنن الثورة فيه ٠٠

كذبه الأمانة ، وخذعه وخدع المسلمين ، وقتل من قتل من الأمنين ،
وقلما غضب إنسان كما يغضب الصادق لصدقه المخدوع ، ولا سىا الخديعة
التي فيها غدر وسفك دماء .

جاءه يطلب سلاحاً ليحارب به المرتدين ، فآخذ السلاح وحارب به
المسلمين الأمنين ، وعاث في الطريق ينهب ويسلب ويهدر الدماء ، فلما
وقع في الأسر لم يجزئه عنده إلا أن يقذف به في النار .

وجاء له رجل من أحبار اليهود اسمه فنحاص في الآية : « مَنْ ذَا الَّذِي
يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً » فقال فنحاص
مستهزئاً بالله والنبي : « لو كان عنا غنياً ما استقرضنا أموالنا كما يزعم
صاحبكم . ينهاكم عن الربا ويعطيناه ١ » .

هذا هو الاستهزاء .

وهذا هو المساس بالإيمان .

وكلاهما لا يطيقه الرجل المؤمن الوقور وتغلبه فيه الحدة إن هو
غلبها في غير ذلك من الأمور .

ولقد عاش أبو بكر ما عاش أليفاً مؤلفاً لقومه ، محباً محبوباً فيمن
حوله ، رحيماً بالغرباء فضلاً عن الأقربين وفضلاً عن الأبناء ، إلا أن

هذا الرجل الرحيم الأليف نهض الى مبارزة ابنه ودعا عليه بالهلاك حين
شهد الحرب مع المشركين ، ورأى البرّ به - غاية البر - أن ينهض هو
لمبارزته ولا يدعه لأحد غيره من المسلمين .

كان ذلك يوم بدر ، وكان ابنه عبد الرحمن من أشجع الشجعان
بين العرب ، ومن أنفذ الرماة سهماً في قريش . فتقدم الصفوف يدعو إلى
البراز ، وقام أبوه يجيب دعوته ، لولا أن استبقاه النبي عليه السلام ،
وهو يقول له : متّعني بنفسك .

ولما أسلم عبد الرحمن قال لأبيه : لقد أهدفت لي يوم بدر فضيقتُ
عنك - أي عدلت عنك - ولم أقتلك ، فقال أبوه : لكنك لو أهدفت لي
لم أضف عنك .

وهكذا نعلم أين تبدر الحدة وأين تبدر الصرامة من خليفة أبي بكر
المسلم الوديع ، فحيثما روى راوٍ أنه احتد أو اشتد فلنعلم عن يقين أن في
الامر شيئاً يمس التصديق والإيمان ، أو يمس المروءة والوقار ، فلا تأتي
الحدة أو الشدة يومئذ في غير موضعها من الطبيعة التي ولد بها ومَرُنْ
عليها .

رجل له خصائص المزاج العصبي في البشّة الدقيقة
ورجل من عنصر كريم وأرومة طيبة
ورجل له قدم في السيادة واعتصام بالوقار والمروءة .

فكل ما روي عنه فهو موافق لهذه الخصال، منتظم في هذه الخصائص، معقول في هذا التركيب في الخلق والخلقة ، وهو من ثم دليل على صحة الوصف وصحة السيرة على الإجمال .

ولن يكون هذا الرجل على هذا التكوين إلا كما وصفوه ونقلوا عنه: حديد الطبع ، مستمسك الخلق ، سريع التأثر ، قوي العاطفة ، محبا للاعتقاد ، حسيّا في اعتقاده ، صادقاً في وعده ، كما نستطيع أن نعرف من طبعوا على هذا المزاج ونراهم يبنّنا رأي العين ، أو نعرفهم على السماع معرفة اليقين .

ونحن فيما نتوخاه من المضاهاة بين أوصاف السابقين وأوصافنا نحن المعاصرين إنما نريد أن نُفْضِي إلى المقياس الصحيح للتصديق أو التكذيب، والحكم الصالح للتشكيك أو التغليب . فإذا كانت الأوصاف التي نقرأها مطابقة للأوصاف التي نعقلها والتي نعهدها فذلك هو برهان الصحة في كل مقياس .

وإنه لمن واجبنا في عصرنا هذا أن نقضي على آفة العصر التي أوشكت أن تغلب فيه على كل آفة ، وهي الظن الشائع بين المتفهمين والمتهجمين أن البراعة كل البراعة في التكذيب ، وأن الجهالة كل الجهالة في التصديق ، وليست الجهالة كلها في الحقيقة هنا ، ولا البراعة كلها في الحقيقة هناك ..

فكثيراً ما تكون الغفلة في التكذيب أعظم من الغفلة في التصديق ،

وكثيراً ما يكون بخس الشيء الثمين أدل على الغباء وأضيق للمنفعة من
إغلاء الشيء البخس ، في تسويم التجارة أو تسويم الضائر والعقول .

خذ مثلاً لذلك حسنات أبي بكر اليومية التي سألها عنها النبي عليه
السلام ، فاتفق في يوم سؤاله عنها أنه كان قد أهداها جميعاً على وجه من
الوجوه ..

تلمح على وجه المتفهب المتشكك مسحة التردد وهو يتابع ذلك الخبر
كأنه مما لا يجوز ولا يتكرر على هذا المنوال .

فإذا سألته : لم التردد وفي وسعك أن تبلغ بالخبر إلى مقطع اليقين ؟ لم
تقف هنا ولا تتابع الطريق إلى منتهاه ؟ إنك لتعلم إذن أن التردد
سخر حين يكون اليقين منك على مد اليدين تتناوله إن شئت متى
مددتها إليه ..

ماذا يكون إن صدقنا الخبر ؟

وماذا يكون إن كذبناه ؟

إن صدقنا الخبر فكل ما هنالك أن إماماً في الدين مطبوعاً على الكرم
والكرامة قد جرى على سنة نبيه وهاديه ، فأصبح صائماً وعاد مريضاً
وتصدق على فقير بكسرة خبز وجدها في يد حفيده .

وليس هذا بمتنع ، بل هذا أقرب الأشياء أن يقع ، ولا سيما إذا أضفناه

إلى جملة أخبار أبي بكر من إحسانه في الجاهلية والإسلام ، ومن إنفاقه المال كله في سبيل الخير حتى مات وهو فقير .

فإن كذبنا الخبر فإذا يتقاضانا تكذيبه من جهد للعقل واعتساف للتفكير والتخمين ؟

إن كذبناه وجب أن نعتقد أن أبا بكر رضي الله عنه قد أجاب النبي عليه السلام بغير الحق ، وأنه يتجافى صدق المقال في أقمن المواضع بصدق المقال ، فلو جاز أن يكذب على كل إنسان لما جاز أن يكذب على الرجل الذي صدقه ، وخاطر بالمال والبنين والحياة في سبيل تصديقه . فن الذي يقبل هذا الفرض ولا يرى أن كل فرض دونه أدنى إلى القبول ؟

ومن الذي يعقل ثم يخيل إليه أن العقل يميل به إلى هذا التكذيب ولا يميل به إلى ذلك التصديق ؟

وتقول : إن هذا جائز لتتأدى مع التفهيق إلى أقصى مداه فما الذي يتقاضانا جوازه مرة أخرى من جهد واعتساف ؟

يتقاضانا أن نقبل شيئاً يقرب من المستحيل .

إن الرجل الذي يجترأ على الكذب في هذا المقام لا ينطبع على الصدق ، ولا يخفى كذبه على الناس ، فكيف به وهو مشهور بالصدق في كل ما قال ، والوفاء بكل ما وعد ؟ وكيف به وهو مشهور بالصدق في

شؤون الضمان والمغارم ، وهي شؤون لا يخفى التدليس فيها إلى زمن طويل ؟ وكيف به وهو مشهور بالصدق قبل أن يدين بالدين الذي يحضه عليه ؟

أيجوز أن أكذب الكاذبين ، بأمر الدين وبغير أمر الدين ، يشهر بأنه أصدق الصادقين ؟

تصديق هذا غفلة أدعى إلى السخرية من كل غفلة ! ولا سيما إذا لجأ الإنسان إليها فراراً من القول بأن إماماً شبيهاً بالأنبياء يصوم أيامه ويعود مرضاه ويعطي مسكيناً كسرة من الخبز ، وهو قد أعطى الألوف وأنتقد المعسرين وضمين من ليس له ضمان .

وعلى هذا النحو تتوخى التصحيح والترجيح فيما نأخذ به من أوصاف هؤلاء العظماء . أقرب المقاييس إلينا أن يكون تكذيب الوصف أصعب من تصديقه في تقدير العقل والبديهة ، وفيما نعهده اليوم من حقائق هذه الأوصاف .

وكذلك أوصاف الصديق كما تقلها الناقلون وكما يفهمها اليوم الفاهمون ، فإن الأقدمين ذكروا أوصافاً متفرقة لم يقصدوا أن نجمعها نحن ، ولا قصدوا بعد جمعها أن نعرضها على علم النفس ووقائع الحياة ، كما وضحت لنا بمصباح العلم الحديث .

ولكننا جمعنا تلك الأوصاف وعرضاها على علم النفس فوجدنا بينها

ذلك التناسب الذي يقضي بتصديقها ، وينفي الظنة عن استقامتها
في جملتها .

فأبو بكر كما وصفوه رجل لا محالة من أصلاء المزاج العصبي النابتين
في منبت الشرف والمروءة ، وقد قالوا : إنه كان يجود بماله ، ومثل هذا
الرجل خليق أن يجود بماله ، وقالوا : إنه يحتد ويعطف ، ومثل هذا الرجل
معهود في حدته وعطفه ، وقالوا : إنه يروض نفسه على السمات "والكرم ،
ومثل هذا الرجل لا يستغني عن هذه الرياضة ولا يعجز عنها ، وقالوا :
إنه يشتد في اعتقاده ، وليس فيما شهدناه وخبرناه أشد من اعتقاده مثله .

قالوا ذلك فلم يقولوا عجباً ولم يقل أحد ما ينقضه وينفيه وله
حجة فيه .

فإذا كانت للعقل أمانة فالأمانة في تقرير هذه الأوصاف كما فهمناها
بالاستقراء وكأرواها الرواة في مجمل الأنباء ، وإذا كانت للعقل مهانة
فمهانة العقل أن نعطله عن فهم حقيقة ماثلة ، لغير شيء من الأشياء .

(١) السمات : الاعتدال والوقار .

مِفْتَاحُ شَخْصِيَّتِهِ

كان أبو بكر كما رأينا رجلاً عصي المزاج دقيق البنية ، خفيف اللحم صغير التركيب .

تكوين يغلب على أصحابه أحد أمرين : إن كانوا من كرام النخيزة^(١) فهم مطبوعون على الإعجاب بالبطولة ، والإيمان بالأبطال .

وإن كانوا من لثام النخيزة فهم مطبوعون على الحسد والكيد ، وهما ضرب من الإعجاب المعكوس يؤدي إليه انعكاس الطبيعة ، والإحساس بالعظمة في غير معاطفة بينهم وبينها ولا ارتياح إليها .

فالحسد هو إعجاب اللثيم عند شعوره بالعظمة ، أو هو التحية التي يؤديها اللثيم إلى العظمة حسبا عنده من التواء وارتكاس^(٢) .

(١) النخيزة : الطبيعة (٢) ارتكاس : وقع في أمر

ولهذا يصح أن يقال : إن أصحاب البنية الدقيقة والمزاج العصبي مطبوعون على الشعور بالعظمة على حال من الأحوال ، فإن كانوا كراماً شعروا بها مغتبطين مؤيدين ، وإن كانوا لثاماً شعروا بها عنقنين مُثَبِّطين ، ويندر فيهم جداً من يشذ عن هذه أو تلك من الخصال .

ولقد كان أبو بكر رجلاً كريماً أليفاً من أهل الخير والمودة ، فلا جرم كان الإعجاب بالبطولة طبعاً متاصلاً فيه ، مقروناً بكل ما في الإعجاب من حب وثقة وإيمان ، ولا جرم كان هذا الإعجاب « مفتاحاً لشخصيته » مفسراً لكل ما يلتبس من أعماله ، مميزاً لكل ما يتشابه بينه وبين غيره من الصفات .

قلنا في كتابنا عن « عبقرية عمر » : إن مفتاح الشخصية « هو الأداة الصغيرة التي تفتح لنا أبوابها ، وتنفذ بنا وراء أسوارها وجدرانها ، وهو كفتح البيت في كثير من المشابه والأغراض . فيكون البيت كالحصن المغلق ما لم تكن معك هذه الأداة الصغيرة التي قد تحملها في أصغر جيب ، فإذا عاجلته بها فلا حصن ولا إغلاق » .

وقلنا : « وليس مفتاح البيت وصفاً ولا تمثيلاً لشكله واتساعه ، وكذلك مفتاح الشخصية ليس بوصف لها ولا بتمثيل لخصائصها ومزاياها ، ولكنه أداة تنفذ بك إلى دوائرها ، ولا تزيد » .

فشخصية الصديق لها مفتاح قريب المتناول وهو هذا المفتاح ، مفتاح

الإعجاب بالبطولة .

وهذا الإعجاب بالبطولة هو الوَسْم الذي يتسم به كل عمل من أعماله وكل نية من نياته ، وهو السر الذي نراه كامناً في كل رأي يرتئيه وكل قرار حاسم يستقر عليه .

والإعجاب بالبطولة في التاريخ الإنساني شيء عظيم ؛ ليس بعد البطولة منزلة يشرف بها الإنسان أشرف من منزلة الإعجاب بها والركون إليها . لأن الفضيلتين معاً لازمتان جنباً الى جنب في كل أمر جليل تم في تاريخ الإنسان ، وكل طور من اطوار التقدم ارتقى اليه .

وليقل أصحاب التحليل العلمي ما يشاءون .

وليقل أصحاب القياس المنطقي ما يحبون .

فشاءوا أو لم يشاءوا ، وأحبوا أو لم يحبوا ، لقد تم بغير التحليل العلمي وبغير القياس المنطقي كثير من العظائم في تاريخ الإنسان ، ولم يتم قط – ولن يتم فيما نرى – أمر عظيم واحد بغير البطولة وبغير الإعجاب بالأبطال .

لها برهانها من الواقع كبرهان الأقيسة المنطقية والتجارب العلمية . فالرجل الذي ينهض له البرهان النفساني على الثقة ببطل من الأبطال فيشوق به ويعينه على عمله ليس بالرجل الذاهب على غير هدى أو الآخذ بغير دليل . كلا . فعمله ونتيجة عمله كلاهما يرهان يغنيه عن مصنع التحليل

وعن قضايا المنطق ، ويعني العالم كذلك عنها إذا نظرنا الى العمل ثم نظرنا
إلى النتيجة ، ونظرنا قبل هذا وبعد هذا الى طبائع الإنسان .

خذ لذلك مثلاً حديث الأعاجيب التي سمعها أبو بكر في أيام الدعوة
المحمدية فصدقها لأنه يصدق صاحبها ويركن اليه .

وهبه قد ثاب إلى معمل التحليل فقال له المعمل إنه لم يسمع بأمثال هذه
الأعاجيب ، وليس لديه مسبار لها يصلح للتأييد أو التفنيد .

وهبه قد ثاب إلى قضايا المنطق فقالت له : إنها لا تعرف هذه الأقيسة ولا
هذه المقدمات ولا هذه البراهين .

وهبه قعد في مكانه بعد هذا وذاك ، لأن معمل التحليل لا ينشط به
إلى الحركة في هذا الطريق ، ولأن قضايا المنطق لا ترجيه إلى الجهاد في
هذا الميدان - أفكاسب هو إذن ؟ أفاعل هو إذن ؟ أفحق ما انتهى إليه
وما انتهت إليه الجزيرة العربية من جراء سكونه وإحجامه ؟

إن الجزيرة العربية لا تربح شيئاً بذلك التمحيص المزعوم ، وإن
العالم الإنساني لا يزيد عقلاً ولا علماً ولا تحليلاً ولا قضايا منطقاً بذلك
الإحجام الذي استقر عليه . وإن أبا بكر لن يكون خيراً من أبي بكر ،
والدنيا لن تكون خيراً من الدنيا ، والتفكير لن يكون خيراً من
التفكير ، بل كلٌّ من أولئك فاقد وخاسر ومنقوص .

وقصارى ما في الأمر أن رجلاً شك فلم يعمل شيئاً ، ولم يدر أحد
بأنه شك ولا بأنه لم يعمل ، ولم ينتفع عقل الإنسان بما كان .

أيفهم فاهم من هذا أننا نقول : إن العمل على خطأ خير من الشك
على صواب ؟

كلا !.. ليس هذا ما نقوله ، وليس هذا ما نحن مضطرون إلى قوله
بضرورة من الضرورات .

ولما نقول : إن الشك إذن هو الخطأ ، وإن برهان خطئه نفساني
يقام له وزنه كما يقام الوزن للتحليل العلمي والقضايا المنطقية ، وإنما
الخطأ أن تحوج البطولة إلى الدخول في المعمل لتثبت لك قدرها ، وتثبت
لك حقها في الإعجاب ، وحقها في العمل ، وحقها في تحويل تاريخ الإنسان
ثم تثبت لك قدرتها عليه !

ليس المعمل محل هذا .

محل هذا نفس الإنسان .

وساءت الدنيا إن كانت نفس الإنسان لا تغنيه في تقويم النفوس ، ولا
سيما أعظم النفوس .

أفلا يروعي البطل إلا خلال الأنايبق والأنايب ؟

أفلا تملكني نخوة الإعجاب إلا بوثيقة من إيساغوجي ؟

أفلا يروني الطائر المنطلق فاعلم لم يروني ، ويترامى لي الروح العظيم

فاقول: مكانك حتى أرجع إلى مائدة التشريح أو الى قارورة الكيمياء ١٢
ما قال ذلك قائل قط أمام روح عظيم .

والسبب واضح مستقيم ..

السبب أن الروح العظيم كان قبل ان تكون مائدة تشريح وقارورة
كيمياء ، وأن الإنسانية ألهمت خيراً ألا تؤجل الإعجاب بكل روح
عظيم إلى أن يظهر المشرحون والمحللون .

ليظهروا « على مهلهم » ولتاخذ العظمة الروحية حقها من الاعجاب
قبل إذنهم ، فلا مناقضة للعلم ولا للمنطق في ذلك . إنما المناقضة أن نعلق
دوافع النفوس وبواعث الفطرة على شيء لا تتعلق به ولا تتوقف عليه ،
ولا نخطيء الواقع ثم نخطيء الواقع الصالح ولا سند لنا أوثق من الواقع على
كل حال ، ولا شفاعة أكرم من شفاعة الواقع الصالح في كل مال .

أفيقولون إن البديهة قد تخطيء في الإعجاب ؟

قد تخطيء ولا جدال ..

ولكن كذلك يخطيء العقل ، وكذلك تخطيء التجربة ، وكذلك
تخطيء العلوم وتمضي في خطئها مئات السنين . ولم يقل أحد أن قبولها
للخطأ ينفي قبولها للصواب ، ولا نسي أحد أنها إذا أخطأت مرة فلها
امتحان من العواقب يابى على الخطأ أن يدوم .

على أن تحييص القضايا المنطقية أو العلمية شيء وتمحييص الشائيل

النفسية شيء آخر . وربما كانت وسائل الصديق أقل من وسائل المحللين والمشرحين في العصر الحاضر في باب القضايا المنطقية أو العلمية . أما في باب الشكائيل النفسية فوسائله ليست بأقل من وسائلهم بحال ، وقدرته على أن يُحس من حوله عظمة النفس الإنسانية ليست بأقل من قدرة أحد من المحللين والمشرحين .

وهو قد قال : هذه نفس عظيمة لاشك في عظمتها ، فالخير في متابعتها ، إن لم يكن بد من افتراق الطريق بينها وبين أعدائها . وهو فيما قال قد أصاب .

أصاب منطقاً وأصاب علماً وأصاب حساً وأصاب بكل مقياس من مقاييس الصواب .

هو فيما قال أصوب ممن يخالفه رأياً ، ولو استند إلى كل حجة من حجج التحليل والتشريح . وهاديه فيما اهتدى إليه هو إعجابه بالبطولة ..

وهو إعجابه بالبطولة التي تستحق الإعجاب ، لأن الإعجاب طبقات تتفاوت ، كما أن البطولة نفسها طبقات تتفاوت . وقد كان هو من طبقات هذا الإعجاب في أرفع مكان ..

لأنه لم يعجب ببطل تروعه منه سطوة العتاة المتجبرين ، ولم يعجب ببطل تروعه منه مظاهر الزخرف والخيلاء ، ولم يعجب ببطل تروعه

منه جلبّة الصيت الفارغ والمواكب الجوفاء ، ولم يعجب ببطل يزدهي
بالوَقْر والثروة أو بالعُصبة أولى القوة .

لا . لم يكن شيء من هذا هو الذي راعه من بطولة محمد عليه السلام ،
لأن محمداً عليه السلام لم يكن ذا سطوة ، بل كان عرضة للآذى من
المسلطين عليه ، ولم يكن من أصحاب الزخرف والخيلاء بل كان أعداؤه
هم أصحاب الزخرف والخيلاء . ولم يكن وراءه أحد يتبعه ولا معه مال
يصل به من يصل إليه ، بل كان وحيداً يطرده الآكثرون ، فقيراً يعينيه
الموسرون ، وأولهم أول صديقيه والمقبلين عليه .

إنما البطولة التي أعجب بها أبو بكر هي البطولة التي ليس أشرف
منها بطولة تعرفها النفس الإنسانية : هي بطولة الحق ، وبطولة الخير ،
وبطولة الاستقامة ، وهي بعد هذا ، وفوق هذا ، بطولة الفداء - يقبل
عليها من أقبل وهو عالم بما سيلقاه من عنت الأقوياء والجهلاء .

تلك هي بطولة محمد .

وذلك هو إعجاب الصديق . خير لبني آدم أن يبقى لهم هذا الإعجاب
من أن يزول ويبقى بعده كل شيء ، وأي شيء !

ولقد أجدى ذلك الخلق الكريم أكبر جدواه لأنه تهيأ له بسليقته
ونشأته وتوشّح تركيبه عليه .

فظهر منه في إيمان القلب ، وروية الفكر ، وفي سياسته العامة ، وفي سياسته الخاصة ، وما تشتمل عليه من أدب سلوك وعلاقة بالناس .

أحاط به أناس من المشركين يتهمون به ساخرين عابثين : هل لك إلى صاحبك ؟ إنه يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس !

وكان أناس قد ارتدوا بعد إسلام لما سمعوا بحديث الإسراء ولم يتبينوه ، فاما أبو بكر فما زاد على أن قال : أو قد قال ذلك ؟ لئن قال ذلك لقد صدق !

فغاظهم منه أنهم لم يبلغوا منه موقع التشكيك فيما أُرئي عندهم على حدود التصديق ، وعادوا يسألونه : أتصدق أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وعاد قبل أن يُصبح ؟

قال : نعم ! إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك من خبر السماء في غدوة أو روحة . ثم ذهب إلى النبي عليه السلام فطفق يسمع منه ويصدقه ويقول : أشهد أنك لرسول الله .

وهذا هو البرهان النفساني كما دعونه ، وهو برهان لا خلل فيه من وجهته التي يستقيم عليها ، وإن لم يكن هو البرهان الذي تعودته المناطق والعلماء .

وهنا موضع صالح للتفرقة بين هذه البراهين في ظواهرها ، وللتوفيق

بينها فيما تنتهي إليه من نُشْدان الحقيقة الكبرى :

إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك من خبر السماء .

وفحوى ذلك : إني لأصدقه لأنه أهل للتصديق .

هذا هو أساس الإقناع في منطق الإعجاب والإيمان، فإن كان للمنطق أو للتجربة العلمية أساس آخر ، فليس معنى ذلك أن الأساسين متناقضان متدبران ، وإنما معناه أنهما نحوان مختلفان .

ولكننا إن فرضنا مع هذا أنهما قد تناقضا وتدابرا فليس الخطأ إذن في جانب الصديق ، ولكنه على التحقيق في جانب العالم أو المنطيق .

إن قال العالم أو المنطيق : إني لا أصدق حديث الإسراء ولهذا أبطل الدعوة الإسلامية وأبطل قبلها العظمة المحمدية ، فهو الخطيء في برهانه وهو الذي تعدى به حدود قياسه ..

لأنه نظر إلى المسألة في غير جانبها الذي يُنظر إليه ، من حيث كان أبو بكر على صواب كل الصواب في نظره إليها من جانبها الأوفى ، أو جانبها الذي هو مناط التأييد والإنكار .

أبو بكر يأخذ النفس العظيمة مأخذاً واحداً ويصدق الخبر فيها جملة واحدة ولا يجزئها قطعة قطعة وخبراً خيراً ، فيبطلها كلها بخبر من أخبارها وجزء من أجزائها .

وأبو بكر ينظر الى المسألة في أساسها فيطمئن إليها عند ذلك الأساس
ويبين عليه كل ما فوقه من الإضافات والمزايدات ، والمسألة في أساسها
هنا هي مسألة الصلاح والفساد ، ومسألة التوحيد وعبادة الأصنام .
ومسألة المقابلة بين الاخلاق الجاهلية والاخلاق التي تأمر بها الدعوة
بالمحمدية ، ومسألة الثقة بالمقاصد العظيمة والمساعي الكريمة . أو الثقة
الجهل الشائع والعادات الذميمة .

فإذا كان أبو بكر قد نظر إلى هذا الأساس فهو المصيب .

وإذا كان العالم هو والمنطيق لم ينظرا إليه فهما الخطئان، وهما
المقيمان للقياس على غير أساس قويم . إذ كان خليقاً بهما أن ينظرا إليه
ولا يغفلا عنه وهو أولى بالتقديم والاعتبار ، سواء أخذناه بالإحساس
والإيمان ، او بالتجربة والتفكير .

تُرى لو مَثُلَ العالم والمنطيق والصدّيق أمام عرش « الحق » السرمد
بعد ذلك اليوم بعشر سنين فسألهم فأجابوه كل على ما أجملنا آنفاً، فأيهم كان
يسخطه وأيهم كان يرضيه ؟

يمثّل العالم أو المنطيق بين يدي الحق فيسأله: ماذا سمعت قبل عشر
سنين ؟

فيقول: سمعتُ مَنْ رأى أنه أسرى من مكة إلى بيت المقدس فلم
أظفر منه ببرهان .

فيسأله : فماذا صنعت بعد ذلك ؟

فيقول: كذّبتُه وصدقت المشركين ، ثم نقضت الدعوة الإسلامية وبقيت حتى اليوم على سنة الجاهلية .

فما يختلف اثنان إذن في الجواب الذي يلقيه ذلك العالم أو ذلك المنطيق، ليقول الحق له إذن : إنك أخطأت وخالفت العلم والمنطق فيما صنعت لأن تلك المقدمة لا تنتهي بك إلى تلك النتيجة ، وحديث الإسراء على أي معنى فهمته لن يجعل النفس العظيمة لغواً ، ولن يجعل عملها العظيم مستحقاً للإبطال .

ويمثل الصديق بين يدي الحق فيسأله : ماذا صنعت قبل عشر سنين ؟

فيقول : سمعت من رأى أنه أسرى من مكة إلى بيت المقدس فلم أشك فيما رآه .

فيسأله : ولم لم يخامرَكَ الشك فيه ؟

فيقول : لأنني صدقته في أمر السماء فما يكون لي أن أكذّبه فيما دون ذلك .

فيسأله : فلم صدقته في أمر السماء ؟

فيقول : لأنني أعتقد فيه الخير ولا أعتقد فيه السوء ، ولأنني أعتقد السوء في منكريه ولا أعتقد فيهم الخير .

ليقول الحق له إذن : إنك أصبت وتاديت إلى التصديق من طريق صالح للتصديق ، ووافقت المنطق والعلم أخيراً وإن لم تأت معهما في الطريق ، وإن هذه السنين العشر لتشهد لك بصدق الوعي ولا تشهد به لمن خالفوك : أخذت في المنطق والعلم بالنتيجة ولم تبال بالمقدمة ، وأخذ المخالفون إياك بالمقدمة ولم يبالوا بالنتيجة . فأنت في سبيلك أهدي وأنت إلى المنطق والعلم أقرب وأدنى .

أفیفهم فاهم من هذا أننا ندين بقول القائلين : إن النجاح هو برهان الصلاح ؟

كلا ليس هذا ما ندين به ، وليس هذا بالذي يقتضيه ما قدمناه ، وكل ما هنالك أننا نقرر حقيقة لا شك فيها حين نقول : إن أبا بكر كان أفهم للعظمة المحمدية ممن أنكروها لأنهم شكوا في حديث الإسراء ، وإن المنطق والعلم لا يقضيان بمحاربة الدعوة المحمدية كائناً ما كان فهم الفاهمين لحديث الإسراء . فإن قال قائل : إن المنطق والعلم يقضيان بذلك فهو يظلم المنطق والعلم فيما ادعاه عليهما بغير برهان ؛ وهو الذي يخالف البرهان النفساني في آن .

ولا حاجة بنا هنا إلى إلغاء البراهين العلمية أو البراهين المنطقية ، وإنما حاجتنا كلها ألا تلغى البراهين النفسانية ؛ لأنها قد تتناول العظام الإنسانية في عمومها فينطوي فيها العلم والمنطق معاً ، وتأتي الأيام بعد ذلك بتفصيل هذا الإجمال وتوضح هذا الإبهام .

يقول قائل : وما مرجعنا في البراهين النفسانية ؟ أنصدق كل من يدعيها ؟ أناخذ بها حيثما رأيناها ؟ أندين بالإعجاب حيثما هتف هاتف بإعجاب ؟ فأقرب ما عندنا من جواب أن عظمة النفوس مستحقة للإعجاب كما يستحقه جمال الوجوه .

فماذا عسانا قائلين لمن يسألنا : وما مرجعنا في جمال الوجوه ؟ ... ولا حاجة هنا إلى مرجع ، ولا فائدة في المرجع إن وجدناه .

فجمال الوجوه لا يتوقف على مرجعه الذي نسهب أو نوجز في توضيحه ... وعظمة النفوس من باب أولى قائمة في الدنيا بغير مرجعها الذي نسوقها إليه ، ولا خوف عليها من قلة المراجع عندنا ، فهي تأتي حين تأتي بآياتها وبراهينها ، وحيثما ظهرت مُعجبة ظهر لها صديقون معجبون ، وأقبل عليها مقبلون وأعرض عنها معرضون ، ولن ينفعها المرجع شيئاً إن لم يكن فيها ما يغنيها عنه .

وقد كان في وسعنا أن نجتزئ بهذا ولا نزيد عليه . ولكننا نود أن نستريح بالعقل إلى سند ما أمكننا أن نريحه . فغاية ما نستريح بالعقل إليه في هذا الصدد مأخوذ من كلام الصديق نفسه رضي الله عنه . وذلك إذ يقول : « إن خير الخصلتين لك أبغضهما إليك » .. فالدعوة التي تزين لنا ما نستنيم إليه ليست بدعوة عظيم ، والدعوة التي ترفعنا فوق أنفسنا وتنهض بنا إلى ما يشق علينا هي الدعوة العظيمة في أصدق

مقاييسها ، وهي التي تفرحنا بالواجب ولا تفرحنا بالهوى ، وحسبها ذلك
« برهاناً نفسانياً » لا نهتدي إلى خير منه ، فكل ما عظم بنا فقد كلفنا
ما يشق علينا وانتقل بنا إلى طور فوق طورنا ، فإن كنا على استعداد لهذا
الانتقال مالت إليه نفوسنا كما يميل الجسم إلى النمو وإن كان نموه ليكلفه
عنتاً عند الولادة ، وعنتاً عند التسنين ، وعنتاً عند المراهقة ، وعنتاً عند
بلوغه سن الرشد والاستقلال ... وإن لم نكن على استعداد كرهناه
وحسبنا الراحة في كراهته ، وهي في الحقيقة داء يمنع الناء .

مرجع « البرهان النفساني » الصادق في تقدير العظمة أنه سبيل الفداء
في طريق الناء ، وكل ما تركنا كما نحن أو تحدر بنا دون ما نحن فيه
فبينه وبين العظمة حجاب ، وليس له من ضائر النفس برهان .

بهذا البرهان النفساني واجه أبو بكر مسألة الدعوة المحمدية من حيث
تنبغي مواجهتها ، ونظر إليها من جانبها الأصيل الذي تنحصر فيه النظرة
الأولى ؛ أحمد إمام خليق بالاتباع ؟ أهو بطل جدير بالإعجاب ؟ إن كان
كذلك فهو مُعجَب به مُتَبِعٌ إياه ، وإن لم يكنه فلا إعجاب ولا اتباع ...
وكل ما وراء ذلك فضول وانحراف عن الجانب الأصيل .

ومحمد بطل جدير بإعجابه ، إمام خليق باتباعه ، فامتلاً به إعجاباً
ولازمه اتباعاً ، وعرف طريق الخير من بداءة الأمر أنه أشق الطريقين ،
وعوده كرم التحيزة من قبل أن المجد تكليف وجهه ، وأن الحق صبر

وجهاد ، فكانتُ سُنَّتُهُ فيهما أن يحمل المغارم وأن يأخذ بيد المهيب ، وأن يجور على نفسه وفاء بحق غيره ، فلم تطرقه الدعوة الإسلامية من باب غريب ، ولم يصادفه الجهاد للدين على غير تأهيب وتدريب ، بل زاده يقيناً من طبعه واستواء على نهجه ، وجعله في صدر هذه الدعوة مثل الاعجاب والايان ، وأبرزه للأجيال عنواناً « للشخصية » التي يبلغ بها الولاء للبطولة ذروة مجدها وغاية تمامها ، ويستخرج منها كوامن قواها وأحاسن مزاياها ، ويستقيم بها على سوائها ، ويرتقي بها إلى سمائها ، فهو هو أبو بكر في تصديقه وولائه على أحسن ما يكون .

وهو هو الصديق .

برهانه في تصديق الغيب كبرهانه في تصديق الشهادة لأن المرجع فيه إلى شخص القائل لا إلى الشيء الذي يقال .

فلما ارتد بعض المسلمين من حيث الإسراء بالنبي إلى بيت المقدس قال أبو بكر قوله تلك : إني آمنت به في أمر السماء فلم لا أومن به فيما دون ذلك ؟

ولما تشاور المسلمون في صلح الحديبية رضيَ مَنْ رضيَ وأبى من أبى ، وظهر هنا منطقتان متقابلتان : منطق أبي بكر يقول : إني أشهد أنه رسول الله فلم لا أتبعه فيما ارتضاه ؟

ولما اختلف المختلفون في بعثة أسامة كان أمام أبي بكر خطط

متعددات يختار منها ما يشاء : منها أن يحتفظ بالجيش لحراسة المدينة ، وأن يحتفظ به لحرب أهل الردة ، وأن يبعث به إلى العراق ترصداً للفرس المنذرين بالاغارة ، وأن يبعث به حيث أراد رسول الله ، وإن قال بعض القائلين : إن الحال قد تبدل ، وإن المقام يؤذن بالمراجعة فيما أراد . فشاء أبو بكر الخطة التي شاءها محمد ، وأبى أن يأذن فيها بمراجعة أو تبديل .

ولما جاءوا بالأعطية يقسمونها كانت التفرقة بين الأقدار أدنى إلى التصرف ، وكانت التسوية بين الأقدار أدنى إلى الاتباع . وكان عمر يقول : أنعطي من حارب الرسول كما نعطي من حارب مع الرسول ؟ وكان أبو بكر يقول : أنؤجرهم على إيمانهم فنعطيهم بمقدار ذلك الإيمان ؟ فكان عمر عنوان التصرف وكان أبو بكر عنوان الاقتداء .

ومن أصالة الاعجاب بالبطولة فيه أنه كان مثلاً في أدب الملازمة وقدرة في أصول المصاحلة ، وكان بفطرته خبيراً بالمراسم التي نسميها اليوم « بالبروتوكول » لأن أدبه في توقيف العظمة أدب الطبع الذي يهتدي من نفسه بدليل .

انظر إليه وهو يستأذن أسامة في استبقاء عمر بن الخطاب !

انظر إليه وهو يأبى إلا أن يركب أسامة وهو يشيعه سائراً على قدميه !

انظر إليه وهو ينادي بنته عائشة : يا أم المؤمنين !
هو في كل أولئك المعجب المؤدّب بأدب المصاحبة الخبير بمراسم
المعاملة ، الذي يدري بوحى نفسه كيف يكون التعظيم . وكيف يكون
السلوك ، وكيف تصان حقوق المراتب والدرجات .

قيل : إنه كان إذا قدم على الرسول وفود القبائل علمتهم كيف يُسلمون
وكيف يتكلمون بين يديه عليه السلام .

وكان عليه السلام يوماً في المسجد قد أطاف به أصحابه إذ أقبل عليّ
ابن أبي طالب فوقف فسلم ثم نظر مجلساً . والتفت عليه السلام يرى
أيهم يوسع له ، وكان أبو بكر على يمينه فأسرع فتزحزح عن مجلسه
وهو يقول : ها هنا يا أبا الحسن ! فبدا السرور في وجه النبي ، وقال :
« يا أبا بكر . إنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذوو الفضل » .

وكانما خلق أميناً لسر ، فما تعوزه صفة واحدة من صفات الامناء
للعظماء الذين يعجبون بهم ويغارون عليهم . ومنها هذا الأدب ، ومنها
قلة الكلام ، ومنها الكتمان عنهم في خاصة شئونهم ، وكان أبو بكر في كتمان
عن النبي يتصدى للملام ولا يبوح بكلام .

تأملت حفصة بنت عمر فعرضها على عثمان ، ثم على أبي بكر ، ثم
خطبها النبي عليه السلام .

قال عمر : « فقال عثمان : سأنظر في أمرى ، فلبث ليالي ثم لقيني

فقال : قد بدا لي ألا أتزوج يومي هذا . ولم يرجع إليّ أبو بكر شيئاً ، فكنت أوجد عليه مني على عثمان ، فلبثت ليالي ثم خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فانكحتها إياه... فلقيني أبو بكر فقال: لقد وجدت عليّ حين عرضت عليّ حفصة فلم أرجع إليك شيئاً ؟ قلت : نعم ! قال : لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليّ إلا أنني كنت علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرها ، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ولو تركها رسول الله قبلتها »

فهو في هذا الكتان قد جرى على خير سنة يجري عليها أمناء الأسرار ! أشفق أن يذيع سر الرسول عليه السلام فيبدو له في العدول ، فتكون في ذلك ملامة ، فأثر هو أن يُلام على أن يُعرض صاحبه للام.

ومع هذا الكتان وهذا الكلام النزر كانت له خبرة بكياسة القول هي القدوة العليا لمن جبلوا على مخاطبة العظماء . فسأل رجلاً يحمل ثوباً : أتبيعه ؟ فأجابه : لا عافاك الله ... قال : هلا قلت وعافاك الله !!

تلك نفس ملكتها شياثل الوقار والتوقير، وامتزجت بها سليقة الإعجاب والتعظيم، حتى فاضت على جوارحها ، وسرت مرتجلة إلى جميع حالاتها ، فهي هنالك تستشفها في بواطن الضمير وتلمسها فيما ظهر من الأعمال والمعاملات ، وتتلقاها من خلجات الذهن وبوادر اللسان ، وهي هنالك مفتاح الشخصية كلها تنفذ بنا إلى خفاياها ، وتفتح لنا ما استغلق من أسرارها ، وتميز لنا بين خصائصها وخصائص الأنفس التي تناظرها في المقام ، وتخالفها في المزاج والتركيب .

لقد كان عمر بن الخطاب معجباً بمحمد غاية إعجابه محباً له غاية محبته ولكن « الإعجاب بالبطولة ، كان صفة من صفاته ولم يكن صفته الأولى التي تغلب على جميع الصفات ، وخليقته الشاملة التي تنطوي فيها جميع الخلائق . فإذا قضى حق الإعجاب بقيت له بقية للمناقشة والمراجعة ، واستطاع أن يجمع بين التوقير والاستفسار والتفسير ، فكانت له طريق إلى الإيمان تصاحب طريق الإعجاب وتنتهي معها إلى مثل نهايتها آخر المطاف .

أما أبو بكر فقد كان الإعجاب أقرب طرقه إلى الإيمان ، وأكبرها على السواء . وهما بعد هذا وذاك ملتقيان .

فإذا كان عمر ثاني المتصرفين بعد نبيه وأستاذه وهاديه ، فأبو بكر أول المقتدين بغير سابق ، وبغير نظير .

وهما بعد قرينان يتقابلان في كل حركة من حركات التاريخ ، وكل ظاهرة من ظواهر الأمم ، ولا سيما في إبان الدعوات .

نَمُودَجَان

النمُودَجَان المتقَابِلَان فِي الْمَلَكَات وَالْأَخْلَاق ظَاهِرَةٌ مَعهُودَةٌ فِي كُلِّ أُمَّةٍ ، وَلَاسِيَا خِلَالِ النُّهْضَاتِ الَّتِي تَبْرُزُ فِيهَا كَوَامِنُ الْمَلَكَاتِ وَتَمْتَحِنُ فِيهَا حَقَائِقُ الْأَخْلَاقِ .

وَعَهْدُ التَّارِيخِ بِهَا فِي شُؤْنِ الضَّمِيرِ كَعَهْدِهِ بِهَا فِي شُؤْنِ الْمَعْرِفَةِ وَالْحِكْمَةِ ، أَوْ فِي شُؤْنِ السِّيَاسَةِ وَالتَّشْرِيعِ ، أَوْ فِي كُلِّ شَأْنٍ لَهُ أَثَرٌ يَبِينُ فِي أَعْمَالِ النَّاسِ .

فَاصْطَلَحَ النُّقَادُ عَلَى تَسْمِيَةِ هَذَيْنِ النَّمُودَجَيْنِ فِي الْمَعْرِفَةِ وَالْحِكْمَةِ بِالنَّمُودَجِ الْأَفْلَاطُونِيِّ نَسْبَةً إِلَى أَفْلَاطُونٍ ، وَالنَّمُودَجِ الْأَرِسْطِيِّ نَسْبَةً إِلَى أَرِسْطَاطَالِيْسٍ ، أَوْ النَّمُودَجِ الَّذِي يَتِمَثَّلُ فِي النُّظَرِيَّاتِ وَيَتَعَلَّقُ بِمَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ ، وَالنَّمُودَجِ الَّذِي يَتِمَثَّلُ فِي التَّجَرُّبَةِ وَالْمُشَاهَدَةِ وَيَتَعَلَّقُ بِالطَّبِيعَةِ وَظَوَاهِرِهَا الْمَحْسُوسَةِ .

وَفِي الْأَدَبِ وَالْفَنِّ يَوْجَدُ الْمُتَالِيُونَ عَشَاقُ الْمَثَلِ الْأَعْلَى ، وَالْوَاقِعِيُّونَ

طلاب الواقع الذين يأخذون الدنيا كما هي ويصفون الناس على ما هم عليه .
وفي السياسة محافظون ومجددون ، وفي التشريع حرفيون ومعنويون ،
وفي العقيدة أو فقه العقيدة مقتدون ومجتهدون ، وفي ميول الناس
ومشاربهم عاطفيون وعقليون ، وأصحاب أثره أو أصحاب إيثار .

وليس المقصود بالنموذجين المتقابلين هنا تقابل الضدين اللذين يتناقضان
كما يتناقض الصواب والخطأ ، والخير والشر ، والعلم والجهل ، والهدى
والضلال .

ولكن المقصود هو التقابل الذي يتم فريقاً بزايا فريق ، ويُعين قوة
نافعة بقوة أخرى تكافئها ، ويزدوج في عناصر الأمة كما يزدوج الجناحان
اللذان يستقل بهما الطائر ، ولا يستقل بفرد جناح .
هذان النموذجان معهودان ، لازمان .

معهودان على الخصوص حيثما نهضت أمة من الأمم بجميع قواها
وجميع مزاياها ، وجميع ما فيها من عدد الأهبة والحيلة وبواعث الاقدام
والإحجام .

ولازمان في النهضات على الخصوص حيثما تقدمت النهضة في طريقها
واحتجبت عنها إمامها وهاديها ، وأصبح لازماً بعده أن تتقابل القوى ،
وتتعاون الجهود .

ومن تمام الدعوة الحمديّة أنها كشفت هذه النماذج المتقابلة في الأمة

العربية بين عشية وضحاها، فإذا الأمة العربية كلها كأنما هي حشد مستعد بكل عدة ، متزوّد بكل زاد .

ظهر فيها أقطاب الشجاعة وأقطاب الدهاء ، وظهر فيها المقدمون والمتحذرون ، وظهر فيها الخياليون والعمليون ، وظهر فيها كل طرف وما يقابله من طرف يوازنه ويستند إليه .

وبين هذه النماذج كلها نموذجان من الطراز الأول ، يوشك أن يجتمع فيهما كل ما تفرق في غيرهما من الملكات والشمائل والميول .
نموذجان كبيران تغيب في أطوائهما جميع النماذج الصغار .
وهما نموذج الصديق ونموذج الفاروق .

بين هذين الرجلين العظميين تقابل كثير الشعب متعدد الأنحاء :
تقابل ينتهي الى التجاذب والإخاء ولا ينتهي الى التدافع والنفار ، لأنهما كانا يحومان معاً في نطاق كوكب واحد ، أو نظام كوكبي واحد كما تحوم السيارات والأقمار حول شمس واحدة، هي لها جميعاً مركز أصيل لا تنفصل عنه .

وربما دخل في وجوه التقابل بين هذين الرجلين العظميين أكثر ما أجملناه من الفوارق التي تختلف بها نماذج الناس : العقل والعاطفة ، والحفاظة والتجديد ، والواقع والمثل الأعلى ، وما لا يحصى من الألوان والشيئات ، والأطراف والحدود .

ولكنها على تعددها واختلافها فوارق متناسبة متوافقة تقبل التلخيص
في فارق واحد يطويها من معظم نواحيها، وهو الفارق بين نموذج الاقتداء
ونموذج الاجتهاد .

كان أبو بكر نموذج الاقتداء في صدر الاسلام غير مدافع .

وكان عمر في تلك الفترة نموذج الاجتهاد دون وراء .

وكلاهما كان يحب النبي ويطيعه ويحرص على سنته ويعجب به غاية
ما في وسعه من إعجاب ..

ولكنهما في ذلك طريقان يتوازنان ، وإن كانا لا يتناقضان ولا
يتحدان .

وإن بينهما في ذلك لفرقا لطيف المأخذ عسير التمييز ، نحاول الايضاح
عنه جاهدين ، ونرجو أن نبرزه بأوفى ما نستطاع له من إبراز ، ونحسب
أننا موفّقون حين نقول ؟ إن تقديم وصف على موصوف يكفي في الابانة
عن هذا الفرق الدقيق الذي لا ينفسح حتى يتسع لأكثر من هذا التفريق .
فأبو بكر كان يعجب بمحمد النبي .

وعمر كان يعجب بالنبي محمد .

وتزيد القول إيضاحاً فنقول : إن حبّ أبي بكر لشخص محمد هو
الذي هداه إلى الايمان بنبوته وتصديق وحيه .

وإن اقتناع عمر بنبوة محمد هو الذي هداه الى حبه والولاء له

والحرص على سنته ، وعلى رضاه .

ولهذا كان أبو بكر صاحباً آمناً بصاحبه الذي يطمئن إليه ويحمد خصاله ، وكان عمر عدواً ارده الاقتناع إلى مودة الرجل الذي كان ينكره ويعاديه .

ولهذا كان أبو بكر يطيع محمداً فيفهم القرآن ، وكان عمر يأخذ بالقرآن أو بما يفهم من مشيئة الله فيناقش محمداً حتى يثوب إلى الفهم الصحيح .

هما قريبان جدّ قريبين .

ولكنهما ليسا بشيء واحد على كل ما بينهما من اقتراب .

أو هما كما قلنا في ختام الفصل السابق : أبو بكر أول المقتدين ، وعمر ثاني المجتهدين ، وبذلك يتكافآن ولا نقول يتفاضلان .

نعم يتكافآن ويتعادلان ، وهذا الذي نريد أن نؤكد ونجتنب فيه سوء الفهم والتفسير .

فليست المقابلة بين هذين الرجلين العظميين مقابلة بين قوة وضعف وقدرة وعجز عن قدرة .

كلا . هذا أبعد ما يخطر على بال أحد يدرك فضائل الرجلين العظميين ويعرف ما لكل منهما من خلق مكين وعمل جليل .

فإن الضعف « سلبى » لا يُجنى منه عمل عظيم .

وصلاية أبي بكر في حرب الردة لم تكن صلاية « سلبية » تقول « لا »
في موضع « نعم » ولا تريد .

ولكنها كانت صلاية تثوب إلى قوة لا شك فيها : قوة مصدرها
الاقتداء . هذا لا يهم في وصفها بالقوة وإبعادها من صفوة الضعف
والمعجز عن القدرة . . . وإنما المهم أنها قوة فعالة ، وأنها قوة عظيمة
لا يراء .

ليست المقابلة إذن بين هذين الرجلين مقابلة بين قوة وضعف ،
وقدرة وعجز عن القدرة .

ولكنها مقابلة بين القوة من نوع والقوة من نوع آخر ، وكلتاها
فعالة ، وكلتاها ذات أثر في الإسلام ، وفي العالم ، جليل .

وليس من الضروري اللزم أن يكون كل مقتد أقل في الشأن والأثر
من كل مجتهد برأيه ، فقد يكون من المقتدين من هو أكبر وأقدر من
المجتهدين ، وقد يكون الاقتداء وكله خير ، ويكون الاجتهاد ولا
خير فيه .

ولعلنا نوضح هذه الحقيقة بالمثل المحسوس ، لأنه أقرب إلى المشاهدة
والإقناع .

فالمصابيح الكهربائية منها ما هو أمّ مستقل بمفتاحه ، ومنها ما هو
تابع موصول بمفتاح غيره .

ويتفق مع هذا أن يكون « المصباح الأم » أصغر حجماً وأضعف نوراً من المصباح الذي يتبع غيره ويضيء بمفتاحه ، وهما أقرب مثل محسوس للاجتهاد والاقتداء .

كذلك الكوكب الثابت والسيارات التي تدور حول غيرها : لا يلزم أن يكون كل كوكب ثابت أصغر من كل سيار دائر ، وإن تكرر هذا في العيان وسبق إلى الأذهان .

وعلى هذا النحو كان الفرق بين الصديق والفاروق ، بين أول المقتدين وثاني المجتهدين . فهو بين قوة من نوع ، وقوة من نوع آخر ، ولا محل للضعف في الموازنة بين هاتين القوتين .

وهناك مقابلة أخرى بين الصديق والفاروق لا تفوتنا الإشارة إليها لأنها مقابلة أصيلة فيما تؤول إليه من الصفات والآثار .

ونعني بها المقابلة بينهما في تكوين البنية وتركيب المزاج ، وهي أيضاً مثل عجيب من أمثلة التقابل بين هذين الرجلين العظيمين .

فكان أبو بكر نموذج القوة في الرجل الدقيق .

وكان عمر نموذج القوة في الرجل الجسيم .

ومن عجيب المصادفات أن هذا كان غزير الشعر بين الغزارة فيه ، وهذا كان أصلع ، بين النزارة فيه ، ليتم بينهما التقابل حتى في الصفة التي

لا يقتضيهما اختلاف البنية بين الرجل الدقيق والرجل الجسيم .
قلنا في كتابنا عبقرية عمر: « إن العالم الإيطالي لومبروزو ومدرسته
التي تأتم برأيه يقررون بعد تكرار التجربة والمقارنة أن للعبقرية علامات
لا تخطئها على صورة من الصور في أحد من أهلها . وهي علامات تتفق
وتتناقض ولكنها في جميع حالاتها وصورها غمط من اختلاف التركيب
ومباينته للوتيرة العامة بين أصحاب التشابه والمساواة . فيكون العبقرى
طويلاً بائناً الطول ، أو قصيراً بين القصر ، ويعمل بيده اليسرى أو
يعمل بكليتا اليدين ، ويلفت النظر بغزاره شعره أو بنزارة الشعر على
غير المعهود في سائر الناس ، ويكثر بين العبقرين من طراز جيشات
الشعور وفرط الحس وغرابة الاستجابة للطوارئ فيكون فيهم من
تفرط سورتهم كما يكون فيهم من يفرط هدوءه ، ولهم على الجملة ولع
بالم الغيب وخفايا الأسرار على نحو يلحظ تارة ، في الزكاة^(١)
والفراسة ، وتارة في النظر على البعد أو الشعور على البعد ، وتارة في
الحماسة الدينية أو في الخشوع لله . »

تلك جملة الخصائص العبقرية التي أجملناها من كلام لومبروزو
وأشباعه ، فكأنما شاء القدر أن يتفق الصاحبان في جوهر العبقرية ويختلفا
في أعراضها اختلاف المقاتلة ، حتى في غزارة الشعر ونزارته على غير ما
يقتضيه هذا الاختلاف .

والمقاتلة بين الصديق والفاروق في تكوين البنية وتركيب المزاج

١ - الزكاة : الفطنة والفهم .

كان لها أثر كبير في المقابلة بين الرجلين العظيمين في الخلائق والجهود ؛
فعمر ، بما نشأ عليه من الجسامة والهيبة ، لم ينشأ وله منبه من البنية
ينبئه أبداً. إلى وجوب التهدة والترويض ، فمضى بتلك البنية كما يمضي
راكب الفرس الجموح غير متوجس من جماحه ، لأنه مطمئن آخر الأمر
إلى العنان .

وابو بكر . بما نشأ عليه من الدقة والنحول ، قد نشأ وله منبه إلى
غوائل الحدة التي تعهد من أصحاب هذا التركيب ولا تؤمن غوائلها
عليهم ، فراض نفسه على التهدة والترويض ، ومضى بتلك البنية كما
يمضي راکب الفرس الجموح عودها قبل الدخول في المضمار أن تدع
الجماح ، وأن تشعر بالعنان القابض عليها في كل حين .

وهنا لا تكون التفرقة أيضاً من قبيل التفرقة بين القوة والضعف ،
وبين القدرة والعجز عنها ، ولكنها على ما قدمنا تفرقة بين قوة وقوة
تكافئها ، أو بين طرازين من القدرة يتقابلان .

فلو كان أبو بكر ضعيفاً قليلاً لمحت به الحدة ، ولم يعتصم من عزمه
إلى كايح قدير على الكبح ، فتحطم كما يتحطم الضعفاء .

ولو كان شعوره بنفسه شعور ضعف وقلة لاستقر على هذا الشعور
واستكان إليه ، ولم يأخذ نفسه بالسمت والوقار ، ولا بمناقب السيادة
والمروءة ، ورضي له ولذويه بما يرضى به الضعفاء .

ولكنه شعر من نفسه بقوة يعتصم بها ويقوى على رياضتها ، فكان

مثلاً للقدرة الرائضة والنفس المروضة كما تكون في الرجل الدقيق النحيل.

في حياة الصاحبين موقف من المواقف النادرة التي يظهر فيها الرجل كله ، ولا يتفق في التجارب النفسية أن يواجهها الإنسان مرتين في حياته ، وهو الموقف الذي فاجأهما بموت النبي عليه السلام .

ليس للصاحبين غير صديق واحد بمنزلة محمد عندهما من المحبة والتجلة ، وهما لا يروغان كل يوم نبأ فاجع يسوءهما كما يسوءهما نبأ موته وانقضاء عشرته والأنس بقربه . فالموقف نادر ، والبليّة به خليقة أن تبثلي الرجل في كل ما ينطوي عليه من بديهة وروية ..

وابتلي به عمر فغضب غضبته المرهوبة وثار بالثعابة يتوعدهم ليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أن محمداً قد مات .

غضب غضبة الرجل المملوء بقوته وحميته ، الذي لم ينبهه منبه قط إلى ترويض غضبه والمبالاة بعواقب ثوراته ، وكأنما قام في دخيلة نفسه أنه يستكثر حتى على الموت أن يجترأ على الصديق الذي يحبه ذلك الحب ، ويحله تلك التجلة ، ويعتقد فيه تلك العقيدة ، وينتظر حتى من الموت أن يتحامي جانب ذلك الصديق ، ويرعى له حرمة لا يرعاها لساثر الأحياء .

وأبو بكر يحب محمداً كما يحبه عمر ، ويأسى لفراقه كما يأسى ، ويرفعه مثله درجات فوق مقام الأحياء من قبله ومن بعده ، ولكنه رجل راض نفسه وقمع حدة طبعه ، وعرف الصبر على ما ليس يدفعه دافع ولا تغني فيه حيلة ، فإن كان تسليمٌ فهذا أحق المواقف بالتسليم وأولها بطول ما ارتاض عليه من صبر ، وما تاهب له من أسوة .

بذلك أدى كل من الرجلين ضريبة طبعه ومزاجه الذي لا معدى له عن مطاوعته والاستجابة لدواعيه .

ثم زالت الغاشية الأولى . فظهر الرجلان في حالة القرار كما ظهرا في حالة المفاجأة : ظهر أن عمر لم يكن ثورة كله ، بل كانت فيه إلى جانب الثورة روية تفرغ للأمر في أخرج أوقاته ، وظهر أن أبا بكر لم يكن روية كله ، بل كانت فيه إلى جانب الروية مطاوعة لسليقة الحب والألفة قد تشغله عن العواقب إلى حين .

فبينما هو مشغول بتجهيز رسول الله إذا بالأنصار يجتمعون في سقيفة بني ساعدة ليتخذوا لهم أميراً دون إخوانهم من المهاجرين ، وإذا عمر يتأهب للأمر أهبطه ، ويعاجل الخطب قبل استفحاله ، وياخذ أبا بكر من بيت رسول الله إلى سقيفة بني ساعدة ليبيعه هناك بالخلافة . . . ويتقي الحدة من أبي بكر فيهبىء في نفسه كلاماً يصلح لذلك المقام يهدبه لكلامه . وفي بعض الروايات أنه فكر في أمر المبايعه قبل ذلك حين لم يفكر فيها أحد من المهاجرين وأنه شاور أناساً وشاوروه فيما يكون

بعد وفاة رسول الله . فما كانت غضبته الثائرة الا ريثا قبض على العنان
بكلتا يديه ، ثم كان عنانه ذلك أطوع عنان .

كلا الرجلين العظيمين فيه روية وفيه حدة : تأتي الروية أولاً أو
تأتي الحدة أولاً ذلك هو موضع الفارق من بوادر المزاج والتركيب ،
ولكن الروية هناك قائمة في المزاجين حين تراد .

* * *

وقد نلمس هذه الجوانب المتقابلة من مزاج الصاحبين في كل مسألة
ذهبا فيها مذهبين ونزعا فيها إلى رأيين مختلفين .

من ذلك مسألة الردّة ، ومسألة خالد بن الوليد ، ومسألة الأعطية
والتوافل للمؤلفة قلوبهم ولغيرهم من عامة المسلمين .

في كل مسألة من هذه المسائل كان كل من الصاحبين عند طبعه ومزاجه ،
أو عند المعهود من وصفه واستقصاء أحواله ؛ دليل أصدق دليل على
خلوص الرأي وصراحة الضمير والتوجه إلى الأمر بما يستدعيه عندهما من
مقدماته وموجباته ، في غير حيد ولا انحراف عن سواء السبيل .

ففي مسألة الردّة جنح أبو بكر إلى الصرامة وجنح عمر إلى الهوادة ،
وفي ظاهر الأمر أن هذا اختلاف على غير المنظور من طبيعة الرجلين
ولكن الواقع أنه لا يخالف المعهود إذا مضينا فيه إلى ما وراء الظاهر
القريب

فقد كان ابو بكر عند طبعه حين أبى أن يترك عقلاً مما كان يأخذه رسول الله من فريضة الزكاة ، وكان كذلك عند طبعه حين استشاره الاستخفاف به والجرأة عليه ، كأنهم يستصغرونه ويتقحمونه ، وهو الذي توقّر طول حياته من مكانة من يُستصغر ويتقحم ، لدقة في تكوينه وقوة في نفسه تعاف أن تُحسب عليه الدقة في التكوين صغراً في المقام .

وقد كان عمر عند طبعه حين أخذ بالتصرف والاجتهاد على حسب اختلاف الأحوال ، ووثق من مصير الأمور إلى الخير بأية حال .

* * *

أما مسألة خالد بن الوليد فقد كان السؤال فيها : هل يحاسب أو لا يحاسب ؟ فكان جواب صاحبين على حسب المجهود فيها من مزاج وخليقة ، ولم يكن منظوراً أن يقضي أحد منها بغير ما قضاه .

قتل خالد مالك بن نويرة وبنى بامرأته في ميدان القتال على غير ما تألفه العرب في جاهلية وإسلام ، وعلى غير ما يآلفه المسلمون وتآمر به الشريعة .

أفيحاسب على هذا أو لا يحاسب عليه ؟

أول جواب يبدر إلى عمر عن هذا السؤال هو المحاسبة بغير ولاء . ولم لا ؟ ما الذي يُتقى ؟ ما الذي يكون ؟ إن المبالاة بعقبى حسابه ليست

ما يروع عمر ويشنيه، بل لعلها مما يحفزها الى التحدي والإسراع فيه .
أما أبو بكر فقد استشار هنا طبيعة الاقتداء ، وطبيعة الإعجاب
بالبطولة وطبيعة اللين والإغضاء ، وهي تشير عليه بالإعفاء من الحساب
أو بالإمهال به إلى حين .

فهو لا يعزل قائداً من قواد رسول الله وسيفاً من سيوفه ، وهو لا
ينسى بطولة خالد وإن زل أو أخطأ التأويل، كما قال، وهو يُؤثر اللين
لأنه في عامة أحواله مطبوع عليه ما لم يمسه الأمر فيما يثير .

* * *

وجاءت مسألة الأعطية فأبى أبو بكر أن يتصرف في تمييز الأقدار وأقدم
عمر على التصرف والاجتهاد .

وجاءت مسألة المؤلفة قلوبهم فاعطاهم أبو بكر متبعاً سابقة الرسول
وأنكر عمر عطاءهم لأنهم كانوا يأخذون ما أخذوه والإسلام ضعيف ..

فأما الآن فإذا عساهم أن يصنعوا إن لم يأخذوا ؟ ما يصنعونه كائناً ما
كان لا يكرهه ولا يشنيه .

* * *

وهكذا نستقصي علل الخلاف بين صاحبين في كل مسألة من المسائل
فإذا هي في مردها خلاف بين قوتين من نوعين ، أو خلاف في تناول

الأمور على طريقتين ، ولم تكن قط خلافاً بين قوة وضعف ، أو بين حرص وتفريط ، أو بين أثرة وإيثار .

ومن المسلّم أن القوة ضروب ، وأن العظمة صنوف ، وأن اللين لا يلين أبداً والشديد لا يشتد أبداً ، فلا بد من اختلاف بين العظيم والعظيم ، ولا بد من اختلاف بين عمل العظيم الواحد في أوقات . وليس العجب أن يجري كل منهم على خطته وأسلوبه ، وإنما العجب أن تتعدد ضروب القوة وتتعدد صنوف العظمة ثم تتوحد الحطة والأسلوب .

وموضع العبرة - بل موضع الإعجاز فيما تقدم - هو تلك الدعوة التي شملت هذه القوة كلها في طيئة واحدة ، وضمت هؤلاء الرجال جميعاً حول رجل واحد ، وجذبت إليهم أكرم العناصر التي تأتي بالعظائم وتصلح للخير وتُقدم على الفداء .

فاوجز ما يقال في تلك الدعوة أنها خاطبت خير ما في الإنسان قلباًها أمثال الصديق والفاروق ، وأقبل عليها الأقوياء المخلصون من كل طراز فليست هي بالدعوة التي تخاطب الضعف والضعفة ، ولا بالدعوة التي تخاطب الطمع والأثرة ، ولا بالدعوة التي قوامها الترهيب والترغيب ، ولكنها الدعوة التي يحببها أكرم سامعيها ، ويتخلف عنها أقلهم سعياً إلى الخير واقتداراً عليه .

والصديق والفاروق خير نماذج الرجال في الجزيرة العربية ، ففي خلائق هذين العظيمين دليل على السرّ الذي من أجله نادى محمد قومه ومن أجله أجيب ، ومن قال من المكابرين والمتعنتين : إن دعوة محمد

لم تكن بالدعوة الصالحة فليقل : أيّ صلاح كان يلقى في الجزيرة العربية
مجيبين أكرم وأقدر من هؤلاء المجيبين؟ وأي هداية بين الناس أشرف من
الهداية التي تجمع إليها أقوى الأقوياء وأطيب الطيبين ، على ما بينهم من
تقابل في المزاج والرأي . كاعجب ما يكون التقابل بين المختلفين المتفاوتين؟
وأي إقناع أقنع الصديق؟ وأي إقناع أقنع الفاروق؟ الخشية؟ المتعة؟
الشر؟ الطمع؟ لقد كانا إذن آخر من يجيب، وكان خصومهما إذن أسرع
المجيبين وأسبق المؤمنين !

إسلامه

قيل إن أبا بكر رضي الله عنه كان أول من أسلم ، واتفقت الأقوال على أنه كان أول من أسلم من الرجال ، وأن السيدة خديجة رضي الله عنها كانت أول من أسلم من النساء ، وكان علي رضي الله عنه أول من أسلم من الصبيان ، وكان زيد بن حارثة أول المسلمين من الموالي ، وهو الذي تبناه النبي عليه السلام .

وقال النبي عليه السلام : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت منه عنده كِبْرَةٌ ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبي بكر ، ما حكم^(١) عنه حين ذكرته له ، وما تردد فيه » . فلم سهل إسلام الصديق هذه السهولة التي لم تؤثر عن أحد غيره كما جاء في ذلك الحديث الشريف ؟

لعلنا نختصر الطريق إلى جواب هذا السؤال إذا نحن سألنا عن الموانع دون الإسلام ، قبل أن نسأل عن الموجبات ..

(١) حكم عنه : تأخر ،

لأننا إذا بحثنا عن العقبات فلم نجدها ، أو بحثنا عنها فوجدناها قليلة العدد هينة التذليل ، بدت لنا سهولة الطريق من غير جهد كبير في البحث عن الموجبات ، وعرفنا أنه « لا مانع » فعرفنا أنه لا صعوبة ولا محل للتردد والمقاومة فما الذي كان يمنع أبا بكر أن يجيب دعوة الإسلام ؟

بل ما الذي يمنع إنساناً من الناس – كائناً من كان – أن يجيب الدعوة إلى عقيدة جديدة ؟

موانع شتى

ومن الحقائق الملحوظة أن هذه الموانع كانت أقل ما تكون في أبي بكر الصديق ، فلا نعرف أحداً في عصر النبي كانت موانعه دون إجابة الدعوة الجديدة أقل من موانع هذا الرجل الصادق المصدق ، المستعد لإجابة النبي إلى هدايته كأنما كان معه على ميعاد .

يمنع الإنسان أن يصغي إلى دعوة العقائد الجديدة موانع شتى من آفات العقل والخلق والبيئة ، تجتمع وتتفرق ، ويُبتلى الرجل الواحد بها جميعاً ، وقد يبتلى بمانع واحد منها فيحول بينه وبين الاضغاء والاجابة .

يمنعه أن يجيب الدعوة إلى المصلحين غطرسة ، أو سيادة مهددة ، أو مصلحة في بقاء القديم ومحاربة الجديد ، أو ذهن مغلق لا يتفتح للفهم والتفكير ، أو مغامرة للشهوات تحجب إليه أن يستنيم إلى العرف الذي يبيحها ويعزف عن الهداية التي تحظرها وتقف في سبيلها ، أو تعصب

غضوب للعقيدة التي درج عليها ، أو شعور بقوة سلطان تلك العقيدة في
أبناء قومه ، سواء منهم المتعصبون لها والقابلون لها على المجازاة والمدارة ،
أو جبن ينهائهم أن يخرج على المألوف ويتصدى لسخط الساخطين وإن تبين
طريق الاستقامة والسداد ، أو إيغال في الشخوذة يصد الإنسان عن كل
تغيير ويميل به إلى كل تواكل ومتابعة وتقليد ، أو حداثة سن تجعله تابعاً
لغيره في الرأي والخلقة وتجعل له شرة تحجبه عن التروية والمراجعة ، أو
ذلة مطبوعة تلحقه بمن أذله وبسط سلطانه عليه .

فالغطرسة خلة تأبى على صاحبها أن يستمع إلى قول أو يصيخ إلى
دعوة ، أو يتنزل إلى متابعة إنسان ، ترفعاً عن الإصغاء قبل أن يهديه
الإصغاء إلى موافقة أو إنكار .

والسيادة المهددة توحى إلى صاحبها كراهة التجديد ، لأنه يحس
بالبداهة أن صاحب الجديد أولى منه بالسيادة إن شاع ما جدده بين
الناس ، فتبطل سيادته ببطلان القديم الذي قامت عليه ، وقيام الجديد
الذي نسّخه وعفاه .

والمصلحة في حالة من الحالات المستقرة تجعل الرجل محباً لتلك الحالة
حبه للمنفعة ، كراهاً لتبديلها كراهته للخسارة ، ميالاً إلى محاربة الدعوة
الجديدة قبل أن يبحث فيها ويتعرف وجوه الخير التي قد يصيبه منها .

والذهن المغلق يحفل ما يقال ، ويعادي ما يحفل ، وينفر من كل ما

يشق عليه ، وأول ما يشق عليه أن يفهم شيئاً على وجهه السوي ،
أو يتبها للفهم بآية حال .

ومغامسة الشهوات تُبغض إلى المرء سلوانها والاقلاع عنها ، وتقرن
عنده دعوات الإصلاح والاستقامة بشؤم التنغيص والتكدير ، فيتبرم
بها وينزعج لها ، كما ينزعج النائم المستغرق أيقظته من نومة لذينة قد
استراح إليها .

والتعصب الغضوب لما اعتقده المرء يثيره أن تمس عقيدته كما يثور
لحماية الحوزة أو الذود عن الآباء والأجداد ، لأنه يحسب عقيدته ملكاً له
ولآبائه يرد عنها من يهجم عليها ، كما يرد صاحب البيت من يهجم عليه .

والعقيدة إذا كانت قوية السلطان غلبت عزتها على عزة العقل
والفؤاد ، فأصر عليها من كان خليقاً أن يعافها ويعرف عيبها لو دعي إلى
تركها وهي تتداعى وتزعزع وتؤذن بالزوال .

والجن يخيف صاحبه أن يجهر بالحق ويتعد به عن طريق المخافة ،
فلا يدنو إلى الصوت الذي عسى أن يقوده إلى الإصغاء فالإيمان فالجهر
بما يضير .

والشيخوخة عدو لكل طارق ، والحدائث بين طيش يدعو إلى التمرد
وطاعة تدعو إلى متابعة الأولياء ، والذلة حجاب بين الدليل ونفسه يحجبه
وراء من أذله ، فلا تصل إليه الدعوة إلا من تلك الطريق .

هذه موانع الإصغاء إلى كل دعاء جديد .

أو هذه أعم الموانع التي تحول بين معظم الأسماع والإصغاء إلى ذلك الدعاء .

ومن الحقائق الملحوظة - كما أسلفنا - أن أبا بكر كان براء منها جميعاً ، أو كان كأبرأ الناس منها في عهد الدعوة المحمدية .

فلم يكن متغطرساً ، بل كان مشهوراً بالدعة والتواضع ، مألفاً لقومه كما قال واصفوه « محباً سهلاً ... » وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر ، لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته .

ولم يكن مهتداً في سيادة مضروبة على أعناق الناس ، فكان من ذوي الشرف في قريش ، ولكنه لم يكن من قبائلها الساطية التي تستطيل بالبغي والطغيان . كان من (تيم) وهي بيت قرشي معدود ، ولكنه لم ينسج أبا سفيان أن يقول كما قال لعلي بن أبي طالب يستثيره حين بويع أبو بكر بالخلافة : « ما بال هذا الأمر في أذل قبيلة من قريش وأقلها ؟ » ولم تكن « تيم » أذل قبيلة في قريش كما قال أبو سفيان ، ولكنها على أية حال لم تكن بمقام السطوة والسيادة التي تطمس الضمائر والألباب .

ولم تكن لأبي بكر مصلحة في دوام الجاهلية ، لأن عمله فيها كان ضمان المغارم والديات ، وربما كان هذا العمل أدنى إلى الخسارة منه إلى المنفعة

والغنيمة ، فلا راحة ولا أسف عليه . أما التجارة فلا خوف عليها من الدعوة الجديدة ، وصاحبها الداعي إليها تاجر يبيعها ويزاولها ويحض عليها .

ولم يكن مغلق الذهن ولا وَصَفَهُ أَحَدٌ بهذه الصفة من محبيه أو شائثيه ، بل كان معروف الذكاء يلمح اللحن البعيد فيدركه ويسبق الحاضرين إلى فهمه والفتنة لموضع الإشارة فيه ، كما حدث غير مرة والنبي عليه السلام يتحدث أو يعظ الناس .

ولم يكن مغامساً للشهوات ، بل كان يكره ما شاع منها بين الجاهليين من ذوي الأقدار والأخطار ، فلم يشرب الخمر ولم يركب الدنس ولم يشتر قطبوصمة يعيبه بها من أسرعوا إلى معابته يوم هجر عقيدة الجاهلية وجنح الى عقيدة الاسلام .

ولم تكن عبادة الأوثان عقيدة مكينة السلطان في عهد الدعوة الحمدية ، بل كان أناس يهملونها وأناس يبعثون عن غيرها ، وأناس يؤثرون عليها المسيحية واليهودية ، فلا يصابون بمكروه في أكثر ما سمعنا من أخبار أولئك المتمسحين أو المتهودين .

وعلى هذا لم يكن أبو بكر متعصباً للجاهلية وعباداتها ، بل لعله كان مزدرياً لها مستخفاً بالأصنام وباحلام عابديها ، وإذا صح ما جاء في « أنباء نجباء الأبناء » فهو لم يسجد لصنم قط . وقال « لما ناهزت

الحُلمُ أخذ أبو قحافة بيدي فانطلق بي إلى تخدع فيه الأصنام فقال :
هذه آلهتك الشم العوالي ، وخلاّني وذهب ، فدنوت من الصنم وقلت :
إني جائع فأطعمني فلم يجبني . فقلت : إني عارء فأكسني فلم يجبني .
فالتقيت عليه صخرة فخر لوجهه .

ولم يكن الصديق بالجبان ، ولا بالشجاع الذي نصّيه من الشجاعة
قليل ، بل كانت شجاعته تفوق شجاعة الأبطال المعدودين في الجاهلية
والإسلام فثبت مع النبي في كل وقعة حين ولّى من ولى وأبطأ من أبطأ ،
وغامر بحياته في حروب الردة وله مندوحة عن خوضها ، ولم يُذكر في
أخباره قط خبرٌ نكول أو خوف على حياة ومال ..

ولم يكن شيخاً فانياً متابعاً لكل قديم ، ولا حدثاً صغيراً تطيش به
شرة الشباب حين دعاه محمد إلى دينه وهداه ، بل كان رجلاً ناضجاً
في بسطة الرجولة ، يفقه الأمور ويعتدل بين الصبا الباكر والكهولة
المولية ، ويزن القول بفهم نافذ وحكم صادق ، وعقل راجح يعرف
الترجيح .

تلك جملة الموانع التي تحول بين الإنسان وقبول الدعوات الجديدة إلى
الإصلاح ، وكلها هنا غائبة على الأقل إن لم تقل إن جانب الدواعي في
مكانها أوضح من جانب الموانع ، ومعنى ذلك أن الصديق لم تكن بينه
وبين الإسلام عقبات تصده عن وروده ، وأن طريقه إليه كانت

مهدة مفتوحة يخطو فيها خطواته الأولى فلا يلبث أن يتبعها بخطوات .

على أن الأمر لم يقتصر على قلة الموانع في طريق الصديق إلى الاسلام . فقد كانت هناك الدواعي التي أشرنا إليها في مكان تلك الموانع ، وكانت للصديق خلائق عاملة تقربه من العقائد القويمة ، وتجعله من يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، ولا حاجة به إلى أكثر من ذلك ليفرق بين سنن الجاهلية وسنن الاسلام ، ويميز بين ما هو حقيق بالترك والاعتراض ، وما هو حقيق بالحرص عليه والإيفاض ^(١) إليه .

كان الرجل صادق الطبع مستقيم الضمير ، لا يلتوي به ، عما يعلم أنه الحق ، عوج ولا سوء دخلة ، وعُرف باسم الصديق إذ عرف الناس فيه الصدق من أيام الجاهلية قبل أن يدين بالاسلام ، لأنه كان يضمن المغارم والديات فيصدقونه ويعتمدون على وعده ويركنون إلى وفائه ، وقيل : إنه سمي بالصديق لتصديقه النبي في كل ما أنباه به من المغيبات والبشائر ولكنهم لم يختلفوا في تصديق ضمانه والاعتماد على وعده ، وإن اختلفوا في سبب التسمية وفي ميقاتها من الجاهلية أو الاسلام .

ومن كان على هذا الصدق في الخليفة فلا حجاز بينه وبين دعوة إصلاح ، وليس من شأنه أن يصم أذنيه عن قول صادق ودعاء مستقيم ولا أن يعادي الحق ويلج في عدااته ، شنشنة المكابرين المستكبرين .

١ - الإيفاض؛ الإصرار .

وكان مطبوعاً على الحماسة لما يعتقد فيه الخير والصلاح، يطلب العقيدة، يطلب المعتقدين بها والمهتدين إليها . يبدو ذلك من إسراره إلى التبشير بالإسلام ساعة أن اهتدى إليه ، فدخل في الدين على يديه نخبة من أسبق الصحابة وأخلصهم للنبي عليه السلام وأعظمهم أثراً بعد ذلك في قيام الدولة الإسلامية ، كعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله ، وجعل لا يبدأ ولا يستريح حتى أدخل في دينه أمه وأباه وذويه .

وتبدو حماسه لاعتقاده من إلحاحه على النبي أن يظهر بالمسلمين في نواحي المسجد وهم دون الأربعين عدداً ، ومن قيامه بينهم خطيباً يحجر بالدعوة إلى الله ، والمشركون متربصون ثائرون ، حتى أصابه من ذلك أذى شديد خيف عليه الموت منه ، وتركه المشركون وهم لا يشكون في أنه مات أو أنه مانت عما قريب .

وتبدو هذه الحماسة من اتخاذ مسجداً لصلاته وتلاوته على قارعة الطريق ، يسمعه حين يقرأ كل عابر ، ويتوعده المشركون فلا يفزع من وعيد . ولما جاءه الرجل الذي أجاره من المشركين على أن يكتم إسلامه فخيره بين الكتمان أو رجوع الذمة إليه ، لم يتردد في رد ذمته وقال له : فإني أرد إليك جوارك ، وأرضى بجوار الله عز وجل .

ورجل مطبوع على سماع الحق وتصديقه والدعوة إليه والحماسة له غير عجيب أن يسرع إلى العقيدة الجديدة هذا الإسراع .

وإلى هذا كان قريباً من السليقة الدينية التي تتراعى في مكاشفة الغيب واستطلاع الرؤى والهواتف وانفتاح النفس لإشارات الإيحاء والاستيحاء ، ويُروى عنه أنه رأى قبل البعثة وهو بالشام رؤيا تُنبئ بقرّب ظهور النبوة في البلاد العربية ، ويُعرف عنه على التحقيق أنه كان يعبر الرؤيا بين يدي النبي عليه السلام ويستأذنه في تفسيرها ، ويحتفل هو بما يراه في منامه .

وإلى هذه القربى من الإيمان بالغيب كان لطيف الحسّ خاشع النفس عظيم الرفق والمودة ، لا ترين على قلبه تلك الغلظة التي تغلق أبواب القلوب وإن تفتحت الأذهان ، فكان خشوعه يبيكه وفرحه يبيكه ، وسليقته الدينية كاملة لا يعوزها إلا القبس الذي يلمسها ، فتضيء ثم لا ينطفئ لها ضياء .

وكان مع الصدق وحاسة العقيدة ومقاربة الغيب وموحياته ونجاواه بليغاً متدوقاً للبلاغة ، كثير الرواية للشعر والاسترواح للكلام الحسن الفصيح ، فكان في ازدرائه لكلام المتنبيين غضب تلمح فيه عيفان^(١) الذوق البليغ كما تلمح فيه عيفان المؤمن الناقم على الضلال . سمع فقرات من قرآن مسيلمة الكذاب فما عثم أن ابتدر قارئيه مشمئزاً من سخفه وإسفافه : « ويحكم إن هذا لم يخرج من إل^(٢) ولا بر^(٣) »

١ - العيفان : النفور والكرامية .

٢ - إلّ : العهد والحلف .

ولا جرم يكون هذا النوق المستقيم سبباً قريباً بين صاحبه وبلاغة القرآن وبلاغة النبي عليه السلام.

إلا أن سبب الأسباب جميعاً في التقريب بين الصديق وبين الدعوة الحمديّة هو ذلك السبب الغالب على كل ما ذكرناه ، لأنه يمتزج بأطواء نفسه ويصبغها بصبغته وينحو بها أبداً في منحاه ، ونعني به الإعجاب بالبطولة ، ذلك الإعجاب الذي نحسبه ملاكاً لأخلاقه ومفتاحاً لشخصيته كما فصلناه في غير هذا الباب .

فالرجل المعجب بالبطولة يعرف بطله ، ثم يثق به ، ثم يرتقي بالثقة إلى ما فوقها وما هو أمكن منها ، لأن الثقة استناد إلى وثيقة تدعو إليها على حسب ما فيها من بيناتها وبراهينها ؛ أما الإعجاب فهو الرغبة في الثقة وكراهة التحول عنها ، هو البحث عن الثقة والعقلان إذا وقف الواثقون عند الانتظار ، أو مجرد التامين والموافقة بعد الانتظار .

وقد تواترت أنباء مختلفة بصدقة أبي بكر للنبي عليه السلام قبل الدعوة الحمديّة بسنين ، وذكر المؤرخون الثقات أنه كان معه عليه السلام حين ذهب في صحبة عمه إلى الشام واجتمع بالراهب بحيرا وسمع منه ما سمع عن الدين والبشارة بالنبوة . وقد شك بعض المؤرخين من الأوربيين في اتصال المودة بين الصفيين قبل الدعوة الحمديّة بزمن طويل ، إلا أن الدليل الذي يُغني عن وثائق التاريخ أن أبا بكر كان باتفاق الأقوال أول المستجيبين لدعوة محمد من غير أهله ، ولن يكون ذلك بغير معرفة

سابقة بين الرجلين حببت إلى النبي عليه السلام أن يبدأ به ويترقب منه
الاصغاء إليه ، وأيسر ما يستلزمه ذلك السبق إلى الإسلام أن يكون أبو
بكر معروفاً بصفاته لمحمد وأن يكون محمد معروفاً بصفاته لأبي بكر .
فلما سمع دعوته سارع إلى تصديقه وهو معجب به وباستقامة طبعه ونقاء
سيرته وبلاغة حديثه ، وأعانه على التفرقة بينه وبين خصومه ، والتمييز
بينه وبين منكريه أنه كان نسابة قريش لا يفوته مغز من
مغامزهم قديمها وحديثها في الأنساب والأخلاق ، ومحمد عنده مطهر من كل
ذلك براء .

من جملة ما تقدم تبين لنا سهولة اتجاه الصديق إلى الدعوة المحمدية ،
سواء من ضعف العقبات في طريقه أو من قوة الدواعي التي تجذبه إليه ،
فقد اجتمعت هذه وتلك على تفسير تلك الأعجوبة النادرة في تاريخ
الدعوات الجديدة : أعجوبة رجل في سميت الرجولة يقال له : تعال إلى دين
جديد غير دين آبائك وأجدادك ، فلا يتوانى ولا يتردد في إجابة الدعوة ،
وما هو إلا أن يسمعها حتى يلبسها وينقطع لها ، ويصبح من أقوى دعايتها
بعد صاحبها .

ومن تمام الجلاء في تفسير تلك الأعجوبة أن نفهمها على حقيقتها في
جميع أحوالها وملابساتها ، وأن نفهم الفارق بينها وبين نظائرها لو
جرت في عصرنا الحاضر ، أو في بيئة أخرى غير البيئة التي جرت فيها .

فنحن نسمع بقصة أبي بكر وتصديقه السريع للدعوة المحمدية فنحضر في أخلادنا رجلاً من المسلمين أو المسيحيين أو الاسرائيليين في عصرنا الحاضر يقال له : تعال الى دين غير دينك ودين آبائك وأجدادك فيجيب الداعي لتوّه وساعته كأنها تحية وجوابها .

وهي أعجوبة عندنا يوشك أن ياباها العقل وأن تمتنع على التصديق . ولكن اسلام أبي بكر لم يكن من هذا القبيل ، ولم يكن الدين الذي تحول عنه كالدين الذي يؤمن به المسلم في هذه الأيام .

لم يكن دين المشركين من قريش ديناً من أديان الروح وعقيدة من عقائد الضمير .

لم يكن له شأن بالحياة الصالحة ولا بالحياة الباقية ولا بالنظر الى الكون في أسرار خلقه ولا بالجماعة الانسانية في قوام أمرها ومناط الخير والشر فيها والصلاح والفساد بين رجالها ونساءها .

ولم يكن التابعون له ينظرون إليه هذه النظرة أو ينظرون هذه النظرة الى دين آخر أو عقيدة أخرى .

ولكنهم كانوا ينظرون إلى عقائدهم نظرتهم الى الموروثات المألوفة والعرف المتفق عليه ، أو نظرتهم الى العادات التي ترتبط بها مصالح العيش ومصالح السيادة والجاه ، وكان يعز عليهم أن يقال لهم : إن آباءهم وأجدادهم هالكون ، وإن الدين الذي نشأوا عليه وماتوا دين سخر ومهانة

وضلال . فكانوا في ثورتهم على الدعوة الجديدة أشبه الناس بأبناء القرى والمدن الذين يشيرون على رجل يبتدع في الولائم والأفراح والجنائز بدعة تخالف المألوف وتهدد مصالح الوجهاء أو ما يسمونه «شرف الأسرة» وسير البلدة وعادات الناس ، وتهدد مع تهديدها الوجهاء مصالح العاملين في شئون الزواج وشعائر الوفاة ، وما إلى ذلك من الرسوم والعادات .

وكان المشركون لا يبالون أن يخرج على دينهم من يخرج عليه ناجياً بروحه خالياً بنفسه بينه وبين ربه ، فعاش بينهم اليهود والمسيحيون والمتهودون والمتنصرون وهم في دعة وأمان إلا من أذى الأقارب المخالفين لهم في قليل من الأحيان ، وإنما كانوا يشيرون على الدعوة العامة التي تبدل العرف كله وتُخرج الجماعة من مألوفاتها وقواعدها التي استقرت عليها . فكان الثائرون في وجه الدعوة الحمديّة من مشركي قریش بين رجل من ثلاثة لا يعدوهم إلى رابع : رجل صاحب سيادة تتصل سيادته ببقاء الأمور على ما هي عليه ، ورجل من الأذئاب الذين لا يعقلون ولا يحسون الظلم والفساد ولا يفعلون إلا ما يأمرهم به السادة المسيطرون ، ورجل لم يصغ إلى الدعوة الجديدة حق الإصغاء ، ولم يتسع له الوقت للفرقة بينها وبين العرف القديم .

وما عدا هؤلاء جميعاً فهو قريب من الدعوة الحمديّة لا يمنعه مانع أن يتجه إليها متى أصاب الوجهة التي تهديه في طريقه ، وليس معنى ذلك أن التغلب على العرف الجاهلي كان من الهنات الهيئات أو كان أهون من

التغلب على سائر العقائد والأديان ، فليس أصعب ولا أعضل في الحقيقة من التغلب على عرف ترتبط به مصالح السيادة وغباوة الدهماء وتراث الأجداد والآباء ، وإنما معناه أن الأمر لا يعم جميع المشركين ما لم يكن واحداً من أولئك الثلاثة ، وهم ألوف وألوف .

وأبو بكر رضي الله لم يكن واحداً من هؤلاء .

وكان مع هذا رجلاً يحس بالروح والضمير ، ويحس الخواء الذي تتركه العقائد الجاهلية في حياة الروح والضمير .

وقد عافاه الله من سبب قوي من أسباب الثورة على الدعوة المحمدية بين المشركين المعتزين بالآباء والأمهات ..

« ألي على ضلال ؟ ألي مع الهالكات ؟ » .. تلك خاطرة كانت تهجس في نفس المشرك من قريش فيغضب ويثور ويحسب الدعوة الجديدة في عداد السباب الموجه إلى أقرب الناس وأعزهم عليه .

أما أبو بكر فقد عافاه الله من ذلك في إبان الدعوة المحمدية ، لأنها ظهرت وأبوه وأمه بغير الحياة مفتوح لهما باب النجاة ، فما زال بهما حتى دخلا معه في دينه ، واطمأننت نفسه على أبيه وأمه وبنيه .

وفيما عدا هذا قيل له : دع هذه البقايا الفاسدة وأقبل ومن تحب على دين جديد فيه الخير والصالح والهداية إلى خالق الأرض والسماء .

فَلَمْ لَا يترك تلك البقايا الفاسدة ؟ ولم لَا يقبل على الدين الجديد ؟
إنه لَا يحب بقايا الجاهلية ، وَلَا يربطه بها شُحٌّ وَلَا كبرياء وَلَا ذلة وَلَا
غباء ، وإنه ليفهم ويعقل ويحب الخير والصلاح ويمس في قلبه جيشان
الروح والضمير ، وإن الذي يدعوه لكریم حلیم صادق قويم حبيب إلى
النفس مبراً من العيب يحق له أن يجاب ، وإنه لَا يخاف لأنه شجاع ، وَلَا
يقابل الأمر بفتور المستخيف لأنه رجل حي الفؤاد مطبوع على الحماسة لما
يؤمن به والإعجاب بمن يستحق عنده الإعجاب .

فالعجب أن يُدعى إلى تلك الدعوة فلا يجيبها أسرع ما يكون
الجواب ، وليس العجب أن يسرع إلى إجابتها كما أسرع فاجاب .

وهكذا يبين لنا في إسلام أبي بكر كما بان لنا في إسلام كل رجل ذي
ذي بال من السابقين إلى الدعوة الحمديّة أنها دعيتهم إليها بأسبابها المعقولة
فاستجابوا إليها بأسبابهم المعقولة التي تُوائم كلاً منهم أصدق المواءمة ،
ولا تحوج أحداً من المعلنين والمفسرين إلى الخوارق المكذوبة ، أو إلى
تفسير الأمر بالوعد والوعيد ورغبة الجنة ورهبة السيف .

وكما قلنا في كتابنا « عبقرية محمد » إن الأقوياء لم يُسلموا خوفاً
لأنهم أقوياء ، وإن الضعفاء لم يُسلموا خوفاً لأن الإسلام عرضهم للقتل
والعذاب ولسيوف المشركين الذين لهم عليهم سيادة وطغيان ، « وما كفر
الذين كفروا الزهد ولا شجاعة فيقال : إن الذين سبقوهم إلى الإسلام
قد فعلوا ذلك لشغف بلذات الجنة وجبن عن مواجهة القوة ، ولكنهم

اختلفوا حيث تطلب طهارة السيرة وصلاح الأمور . فمن كان أقرب إلى هذه الطلبة من غني أو فقير ومن سيد أو مستعبد فقد أسلم . ومن كان به زيغ عنها فقد أبى ، وهذا هو الفاصل القائم بين الفريقين قبل أن يتجرد للإسلام سيف يذود عنه ، وبعد أن تجرد له سيف تهابه السيوف ، وما يقسم الطائفتين أحد فيضع أبا بكر وعمر وعثمان في جانب اللذة والخوف ، ويضع الطغاة من قريش في جانب العصمة والشجاعة إلا أن يكون له هوى كهوى الكفار ...

* * *

كان الصديق إذن أول رجل من شرفاء العرب دان بالإسلام بعد نبه عليه السلام . دان به سريعاً إلى دعوته لتلك الأسباب التي تليق به وتليق بالدعوة المحمدية ، وكتب له في اللحظة الأولى أن يكون ثاني اثنين حين يكون النبي هو أول الاثنين . فكان ثاني اثنين في الإسلام ، وثاني اثنين في غار الهجرة ، وثاني اثنين في الظلة التي أوى إليها النبي يوم بدر الذي لا يوم مثله ، وثاني اثنين في كل وقعة من الوقعات بين المسلمين والمشركين ، وأقرب صاحب إلى النبي في شدة الإسلام ورخائه ، وفي سره وجهه ، وفي شئون نفسه وشئون المسلمين .

ومن اللحظة الأولى وهب للإسلام كل ما يملك إنسان أن يهب من نفسه وآله وبنه . فأخذ أمه إلى النبي لتسلم على يديه وهي بين الحياة والموت ، وجاءه بأبيه بعد فتح مكة ليسلم على يديه وقد جلّله الشيب

وابيض رأسه كأنه ثَغَامَةٌ^(١) ، وحمل ماله كله وهو يهاجر في صحبة النبي
يؤثر به الدين على الآل والبنين .

والروايات في توجيه الدعوة إليه مختلفات : منها ما يؤخذ منه أن النبي
عليه السلام وجه الدعوة إليه خاصة فلباها ، ومنها ما يؤخذ منه أنه عليه
السلام قصد الناس في المسجد بالدعوة العامة فاتصل نبؤها بأبي بكر فجاءه
يسأله :

يا أبا القاسم ! ما الذي بلغني عنك ؟

فسأله النبي : وما بلغك عني يا أبا بكر ؟

قال : بلغني أنك تدعو إلى توحيد الله ، وزعمت أنك رسول الله .

قال : نعم يا أبا بكر . إن ربي جعلني بشيراً ونذيراً ، وجعلني دعوة
إبراهيم ، وأرسلني إلى الناس جميعاً .

فما أبطأ أبو بكر أن قال : والله ما جربت عليك كذباً وإنك لخليق
بالرسالة لعظم أمانتك ، وصلتك لرحمك وحسن فعالك . مُدَّ يَدُكَ فَإِنِّي
مبايعك .

والصدق والأمانة وصلة الرحم وحسن الفعال صفات يفهمها أبو بكر
لأنه يحبها ويتصف بها ويحب أهلها . فهو صادق أمين رحيم حسن الفعال ،

١ — الثغامة : نبت جبلي ورقه كورق الزنجبيل ، إذا يبس شبه الشيب به .

وتلك أقرب الآيات إلى لُبِّه وقلبه ، وهي أولى الآيات بالتصديق عند الصادقين المصدقين ، فمن الجائز أن نخدعنا الخوارق وليس من الجائز أن نخدعنا من يصدق ويبر ويؤدي الأمانة ، ويستقيم على سواء الطريق في فعالة وخصاله .

وأصبح الإسلام منذ تلك اللحظة ديناً عند أبي بكر يقابل الدنيا بما وسعت من خيرات وطيبات . أصبح عنده غنيمة يفتديها بكل غنيمة يضمن بها المرء من حياة أو آل أو ذرية ومال ، ولو قاسه بمقياس دنيا . لقد كان الإسلام بليّة عليه لا يطلبها عاقل ، ولكنه قاسه بمقياس دين فعلم أنه أربح الراجين وأرشد الراشدين .

طلبه ديناً وكفى . فصبر فيه على ما يجزع منه طالب الدنيا ، ويأبى أن يستهدف له أو يشارفه من بعيد .

كان المسلمون دون الأربعين يوم أشار على النبي أن يجتمعوا في المسجد ويجهروا بالدعاء . فلما وقف بينهم في المسجد يدعو إلى الله ورسوله وثب عليهم المشركون يضربونهم ويؤذونهم ويوسعونهم إهانة مع الضرب والإيذاء ، وتصدى عتبة بن أبي ربيعة لأبي بكر فجعل يضربه بنعلين مخصوفين حتى ورم وجهه ، وخفي على الناظر إليه مكان أنفه . وتسامع أهله من بني تيم فاقبلوا يتعادون ويحلون المشركين عنه . ثم حملوه في ثوب إلى بيته وما يشكون في موته . وصاح منهم صائحون في المسجد : والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة .

ثم أحاطوا به يكلمونه حتى أفاق وأجاب ، فكان أول ما فاه به وهو
في تلك الحال : ما فعل رسول الله ؟

فلاموه وعنفوه ، وسألوا أمه أن تطعمه أو تسقيه شيئاً يرد إليه نفسه
فأبى أن يأكل أو يشرب حتى يعلم ما فعل رسول الله .

قالت : والله ما أعلم بصاحبك .

قال : فاذهبي إلى بنت الخطاب فاسأليها عنه .

فلما جاءت أُنكرتها وأشفقت أن تكون عيناً من عيون المشركين
عليها وعلى رسول الله . فقالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله ! .
ثم عرضت عليها أن تذهب إلى أبي بكر لتسمع منه وتطمئن إلى مقاله .
فوجدته صريعاً دَنيقاً قد برَّح به الألم ، فغلبها الإشفاق فأعلنت بالصياح
وهي تقول : إن قوماً نالوا منك لأهل فسق . وإني لأرجو أن ينتقم
الله لك .

فما زاد على أن كرر سؤاله الذي لزمه مذ أفاق من غشيته : ما فعل
رسول الله ؟

قالت وهي لا تزال حذيرة من أمه : هذه أمك تسمع !

قال : لا عين عليك منها .

قالت : سالم صالح !

فلم يكفه ذلك حتى يراه بعينه ، وسألها : أنسى هو ؟ .. فاعلمته بمكانه

من دار الأرقم بن أبي الأرقم ، وأحب أن يذهب إليه ، وكأنه أحس من أمه ممانعة في خروجه وهو بتلك الحال ، حتى يتبلغ بشيء ويدوق شراباً يرويه ويقويه ، فاقسم لا يدوقن طعاماً ولا شراباً أو يرى رسول الله .

وأكبرت المرأتان العطوفان حبه لصديقه ونبيه ، فامهلتاه حتى هدأت الرجل وسكن الناس ، وخرجتا به يتكئ عليهما ولا يقدر على حمل نفسه . ثم دخلتا به على رسول الله وهو بتلك الحالة فانكب عليه يقبله ، ورق الرسول لصديقه وصفيه رقة شديدة ، فقال الصديق الصفي : بأبي أنت وأمي ! ليس بي إلا ما نال الفاسق من وجهي ، وهذه أُمِّي برة بوالديها فادعها إلى الله ! وادع لها عسى أن يستبقن هذا بك من النار .

ولبت بين المشركين يستهين بالخطر على نفسه ، ولا يستهين بخطر يصيب النبي قل أو كثر حيثما رآه واستطاع أن يزود عنه العادين عليه ، وإنه ليراهم آخذين بتلابيبه فيدخل بينهم وبينه وهو يصيح بهم : « ويلكم ، أقتتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ » فينصرفون عن النبي وينحون عليه يضرّبونه ويحذّبونه من شعره فلا يدعونه إلا وهو صديع .

ولما أذن له النبي في الهجرة إلى الحبشة بعد ما ابتلي به من عنت المشركين غضب لرحلته الأكرمون من القوم ولحق به ربيعة بن فهيم المعروف بابن الدغنة فقال له : إن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يُخرج . إنك تُكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فانا لك جار . ارجع واعبد ربك ببلدك .

وطاف ابن الدُّغْنَةِ عشية في أشراف قريش يبلغهم أنه أجار أبا بكر
فعرفوا له جواره وقالوا له : مره فليعبد ربه في داره يصلي فيها ويقرأ ما
يشاء ، ولا يؤذينا ولا يستعلن به ، فإننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا .

إلا أن أبا بكر بنى بفناء الدار مسجداً يصلي فيه ويرتل القرآن ،
ويستمع له النساء والأطفال فيجتمعون إليه . منهم من يسخر ومنهم من
يعجب ويسأل عن الخبر . ففرع المشركون وطلبوا إلى ابن الدغنة أن
ينهاه أو يسترد منه ذمته ، فأبى أبو بكر أن ينتهي عن الجهر بالصلاة
والقراءة ، وقال لابن الدغنة : فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار
الله عز وجل !

وبقي بمكة طوال مقامه بها يعمل لدينه ولنبيه ولا يعمل لنفسه إلا
ما ليس عنه غنى من طلب المعاش ، يدعو وجوه الناس ويعرض الأمر
على القبائل ، ويُغني في الدعوة بصلاح سيرته ورجاحة قدره ويقين الناس
باستقامة قصده ، ما قل أن يغنيه دليل العقل أو نقاش الجدل والملاحاة .
وكان يتعرض للأذى فلا يعنيه أن يتقيه كما يعنيه أن يُقيَّ منه النبي
وسائر المسلمين . فكان يُعين الفقراء ويُعتق الموالى الذين يسامون العذاب
في سبيل الله ، أو يحمل المغارم ويهيئ لمن أراد الهجرة وسائلها ،
ولا يكون عمل من الأعمال ينفع الدين الجديد وينفع أهله إلا وله
سهم فيه .

ثم كانت هجرته إلى المدينة فكانت أخطر هجرة أقدم عليها مسلم

من أهل مكة . إذ كان كفار قريش يقيمون لكل مهاجر من الأرصاد والعيون كَفَاءَ قدره ، وكانت أرصادهم وعيونهم على النبي أكثر ما استطاعوا من عدة وكيد وحيلة . فكانت الهجرة في صحبة النبي شرفاً من شرفين ، لا يدري المرجح بينها أيها أحق بالإعظام : إما مجازفة بالحياة ، وإما يقين لا يخامرهِ الريب أن النبي ناج في حاية ربه ، ولو كان في الهجرة ما فيها من فراق الوطن أو الهجوم على فراق أَرَهَب منه وأقسى ، وهو فراق الدنيا .

فتلقى أبو بكر الإذن بهذه الهجرة كما يتلقى البشارة بالسلامة . قالت بنته عائشة رضي الله عنها : « ما شعرت قبل ذلك أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي حين أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصحبته » .

وقالت بنته أسماء رضي الله عنها : « لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهاجر أبو بكر معه احتمل أبو بكر ماله كله خمسة آلاف درهم أو ستة . فدخل علينا جدي أبو قحافة وقد ذهب بصره . وقال : والله إنني لأراه قد فجعكم بماله كما فجعكم بنفسه . قلت : كلا يا أبت ، إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً ، وأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة البيت الذي كان أبي يضع فيه ماله ، ثم وضعت عليها ثوباً ، ثم أخذت بيده وقلت : يا أبت ، ضع يدك على هذا المال . فوضع يده عليه وقال : لا بأس إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكم . ولا والله ما ترك لنا

شيئاً ، ولكنني أردت أن أسكن الشيخ .

وكذلك أقبل الصديق على الإسلام وهو عالم بالذي هو مقبل عليه .
لم يقل له أحد ولا قال هو لنفسه إن الأمر أهون مما توقع ، وإن البلاء
بعقيدته التي تحول إليها أخف مما وجد ، فلم يجد نصيباً وكان يرجو الراحة ،
ولم يجد غرماً وكان يرجو المنفعة ، ولم يجد عداء من قومه وكان يرجو
منهم المودة ، ولم يجد خطراً وكان يرجو السلامة ، وإنما دخل في شيء
يتوقع ما هو ملاقيه فيه ، ويراها دون حقه من الصابرة والحفاظ
والاحتمال ؛ لأنه الدين . لأنه الحياة الفانية والحياة الباقية . لأنه الحق ودونه
الباطل ، والهدى ودونه الضلال .

فما أقبل إنسان قط أصدق من هذا الإقبال ، وما تأهب إنسان قط
لبلاء في سبيل ضميره وربّه أعظم من هذه الأهبة ، وما نفّس الصديق عند
إنسان قط أغلى من هذه النفاسة . فهي سلامة النفس وسلامة الآباء والأبناء
وسلامة المال والعتاد وسلامة الدنيا بأسرها يعلقها بكلمة صدق من رجل
صادق ، وإن أناساً ليصدقون غاية التصديق ثم لا يخاطرون في سبيل
الصدق برزق يوم ولا براحة ساعة .

إنه الصديق .

وما وصف بكلمة واحدة هي أجمع لخلائقه من كلمة الصديق .

ولقد رأينا أناساً من الناقدين يستنكرون على عربي في الجاهلية أن .
يَقوم الهداية الدينية بهذه القيمة التي لا تعلوها قيمة .
ولكنهم مخطئون .

لأن العربي الجاهلي عرف « الحق » وعرف بيع الحياة في سبيل
« الحق » كما يراه : حق الجوار أو حق العرض أو حق الشرف والذمار .

وأبو بكر خاصة كان ممن يرعون الحقوق ويكفلونها لأهلها ، وكان
ممن يكرهون البغي وينقمونه على أهله .

فإذا عرف « الحق » الأكبر فغير عجيب أن يرعاه هذه الرعاية وأن
يكفله هذه الكفالة ، ، وهو مهيا ليعرف أنه بكرم الخليفة وطيب النخبة
واستقامة الفطرة وصفاء القرينة .

وقد عاش أبو بكر في زمن كان عقلاؤه في كل أرض يتطلعون إلى
هداية من السماء ، ويخيل إلينا أن انتظار الهداية من السماء لم يطل في زمن
من الأزمان ، ولا سيما الزمن الذي يعم فيه الفساد وتعيأ به حيلة الإنسان ،
وحسبنا أننا بعد الإسلام رأينا أناساً يترقبون « المهدي » الذي ينشر العدل
كلما عم الجور ، ويأمر بالعرف كلما فشا المنكر ، ويهدي إلى سواء السبيل
كلما استحكم الضلال .

وقبل البعثة المحمدية كان أناس ينتظرون الهدى من نسل داود أو
ينتظرونه من نسل إسماعيل بن إبراهيم .

وسمع أبو بكر ما سمع من هذا في رحلته إلى اليمن ، ورحلته إلى الشام ، وفي حديثه مع وَرَقَةَ بن نَوْفَل ، وحديثه مع المتكرين لظلام الجاهلية والمستشرقين إلى كل نور جديد .

وهذا محمد بن عبدالله يدعوه دعوة إبراهيم: دعوة الأب الأكبر الذي يشمل العرب جميعاً ، ومن فوقها دعوة الله التي تعم جميع الناس .

فَمَنْ أَوْلَى مِنْهُ بالدعوة ، ومن أَوْلَى مِنْهُ بالتصديق ؟

إنه استشارُ خُلُقَه القويم فهداه ، وإن مشورة العقل وحدها لتهديه هذه الهداية ، حيثما وازن وقابل فأحسن الموازنة والمقابلة بين جميع ما ينتظم فيها من شئون ذلك الزمان .

كان أبو بكر في اهتدائه إلى الإسلام هو أبو بكر في نشأته وسليقته وجملة أحواله وأحوال قومه وعهده .

وكان أبو بكر في إسلامه هو أبو بكر فيما وصف به وفيما جد عليه من إيمان المصدق بدينه ، وحاسة المعجب ببطله .

كان إسلامه إسلام الرجل الكريم السمع الودود . يستمسك بالصدق والتصديق ويُخلص في الإعجاب بالبطل الذي هداه إخلاصاً لاشيَّة فيه . فهو يلين في كل حالة ويشتد في حالة واحدة هو فيها أشد الأشداء : مرجعها إلى كل ما اتصل عنده بقوة التصديق وقوة الإعجاب .

قال بعد مبايعته بالخلافة : « إنما أنا متَّبِعٌ ولست بمتَّبِعٍ » فجمع إسلامه أجمع صفة وأحسنها في هذه الكلمات .

وربما عرض له من الأمر ما ليس يتضح فيه طريق الاتباع ، فيخرج إلى الناس يسألهم ثم يقول : « الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ علينا سنة نبينا » .

فلا يبتدع إلا بعد استقصائه كل مرجع من مراجع الاتباع .
وفي هذا هو شديد غاية الشدة ، بعيد من اللين والموادة غاية البعد ، وهو الرجل الذى اتسم في حياته كلها باللين والموادة .

فتصديق المؤمن وإعجاب المعجب ببطله العزيز عليه ، هما تفسير كل شدة يشتهاها الصديق الحليم الودود .

هو شديد في تسيير جيش أسامة لأن النبي عليه السلام ولاه وأمر بتسييره ، وما يكون له أن ينزع رجلاً استعمله رسول الله « ولو تخطفته الذئاب ولم يبق في القرى أحد غيره » .

وهو شديد في حرب الردة ، لأنه لا يترك عقالا كان رسول الله يأخذه من المرتدين .

وإذا رأيناه يتردد بين الموادة والشدة في محاسبة بعض الناس فالشدة التي مرجعها التزام جادة الرسول والاقتداء بقدوته في كل شيء هي أقرب

التفسيرين إلى فهم عمله ، وهي أغلب في طبعه من اللين والهوادة ، على
اشتهاره بها في كل ما عدا ذلك .

فالهوادة ليست هي التي تفسر لنا عمله في ترك جزاء خالد بن الوليد
على البناء بامرأة مالك بن نويرة ، والبناء بينت مجاعة في حرب بني
حنيفة ، وتوزيع الأموال وتأخير الحساب ، وإنما الذي يفسر لنا هوادته
معه أنه سيف من سيوف الله ، ولا يعزل أبوبكر من استعمله الرسول
وله مندوحة عن عزله .

ويتبين لنا مناط الشدة واللين عنده في جناية واحدة استصغر فيها
العقوبة على امرأة واستكبر العقوبة نفسها على امرأة أخرى ، وذلك إذ
كتب إليه المهاجر بن أبي أمية الخزومي يقول له : إن مغنيتين تغنت
إحداهما بثلث رسول الله ، وتغنت الأخرى بثلث المسلمين ، فقطع يديهما
وترع ثناياهما لتكفا عن الغناء . فخطاه أبو بكر لأن الأولى كانت أحق بالقتل ،
وأن الثانية كانت أحق بالصفح . . . وأوصاه أن يقبل الدعة وأن يحذر
المثلة « فإنها ماثم ومُنْقَرَة إلا في قصاص » .

ففي تعظيم النبي كل شدة قليلة ، وفي أمر غيره كل صفح جائز بل
مستحب محمود ، وليست هي المحبة التي يعوزها التفكير قد فرقت هذه
التفرقة بين العقابين ، لأن هجو النبي قدح في لباب الدين وأُسّ النظام ،
وهجو المسلمين وزر قد يأتيه المسلم في خلاف بينه وبين قومه ، ولكنها
على هذا حادثة قد عرضت لنا طبع أي بكر في حالتيه : لين وهوادة ،

وإعظام لا لين فيه ولا هوادة ، وإنما هي الشدة كأشد ما تكون .

* * *

وربما تهيب الأمر فيه نفع لا شك فيه إذا لم يسبقه النبي عليه السلام إلى صنعه أو صنع مثله ، لفرط اتقائه أن يصنع ما ترك أو يترك ما صنع ، كما تهيب جمع القرآن في المصحف حين أشار به عمر ، فقال : « كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ » ثم استصوب جمعه لما فيه من خير .

فساحة أبي بكر كانت طبيعة فيه لأنه طبع على الرفق والأناة والأخذ بالحليطة واستبقاء المودة .

وشدة أبي بكر كانت طبيعة فيه ، لأنه طبع على تصديق من هو أهل لتصديقه ، والإعجاب بمن هو أهل لإعجابه ، ولن ترى شدة في إنسان كشدة الرجل السمح في تنزيه صفيه وحبيبه وموضع إعجابه ، ولا حرصاً في إنسان كحرصه على القدوة بذلك الصفي الحبيب المعجب به ، واجتناب التخلف عنه والحيد عن طريقه

وفما عدا هذه الشدة لم يكن أبو بكر إلا حلماً غالباً ورحمة غالبية ؛ ولم تنفرج أمامه طريقان : إحداهما إلى العفو ، والأخرى إلى البطش إلا أخذ بالأولى وأعرض عن الثانية .

شاورة النبي عليه السلام في أسرى بدر فقال : « يا نبي الله ؛ هؤلاء بنو

العم والعشيرة والإخوان ، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذنا منهم قوة، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عَضْداً .

وشاوره حين اجتمعت قريش لصدّه وصد المسلمين عن البيت فنادى بالناس : « أشيروا أيها الناس عليّ . أترون أن أميل إلى عيالههم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت ، فإن فاتونا كان الله قد قطع علينا من المشركين ، وإلا تركناهم محروبين ؟ »

فقال أبو بكر : « يا رسول الله ؛ خرجت عامداً لهذا البيت ، لا تريد قتال أحد ولا حرباً ، فتوجّه له فن صدنا قاتلناه يقاتل من صدّه عن البيت ولا يقاتل من لم يصدّه .

وشيع جيش أسامة فلم ينس أن يوصيه بالضعفاء وهو ذاهب إلى القتال : « لا تخونوا ولا تغلّوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبجوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لما كلة . وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا . اندفعوا باسم الله » .

وليس أكثر من الشواهد التي تشهدنا على قوة الدين في نفوس من

آمن به . إلا أننا لا نعلم بينها شاهداً أصدق في الدلالة على تلك القوة من من أن يدين المرء نفسه بالدين أمام أعدائه ، كما يدينها به أمام إخوانه في اعتقاده . ومن شواهد ذلك في إسلام الصديق أنه كره المثلثة بأعدى الأعداء في ميدان القتال ، فلما بعث إليه عمرو بن العاص برأس بُنان بطريق الشام أنكر فعله أشد إنكار ، ولم يخفف من إنكاره قول عقبة بن عامر له : إنهم يصنعون ذلك بناء ، بل قال : أَيْسْتُنُون بفراس والروم ؟ لا يحمل إليّ رأس . إنما يكفي الكتاب والخبر .

فهو مسلم مع من يحب ومع من يكره ولو في قتال . وهذا بلاغ الدين القويم في نفس إنسان .

وهكذا كان مسلكه مع إخوانه وأعدائه ، وفي لينه وشدته ، وفي مفترق كل طريقين : إحداها إلى الشدة وأخرها إلى اللين . فقال النبي عليه السلام يصفه ويصف عمر : « .. إن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال : فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال : إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » ... و « إن مثلك يا عمر مثل نوح قال : رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . ومثلك مثل موسى قال : ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » .

ولم يكن عمل من أعماله في قضاء حقوق دينه وآداء فرائضه إلا يدل

على هذه الخليقة التي اتصف بها في جملة حياته الإسلامية ، وهي المبادرة في كل ما فيه قدوة بالنبي عليه السلام ، والأخذ بالحليطة في كل ما يحتمل التعجيل والتأجيل .

سأله النبي : متى توتر ؟ قال : من أول الليل .

وسأل عمر ، متى توتر ؟ قال : من آخر الليل .

فقال لأبي بكر : أخذت بالحزم ، وقال لعمر : أخذت بالعزم .

وصلاة الوتر كما لا يخفى تقضى من بعد العشاء إلى ما قبل الفجر ، ويرى بعض الأئمة أنها فريضة ، ويرى بعضهم أنها سنة يقتدى فيها بالنبي .

فأبو بكر يبادر إلى أدائها ويأخذ بالحليطة مخافة أن يفوته أوانها إذا أجزلها ، وعمر الشديد على نفسه الوائق من عزيمته يعلم أنها لن تفوته وأنه لن يغلبه عليها غالب من النوم ، فيؤجلها إلى ما قبل الفجر ، وهو وائق من أدائها في أوانها .

لهذا قال النبي لأبي بكر : إنه أخذ بالحزم وهو الاحوط ، وقال لعمر إنه أخذ بالعزم وهو الأقوى ، وعرف صاحبيه في هذه الفارقة الصغيرة كما عرفهما في كبار الأمور وصغارها .

وإن العقيدة التي تتسع لهذين الرجلين ولهذين الخلقين ولهذين العقلين ، ثم يكون كلاهما إماماً فيها عظيماً في اتباعها ، فهي عقيدة تتسع لكثير .

الصِّدِّيقُ والدَّوْلَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ

قلنا في كتابنا « عبقرية عمر » إن الدولة الإسلامية « تأسست في خلافة أبي بكر رضي الله عنه لأنه وطَّد العقيدة وسيرَّ البعوث . فشرع السنة الصالحة في توطيد العقيدة بين العرب بما صنعه في حرب الردة ، وشرع السنة الصالحة في تأمين الدولة من أعدائها بتسيير البعوث وفتح الفتوح . فكان له السبق على خلفاء الإسلام في هذين العملين الجليلين » .

« إلا أننا نسمي عمر مؤسساً للدولة الإسلامية بمعنى آخر غير معنى السبق في أعمال الخلافة . لأننا « أولاً » لا نجد مكاناً في التاريخ أليق به من مكان المؤسسين للدول العظام ، ولأننا من جهة أخرى لا نربط بين التأسيس وولاية الخلافة في إقامة دولة كالدولة الإسلامية ، إذ الشأن الأول فيها للعقيدة التي تقوم عليها وليس للتوسع في الغزوات والفتوح . وعمر كان على نحو من الأنحاء مؤسساً لدولة الإسلام قبل ولايته الخلافة بسنين ، بل كان مؤسساً لها منذ أسلم فجهر بدعوة الإسلام وأذانه وأعزها بهيبته وعنفوانه ... »

إلى أن قلنا « ... إنه كان في يوم إسلامه آخذاً في تشييد هذا البناء الذي تركه وهو بين دول العالم أرسخ بناء » .

والذي قلناه عن عمر في تأسيسه بناء الدولة الإسلامية قبل خلافته يصدق على أبي بكر بهذا المعنى منديوم إسلامه قبل سائر الصحابة وسائر الخلفاء .

ويكفي من ذلك أن نذكر الذين أسلموا على يديه من عظماء القوم وضعفائهم على السواء . فقد كان لإسلامه أثر بالغ بين السادة ، كما كان له أثر بالغ بين العبيد والأتباع ، وما هو إلا أن علم الوجوه والعليّة من فضلاء قريش أن أبا بكر رضي الإسلام ديناً حتى كان للقدوة به حجة عندهم أقوى من حجة البيان والإقناع : إن الدين الذي يرتضيه رجل كأبي بكر في مروءته وصلاحه وشرفه واستغنائه واستقامته قصده وسلامته صدره لدين جدير بالاستماع إليه والنظر في دعوته ، وإن النظر في دعوته وفيما بينها وبين العقائد الجاهلية من البؤس الشاسع لكاف وحده لكسب القلوب وتحويل الأذهان ، ولا سيما عند من خلا من الغرض في دوام العقائد الجاهلية وإخباط الدعوة الجديدة أو كل دعوة جديدة كائنات ما كان حظها من الخير والفلاح .

فأسلم على يديه رهط من أكبر السادة وأكبر القادة في الإسلام ، أسلم على يديه عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص ، وعثمان بن مظعون ، وأبو عبيدة بن الجراح ،

وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عبد الأسد أبو سلمة، وخالد بن سعيد، ومنهم من أسلم وهو يفع أو شاب ناشئ كسعد والزبير ، فكانا فتوة الإسلام حين جد الجدل واشتدت بهواعده بسواعده فتياه الأبرار .

واشترى نفرًا من العبيد المرهقين : منهم بلال بن رباح مؤذن النبي عليه السلام . وكان سيده يخرج في حمارة القبط فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ويلقي بصخرة عظيمة على صلبه ويدعه وهو يقول : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد . فلا يزيد على أن يقول : أحد . أحد ، ويردها حتى يوشك أن يغيب عن وعيه من ألم العذاب . اشتراه أبو بكر أو استبدله بما يساوي خمس أواق ذهباً فقيل له : لو أبيت إلا أوقية لبغناك ! وقال : ولو أبيت إلا مائة أوقية لأخذته ، ومضى في شراء العبيد والإماء بما يطلبه سادتهم من ثمن يغالون فيه ليعجزوه ويدخلوا الندم على نفسه ، وهو لا يبالي ما يبذل من ماله وجهده لينقذ أولئك المساكين من أيدي المشركين ويريحهم من قسوة السادة المتجبرين . فكان كسبه لقلوب الضعفاء أربح للإسلام وأجدر بسماعته ورحمته من كسبه قلوب العلية الأعلام ، وأبلغ في التدين والفضيلة من إقناع بنافذ الحجة وإبلاغ بصادق الكلام . ولعل الدعوة الجديدة كسبت بين الأمم بهذه الرحمة أضعاف ما كسبته بهداية الشرفاء الذين اقتدوا به وذهبوا إلى النبي من طريقه .

ولم يزل في كل عمل من أعماله منذ أسلم إلى أن تولى الخلافة مؤسساً لهذا البناء الشامخ الذي كان هو أول من قام عليه بعد بانيه . فالدعوة

الصريحة إلى الإسلام في المسجد بمسمع من قريش ، والهجرة مع النبي من داره ، وبذل المال في البعوث وغير البعوث ، وتيسير القدوة للمقتدين بإسراعه إلى التلبية والتصديق كلما التبس الأمر واضطربت الأفكار ، ومحاربتة قريشاً بعلمه وإطلاعه على الأنساب كما حاربهم بهاله وسلاحه ومشورته ورأيه - بل كل ما عمل منذ أسلم إلى أن تولى الخلافة ، فهو في جملته ركن من أركان الدولة الإسلامية يجعله بالحق مؤسساً لها مشاركاً في بنائها ، بسلطان العقيدة قبل سلطان الحكومة والكلمة المسموعة .

* * *

ثم كانت البيعة بالخلافة . .

وكانت بعثة أسامة بن زيد ، وكانت حروب الردة ، وكانت بعوث العراق والشام ، فقام على هذه المآثر الثلاث التي لا يقضي حقها من الإكبار كل ما قام بعد ذلك من بناء .

بعثة أسامة وما بعثة أسامة ؟ ... يستصغرها بعض المؤرخين المحدثين ويقولون إنها من نوافل البعثات ، لأنها بدأت وانتهت بغير فتح وبغير رة وبغير حظ كبير من الغنائم تلجئ إليه ضرورة من الضرورات .
ولأنهم لخطئون .

وإن الصديق لعلى صواب .

ولقد يكون في صوابه إلهام أو تكون فيه روية وقصد مرسوم ،

ولكنه سداد على كل حال ، ووجهة قوية هي أدنى الوجهتين إلى النفع والصالح .

بعثة أسامة كانت العنوان الأول لسياسة عامة في الدولة الإسلامية هي في ذلك الحين خير السياسات .

كان قوامها كله طاعة ما أمر به رسول الله .

وكانت الطاعة - جد الطاعة - مناط السلامة وعصمة المعتصمين من الخطأ الأكبر في ذلك الحين .

وحيث يكون التمرد هو الخطأ الأكبر فالطاعة - بل الطاعة الصارمة - هي العصمة التي ليس من ورائها اعتصام .

وقد كان التمرد هو الخطر الأكبر في ذلك الحين لا مراء :

كان النفاق يُطلع رأسه في مكة والمدينة ، وكانت القبائل البادية تتسابق إلى الردّة في أنحاء الجزيرة ، وكان جند أسامة نفسه يودلو استبدل به أميراً غيره ، وكان أسامة أول من يشك في طاعة القوم إياه ويترقب أن يخلفه على البعثة أمير سواه .

تمرد ، أو نذير بتمرد ، في كل مكان .

وطاعة واجبة هنا حيث نبع التمرد ، أو لا سبيل إلى واجب بعد ذلك يطاع .

طاعة أو لا شيء .

فإن بقيت الطاعة فقد بقي كل شيء .
وهنا تسعف الصديق طبيعة هي أعمق الطبائع فيه ، أو هي العبقورية
الصدّيقية في أوانها ، وعلى أحسن حال تكون .
هنا تسعفه القدوة القويمة بالبطل المحبوب .
وهنا يقول وقد خوفه الخطر على المدينة والجيش يفارقها :
« والله لا أحلّ عقدة عقدها رسول الله ! ولو أن الطير تخطفتنا ،
والسباع من حول المدينة ، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين
لأجهزنّ جيش أسامة ! »
كلمة لو قالها غير أبي بكر لكانت كبيرة ، ولكن الذي يقولها أبو
بكر وبنته أعز أمهات المؤمنين .
فلا خطر إذن أكبر من خطر الاجترار على حق الطاعة في تلك
الآونة ، ولو جرت الكلاب بأرجل البنات والأمهات .
ومن المؤرخين المحدثين من قال ما فحواه : إن بعثة أسامة إنما
أرسلت ثاراً لأبيه زيد الذي قتل في معركة مؤتة ، وإن قاتله في تلك
المعركة قدم مات لتوه ، أفما كان إرجاء البعثة من المستطاع وقد أدرك
ثار القائد القتيل ؟
ومن المهاجرين والأنصار من كان يرى الرأي في بقاء البعثة بالمدينة
بعد موت النبي عليه السلام ، وفي مقدمتهم أسامة .
ومنهم من كان يرى أن يتقدم للقيادة من هو أسنّ منه وأخبر

بفنون القتال ، ومنهم عمر بن الخطاب .

أما أبو بكر فقد رأى العصمة - حق العصمة - في رأي واحد لا رأي قبله ولا بعدها ، وهو الطاعة في غير ليّ ولا هوادة ولا إبطاء ، ولو لم يكن التمرد هو الآفة المحذورة في تلك الآونة لقد كان غير الرأي أصوب ، ولكنه كان آفتها التي لا آفة مثلها ، ثم لا خطر إن سلمت الدولة من شرها ، فلتكن الطاعة إذن هي الصواب ، وهي الملاذ . وقد ضرب المثل الأول في الطاعة التي أرادها . فشيّع البعثة وهو ماش على قدميه وعبد الرحمن بن عوف يقود دابته بجواره . فقال أسامة : يا خليفة رسول الله . والله لتركبن أو لآتزلن . فقال : والله لا تنزل ، والله لا أركب . وما عليّ أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة .

ثم استأذن أسامة قائلاً : إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل ، فعاد عمر بإذنه : بإذن القائد الذي هو في مقام الطاعة هناك ، حتى على الخليفة وعلى أكبر الصحابة من بعده .

ثم قال لأسامة : اصنع ما أمرك به رسول الله صلى الله عليه وسلم ... ولا تقصرن في شيء من أمر رسول الله

أفكان المؤرخون المحدثون على صواب في أمر هذه البعثة حين قالوا إنها من النوافل بعدمقتل القاتل لزيد أبي أسامة ؟

لإنهم لعلّ خطأ في كل تقدير قدره ولو جاريناهم فحصرنا أغراض البعثة في ذلك الغرض الوحيد ، لأن مقتل قائد في معركة ليس بالجريمة

الفردية التي يعاقب عليها القاتل وحده ، وإنما المسألة هنا مسألة الجيش كله ، وهيبة الأمة التي أرسلت ذلك الجيش وتمثلت فيه بقوتها ومناعة حوزتها ، فإن لم يقع في روع الأعداء المقاتلين أن ذلك الجيش قوة تهاب وتنال حقها من الثار فقد بطل الغرض كله من القتال .

وفي هذه البعثة بعينها ، ماذا كان يحدث لو أن قبائل غسان وقضاعة استضعفت شأن المسلمين وفي أيديها الطريق بين بلاد العرب وبلاد الروم ؟

كل شيء جائز أن يكون

وأوله إغراء الروم بالهجوم ولهم عون من تلك القبائل ومن يجتمع إليها من المجترئين والمتحفزين ، ولما تقعدهم عن الاجترار والتحفز هيبة جيوش الإسلام .

ولقد أدرك أناس في عصر أبي بكر صواب الرأي في إنفاذ تلك البعثة بعد إنفاذها وعودتها . فشاع في الجزيرة العربية خبرها ، وروى مؤرخو تلك الفترة أنها كانت لا تمر بقبيل يريدون الارتداد إلا تخوفوا وسكنوا : وقالوا فيما بينهم : لو لم يكن المسلمون على قوة لما خرج من عندهم هؤلاء .

فإذا كان بقاء أسامة بالمدينة جائزاً لدفع خطر ، فأرساله كذلك جائز لدفع خطر مثله ، وفازت الدولة بين هذا وذاك بدرس الطاعة ، وهو يومئذ ألزم الدروس .

ثم تكرر هذا الدرس في أوسع نطاق لأنه نطاق الدولة الإسلامية كلها في ذلك الحين، وجلهت حروب الردة التي هي مفخرة أبي بكر الكبرى غير مدافع، أو هي مفخرته الخاصة التي انفرد بها في تاريخ الدعوة الإسلامية بغير شريك. فكان «هو نفسه» كما يقول الغربيون في تعبيراتهم حين يذكرون الأعمال التي تدل على صاحبها بجميع خصائصه ولُبَاب شعوره وتفكيره، وتُبرزه على حقيقته التي لا مِماراة فيها، خلافاً لأعمال أخرى قد تكون فيها هذه «الحقيقة» موضع التباس أو اختلاف.

ففي حروب الردة كان أبو بكر رضي الله عنه هو أبا بكر على سوائه وجلائه، ولم يكن موقفه فيها غريباً كما يسبق إلى الذهن للوهلة الأولى حيثما يخطر للذهن أنه الرجل الوديع الرفيق، وذلك الموقف أولى المواقف بالصلابة الصارمة والباس الشديد.

غضب الصديق رضي الله عنه في حروب الردة غضبه التي لا بد أن يغضبها وإلا فما هو بغاضب.

أثارته ردة المرتدين لأنها مسته في كل ما يُثيره، وأصابته في كل ما يُعزّه ويغار عليه.

فهناك الصديق المحب لصديقه، والمعجب الغيور على ذكرى بطله، يثيره أن يغدر الغادرون بعهد ذلك الصديق وذكرى ذلك البطل، ولما تمض له في قبره أيام أو أسابيع.

وهناك المسلم «الصادق» الذي آمن ببشارة النصر ولو كره الكافرون ، كما آمن من قبل بانتصار الروم على الفرس بعد بشارة القرآن فخططر على ذلك النصر بالمال والميثاق ، ولم يخامره الشك لحظة أنه الرابع لا محالة في ذلك الخطار . وكذلك غضب في حرب الردة غضبة الواثق من الحق ، الواثق من الغلبة، الواثق من العاقبة، لأنه سمع البشارة السماوية لينصرن الله الإسلام على الدين كله ، فإذا حارب في سبيل الإسلام فهو لا محالة على حق وهو لا محالة منصور .

وهناك الرجل «الدقيق التكوين» يقابل بالاستخفاف في أول خلافته وقد راض نفسه طوال حياته على المروعة والكرامة والوقار ، أنفة من الاستخفاف وكراهة للصغر والاستصغار ، فإذا بهم يستقبلونه بما أشاح عنه طوال حياته ، وإذا بالأمر صريح بالمقال فضلاً عن صراحته بلسان الحال : هم يستكثرون عليه كنيته أبا بكر فيكنونه أبا الفصيل ؟ وأعوانه يردون عليهم ذلك الاستهزاء متوعدين : لتروكنه غداً أبا الفحول .

وهناك الرجل الذي فيه من وثاقة العزم ما قمع به ثورة الحدة وهي أصيلة في تركيبه ، ومن كان له ذلك العزم فهو منجده حين يحتاج إليه ، وما كان محتاجاً إليه قط لو انه استغنى عنه في فتنة الردة ، وهي نفاجئه بالغضب المثير .

وهناك الرجل الذي كان مثلاً في الاقتداء بالرسول حيثما سبقت سابقة يُقاس عليها ، وقد سبقت هذه السابقة في فريضة من فرائض

الإسلام وإن لم تكن فريضة الزكاة : سبقت في فريضة الصلاة ، وذهب أناس من المثقفين يعرضون على النبي إسلامهم على أن يعفيهم من الصلاة ، فقال عليه السلام : « إنه لا خير في دين لا صلاة فيه » . وكذلك لا خير في دين لا زكاة فيه ، فإذا جاء المرتدون يزعمون أنهم مسلمون يقبلون فرائض الإسلام ولا يقبلون الزكاة فليس أبو بكر بالذي يقبل منهم ما يزعمون .

إنما كان أبو بكر إذن أصدق ما كان لنفسه وسرائر مزاجه يوم قابل الردة بدرس الطاعة التي لا هواة فيها ، ولم يكن في باطن الأمر غريباً عن المعهود فيه ، وإن لاح في ظاهر الأمر أنه جاء بالغريب من رجل وديع رفيق .

ولقد أكثر المؤرخون من الكتابة عن حروب الردة ما لم يكثرُوا قط في حادث من حوادث صدر الإسلام ، وكانوا على حق حين وازنوا بين دعوة الإسلام الأولى في مقاومة الشرك ودعوة الإسلام الثانية في مقاومة الارتداد فإنما كانت الغلبة على فتنة المرتدين فتحاً جديداً لهذا الدين الناشئ ، كأنما استأنفت الدعوة إليه من جديد .

ولكنهم لم يكونوا على حق حين حاولوا أن يصبغوا الردة بغير صبغتها وأن يفهموها على غير وجهها ، ولا سيما النقاد المغرضين الذين انحرفوا بها عمداً ليتسللوا منها إلى الطعن في نشأة الإسلام . فقالوا : إن ارتداد الأعراب إنما كان دليلاً على أنهم قد أسلموا مكرهين ، فما عثموا أن وجدوا سبيلاً إلى النكسة على أعقابهم حتى نكصوا مسرعين .

والمسألة أوضح من هذا لو أراد أولئك النقاد طريق الوضوح .

المسألة أقرب شيء إلى طبائع الأمور في أشباه هذه الأطوار من كل دين ومن كل مذهب ومن كل دعوة تتناول الناس عامة وخاصة ، بل من كل فكرة تُخامر الأذهان والقلوب حتى ما كان من قبيل الحكمة والفلسفة والدراسات العلمية التي يُعنى بها خاصة الباحثين ولا تتسرب دعوتها إلى السواد . فماذا حدث في الحكمة بعد سقراط ؟ وماذا حدث في مذهب النشوء بعد داروين ؟ وماذا حدث في علم الأخلاق بعد كانت أو بعد بنتام أو بعد برجسون ؟

فالذي حدث من ردة العرب هو الطبيعي المنظور أن يحدث ، والذي تخيَّله النقاد المغرضون واجباً مقبرراً هو الغريب الذي لم يحدث قط في دعوة من الدعوات .

وإلا فما هو ذاك الذي كان يتخيَّله أولئك النقاد المغرضون ؟ . .
أكانوا يتخيلون أن ديناً جديداً يملك الناس جميعاً في الجزيرة العربية فيسري إلى كل نفس ، ثم يسري من كل نفس إلى جميع بواطنها وخفاياها فلا يُبقي فيها بقية للنكسة والارتداد ؟ أكانوا يتخيلون ذلك الدين مقتلعا في مدى تلك السنوات القليلة كل أثر لأطباع الخليفة الآدمية وكل حنين في قلوب الزعماء إلى الجاه القديم ، وكل فضلة من فضلات الجاهلية ، وكل باب من أبواب الدسائس التي تنفذ إلى جزيرة العرب من طريق الدول الأجنبية والعصب الداخلية ؟ ... أكانوا يريدون من الأعراب بعد بضع

سنوات أن يوغلوا في الإسلام أشد من إيغال قبائل نجران أو الغساسنة في الدين المسيحي بعد بضعة قرون ؟

إن تخيلوا ذلك فاللوم على الخيال المضلل وليس على الواقع ولا على العقل السليم ولا على الإسلام .

وما من شيء آخرى أن يدل على النشأة الطبيعية في الإسلام من هذه العوارض الطبيعية التي عرضت له في حياة نبيه وبعد موته ، وأولها حرب الردة وما اقترن بها من عوامل النكسة والاضطراب .

لقد كان النبي مناط الاستقرار في الجزيرة العربية بعد نجاح دعوته ودخول العامة والخاصة في دينه ، أو كان كما قال الشاعر :

فإنك موضع القسطاس منها فتمنع جانبيها أن يميلا

وإذا غاب «مناط الاستقرار» أو موضع القسطاس فماذا يكون ؟ بل ماذا يمكن أن يكون ؟

يكون تقيض الاستقرار لا جرم .

أو يكون الميل هنا والميل هناك ، ولو كان العارض الذي طرأ قد عرض لأجسام من المادة لا تعرف الدين باختيار ، ولا تعرفه باضطراب .

فلما غاب «مناط الاستقرار» أول مرة حدث ما لا بد أن يحدث ، وطرأ التقلقل الذي لا مناص منه في كل بيئة ريثما يزول الأثر الطارئ وترجع الأمور إلى نصاب .

فعرض لكل طائفة من الناس تقلقلٌ يناسبها ويجري في مجراها .

تقلقل الأنصار وهم مسلمون حق مسلمين ، واجتمعوا في سقيفة بني ساعدة يبتون بتهم في مصير الخلافة ، لأنه مصير لا بد لهم من البت فيه .

وتقلقل المهاجرون من بايع منهم أبا بكر ومن لم يبايعوه ، ومنهم عِرة النبي وأقربهم إليه وأعظمهم إيماناً بدينه والغيرة عليه .

وتقلقل في مكة أناس قريبو عهد بالنفاق ، فهموا بالعصيان لولا نذير من ولي السلطان .

أما القبائل فيما وراء ذلك فكان لكل منها نصيب من التقلقل يناسب نصيبها من القرب والبعد والمودة والجفاء .

فاقربهم إلى مهد الإسلام كانوا يخلصون للنبي ويخرجون على من ولي الحكم بعده .

أطعنا رسول الله مذ كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكر ؟

وأناس منهم آمنوا بالزكاة ولم يؤمنوا بمن يؤدونها إليه ، واحتجوا بآيات من القرآن الكريم حرفوها إلى المعنى الذي أرادوه ، ومنها : «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ، ... قالوا : فلسنا ندفع زكاتنا إلا إلى من صلاته سكن لنا ! وأبوا أن يدفعوها وإن علموا أن دفعها فريضة من فرائض الدين ، فهم لم ينكروا الفريضة ولكنهم أنكروا الجبابة .

أما الأبعدون من مهد الإسلام فكان لهم تقلقلهم الذي يعرض لكل بعيد لم يسكن قط إلى قرار ، وإنما هو في اضطراب مستور يترصد أن

يثب إلى الجهر ما تهيأ له وثوب .

فابناء اليمن كان لهم مُلك قديم ، وكانت لهم أسر معرقات في الحكم تتداوله تارة بسلطان الحبشة ، وتارة بسلطان فارس ، وحيناً بين هذا وذاك بسلطان أهل البلاد ، وكانت لهم كهانة تمتزج بكل عقيدة من العقائد الكتابية وغير الكتابية . فلما اضطرب بينهم ميزان الأمور برز كل عامل من هذه العوامل في الفتنة بأثر من آثاره ، ونجح بينهم الأسود العنسي صاحب النبوة فيهم - وهو مسخ مشوه - لأن التشويه كان من آلات الكهنة والسحر عندهم ولم يكن من عوائق النجاح في أمثال هذه الدعوات . فكان وفقاً لشروط الكهانة اليمنية على شبه من كاهنهم « سطيح » الذي قيل فيه إنه كان لحماً بغير عظم ، أو كان من لين العظام بحيث يدرج جسمه كما يدرج الثوب خلا جمجمة رأسه ، وهي مع هذا تمس باليد فيؤثر فيها المس الخفيف لقرط لينها ، وعلى شبه من كاهنهم « شق » الذي سمي بهذا الاسم لأنه أشبه بنصف إنسان مشقوق لنحافته وانسلاخ أعضائه . فكانت حقارة الأسود العنسي آلة من آلات نجاحه تبطل العجب ولا تدعو إليه ، كلما استعظم أحد أن يظفر مثله بما ظفر به من الفوز العاجل في بداية الفتنة اليمنية .

وحيثما رجعت الفتنة إلى مطامع العنسي وأمثاله من المشعوذين الطامحين إلى الصولة فقد بدأت طلائعها من أيام النبي عليه السلام في أنحاء متفرقات من الجزيرة ، لأن هؤلاء المشعوذين لم يفهموا الإسلام ولم يعقلوا قط أنه دعوة لإصلاح لخير الناس ، وكل ما عقلوه أنه حيلة كاهن

أفلحت فحق لهم أن يطمعوا في الفلاح لأنهم كهان لا تعوزهم وسائل
السحر وحبائل الخديعة . فتطلعت رموس الفتنة من هنا وهناك والنبي
عليه السلام بقيد الحياة ، إلا أنها لم تتفاقم ولم تبلغ مداها من الانتشار
في حياته عليه السلام .

ولكنها تجمعت إلى يوم الرجّة التي ارتجتها الجزيرة العربية بعد
فراقه هذه الدنيا . وهي رجّة لا محيص عنها . فما كان معقولا ولا
منظورا أن يحدث هذا الحادث الجلل بغير رجته التي تقترن به لا محالة ،
وإذا وقعت الرجّة فما كان معقولا ولا منظورا أن تقع على غير
هذا المثال .

وغاية ما يفهم من هذه الرجّة التي لا غرابة فيها أنها الأثر
المعقول المنظور لمطامع الطامعين وخلاتق الأعراب وذوي الجهالة من أهل
البادية في كل جيل . فما عرف التاريخ قط أناسا منقطعين للبداوة الأولى
إلا عرف منهم الاستعداد لأمثال هذا الانتقاض كائنا ما كان الدين
الذي ينتحلونه والزمن الذي قضوه في انتحاله . وربما مضت مئات السنين
على قبيلة من البادية المغرقة في البداوة وهي تدين بالمسيحية أو الإسرائيلية
ثم تنقلب مثل انقلاب الردة في رجّة من الرجات النفسية أو الاجتماعية
التي تشبهها ، ولا يستغرب العالمون بطبائع الناس هذا الانقلاب بعد مئات
السنين كما استغرب أناس أن ينقلب بعض أهل البادية على الإسلام أو
على دولة الإسلام ، ولما ينقض على دخولهم فيه عشر سنين .

على هذه الحقيقة أن تُفهم فتنة الردة إنصافا للتاريخ إن لم يكن

إنصاف الدعوة المحمدية مما يعني أولئك المستغربين .

ولإنصاف التاريخ ينبغي أن تفهم هذه الفتنة على أنها أصدق امتحان
للدعوة المحمدية خرجت منه دعوة من الدعوات .

فإذا كانت فتنة الردة قد كشفت عن زيغ الزائغين وريبة المرتابين
فهي قد كشفت كذلك عن الإيمان المتين والفداء السمح واليقين المبين
فحفظت للناس نماذج للصبر والشجاعة والإيثار والحمية تشرق بها
صفحات الأديان ، وجاءت الشهادة الأولى على لسان رجل من أصحاب
طليحة سأل : ويلكم ما يهزمكم ؟ فقال له : أنا أحدثك ما يهزمنا . إنه
ليس رجل منا الا وهو يجب أن يموت صاحبه قبله ، وإنا لنلقى قوما
كلهم يجب أن يموت قبل صاحبه !

وقد امتحنت دعوة الإسلام وامتحننت جميع الدعوات التي نهضت
لمنافسته بقوة السلاح وقوة الدهاء وقوة العصبية فقضت له بالبقاء وقضت
عليها بالفناء . ولو كان نجاح الدعوة الإسلامية نجاح سلاح أو دهاء
أو عصبية لقد كان أصغر مُتنبئ من أدعياء الردة خليفاً أن يطمع في
ذلك النجاح ، لأنهم بدأوا دعوتهم ومعهم من جموع القبائل التي تعتز
بعصبياتها ما لم يتهيا لصاحب الدعوة المحمدية قبل عدة سنين ، وصدقهم
أناس كانوا يقولون إن نبياً كاذباً منهم خير من نبي صادق من مضر
أو قريش .

وأصدق من هذا كله في امتحان الدعوة المحمدية أنها خرجت من

فتنة الردة وهي شهادة الواقع والحق بِنسبة حية تسير على سَنَنِ الحياة الصحيحة التي لا زيف فيها ولا اصطناع : يعرض لها الخطر من أسبابه ، وتعرض لها السلامة من أسبابها ، وتنجو كما تنجو البنية الحية القوية حيثما تجمعت فيها عناصر النجاة .

فليست هي جسماً محجباً بالأوهام كما زعم طليحة الكذاب لجسمه أنه لا يعمل فيه السيف ولا تصيبه السهام . ولكنها جسم صحيح يعمل فيه السيف وله مع ذلك ما يدفع الطعن ويبرئ من الجراح .

ولا شك أن المسلمين لم يواجهوا جوانب الخطر كلها في حروب الردة دون المرتدين الذين أشعلوا الفتنة وُصِّلُوا بنارها. فقد كانت حروب الردة فتنة كجميع الفتن التي لا يؤمن خطرُها على الفريقين المشتركين فيها فكان فيها جانبها الخطر على أهل الردة كما كان فيها جانبها الخطر على الإسلام وما كان منها خطراً على فريق فقد كان فيه للفريق الآخر أمان .

وقد كان أمانها على الإسلام أن المرتدين متفرقون لا تؤلف بينهم وحدة معلومة المقاصد في السياسة ولا في الدين، وأنهم هددوا المدينة بجموع البادية فاثاروا فيها سليقة الدفاع ووجدوا بين صفوفها وهي موشكة أن تتصدع بين الشيع والأهواء . فعلم أهل المدينة كما علم أهل مكة أنهم مهددون بجائحة من البادية لا يطمثون بعدها إلى مصير، وهبوا يتعاونون ويتكاتفون لاتقاء تلك الجائحة سواء من بايع الخليفة ومن تناقل عن البيعة في أوائلها. وتقدم على رءوس المدافعين أناس كانوا في يوم البيعة متخلفين،

وجرى القضاء بوقوع أهل الردة في خطأ من أخطاء العجلة كان فيه نفع
- أي نفع - للمسلمين . فهجموا على المدينة مغترين بكثرتهم وقلة المدافعين
عنها ، ولم يحسنوا الأهبة للهجوم كما أحسن المسلمون الأهبة للدفاع .
فثارت حية الأنصار والمهاجرين معاً للدين الذي آمنوا به ، وثارت
حميتهم معاً للجوار الذي رُوّعوا فيه ، وكانت هذه الهجمة وبالأعلى الردة
وفاتحة من فواتح الهزيمة ، ولو أنهم قنعوا بالبقاء في باديتهم والتوغل في
صحرائهم لقد كان ذلك أدنى إلى الحزم من ناحيتهم ، وإن لم يكن حتماً
لزماً أن يفضي بهم آخر الأمر إلى نجاح .

وزاد في بواعث الطمأنينة إلى جانب المسلمين أن عاد جيش أسامة
سالماً موفوراً ولماً ينقض على مبعثه شهران على أرجح الأقوال : عاد
بالأسلاب والغنائم من تخوم الروم ولم يُقتل منه أحد ولا بدا عليه عناء أو
مشقة مما كان فيه .

ولا تجهل قبائل البادية ما هي دولة الروم التي اجتراً الجيش على
تخومها في غير مبالاة . إنهم يعلمون ما هي دولة الروم بالعيان أو يعلمون
ما هي دولة الروم بتحويل السماع ، وجيش يذهب إلى تخوم تلك الدولة
ثم يعود غير مسحوق ولا منقوص بل يعود بالغنائم والأسلاب ، كيف
تستخف به قبيلة هائلة في عرض صحراء ؟ وكيف تخفى دلالة هذا الحادث
على أناس اشتهروا بتنسم الأخبار كما اشتهروا باستطلاع الدلائل على القوة
والضعف وعلى الخطر والأمان ؟

إن جيش أسامة قوة ذات بال في الجزيرة العربية ، ولكنه فعل

بسمعته ومعناه ما لم يفعله بقوته وعَدَّه . فاحجم من المرتدين من أقدم .
وتفرق من اجتمع، وهادن المسلمين من أوشك أن ينقلب عليهم، وصنعت
الهيبة صنيعها قبل أن يصنع الرجال وقبل أن يصنع السلاح .

تلك فتنة الردة بجملتها ، وبجائبي الخطر والسلامة فيها .
قابلها أبو بكر رضي الله عنه بأحزم ما تقابل به من مبدئها إلى
منتهاها ، وعالجها علاجها في كل خطوة من خطواتها وكل ناحية من
نواحيها

فبادرها بالحزم من صيحتها الأولى ، وتعقبها بالحزم يوماً بعد يوم
وساعة بعد ساعة حتى أسلمت مقادها وثابت إلى قرارها .

وأحزم الحزم في تلك الفتنة عقابه للمرتدين الذين مَرَدُوا على العصيان
ولم يستجيبوا نصيح المودة ولا استجابوا نذير الجزاء ؛ فقد كان العقاب
أليق شيء بالوزر الذي اجترموه ومردوا عليه : أناس قد استوهنوا
سلطان الدين وبخلوا بالمال فبلغ من شحهم به أنهم أنكروا حقوق الدين
كله في سبيل حصة من الزكاة ، فجزأؤهم أن يشهدوا من بأس ذلك
السلطان ما يعتبرون به ولا ينسونه مدى الحياة ، وأن يفقدوا المال الذي
من أجله تبادروا إلى الفتنة واستَبَقُوا إلى العصيان . فاستبيحت ديارهم
ومراعيهم ومساقيمهم ووهبت عطايا للمجاهدين ، ولأن خالد في بعض
المواقع وأبو بكر الوديع الرفيق لا يلين ، ووضع القصاص فيمن

تجاوزوا منع الزكاة إلى قتل المسلمين بين ظهرانيهم ، فلم تأخذه فيهم
هوادة بعد إصرارهم على العصيان واعتدائهم بالقتل وإعراضهم عن
النصيح والنذير .

جزاء حق لأنه من جنس العمل .

استهانة يقابلها بأس ، وبخل بالمال يقابله ضياع للمال ، ونفس
بنفس ، ومجاهدون مخلصون يُؤثرون الإيمان على عروض الدنيا أخذاً
بثأرهم من عصاة غادرين يؤثرون عروض الدنيا على الإيمان .

قال أبو رجاء البصري : « دخلت المدينة فرأيت الناس مجتمعين
ورأيت رجلاً يقبل رأس رجل ويقول له : أنا فداؤك ولولا أنت لهلكنا ،
قلت : من المقبل ومن المقبل ؟ قالوا : هو عمر يقبل رأس أبي بكر في
قتال أهل الردة إذ منعوا الزكاة حتى أتوا بها صاغرين » .

وأبو رجاء من ثقات الرواة : وكلا الرجلين جدير بما روي عنه من
مودة وإكبار ، عمر جدير بإكبار أبي بكر ، وأبو بكر جدير بإكبار
عمر إياه ، فالخبر صحيح أو هو كالصحيح ، إن لم يكن فهو حري أن
يكون . هنالك ولا ريب أعظم رجلين واجها حروب الردة بين عظماء
المسلمين في ذلك الحين .

وما كان اثنان قط أقرب منهما في القصد ، ولا كان اثنان قط أبعد
منهما في الرأي بما أشارا أول الأمر في شأن أهل الردة .

ولا ينتهي العجب في موقفهما هذا عند فرط الاقتراب وفرط الابتعاد ، ولكنه عجب عايب من غير ناحية فيه ، فإذا قُدِّرَ لهما أن يتفقا مقصداً ويختلفا رأياً فقد كان المظنون أن يتجه عمر إلى جانب الشدة ، وأن يتجه أبو بكر إلى جانب اللين ، فجاء اختلافهما يومئذ على غير المظنون .

ومهما يكن من حق الدراسة التاريخية في هذا الموضوع فحق الدراسة النفسية يساويه إن لم يزد عليه ، أو ربما كان حق الدراسة التاريخية مطلوباً لما ينتهي إليه من هذه العجيبة النفسية التي هي غاية العلم الذي نصبو إليه . إذ ليس للتاريخ ولا لغيره من العلوم غاية أشرف ولا أنفس من تعريف الإنسان بالإنسان .

كان عمر يقول لصاحبه : يا خليفة رسول الله ؛ تألف الناس وارفق بهم ! ... كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه ؟

وكان أبو بكر يقول : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عناقاً^(١) لقاتلتهم على منعها » ... ويملكه الغضب فيصيح بصاحبه : « يا ابن الخطاب ، رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك ؟ أجبار في الجاهلية وخوَّار في الإسلام ؟ إنه قد انقطع

(١) الأثني من أولاد المز .

الوحي وتم الدين، أو ينقص وأنا حي ؟

فكيف اختلف الصاحبان هذا الاختلاف ؟

أما أن يختلفا فلا عجب ، وأما أن يتصارحا بالاختلاف فلا عجب فيه كذلك .

وإنما العجب - عند النظرة الأولى - أن يجيء منهما الاختلاف على هذا النحو الذي خالف المنظور كما خالف المعهود من طبائع الرجلين ، وهذا الذي يستوقف النظر في طبيعة ما يستوقف الأنظار من حروب الردة ، ومن جميع ما أعقب وفاة النبي عليه السلام وقيام الخلافة الأولى .

وصفوة ما يقال في تفسير هذه العجيبة حقيقتان غير عجيبتين : أولاها أن المعهود من أخلاق الإنسان ليس هو الإنسان كله ، بل في الإنسان شيء كثير مما ليس يعهده الناس منه في عامة أحواله . والحقيقة الثانية أن الخلق المعهود قد يفسر على وجوه كثيرة بعضها موافق للمتبادر إلى الذهن وبعضها لا يوافق المتبادر إلى الذهن إلا بعد إنعام واستقصاء .

فالشدة في أي بكر موجودة تظهر في مناسباتها

واللين في عمر موجود يظهر في مناسباته

وأولى المواقف أن يظهر فيها هذان الخلقان هو الموقف العصيب ، لأنه موقف المراجعة الذي لا يذهب فيه الإنسان مع الخاطرة الأولى .

فالموقف العصيب هو الموقف الذي يراجع فيه الإنسان نفسه ويشوب إلى المكنون من أخلاقه فيصل منها إلى القرار الذي يخفى على الناس في عامة الأحوال ولا يظهر لهم للوهلة الأولى فيشتد اللين أو يبدو كل منهما على الحالين بجميع ما فيه من شدة ولين .

ومن ثم يبدو ما لم يكن بمعهود في عامة الأحوال ..

على أن الموقف الذي وقفه عمر في حرب الردة معهود فيه إذا علمنا أن الخلق الإنساني يفسر نفسه على عدة وجوه .

فعمر متصرف، بالرأي

وعمر جريء فيما يرى

وعمر وثيق الإيمان

وعمر عادل متخرج في عدله .

وهل كان موقفه من المرتدين خلواً من خلق من هذه الأخلاق ؟

ألم يكن فيه تصرف حين أراد أن يؤجل أمر الزكاة إلى يوم تتبدل فيه الأحوال ؟

ألم يكن فيه جرأة حين جهر بهذا الرأي ولم يحفل بمداراته ؟

ألم يكن فيه ثقة بأن المصير إلى ثبات الإسلام ، وإن ضل من ضل

وزاغ في الطريق من زاغ ؟

ألم يكن فيه تخرج من قصاص لم يتضح له حقه فيه حتى وضع له

ذلك الحق فبطل الحرج ووافق صاحبه في كل ما ارتآه ؟

فهذا هو عمر المعهود ، ولكن بعد إنعام واستقصاء .
أما أبو بكر المعهود فنحسب أننا قد بيناه فيما تقدم ، فبيننا أن ما صنع
من قتال أهل الردة كان أقرب الأعمال إلى « الصديقيات » المطبوعة ،
وإن بدا في النظرة الأولى على غير ذلك ، ونحن لا نفهم الإنسان حقاً
إذا فهمنا أنه يعيش حياته كلها ولا يأتي بشيء يخالف ما عهدناه وانتظرناه .
ونحن لا نستغرب الموقفين من أبي بكر وعمر إذا أحضرنا هذه الحقيقة
التي هي أقمن شيء بالإحضار في دراسة النفوس الإنسانية ، وبخاصة
نفوس العظماء .

وقد وضح كل الوضوح أن أبا بكر كان على صواب عظيم .
ولكن لم يتضح كل الوضوح أن عمر كان على خطأ عظيم .
فنحن نخيل إلينا اليوم ، أننا لو كنا في عصر الردة لوضح لنا يومئذ
ما يتضح لنا اليوم ، ولم نتردد في متابعة أبي بكر إلى القتال على يقين أنه
الصواب كل الصواب أو أنه الواجب الذي لا مثنوية فيه .

ولكننا لو حضرنا ذلك العصر لجاز كثيراً أن يميل منا الألوف
— بل ألوف الألوف — إلى القول بالمسالمة والمشاركة حتى حين ، وجاز
أن يعتقد منا الكثيرون أن التريص بالمرتدين حتى يعود جيش أسامة
ويثوبوا إلى الحسنى أسلم وأحزم ، فإن لم يثوبوا إلى الحسنى فعُدة القتال
يومئذ أوفى وأعظم ، وقد يحنح بنا إلى هذا الرأي أن الخطر من نكسة
المنافقين في مكة والمدينة غير بعيد ، وأن الخطر من غلبة المرتدين غير
مستحيل ، وأن القبائل إن بقيت في باديتها فأمرها مستدرك حتى تعالج

بالمهواة أو بالندير أو بالقتال آخر الأمر على ثقة من الغلبة فيه .
ذلك جائز واضح الجواز ، وما كان كذلك فالقول به ليس بالخطأ
العظيم ، وإن بينت الحوادث أن القول بغيره كان صواباً جد صواب .
وإنما الخلاف في أهل الردة من ضروب الخلاف التي يفضها الفقهاء
لأن الرأي وحده لا يكفي ولن يكفي يوماً لفض خلاف في مسألة حاسمة
من مسائل التاريخ .

وقد شاء القضاء أن يكون أبو بكر بطل الإسلام في حروب الردة
غير مدافع . فهو صاحب الشرف الأول بين ذوي الرأي وذوي العمل
في تلك الحروب . وكانما عمر قد وضع بشفتيه شفاه المسلمين جميعاً على
ذلك الرأس الجليل يوم انحنى عليه بالتكريم والتقبيل . وحسب المؤرخ
والنفساني عبرة أن يلحظ هذه الثروة النفسية في صدر الدعوة الإسلامية :
دعوة فيها لكل موقف أبطال ، وفي كل بطل منها أهبة لكل حادث
طارئ تختلف فيه الأهبة والآراء ، وفيهم جميعاً التعاون والإخلاص
مختلفين ومتفقين .

* * *

وما انتهت حروب الردة حتى بدأت في تاريخ الإسلام مرحلة أخرى
أجل وأعظم ، تصدى لها الصديق بذلك العزم الذي تصدى به لكل ما عقد
النية عليه وآمن بصوابه : إقدام كأنه لا يعرف المبالاة والتدبير ، ومبالاة
وتدبير ، كأنهما لا يعرفان الإقدام .

كانت المرحلة الأولى تأمين الإسلام في عُقر داره .
وكانت المرحلة الثانية تأمين الإسلام في حدوده وتُخومه ، ودفع
الخطر من هجوم الأعداء عليه .

ونقول تأمين الحدود ولا نزيد ، لأننا نعتقد أن الصديق رضي الله
عنه أخذ في تسيير البعوث إلى حدود العراق والشام وهو على هذه النية
دون نية الفتح بالسلاح، وأنه رضي الله عنه قد التزم في سياسته الخارجية
خطة النبي عليه السلام في تلك السياسة، وهي الخطة التي ظهرت في بعثة
تبوك ثم في بعثة أسامة بن زيد، وأصدق ما يقال فيها أنها خطة لاهجوم
فيها ولا تهجم، ولا باعث لها إلا دفع الأذى، وحماية الطريق، والتمهيد
لنشر الدين بالحسنى والبرهان إن تيسر نشره بالحسنى والبرهان، فإن
قامت العقبة من قوة طاغية تحول دون ذلك فعلى القوة الطاغية حساب
تلك العقبة ، حيثما حان أوان الحساب .

ففي غزوة تبوك - كما قلنا في عبقرية محمد - عاد الجيش الإسلامي
أدراجه بعد أن أيقن بانصراف الروم عن القتال في تلك السنة ، وكان قد
سرى إلى النبي نبا أنهم يعبثون جيوشهم على حدود البلاد العربية، فلما
عدلوا عدل الجيش الإسلامي عن الغزوة على فرط ما تكلف من الجهد
والنفقة في تجهيزه وسفره .

أو كما قلنا في عبقرية عمر إن دولة الروم كانت ترسل البعوث إلى
تخوم الجزيرة وتهيج القبائل لحرب المسلمين من عهد النبي عليه السلام،
وكان المسلمون يعيشون في فزع دائم من خطر هذه الدولة وأتباعها ، يدل

عليه كلام عمر وهو يتحدث عن أزواج النبي حيث يقول : « ... وكنا تحدثنا أن غسانَ تَنَتَّلُ النعالَ لغزونا ، فنزل صاحبي يوم نوبته فرجع عشاءً فضرب بابي ضرباً شديداً وقال : أئمة هو ! ففزعت فخرجت إليه ، وقال ، : حدث أمر عظيم ... قلت : ما هو ؟ أجاءت غسان ؟ قال : لا . بل أعظم منه وأطول . طلق النبي صلى الله عليه وسلم نساءه ! » وهو حديث يتبين منه مبلغ الفزع من تهديد الروم للجزيرة العربية بالليل والنهار .

فلما تولى الصديق رضي الله عنه الخلافة أنفذ بعثة أسامة التي يصح أن تسمى بلغة العصر الحاضر بعثة تأديبية لردع القبائل التي تعيث في الطريق بين الحجاز والشام تأميناً لتلك الطريق وتوطيداً لهيبة الإسلام في نفوس تلك القبائل . فلم تجاوز البعثة هذا الغرض المحدود ولم تلبث أن قفلت إلى المدينة بعد أربعين يوماً في قول بعض المؤرخين وسبعين في قول آخرين .

أما غزوة فارس فقد كانت استطراداً لحروب الردة في أطراف البحرين ، فكانت القبائل التي تدين لسلطان فارس توالي الإغارة على أرض المسلمين فيدفعونها ويقتصون منها ويتعقبونها في بلادها ، وكان الصديق رضي الله عنه يجهل اسم القائد المقدم الذي كان يتولى الدفاع والتعقيب في تلك الأنحاء ، فسأل عنه في شيء من العجب : من هذا الذي تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه ؟ فعرفه به قيس بن عاصم قائلاً : هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العباد : هذا

المثنى بن حارثة الشيباني !

فكان هذا الاستطراد في حرب الردة بداءة الاشتباك بفارس ومن والاهما من قبائل البحرين والسنّاد ، ومضت الحوادث شوطاً قبل أن تنقلب إلى الحرب الضروس بين العرب وفارس في أوسع نطاق ، فلما أرسل الصديق خالداً لنجدة المثنى أمره أن « يتألف أهل فارس ومن كان في ملكهم من الأمم » . وتقدم خالد في تأمين الطريق فصالح أهل الحيرة وغيرهم على « أن لا يخالفوا ولا يعينوا كافرين على مسلم من العرب ولا من العجم ، ولا يدلوهم على عورات المسلمين ... فإن هم خالفوهم فلا ذمة ولا أمان وإن هم حفظوا ذلك ورعوه وأدوه إلى المسلمين فلهم ما للمعاهد ، وعلى المسلمين المنع لهم ... وأما رجل منهم وجد عليه شيء من زي الحرب سئل عن لبسه ذلك ، فإن جاء منه بمخرج وإلا عوقب بقدر ما عليه من زي الحرب ... »

فمن طلائع الغزوة الفارسية يلوح للمتتبع أنها غزوة فرضتها الحوادث على الخليفة الأول ، فاستجاب لها بما ينبغي أن يستجيب ، وقبيل المناجزة حين لم يكن له من قبولها مناص ولا متحوّل ، ولم ينس مع هذا أن يتألف الأمم ويسالم الأمراء ويدعوهم إلى السلام والإسلام ، ويشخص إليهم من يعلمهم ما هو وصف الدين الذي يدعوهم إليه . فإن أصاخوا إليه فلا حرب ولا عدا ، وإن جردوا له السيف رجع معهم إلى حكمه الذي نزلوا عليه .

وهكذا قدر للخليفة الأول أن تتوطد على يديه دعائم الدولة الإسلامية الناشئة في سياستها الداخلية وسياستها الخارجية ، فما صنعه فقد استمر فيه على خطة النبي عليه السلام ، وما صنعه الذين لحقوا به فإنما هو نتيجة لازمة لما بدأ فيه .

وشاء الله أن يشهد سداد رأيه بعينه وهو حظ لا يتاح للكثيرين ممن يفتتحون الدول العظام ولاسيما الشيوخ . فشهد سداد رأيه فيما تم من أعماله وفيما هو آخذ في التمام ، وفارق الدنيا وهو يعلم أنه قارن التوفيق في حرب فارس كما قارنه في حرب الردة ، وليس بينها تفاوت في الإقدام ولا في ثقة الإيمان .

ويحق لمن يؤرخ تلك الحوادث ، ولمن يبحث في صفات الصديق ومناقبه ، أن يسأل : ما مبلغ تلك الثقة من الإيمان ؟ وما مبلغها من الحساب ؟

إنه سير البعوث لإخضاع الجزيرة العربية وهي ترتج رجتها الكبرى وليس معه من الجند إلا قلة محدودة من أهل تلك الجزيرة . وإنه سير البعوث إلى تخوم فارس والروم وليس معه من قوة غير المسلمين من العرب ، مستثنى منهم في أول الأمر كل من تابوا بعد ردة ، وإنه لتفاوت بين القوتين أعظم من التفاوت بين جيش الخليفة وجيوش المرتدين .

أفكانت مجازفة ؟

أفكانت يقيناً لا تصحبه الروية وهي في الدين الإسلامي مطلوبة مع اليقين ؟

لا ريب أن اليقين كان أكبر العدد التي تقدّم بها الصديق في بعوث
الردة وفي بعوث فارس والروم على السواء .

ولا ريب أنه أقصى المسلمين الذين تابوا بعد ردة فلم يلحقهم بالجنّد
الموجهين إلى تخوم الدولتين ، لأنه علم أن العدة الكبرى في أولئك الجنّد
هي عدة اليقين الذي لا يتزعزع ولا يدركه الوهن والطمع .

ولا ريب أن يقين الصديق بنصرة الإسلام على الدين كله في يوم من
الأيام قد كان أقوى يقين سكن في قلب إنسان أو سكن إليه قلب إنسان .

فكل وعد من وعود القرآن قد كان عنده حقيقة عيان ، بل أمكن
من حقيقة العيان .

وكل كلمة سمعها من النبي بخبر من أخبار الغد المجهول فهي عنده
شاهد على شواهد الحاضر الملموس باليدين ..

نزل القرآن الكريم بغلبة الروم على الفرس في بضع سنين فذهب
الصديق إلى مشركي قريش يُكبتهم بنبا هذا النصر القريب لأنهم كرهوه
كراهة منهم في كل أهل كتاب ، وأحبوا نصر فارس حبا منهم لكل عابد
وثن ، وقال لهم : ليظهرن الروم على فارس ! أخبرنا بذلك نبينا .. فصاح
به أباي بن خلف الجُمحي : كذبت يا أبا فيصل ! قال الصديق : أنت
أكذب يا عدو الله ، ودعاه أبي أن يراهنه على عشر قلائص . فعاد إليه
يقول : بل على مائة إلى تسع سنين . لأنه سمع وعُد القرآن ، ووعد
القرآن حقيقة عيان ، بل أمكن من حقيقة العيان .

ولما تعقب جاسوس المشركين سُراقَة بن جعشم ركب النبي عليه
السلام في الهجرة سمعه الصديق يقول لسُراقَة : كيف بك إذا لبست
سوارِي كسرى ؟

فما شك الصديق أن الإسلام غالب الأكاسرة في يوم من الأيام ، وأنه
منصور على الدين كله كما جاء في الكتاب وفي حديث صديقه الرسول
الأمين .

ذلك كله لا ريب فيه ..

سَيُنْصَرُ الإسلام على الدين كله في يوم من الأيام . ذلك خبر عيان بل
أَمْكَنَ من خبر العيان .

ولكن أي يوم ؟ ومتى يحين الأوان ؟

هنا تبدأ الرويَّة إلى جانب اليقين ، بل تجب الروية على ولي الأمر في
الإسلام كما يجب اليقين .

ونعتقد نحن أن الخليفة الأول قد أعطى الروية حقها كما أعطى
اليقين حقه ، فما كان أبو بكر بالرجل الذي ينسى الحيلة كلما وجبت
الحيلة على ولي الأمر ، وهي هنا كأوجب ما تكون .

وحسبنا من ذلك حيطته في حراسة المدينة وتبسيط الجند بالمسجد
حين تجرد لكفاح أهل الردة ، ثم وصيته لخالد بن الوليد - وقد علم
حُكْمُهُ في فنون الحرب وقدرته على قيادة الجيوش - فلم يُنْسِه هذا العلم

أن يزوده بالنصح حين خرج لحرب المرتدين ، فيدير هذا النصح كله على الحيلة او اليقظة كما قال من كلام رصين وجيز : « إذا دخلت أرض العدو فكن بعيداً عن الحملة فإنني لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بأفراد ، وسر بالأدلاء ، وقدم أمامك الطلائع ترتد لك المنازل ، وسر في أصحابك على تعبئة جيدة واحرص على الموت توهب لك الحياة ، ولا تقا تل بمجروح فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيات فإن في العرب غرة ... وإذا لقيت أسداً وغطفان فبعضهم لك ، وبعضهم عليك ، وبعضهم لا عليك ولا لك ، متربص دائرة السوء ينتظر لمن تكون الدبرة فيميل مع من تكون له الغلبة ، ولكن الخوف عندي من أهل اليمامة ، فاستعن بالله على قتالهم ، فإنه بلغني أنهم رجعوا بأسرهم ، فإن كفك الله الضاحية فامض إلى أهل اليمامة ، سر على بركة الله » .

وأدلّ من هذه الوصية على الحيلة والاحتراس في كفاح الأجانب وصيته ليزيد بن أبي سفيان في فتوح الشام حين يقول : « .. وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكري وهم جاهلون به ، ولا تُريّتهم فيروا خللك ويعلموا علمك ، وأنزلهم في ثروة عسكري ، وامنع من قبلك من محادثتهم ، وكن أنت المتولي لكلامهم ، ولا تجعل سرك كعلانيتك فيختلط أمرك ... وأكثر حرسك ، وبددهم في عسكري ، وأكثر مفاجأتهم في محارسمهم بغير علم منهم بك ، فمن وجدته غفل عن محترسه فاحسن أدبه وعاقبه في غير إفراط ، وأعقب

بينهم بالليل واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة فإنها أيسرها لقربها من النهار .. » .

ولم ينس قط ما بين جنده وجند العدو الأجنبى من فروق العدة . فكان يعمل في تدارك هذا الفرق ورأب هذا الصدع ما استطاع . فذهب يوماً يتفقد جنده الذين هموا بالخروج لغزو الشام فلم تعجبه عدتهم وسأل من حوله : ما ترون في هؤلاء إن أرسلتهم إلى الشام في هذه العدة ؟ فقال عمر : ما أرضى هذه العدة لمجموع بني الأصفر ، وقال بقية أصحابه : نحن نرى ما رأى عمر ، فكتب إلى أهل اليمن يستكمل العدة ويستنهضهم إلى الجهاد ليخفوا إليه بما يسد هذا النقص من جند وسلاح .

فالرجل الذي لا تفوته فائتة من شأن القبائل التي يرسل إليها بعوثه ، والرجل الذي يختار القائد فيحسن اختياره ثم لا ينسى مع ذلك وصيته وتحذيره وإتمام عدته بما يقارب عدة عدوه ، والرجل الذي يقرب ذلك كله بالحيلة في مدينته بما في وسعه — ليس هو الرجل الذي يزجي البعوث إلى تخوم فارس ولم يأخذ للأمر مثل هذه الحيلة ولم يعمل فيه مثل هذه الروية ، وليس بالذي يجازف وله مندوحة عن المجازفة من إرجاء أو مسالة إلى حين . وإنما يرجو الغلبة بالقليل على الكثير لأنه يعتمد على « عدة الإيمان » ويعلم كما قال ليزيد بن أبي سفيان : « قد نبأنا الله أن الفئة القليلة مما تغلب الفئة الكثيرة بأذن الله ، وأنا مع ذلك مدكم بالرجال في أثر الرجال حتى تكتفوا ولا تحتاجوا إلى زيادة إنسان » .

وإننا لنعلم اليوم أن الصديق لم يجازف قط بتجريد البعوث الى تخوم فارس والروم ، ونعلم أن عوامل النصر كانت كلها أو معظمها في صفوفه ، وأن عوامل الهزيمة كانت كلها أو معظمها في صفوف أعدائه .

نعلم اليوم أن الفرس قد انهزموا لأنهم كانوا يدفعون العرب عن دولة حطمتها الحروب الخارجية والفتن الداخلية ، وباخت نارها التي تعبدها في قلوب أهلها قبل أن تبوخ في معابدها ومشاعلها ، وشاع فيهم الخوف من الثبات في القتال حتى قيدوا بعضهم الى بعض بالسلاسل ليحولوا بين هارب وهربه ، وقلت الدربة في قاداتهم حتى تخيروا أسوأ المواقع وأسوأ الأوقات للهجوم في معارك كثيرة .

ونعلم ان الروم قد انهزموا لأنهم كانوا يدفعون العرب عن دولة حطمتها ما قد حطم الفرس من الحروب الخارجية والفتن الداخلية ، وباخت عقائدها في صدورهم لفرط ما أرثتها من الجدل العقيم والحال الدميم ، واستكانت إلى الذلة زمناً حتى رضيت بالجزية تؤديها لبرابرة الهون والأبارة ، واشتملت على أمم كثيرة تعادىها وتتربص بها الدوائر كلما طمع الطامعون فيها .

نعلم اليوم ذلك من الواقع الذي وقع وبطل الشك فيه ، ومن التاريخ الذي تفتحت أمامنا صفحاته وقد زال عنها الحجاب .

ولكن الصديق لم يكن قد رأى هذا الذي رأيناه ، ولا تصفح هذا الذي تصفحناه ، فهل معنى ذلك أنه أقدم بغير علم ، وأنه نسي ما طبع

عليه من الحيلة والحزم ، وأنه سها عن واجب الروية وقد تهاى له واجب اليقين ١٩

لا . فإن الذي كان يعلمه الصديق قد كان يكفيه ويغنيه عن هذا الذي علمناه .

كان يعلم أن الفرس قد خسروا قبل الإسلام وقعة ذي قار وهم أقوى صولة والعرب أضعف شأناً من شأنهم بعد الإسلام .

وكان يعلم أن الروم قد صبروا على بعثتين عرييتين بلغتا من بلادهم إلى التخوم وأوغلتا في بعض الأطراف ثم فترت همتهن عن مقابلة ذلك بالقمع والقصاص السريع .

وكان يعلم أن العرب إن طلبوا الدين حاربوا صادقين في القتال ، وإن طلبوا الدنيا حاربوا صادقين في القتال ، وأنهم موعودون بالنصر ومؤمنون بصدق الوعد ومقبلون بنفوس تحب الموت كما يحب أعداؤها الحياة ، وأنهم يخافون لا تثقلهم العدد ، محبون من وراء ظهورهم بالصحراء إن وجبت الرجعة ، مُقَدِّمون على أرض خبرتها طلائعهم وهوت عليه خطبهم ، وأبلغته من أخبار فتسنها ومفاسدها ما يبلي له في الإيمان بالقدرة عليها .

فإذا علم هذا فهو حسبه من الروية مقروناً بذلك اليقين الذي لو سها عن كل روية لكان له بعض العذر ، وكان به جُل الغناء .

وفي أقل من ثلاث سنوات قصار أنجز ما أنجز من تلك المآثر الطوال...
وفي أقل من ثلاث سنوات أنفذ بعثة أسامة وفي سبيلها ما فيه من
صعاب ، وقمّع الردّة وحولها ما حولها من خطر ، ووطىء حدود
فارس والروم ولها ما لها من هيبة ومنعة : ثلاثة أركان للدولة الإسلامية لم
يكن ليقوم لها ركن قبل أن تقوم ، ولو أنها حُسبت لثلاثين سنة - ولم
تُحسب لثلاث سنوات قصار - لجلّلتها جميعاً بالثناء والفخار .

ولم يتسع الزمن لإقامة نظام للدولة الإسلامية في عهد أبي بكر على
مثال النظم السياسية والإدارية التي تقام للدول الكبار في حداثة نشأتها .
أو لعل المسألة هنا ليست مسألة اتساع الوقت وضيقه في عهد الخلافة
الأولى ، ولكنها مسألة الحاجة إلى تلك النظم وقلة الحاجة إليها ، ففي
عهد الخليفة الأول بعد النبي عليه السلام لم يطرأ على إدارة الدولة الإسلامية
ما يدعو إلى نظام جديد غير النظام الذي كانت تجري عليه في عهده عليه
السلام . لأن الجزيرة العربية عادت بعد حروب الردة إلى مثل ما كانت
عليه في أيام النبوة ، ولأن الأراجاء الأجنبية التي زحفت عليها بعوث
المسلمين لم تزل إلى آخر خلافة الصديق في دور الغزو والفتح ولم تبلغ
بعد إلى دور التوطيد والتنظيم ، فكل ما جرى عليه النظام في أيام النبوة
فقد كان صالحاً للاتباع في أيام الخلافة الأولى ، وههنا تتجلى حكمة النبي
عليه السلام في إسناد الخلافة الأولى إلى أصلح الناس لمتابعة العهد النبوي
على حاله الذي كان عليه . حتى إذا حان وقت التوسع والتصرف وجد
الوقت من هو أصلح وأقدر عليه ، وكأنه كان معروفاً من قبل موكولاً

إلى حينه الذي يترقبه ويستدعيه ، ولن يكون إلا عمر بن الخطاب كما سماه عليه السلام حيث قال : « أُرِيتُ في المنام أني أترع بدلو بكرة على قلب »^(١) فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً^(٢) أو ذنوبين نزعاً ضعيفاً ، والله يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غروباً ، فلم أر عبقرياً يفري فريه حتى روي الناس وضربوا بعطن^(٣) .

وعلى هذا يمكن أن يقال إن الأداة الحكومة - أو الإدارية - لم تكن في عهد الصديق محتاجة إلى نظام غير النظام الذي اتخذته النبي عليه السلام ، واكتفى به في إدارة الشؤون العامة بمكة والمدينة والجزيرة العربية ، مع التعديل الذي اقتضاه توزيع العمل وتفرقة العبء الكبير بعد وفاة النبي ، وغياب المرجع الأعلى الذي ترتفع إليه جميع الأمور .

فتولى بيت المال رجل سماه النبي عليه السلام « أمين الأمة » وهو أبو عبيدة بن الجراح ، وتولى القضاء رجل لم يشتهر أحد بالعدل اشتهاره وهو عمر بن الخطاب ، وتولى الكتابة كاتب النبي عليه السلام زيد بن ثابت ، وكانت ولاياتهم أقرب إلى الارتجال والتداول منها إلى التكليف الدائم والعمل المرسوم .

(٢) دلوأ (٣) مربوط الإبل حول الباء

وكان قادة الجند يفتحون البلدان ويقيمون فيها الولاية والقضاة على النحو الذي ألفوه في الجزيرة العربية ، ومن عرضت له مشكلة من مشكلات الإدارة في بلد أجنبي تركها على النحو الذي كان مالوفاً في ذلك البلد ، إلا ما كان فيه خلاف للدين .

وكل من ولّاه النبي عليه السلام في حياته عملاً من الأعمال العامة أبقاه الصديق في مكانه ، أوردّه إليه إن كان قد تحول عنه ، أو استأذنه في تحويله عنه إن بدا له من مصلحة المسلمين ما أوجب تحويله ، كما كتب إلى عمرو بن العاص « إني كنت قد رددتك الى العمل الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولائكه مرة وسماه لك أخرى : مبعثك إلى عمان ، إنجازاً لمواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد وليته ثم وليته ، وقد أحبيت – أبا عبد الله – أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه ، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك . »

وأشار عمر بن الخطاب بعزل خالد بن الوليد بعد أن قتل مالك بن نويرة على غير بيّنة قاطعة في رأي عمر ، وتزوج بامرأته في ميدان القتال وهو أمر تكرهه العرب قبل الإسلام وبعد الإسلام . فاختلف الفاروق والصديق اختلافهما الذي يرجع من كل منهما إلى أصل أصيل في الطباع والنظر الى الأشياء والرجال : والفاروق وديدنه أن يوقع الجزاء بمن يستحقه كائناً من كان ، والصديق وديدنه أن يتألف ويستبقي ولا يبتدىء شيئاً بغير سابقة ، وساعده على إبقاء خالد سابقة للنبي عليه السلام معه في

حرب بني جذيمة . فإنه تعجل يومئذ في قتل بعض الأسرى فودّاهم النبي عليه السلام حتى رد إليهم مَيْلَغَةَ الكلب ، ورفع يديه يبرأ إلى الله مما صنع خالد ، ولكنه لم يعزله من الإمرة أو القيادة . فكانت هذه السابقة أمام الصديق يومَ لَمْ خالداً على ما بدر عنه ثم أبقاه .

وما من شيء يدل على تكافؤ العظمة بين الرجلين كما تدل عليه الحجة التي يعتمد عليها كل منهما حين يختلفان . فاختلفا قط بحجة تضعف من ناحية وحجة تقوى من الناحية الأخرى ، بل كان لكل منهما حجته الناهضة فيما يمنح إليه ، وإن كانت هذه حجة اقتداء ، وهذه حجة ابتداء ..

جاءت الغنائم والأنفال إلى بيت المال لتوزيعها بين من يستحقونها من الرجال والنساء . فكان الفاروق يمنح إلى تمييز الأنصبة على حسب المآثر والأقدار ، وحجته أنه لا يُسوي بين من قاتل رسول الله ومن قاتل مع رسول الله ، وكان الصديق يمنح إلى التسوية بين الأنصبة بغير تمييز ، وحجته أن « الأعمال شيء ثوابه على الله ، وهذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة » .

وما اختلفت حجة الابتداء وحجة الاقتداء - أو ترك الابتداء - كما اختلفت هاتان الحجتان على مساواة في النهوض والإقناع .

وقد جرى الصديق في سياسة الدولة على سنة النبي عليه السلام من مشاورة ذوي الرأي والثقة في كل ما جلّ أو دعا إلى السؤال ، ولكنه

كان يستقل بالرأي حين تكون التبعة فيه تبعته دون غيره ، كما استقل
بالرأي في اختيار الخليفة من بعده ، واستقام له بعد المشاورة والروية أن
يعهد بالخلافة إلى عمر بن الخطاب .

فخلاصة ما يقال في سياسة الصديق للدولة الإسلامية على عهده
أنها كانت سياسة المقتدي المقتدر الفعال الذي يصغي إلى النصح ممن
يرون التصرف والتمييز والابتداء ، ولم يكن قط مقتدياً على ضعف
وتواكل وإلقاء بالتبعة على غيره ، بل ربما اقتدى ليعمل ما هو
أصعب وأعضل وأنهض بالتبعة من أعمال المتصرفين .

وإذا حسبت لأبي بكر بعوث أسامة وبعوث الردة وبعوث فارس
والروم ، فلا بد أن يحسب له عمل آخر لا يدخل في باب البعوث ، ولكنه
أقوم للدولة الإسلامية من جميع هذه البعوث ، لأنه دستور هذه الأمة التي
لم تقم لها قائمة بغيره ، وهو جمع القرآن .

وقد كانت سنته في جمع القرآن سنته الواضحة التي لا تحيد عنها :
وهي سنة الاقتداء والإصغاء إلى القويم من الآراء . فلما مات من مات
من حفاظ القرآن في حروب الردة وخيف على من بقي منهم أن تأتي
عليهم حروب فارس والروم كبر الأمر على عمر فآشار على الخليفة بجمع
القرآن . فاحجم بادئ الرأي ، وهو يقول : كيف أفعل شيئاً لم يفعله

رسول الله ؟ ثم انشرح صدره لما أشار به عمر فتجرد له بجميع عزمه ،
وانقضت خلافته على القول الأشهر والقرآن بمجموع مفروغ من كتابته في
المصاحف كما تقرأه الآن .

وكانت الدولة الإسلامية بهذه المثابة أمانة أعظم بها من أمانة تنوء بها
كواهل الرجال . يقول من شاء ما شاء في دراسة هذه الفترة الخالدة ، إلا
شيئاً واحداً لا يقول عارف بما يقول ، وهو أن أحداً كان يتلقى تلك الأمانة
خيراً من تلقيه أو يسلمها خيراً من إسلامه ، منذ ان تلقاها بيد من النبي
عليه السلام حتى أسلمها بيد إلى عمر بن الخطاب .



الصِّدِّيقُ وَالْحُكُومَةُ الْعَصْرِيَّةُ

قلنا في الفصل السابق عن الصديق والدولة الإسلامية إن الحاجة لم تدع في عهده إلى نظام غير النظام الذي سنه النبي عليه السلام لسياسة الجزيرة العربية ، وإنه - رضي الله عنه - قد توفي ولما تستقر الأمور في البلاد المفتوحة على حال تدعو إلى اتباع نظام شامل لكل قطر من أقطار الدولة الإسلامية .

إلا أن الصديق كان أول خليفة قام بالحكم الإسلامي بعد عهد النبوة فمن الطبيعي أن نسال عن نوع الحكم الذي توصف به حكومته وحكومة الخلفاء من بعده ، وأن نعرف وجه المشابهة بين تلك الحكومة وحكومة العصر التي قامت على المبادئ الدستورية الحديثة . فأي حكومة هي حكومة الصديق أو حكومة الإسلام في عهده ؟ وأي عناوين هو أقرب إليها من عناوين الحكم في هذا العصر الحديث ؟

الديمقراطية - ولا ريب - هي أقرب النظم إلى نظام الحكم في عهد الصديق .

ولكن الديمقراطية أشكال تختلف في العصر الواحد بين أمة وأمة ، ولها قواعد دستورية ومقدمات تاريخية من العسير أن نوحّد بينها وبين قواعد الخلافة ومقدماتها ، ومن السهل جدًّا مع هذا أن نصدّف عن هذا التوحيد دون أن نُغض من نوع الحكومة في صدر الاسلام .

فليس من الحق أن حكومة الاسلام يومئذ توصف بالديمقراطية على المعنى الذي نفهمه من هذه الكلمة في هذه الايام .

ولكن من الحق أن الحكومة الاسلامية على النحو الذي جاء به القرآن الكريم واتفق عليه المسلمون كانت بعيدة كل البعد من جميع أنواع الحكومة المعيبة أو جميع المبادئ التي تستند في تقرير حكم الشعوب على أساس معيب ..

فإذا كانت حكومة الخلافة لم تقرر الديمقراطية على أساسها العصري المعروف بيننا فهي - بلا ريب - قد أبعدت مبادئ الاوتوقراطية ، ومبادئ الشيوقراطية ، ومبادئ الأليجاركية ، ومبادئ حكومة الغوغاء ، وسائر المبادئ التي لا تستقيم مع حرية الفرد ومع الفطرة السليمة .

فالأتوقراطية وهي حكومة الفرد المستبد ممنوعة في الاسلام ، لأن القرآن الكريم يأمر النبي أن يشاورهم في الأمر وينص على أن « أمرهم

شُورَى بينهم . وإذا كان النبي الذي يتلقى الوحي الإلهي لا يحيل عن مشاورة أتباعه والرجوع إلى رأيهم في سياسته ، فغيره من ولاة الأمر أولى أن يتقيد بالشورى ويتجنب حكومة الطغيان .

والثيوقراطية وهي الحكومة التي يدعي فيها الحاكمون صفة إلهية ممنوعة كذلك في الإسلام ، لأن القرآن الكريم يعلم المسلمين أن النبي بشر مثلهم ويُبْطِل الكهانة والوساطة بين الأنسـان وربـه ، وقد نهى النبي وولاته وأمرأه جيشه أن يُبرموا العهود باسم الله أو باسم رسوله ، فكان يقول لمن ولاه : « . . . لا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله » .

ولما قيل للصديق : يا خليفة الله ، أنكر ذلك وقال : إنما أنا خليفة رسول الله ، وسأل الناس أن يُقَوِّموه ويرشدوه .

والأليجاركية وهي حكومة الفئة القليلة من الأعيان والسروات ممنوعة كذلك من المسلمين ، لأن بيعة الخاصة في الإسلام لا تُغني عن بيعة العامة وليس في الإسلام سيادة نسب كما جاء في الحديث الشريف : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كان رأسه زبيبة » .

وحكومة الأهواء سواء كانت أهواء الوجوه أو أهواء السواد ممنوعة كما منعت الحكومات التي أسلفناها . فليست أهواء المحكومين مُغنية عن أصول الحق والعدل ودستور الشريعة والنظام ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم : « فاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ نَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ،

لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا... .

وإذا امتنعت كل هذه المبادئ المعيبة في حكم الناس فقد صلحت الحكومة بما شئت من الصفات والعناوين . إذ الحكومة على تعدد أنواعها إنما تنحصر في نوعين اثنين هما النوعان اللذان فرق بينهما أرسطو في أصول السياسة : أو هما الحكومة الصالحة لمصلحة المحكومين ، والحكومة الفاسدة لمصلحة الحاكمين . وكل ما عدا ذلك من الصفات والعناوين فهو داخل في أحدهذين النوعين .

فإذا لم تكن حكومة الصديق ديمقراطية حديثة فالديمقراطية لا تتوخى من الحكم غاية أفضل من الغاية التي تتوخاها حكومة الخلافة ، ولا تبعد من المبادئ شيئاً غير المبادئ التي أبعدها الحكومة الإسلامية بما نص عليه القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو اتفاق المسلمين .

أما الحكومة من حيث علاقتها بشخص الخليفة وخلائقه النفسية فخلائق أبي بكر التي عرفناها دليل عليها : عفة وصدق ودعة وحزم وأناة وكيّس ، وكل ما يعهده من هذه الخلائق فهو معهود من الخليفة الأول في جميع ما حكم به وتولاه .

ولي الخلافة فأصبح ذات يوم وعلى ساعده أبراد يذهب بها إلى السوق ، فلقبه عمر فسأله : أين تريد ؟ قال : إلى السوق . قال : تصنع ماذا وقد

وُلّيت أمر المسلمين ؟ قال : فمن أين أطعم عيالي ؟ فأشار عليه أن يذهب
إلى أبي عبيدة أمين بيت المال ليفرض له قوته وقوت عياله . ففرضت له
سنة آلاف درهم في السنة .

وكان يقيم بالسنح على مقربة من المدينة فتعود أن يحلب للضعفاء
أغنامهم كرماء منه ورفقا بهم . فسمع جارية تقول بعد مبايعته بالخلافة :
اليوم لا تحلب لنا مفاتيح دار . فسمعها فقال : بلى لعمرى لأحلبنها لكم .
فكان يحلبها وربما سال صاحبها : يا جارية ! أتحبين أن أرغي لك أو
أصرح ؟ فربما قالت : أرغ ، وربما قالت صرح . فاي ذلك قالته فعل .

ثم تكاثرت أعمال الحكومة فانتقل إلى المدينة ورأى أن يعين نفسه على
النفقة بالتجارة حيثما استطاعها . فلما حضرته الوفاة أمر أن يُحصى ما
أخذه من بيت المال فيرد من ماله وأرضه وقال لعائشة رضي الله عنها :
« فإذا أنا مت فردي إليهم صحقتهم وعبيدهم ولقحتهم ورحاهم ودثارة ما
فوقي اتقيت بها البرد ودثارة ما تحتي اتقيت بها نزع الأرض . كان حشوها
قطع السعف »

وما روي عن عفته وزهده أن امرأته اشتتت حلوا واستفضلت من
نفقتها في عدة أيام ما تشتريه به ، فلما علم ذلك رد الدرهمات إلى بيت المال
وأسقط من نفقته كل يوم ما فضل منها لثمن الحلوى .

وما كان صديق النبي وصفه ليبيح لنفسه ما لم يبيحه النبي وإن
استطاع من خاصة ماله ، فضلا عن بيت مال المسلمين .

وكان حكمه إلى الرفق والإنابة والكياسة ، غير غافل عن اليقظة والحزم حيثما وجبت يقظة وحزم .

فكان يتقصى أخبار الولاة ويسأل الرعية : هل من أحد يتشكى ظُلامة ؟ فإن وجد ظلامة أنصف المظلوم على سنته التي استنتها ، وهي أن الكبير صغير حتى يأخذ الحق منه .

وكان يوصي قائده : « ألا تغفل عن أهل عسكري فتفسده ، ولا تتجسس عليهم فتفضحهم ، ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلايتهم » . أو يقول : اقبل علانيتهم وكلهم إلى سرائرهم ، ويأمره مع ذلك ألا يغفل عن استطلاع أمرهم لإصلاح ما فسد منه .

وإلى كياسته يرجع الفضل في تغليب مبدأ من أسلم مبادئ القضاء قديمها وحديثها ، أخذ به رجال المسلمين في قضائهم واتبعتهم الحكومات العصرية جميعاً في قضائها ، ونعني به المبدأ الذي يجرّم على القاضي أن يحكم بعلمه في إقامة الحدود ، وقد آثره الصديق رضي الله عنه فقال « لو رأيت رجلاً على حَدٍّ من حدود الله لم آخذه حتى يكون معي شاهد غيري » .

وما حفظت له وصية قط إلا ظهر فيها خلقاه الغالبان ، الكياسة والصدق ، فإذا حذر الولاة أن يكشفوا عن أسرار الناس لم ينس قط تحذيرهم من إخلاف الوعد والوعيد ، وجماع ذلك قوله لعكرمة : « مهما

قلت إني فاعل فافعله ، ولا تجعل قولك لغواً في عقوبة ولا عفو ، ولا ترج إذا أمنت ولا تخافن إذا خوفت ، ولكن انظر ماذا تقول وما تقول ، ولا تعدن معصية بأكثر من عقوبتها ، فإن فعلت أثمت وإن تركت كذبت .
جری حکمه كله على هذه السنة من الرفق والصدق ومن اليقظة والحزم ، ومن الكيس والفتنة ، لم تؤخذ عنيه إلا بادرة واحدة هي إحراقه الفجأة في ساعة من ساعات الحدة التي كان يغالبها جهده ، حتى غلبته مرة في عقاب هذا اللص الخاتل السفاح .

وكان الفجأة هذا — أو إياس بن عبد ياليل — قد جاء الصديق فاستعان به بالسلاح لقتال المرتدين ، فلما أعطاه السلاح أخذه ليقطع الطريق ويعيث في الأرض ويشن فيمن صادفه قتلاً ونهباً من المسلمين كان أو المرتدين ، وتفاقم شره وعظم بغيه حتى وقع في الأسر وجيء به إلى الخليفة وهو يرى أنه قد استحق جزاء أكبر من جزاء القتل لأن جرمه أكبر من جرم قاتل . وقد استثاره هذا الرجل بكل ما يثيره ويذهب بحلمه ورفقه : استثاره بكذبه عليه وهو يفت الكذب ، واستثاره بخداعه إياه وهو يكره أن يعيث به أحد ، واستثاره بتسخيره في قتل المسلمين بما أعطاه من سلاح وعدة ، فأكبر جرمه بمقدار ما يكبر عنده الصدق والكرامة والغيرة على دماء المسلمين ، وأمر به أن يلقي في نار توقد له في مصلى البقيع .

خطأ ولا ريب ..

ولكنه خطأ له عذره ، وخطأ في رأي أبي بكر نفسه قد ندم عليه بعد

فورة الغضب التي ذهبت بحلمه ورفقه ، وقد ظل يذكر هذا الخطأ ويأسف له إلى أن قال وهو يجود بنفسه : « وددت أني لم أكن حرقت الفجاءة السلمي وأنني كنت قتلته سريحا أو خليته نجيحاً ... » .

ومهما يكن من رأي الأقدمين أو المحدثين في هذا الحادث فالخطأ الذي لا جدال فيه أن ندين به الإسلام كله أو ندين به أبا بكر كله في جميع حالاته . ففي كل عصر تقع الحوادث من اشباه هذا الحادث المفرد ولا تحسب على دين أو دولة سواء في العصر القديم أو العصر الحديث .. إنما يحسب على الإسلام ما هو قاعدة من قواعده ، ويحسب على أبي بكر ما هو سنة مطردة في حكومته ، وما عدا ذلك فهو نبوة عارضة عذره فيها فداحة الجرم وشفيعه فيها طول الندم ، فمن غلا في المؤاخذة حتى فتح من هذا الحادث المفرد باباً للمقارنة بين عصر وعصر ، وبين حاكم وحاكم فقد أضاف إلى سوء النية جهله بالعصر الحديث .

وعلى هذا يثبت من شاء هذا الحادث لحكومة أبي بكر ويحذفه من شاء منها ، فلا تزال على الحالين قدوة لأصلح الحكومات العصرية في مزيتين جامعتين : إحداهما إبطال المبادئ الضارة التي تفسد الحكومة على اختلاف صفاتها وعناوينها ودعاواها ، والثانية تقرير الغاية التي لا تفضلها غاية الحكومة إنسانية : وهي حرية الفرد ومصلحة المحكومين .

الصِّدِّيقُ وَالنَّبِيُّ وَصَحْبُهُ

سئل النبي عليه السلام : يا رسول الله ! أي الناس أحب إليك ؟
قال : عائشة .

قالوا : إنما نعني من الرجال ..
قال : أبوها .

وكان عليه السلام يقول : ما لأحد عندنا يدٌ إلا وقد كافيناه بها ما خلا
أبا بكر ، فإن له يداً يكافيه الله بها يوم القيامة .
ويفسر ذلك قوله عليه السلام : ما أحدٌ أعظم عندي يداً من أبي بكر :
واساني بنفسه وماله ، وأنكحني ابنته .

وكان عمر بن الخطاب يقول : أبو بكر سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذه حقيقة لو لم يؤيدها لسان المقال لأيدها ما يسمونه بلسان الحال .
فإن أبا بكر كان ألزم الناس للنبي وأعرفهم بسرّه وجهره وأقربهم إلى

ثقتة وحسن رأيه ، وكان النبي عليه السلام يسمر عنده في شئون المسلمين ويركن إلى مشورته في كثير من الأحيان ، وإذا بلغ من شأن رجل أن يكون أحب الناس إلى النبي عليه السلام فهو أهل لحبه وأهل لثقتة لا مرأى ، لأن هذا الحب في النفوس العظيمة قرين الثقة والتقدير لا يخالو منها ولا ينفصل عنها - فمن استحق منها الحب الراجح فقد استحق عندها الثقة الراجعة في آن .

فلم يكن حب النبي أبا بكر حب الرجل يحزي به من يحبه ويخلص له ويوليه الجميل من ذات نفسه وماله ثم لا مزيد . ولكنه كان كذلك حب الرجل من يستحق منه الحب لفضيلته وكفايته واقتداره على معاونته فيما تجرد له من عمل عظيم لا يضطلع به كل معين .

وحين قدمه للإمامة من بعده لم تكن وسيلته إليها حب الإخلاص والجزاء ، بل كانت وسيلته إليها حب الثقة والروية وحب الدعوة التي تجرد لها وحب المسلمين الذين آمنوا بتلك الدعوة . فإن نبياً كمحمد عليه السلام لا يجعل مستقبل دينه مكافأة لصداقة إنسان ، وإنما يكفل هذا المستقبل لمن هو أهل لأمانته وأقدر على صيانتها ، وهو من أجل ذلك أهل للحب وأهل للبُقية والادخار .

أما حب أبي بكر محمداً فهو كما قدمناه حب الإيمان والإعجاب والولاء ، وهو الحب الذي تهون فيه على المرء نفسه وماله وذووه ، وينزعه من ماضيه ليستولي على حاضره كله وما هو أعز عليه من الحاضر وما

فيه ، وهو الأمل فيما يشهد والأمل فيما وراء الغيب ، بل الأمل في حياة
لن تبيد .

فمنذ اللحظة التي انعقدت فيها الصداقة بينها رضي الصديق الأمين
أن يسخو في سبيل هذه الصداقة بكل نفيس عنده وكل أثر لديه وأنفق
ماله وفارق وطنه وأبناءه وهاجر من مكة مخاطراً بحياته ، فما همّهُ وهو
محفوف بالخطر في طريقه إلا صاحبه الذي معه يفديه بما وسعه من فداء :
ليسبقه تارة ويخلفه تارة أخرى ليدراً عنه الشر من حيثاً توقعه واتقاه ، ثم
يقيم على هذا العهد ما أقام في دنياءه ، غير باخل بعزير ، ولا ناكص عن
محذور ولا نادم على مبذول أو مفقود .

ومن فضول القول أن يقال إنه أقام على عهده هذا بعد موت النبي ، كما
أقام عليه طوال حياته ، فكل حركة تحركها وكل كلمة قالها شهيد بذلك
له عند من ينصف ويعقل ، بل عند من يعقل ولو لم يكن من المنصفين .
إذ ليس من العقل أن يقبح قاذح في ولاء الصديق للنبي بما حرم
فاطمة رضي الله عنهما من ميراث أبيها . فلئن حرمها لقد حرم عائشة مثلها ،
لأن الأنبياء في شرعة محمد لا يورثون ، وما أراد أبو بكر أن يرضن بميراث
محمد على وارثيه ومنهم بنته وأحب الناس إليه ، ولكنه أراد أن يرضن
بدينه ويرضن بوصاياه ، وهي أولى أن تصان من المال ومن البنين ، كذلك
لا يقال إنه حرم علياً رضي الله عنه حقاً في الخلافة ، فما كان في وسعه أن
يحرمه شيئاً لو كان عليه السلام قد وصى له بشيء ، وما كانت فاطمة بغائبة

عن سرير أبيها في مرض موته فيقال إنهم قد كتموا عن النبي بعض ما قال، ولا كان عليٌّ بالذي يعوزه المنطق لو أنه أراد البرهان من القرآن الكريم أو أراد الحجة من الحديث الشريف . ومن أين لأبي بكر تلك القوة التي ينتزع بها الخلافة انتزاعاً من آل النبي ومن الأنصار والمهاجرين بغير حجة وبغير برهان ؟ لئن استطاع ذلك غير محتمل ولا مغتال ولا سافك دم لكفى بذلك آية له أنه أحق المسلمين بولاية أمر الإسلام وأقدرهم عليها . وما استطاعه بعد ذلك من تثبيت الدين وقمع الفتنة وافتتاح الدولة هو الآية بعد الآية والتمكين فوق التمكين .

لقد حدث بعد النبي ما لا بد أن يحدث ، وما ليس بكثير أن يحدث في موقف مقتضب لم يُمهّد له بسابق متبوع ولا بقدوة مأمومة ، فتأخر عليٌّ على المبايعة أشهراً وقيل إنه لم يتأخر غير أيام بل ساعات ، فلا هو ولا أبو بكر صنعا ما يعاب في هذه الفترة طالت أو قصرت ، لأن أبا بكر كان نندب عليّاً للمهات في حراسة المدينة وعليٌّ كان يلبي ندبة أبي بكر تلبية الصدق والنجدة . ولو صح أن أبا بكر أخفى حقاً يشينه إخفاؤه لما أقرّ عليٌّ له ببيعة ، ولا رضى له ولا لمن بعده بصحبة ، فكيف لو صح ما تهوَّس به بعض المتهوسين من إخفاء آيات من القرآن أو كلمات من الحديث ؟

جهد ما يقال في أحداث تلك الفترة أنها مدعاة أسف لا يؤسى عليه ، لأنها أقل ما يؤسف له إلى جانب الغبطة التي يغتبط بها من أحاط بالموقف

وأحاط بدواعي الخطر فيه ودواعي السلامة منه .

أما عهده لعمر من بعده فلا محل هنا للموازنة بين استخلاف عمر واستخلاف عليٍّ في تلك الآونة، ولكننا نقول إن الصديق قد جهد في مسألة العهد جهد رأيهِ ، وإنه كان يود أن يكل الأمر الى المسلمين يختارون من يشاءون ، فجمع إليه نخبة من أهل الرأي وقال لهم فيما قال : « ... قد أطلق الله أيمانكم من بيعتي ، وحل عنكم عقدتي ، ورد عليكم أمركم ، فأمرُوا عليكم من أحببتُمْ ، فإنكم إن أمّرتُمْ في حياة مني كان أجدر ألا تختلفوا بعدي » .

فلم يستقم لهم أمر كما جاء في رواية الحسن البصري ، ورجعوا اليه يقولون : « إن الرأي يا خليفة رسول الله رأيك » فاستمهمهم حتى « ينظر الله وليّنه ولعباده » .

ثم استقر رأيهِ على استخلاف عمر بعد مشاورة عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وسعيد بن زيد وأسيد بن الحضير .

وسال عليّاً فقال : « عمر عند ظنك به ورأيك فيه ، إن وليته - مع أنه كان والياً معك - نحظى برأيهِ وناخذ منه ، فامض لما تريد ، ودع مخاطبة الرجل ، فإن يكن على ما ظننت إن شاء الله فله عمدت ، وإن يكن ما لا تظن لم ترد إلا الخير » .

وأملى أبو بكر كتاب العهد على عثمان بن عفان فكتبه وختمه وخرج به مختوماً ونادى في الناس : أتبايعون لمن في هذا الكتاب ؟ ... وقيل إن

أبا بكر أشرف من كُوتِه فقال : « يا أيها الناس ! إني قد عهدت عهداً
أفترضونه ؟ » فقالوا : « رضينا يا خليفة رسول الله . وقام عليٌّ فقال : لا
نرضى إلا أن يكون عمر .

ثم كانت البيعة التي أجمع عليها المسلمون .

فالمسألتان اللتان حسبنا من قبيل الخلاف بين الصديق وعِترَةِ النبي
عليه السلام هما هاتان المسألتان : الميراث والخلافة .

ففي مسألة الميراث ما كان له أن يُبرم فيها غير ما أبرم وقد علم أن
النبي لا يورث كما قال عليه السلام ، وكان حكم عائشة في هذا كحكم
فاطمة رضي الله عنهما ، وقد حضرته الوفاة وهو يوصي عائشة أن تنزل
للمسلمين عما وهب لها من ماله ، وإنه حلُّ لها بالهبة والميراث .

وفي مسألة الخلافة لا تحمد المجاملة حيث تكون المجاملة إخلالاً بالذمة
التي بينه وبين ربه ، وإخلالاً بالوحدة الإسلامية ومصالح المسلمين
مجتمعين .

وفيهما عدا هاتين المسألتين لم يكن من أبي بكر في حق فاطمة إلا
أحسن المجاملة والإجمال ، ولم يكن منه تقصير قط في تعهد البيت النبوي
بما يصون وقاره ، ويحمي جواره ، بل كان منه في حق أهل البيت كل ما
يرضي ويريح .

وجرى أبو بكر في معاملته لصحابة النبي على طبعه الذي فطر عليه ، وهو الرفق والمروءة والحياء . فاحسن صحبتهم وأثبت لهم ما أثبتته النبي لهم في حياته ، ولم يكن منه في حقهم ما يشكونه إلا ما شكاه منه بعضهم حين التسوية بينهم وبين العبيد والنساء في حصة بيت المال ، وذلك رأي له قدمنا حجته فيه ، فأقذارهم عند الله يحزبهم عليها الله ، وهذا معاش تحسن فيه المساواة بين الناس .

وكان أقربهم إليه وأجمعهم لثقتهم وحسن ظنه عمر بن الخطاب : عرفه على حقيقته التي جهلها بعض الصحابة ، وعرف ما في باطن نفسه من رحمة تخفيها خشونة ملمسه وشدته في عمله . فلما سأل عنه عبد الرحمن ابن عوف أجابه : « إنه أفضل من رأيك فيه . ولكن فيه غلظة » فقال عن خبرة به : « هو كذلك لأنه يراني رقيقاً ، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو فيه » .

وقد أثر أبو بكر أن يبقى عنده نخبة الصحابة في المدينة فلا يقصدهم في الولايات ولا يفرقهم بين الأقطار ، لأنهم أحق الناس أن يستشيرهم ويرجع إليهم ويشرّكهم معه في رقابة العمال والولاة ، وسئل في أهل بدر : لم لا يوليهم عملاً فقال : أكره أن أدنسهم بالدنيا ، ولعله يريد بالتدنيس تعريضهم لفتنة الدنيا وشهوة الحكم وغواية المال والمتاع .

ولا ندري على التحقيق أي الصاحبين كان صاحب الفكرة الأولى في هذه السياسة التي اتفقا عليها ولم ينحرفا عنها قط في عهديهما إلا لضرورة

نادرة . ونعني بها سياسة الإقلال من إسناد الأعمال إلى كبار الصحابة .

فعمر كان مشتدّاً في اتباع هذه السياسة حتى ليخطر على البال أنه هو صاحب الفكرة السابقة فيها ، وكان أبو بكر يخالفها حيناً فيحاول عمر ان يرده اليها . قال « لما خرج معاذ بن جبل إلى الشام أخلّ خروجه بالمدينة واهلها في الفقه وما كان يفتيهم به ، ولقد كنت كلمت أبا بكر رحمه الله أن يحبس حاجة الناس إليه ، فأبى عليّ ، وقال : رجل أراد جهاداً يريد الشهادة فلا أحبسه ، فقلت : والله إن الرجل ليرزق الشهادة وهو على فراشه » .

إلا أن أبا بكر كان يحاذر انطلاق بعض الصحابة محاذرة الرجل الذي امتلاً بيقين رأيه ولم يستمده من مشورة غيره . فلم ينس ان يحذر عمر هذا التحذير في وصيته إياه بعد استخلافه حيث قال :

« واحذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم وأحب كل امرئ منهم لنفسه ، وإن منهم لحيرة عند زلة واحد منهم ، فإياك أن تكونه ، واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله ... »

وفاض هذا الرأي من لسانه حين أحس من بعض المهاجرين طمعاً في الاستخلاف دون عمر بن الخطاب ، فقال لعبد الرحمن بن عوف وقد دخل عليه يعوده :

« ... ما لقيت منكم أيها المهاجرون أشدّ عليّ من وجعي ، إني وليت

أمركم خيركم في نفسي، فكلكم ورم أنفه أن يكون له الأمر دونه ، ورأيت
الدنيا قد أقبلت ، ولما تقبل ، وهي مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير
ونضائد الديباج وحتى يالم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الأذري^(١) كما
يالم أحدكم إذا نام على حسك السعدان . والذي نفسي بيده لأن يقدم أحدكم
فيضرب عنقه في غير حد خير له من أن يخوض غمرات الدنيا . ثم أنتم
غداً أول ضال بالناس يميناً وشمالاً ، لا تضيعوهم عن الطريق . يا هادي
الطريق جرت^١ .

فهذا كلام رجل ممتلىء النفس باليقين مما يقول ، فليس هو برأي انتقل
إليه من غيره استحسنته وارتضاه ، ولكنه - فيما نرجح - رأي اتفقا عليه
وقلباه بينهما فازداد كل منهما يقيناً به فوق يقين .

على أن هذه النصائح القوية بين يدي الموت تكشف من حياة أبي
بكر ما ليست تكشفه الأخبار المطولة والأقوال المستفيضة ، فهي تشهد
له أنه قد سار في حياته تلك السيرة التي يريدنا من الصحابة ويحث عليها
أناساً في منزلة عبد الرحمن بن عوف وعمر بن الخطاب ، وإن تلك السيرة
كانت من البدائع المعروفة التي يصدر عن صاحبها النصح فيسمعه أمثال
هؤلاء الصحابييين الكبار . وقد كانت هذه في الواقع منزلة أبي بكر
بين الصحابة عامة وخاصة : استحقها بينهم بسابق إسلامه وقديم صحبته

(١) منسوب إلى أذربيجان .

للنبي صلوات الله عليه ، واستحقها بريضة نفسه على الكرامة والوقار حتى
امتلات النفوس حوله بكرامته ووقاره ، ولم يكن أحد غير أبي بكر
يسكت عمر بن الخطاب وقد ثار ثورته بعد موت النبي ، او يسكته وقد
نهض للكلام أول مرة في سقيفة بني ساعدة ، وما أسكته يومئذ لأنه خليفة
فما كان يومئذ بالخليفة ولا كان عمر بالذي تسكته هيبة منصب او سطوة
سلطان ، ولكنه رجل وقور يستمع له رجل حق. وناهيك بمن يهابه عمر
ابن الخطاب ! إنه لأحق امرئ بين الصحابة أن يهاب .



ثَقَافَتُهُ

تُعرف ثقافة الرجل المثقف بعلامات كثيرة ، ولو لم تكن لها بالفكر والاطلاع صلة ظاهرة .

وندر أن يظهر من الإنسان أثر محسوس إلا كان فيه علامة من العلامات على نصيبه من ثقافة زمانه .

على أن هذه العلامات تتفاوت في الدلالة كما تتفاوت في القيمة ، وأدناها وأقومها – فيما نرى – كلام الإنسان ورأيه في كلام غيره . لأن الكلام صورة نفسية وقدرة عقلية في وقت واحد . فهو يكشف عن نفس قائله كما يكشف عن قدرة عقله ومبلغ عرفانه بتصوير خلجات قلبه وخطرات ذهنه ، فتقديره لكلامه وكلام الناس ميزان صادق لتقدير الرجل في جملة أحواله وأفعاله ، وعلامة على الثقافة الروحية والفكرية فلما تضارعا علامة أخرى .

وتقدير الكلام من أصدق العلامات على ثقافة الصديق ، سواء نظرنا

في وزنه لكلامه أو في وزنه لكلام غيره ، أو في وزنه للكلام عامة من حيث هو جزء من « الشخصية الإنسانية » يحرص عليه المرء كما يحرص على مقومات نفسه .

فالصديق كان أحرص الناس على كلام يبدر من لسانه ، وكان أعلم الناس بموضع كلام الرجل من مروءته وشرفه، فكان قوله نزرأ، ووصيته بالإقلال من المقال أسبق وصاياه إلى ولاته وعماله . قال لخالد بن الوليد : « أقل من الكلام فإنما لك ما وعي عنك » . وقال ليزيد بن أبي سفيان : « إذا وعظتهم فأوجز ، فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً » ، وكان يقول : « إن البلاء موكل بالمتطق » ويحتنب التريد في المقال كما يحتنب التعرض للبلاء .

كان أقرب الصحابة إلى النبي عليه السلام وألزمهم له في نهاره وليله ، ولكنه على هذه الملازمة لم يرو من الأحاديث النبوية إلا نيفاً ومائة وأربعين حديثاً لم يتجاوز ما أثبتته البخاري ومسلم نحو سبعها . وقيل في تعليل ذلك إنه رضي الله عنه مات قبل تدوين الأحاديث ، وهو تعليل يرد عليه أن كثيراً من سمعوا الأحاديث النبوية ماتوا كذلك قبل الاشتغال بتدوينها، وإنما هي قلة كلامه فيما نرى أقلت ما سمع الناس عنه فحرروه ونقلوه . ذلك وزنه للكلام عامة من حيث هو ملكة نفسية وجزء من الشخصية الإنسانية .

أما كلامه هو فن أرجح ما قيل في موازين الكلام ، سواء في ذلك موازين البلاغة أو موازين الخلق والحكمة ، وله من جوامع الكلم أمثلة

نادرة تدل الواحدة منها على ملكة صاحبها فيغني القليل منها عن الكثير
كما تغني السنبلة الواحدة عن الجرين الحافل ، حين تكون المسألة مسألة
الدلالة على المنبت والنبات .

فحسبك أن تعلم معدن القول من نفسه وفكره حين تسمع كلمة
كقوله : « احرص على الموت توهب لك الحياة » ، أو قوله : « أصدق
الصدق الأمانة وأكذب الكذب الخيانة » ، أو قوله : « خير الخصلتين
أبغضهما إليك » ، أو قوله « الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله » أو
قوله : « إذا فاتك خير فأدركه وإن أدركك فاسبقه » ، أو قوله : « لا
تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك » أو قوله : « ليست مع
العزاء مصيبة » فهي وما أثر عنه من أمثالها كلمات تتسم بالقصد والسداد ،
كما تتسم بالبلاغة وحسن التعبير ، وتنبيء عن المعدن الذي نجمت منه
فتغني عن علامات التثقيف التي يستكثر منها المستكثرون ، لأن هذا الفهم
الأصيل هو اللبّاب المقصود من التثقيف .

وكانت له - رضي الله عنه - لباقة في الخطاب إلى جانب هذه البلاغة
في الكلام ، وهذا الجد في وزن المقال .

عزّي عمرَ في طفل احتسبه فقال له : « عوضك الله منه ما عوضه
منك » وسأل رجلاً يحمل ثوباً : أتبيع هذا الثوب ؟ فأجاب : لا ...
عافاك الله ! قال : هلا قلت لا وعافاك الله !

وهذا تمام البصر بالكلام ، قصد في العبارة ، ووزن للكلام ، وذوق في الخطاب ، ولا تتعرف النفس المثقفة إلى الناس بأية هي أقرب من هذه الآية وأحق منها بالتصديق .

ومن السهل على من يملك هذا البيان في كلامه أن يتتبع شواهد البيان في كلام الآخرين . ولعل الصديق قد ملك هذا البيان لأنه طبع عليه وطبع على حبه فتتبعه في كلام البلغاء من الخطباء والشعراء . فكان يروي الشعر ويحفظ الأمثال ويراجع النبي عليه السلام في الآيات التي يبذل مواضع كلماتها ليخرجها عن وزنها ، ومنه - لا ريب - قبست السيدة عائشة ذلك القبس من ماثورات الشعر والخطب - فيما كانت تتمثل له وترويه ، واليه ترجع السليقة التي ظهرت في ذريته ومنهم ولداه عبدالله وعبدالرحمن وكانا ينظمان الآيات بعد الأبيات . وهو نفسه لم ينظم الشعر فيما أجمع عليه الثقات ، ولكنه - وإن لم ينظم - قريب السليقة من قالوه ولو بالتذوق والحفظ والرواية .

ولهذه الثقافة مراجعها التي ترجع إليها أفضل ثقافات زمانه في الجزيرة العربية : طبع سليم وملاحظة صادقة وخبرة بالدنيا من طريق المعاملة والسياحة ، وإصغاء إلى الحسن من القول ، والوثيق من الأخبار ، وعلم بالأنساب والتواريخ مشهور بين المشهورين من أربابه ، واستيعاب للقرآن كله ولفقه الدين كله ، ودراية بما استوعب من معانيه عن فهم وعن سماع من نزل عليه القرآن الكريم صلوات الله عليه .

قرأ يوماً : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ » فقال : إن الناس يضعون هذه الآية في غير موضعها ، ألا وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن القوم إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، والمنكر فلم يغيروه ، عمهم الله بعقابه » .

وسأل أصحابه يوماً : ما تقولون في هاتين الآيتين : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » و « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ » ؟ قالوا : لم يلبسوا إيمانهم بظلم الخطيئة . فقال : لقد حملتموها على غير الحمل : استقاموا فلم يلبسوا إيمانهم بشرك .

وإن فقه القرآن لينبوع يستمد منه الصديق في سلامة طبعه وصفاء ذهنه مدداً يرجع بأمداد .

فثقافته في زمانه هي ثقافة الفقيه الأديب المؤرخ بما اصطلحوا عليه من معنى التاريخ في ذلك الزمان ..

ولا يتشابه معنى التاريخ عندهم ومعنى التاريخ عندنا كما نتوسع فيه اليوم ، ولكن النسب الذي كان يعلمه الصديق كان هو النسب المحيط بالمحامد والمثالب في القبائل العربية كافة ، وهو أنفع ما في علم التاريخ حين يراد بعلمه الطموح إلى منزلة الحمد والسمعة الرفيعة والتنزه عنه معارض الذم وقالة السوء ، وكذلك كان علم الصديق بأنساب العرب أجمعين ..

لما خرج النبي عليه السلام ليَعرض نفسه على القبائل في أول الدعوة الإسلامية كان معه أبو بكر وعلي بن أبي طالب أسبق الناس إلى الإسلام .

قال علي رضي الله عنه : « فرفعنا إلى مجلس من مجالس العرب ، فتقدم أبو بكر فسَلَّم ، وكان مقدماً في كل خير ، وكان رجلاً نَسَّابة فقال : من القوم : قالوا : من ربيعة ، قال : وأي ربيعة أنتم ؟ أمن هاماتها أو من هازمها ؟ قالوا : من هاماتها العظمى . قال : وأي هاماتها العظمى أنتم ؟ قالوا من ذهل الأكبر . قال : فمنكم عوف بن مُحَلِّم الذي يقال فيه : لا حرّ بوادي عوف ؟ قالوا : لا . قال : فمنكم المزدلف الحر صاحب العمامة الفردة ؟ قالوا : لا . قال : فمنكم بسطام بن قيس أبو القرى ومنتهى الأحياء ؟ قالوا : لا . قال : فمنكم جَسَّاس بن مرة حامي الذمار ومانع الجار ؟ قالوا : لا . قال : فمنكم الحوفزان قاتل الملوك وسالب أنفسها . قالوا : لا . قال : فمنكم أصهار الملوك من كندة ؟ قالوا : لا . قال : فمنكم أصهار الملوك من لخم ؟ قالوا : لا . قال أبو بكر : فلستم ذهلًا الأكبر . إنما أنتم ذهل الأصغر . »

وكان هذا علمه بأنساب كل قبيلة ومحامد السابقين منها ومثالبهم ولا سيما قريش ومن جاورها . ولهذا كانوا يقولون كلما سمعوا أبياتاً من الشعراء المسلمين يردون بها الهجاء على المشركين : هذا تلقين ابن أبي قحافة وما عداه . لأنه كان في هذا العلم بين قريش عامة بغير نظير .

ونحن لا ننتظر بداهة من كل رجل تيسرت له هذه المراجع ان يبلغ
من الثقافة مبلغ ابي بكر الذي تدل عليه اقواله واعماله وخلائقه وسجاياه.
ولكننا إذا علمنا أن تلك مراجعه وأن ذلك مبلغه فقد علمنا شيئاً آخر
نقصه وتحراره، وهو أنه رجل خلق من معدن العظمة والامتياز ، ولم
يخلق رجلاً كسائر الرجال .

الصديق في بيته

من السهل بعد مراجعة يسيرة لحياة الصديق في جملتها أن نعلم أنه « رجل بيت » أو « رجل أسرة » وأن أوامره البيتية لا تستند إلى الشعور بالواجب وحده ، ولكنها تستند مع الشعور بالواجب إلى الشعور بغبطة القرابة ومودة الرحم ونعمة الألفة والمصاحبة ، فلم يكن ولداً باراً لأن البر بالآباء واجب وكفى ، ولا أباً رحيماً لأن الرحمة بالأبناء غريزة وكفى ، ولا زوجاً وفياً لأن الوفاء للأهل واجب وكفى ، ولكنه كان كذلك كما كان في جميع أوامره وعلاقاته : رجلاً يشعر بالغبطة في جوار أبناء جنسه ، ويأنس للصحبة في جو الشعراء والأصدقاء ، ويتجلى فيه خلق الإنسان « الاجتماعي بطبعه » على أخلصه وأوفاه .

عُرف به بابويه في الجاهلية ، فلما أسلم وصاحب النبي عليه السلام جمع بين بر الفطرة والحنان وبر الواجب والفريضة ، واطمأن إلى هذا البر كما يطمئن صاحب الخير الذي لا جزاء عليه أن يصبح وله من الخطوة الإلهية أجمل جزاء .

وعرف عطفه على أبنائه طوال حياته ، فما داخلته في عطفه عليهم
قسوة أو شدة إلا أن يكون ذلك بدافع من العقيدة أو وازع من التأديب.

قال له بعض أبنائه – وقد كان يقاتل مع المشركين – إنني كنت أراك
فاتحاماك . فقال له : لكنني لو رأيتك لما تحاميتك .

وكان بين عائشة والنبي كلام . فسألها : من ترضين أن يكون بيني
وبينك ؟ أترضين بأبي عبيدة بن الجراح ؟ قالت : لا . ذلك رجل هين
لئن يقضي لك . قال أترضين بأبيك ؟ قالت : نعم .

فلما جاء أبو بكر قال رسول الله : اقصصي !

فقالت : بل اقص أنت .

فاخذ رسول الله في إعادة ما جرى بينهما من كلام ، وبدرت من
عائشة كلمة لا تعنيها فقالت : اقصد ، أي التزم القصد ولا ترد في الرواية ،
فرفع أبو بكر يده فلطمها واتهرها مغضبا : تقولين يا بنت أم رومان
اقصد ! من يقصد إذا لم يقصد رسول الله ! وجعل الدم يسيل من أنفها
ورسول الله يحجز بينها ويقول لصديقه : إنا لم نرد هذا . حتى انصرف
برضى رسول الله . فقال لها ما معناه : رأيت كيف أبعدك الله منه ! أو
قال لمثل هذه المناسبة : « رأيت كيف أنقذتك من الرجل ! » .

ففي هذا وأمثاله يشتد أبو بكر على بنيه وهي شدة قد تقترن بالرحمة ولا تحجبها إلا إلى حين .

وكان لصدق شعوره بالأبوة يحس ما يحتاج إليه الوليد في نشأة الطفولة ويزوده بتلك الحاجة ولو أغضب الآباء وهم عنده أصدق الأصدقاء .
فلما أخذ عمر بن الخطاب ابنه عاصماً من أمه المطلقة تخصماً إليه فقضى بالوليد لأمه وقال لعمر : « ريحها وشمها ولطفها خير له منك » .
فكان غاية الرحمة وغاية العدل في آن ، وإن رجلاً يعدل حين يهيم بالجور عمر لهو من العدل بمكان لا يسامى .

وكادت الصداقة عنده أن تكون أخوة أو بنوة . فكان يتحدث عن عمر يوماً فإذا هو يقول كأنما يتحدث إلى نفسه : « والله إن عمر لأحب الناس إليّ ... » ثم خشي أن يكون في قوله ما يمس الصدق الذي فطر عليه فسأل من معه وفيهم عائشة : كيف قلت ؟ فأعادت له عائشة ما جرى به لسانه ، فاستدرك قائلاً : اللهم أعز والود أوط ، أي ألصق بالقلب وأدنى .

وقد بنى أبو بكر بزوجتين في الجاهلية وزوجتين في الإسلام، منهن أم رومان وهي أم ولديه عبدالرحمن وعائشة رضي الله عنهما ، ومنهن حبيبة بنت خارجة التي مات عنها وهي حامل ، فولدت بعد موته أم كلثوم .

ومن أولاده غير عبدالرحمن وعائشة - عبدالله الذي كان يأتيه بأخبار
قريش حين هاجر مع النبي إلى المدينة . وقد جرح بالطائف ومات بجرحه
بعد انتقاضه . وكانت فيه شجاعة وأدب ورقة ، وله شعر حسن يروي
بعضه في زوجته المطلقة عاتكة بنت زيد وقصته معها من أدلّ أخبار هذه
الأسرة على شعور أبي بكر بالأبوة والزوجية والواجب في وقت واحد ،
وأن المغالبة بين الرحمة والواجب في نفسه كانت مغالبة سجال .
وقد كانت عاتكة من أشهر نساء عصرها بالجمال والعقل والفطنة ،
ففتن بها عبدالله وشغل بها عن مصالحه وشئونهِ ، فنصح له أبوه بطلاقها
فطلقها ، فما زال حتى ندم وألح به الندم على فراقها ، وقال من
شعره فيها :

أعاتك ، لا أنساك ما ذر شارق وما لاح نجم في السماء محلق
أعاتك ، قلبي كل يوم وليلة لديك بما تخفي النفوس معلق
لها خلق جزل ورأي ومنصب وخلق سوي في الحياء مصدق
ولم أر مثلي طلق اليوم مثلها ولا مثلها في غير شيء تطلق

فرحمه أبوه وأمره بمراجعتها ، فراجعها . فكان أبو بكر في هذا
نموذجاً مقابلاً لنموذج عمر في هذه الناحية من الخلاق والوشائج القلبية ،
كما كان نموذجاً مقابلاً له في خلائل شتى ووشائج أخرى . إذ كان عمر
ينعي على ولده أنه عجز عن طلاق امرأته ، ويعد ذلك من مأخذه حين
رشحه بعضهم للخلافة بعده .

ولم يكن لزوجات أبي بكر ما يشتكينه منه غير الإقلال من النفقة

والقصد في المعيشة ، ففي اليوم الذي اجتمعت فيه نساء النبي عليه السلام يطالبنه بالمزيد من النفقة كانت بنت خارجة زوجة أبي بكر تطالبه هذه المطالبة ، فيغضب منها ، ويلوي عنقها ، ويذهب إلى النبي فيحدثه بحديثها ليسري عنه وقد رآه بين أمهات المسلمين على مثل تلك الحالة . فكأنما كن جميعاً على ميعاد .

ولم يكن أبو بكر مقلّاً من المال ، ولا عاجزاً عن كسبه قبل الخلافة ولا بعدها ، فقد أنفق في سبيل الإسلام أربعين ألف درهم ، وما زال ينفق من ماله في شراء الأكسية والأطعمة وتوزيعها على الفقراء ولا سيما في الشتاء ، ولكنه أثر متاع روحه على متاع جسده وكره أن يعيش في بيته خيراً من نبيه وصفيه ، وكان يبغض السرف فيقول : « إني لأبغض أهل البيت ينفقون رزق الأيام في يوم » ... فلو بقي له من المال ما يجاوز به حظه من النفقة لما جاوزه وهو يرى أمامه مثل النبي ويجب أن يكون مثلاً لمن معه ومن بعده من خلفاء الإسلام وعامة أتباعه .

وقد تعددت الروايات عما قسم له من الرزق بعد الخلافة وكيف قسم بمشورة من حضر من جلة الصحابة ومنهم عمر وعثمان وعلي وأبو عبيدة . ولكن الروايات متفقة على قصده في بيته واجتنابه للسرف في معيشته ، وأنه كما قال : « لم يعد سد الجوعة وورثي العورة وقواتة القوام » . ومات وليس عنده مدخر يذكر . فقال عمر : « رحمه الله . لقد أتعب من بعده » . يريد أنه ألزمهم قدوة تتعب ولا تريح .

ونحسب أن النشأة في حياة أبي بكر البيهقي لا تتمثل في شيء كما تتمثل في نشأة بنتيه عائشة وأسماء رضي الله عنهما . فاما عائشة فقد فارقت بيت أبيها وهي في نحو العاشرة أو اكبر من ذلك بقليل كما استخلص بعض المؤرخين من مراجعة التواريخ الكثيرة ، فإذا هي في تلك السن قد وعت ما وعته من الشعر البليغ والأمثال السائرة والأخبار النادرة، وقد نضجت لمصاحبة النبي والوعي عنه والدراية بالماثور من كلامه ، وكانت بعد ذلك مرجعاً من مراجع الفقه والسنة خليفاً باعتماد الثقات الأجلاء .

ومن الناس من تعود أن يتخيل عائشة رضي الله عنها جارية صغيرة حظيت عند زوجها عليه السلام لجمالها وصغرها وصداقة أبيها ، ولكنها - ولا ريب - لم تبلغ هذه الخطوة عنده صلوات الله عليه إلا لأنها الزوجة الكفء لبلوغها والمحافظة عليها ، وكانت تعرف من أدب الزواج ما يحمل بمكانها ، وتعرف من ملاطفة الزوج مداخل قلبه ومواطن رضاه ، وربما دلت زوجها ولم تترك له وحده مسرة تدليلها . فمن ذلك في روايات تختلف في النقل وتتفق في هذا المعنى أنه كان عليه السلام يصلح نعله في يوم قانظ فتندى جبينه وتحدر العرق على خده ، وهي تلحظه من قريب وكان بها وجداً عليه . فسالها :

ما لك بهت ؟

فقلت : لو رأيك أبو كبير الهذلي لعلم أنك أحق بقوله .

فعاد يسألها : أي قوله ؟

فاجابته : حين يقول :

ومبراً من كل غبر حِيضة وفساد مرضعة وداء مُغِيل
وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت بروق العارض المتهلل
فقام النبي إليها يقبل ما بين عينيه ، ويقول لها : سررتني يا عائشة
سرك الله .

فهي أبعد شيء عما يتصوره النقاد الأورييون حين يصورونها
لقرائهم لعبة صغيرة بين يدي رجل كبير يدللها ولا تفاهم بينه وبينها ،
ولكنها الزوجة التي تكافئ الزوج في حياته المنزلية ، والمرأة التي تبادل
الرجل ما عنده من شعور ، والتلميذة التي تتلقى عن أستاذ عظيم فتحسن
التلقي عنه ، وهي من جميع هذه الجوانب مثل صالح للنشأة البيتية في
أسرة الصديق .

أما أسماء - ذات النطاقين - فما حمد الناس فضيلة للمرأة بنتاً وزوجاً
ووالدة إلا كانت فيها على أجلها وأسمائها وأحقها بالتمجيد والإكبار .
أسلمت مع أبيها ، وكانت تخاطر بنفسها لإخفاء هجرته مع رسول الله
وتزويدها بالطعام والميرة في تلك الهجرة ، ولم تجد ما تشد به طعامها
فشقت نطاقها وشدته به ، فسميت لذلك ذات النطاقين .
وتزوجت الزبير بن العوام وليس له مال ولا مورد ، فكانت تعلق
فرسه وتدق النوى لناضحه^(١) وتستقي له الماء وتخز^(٢) له غربه^(٣) وتنقل

(١) البعير الذي يستقى عليه الماء .

(٢) تخز : تثقب .

(٣) الدلو من الجلد .

النوى على رأسها من الأرض التي أقطعه إياها رسول الله على مسيرة ميلين . وما زالت كذلك حتى علم أبوها بمشقتها في خدمة زوجها اتفاقاً فأعانها بخادمة ، بعد أن قضت زمناً تخدم بيتها وهي بنت أبي بكر وزوج الزبير وأم عبد الله من أعظم أبطال الإسلام .

وحاصر ابنها عبد الله في مكة فخذله الناس حتى أهله وولده ، وعرض عليه بنو أمية الأمان والولاية والمال . فذهب إليها يعرض عليها أمره ، وهو يقول : « ... لم يبق معي إلا اليسير ومن لا دفع عنده أكثر من صبر ساعة من النهار ، وقد أعطائي القوم ما أردت من الدنيا فما رأيك؟ فما ضعفت من الهول ضعف النساء ، ولا ضعف الأمهات ، وإن الأبطال الصناديد ليضعفون في مكانها ، فلا يعدمون المعذرة الناهضة والشفاعة المقبولة ، بل ملكت جاشها وملكته جاشه وأقبلت عليه تقول : « يا ولدي ؛ إن كنت على حق تدعو إليه فامض عليه ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك غلمان بني أمية فيتلعبوا بك ، وإن قلت إني كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت نيقي فليس هذا فعل الأحرار ، ولا فعل من فيه خير . كم خلودك في الدنيا ؟ القتل أحسن ما يقنع به يا بن الزبير . والله لضربة بسيف في عز أحب إليّ من ضربة بسوط في ذل » .

والتفتت تدعو الله كأنما تناجي نفسها : « اللهم ارحم طول ذاك النحيب والظما في هواجر المدينة ومكة ، وبره بامه ! اللهم إني قد سلمت فيه لأمرك ، ورضيت فيه بقضائك ، فأثبني في عبد الله ثواب الشاكرين » .

مقالة أم جاوزت المائة واصطلحت عليها الملهمات وكف بصرها من
الحزن ويئست من نصرة ابنها ومن حياته في جهاده ، فناهضت من السن
والمرض والخوف والشكل في أخرج الساعات ما تنوء به عزائم الاقيال
وتنهده له أركان الجبال .

ثم غلب القوم ابنها المقدام فصلبوه ورفعوا جثته للتمثيل والتشهير ،
فآلمها أن يصاب في كرامة موته كما آلمها من قبل أن يصاب في كرامة
حياته . وذهبت إلى الحجاج تسأله في ذلك سؤال الأعزاء ، فقادها الدليل
إليه حتى وقفت على مقربة منه تقول : أما أن لهذا الراكب أن ينزل؟ قال في
غير رفق ولا حياء : المناق؟ فهاهما وهو صاحب طلبتها أن يجيبها أو
لا يجيبها ، وإنما هما ان تدفع عن ولدها وان تجزي الشاتم بشتمه ، وقالت
مغضبة : والله ما كان منافقا ، والله ما كان منافقا ، وقد كان صواما
قواما ...

فعاجلها مغیظاً من ردها عليه : اذهبي فإنك عجزوز قد خرفت ...
قالت : لا والله ! ما خرفت . ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول : يخرج من ثقيف كذاب ومبير^(١) . فاما الكذاب فرأيناه ، وأما
المبير فانت هو .

وهذه هي الأم التي يشرف بها الأبناء والآباء ، وتشرف بها سلالة آدم
وحواء ..

١ - مبير : مهلك .

هذه أسماء بنت أبي بكر .
وتلك عائشة بنت أبي بكر .
فما عسى أن يقول القائل وان يثني المثني على بيت ينبج هاتين
العقيلتين الكريمتين ؟
لقد كان لأبي بكر أبناء من خيرة الرجال .
ولكن البيت تدل عليه بناته قبل أن يدل عليه أبنائه ، لأن الفضل
في نشأتهن كلها للبيت ، من حيث يحسب لغير البيت الفضل في نشأة
الأبناء .
وذلك هو بيت الصديق ، أكرم به من بيت بين ما حلت الأرض كلها
من بيوت .

صُورَةُ مُجْمَلَةٍ

قالت السيدة عائشة في وصف أبيها وقد تناوله بعضهم بما أغضبها :
« ... سبق إذ ونيتم سبقَ الجوادِ إذا استولى على الأمد ، فتى قريش
ناشئاً وكهفها كهلاً ، يفك عانيها ويريش مملقها ، ويرأب شعبها ويلم
شعثها ، حتى حلتته قلوبها ، ثم استشرى في دين الله فما برحت شكيمته في
ذات الله عز وجل ... »

وكان نفر من المهاجرين والأنصار يتذكرون فضائل أهل الفضل
عند باب النبي عليه السلام ، فخرج عليهم النبي فسألهم : فيم أنتم ؟ قالوا :
تتذاكر الفضائل ... فقال : « لا تقدموا على أبي بكر أحداً فإنه أفضلكم
في الدنيا والآخرة » .

ومن قوله فيه عليه السلام : « أبو بكر خير الناس إلا أن يكون نبي .. »
وقال علي رضي الله عنه في تأيينه : « ... كنت كالجبيل الذي لا
تحركه العواصف ولا تزيله القواصف : كنت كما قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم ضعيفاً في بدنك قوياً في أمر الله ، متواضعاً في نفسك عظيماً

عند الله ، جليلاً في الأرض كبيراً عند المؤمنين ، ولم يكن لأحد عندك مطمع ، ولا لأحد عندك هواة ، فالقوي عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه ، والضعيف عندك قوي حتى تأخذ الحق له ، فلا حرماً الله أجرك ، ولا أضلنا بعدك ...

وفي هذا الثناء كفاية إذا عمدنا إلى الثناء الذي قاله فيه عارفوه . ولكننا في أمر أبي بكر وأمثاله نستطيع أن نتجاوز الثناء إلى مقالة الأعداء الألداء ، ونحن آمنون أن نسمع فيه ما يفض من فضله وينقص شيئاً من حقه . إذ ليس على عظيم من العظماء غشاة أن يختلف فيه مختلفون ، وأن يتأول أعماله متأولون ، فكل عظيم من عظماء الدنيا قيل له وقيل عليه ، وحسنت نيات قوم نحوه وساءت نيات آخرين ، فليس هذا بضائره ، وليس هذا بعجيب ، وإنما الميزان العادل في الحكم له أو عليه دليل القائل وليس مقال القائل . فلمن شاء أن يزعم ما يشاء فيمن يشاء ، ولكنه لا يوضع في الميزان إلا بدليل تؤيده الوقائع والأعمال . فهذا الذي يحسب من مقال القائلين ومن خلاف المختلفين .

فليست فضيلة أبي بكر أنه ظفر من الناس جميعاً بالثناء الذي لا معقب عليه ، إذ ليس هذا بممكن وليس هذا بمعقول ولا بمطلوب .. وإنما فضيلته أنه قد ظفر بالثناء ممن في ثنائه صدق ولثنائه قيمة وأن خلاف الخالفين لم يقم قط على دليل ولم يأت قط من أناس يحسنون ما يقولون .

وكل حكم على أبي بكر مؤيد بدليل معتمد على واقع ، فهو مصور له

في صورة عامة واحدة لا شك فيها ، وهي صورة أمين ، وأكثر من أمين ، لأنه لم يتهم قط بخيانة في الجاهلية أو في الإسلام .

وأكثر من الأمين ، لأن الأمين هو الذي يعطي حق غيره ، فاما الذي يعطي الأمانة ويزيد عليها ، أو يعطي حق غيره ويعطي من حقه الذي لا يطلب منه ، فذلك هو الفضل الذي جاوز قدر الأمانة ، فهو أكثر من أمين .

وكان أبو بكر يؤدي الأمانات في الجاهلية ويزيد عليها من عنده فضل الفضل وإحسان المحسن وإغاثة المغيث .

ثم تسلم الأمانة الكبرى بعد الخلافة فترك الدنيا وقد أداها كما هي وزاد عليها .

ولسنا غالين في المجاز حين نقول إنه صنع مثل ذلك في أمانة الخلق أو أمانة الحياة ، فمات خيراً مالم ولد ، ونشأ ضعيفاً في بدنه كما قال رسول الله ، فإذا هو يستمد من قوة باطنه لقوة ظاهره ، ويلقي من مروءته على مرآه ، حتى أنشأ من نفسه ما لم ينشأ من بدنه ، وبلغ من المهابة بالقوة التي زادها على تكوينه الظاهر فوق ما يؤتاه أمثاله في أمثال هذا التكوين .

للناس أن يعطوه وهم على ثقة ان يستردوا ما أعطوه وزيادة ، وللحياة أن تعطيه وهي على ثقة ألا ينقص عطاؤها وألا يزال معه في ازدياد ، وعلى كل أمانة عنده كائن ما كان معطيها حق مصون ، ومزيد مضمون .

صورته الجملة أنه الأمين وأكثر من الأمين . .

الأمين في الصداقة ، والأمين في الحكومة ، والأمين في السيرة ،

والأمين في المال ، والأمين في الإيمان ، ثم هو في كل أولئك أكثر من الأمين .
عصمته العواصم من فتنة الغواية فولد كريماً تعنيه العزة بين الأقوياء ،
ولا يعنيه الطغيان على الضعفاء .

وكبر وليس له مارب في سيادة باغية ، ولا في صولة دائمة على من لا
يريدها ولا يطمئن إليها .

وكبر في تكوينه حدة الشعور وحاسة اليقين ، وسليقة الإعجاب ،
وعصمة المروءة والوقار .

وكبر وكل فضيلة فيه تكبر إلى آمادها ، فلما مات كان أكبر ما كان ،
وأكبر ما يتأتى أن يكون ..

مات وهو صاحب الدعوة الثانية في الإسلام ، فكان للثاني حقاً بعد
النبي عليه السلام في كل شيء ، من قبول الإسلام إلى ولاية أمر الإسلام إلى
تجديد دعوة الإسلام ، بعد أن تقضت الردة دعوته الأولى وأوشكت أن
ترجع بها إلى الجاهلية الجاهلاء .

ثاني اثنين ، وأول مقتد وأول مجيب ..

ذلك موضعه في تلك الدعوة الإنسانية التي نشأت في أمة واحدة ثم
غيرت ما بعدها في جميع الأمم ، سواء منها من علم بها ومن لم يعلم ،
وهي دعوة صديقه وصفيّه ونبيه محمد صلوات الله عليه .

قيل إنه مات بالسم في أكلة أكلها قبل عام من وفاته ، وليس لهذا

القول مرجع يميل الباحث إلى تصديقه .
وقيل إنه مات بالحمى لأنه استحم في يوم بارد ، وقد مات في شهر
قائظ كما يظهر من مضاهاة الشهور العربية على الشهور الشمسية ،
فليس لهذا القول سند صحيح .
وأغلب الظن أنها حمى المستنقعات « الملاريا » التي أصيب بها بعد
الهجرة إلى المدينة ، ثم عاودته في أوانها مرة أخرى وهو شيخ ضعيف ،
فجددت الإصابة الثانية عقابيل الإصابة الأولى ، وانتهت حياة بلغت
نهايتها في حيز الجسد ، وفي حيز المجد ، وفي حيز التاريخ .

عَبَّاسُ مَخْنُونٍ
العَقْدَانِ

عَبْقَرِيَّةُ عُمَرَ

دار الكتاب اللبناني - بيروت

مقدمة

تمّ تأليف هذا الكتاب في أحوال عجيبة هي أحوال بأس وخطر . فلا غرابة بينها وبين موضوع الكتاب الذي أدركته عليه ، لأننا لا نتكلم عن عمر بن الخطاب إلا وجدنا أننا على مقربة من البأس ومن الخطر في آن .

فما شرعت في تحضيره وبدأت في الصفحات الأولى منه حتى رأيتني على سفر بغير أهبة إلى السودان . فوصلت إليه وليس معي من مراجع الكتاب إلا القليل ، وكانت الصفحات الأولى التي كتبتها في القاهرة مما تركته مع المراجع الكثيرة فيها . فاعدت كتابتها في الخرطوم ومضيت فيه هنالك حتى انتهيت من أكبر شطريه . واستغنيت بمراجع الخرطوم عن المراجع التي أعجلني السفر عن نقلها . لأن أدباء السودان وفضلاءه يدخرون جملة صالحة من هذه المراجع ، ويجودون بها أسخياء مبادرين إلى الجود ، فلا أذكر أنني طلبت كتابا في المساء الا كان عندي في بكرة الصباح .

وإني لأتوفر على كتابته وأحسبني منتها منه في السودان إذ رأيتني مرة أخرى على سفر بغير أهبة إلى القاهرة ، فعدت إليها بالطائرة ألتبس العلاج السريع ، لأن يديّ أوشكت أن تعجزا عن تناول القلم بما عراهما من تأليل « الخريف »

فعدت وما يشغلني عن إتمامه شاغل في السفر والمقام ، ولم أحسب هذا البأس في الحالتين من موانعه وعراقيله ، لأنني ألفت بعض كتبي الكبار في أحوال تشبه هذه الأحوال . فألفت كتابي عن « ابن الرومي » بين السجن ونذره ومقدماته ، وألفت كتابي عن « سعد زغلول » وأنا غير مستريح من كفاحه ، وكلاهما من أثر الكتب عندي وأكبرها في الموضوع وفي عدد الصفحات .

انما خسبت هذا البأس من مطابقاته وموافقاته ، ومن وضع الشيء في موضعه على نحو من الأنحاء ، ولم أعدده من حرج التأليف كما عدته من مهيآت جوّه ، ولا سيما حين الفيتنى ادرس آثار الحركة المهدية وأثقل بين مشاهدها وميادينها ، وأستخرج العبرة من القتال بين الراجلين والقبيلة في مواقع فارس ، ومن القتال بين الراجلين والسفن المسلحة في مواقع الخرطوم وأم درمان . فهذه عقيدة وتلك عقيدة ، ولكن العقيدة التى فثرت كان معها حليف" من الغد المأمول ، ولم تكن العقيدة التى فشلت على وفاق مع الغد ولا مع الأمل .

ولكنّ الحرج كل الحرج فى التأليف انما كان فى محاسبة عمر بن الخطاب أو ليس الحرج فى الحساب أيضا من العمرىات المأثورات ؟

فالناس قد تعوّدوا ممن يسمونهم بالكتّاب المنصفين أن يجذوا وينقدوا وأن يقرنوا بين الثناء والملام ، وأن يسترسلوا فى الحسنات بقدر لينقلبوا من كل حسنة الى عيب يكافئها ويشفعوا كل فضيلة بنقيصة تعادلها ، فان لم يفعلوا ذلك فهم اذن مظنة المغالاة والاعجاب المتحيز ، وهم اذن أقل من الكتّاب المنصفين الذين يمدحون ويقدمون ، ولا يعجبون الا وهم متحفزون للملام .

عرض لى هذا الخاطر فذكرت قصة العاهل الذى تحاكم الى قاضيه مع بعض السوقة فى عقار يختلفان على ملكه فحكم القاضى للسوقة بغير الحق لينغم سمعة العدل فى محاسبة الملوك ، وعزله العاهل لأنه ظلم وهو يتنمى الرياء بظلمه . فكان أعدل عادل حين بدا كأنه يحرص على مال مفضوب ويجور على تابع جسور .. لأنه أنصف وهو مستهدف لتهمة الظلم ، وقاضيه قد ظلم وهو يتراءى بالانصاف .

قلت لنفسى : ان كنت قد أفدت شيئا من مصاحبة عمر بن الخطاب فى سيرته وأخباره فلا يعرجنك أن تزكى عملا له كلما رأيته أهلا للتركية ، وان زعم زاعم أنها المغالاة ، وأنه فرط الاعجاب .

وهذه هي الأسوة العمرية في الحساب .
فالحق أنني ما عرضت لمسألة من مسائله التي لفظ بها الناقدون الا
وجدته على حجة ناهضة فيها ، ولو أخطأه الصواب .
وان أعسر شيء أن تحاسب رجلا كان أشد أعدائه لايلفون من عسر
محاسبته بعض ما كان يلغيه هو في محاسبة نفسه ، وأحب الناس اليه .
ذلك رجل قل أن يجور عن القصد وهو عالم بجوره ، وقل أن يتيح
لأحد أن يكسب دعوى الانصاف على حسابه ، الا أن يكسبها أيضا على
حساب الحق والنقد الأمين .
فاذا عرفت منحاه من الخلق والرأى ، وسلمت له مزاجه ووجهة تفكيره ،
فكن على يقين أنه لن يتجأى عن النهج السوى ولن يتعلق بأمر يعدوه
الصلاح ويشويه سوء .
وذاك أخرج الحرج الذى عانيته في نقد هذا الرجل العظيم ، وتلك
حيطة معه ان لم يستفدها الكاتب وهو مشغول بعمر ونهج عمر فشغله
عبث ذاهب في الهواء .
وعلم الله لو وجدت شططا في أعماله الكبار لكان أحب شيء انى أن
أحصيه وأطنب فيه وأنا ضامن بذلك أن أرضى الأثرة وأرضى الحقيقة ،
ولكنى أقولها بعد تمحيص لا مزيد عليه في مقدورى : ان هذا الرجل
العظيم أصعب من عرفت من عظماء الرجال نقدا ومؤاخدة ، ومن فريد
مزاياه أن فرط التمحيص وفرط الاعجاب في الحكم له أو عليه يلتقيان .
وكتابى هذا ليس بسيرة لعمر ولا بتاريخ لعصره على نمط التواريخ
التي تقصد بها الحوادث والأنباء ، ولكنه وصف له ودراسة لأطواره
ودلالة على خصائص عظمتة واستفادة من هذه الخصائص لعلم النفس
وعلم الأخلاق وحقائق الحياة ، فلا قيمة للحدث التاريخى جل أو دق
الا من حيث أفاد في هذه الدراسة ، ولا ينعنى صغرُ الحادث أن أقدمه
بالاهتمام والتنويه على أضخم الحوادث ، ان كان أوفى تعريفا بعمر وأصدق
دلالة عليه .

وعمر بعد رجل المناسبة الحاضرة في العصر الذي نحن فيه ، لأنه العصر الذي شاعت فيه عبادة القوة الطاغية وزعم الهاتفون بدينها أن البأس والحق نقيضان . فاذا فهمنا عظيما واحدا كعمر بن الخطاب فقد هدمنا دين القوة الطاغية من أساسه ، لأننا سنفهم رجلا كان غاية في البأس وغاية في العدل وغاية في الرحمة .. وفي هذا الفهم ترياق من داء العصر يشفى به من ليس بميتوس الشفاء .
وانه لجهاد جديد لعمر بن الخطاب ، يطيب لنا أن نوجزه في كتاب .

عباس محمود العقاد

عَبْقَرِيٌّ

« ... لم أر عبقرىا يَفْرِى فَرِيَّتَهُ (١) ... »
كلمة قالها النبي عليه السلام في عمر رضى الله عنه ، وهى كلمة لا يقولها
الا عظيمٌ عظماء ، خُلِقَ لسياسة الأمم وقيادة الرجال
فمن علامات العظمة التى تحبى مَوَاتِ الأمم أن تختص بقدرتين
لا تعهدان فى غيرها ، أولاها أن تَبْتَث كوامنَ الحياة ودوافع العمل فى
الأمّة بأسرها وفى رجالها الصالحين لخدمتها ، والاخرى أن تنفذَ ببصيرتها
الى أعماق النفوس فتعرف بالبديهة الصائبة والوحى الصادق فيم تكون
عظمة العظم ، ولأىّ المواقف يصلح ، وبأى الأعمال يضطلع ، ومتى
يحين أوانه وتجب ندبته (٢) ومتى ينبغى التريثُ فى أمره الى حين .

كلتا القدرتين كان لهما الحظ الوافر فى سيرة عمر بن الخطاب
فأين — لولا الدعوة المحمدية التى بعثت كوامن العظمة فى أمة العرب
— كنا نسمع بابن الخطاب ؟ وأى موضع له كان من مواضع هذا التاريخ
العالمى الذى يزخر بكبار الأسماء ؟

انه الآن اسم يقترن بدولة الاسلام ودولة الفرس ودولة الروم وكل
دولة لها نصيب فى التاريخ . فأين كنا نسمع باسم عمر لولا البعثة
المحمدية ؟

لقد كان ولا ريب خليقا أن يستوى على مكان الزعامة بين بنى عدى*
آله الأقربين ، أو بين قريش قبيلته الكبرى ، ثم ينتهى شأنه هناك كما
اتتهى شأن زعماء آخرين لم نسمع لهم بخبر . لأنهم عظموا أو لم يعظموا ،
يعطون البيئة كفاءً ما تطلب من جهد ودراية ، وهى تطلب منهم ما يذكرون

(١) فرى الجلد : نطمه ليصلحه ، وفرى النرى أتى بالعجب . والمعنى أن عمر عبقرى
منفرد فى عمله فلا يقدر احد على أن يصلح مثل صنيعه .
(٢) اسم من ندبه الامر أى دعاه .

به في بيتهم ، ولكنها لا تطلب منهم ما يذكرون به في أقطار العالم البعيد .
وقد كان عمر قوى النفس بالغاً في القوة النفسية ، ولكنه على قوته
البالغة لم يكن من أصحاب الطمع والافتحام ، ولم يكن ممن يندفعون
الى العكبة والتوسع في الجاه والسلطان بعير دافع يحفزُه اليه وهو
كاره . لأنه كان مفطوراً على العدل واعطاء الحقوق والتزام الحرّمات
ما التزمها الناس من حوله . وكان من الجائز أن يهيجه خطرٌ على قبيلته
أو على الحجاز ومحارمه المقدسة في الجاهلية فينبى لدفعه ويثبلى في
ذلك بلاء يتسامع به العرب في جيله وبعد جيله ، ولكنه لا يعدو ذلك
النطاق ، ولا هو يبالي أن يمعن في بلائه حتى يعدوه .

بل كان من الجائز غير هذا وعلى نقيضه .

كان من الجائز أن تنفسد تلك القوة بمعاقرة الخمر والانصراف
اليها . فانه كان في الجاهلية كما قال « صاحب خمر يشربها ويحبها » وهي
موبقة (١) لا تؤمن حتى على الأقوياء اذا أدمنوها ولم يجدوا من زواجر
الدين أو الحوادث ما يصرفهم عنها ، ويكفّهم عن الافراط في معاطاتها .
فمبى بن الخطاب الذي عرفه تاريخ العالم وليد الدعوة المحمدية دون
سواها . بها عرّفَ وبغيرها لم يكن ليُعرّفَ في غير الحجاز أو الجزيرة
العربية .

أما القدرة الأخرى التي يمتاز بها العظيم الذي خلّق لتوجيه
العظماء فقد أبان عنها النبى عليه السلام في كل علاقة بينه وبين عمر من
اللحظة الأولى ، أى من اللحظة التي سأل الله فيها أن يُعزّز به الاسلام ،
الى اللحظة التي تدب فيها أبا بكر للصلاة بالناس وهو عليه السلام -
في مرض الوفاة .

سبّر غوره واستكثنته عظمته ، وعرفه في أصلح مواقفه فعرّف
الموقف الذي يتقدّم فيه على غيره والموقف الذي هو أولى بتقديم غيره
عليه .

(١) موبقة : مهلكة .

وليست هي مفاضلة بين رجلين ولا موازنة بين قدرتين .. ولكنها مسألة التوفيق بين الرجل والموضع الذي ينبغي أن يوضع فيه ، والمهمة التي ينبغي أن يتندب لها ، والوقت الذي يحين فيه أوائه .

وربما رأينا في زماننا هذا رئيسا يوصى لنصير من أنصاره بالوزارة ويوصى لغيره بقيادة الجيش ، فلا نقول انه يفاضل بين النصيرين أو أنه يرجح أحدهما على الآخر في ميزان الكفاءة . وانما يختار كلا منهما لموضعه في الوقت الذي يحتاج اليه ، ولا غضاضة على أحد منهما في هذا الاختيار .

فالنبي عليه السلام كان يعلم من هو أبو بكر ومن هو عمر . وقد عادل بينهما أجل معادلة حين قال : (ان الله عز وجل ليُليِّن قلوب رجالٍ فيه حتى تكون ألين من اللين ، وان الله ليُشدِّد قلوب رجالٍ فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وان مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم قال : « من تبعني فانه مني ، ومن عصاني فانه غفور » رحيم ، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال : « ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » ومثلك يا عمر مثل نوح قال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » ومثلك كمثله موسى قال : « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم »)

كان النبي عليه السلام يعلم - كما قال - ان عمر أشد المسلمين في الله ، ويعلم أن في أبي بكر ليما وهواة . فجمع للإسلام المزيَّتين حين اختار أبا بكر للصلاة وضمن هذا الاختيار معنى من معاني الاستخلاف .. أو كما جاء في بعض الروايات أنه نص على استخلاف أبي بكر بالقول الصريح .

فتميز الاسلام بعد نبهه كان في حاجة الى كثير من الهواة والمجاورة وكان كذلك في حاجة الى كثير من الشدة والصرامة . ولن تذهب شدة عمر

إذا احتاج إليها أبو بكر في محنة يشتد فيها اللين الوديع . إنما الخوف من أن يلين عمر وأبو بكر شديد . فإن الموقف إذا استنفذ حجج الرحمة حتى يلجأ فيه أبو بكر إلى البأس ريصر عليه فأقرب شيء أن يعدل عمر عن لينه وأن يثوب إلى المعهود من صرامته ولدّده (١)

وكان النبي عليه السلام يعلم أن احتمال التبعة أو « المسئولية » خليق أن يبدل أطوار النفوس في بعض المواقف والأزمات ، فيجنح اللين إلى الشدة ويجنح الشديد إلى اللين . لأننا إذا قلنا أن رئيساً أصبح يشعر بالمسئولية فمعنى ذلك أنه أصبح يراجع رأيه فلا يستسلم لأول عارض يميله عليه طبعه ، ولا يقنع باللين أول وهلة إذا كان من دأبه اللين ، ولا بالشدة أول وهلة إذا كان من دأبه الشدة . ومن هنا ينشأ الاختلاف بين موقف الرجل وهو مسئول وموقفه وهو غير مسئول .

وهذا الذي ظهر أعجب ظهور في موقفى الصالحين من حرب الردة . فإن عمر الشديد قد آثر الهوادة وأبا بكر الرفيق قد آثر القتال وأصر عليه . وكان عمر يقول : « إن رسول الله كان يقاتل العرب بالوحى والملائكة يمدّه الله بهم وقد انقطع ذلك اليوم » ، ثم يقول للخليفة : « الزم بيتك ومسجدك فإنه لا طاقة لك بقتال العرب » . وكان أبوبكر يقول متسائلاً : « أئن كثر أعداؤكم وقل عددكم ركب الشيطان منكم هذا المركب ؟ والله ليظهرن الله هذا الدين على الأديان كلها ولو كره المشركون ، قوله الحق ووعد الصديق ، « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » .. « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » . والله أيها الناس لو منعوني عقلاً لجاهدتهم عليه واستعنت عليهم بالله وهو خير معين ! »

هناك بلغت التبصرة بوجوه الرأى المختلفات غاية مداها ، وجاء عمر بقصارى ماعنده من حجاج الرأى الآخر حتى وضحت المناهج

(١) اللدد : شدة الخصومة .

واستقرَّ العزمُ والتقى الصاحبان عليه ، فكانت شدَّتهما في الحق
شدَّتين .

وهبَّ الأمرُ مع هذا قد اختلف في موقف الصاحبين فمال أبو بكر
الى السلم والمسامحة ، فأين كانت شدَّة عمرَ ذاهبةً عنه في هذه الحال ؟
أغلب الظن أنه هو الذى كان يتولى يومئذ أن ييسِّطَ وجه الشدَّة في
معاملة المرتدين . لأنه يعلم أنه المسئول عن بسط هذا الوجه دون غيره ،
فلا تقوت الاسلامَ مزيةً من مزايا الصاحبين .

ان محمدا عليه السلام قد عرفَ من هم رجائه وما هو الموقف الذى
هم مقبلون عليه بعد وفاته . فعرف الموضع الذى يضع فيه كلا منهم
والعمل الذى يتولاه خير ولاية في ذلك الموضع . ولم يفتَّه أن يحسبَ
حساب التبعة وما في احتمالها من ضمانٍ للأخلاق الصالحة والعقول
الراجعة ، وأبو بكر وعمر من خيرة أصحاب هذه الأخلاق وهذه
العقول .

ولا يحسبنَّ حاسباً أننا نفسر الأمور بما كشفته لنا الحوادث بعد
وقوعها ولم يكن مقصودا في النيَّات قبل ذلك . فان الذى يحسب هذا
الحسبانَ يخطئ تلك الخطأة الشائعة التى لا تثبت على أقل نصيب من
الروية والمراجعة : يخطئ في وهمه خطأة الذين يتخيلون أن هذه
السياساتِ العالية من يدع الزمن الأخير وليست هى من البدع في
زمن كان . لأن العظمة لم تكن قط وفقا على العصر الحديث ، ولا سيما
العظمة التى ترجع الى الفطرة القويمة والبدية النافذة والنظر السديد .

فكلُّ هذا التقدير الذى أجملنا شرحه كان تقديرَ قصد وتدير ، وكان
مفهوما على البداهة بين ولادة الأمر في تلك الآونة ، ملحوظا بينهم في
مناجاة النيات قبل أن نلحظه نحن في عصرنا هذا من تفسير حوادث
التاريخ .

والى ذلك أشار عمر في قول صريح حين قال لمن هابوه وتحذروا

يخوف الناس منه : « بلغنى أن الناس هابوا شدتى وخافوا غلظتى وقالوا : قد كان عمرٌ يشتد علينا ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه ، فكيف وقد صارت الأمورُ إليه ؟ ومن قال ذلك فقد صدق ، فقد كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت عبده وخدمته . وكان من لا يبلغ أحدٌ صيفته من اللين والرحمة ، وكان كما قال الله : بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فكنت بين يديه سيفاً مسلولاً حتى يُعَمِدَنى أو يَدَعَنى فأمضى . فلم أزل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك حتى توفاه الله وهو عنى راضٍ ، والحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد . ثم ولى أمرَ المسلمين أبو بكر فكان من لا ينكرون دَعَتَهُ وكرمه وLINE ، فكنت خادمه وعونه ، أخلِطُ شدتى بLINE ، فأكون سيفاً مسلولاً حتى يُعَمِدَنى أو يَدَعَنى فأمضى ، فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عنى راضٍ ، والحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد ، ثم انى قد وليتُ أموركم أيها الناس فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت (١) ، ولكنها انما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين : فأما أهلُ السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضٍ لبعض ... »

بل ظهرت آثار الشعور بالتبعة بتعيد موت النبى والحال على أشده في يوم السقيفة ، والمسلمون مختلفون على من يلى الأمر بعد محمد حتى قيل فيما قيل : من الأنصار أمير ومن المهاجرين أمير !

ففى تلك المحنة التى تشخص فيها الأبصار وتعظم التبعات وتودى زلة الساعة فيها بالكثير الذى لا تستدركه الأعوام ، كان عمر الحادى الشديد يخشى بواخر الحدة من أبى بكر ويهين الكلام اللين ليعالج الأمر بالرفق والتؤدة ، ويقول فيما رواه عن محنته ذلك اليوم : « وكنت أدارى منه بعض الحدة — أى الحدة — فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر :

(١) أضعفت : زادت إضعافاً .

على رَسَلِك ! فكرهت أن أغضبه . فتكلم أبو بكر فكان هو أحلم منى وأوفر » .

عمر الحاد الشديد يحاذر من بوادر أبي بكر ، و أبو بكر الحليم الوديع يكفّ عمر عن الكلام ، فيطيع !

هؤلاء رجال يعرفهم صاحبهم ، وهذه مواقف يعرفها صاحبها ، وهذه مسألة فَصَل فيها الزمن ولم يبق لنا نحن الذين نعود إليها ونستخلص عبرتها الا أن نراقب ما فيها من آيات الاعجاز ، وسوابق النظر البعيد .

ما وُضع أبو بكر خيرا من موضعه وهو يلي الاسلامَ والخطرَ من داخل أهله ، والطب الذي يطبهم به هو طب التألف والاحجام عن السطوة ما كان الى الاحجام عنها سبيل .

وما وُضع عمرُ خيرا من موضعه وهو يلي الاسلامَ والخطرَ عليه من أعدائه المحققين به ، والطب الذي يطبهم به هو طب الصلابة والحزم الذي لا ينكسر (١) عن صراع .

و كأننا توقع النبي أن أيام أبي بكر معدودات ولكنها الأيام التي تحتاج اليه وتكفي لانجاز عمله . وتوقع أن يأتي عمل عمر في حينه المقدور فلا يفوت الاسلام أن ينتفع بمقدرته في عهد أبي بكر ولا في عهده ، تقول هذا على الترجيح ومن حقنا أن نقوله على التوكيد ، لأن حديث النبي فيه غنى عن التخمين والتأويل . قال عليه السلام : « أُرِيتُ في المنام أني أنزع بدلو بكرة على قلب (٢) فجاء أبو بكر فنزع ذنوبا (٣) أو ذنوبين نزعاً ضعيفاً ، والله يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غرّبا (٤) فلم أر عبقرى يقرئ قرآنه حتى روي الناس وضربوا بعطن (٥) » وفهم فقهاء الاسلام أن ضَعْفَ النزع هو قِصَرُ المدّة وانصراف العزم الى عرب الردّة ، وأن فيض الرى على يد عمر هو فيض العبقرية

(١) ينكسر . . . ين . . . (٢) طلب : بئر
(٣) دنوا . . . (٤) العرب : الدلو العظيمة .
(٥) عطن : حول الماء . . .

انتى ينفسح لها الأجل وتنفسح أمامها منادحُ العمل ، ويؤتى لها من
السبق ما لا يؤتى لغير العبقريين .
ولنا أن نفسر العبقرية بمعناها الذى يفهمه الأقدمون أو بمعناها الذى
نفهمه نحن المحدثين ، فكلا المعنيين مستقيم في وصف عمر بن الخطاب ...
أتراها على كلا المعنيين، شيئا غير التفرُّد والسبق والابتكار ؟ كلا .
ما للعبقرية مدلول يخرج عن صفة من هذه الصفات . ومن يكتب تاريخ
عمر فقد يجد في النهاية أنه يكتب تاريخا « لأول من صنع كذا وأول من
أوصى بكذا » حتى ينتهى بسرد هذه « الأوليات » الى عداد العشرات .
وتلك هي العبقرية التى لا يفرى فتريتها أحدٌ كما قال صاحبه وأعرف
الناس به ، صلوات الله عليه .

رَجُلٌ مُمْتَاز

يوصف عمر بالعبقريّة اذا نظرنا الى أعماله ، ويوصف بها اذا نظرنا الى تكوينه الذي جعله مستعدا لتلك الأعمال مضطلعا بتلك القدرة ، وان لم يكن من اللازم اللازب أن تقترن القدرة بالعمل الذي تستطيعه ، لما يتفق أحيانا من وقوف العوائق بينها وبين الانجاز أو الاتجاه الى ذلك العمل .
الا أن عمر كان رجلا ممتازا بعمله ، ممتازا بتكوينه ، وكان وفاء شرط الامتياز والتفرد في عرف الأقدمين والمحدثين ، من المؤمنين بدينه وغير المؤمنين .

اذا وصفته للأقدمين الذين يقيسون العبقريّة بالفراصة والخبرة عرفوا من صفته أن الذي يوصف لهم رجل "ممتاز أو رجل نسيج وحّده" (١) .
واذا وصفته للمحدثين الذين يقيسون العبقريّة بالعلم أو مشاهدات العلماء عرفوا من تلك الصفة أنه رجل ممتاز ، أو رجل موهوب .
كانت نظرة اليه - قبل السماع بعمل من أعماله - توقع في الرثوع (٢) أنه من معدن في الرجال غير معدن السواد (٣) ، وأنه جدير بالهيبة والاعظام ، خليق أن يحسب له كل حساب .
كان مكيبا رائع المحضر حتى في حضرة النبي الذي تتطامن عنده الجباه، وأولها جبهة عمر .

أذن النبي يوما لجارية سوداء ، أن تفي بنذرهما « لتضربن يديها فركحا ان رده الله سالما » فأذن لها عليه السلام أن تضرب بالدف بين يديه .
ودخل أبو بكر وهي تضرب ، ثم دخل عليّ وهي تضرب ، ثم دخل عثمان وهي تضرب ، والصحابة مجتمعون .

(٢) الروح : العقل أو القلب •

(١) نسيج وحده : لا نظير له •
(٢) سواد الناس : عوامهم •

فما هو الا أن دخل عمر حتى وجمت الجارية وأسرت الى دُفنها تخفيه ،
والنبي عليه السلام يقول : « ان الشيطان ليخافُ منك يا عمر ! » .
وروت السيدة عائشة رضى الله عنها أنها طبخت له عليه السلام
حريرة (١) ودعت سودة أن تأكل منها فأبت ، فعزمت عليها لتأكلن أو
لتلطنن وجهها ، فلم تأكل ، فوضعت يدها في الحريرة ولطختها بها .
وضحك النبي عليه السلام وهو يضع الحريرة بيده لسودة ويقول لها :
لطّختي أنت وجهها . ففعلت .
ومرَّ عمر فناداه النبي : يا عبد الله ! وقد ظن أنه سيدخل فقال لهما :
قوما فاعسلا وجهكما !

قالت السيدة عائشة : فمازلتُ أهَابُ عمر لهيبة رسول الله صلى الله
عليه وسلم اياه .

ومن تلك الهيبة أنها كانت رضى الله عنها تتحفظ في زيارة قبره بعد
موته ، وحكت ذلك فقالت : « مازلت أضع خمارى وأتفضّل (٢) في ثيابى
وأقول : انما زوجى وأبى ، حتى دفن عمر بن الخطاب ، فلم أزل متحفظة
في ثيابى حتى بنيت بينى وبين القبور جدارا فتفضلت بعد » .

وان من أدب الرسول عليه السلام أنه كان يرعى تلك الهيبة رضى
عنها واعتباطا بأثرها في نصرة الحق وهزيمة الباطل وتأمين الخير والصدق
واخافة أهل البغى والبهتان .

وقد كان الذين يعرفون عمر أهيبَ له من الذين يجهلونهُ .. وتلك علامة
على أن هيئته كانت قوة نفس تملأ الأفئدة قبل أن تملأ الأنظار . فربما
اجترأ عليه من لم يعرفه ومن لم يختبره لتجافيه عن الحياء وقلة اكترائه
للمظهر والثياب . أما الذين عرفوه واختبروه فقد كان يروعهم على المفاجأة
روعة لا تذهبها الألفة وطول المعاشرة ، ومن ذاك أنه كان يمشى ذات
يوم وخلفه عدة من أصحاب رسول الله إذ بدا له فالتفت ، فلم يبق منهم

(١) الحريرة هنا : دقيق يطبخ بلبن فيكون حساء .
(٢) التفضّل : لبس الفضال وهو الثوب يلبس في البيت للخدمة أو النوم .

احد الا وحبّل ركبتيه ساقط ا

وتنحج عمر والحجّام يقص له شعّره فذهل الحجام عن نفسه وكاد أن يغشى عليه ، فأمر له بأربعين درهما .

فهى هيبة" من قوة النفس قبل أن تكون من قوة الجسد . الا أنه مع هذا كان فى منظر الجسد رائعا يهول من يراه ، ولا يذهب الخوف منه الا الثقة بعدله وتقواه .

كان طويلا بائن الطول يثرى ماشيا كأنه راكب ، جسيما صلبا يصرع الأقوياء ويروض الفرس بغير ركاب ، ويتكلم فيسمع السامع منه وفاق مارأى من نفاذ قول وفصل خطاب .

تشهد العيون كما تشهد القلوب أنه لمن معدن العظمة ، أو معدن العبقرية والامتياز بين بنى الانسان ، وللمُحدثين علامات" فى العبقرية تتصل بالتكوين وتركيب الخِلقة كما تتصل بمدلول الأخلاق والأعمال .

فالعالم الايطالى « لومبروزو » ومدرسته التى تأتم برأيه يقررون بعد تكرار التجربة والمقارنة أن للعبقرية علامات لا تخطئها على صورة من الصور فى أحد من أهلها ... وهى علامات تتفق وتتناقض ولكنها فى جميع حالاتها وصورها نمط من اختلاف التركيب ومباينته للوتيرة العامة بين أصحاب التشابه والمساواة .

فيكون العبقري طويلا بائن الطول ، أو قصيرا بينّ القصر ، ويعمل بيده اليسرى أو يعمل بكلتا اليدين ، ويلفت النظر بغزارة شعره أو بنزارة الشعر على غير المعهود فى سائر الناس . ويكثر بين العبقريين من كل طراز جَيِّشَان الشعور وفرط الحس وغرابة الاستجابة للطوارئ ، فيكون فيهم من تفرط سورته (١) كما يكون فيهم من يفرط هدوؤه ، ولهم على الجملة ولع بعالم الغيب وخفايا الأسرار على نحو يلاحظ تارة فى الزكّانة (٢) والفراسة ، وتارة فى النظر على البعد ، وتارة فى الحماسة الدينية أو فى الخشوع لله .

(١) سورة السلطان : سطوته واعتدائه .
(٢) الزكّانة والفراسة : أن يظن الشخص فيصيب .

ومهما يكن من الشك في استقصاء هذه العلامات والمطابقة بين تفصيلاتها وبين الواقع فهي بلا ريب صادقة في حالات ، مقارنة في حالات ، غير أهل في كل حال للتصديق التام ولا للنبيذ التام ، ولا سيما عندما تتفق فيها الظواهر والبواطن وتتلاقى فيها ملاحظات العلماء وشواهد العرف المأثور . وفي عمر بن الخطاب من هذه العلامات كثير .

كان كما تقدم طويلا يمشى كأنه راكب ، وكان أعسر^(١) يسرا يعمل بكلتا يديه ، وكان أصلع خفيف العارضين ، وكان كما وصفه غلامه وقد سأله بلال : كيف تجدون عمر ؟ فقال : خير الناس ، الا أنه اذا غضب فهو أمر عظيم . -

وكان سريع البكاء اذا جاشت نفسه بالخشوع بين يدي الله ، وأثر البكاء في صفحتي وجهه حتى كان يشاهد فيهما خطان أسودان .

ومن فرط حسه وتوفر شعوره أنه كان يميز بين بعض المذوقات والمشمومات التي لا يسهل التمييز بينها . سقاه غلامه ذات يوم لبنا فأنكره ، فسأله : ويحك ! من أين هذا اللبن ؟ قال الغلام ان الناقة انفلت عليها ولدها فشرب لبنها فحلبت لك ناقة من مال الله .

وقد عرفنا أهل البادية وعرفنا أنهم جميعا أصحاب ابل وألبان ، ولكننا لم نجد منهم الا قليلا يدعون أنهم يفرقون بين لبن الناقة ولبن غيرها هذه التفرقة السريعة ، ولا سيما في المناخ الواحد والمرعى المتقارب .

وكانت له فراسة عجيبة نادرة يعتمد عليها ويرى أن « من لم ينفعه ظئله لم تنفعه عينه » ... وتروى له في أمر هذه الفراسة روايات قد يصدق منها القليل وتتسرب المبالغة الى كثير ، ولكنها على كلتا الحالتين تثبتنا بحقيقة لا شك فيها، وهي أنه اشتهر بالفراسة وحج التفرش والاستنباط بالنظرة العارضة ، فمن ذلك أنه كان جالسا فمر به رجل جميل فقال مامعناه : أحسبه كان كاهنهم في الجاهلية .. فكان كذاك .

(١) الأعسر اليسر : الذي يعمل بكلتا يديه .

وأنه أبصر أعرابيا نازلا من جبل فقال : هذا رجل مصاب بولده ، قد نظم فيه شعرا لو شاء لأسمعكم . ثم سأل الاعرابي : من أين أقبلت ؟ فقال : من أعلى الجبل . فسأله : وما صنعت فيه ؟ قال : أودعته وديعة لي . قال : وما وديعتك ؟ قال : بنى لي هلك فدفتته قال : فأسمعنا مرثيتك فيه . فقال : وما يدريك يا أمير المؤمنين ؟ فوالله ما تفوقت بذلك ، وإنما حدثت به نفسي ، ثم أنشد أبياتا ختمها بقوله :

فالحمد لله لا شريك له في حكمه كان ذا وفي قدره
قدّر موتا على العباد فما يقدر خلق يزيد في عُمره
فبكي عمر حتى بلّ لحيته ، ثم قال : صدقت يا أعرابي .

وكان عمير بن وهب الجمحي وصفوان بن أمية يذكران مصاب أهل بدر فقال صفوان : والله ما أن في العيش بعدهم خير . فوافقه عمير وهو يقول كالمعتذر من تخلفه عن الثأر : أما والله لولا دين علي ليس له عندي قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى ، لركبت الى محمد حتى أقتله .

فقال صفوان يجرّضه : علي دينك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا ، لا يسعني شيء ويعجز عنهم .
فوقع كلامه من نفس عمير ، فأسرّ اليه بعزمه على الغدر بالنبي وشحذ سيفه وسمّه ، ثم انطلق حتى قدم المدينة .

فما نظر عُمر اليه متوشحا بالسيف حتى أوجس منه وهمس لمن معه : هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ، ماجاء الا لشر ، وهو الذي حرّش بيننا وحزّرنا (١) للقوم يوم بدر . ثم دخل على النبي فأخبره خبره وعاد الى عمير فأخذ بحمالة سيفه في عنقه فلبّته (٢) بها ، وقال لرجال من الأنصار : ادخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فانه غير مأمون . ثم دخل به على رسول

(١) حذر الشيء : قدره بالتخمين (٢) لبيه : جمع ليا به عند نحره ثم جره .

الله فلما رآه وعمر آخذ" بحمالة سيفه في عنقه ، قال : أرسلك يا عمر !
أذن يا عمير !

وجعل رسول الله يسأل عميرا وهو يراوغ حتى ضاقت به منافذ الانكار
فباح بسرّه ، وأعلن الاسلام والتوبة..

هذه الفراسة وشببهاها هي ضرب من استيعاء الغيب واستنباط الأسرار
بالنظر الثاقب . وما من عجب أن تكون هذه الخصلة قرينة من قرائن
العبقرية في حاشية من حواشيها ... اذ ما هي العبقرية في لبابها كائنا ما كان
عمل المتصف بها ؟ ما هي الحكمة العبقرية ؟ ما هو الفن العبقري ؟ ما هو
دهاء السياسة في الدهاة العبقريين ؟ من هو :

الألمعي الذي يظن بك الظن " كأن قد رأى وقد سمع ؟

كل أولئك يلتقي في هيئة واحدة هي كشف الخفايا واستيضاح البواطن
واستخراج المعاني التي تدق عن الأبواب ... فاتصالها بالفراسة وشببهاها
أمر لا عجب فيه ، ولا انحراف به عن النحو الذي تنتجيه .

والذي يعنينا من الفراسة وشببهاها في صدد الكلام عن عمر رضوان
الله عليه أن نحصى الخصال الأخرى التي هي كالفراسة في هذا الاعتبار ،
وهي التفاؤل والاعتداد بالرؤيا والنظر أو الشعور على البعد أو
« التلبائي » كما يسميه النفسانيون المعاصرون . ولكل أولئك شواهد
شتى مما روى عن عمر في جاهليته وبعد اسلامه الى أن أدركته الوفاة .

جاءه رسول من ميدان نهاوند فسأله : ما اسمك ؟ قال قريب . وسأله
مرة أخرى : ابن من ؟ فقال ابن ظفّر . فتفاءل وقال : ظفّر قريب
ان شاء الله ، ولا قوة الا بالله .

وروى يحيى بن سعيد أن عمر سأل رجلا : ما اسمك ؟ قال : جمره !
فسأله : ابن من ؟ قال : ابن شهاب . فسأله : ممن ؟ قال من الحرقة ، وعاد
يسأله : ثم ممن ؟ قال : من بني ضرام ، وهكذا في أسئلة ثلاثة أو أربعة
عن مسكنه وموقعه ، والرجل يجيب بما فيه معنى النار ومرادفاتهما حتى

استوفاه . فقال عمر : أدرك أهلك فقد احترقوا .

وقد يكون التأليف ظاهرا في هذه القصة ولكنها مع تأليفها لا تخلو من الدلالة على اشتهاى عمر باستكناه الألفاظ فى معرض التفاؤل أو الانذار . أما الرؤيا فأخر ما روى عنه من أخبارها أنه رأى قَبِيلَ مقتله كأن ديكا نقره نقرتين فقال : يسوق الله الى الشهادة ويقتلنى أعجمى ، فان الديك فى الرؤيا يفسر برجل من العجم .

على أن المكاشفة أو الرؤية Vision كما يسميها النفسانيون المحدثون انما تظهر بأجلى وأعجب من هذا كثيرا فى قصة سارية المشهورة ، وهى مما يلحقه أولئك النفسانيون بهبة التلباى Telepathy أو الشعور البعيد .

كان رضى الله عنه يخطب بالمدينة خطبة الجمعة فالتفت من الخطبة ونادى ، يا سارية بن حصن ! الجبل .. الجبل .. ! ومن استرعى الذئب ظلم . فلم يفهم السامعون مراده ، وقضى صلاته فسأله على رضى الله عنه ، ما هذا الذى ناديت به ؟ قال : أو سمعته ؟ قال : نعم .. أنا وكل من فى المسجد .

فقال : وقع فى خلدى أن المشركين هزموا اخواننا وركبوا أكتافهم ، وانهم يمشرون بجبل . فان عدلوا اليه قاتلوا من وجدوه وظفروا ، وان جاوزوه هلكوا ، فخرج منى هذا الكلام . وجاء البشير بعد شهر فذكر أنهم سمعوا فى ذلك اليوم وتلك الساعة حتى جاوزوا الجبل صوتا يشبه صوت عمر يقول : يا سارية بن حصن ! الجبل الجبل . فعدلنا اليه ففتح الله علينا .

ولا داعى للجزم بنفى هذه القصة استنادا الى العقل أو الى العلم أو الى التجربة الشائعة . فان العقل لا يمنعها . والعلماء النفسانيون فى عصرنا لا يتفقون على نفيها ونفى أمثالها ، بل منهم من مارسوا «التلباى» وسجلوا مشاهداته وهم ملحدون لا يؤمنون بدين .

الا أن المهم من نقل هذه القصة في هذا الصدد أن عمر كان مشهوراً بين معاصريه بمكاشفة الأسرار الغيبية إما بالفراسة أو الظن الصادق أو الرؤية أو النظر البعيد ، وهى الهبات التى يُلحَقها بالمبقية علماء العصر الذين درسوا هذه المزية الانسانية النادرة وراقبوها وأكثروا من المقارنات فيها والتعقيبات عليها .

فهو رجل نادر بما تراه منه المين ، نادر بما تشهد به الأعمال والأخلاق ، نادر فى مقاييس الأقدمين ومقاييس المحدثين .
أو هو رجل ممتاز ، وعبرى موهوب* فى جميع الآراء .

صفات

نحن على هذا أمام رجل لا كالرجال ! رجل عبقرى ، أو رجل ممتاز من خاصة الخليقة الذين لا يعدون في الزمن الواحد بأكثر من الآحاد .

أقول رجل قوى ؟ نعم هو رجل قوى لا مراء . وكل عظيم فهو قوى* بمعنى من معانى القوة . نعلم هذا فنعلم الشيء المهم عنه ، ولكننا بعد هذا لا نعلم شيئاً مهما عن صفاته وأخلاقه . لأن الناس من حيث القوة أقوياء وضعفاء أو متوسطون ومنحرفون الى هنا تارة* والى هناك تارة أخرى . أما من حيث الصفات والأخلاق فهم ألوف* وألوف ، وهم فى قوتهم أو ضعفهم أنماط* لا تحصى من المناقب والعيوب ، وأخرى بنا أن نقول أن القوة صفة تستفاد من جملة مناقب الانسان وعيوبه . فهى حالة* تدل عليها المناقب والعيوب* أو تدل عليها الصفات والأخلاق ، وليست هى بالحالة التى تدلنا على مناقب الانسان وعيوبه وتهدينا بغير هاد الى صفاته وأخلاقه .

فاذا قلت ان عمر بن الخطاب رجل* قوى فما زدت على أن تقول انه رجل عبقرى أو انه رجل عظيم .

وكل رجل من هذا القبيل فمعرفته ليست بالأمر اليسير ، لأنه نمط* لا يتكرر فيسهل فهمه بالقياس الى أمثاله الكثيرين . وقد يكون الرجل العظيم نمطاً وحيداً فى التاريخ كله لا نظير له فى تفصيل أخلاقه وصفاته ، وان ساواه فى القدر أنداد* وقرناء .

وعمر بن الخطاب مثل* فذ* من أمثلة هذا الطراز الفريد . تفهم سره فاذا هو على وفاق مع جهره ، وتنفذ الى باطنه فاذا هو مصدق للظاهر من سيماه (١) .

(١) سيماه : علامته ، والمراد ما اشتهر به .

فهل حللنا العقدة بهذا التقريب بين الظاهر والباطن وبين الجهر والسريرة؟ كلا . ولا تقدمنا بعيدا في طريق حلها ، لأننا لانعرف هذا التقارب إلا بعد معرفة السريرة التي نبحث عنها ، فلا بدك اذا من البحث ولا بد اذا من المعرفة . فاذا وصلنا الى الغور البعيد عرفنا ساعتئذ أنه لا يناقض الظاهر المكشوف . ولكن لا بدك من الوصول الى الغور البعيد قبل ذلك .

لا تناقض في خلائق عمر بن الخطاب ، ولكن ليس معنى ذلك أنه أيسر فهما من المتناقضين ، بل لعله أغضل فهما منهم في كثير من الأحوال . فالعظمة على كل حال ليست بالمطلب اليسير لمن يبتغيه ، وليست بالمطلب اليسير لمن ينفذ الى صميمه ويحتويه .

انما الأمر الميسور في التعريف بهذا الرجل العظيم أن خلائقه الكبرى كانت بارزة جدا لا يسترها حجاب . فما من قارئ ألم^(١) بفذلكة صالحة من ترجمته الا استطاع أن يعلم أن عمر بن الخطاب كان عادلا ، وكان رحيما ، وكان غيورا ، وكان فطنا ، وكان وثيق^(٢) الايمان ، عظيم الاستعداد للنخوة الدينية .

فالعدل والرحمة والغيرة والفطنة والايمان الوثيق صفات^(٣) مكيئة فيه لا تخفى على ناظر ، ويبقى عليه بعد ذلك أن يعلم كيف تتجه هذه الصفات الى وجهة واحدة ولا تتشعب في اتجاهها طرائق قيدا (١) كما يتفق في صفات بعض العظماء . بل يبقى عليه بعد ذلك أن يعلم كيف يتم بعض هذه الصفات بعضا حتى كأنها صفة^(٤) واحدة متصلة الأجزاء متلاحقة الألوان .

وأعجب من هذا في التوافق بين صفاته أن الصفة الواحدة تستمد عناصرها من روافد شتى ولا تستمدّها من ينبوع واحد . ثم هي مع ذلك متفقة لا تتناقض ، متساندة لا تتخاذل ، كأنها لا تعرف التعدد والتكاثر في شيء .

(١) طرائق قد : فرق مختلفة .

خذ لذلك مثلاً عدله المشهور الذى اتسم به كما لم يتسم قطك بفضيلة من فضائله الكبرى . فكم رافدة (١) لهذا الخلق الجميل فى نفس ذلك الرجل العظيم ؟

روافد شتى : بعضها من وراثته أهله ، وبعضها من تكوين شخصه ، وبعضها من عبّر أيامه ، وبعضها من تعليم دينه ، وكلها بعد ذلك تمضى فى اتجاه قويّ الى غاية واحدة لا تتسم على افتراق .
لم يكن عمر عادلاً لسبب واحد بل لجملة أسباب :

كان عادلاً لأنه ورث القضاء من قبيلته وآبائه ، فهو من أنبه ييوت بنى عدى الذين تولوا السفارة والتحكيم فى الجاهلية ، وراضوا أنفسهم من أجل ذلك جيلاً بعد جيل على الانصاف وفصل الخطاب ، وجدّه ثقيف بن عبد العزى هو الذى قضى لعبد المطلب على حرب بن أمية حين تنافرا اليه وتنافسا على الزعامة . فهو عادل من عادلين ، وناشئ فى مهده الحكم والموازنة بين الأقوياء .

وكان عادلاً لأنه قوى مستقيم بتكوين طبعه ، وإن شئت فقل أيضاً بتكوينه الموروث . إذ كان أبوه الخطاب وجدّه ثقيف من أهل الشدة والبأس ، وكانت أمه حنتمة بنت هشام بن المغيرة قائد قریش فى كل نضال . فهو على خليقة الرجل الذى لا يحابى لأنه لا يخاف والذى يخجل من الميل الى القوى لأنه جبن ، ومن الجور على الضعيف لأنه عوج يترى بنخوته وشتمه .

وكان عادلاً لأن آله من بنى عدى قد ذاقوا طعم الظلم من أقربائهم بنى عبد شمس وكانوا أشداء فى الحرب يسمونهم لمعة (٢) الدم ، ولكنهم غلبوا على أمرهم لقلّة عددهم بالقياس الى عدد أقربائهم ، فاستقر فيهم بغض القوى المظلوم للظلم وجهه للعدل الذى مارسوه ودرّبوا عليه ،

(١) رافدة : الرافد ما يمد النهر بالماء من قناة أو نهر .
(٢) لمعة الدم : سموا كذلك لأنهم تحالفوا مع فيهم فنحروا جسوراً فلقوا دمها أو عسروا أيديهم فيه .

وساعدت عبر الأيام على تمكين خليفة العدل . في خلاصة هذه الأسرة أو خلاصة هذه القبيلة ، ونعني به عمر بن الخطاب .
وكان عادلا بتعليم الدين الذي استمسك به وهو من أهله بمقدار ما حاربه وهو عدوه . فكان أقوى العادلين كما كان أقوى المتقين والمؤمنين .

وكذلك اجتمعت عناصر الوراثة الشعبية ، والقوة الفردية ، وعبرَ الحوادث وعقيدة الدين في صفة العدل التي أوشكت أن تستولى فيه على جميع الصفات .

كان عادلا لأسباب كأنه عادل لسبب واحد لقلة التناقض فيه . وربما كان تعدد الأسباب هو العاصم الذي حمى هذه الصفة أن تتناقض في آثارها . لأنه منحها القوة التي تشدها كما يشد الجبل المبرم فلا تتفكك ولا تتوزع، فكان عمر في جميع أحكامه عادلا على وتيرة واحدة لا تفاوت بينها . فلو تفرقت بين يديه مائة قضية في أعوام متباعدات لكنت على ثقة أن تتفق الأحكام كلما اتفقت القضايا .. كأنه يطبعها بطابع واحد لا يتغير .

الا أن الصفات اذا بلغت هذا المبلغ من القوة الرائعة لم تكد تسلم من طرء التناقض عليها وان سلمت منه بطبيعتها . لأنها تدخل في صفات البطولة التي تثير الاعجاب والمبالغة ، وكل بطولة فهي عرضة للمبالغات والاضافات ، ومن ثم لا تسلم من تناقض الأقاويل .

وصفات عمر كلها صفات لها طابع البطولة وفيها دواعي الاغراء بالاعجاب والمبالغة . ومن ؟ من الأصدقاء المصدقين لأنهم لا يهتمون بقصد السوء وهم في الواقع أولى بالاحتراس من الخصوم المتهمين .. فمن هنا يجيء التناقض لا من طبيعة الصفات التي تأباه .

فالعدل مثلا هو المساواة بين أبعد الناس وأقربهم في قضاء الحقوق وإقامة الحدود .

وليس أقرب الى الحاكم من ابنه .

فاذا سوَّى الحاكم بين ابنه وسائر الرعية فذلك عدل ماثور يقتدى به الحاكمون .

ولقد سوَّى عمر بين أبنائه وسائر المسلمين فبلغ بذلك مبلغ البطولة في هذه الصفة النادرة بين الحكام .

وذلك كاف في تعظيم قدره ، لا حاجة بعده إلى مزيد .

الا أنها صفة من صفات البطولة التي تروّع وتُعجّب وتملأ النفس بالرغبة في التحدث بها والاطناب في أحاديثها . فهي لا تكفي المبالغين حتى يجعلوا عمر مقيماً للحد على ابنه ، مشتداً في عقوبته اشتداداً لا يسوى فيه بينه وبين غيره . ثم لا يكتفى المبالغون بهذا حتى يموت الولد قبل استيفاء العقوبة ، فيمضي عمر في جلده وهو ميت لا تقام عليه الحدود ! ومن اعتدل من المبالغين لم يذكر الموت واتمام العقوبة وذكر لنا أن الولد مات بعد ذلك بشهر من مرض الضرب الذي ثقل عليه ، وعجز عن احتمالها .

نعنى بما تقدم قصة عبد الرحمن بن عمر في مصر وهي كما رواها عمرو ابن العاص والى مصر يومئذ حيث يقول : « .. دخلاً - عبد الرحمن بن عمر وأبو سروعة - وهما منكسران ، فقالا : أقم علينا حد الله ، فانا قد أصبنا البارحة شراباً فسكرنا . فزبرتهما (١) وطردتهما ، فقال عبد الرحمن : ان لم تفعل أخبرت أبى اذا قدمت عليه . فحضرني رأى وعلمت أنى ان لم أقم عليهما الحد غضب على عمر في ذلك وعزلنى وخالفه ما صنعت ، فنحن على ما نحن عليه اذ دخل عبد الله بن عمر ، فقامت اليه فرحبت به وأردت أن أجلسه في صدر مجلسى فأبى على وقال : أبى نهانى أن أدخل عليك الا أن لا أجد من ذلك بدءاً . ان أخى لا يحلق على رؤوس الناس . فأما الضرب فاصنع ما بدا لك » .

قال عمرو بن العاص : « وكانوا يحلقون مع الحد ، فأخرجتهما الى صحن الدار فزبرتهما الحد ، ودخل ابن عمر بأخيه الى بيت من الدار

(١) زبرتهما : زبرتهما ونهرتهما .

فخلق رأسه ورأس أبي سروعة ، فوالله ما كتبت الى عمر بشيء مما كان حتى اذا تحيئت كتابه اذا هو نظم فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله أمير المؤمنين عمر الى العاصي ابن العاص .

« عجبت لك يا ابن العاص ولجأرتك عليّ وخلاف عهدي .. فما أراني إلا عازلك فمسيء عزلك . تضرب عبد الرحمن في بيتك وتحلق رأسه في بيتك وقد عرفت أن هذا يخالفني ؟ انما عبد الرحمن رجل من رعيتك تصنع به ماتصنع بغيره من المسلمين ، ولكن قلت هو ولد أمير المؤمنين ، وقد عرفت ألا هوادة لأحد من الناس عندي في حقّ يجب لله عليه . فاذا جاءك كتابي هذا فابعث به في عباءة على قسب (١) حتى يعرف سوء ما صنع » .

قال : « فبعثت به كما قال أبوه وأقرأت ابن عمر كتاب أبيه ، وكتبت الى عمر كتاباً أعذرت فيه وأخبرته أنني ضربته في صحن دارى ، وبالله الذى لا يتحلف بأعظم منه انى لأقيم الحدود في صحن دارى على الذمّ ، والمسلم ، وبعثت بالكتاب مع عبد الله بن عمر .

قال أسلم : « فقدم عبد الرحمن على أبيه فدخل عليه ، وعليه عباءة ولا يستطيع المشى من مركبه . فقال : يا عبد الرحمن فعلت كذا ؟ فكلّمه عبد الرحمن بن عوف وقال : يا أمير المؤمنين قد أقيم عليه الحد مرّة . فلم يلتفت الى هذا عمر وزبرّه . فجعل عبد الرحمن يصيح : أنا مريض وأنت قاتلى ! فضربه وجبسه ، ثم مرض فمات رحمه الله » .

فهذه قصة تتوافق أخبارها ومن رويت عنهم ، فلا نستغربها في جميع تفصيلاتها الا حين تطرأ عليها المبالغة التى تتسرب الى كل خبر من أخبار البطولات المشهورة ، وذلك أن يقسو عمر على ابنه تلك القسوة التى لا يوجبها الدين ولا تقبلها الفطرة الانسانية ، فيقيم عليه الحد وهو ميت ،

(١) القتب : الرجل الصغير على قدر سنّام البعير .

أو يعرفه للموت من أجل حدٍّ آقيم .

هذا هو الغريب الذي استوقفنا فأفكرناه ، ومضينا في تمحيصه فطابق التمهيصُ ماقدّرناه . أما سائر القصة فلا غرابة فيه من كل نواحيه ، بل هو من القصص التي يستبعد فيها التلفيق والاختراع .. الا أن يكون الملفّق من حذاق الرواة ومهرة الوضع .

ولو كان المصدر واحدا معروفا بالحدق في القصص لحسبناها من وضعه وتلقيقه . ولكنها سمعت من غير مصدر موثوق به ، فهي أقرب الى الواقع فيما يشبهه ويجرى مجراه .

فبعد الرحمن بن عمر يذهب الى الوالي لانه شرب شيئا ظنّه غير مستكرٍ فاذا هو قد سكر منه ، ولا مناص من اقامة الحد عليه والا رفع الأمر الى أبيه .. هي شنشنة (١) عمرية لا لبس فيها ، وهو ابن عمر لا مراء .

والوالي . ومن الوالي ؟ عمرو بن العاص الذي لا خفاء بدهائه ولا يبعد حسابه ، فهو يترىث بادىء الأمر ويحاول أن يصرف الفتى اذا طالب له الانصراف دون أن يقيم الحد عليه .. وهي أيضا شنشنة لا غرابة فيها . فمن يدري ؟ ألا يجوز أن يصبح هذا الفتى أخا للخليفة أو مدبّرًا للسلطان معه في يوم غير بعيد ؟

والخليفة يدري بالأمر فيهلّثه ويستكبر أن يخفيه عنه واليه فلا يصل اليه نبؤه من قبلكه ، وهو ماهو في تحرّشه من تبعه يحملها غافلا عنها ، لحرص الولاة على تحرّى هواه وابتغاء رضاه . فيشفق أن يقع ابنه في معصية ثم ينجو من الحد الذي شرعه الدين ، وهو مسئول عن الولاة والحدود ، ومسئول عن ذويه الأقربين قبل سائر المسلمين .

كل أولئك كما قلنا سائغٌ لا غرابة فيه .

أما الغريب من عمر حقا في معدّته وعلمه بالدين وكرهته رياء الناس

(١) الشنشنة : الخلق والطبيعة .

فهو أن يَتِمَّ على ابنه الحدَّ وهو ميت ، أو يشتد في اقامة الحد على ابنه حتى يتلف أو يصاب بما يتلفه بعد أيام .

فلا موجب لذلك من حكم دين ولا اتقاء تبعه .

وهو مع هذا مخالف لما عرف عن عمر في اقامة الحدود خاصة وفي مثل هذه العقوبة بعينها .

فقد جيء له يوما بشارب سكران ، وأراد أن يشتدَّ عليه فقال له : لا بُعْثَكَ الى رجل لا تأخذه فيك هواة . فبعث به الى مطيع بن الأسود العبدى ليقم عليه الحدَّ في غده . ثم حضره وهو يضربه ضربا شديدا فصاح به : قتلت الرجل . كم ضربته ؟ قال : ستين ، قال : أَقِصَّ (١) عنه بعشرين . أى ارفع عنه عشرين ضربة من أجل شدتك عليه فيما تقدم من الضربات .

وقد كان من دأبه أن يترث في اقامة الحدود ، حتى ليؤثر - كما قال - تعطيلها في الشبهات على أن يقيهما في الشبهات .

ومرَّ بقوم يتبعون رجلا قد أخذ في رية فقال : « لا مرحبا بهذه الوجوه التي لا تثرى الا في الشر » .

وربما غضب على الوالى من كبار الولاة لغلوه في تقاضى الحدود على المعاصي كما فعل في انذاره الشديد لأبى موسى الأشعرى حين جلد شاربا وحلق شعره وسود وجهه ونادى في الناس ألا يجالسوه ولا يؤاكلوه . فأعطى الشاكى مائتى درهم وكتب الى أبى موسى « لئن عدت لأسودن وجهك ولأطوفن بك في الناس » وأمره أن يدعو المسلمين الى مجالسته ومؤاكلته وأن يسهله ليتوب ويقبل شهادته ان تاب .

وتفقد رجلا يعرفه ف قيل له انه يتابع الشراب . فكتب اليه : انى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو « غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب

(١) أقص : خذ له بقصاصه - أى اقم القصاص عليه بحذف عشرين . ولعل الاصل أقص منه عشرين أى أنقص منه عشرين ، وزيادة الباء من تحريف الرواة .

ذى الطول لا اله الا هو اليه المصير» (١) فلم يزل الرجل يرددها ويبكى حتى صحت توبته وأحسن النزع (٢) ، وبلغت توبته عمر فقال لمن حضروا مجلسه : هكذا فاصنعوا . اذا رأيتم أخا لكم زلّة زكّة فسددوه وادعوا الله أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه .

وقد تكرر منه اعفاء الزانيات من الحدّ لشبهة القهر والعجز عن المقاومة ، وتكرر منه الاعفاء لمثل هذا العذر في غير ذلك من الحدود . فلم يكن عمر بالسريع المتعطف الى اقامة الحدّ ، ولم يُعرف عنه قطّ انه أقام حداً وله مندوحة عنه .

وفى قصة ولده منادح شتى ترضيه على شدة تحريجه وتحرّيه . ثم لا حاجة بمثله الى رياء العدل فيجور على ابنه ويُسرف في القسوة عليه ، ليقال انه سوّى بينه وبين غيره .

وأصح من ذلك أن نأخذ برواية عبد الله بن عمر وهو أحق الناس بالمبالغة في عدل أبيه لو كانت مما يجمل بمثله . فقد روى هذه القصة فقال ما خلاصته : ان أخاه عبد الرحمن وأبا سروعة عتبة بن الحارث سكرّا فلما أصبحا انطلقا الى عمرو بن العاص وهو أمير مصر فقالا : طهرنا فانا قد سكرنا من شراب شربناه .. ! ولم أشعر أنهما أتيا عمرو بن العاص ، فقلت : والله لا يحلق اليوم على رؤوس الأشهاد . ادخل أحلقك ! .. وكانوا اذ ذاك يحلقون مع الحدّ ، فدخل معي الدار فحلق أخى يدي ، ثم جلدهما عمرو بن العاص ، فسمع عمر بن الخطاب فكتب الى عمرو أن ابعث اليّ بعبد الرحمن بن عمر على قتب .. ففعل ذلك عمرو . فلما قدم عبد الرحمن على عمر جلده وعاقبه من أجل مكانه منه . ثم أرسله فلبث شهرا صحيحا ثم أصابه قدْرُهُ ، فتحسّب (٣) عامة الناس أنه مات من الجلد ولم يمت منه .

(١) آية ٢ من سورة غافر .
(٢) أحسن النزع : كف عما كان فيه وانتهى .
(٣) تحسّب : ظن .

هذه رواية عبد الله عن أبيه وأخيه ، ولو كان الأمر بمبالغة في عدله غير
لكان الابنُ أحقَّ الناس بهذه المبالغة ، أو كان الأمر رحمةً بعبد الرحمن
لكان الأخُ أحقَّ الناس بهذه الرحمة . ولكنه أمرٌ صدق لا نقص فيه
ولا زيادة .

فالذي يجوز لنا أن نقبله من هذه القصة هو الجانب الذي يستقيم مع
خلائق عمر ولا يناقضها . وهو العدل الصحيح في محاسبة ولده على ذنبه
ولا زيادة ، ولا سيما الزيادة التي لا تستقيم مع عدله ورحمته على السواء .
وكلا العدل والرحمة من صفاته الأصيلة فيه .

نعم كانت الرحمة من صفاته التي وازنت فيه العدلَ أحسن موازنة ...
فما عهد فيه أنه أحب العدل لغضبه من الأقوياء المعتدين ، كما كان يجب
لنجدته الضعيف المعتدى عليه .

ولا يمتنع ذلك أنه كان خشنَ الملمس صعبَ الشكيمة جافيا لى القون
إذا استغضب واستثير ، فليست الخشونة نقيضا للرحمة ، وليست
النعومة نقيضا للقسوة . وليس الذين لا يستثارون ولا يستغضبون
بأرحم الناس . فقد يكون الرجل ناعما وهو منطو على العنف والبغضاء ،
ويكون الرجل خشنا وهو أعطف خلق الله على الضعفاء ، بل كثيرا ما تكون
الخشونة الظاهرة نقابا يستتر به الرجل القوى فرارا من مظنة الضعف
الذى يساوره من قبل الرحمة . فلا يكون مداراة الرقة الا علامة على
وجودها وحذرا من ظهورها .

ومن المألوف في الطبائع أن الرجل الذى يقسو وهو معتصم بالواجب
قلما ينطبع على القسوة ، ولا سيما اذا كان الواجب عنده شيئا عظيما يزيل
كل عقبة ويثبط كل حجة ، ويقطع كل ذريعة . فهو انما يعتصم بالواجب
في هذه الحالة كما يعتصم الانسان بالحصن المنيع كلما خشي أن
تقتحم عليه طريقته ، ولولا خوف الرحمة أن تغلبه لما كانت به حاجة
الى ذلك الحصن المنيع ، ولا سيما حين يكون حصنا بالغا في المنعة كما

كان الواجب عند عمر بن الخطاب .

أرأيت هذا الرجل الصارمَ الحازمَ قاسيا قط الا باسم واجب أو في سبيل واجب ؟ كلا . وما نذكر أننا سمعنا رواية واحدة من روايات شدته الا لمَحْنًا الواجبَ قائما الى جانبها يزكيها ويسوغها . ومن كانت القسوة طبعاً فيه فما هو بحاجة الى واجب يُغريه بالقسوة ، بل هو في حاجة الى واجبات عدّة تنهأ عنها وتُغريه باجتنابها .

وليس قصاراه في هذا الخُلُق أنه غير قاسٍ أو أن الرحمة كانت تنفذ الى قلبه كلما طرقتة واتخذت سبيلها اليه ، فإن نصيبه من الرحمة قد كان أوفى جدا من ذلك ، وكانت هذه الفضيلة من فضائله الأصلية فيه لا تكاد تفارقه في عامّة حياته ، حتى ليصحَّ أن تُضرب الأمثالُ برحمته كما كانت تضرب الأمثال بعدله . وأن يُقرَن معه لقبُ العادل بلقب الرحيم .

وفي صدد الكلام عن الخليفة الاسلامي الكبير قد يهمننا خلق الرحمة فيه خاصة ، لأن شأنها في التقرب بينه وبين الاسلام غير قليل . فمن المحقق أن رفته للمسلمين وللدّين الذي يدينون به كانت مقرونة في أول الأمر برحمته لامرأتين ضعيفتين رآهما في حالة من الشكوى تلين القلبَ وتكف الغرب (١) وتمسح جفوة العناد والبغضاء .

قالت أم عبد الله بنت حنتمة : لما كنا نرتحل مهاجرين الى الحبشة أقبل عمر حتى وقف على ، وكنا نلقى منه البلاء والأذى والغلظة علينا ، فقال لي : انه الانطلاق يا أم عبد الله ! قلت : نعم . والله لنخرجنَّ في أرض الله ... أذيتمونا وقهرتمونا ، حتى يجعل الله لنا فرجا . فقال : صَحِّبْكُمْ الله ، ورأيت منه رقة لم أرها قط .

وحديثه مع أخته فاطمة في سبب اسلامه مشهور متواتر في أوثق الروايات . فانه ضربها حين علم باسلامها فأدمى وجهها ، فأدركتها الثورة الخطائية التي فيها منها بعضٌ مافيه وقالت وهي غضبي : ياعدو الله !

(١) تكف الغرب : تخفف الحدة أي تلين الشديد القاسي .

أتضربني على أن أوحّد الله ؟ قال غير متريث : نعم ! فقالت : ما كنت فاعلا فافعل . أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله . لقد أسلمنا على رغم أنفسك .

ويذكر لنا رواية القصة التي اتفقت عليها روايات كثيرة أنه ندم وخلص عن زوجها - بعد أن صرعه وقعد على صدره - ثم اتحنى ناحية من المنزل وطلب الصحيفة التي كتبت فيها آيات القرآن ، وخرج من ثمة الى حيث لقي النبي فأعلن شهادة الاسلام على يديه . وغير عسير علينا أن نرقب طوية عمر ونرى كيف كانت تتمشى فيها المخالجات والخطرات وهو يتحدث الى المرأتين : بنت حنمة ، وبنت الخطاب .

فهذا بطل مناضل يشحذه النضال اذا لقي أنداده من الأبطال وأقرانه من الرجال : الاساءة تتبعها الاساءة والتحدى يعقبه التحدى ، وكلما قوبل البطش بمثله تضرمت سورة الغضب وثار نحيبة القتال (١) ، ومضى العداء شططا لا اعتدال فيه ولا نكوص عنه حتى ينكسر عدو من العدو . فلا موضع هنا لرحمة ولا سبيل لها الى ظهور . وتتمادى المشرة (٢) على ذلك شهورا وسنينا وكان الرحمة لم تخلق في النفس ولم يسمع لها في حنايا الصدور صوت .

أما المرأة الشاكية أو المرأة الدامية اذا واجهت ذلك البطل القوي فما حاجته الى قوته ونضاله ؟ وما أخرى تلك القوة أن تهدأ في مكانها كأنها هي الخليفة الخفية التي لم تخلق وليس لها صوت مسموع ! وما أقربها اذا الى أن تخجل من ايائها وتندم على قسوتها وتثوب الى التوبة والخشوع ، وهما من لباب الدين .

ان العرب يشفقون الرحمة من الرحيم أو القاربة ، وهو اشتقاق عميق المعزى يهدينا الى نشأة هذه الفضيلة الانسانية العالية ، ومودعة عمر

(١) النخوة : الطيبة والفريرة .

(٢) الشر : الشر .

ابن الخطاب لرحمه وذوى قرياه لا تنحصر دلائلها في رحمته لأخته الشاكية الثائرة . فان المرأة قد ترحم لضعفها في موقف شكواها ويأسها ولو كانت بعيدة الأصرة منقطعة النسب . انما يدل على مودته لذوى قرياه ذلك الحب الذي كان يضمه لأبيه بعد موته مع شدته عليه وغلظته في زجره وتأديبه . فكان يطيل الحديث عنه وينقل أخباره ويتقسم باسمه . وظل يقسم باسمه وهو كهل الى أن تهي المسلمون عن القسم بأسماء من ماتوا على الجاهلية .

وندر بين الناس من أحب أخوته كما كان عمر يحب أخاه زيدا في حياته وبعد مماته ، فما شاء أحد أن يبكيه الا ذكره له ففاضت شئونه (١) ، وجعل بعد قتله يتأسى بمن أصيب مثل مصابه ولا يرى أحدا فقد أخا له الا التمس الأسوة عنده .

حكى أحمد بن عمران العبدى عن أبيه عن جده قال : « صليت مع عمر بن الخطاب الصبح ، فلما انقضى من صلاته اذا هو برجل قصير أعور متكباً قوسه ويده هراوة فسأل : من هذا ؟ فقيل : متم بن نويرة . فاستنشد رثاءه لأخيه ، فأنشده حتى بلغ الى قوله :

وكنا كنند مائى جذيمة حقة من الدهر حتى قيل لن يتصلحا
فلما تفرقنا كائى ومالكاً لطول افتراق لم نبت ليلة معا
فقال عمر : هذا والله التآين ، يرحم الله زيد بن الخطاب ! انى لأحسب
أنى لو كنت أقدر على أن أقول الشعر لبكيتك كما بكيت أخاك . ثم
سأله : ما أشدك ماقيت على أخيك من الحزن ؟ فقال : كانت عيني هذه
قد ذهبت فبكيت بالصحيفة فأكثر البكاء حتى أسعدتها العين الزاهية
وجرت بالدمع . فقال عمر : ان هذا لحزن شديد . ما يحزن هكذا أحد
على هالك . قال متم : لو قتل أخى يوم اليمامة كما قتل أخوك ما بكيت
أبدا . فصبر عمر وتمزى عن أخيه وقال : ما عزانى أحد عنه بأحسن

(١) الشئون : اليسوع .

مما عزيتنى ... »

هذا هو عمر من وراء النقاب .

فما كان أحوجَه رضى الله عنه الى ذلك النقاب ، وما أقل الغرابة في ذلك النقاب من الشدة والهيبة حين يَنقُذ الناظر الى ماوراءه فيرى مكان الحاجة اليه .

وقد يرحم الرجل أهل الرحم والقراة ويجفو غيرهم من الناس ، ولكن الرحمة الأصيلة في الطباع تسوَّى في المودة ولا تفرِّق ، وتخلق هي سبب الرحمة ولا تنتظر حتى تفرضها عليها القراة بأسبابها . فكان عمر كما روى « الحسن » يذكر الصديق من أصدقائه بالليل فيقول : ياطولها من ليلة ! فاذا صلى الغداة غدا اليه ، فاذا لقيه التزمه أو اعتنقه .

وكان بكاء طفل يزعجه ويقطع عليه صلاته وينغص عليه ليله . قدمت رفقة من التجار فنزلوا المصلى ، فاقترح على عبد الرحمن بن عوف أن يذهب ليحرساهم من السرَّق ، ثم باتا يحرسان ويصليان ، فسمع بكاء صبي ، فتوجه نحوه وقال لأمه : اتقى الله وأحسنى الى صبيك . ثم عاد الى مكانه فسمع بكاءه فرجع الى أمِّه كرَّة أخرى ، ثم سمع بكاءه آخر الليل فقال لأمه : ويحك ! انى لأراك أم سَوء . مالى أرى ابنك لا يقرئ منذ الليلة ؟ قالت : يا عبد الله قد أضجرتنى منذ الليلة . انى أُرْبِعُه عن الفطام (١) فسألها : ولم ؟ فقالت : لأن عمر لا يفرض الا للفطيم ! فسألها : وكم له ؟ فلما علم أنها فطمته دون سن الفطام أمر مناديا فنادى ألا تَعَجِّلُوا صبيانكم عن الرضاع فانا نفرض لكل مولود فى الاسلام . وقصته مع الصبية الجياع مشهورة ولكنها تعاد لأنها أحق قصة بأن تعاد قال أسلم : خرجنا مع عمر رضى الله عنه الى حرَّة واقم حتى اذا كنا بِصِرَّار (٢) اذا نارٌ تُوْث (٣) فقال : يا أسلم انى أرى ها هنا ركبانا قصَّر بهم الليل والبرد . انطلق بنا !

(١) أُرْبِعُه عن الفطام : المقصود انى أحبسه على الفطام وأمرده ..
(٢) مكان على مقربة من المدينة .
(٢) تُوْث : توقد

» فخرجنا نهول حتى دنونا منهم ، فاذا بامرأة معها صبيان وقدر^(١) منصوبة على نار ، وصبيانها يتضاغون^(٢) . فقال عمر : السلام عليكم يا أهل الضوء . وكره أن يقول : يا أصحاب النار . فأجابته امرأة : وعليكم السلام ! فقال : أأدنو ؟ فقالت : ادنْ بخير أو دَعْ . فدنا منها فقال : ما بالكم ؟ قالت : قصر بنا الليل والبرد . قال : وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون ؟ قالت : الجوع ! قال : وأى شيء في هذه القدر ؟ قالت : ماء أسكتهم به حتى يناموا .. والله بيننا وبين عمر ! فقال : أى رحمك الله . وما يثدري عمرَ بكم ؟ فقالت : يتولى أمرنا ثم يغفل عنا ؟ فأقبل على فقال : انطلق بنا .

» فخرجنا نهول حتى أتينا دار الدقيق . فأخرج عبد^(٣) من دقيق وكتب^(٤) من شحم ، وقال : احمله على ! قلت : أنا أحمله عنك : قال : أنت تحمل وزرى يوم القيامة ! .. لا أم لك !

» فحملته عليه ، فانطلق وانطلقت معه اليها نهول ، فألقى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها : ذرّى على وأنا آخر^(٥) لك !

» وجعل ينفخ تحت القدر . وكانت لحيته عظيمة ، فرأيت الدخان يخرج من خلالها حتى طبخ لهم . ثم أنزلها وأفرغ الحريّة في صحفة وهو يقول لها : أطعمهم وأنا أسطح لهم - أى أبرّده - ولم يزل حتى شبعوا وهى تقول له : جزاك الله خيراً ، كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين .. »

وأمثال هذه القصة في سيرة عمر كثير ، لا يقال انها هى ومثيلاتها من الشعور بالتبعية وليست من الرحمة ، لأن العهد بالشعور بالتبعية أن يأتى من الرحمة ، وليس العهد بالرحمة أن يأتى من الشعور بالتبعية !

كذلك لا يقال انه قد كان يطيع أمرا سماويا تحركت له نفسه أو ثم تحرك^(٦) . فان النفس التى تتحرك للامر السماوى هى النفس التى فيها

(١) المدل : الجوالق .

(١١) يتضاغون : يتصاحون .

(١٢) كبة من شحم : مقدار منه .

(١٣) آخر لك : أى اتخذ لك حريّة ، وهى الحساء من الدقيق والدسم .

الخير ولها رغبة فيه ، وقلما تشفق من عقاب السماء الا أن تشعرَ بالم
الظلم ومبلغ استحقاقه للعقاب .
على أن عمر كان يرحم في أمورٍ يحول فيها النور الديني دون الرحمة
عند كثيرين .

فمن ذلك أنه رأى شيخا ضريرا يسأل على باب ، فلما علم أنه يهودي
قال له : ما ألجأك الى ما أرى ؟ قال : أسأل الجزية والحاجة والسن ! فأخذ
عمر بيده وذهب به الى منزله ، فأعطاه ما يكفيه ساعتها ، وأرسل الى خازن
بيت المال يقول : انظر هذا وضرَّ بآءه (١) فوالله ما أنصفناه ان أكلنا شبيبته
ثم نخذله عند الهرم . انما الصدقات للفقراء والمساكين . والفقراء هم
المسلمون ، وهذا من المساكين من أهل الكتاب ... ووضع عنه الجزية وعن
ضرَّ بآئه .

فهنا علمته الرحمة كيف يطيع الدين ، ولن يطيع الدين هكذا الا رحيم
وقد فرض عمر لكل مولود لقيط مائة درهم من بيت المال كما فرض
لكل مولود من زوجين ، وهي رحمة قد يحجبها النور من الزنا وثمراته
في نفوس أناس ينفرون فلا يرحمون .
بل كان يرحم كل مخلوق حتى " حتى البهيم الذي لا يبين بشكاية ،
فروى المسيَّب بن دارم أنه رآه يضرب رجلا ويلاحقه بالزجر لأنه يحمل
جمله ما لا يطيق .

وكان يَدْخُل يده في عقرَ البعير الأدبر (٢) ليداويه وهو يقول :
الى لخائف أن أسأل عما بك . ومن كلامه في هذا المعنى : لو مات جدِّي "
بِطَفِّ (٣) الفرات لخشيث أن يحاسب به الله عمر ، وانه لشعور
بالتبعة عظيم .

لكنه كما أسلفنا لن ينبت في قلب كلِّ أمير عليه تبعة ، الا أن يكون

(١) ضرباؤه : نذراؤه وأمثاله .

(٢) البعير الأدبر : المصاب بالدبر وهو مرض يصيب الدواب كالقرحة .

(٣) ب " طف " الفرات : ب " شاطئه " .

به منبت للرحمة عظيم .

فنحن اذا بازاء صفة كبيرة الى جانب صفة كبيرة : الرحمة الى جانب العدل ، وكلتاهما من البروز والوثاقة وعمق القرار بمثابة العنوان الذي يدل على صاحبه ، أو بمثابة العنصر الأصيل الذي يلزمه ويلبسه ولا يفارقه في جملة أعماله .

ومن خصائص عمر أنه كان على هذا الشأن في جميع صفاته المشهورة ، خلافا للمعهود في الصفات الغالبة بين الناس من المحامد كانت أو العيوب . اذ قلما يتوسم انسان بأكثر من صفة غالبة بهذه المثابة من التأصل والبروز فهو عادل أو رحيم أو غيور أو فطن أو وثير الايمان ، ثم تطفئ إحدى هذه الصفات على سائرهما فلا تعطى الى جانبها مكانة رسوخ واستقرار .

وعلى غير هذا العهد كان عمر في جميع صفاته الكبيرة التي ذكرناها ، فكانت كل صفة منها في قوتها ورسوخها تكفى للغلبة على شخصية تتسم بها ولا تذكر غيرها ، وانه ليتصف بها فتأخذ من سماته ومعاله ما يخصها به ولو كانت من الصفات القومية الشائعة في أبناء جلدته جميعا ، فيخيل اليك أنها سمة مميزة له لم توجد في غيره .

فأحرار العرب كلهم غيور . ولكنك اذا قلت « العربي الغيور » فكأنما سميت عمر بن الخطاب . لأنه طبع هذه الصفة القومية بطابعه الذي لا يشبهه فيه غيره ، فكان الغيور بين الغيورين .

قال أكبر أصدقائه وأكبر العارفين به محمد عليه السلام : « ان الله غيور يحب الغيور ، وان عمر غيور »

وتحدث الى صحبه يوما وعمر فيهم فقال : « بينا أنا قائم رأيتني في الجنة ، فاذا امرأة تتوضأ الى جانب قصر ، فقلت : لمن هذا القصر ؟ فقالوا : لعمر . فذكرت غيرته فوليت مدبرا ... فبكى عمر وقال كالمعتذر : أعليك أغار يا رسول الله ؟ »

وكانت هذه الغيرة معروفةً مخشيةً بين جميع من يعرفونه ويسمعون بطباعه ، والنساء من باب أولى يعرفنها ويعهدنها ويتقينها كما لم يتقينها قط من غيره .

استأذن على النبي يوما وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه عاليةً أصواتهن ، فلما استأذن عمر قمن يتدرن الحجاب .
فدخل والنبي يضحك .

قال عمر : أضحك الله سنك يا رسول الله ... كأنه يسأله عن سبب ضحكك . فقال عليه السلام : عجبت من هؤلاء اللاتي كنَّ عندي لما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب .

قال عمر : فأنت يا رسول الله كنت أحق أن يهبن . ثم التفت اليهن يقول: أى عدوات أنفسهن ! أتهبنى ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

قلن — ولا يخذل المرأة لسانها في هذا المقام : نعم أنت أغلظ وأفظك من رسول الله !

وحسبك من غيرته أنه هو الذى أشار على النبي صلى الله عليه وسلم بحجاب أمهات المسلمين ، وكان يرى احداهن فى الظلام ذاهبةً لبعض شأنها . فيقول لها : عرفتك يا فلانة ! ليرى أنها فى حاجة الى مزيد من التحجب . وقد ضجرت احداهن منه لهذا فقالت له : وانك علينا يا ابن الخطاب والوحى ينزل فى بيوتنا ؟

على أن الغيرة فى ابن الخطاب لم تكن غيرة مقصورة على المرأة وكفى . بل غيرته على المرأة لم تكن الا شطرا من غيرته على كل حرم وحوزة . فمن هذه الغيرة العامة سياسته العريية التى كانت تصد الغبراء عن جزيرة العرب كأنها الحرم الموصد ، ومنها غيرته على الزى العربى والشمال العريية ، ومنها غيرته على العقيدة وحدود الشريعة ، وغيرته على كل حق يحميه غيور .

والأحاديث عنه في هذه الخصلة تتعدد في معارض شتى كما تعددت
أحاديث عدله ورحمته وكل صفة بارزة فيه . فشان هذه الصفات أن يظهرن
أبدا حيث ظهر له قول أو عمل ، لأنهن أصيالات " مطبوعات " يختلطن بكل
ماعمل وقال .

الا أنك تقرؤها جميعا فتخرج منها بأثر واحد لا اختلاف فيه .
ذلك أن عمر كان يغار على حق ولا يغار من أحد ولا ينفس على ذى
نعمة .

فاذا قيل لك إن عمر قد غار فلن يخطر لك أن تسأل : ممن كانت
غيرته ؟ وانما يخطر لك أن تسأل في كل مرة : علام غار ؟ ولأى شيء
كان يغار ؟

فهو يغار على حق ، أو يغار على عِرْض ، أو يغار على دين ، أو يغار
على صديق أو صاحب حرمة ، ولا يغار من هذا أو ذاك لنعمة أصابها
هذا أو ذاك .

انما كان يغار على شيء يحميه ويعلم من نفسه القدرة على حمايته ،
فهى غيرة من يريد الحماية لغيره ، ولا يريد انتزاع الخير لنفسه أو غلبة
انسان على حظه .

رجل قوى ، جياش الطبع ، شديد الشكيمة ، مؤمن " بالحق وحرماته ،
قادر على تقويم من يحيد عنها ويجترى عليها . فان لم يكن هذا غيورا
فمن يكون الغيور ؟

وقتل في ذكائه وفطنته والمعية ذهنه ماتقول فيما اشتهر به من
صفات العدل والرحمة والغيرة ، وان كانت هذه الصفة أحوج منهن الى
الشرح والتحليل .

فبعض المستشرقين الذين أثنوا عليه قد عرضوا لأمر تفكيره فوصفوه
بأنه محدود التفكير ، أو أنه يأخذ الأمور بقياس واحد .
ونحن لا نقول ان عمر رضى الله عنه خلق بذهن عالم بحكامة منقطع

للكشف والتتقيب ، ولا انه خلق بذهن فيلسوف مطبوع على التجريد والذهاب بالفكر في مناحي الظنون والفروض ، ولا انه خلق بذهن منطيق يدور بين الأقيسة والاحتمالات مدار الترجيح والتخمين . فالواقع أنه لم يكن كذلك ولا يعيئه ألا يكونه ، وأنه كان معنيا بالعمل قبل عنايته بالنظر أو الفرض والتقدير ، ولكن الفرق بعيد بين هذا وبين الفكر المحدود والنظر الذى يقيس الأمور بقياس واحد .

فعمر كانت له فطنة الرجل المليم بنقائض الأخلاق وخبايا النفوس ، ولم يحكم عليها قط كأنه ينظر اليها من جانب واحد أو يطبعها في تفكيره بطابع واحد . بل عليم الدنيا وعلیم كيف يتقلب الانسان ، وراح في علمه هذا يراقب الناس مراقبة الحذور ، ويقيم عليهم الأرصاد اقامة الرجل الذى لا يفوته أن ينتظر منهم ما ينتظر من خير وشر وقوة وضعف وصلاح وفساد .

وكفى من كلماته الدالة عليه أن نذكر أنه كان يجب أن يعرف الشر كما يعرف الخير ، لأن « الذى لا يعرف الشر أخرى أن يقع فيه » وأنه كان يحب أن يعرف الأعذار كما يعرف الذنوب حيث يقول : « أعقل الناس أعذرهم للناس » ، وأنه هو القائل : « احترسوا من الناس بسوء الظن » ، وهو القائل مع ذلك : « أظهروا لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر » .. يوفق في هذين القولين بين سهر الحاكم الذى لا ينبغي أن تخفى عليه خافية ، وبين عدل القاضى الذى لا ينبغي أن يحكم بغير بيئة ظاهرة .

بل لو كان عمر بن الخطاب محدود التفكير ينظر الى الأمور من جانب واحد لما كثرت مشاورته للكبار والصغار والرجال والنساء مشاورة من يعلم أن جوانب الآراء تتعدد ، وأن للأمور وجوها لا تنحصر في الوجه الذى يراه . وكثيرا ما قال : « أخوف ما أخاف عليكم اعجاب المرء برأيه » وليس استطلاع الآراء ولا الخوف من الاعجاب بالرأى شيمة رجل

محصور التفكير ضيق المنافذ الى الحقيقة .

وقد عاشره أناس من الدهاة فخبروه وحذروه ! .. وقال المغيرة بن شعبة لعمر بن العاص : أنت كنت تفعل أو ثوهم عمر شيئا فيلقتنه عنك ؟ والله مارأيت عمر مستخليا بأحد الا رحمته كائنا من كان ذلك الرجل . كان عمر والله أعقل من أن يخدع وأفضل من أن يخدع .. «
انما كان عمر كما وصف نفسه « ليس بالخب ولكن الخب^(١) لا يخدعه » . وهذا هو الحد الفاصل أحسن الفصل بين الدهاء المحمود والدهاء المذموم ، أو بين الفهم الصحيح والخبث القبيح . فهناك فطنة تسمى الظن لأنها تعرف الشرور التي في طبائع الناس ، وفطنة تسمى الظن لأنها تشعر شعور السوء ، والفرق بينهما عظيم كالفرق بين الخير والشر والمحمدة والمذممة . فالفطنة الأولى معرفة " حسنة " والفطنة الثانية خلق رديء ، وانما كان عمر بالفطنة الأولى معصوما من أن يخدع غيره أو ينخدع لغيره ، وهذا هو الحد القوام الذي لا نقص فيه من جانبيه . وكانت له في استيعاء الخفايا قدرة " تقرب من مكاشفة الغيب لولا أنها تمتد الى التقدير الصحيح والظن المدعوم بالخبرة ، وحكاية واحدة من هذا القبيل تغني عن حكايات ، وهي حكايته مع المغيرة الذي استكثر على عمرو بن العاص أن يوحى الى عمر بمراده ويتداهى عليه .

فقد همَّ عمر رضى الله عنه بأن يعزل المغيرة عن العراق ويولّى جبير ابن مطعم مكانه ، وأوصى جبيراً أن يكتم ذلك ويتجهز للسفر . فأحس المغيرة وسأل جليسا له أن يدس امرأته وهي مشهورة " بلقط الأخبار حتى سميت « لقاطاة الحصا » لتستطلع النبأ من بيت جبير . وذهبت الى بيته فاذا امرأته تصلح أمره فسألتها : الى أين يخرج زوجك ؟ قالت : الى العسرة ! قالت لقاطاة الحصا : بل كتمك ، ولو كانت لك عنده منزلة لأطلعك على أمره ! فجلست امرأة جبير متغضبة ودخل عليها وهي

(١) الخب : الخداع .

كذلك ، فلم تزل حتى أخبرها وأخبرت لقاطة الحصا . وذهب المغيرة إلى عمر ففاته بما علم وهو يقول له : بارك الله لأمر المؤمنين في رأيه وتوليته جيئرا ! فلم يعجب عمر من وقوفه على السر بل قال : كأنى بك يا مغيرة قد فعلت كينت وكيت ، كأنما سمع ورأى .. وأنشدك الله هل كان كذلك ؟ قال المغيرة : اللهم نعم . ثم صعد عمر إلى المنبر ونادى في الناس : أيها الناس ! من يدكني على المخلط المزكّل (١) النسيج وحده ؟ فقام المغيرة فقال : ما يعرف ذلك في أمثلك أحد غيرك !.. فأبقاه على ولايته ولم يزل واليه على العراق حتى مات .

وانما كانت مجاراته للدهاية من هذا القبيل اعجابا بحصافته لا انخداعا بمكره ، وقد يتخابى ويعمل مايريد المتدهى عليه لأنه أدرك مرمى كلامه وفهم ما فيه من صواب ، كما صنع مع عمرو بن العاص في خطبة أم كلثوم بنت علي رضي الله عنهما .. وسيأتى الكلام عنها في فصل تال .

على أن القدرة الذهنية التي امتاز بها عمر في غنى عن الاستدلال عليها بما قال وما قيل فيه ومادار بينه وبين بعض القوم من المساجلات والمحاورات . انه عمل ما لم يعمله الا القليل من أقدر الحكام في تاريخ بني الانسان ، وكفى بذلك دليلا على قدرته الذهنية لا حاجة بعده الى دليل . ساس شعوبا بينها من الاختلاف مثل ما بين العرب والفرس وبين الفرس والقبط والسوريين ، ونصّب ولاة وانتدب قوادا وسيّر بعوثا وأشرف على ميادين قتال وأقام نظما في الحكومة وراقب رعاة ورعية فيما يعلنون وما يظنون ، ونجح في كل ما عمل نجاحا منقطع النظير غير مردود الى المصادفة ولا الى ارتجال المغامرين ، وليس هذا كله مما يضطلع به رجل محدود الفكر ضيق الأفق قليل الخبرة بالجماعات والأفراد . فاذا استوفى هذا الحظّ الوافي من القدرة الذهنية فذلك حسبته منها وحسب كل من تصدى لمثل عمله ونهض بمثل وقره (٢) . ولا عليه بعد ذلك أنه لم

(١) رجل مخلط مزيل : يجمع بين الاشياء ، ويميز بينها لقوة فكره .
(٢) وقره : حمله ومسئوليته .

يفكر على نمط الفلاسفة وأقطاب العلم وأساطين المنطق والرياضة ، فان الدنيا لم تخرج لنا عمر ليزيدنا أفلاطون آخر أو إقليدس ثانيا أو « فاردای » سابقا في الزمن القديم ، بل أخرجته للناس ليكون مؤسس عهد ومحول تاريخ . فاذا تأدَّى به عقله الى تلك الغاية فهو العقل الصائب يفكر على النحو الذي خلق له ويبلغ القصد الذي رمى اليه . وعلينا نحن أن نعرف كيف كان تفكيره وأن تسلكه بين قرنائيه وأنداده .

انما طرأت شبهة العقل المحدود على المستشرقين الذين ظنوا به هذا الظن من ناحية واحدة ، وهي ناحية العدل الذي لا يلتفت ذات اليمين وذات الشمال ، والقضاء الذي يكيل الجزاء دقة بدقة ولا يبالى بالنقائص والمفارقات .

ونظروا الى جملة آرائه في المسائل الجئلى فاذا هي من الآراء التي يغلب عليها القطع والجزم والانطلاق الى غرض مائل لا تنحرف عنه قيد شعرة ، كأنه قد جهل ما في الدنيا من نقائص وخفايا ومن عوج وتعرج ، أو كأنه السهم الثاقب ينفذ فيما أمامه الى هدفه المحدود ولا يلتفت الى شيء في نفاذه أو يعوقه عائق" دونه .

فخطر لهم أن فطنته انما كانت فطنة فراسة فطرية كالغريزة التي نهتدى على استقامة واحدة ، ولكنها لا تنحرف ولا تتصرف ولا تخالف ما جئلت عليه ، وأنها فطنة العقل المحدود والبصر الموكل بجانب واحد ينفذ فيه ولا يحيط به أو يتشعب في نواحيه .

والفكر المحدود هنا هو فكر أولئك المستشرقين لا فكر عمر بن الخطاب .

فالرجل الذي يستقيم على وجه واحد لا يحيد عنه ، هو واحد من رجلين :

فأما رجل يستقيم على هذا الوجه لأنه لا يرى غيره ولا يحيط بما حوله .

واما رجل يستقيم على هذا الوجه لأنه قادر على اختراق العقبات عالم" أنها تنشئ اليه حيث كان دون أن ينشئ اليها حيث كانت .
واستقامة عمر بن الخطاب على وجهه من هذا القليل وليست من ذلك القليل ..

هى استقامة قدرة وليست باستقامة عجز ، وهى استقامة تصرف سريع وليست باستقامة محجوز مقيّد ، يأبى أن يدور لأنه قد أعياه أن يدور .
هى استقامة حياة غلابة ، وليست باستقامة أداة كالموازين تسوى بين التّبر والتراب لأنها لا تميز بين التّبر والتراب .
فالرجل الذى يجتنب التصرف فى العدل عجزا عن الفهم والتزاما للحرف المكتوب ونزولا الى مرتبة الموازين التى لا تمى ولا تغضب ولا تغار انما هو آلة فقيرة فى مادة الحياة .

أما الذى يجتنب التصرف فى العدل غيرة على الضعيف وقدرة على القوى ، وعلما بالتبعة واضطلاعا بجرائرها فذلك حى غنى بالحياة يعدل لفرط السليقة الانسانية والقدرة الحيوية ، ولا يعدل لأنه آلة تشبه الميزان الذى لا حس فيه .
وشتان بين هذا وذاك . انهما لنقيضان وان كانا فى ظاهر الأمر شبيهين متقاربين .

والاعتماد على الأمثلة الخاصة أولى بنا فى هذا المعرض من الاعتماد على القواعد العامة والتقارير النظرية .

فهذه أمثلة ثلاثة من أمثلة العدل الذى يبدو لأول وهلة كأنه عدل الموازين الآلية حين تسوى بين الأوزان وان اختلفت القيم والأقدار ، وتفصل فى الانصباء بغير نظر الى فوارق الدنيا ومقتضيات السياسة وتبدل الأحوال .. ونختارها من أجهر الأمثلة وأدناها الى تأييد شبهات المستشرقين فيما زعموه من العقل المحدود ، لنرى على قدر ضخامة هذه الأمثلة ضخامة الخطأ فى استخراج ماتدل عليه .

كان عمرو بن العاص واليا لمصر وكان ابنه يُجْرَى الخيل في ميدان السباق ، فنازعه بعض المصريين السبق واختلفا بينهما لمن يكون القرص السابق . وغضب ابن الوالى ف ضرب المصرى وهو يقول : أنا ابن الأكرمين ! فاستدعى عمر الوالى وابنه حين رفع اليه المصرى أمره ، ونادى بالمصرى في جمع من الناس أن يضرب خصمه قائلا له : اضرب ابن الأكرمين ! ثم أمره أن يضرب الوالى لأن ابنه لم يجرؤ على ضرب الناس الا بسلطانه ، وصاح بالوالى مغضبا : بم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ فما نجا من يده الا برضى من صاحب الشكوى واعتذار مقبول .

وكان خالد بن الوليد أشهر قادة الاسلام في زمانه فأحصى عليه عمر بعض المآخذ ومنها انفاقه من بيت المال في غير مايرضاه . فأمر به أن يحاكم في مجلس عام كما يحاكم أصغر الجند ، وعزله بعد مقاسمته فيما يملك من نقد ومتاع .

وكان جبلة بن الأيهم أميرا نصرانيا فأسلم وأسلمت طائفة من قومه ، ثم وطئ أعرابى ازاره فلطمه جبلة على ملا من حجّاج بيت الله . فقضى عمر للأعرابى أن يلطم الأمير على ذلك الملا ، لأن الاسلام لا يفرّق بين سوقة وأمير .

هذه أمثلة العدل الذى لا يتصرف ولا يلتفت الى الدنيا وما فيها من فوارق وتمريجات تتأبى على القصاص المستقيم ، وهى من أقوى الشبهات على النظر المحدود في تقدير الجزاء بالحرف المكتوب ، دون التفات الى الأحوال والمقتضيات .

فهل هى في الواقع كذلك ؟ وهل كان على عمر أن « يتصرف » في هذه الأقضية بلباقة الساسة الدهاة في جميع الأزمان اذ يحتالون على حرف الشريعة ويدورون حول حدود القانون ؟

نعم ، كان عليه ذلك لو عجز عن سنة المساواة واحتاج الى الحيلة . فانما

يعاب على الوالى عدل الموازين ويحمد منه التصرف والدوران لأن المساواة تعنيه ، أو لأن المساواة تعرضه لعاقبة شر وأظلم من الإجحاف ، فإذا نظر إلى عاقبة المساواة فى المعاملة فرآها شرا وأظلم من عاقبة التفرقة والتمييز فقد وجب عليه اذا أن يدور حول الحقيقة وألا يواجهها نصا بغير انحراف .

ولكن أين هذا من عمر وأين عمر من هذا ؟ انه كان قويا قادرا على العواقب ، وكان شديد الألم من ظلم الظالم شديد الحجل من خذلان المظلوم ، وكان وثيق الايمان بنصر الله فى الحق وفى النجدة . فلماذا ينحرف ؟ ولماذا يتصرف ؟ ولماذا يدور ؟

كان قويا بطبعه قويا بايمانه . فلماذا يهاب قويا جار على ضعيف ؟ ولماذا يروغ من صرامة القاضى الى دهاء السياسى الذى يدور حول الحقوق والحدود ؟

للمستشرقين المتحدثين بالتفكير المحدود أن يأخذوا عليه تشهيره بكبار الولاة ويثبتوا به كل ما قالوه عن ذلك التفكير المحدود الذى ينسى الفوارق ولا يحتال على المحظورات ، ولكن بشرط واحد .

ذلك الشرط هو أن يتوقعوا ولو من بعيد أن يثور ابن العاص ونظراؤه على هذا القصاص ، فيختل حكم الدولة وينتشر الأمر على الخليفة ويضع من المحظور أضعاف ما كان واقعا لو بطلت المساواة بين السوقة والولاة .

أما أن يكون ابن العاص ونظراؤه لا يثورون ويعلمون من هو عمر وما هى عقابهم اذا ثاروا عليه .
وأما أن يكون عمر لا يخشى تلك الثورة ولا يعنى بها إذا هى فاجأته أو جاءته على انتظار .

وأما أن يكون الأمر فى ضميره وفى ضمائرهم يجرى على البديهة التى لا خفاء بها ولا شك فيها — فكيف يقال إذن إن تفكير عمر فى قصاص

الولاية كبارا وصغارا تفكير" محدود ؟ وأين هو في هذه الحالة موضع التفكير المحدود ؟

انه في موضع واحد ، وهو كما أسلفنا موضع الناقد الذي يصف عمر بغير وصفه ، لأنه هو محدود الفكر في قياس الرجال بمقياس واحد ، أو في اعتقاده أن الخطوب تبقى كما هي ولا تتغير كلما تغيرت عليها أيدي الرجال .

لقد كان عمرو بن العاص خطرا على الخليفة الذي يَغْتَضُّ منه لو كان غير عمر ، ولكنه هو — والذين كانوا أجراً منه على الفتك وأسرع منه الى الغضب — لم يكن لهم من خطر اذا كان عمر هو الذي أمر بالعزل وهو الذي قضى بالقصاص .

فأجراً منه ولا ريب كان خالد بن الوليد ، وأشهر منه بين سيوف الاسلام لو عمد إلى السيف . ومع هذا ثَقَمَ خالد "عزله فخطب الناس ومضى يقول : ان أمير المؤمنين استعملني على الشام حتى اذا كانت بَشْنِيَّةٌ — أي حنطة — وعسلاً عزلني وآثر بها غيري . فما أتمها حتى نهض له رجل من السامعين فقال له : صبرا أيها الأمير فانها الفتنة . فما تردّد خالد أن قال : أمّا وابنُ الخطاب حيٌّ فلا ..

نعم ، لا فتنة وابنُ الخطاب حيٌّ ولو كان الغاضب خالدا الغضوب ، ومن هنا حق له أن يشكو ولا جَنَاحَ عليه .

وأطرف من هذا في هيبة عمر بين ولاته وقواده أنه كتب الى أبي عبيدة يأمره أن يقاسم خالدا ماله نصفين ، فقاسمه جميع ماله حتى بقيت نعلاه ، فقال أبو عبيدة : ان هذا لا يصلح الا بهذا .. فأبى خالد أن يخالف أمر عمر وأعطاه احدهما وأخذ الأخرى .

لقد نظرنا الى عمر مستقيما ولم ننظر الى الخطوب ، ولو نظرنا اليها لرأينا أنها اثنتان لتتقاد له وتتقى مصادمته وتستقيم على مناجه .. فعلمنا لِمَ استقام دون أن يقدح ذلك في صدق نظره الى الدنيا وصدق

فراسته في خلّاق الناس .

وندعُ قضايا الولاة وننظرُ في قضية الأمير الذي ارتدَّ عن الاسلام هو وقومه لأن عمر أجبره على قصاص المساواة بينه وبين رجل من السوق . فماذا كان ينبغي أن يفعل عمر غير ما فعل من المساواة الصادقة بين الأمير الضارب وخصمه المضروب ؟

لعل داهيةً من دهاة السياسة الذين يصفون أنفسهم بالنظر البعيد كان يؤثرُ ارضاء الأمير واستبقاء أتباعه في الاسلام والاحتيال على الشاكي بما يواسيه ويغنيه عن أن يسوَّى بين الخصمين ، ويمكن لضعيف من ضرب أمير اعتدى عليه .

فهل معنى ذلك أن عمر كان يعوزه دهاء أولئك الساسة وما عندهم من بعد نظر مزعوم ؟

كلا . بل معناه أن أولئك الساسة يعوزهم السخطُ على الظلم والغيرة على الحق واليقين بالقدرة والايامن بمناعة الاسلام أن يصيبه غضبُ أمير صابئ بما يضره ، ولو كثر أتباعه والصابئون في ركابه .

معناه أنهم احتاجوا الى التصرف وعمر لم يحتج اليه .

وهاهي ذى السنون قد مضت وتلتها الأحقاب والقرون فبدا لنا اليوم أن النظرَ البعيد والعدل الشديد في هذه القضية يلتقيان ، وإن عمر كان أحسن المتصرفين فيها لأنه اجتنب التصرف الذي يهواه الدهاة . فقد أفاد الاسلام ما لم يُقدِّه بقاءً جبلةً وأتباعه على دينه ، ووقاه ضررا أضخم وأوخم من نكوص أولئك الصابئين عنه . أفاده ثقة أهله بإقامة أحكامه واطمئنان الضعفاء إلى كنفه ورهبة الأقوياء من بأسه ، وسمعته في الدنيا برعاية الحق وإنجاز الوعد وتصديق معنى الدين ، ولا معنى له إن كان أضعفَ بأسا من أمير وجب العقاب عليه .

ويعجز أن الفاروق لم ينظرَ الى عواقب القرون كما ننظر اليها الآن ، بعد أن برزت من حيَّز الفرض الى حيَّز العيان . غير أن الأمر

الذى لا يجوز فى اعتقادنا أنه عدل فى قضية جبلة ونظائرها عدل آنة أو عدل ميزان . ان الميزان لأقل من مخلوق له حياة . أما الفاروق فى هذه القضية فقد كان أكبر من الحياة الفانية ، كان بطلا يؤمن ويعمل بإيمانه ، وهكذا يعلو الانسان بطولة الايمان .

والعبرة التى نخرج بها من هذا أن النظرة الأولى فى أخلاق عمر بن الخطاب حسنة ولكن النظرة الثانية هى على الأغلب الأعم أحسن من الأولى .

فالنقادون الأوريون الذين فسروا عدله المستقيم القاطع بالنظر الضيق والفكر المحدود لم يفهموه ولم ينصفوه ، ولو فهموه وأنصفوه لعلموا أن عدله المستقيم القاطع زيادة فى القدرة وليس ينقص فى الفطنة ، أو أنه زيادة فى قوة الثقة وقوة الايمان وليس بنقص فى العلم والبداهة ، ولم يكن عسيرا عليهم أن يفقهوا ذلك لو راجعوا أنفسهم وترشوا فى حكمهم ، لأن قوة الثقة وقوة الايمان لا تخفيان فى خلق من أخلاقه ولا عمل من أعماله ، ولا تزالان ممزوجتين فيه بكل اقدام وبكل احجام . فكان يتقدم على أعظم الخطوب ويحجم عن أهون الهينات تخرجاً منها وتنزها عنها ، اذا اقتضى ذلك وازع من قوة الايمان .

فلم يكن يمضى قدما لأنه يتعقل عما حوله من النوائى والمنعرجات والسدود ، بل كان يمضى بينها قدما لأنه لا يبالىها ويؤمن أصدق الايمان أنها تنشئ له اذا مضى فيها ، فلا حاجة به أن ينشئ اليها . انه ليعلم العوج ولكنه يعلم أنه أقدر منه ، لأنه يؤمن بحقه ايمان القوى الوثيق ، فله من قوته ومن ايمانه قدرتان .

انه ليرفع العبء الى كاهله وهو قائم لا يطاقى للنهوض به ، فليس الفارق بينه وبين غيره أنه يجهل العبء الذى يعرفونه ، أو ينسى العواقب التى يذكرونها ، أو يتحطل من المصاعب التى يتحرجون منها .. كلا ! اما الفرق بينه وبينهم أنهم ينشئون للخطوب ، وأن الخطوب هى التى

تَشْنِي إِلَيْهِ ..

هذه القوة في إيمانه كانت هي المسيطر الأكبر على كل خلق من أخلاقه ، وكل رأى من آرائه ، بل كانت هي المسيطر الأكبر على ما هو أصعبُ مقدراً من الأخلاق والآراء ، وأشدَّ عِزاً (١) من العقائد والشبهات . ، وهي دوافع الطبع وسورات الغريزة ، وقلما خلا منها طبع قوى عزوف غيور .

فالأفكار والأخلاق جانبان من جوانب النفس الانسانية قابلان للضوابط والقيود ، ولكن ما القول في الدوافع والسورات ؟
مَثَلُ الفكر كمثَل السفينة الطافية على وجه النهر لها شِراع ولها سكان ، وعليهما معا رقيب من النواتية (٢) والرؤبان (٣)
ومثَل الخلق كمثَل النهر المتدفق تحبسه الشواطئ والقناطر ويفيض في موعده ويُعرف له مجرى ، ويحسب له مقدار
ولكن ما القول في السيل العرم ؟
ما القول في السورة الجامعة التي ليست بفكر يسوس ويساس ، ولا بخلق متميز بسماته وخصائصه ومراميه ؟
هنا تبدو لنا قوة الضوابط والقيود .

وهنا أيضاً كانت ضوابط الإيمان القوى في نفس عمر كأقوى ما تكون ولا أحسب أن قلبه الكبير جمحت به في الجاهلية أو الاسلام سَوْرَة أكبر من سورته يوم نعى النبي إلى المسلمين ، فأنكر أن يَنْعَى وأبى أن يسمع صوتاً بين المسلمين يزعم أن محمداً قد مات ، وصاح والناس في رهبة منه كرهبتهم من شبح الموت المخيم يومئذ على الرؤوس : « والله انى لأرجو أن تَقْطَعَ أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه قد مات »
ثم أقبل أبو بكر من مسكنه على فرسه ، فنزل فتمشى وئيدا صامتا

(١) أشد عِزاً : أشد شراسة وشدة .

(٢) النوى : الملاح في البحر خاصة جميعه النواى .

(٣) الرؤبان : (بضم الراء) من يجرى السفينة .

لا يكلم أحدا ، وتيمم النبي وهو مغشى بالثوب ، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبّله ، وبكى .

ثم أحس صولة عمر وهو يكلم الناس ، فخرج اليهم فقال : اجلس يا عمر ! .. وأقبل على المسلمين يكلمهم بكلام السماء : « أما بعد ، فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي » لا يموت ... وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين » فأهوى عمر إلى الأرض وأناب .

وكانه والمسلمين معه ما علموا أن أنزلت هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر تلك الساعة .

يالروعة الشلال الزاخر ؟

ويالروعة السابح القاهر الذي لوى به لياً كأنما قبض منه على عرّف ، وأخذ له بعنان ؟

أكبر ميدان من ميادين الدنيا لا يرينا صراعا عاتيا هو أولى بالروعة من نفس عمر وهي متراوحة بين شعوره الزاخر وإيمانه الوثيق .

لحظة هائلة من أهول ما تحس النفوس ، ثم انهزام كأسرع ما يكون الانهزام ، وانتصار كأسرع ما يكون الانتصار ، وغاشية تنجلي عن صاحب تلك النفس وهو مالك لزمامه ، ماض بشعوره إلى حيث يمضي به إيمانه ، فهما قوتان غالبتان ، وليستا بعدد بالعسكرين المتغالبين .

لقد كانت تلك سورتته الكبرى ولكنها لم تكن أولى سوراته ولا آخرها .

فقد عهدت هذه السوراة في طبعه حتى عرف من عهدوها كيف يسوسونها ويسقونها ، وأوشكت أن تحسب في عداد الأنهار المحكومة لا في عداد السيول الجارفة انطلقت من عقالها .

ذهب اليه بلال مستأذنا فقال له الخادم انه نائم ، فسأله : كيف تجدون عمر ؟ قال : خير الناس الا أنه اذا غضب فهو أمر عظيم . قال بلال : لو كنت عنده اذا غضب قرأت عليه القرآن حتى يذهب غضبه !
فهو الايمان ضابط كل شيء في تلك النفس حتى السورات التي ليس لها ضابط في النفوس .

أو قل انها هي النفس القوية في دفعاتها وفي ضوابطها على السواء .
ورب نفس من ضعف الدفعة بحيث يقمعها أهون ضابط يسيطر عليها ، فأما الدفعة التي لا يقف في طريقها الا ضابط أقوى منها فتلك هي الطبيعة الحيوية المضاعفة ، وليست هي الضعف الذي يتراجع لأهون مراجعة نذكر هذا وينبغي أن نذكره ولا ننساه ، لأن الفرق بين الايمان الذي يكبح الهزل المزوف الحياة وبين الايمان الذي يكبح القوى الجياش فرق عظيم .

ولم يكن عمر معرضاً عن زخارف الحياة لهزال كان في دواعي الحياة فيه . وانما كان معرضاً عنها لأنه كان قادراً على الإعراض غير ممتحن به في إرادة ولا عزيمة . وكان معرضاً عنها لأنه صاحب حيوية غير الحيوبة الجسدية الموكلة بالسرور والمتاع .

فمن الواجب اذا ذكرنا الحيوية وضعفها وقوتها أن نذكر أبداً أنها حيويات متعددة وليست بحيوية واحدة .
حيوية الروح وحيوية الخلق ، وحيوية الذوق ، وحيوية العقل وحيوية الجسد ، وغير ذلك كثير مما يتداخل بين هذه الحيويات .

فليس من الضروري اذا رأيت رجلاً قليل الشهوة لمتعة الأجساد أن تحكم عليه بضعف الحيوية ، فربما كانت له حيوية أخرى تملأ ألوفاً من النفوس لا تجد متاعها في أكلة أو شهوة وتجد المتاع خير المتاع في احقاق الحق وزجر الطغيان واقامة العدل والشرعية بين الناس .
وهكذا كانت حيوية عمر فيما يريد وفيما يتردد فيه .

لم تكن قلة الرغبة في زخارف الدنيا هي مقياس حيويته العظمى
وانما كان مقياس تلك الحيوية عظم الرغبة في الاصلاح والتقويم ، وفي
اجراء ماينبغي أن يجرى . غير مبال ما يكلفه ذلك من جهد تتضاءل دونه
جهود الألوف من الموكلين بمتاع الأجساد

تلك صورة مجملة للصفات الخلقية الكبيرة التي كانت غالبية على نفس
عمر بن الخطاب ، وهي العدل والرحمة والغيرة والفطنة والايمان .
وأول ما يلاحظ عليها تعدد الصفات الغالبة في نفس واحدة ، وصفة
واحدة منها قد تغلب على النفس - وليست بصغيرة - فتنتعها بنعتها
وتستأثر بتمييزها والدلالة عليها .
ثم يلاحظ عليها أن الصفة منها تتصل بعمر بن الخطاب فتأخذ منه
وتصطبغ بصبغته ، حتى كأنها لم تعهّد في غيره على شيوعها وكثرة
الموسمين بسماحتها .

الا أن هذا وذاك ليس بأعجب الملاحظات ولا أندرها في هذا السياق ،
وانما العجب العاجب حقا هذا التركيب الذي تدّرّ مثيله جدا بين
خصائص النفوس كائنا ما كان نصيب صاحبها من العظمة والامتياز .

وأخرى بنا أن نقول « هذه التركيبية » ولا نقول هذا التركيب ، لأن
صفاته الدبيرة تتركب كما تتركب أجزاء الدواء الذي ينفع لغرض واحد
مفهوم ، والذي ينقص جزء منه فينقص نفعه كله ويدخله التناقض والاختلاط
إذا نظرت الى تلك الصفات أجزاء متفرقات فهي وسيلة بسيطة ليس
فيها شيء عويص أو مكتنف بمحوض .

ولكنك تنظر اليها مركبة متناسقة فيبدو لك منها جانب الدهشة
والاعجاز ، أو جانب التدّرّ التي يعزّ تكرارها في طبائع النفوس ،
لأنها تتركب لاستيفاء الغرض منها جميعا واستيفاء الغرض في كل منها
على حدة ، وهذا هو النادر جدك الندرة في تركيب الأخلاق .

ما العدل مثلا بغير الرحمة التي تَمزجُه بالاحسان ؟ وما العدل والرحمة معا بغير الحماسة الروحية والغيرة اليقظى التي تجعل كراهة المرء للظلم كأنها كراهة الضرر الذى يصيبه فى نفسه وآله وتجعل حبُّه للعدل كأنه حب هواه وقبْلته مناه ؟ وما العدل والرحمة والغيرة جميعا بغير فطنة تضع الأمور فى مواضعها وتعصم المرء أن ينخدع لمن لا يستحق ويغفل عن يستحق وهو حَسَنُ القصد غيرُ متَّهمٍ الضمير ؟ وما العدل والرحمة والغيرة والفطنة بغير الايمان الذى هو الرقيب الأعلى فوق كل رقيب والوازع الأخير بعد كل وازع ، والمرجع الذى لا مرجع بعده لطالب الانصاف ؟

كل صفة تنمى لجميع الصفات .

وكل الصفات روافد لغرض واحد يتم به نصر الحق وخِذلان الباطل .
وكل خليفة فى جزء لا ينفصل من هذه « التركيبية » التى اتفقت أحسن اتفاق وأنفع اتفاق ، وكأنما اتفقت لتصبح كل خليفة منها على أتم قدرتها فى بلوغ كمالها وتحقيق غايتها .

فلا نقص فى العدل كالنقص فى كل عدل يعنى عن الطبيعة البشرية ويذهل عن ضعف الانسان .

ولا نقص فى الغيرة كالنقص فى كل غيرة ظالمة تأسية كأنها ضراوة وحش وليست بحماسة روح .

ولا نقص فى أولئك كله كالنقص فى جميع الصفات بغير الفطنة التى تخرج بها من ظلام الى نور ، وبغير الايمان الذى يقف منها موقف الحارس الساهر والرقيب الأمين .

صفات متراكبة كأنها صفة واحدة يأخذ بعضها من بعض فلا تتعدد فى مرآها ، ولا تزال فى صورة البساطة بعيدة عن التركيب ، فيخطئ النظر القصير فى التفرقة بين هذه الظاهرة النفسية الرائعة وبين ظاهرة الشيء البسيط المحدود ، وانه لخطأ شائع ينساق اليه كثيرون ممن

يستسهلون بساطة عمر ، وهى أولى بالروعة من تركيب يختلط من كل مزيج ، ثم يزيد فى الألوان ولا يزيد فى الإتمام والتوحيد والاتقان . ولو أن مخترعا من أهل القصص حاول أن يخترع سيرة عمر بن الخطاب لأعياه أن يخترع ذلك الشئ المتفرق من الأخبار والأحاديث والنوادر لقرأه القارىء بعد ذلك فيقبل منه مايقبل ويسقط منه مايسقط ، ثم يبقى منه مايدل صدق الدلالة على كل صفة من تلك الصفات .

فلا اختراع فى جملة أخبار عمر وإن جاز الشك فى بعضها أو جاز اسقاط الكثير منها ، ومن شاء فليشك فى هذا الخبر أو ذاك ما بدا له الشك وليستقط منها ما بدا له الاسقاط ، فسيبقى بعد ذلك جميعه خبر يدل على عدله ولا سبيل الى تقضه ، وخبر يدل على رحمته ولا سبيل الى تقضه ، وخبر يدل على غيرته ولا سبيل الى تقضه ، ويبقى ذلك التركيب العجيب الذى هو موضع الإعجاز وموضع الدهشة وموضع التساؤل فى مصادر الأخبار .

هذه هى المعضلة التى عَنَيْنَاهَا حين قلنا فى صدر هذا الفصل ان سهولة عمر وخلو طبائعه من التعقيد والغموض هى سهولة أصعب من الصعوبة ، لأنها تنتهى بك الى صعوبة التركيبة التى هى أندر من التعقيد والغموض ، وتترك عناصر شتى قد تتناقض فى غير هذا التركيب ولكنها هنا لا تتناقض فى شئ ذى بال ، لأن التناقض أن يذهب كل عنصر فى وجهة معارضة لسائر الجهات ، فأما أن تكون كلها ذاهبة فى وجهة واحدة فذلك عنصر واحد متعدد الأجزاء والألوان .

ولهذا كانت دراسة عمر غنية لكل علم يتصل بالحياة الانسانية كعلم الاخلاق وعلم الاجتماع وعلم السياسة ، ولم تقتصر مزايا هذه الدراسة على علم النفس وكفى . لأن كل نفس صغرت أو كبرت فهى انسان يضيف العلم به الى علم النفس بعض الاضافة .

ولكن ليست كل النفوس بالنفس التى تصح أوهام الواهين فى فضائل الأخلاق وفضائل الاجتماع ، وفى القدوة المثلى التى يقتدى بها طلاب الرفعة والسيادة .

ونحن فى عصر شاعت فيه فلسفات "مسبهة تنكر الرحمة والعدل على الأقوياء الغيورين وتحسبها حيلة من حيل الطبع فى خلائق الضعفاء لاستدامة البقاء . كأن رحمة الضعيف تنفعه اذا رحم ، وكأن عدل الضعيف ينفعه اذا عدل ، أو كأن القوى يخلق نفسه لنفسه ولا يخلق قويا لتفيد قوته فائدتها فى خدمة المحتاجين اليها .

فمصر ذو البأس والعدل ، وعمر ذو الرحمة والغيرة ، أصدق تنفيذ لذلك الوهم الأخرق البليد . اذ كانت رحمته وعدله لاتناقضان البأس والغيرة فيه ، بل كان بأسه معنواً لرحمته وكانت غيـرته معواناً لعدله ، وكان هو قويا لينتفع الناس بقوته ، ولم يكن قويا ليطغى بقوته على الضعفاء .

ولم يكن ليعلم أن يقسو ذو البأس ولا يرحم ؟ ألا يقسو الضعيف ؟ فلم العجب اذن من رحمة القوى ؟ كل ما هنالك أن رحمة الضعفاء غير رحمة الأقوياء . فأما العقل الذى يرى الرحمة غريبة فى الأقوياء ، ويرى القسوة غريبة فى الضعفاء فهو يرى غير الواقع من هؤلاء وهؤلاء . اذ الواقع فى الدنيا أن القسوة لاتدل على القوة ، وأن الرحمة لاتدل على الضعف ، وأن ليس فى الدنيا أقسى من الأطفال وهم أضعف من فيها من الضعفاء .

وبغير ايمان طويل فى دقائق النفس الانسانية استطاعت امرأة محزونة أن تفرق الخصمتين وتجمع بينهما معا فى عمر بن الخطاب وتعني بها عاتكة بنت زيد حين قالت فى رثائه :

رؤوف على الأدنى غليظ على العدى أخى ثقة فى النائبات منيب
وهى تفرقة سهلة ولكنها صادقة جامعة ، فغير عجيب أن يكون انسان كذلك ، وانما هو أوفق شئ لطبائع الأشياء .

مفتاح شخصية

مفتاح الشخصية هو الأداة الصغيرة التي تفتح أبوابها ، وتنفذ بنا وراء أسوارها وجدرانها ، وهو كمفتاح البيت في كثير من المشايخ والأغراض . فيكون البيت كالحصن المغلق ما لم تكن معك هذه الأداة الصغيرة التي قد تحملها في أصغر جيب ، فإذا عالجت بها فلا حصن ولا إغلاق ! ..

وليس مفتاح البيت وصفاً له ولا تمثيلاً لشكله واتساعه ، وكذلك مفتاح الشخصية ليس بوصف لها ولا بتمثيل لخصائصها ومزاياها ، ولكنه أداة تنفذ بك الى دخالها ، ولا تزيد

ولكل شخصية انسانية مفتاح صادق يسهل الوصول اليه أو يصعب على حسب اختلاف الشخصيات ... وهنا أيضاً مقارنة في الشكل والغرض من مفاتيح البيوت . فرب بيت شامخ عليه باب "مكن" يعالجه مفتاح صغير ، ورب بيت ضئيل عليه باب "مززع" يحار فيه كل مفتاح .

فليست السهولة والصعوبة هنا معلقتين بالكبر والصغر ، ولا بالحسن والدمامة ، ولا بالفضيلة والنقيصة ، فرب شخصية عظيمة سهلة المفتاح ، ورب شخصية هزيلة ومفتاحها خفي أو عسير .

وقد يحيرنا الرجل الذي قيل في وصفه مثل ما قيل في ابن عباد :
لا تمدحن ابن عباد وان هطكت

يداه بالجود حتى شابه الديما (١)

فانها خطرات من وساوسه

يُعطى ويمنع لا بخلا ولا كرمًا

فالتنا لا نستطيع أن ننفذ منه الى مواضع اللوم أو مواضع الثناء ،

(١) الديم : جمع دبة ، وهي السحابة المطرة .

ولا ندرى حقا أعمله من الكرم أم من انبخل ، ومن الرفعة أم من الخسعة ، ومن الشجاعة المحمودة أم من الجبن المذموم ؟ وغاية ما انتهى إليه أن نفض المشكلة بكلمة واحدة هي الوسواس ، وهي حيلة تُلجئنا إليها قلة الحيلة ، لأن تفسير الأعمال بالوسواس يفيدنا في تقدير صاحبها وتقدير أعماله وأخلاقه ، ولكنه تفسير له معنى واحد في النهاية : وهو ترك التفسير .

قد تحيّرنا هذه الشخصية المنقوصة ولا تحيّرنا الشخصية الكاملة التي تروّعنا بفضائلها ومزاياها ، ثم لا نستغرب منها فضيلة أو مزية بالقياس إلى انتظام عملها واتصال أثرها ، كالشمس الطالعة تروّعنا بإشراقها في أوقاتها وبروجها ، ثم لا تحيرنا لمحة عين كما تحيرنا الذبابة الضئيلة تومض لحظة وتخفى من بعيد .

وفي اعتقادنا أن شخصية عمر من أقرب الشخصيات العظيمة مفتاحا لمن يبحث عنه ، فليس فيها باب مُعْضِلُ الفتح وإن اشتملت على أبواب ضيخام .

وقد ذكرنا في الفصل السابق أن إيمان عمر هو الضابط الذي يسيطر على أخلاقه وأفكاره كما يسيطر على دوافعه وسوراته ، ولكن الذي نريده بفتح الشخصية شيء آخر غير معرفة الضابط الذي يسيطر عليها : نريد به السمة (١) التي تميزه بين العظماء حتى في الإيمان وسيطرته على الأخلاق والأفكار والدوافع والسورات ، فإن الإيمان ليقتوى في نفوس كثيرات ثم تختلف آياته وشواهده باختلاف تلك النفوس ، وهنا نبعث عن « مفتاح الشخصية » لنعرف به الفارق بين الإيمان في طبيعة عمر وبين الإيمان في طبائع غيره من الأقوياء .

والذي نراه أن « طبيعة الجندي » في صفتها المثلى هي أصدق مفتاح « للشخصية العمرية » في جملة ما يؤثر أو يروى عن هذا الرجل العظيم . فأهم الخصائص التي تتجمع « لطبيعة الجندي » في صفتها المثلى

(١) لفظة : العلامة والشارة المميزة .

الشجاعة والعزم والصراحة والخشونة والغيرة على العرف والنجدة والنخوة والنظام والطاعة وتقدير الواجب والايمان بالحق وحب الانجاز في حدود التبعات أو المسئوليات .

هذه الخصائص قد تجمعت بعد ألاف السنين من تجارب الأمم في تعبئة الجيوش حتى عرف الناس أخيرا أنها لازمة للجندى في أمثل حالاته . فما من خاصة منها يستغنى عنها الجندى الكامل الذى تحلى بأجمل صفاته وألزمها لتحقيق وجوده

فانظر الى هذه الخصائص جميعها هل تجدك محتاجا الى التنقيب طويلا عن واحدة منها فى نفس عمر ؟ هل تجدك محتاجا الى تمثيل أو استقصاء :جمع أشتاتها والاهتداء الى شواهدا ومواقعا ؟

كل هذه الخصائص عمرية" لا شك فيها . فهو الشجاع ، الحازم الصريح ، الخشن ، المطيع ، الغيور على الشرف ، السريع النجدة ، المحب للنظام ، المؤمن بالواجب والحق ، المتوكل بالانجاز ، العارف بالتبعات والمسئوليات .

هذه الخصائص واضحة كلها فى عمر ، وعمر وحده واضح بين أمثاله فى جميع هذه الخصائص ، حتى ليخيل لنا لو ان أحدا مولعا بتأليف الألغاز سأل عن عظيم فى الاسلام والعروبة متصف بجميع هذه الخصائص على أصدق وأبرز حالاتها لكان الجواب الواحد عن سؤاله اسم عمر بن الخطاب .

وقد يكون العجب من توافر هذه الخصائص فى تفرعاتها الثانوية وأشكالها العارضة أبلغ وأدل على العمق والتأصل من توافر الخصائص الجلية التى هى بمثابة الأصول الجامعة فى طبائع الجنود .

فالنظام مثلا ليس بالخلق الأصيل فى الجندى الباسل ، فقد ينساق اليه بطبعه وقد يحتاج الى تعوده وادمانه حتى يكسبه بطول المراقبة .

لكن النظام كان خلقا أصيلا فى طبيعة عمر حتى فيما ينفرد عليه ويدخل

منه في عداد الأشكال والنوافل (١) .

أرايته وهو يصلي بالناس فلا يكبر حتى يسوى الصفوف ويوكل رجلا بذلك ؟ أرايته وهو يرى الناس يجتمعون بالمسجد في شهر رمضان أوزاعا متفرقين حول كل قارئ فيأمرهم أن يجتمعوا الى قارئ واحد ؟ أرايته وهو يحمل الدرة لينبه المخالفين في الطريق ويذكرهم هيبة القانون ؟ أرايته وهو يركب في السوق فيكسر ما برز من الدكاكين ويخفف التجار بالدرة اذا تكوفوا (٢) على الطعام وقطعوا طريق السابلة ؟ أرايته وهو لا يزال يأمر بالمتاعب (٣) والكثف (٤) ان تمطع عن طريق المسلمين ؟ أرايته وهو ينهى الولاة عن الاتكاء في مجالس الحكم ويكتب الى عمرو بن العاص « وقع الى » أنك تتكىء في مجلسك ، فإذا جلست فكن كسائر الناس ولا تتكىء !

بل أرايته وهو يعرئ المراتب فينزل درجة من سلال المنبر بعد أبي بكر لأن الخليفة الأول أحق منه بالتقديم ؟ ذلك هو السمт العسكري بالفطرة التي فطر عليها ، وليس هو السمт العسكري بالأسوة والتعليم .

وبالفطرة التي فطر عليها كان يجب ما يحسن بالجندى في بدنه وطعامه ، ويكره ما ليس بالمستحسن فيه ، فكان يقول : « إياكم والسمنة فانها عثقة » (٥) ، وكان يقول : « إياكم والبطنة فانها مكسلة » عن الصلاة ومفسدة الجسم ومؤدية إلى السقم ، وعليكم بالقصد في قوتكم فهو أبعد من السرف وأصح للبدن وأقوى على العبادة » ، وكان يأمر بالجد ويحذر من المهازل لأن « من كثر ضحكك قلت هيئته ، ومن كثر سقطه (٦) قل ورعته » . وكان يمشى « شديد الوطء على الأرض جهنورى »

(١) النوافل : جمع نافلة ، وهي الزيادة .

(٢) تكوفوا على الطعام : اجتمعوا عليه . (٣) المتاعب : مسايل الماء .

(٤) الكثف : جمع كثيف وهو الحظيرة من الخشب أو الشجر تنخذ للابل والغنم لتقيها الحر والبرد .

(٥) العثقة : القيد والعقال .

(٦) السقط : الخطأ من القول والفعل .

الصوت » كما يمشى الجنود وكما يتكلمون ، وكان يأمر بتعلم الرماية والسباحة والفروسية والمصارعة وكل رياضة يتدرَّب عليها الجندي وتهذب بها الأبدان والأخلاق .

وإذا ارتقينا من هذا الى النظام الأشمل والتقسيم الأعم الأكمل فهناك عمر بن الخطاب الذى دَوَّن الدواوين وأحصى كل نفس فى الدولة الاسلامية كأدق إحصاء وعاه الموكِّلون بالتجنيد فى العالم الحديث . فما من رجل أو امرأة أو طفل إلا عُرِف اسمُه وعرف مكانه وعرفت حصته من بيت مال المسلمين . وما من مجاهد إلا عُرِف له رتبته من السبق والتقديم على حسب المراتب التى يمتاز بها الجنود ... فالحاضرون فى وقعة « بدر » هم المقلِّدون بين المجاهدين ، والحاضرون فى « الحديبية » يأتون بعدهم فى التقديم ، والذين اشتركوا فى حرب الردَّة يأتون بعد هؤلاء وهؤلاء ، والذين حاربوا فى معارك الروم والفرس ومعهم أبناء الغزاة فى بدر يلحقون بمراتب هؤلاء المتقدمين ، وقس على ذلك ما يليه من سائر المراتب فى حقوق التقديم والتقسيم .

ثم هناك عمر بن الخطاب الذى عَشَّر الجنود أى جعلهم عشرات عشرات ، ثم قسمهم الى كتائب وبنود .

وهناك عمر بن الخطاب الذى لم يدبر قط تدييرا كبيرا أو صغيرا فى شئون الدولة إلا بنظام لا يختل أو على أساس لا يجيد .

وقد كانت له طريقة الجند فى التصريف السريع الذى يَنْقُذُ الى الغرض من أقرب طريق ، فلما تشاور المسلمون ماذا يصنعون بسهيل بن عمرو ، خطيب المشركين يومئذ وأقدر الخائضين منهم فى الاسلام ، قال عمر بن الخطاب : « يا رسول الله ! انزع ثَنِيَّتَيْهِ (١) السفليْن فلا يقوم عليك خطيباً أبداً » . وكان سهيل أعلم — أى مشقوق الشفة السفلى — فإذا ثَزَعَت ثَنِيَّتَاهُ فقد عجز عن الخطابة من غير ما حاجة الى

(١) اثنية : من الاسنان ، جسمها ثنايا وثنيات ، وفى الفم أربع .

عهد أو تحدير أو شغل شاغل بإسكاته والرد عليه .

والقضاء لم يكن من لوازم «الطبيعة الجندية» وإن تولاه القادة والجند في أيام الفتن والأيام التي تقام فيها الدول الناشئة والنظم الجديدة .
ولكن كم من قضية لعمر بن الخطاب تذكرنا بالقضاء العسكري الذي يمنع الضرر من أقرب الطرق ويحمي الأكثرين بالحد من حقوق الأقلين ؟
هتفت امرأة باسم نصر بن حجاج وتمنت أن تشرب الخمر وتلقاه فأرسل اليه « فإذا هو أحسن الناس شَعْرًا وأصْبَحُهُمْ وجهًا . فأمره أن يُنْجِمَ » (١) شعره ، فظهر جبينه ووجنتاه فازداد حسنا ، ثم أمره أن يعتمَ فزادته العمامة زينة وغواية ، فقال : لا يسكن معي رجل تهتف به العواتق (٢) في خدورها ، وزوده بمال وأرسله الى البصرة ليعمل في تجارة تشغله عن النساء ، وتشغل النساء عنه .

وفي القضية جَوْرٌ على نصر بن حجاج لا جدال فيه ، ولكن في سبيل مصلحة أكبر وأبقى ، أو في سبيل مصلحة يرعاها « الحكم العسكري » في أزمنة كزمان عمر ، ويقضى فيها بما هو أعجب من إقصاء نصر بن حجاج ، يرعاها أحيانا بمنع الإقامة بمكان ، ومنع المرور من طريق ، وتحريم تجارة لا حرام فيها ، ومراقبة إنسان يخشى أن يقود الى جريمة ، وتقييد السهر بعد موعد من الليل .

ولسنا نقول إن هذا الحكم في قضية نصر بن حجاج كان حكما لزاماً لا محيص عنه ولا مأخذ عليه ، ولكننا نقول إنه حكم فيه تلك الصبغة العمرية التي سميناها « مفتاح شخصيته » وهي المقصودة بما نكتبه الآن .
وقد كان له في قضائه ذلك الحزم الذي يقطع اللجاجَ (٣) وينهض بالحجة على كل ذي خلاف كلما اشتجر (٤) الخلاف : كتب اليه أبو عبيدة من دمشق أن عمرو بن معد يكرب وأبا جندل وضِراراً وجماعة من عليّة

(١) يجم شعره : يقرمه . (٢) العواتق : جمع عاتق وهي الشابة الصغيرة .

(٣) اللجاجة : تمادى الخصمين . (٤) اشتجر الناس : تنازعوا .

(٣) اللجاجة : تمادى الخصمين .

القوم والوجوه شربوا الخمر وسلوا فأجابوا « اننا خيرنا فاخترنا
قال : « هل أنتم منتهون » ولم يعزم (١) .. وكان أبا عبيدة تحرّج من
عقاب هؤلاء العلية فرفع أمرهم الى الخليفة يستفتيه ، فلم يلبث البريد أن
بلغ المدينة حتى عاد اليه بأمره أن يدعوهم على رءوس الأشهاد ويسألهم
سؤالا لا يزيد عليه ولا ينقص منه : أحلال الخمر أم حرام ؟ فان قالوا
حرام فليجلدهم ، وإن قالوا حلال فليضرب أعناقهم . فقالوا : بل حرام ،
فجلدوا وتابوا .

وربما تجمّع للرجل كل ما في « طبيعة الجندي » من الخصائص وبقيت
محبوسة فيه لا يدرى بها الناس الا أن يأتي بعمل ينتمى إليها ، فيدين
نفسه بطبيعته تلك ولا يدين غيره ، ويكون مطبوعا على أن يطيع ولا يكون
مطبوعا على أن يطاع ، وإذا جاءت طاعة المطيعين له فإنما تجيئه من سلطان
النظام وحكم الشرع وغلبة العادات ، لأن الشجاعة مثلا لا تلازم الهيبة في
كل حال ، فقد يكون الشجاع مهيبا ويكون غير مهيب ، بل يكون أحيانا
ممن تقتحمهم الأنظار ويجترى عليهم المستخفون .

أما عمر بن الخطاب فقد كانت له « طبيعة الجندي » ظاهرة باطنة ،
تبادر القلوب كما تبادر الأنظار ، وتلازمه كأنها عضو من أعضائه . فما
يجترى عليه مجترىء الا أن يطمّعه هو ، ويسهو عن نفسه لحظة
ليغرّيه بالاجتراء .

وهي في موقف الأمر تخيف من لا يخاف ويَجْفِلُ منها من يخشى
بجاه أو كبرياء . شكا إليه رجل من بنى مخزوم أبا سفيان لظلمه إياه في
حدّ كان بينهما ، فلما بأبي سفيان والمخزومي وذهبوا الى المكان الذي
تنازعا ، ونظر عمر فعرف صدق الشكوى ونادى بأبي سفيان : خذ يا أبا
سفيان هذا الحجر من هنا فضعه هنا ... فأبى وتردد ، فعلاه بالدرّة

(١) لم يعزم : لم يحدد حكما قاطعا . ومريئة الله ، فريسته التي التزمها

وهو يقول : خذه فضعه ها هنا فانك ما علمت قديم الظلم ، فأخذ أبو سفيان الحجرَ ووضعهُ حيث قال ، ولو غيرُ عمرَ أمَره هذا الأمرُ لاستكبر أن يطيع ، أو شتَها عليه شعواء لا تؤمنُ جريرتها .

كان يوما (١) في مجلس عمر وزياد بن سُميَّة (٢) يتكلم وهو يومئذ شاب ، فأحسن كعاداته في مجال الخطابة والمشورة ، فأعجب به عمر وهتف به : لله هذا الغلام ! لو كان قرشيا لساق العرب بعصاه .

وكان علي بن أبي طالب الى جانب أبي سفيان ، فبال اليه هذا ونهس في أذنه كلاما فجواه أنه يعرف مَنْ أبو ذلك الغلام من قریش . قال علي : فمن ؟ قال : أنا ... قال : فما يمنعك من استلحاقه ؟ فهمس له : أخافُ هذا الجالسَ أن يخرق عليَّ إهابي ؟ (٣)

وخليق " بمثل هذا الرجل ألا يكون له شعارٌ غيرُ شعار الجند حيث كانوا : الأمر هو الأمر ، والطاعة هي الطاعة .

وخليق بالناس أن يفهموا ذلك عنه بغير بيان ، لا سيما اذا فهموا قبل ذلك أنه متى وجبت الطاعة كان هو أولَ من يطيع . ذلك هو الجندى المطبوع .

جندى من جنود الله في معترك الحق والايمان . وإذا استوفينا المثل إلى أقصاه فالقانون المطاع هو القرآن ، والقائد الأعلى هو النبي الذي يوحى اليه ، وليس أحدٌ بعد ذلك أكبر من أن يطيع . يأمر الله بالطاعة واجب لا هَوادة فيه .

ويأمر القائد الأعلى فقد يراجعهُ مَنْ دونه ويرتفعان معا الى القانون ، لأن الطاعة لا تمنع المراجعة والمشاورة ، ولكنها تمنع التمرد على القائد الأعلى وإنكار سلطانه حيثما استقرَّ على قرار ، فإذا رجع القائد عن أمره

(١) أي أبو سفيان

(٢) اشتهر باسم « زياد بن أبيه » ولم يكن معروف الاب ، وفي عهد معاوية ، شهد ناس من المسلمين أنه ابن أبي سفيان فاستلحقه معاوية « أي اعترف به أخا له » وولاه البصرة . اشتهر بالدكاء وسعة الحيلة والخطابة .

(٣) الإهاب : الجلد .

فَحَسَنَ" ، والمراجعة إذن خير لا ضرر فيه ، وإذا مضى في أمره فلا خلاف
إذن فيما يجب : فالذى يجب إذن واحد ، وهو أن يطاع .
كذلك راجع عمر النبيؐ في مسائل شتى ، فأخذ النبيؐ برأيه في بعض
هذه المسائل وبخالفه في بعضها ، فلم تكن طاعته فيما خولف فيه أقل
ولا أضعف مما ووفق عليه .

وكذلك راجع الخليفة أبا بكر في كبريات المسائل وصغارها ، فكان
أبو بكر يثوب (١) إلى رأيه كثيراً ، ويصر على ما بدا له إذا رأى الحسنی
في الاصرار ، فيطيعه ، عمر أمره بعد ذلك كأن لم يكن خلاف .
وإذا امتنعت المراجعة فليس الرجل عند ذلك بواهن عن احتمال التبعة ،
وتصرف الرأي ، والاضطلاع بأعباء الموقف كيف كان .
اشتد المرض بالنبي عليه السلام فقال : ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً
لا تضلوا بعده ... قال عمر : إن النبي صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع ،
وعندنا كتاب الله حسنبنا .

عندنا كتاب الله حسبنا .

عندنا القانون الأعلى .

أما القائد الأعلى فهو في مرسه بحال لا تستحب معها المراجعة ، وهو
مع ذلك لم يصر على أمره ولم يعاود طلب الورق للكتابة ، وإنما قال حين
كثر اللغط بين الصحابة : قوموا عني . ولا ينبغي عندى التنازع ، ثم عاش
عليه السلام أياماً ولم يذكر الكتاب .

فالرجل يطيع إذا استقام الأمر واستقرت التبعة .

وكان يراجع إذا اتسع مجال المراجعة .

فإن لم يكن هذا ولا ذاك فهو ضليع بالتبعة التي يوجبها على نفسه ،
وقمين أن يذهب إليها ولا يَنكُثْ عنها .

وتلك سنة جرى عليها عمر عن علم وقصد ، ولم يجر عليها عن بداهة
وإلهام وكفَى ، وأشار إليها في كلامه غير مرة فقال في خطبة من خطبه

(١) يثوب الى رايه : يرجع اليه ويأخذ به .

ما فحواه : « ... كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت عبده وخادمه وجلوازه (١) ، وكان كما قال الله تعالى : « بالْمُؤْمِنِينَ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ » ، وكنت بين يديه كالسيف المسلول ، إلا أن يُعْمدني أو ينهاني عن أمر فأَكْتَفَ عنه ، وإلا أقدمت على الناس لمكان أمره ... » .

فهو جلوازُ النبي وسيفه المسلول كما وصف نفسه .
وهو على أقوم مثال للجندى الفاضل العليم بموقع الطاعة ، وموقع المراجعة ، وموقع المشاورة ، وهو مع التبعة حيث لا مهرب منها ، وتلك هي الجندية في صورتها المثلى .

وما نحسبه كان يراجع ويشاور إلا لغرض واحد ، وهو الوصول إلى الأمر الذي يحمل التبعة فيه .

فإذا أعفى نفسه من التبعة بمراجعة رؤسائه ، وأعفى نفسه من التبعة بمشاورة مرءوسيه ، فقد عرف كيف ينبغي أن يطيع ، وعرف كيف ينبغي أن يطاع ، وعرف ما يتوق كل جندى أن يعرفه حين يؤمَرُ وحين يأمرُ وهو توضيح ما يُطلب منه وما يُطلب من غيره ، وتقرير مكان التبعات حين تقسّم التبعات .

ولقد كانت له مخالقات^٢ ليست من قبيل المراجعة ولا المشاورة التي تعمل فيها الروية عملها ، أو تختلف مذاهب الآراء فيها .
كانت هذه أيضاً من مخالقات « الجندى » التي يندفع إليها كلما غلبته الحماسة واثارت به الحمية .

فلما كان يوم أُحُد جاء أبو سفيان ينادى على مسمع من المسلمين :
أفيكم محمد ؟ فقال رسول الله : لا تجيبوه !

فعاد ينادى مرتين : أفيكم محمد ؟ فلم يجيبوه !

فسأل ثلاثاً : أفيكم ابن أبي قحافة ؟ (٣) فسكتوا .

ثم سأل : أفيكم ابن الخطاب ؟ وكررها ثلاثاً ... فلما لم يسمع جواباً

(١) انجلواز : الشرطى .

(٢) هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

قال لقومه : أما هؤلاء فقد كُفيتهم ! (١)
 كثيرٌ على عمرٍ أن يحتوى صبرُهُ في هذا الموقف أكثر مما احتواه .
 فما قالها أبو سفيان حتى صاح به من مكانه : « كُفرتَ يا عدوَّ الله . هاهو
 ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وأنا أحياء ! ولك منا
 يومٌ سوء ! » .

هذه مخالفةٌ لا مراجعة فيها ولا مشاورة .
 لكنها من مخالفات الجند ، ولهم ولا شك مخالفاتٌ كما لهم طاعات .

نعم كانت له مخالفاتهم وطاعاتهم ، وكانت له كذلك فكاهاتهم وأهواؤهم
 التي هي أخصُّ بهم من سائر الفكاهات والأهواء .
 فكانت تعجبه الفكاهة التي توحى إليه معنىً مضحكا فيه صراحةٌ
 وخشونة ، ومنها الفكاهة التي نسميها اليوم « بالنكات العملية » .

فرغ رسول الله يوما من بيعة الرجال وأخذ في بيعة النساء ، فاجتمع
 إليه نساءٌ من قريش فيهنَّ هند بنت عتبة متنبئة (٢) متكررة ، لِمَا
 كان من صنعها بحمزة (٣) رضى الله عنه ، فهي تخاف أن يأخذها رسول
 الله بصنيعها . فلما دنونَ منه ليأيعنَّه قال عليه السلام : تباعننَّي على
 ألا تُشركنَّ بالله شيئا .

قالت هند : والله إنك لتأخذُ علينا أمراً ما تأخذُه على الرجال ،
 وستؤتيكه .

قال : ولا تُسرقنَّ .

قالت : والله إن كنت لأصيبُ من مال أبي سفيان الهنة (٤) والهنة
 وما أدري أكان ذلك حلالا لى أم لا .

(١) حدث هذا بعد نهاية المعركة . وقد ظن أبو سفيان أنهم ماتوا في المعركة .

(٢) أي تلبس النقاب وهو الحجاب .

(٣) هند : زوج أبي سفيان ، وهي التي مثلته بجنة حمزة بعد أن قتل في أحد .

(٤) الهنة : مؤنة الهن وهو الشيء .

قال أبو سفيان وكان شاهداً : أمّا ما أصبّت فيما مضى فأنت منه في حلّ .

فقال رسول الله : وإنك لهند بنت عتبة !

قالت : أنا هند بنت عتبة فاعف عما سلف ، عفا الله عنك . فمضى رسول الله في أخذ البيعة وعاد يقول : ولا تزني !

قالت : يا رسول الله هل تزني الحرّة ؟

قال : ولا تقتلن أولادكن !

قالت : قد ربيناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً ، فأنت وهم أعلم . فضحك عمر بن الخطاب حتى استغرب (١) ، وكان قليل الاغراب في الضحك ، فإن استغرب ضاحكاً بين حين وحين فإنما يضحكه مثل هذه الفكاهة .

وعلى هذا النحو فكاهته مع خادمه أسلم وابنه عاصم : دخل عليهما وهما يغنيان غناءً يشبه الجنداء فوقف يستمع ويستعيد . وشجعهما إصغائه واستعادته فسألاه : أينا أحسن صنعة ؟ قال : مثلكما كمثلي حماري العبادي . سئل : أيهما شر ؟ فقال : هذا ثم هذا !

ومن فكاهته القوية تلك المزحة المرعبة التي أطار بها لبّ الحطيئة ليكف عن هجاء الناس . فدعا بكرسى وجلس عليه ودعا بالحطيئة فأجلسه بين يديه ، ودعا بإشقي (٢) - أى مثقب ، وشفرة ، يوهمه أنه سيقطع لسانه ، فضج الحطيئة وتشفع الحاضرون فيه ، ولم يطلقه حتى أخذ عليه عهداً لا يهجون أحداً بعدها ، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم . فما هجا أحداً بعدها وعمر بقيده الحياة .

تلك أمثلة من فكاهته الخشنة التي تعهد في طبيعة الجند ، وهي فكاهة لا يطمع منه في غيرها .

وشاءت الجاهلية أن تورطه في بعض أهوائها فكان هواه منها معاورة

(١) استغرب في الضحك : بالغ فيه .

(٢) الاندعى : المثقب : والشفرة ، والسكين العظيمة .

الخير يحبها ويكثر منها . وقد نرى أنه هوى قريب من مزاج الجند
غير نادر فيهم ، إذ الخمر توافق ما فيهم من سؤر طبع وتشغلهم عن
الخطر أو تعينهم عليه ، وتصاحبها في كثير من الأحيان ضجة يألونها .
وقد أحب ضجة الدفوف وهى في سياق هذا الهوى ، وظل يحبها بعد
إسلامه وخلافته وإن كرهها في غير الأعراس ... فسمع ضوضاء في داره
فسأل : ما هذا ؟ قيل له : عرس ! فقال : هلا حركوا غرايلهم ؟ أى
الدفوف !

على أنه كان يحب الغناء جملةً ويطلق الاصغاء اليه ما لم يشغله عن
مهم من أمر دينه أو سياسته . فسمع صوت حادٍ وهم منطلقون الى مكة
في جوف الليل فما زال يتوضع راحلته (١) حتى دخل بين القوم يسمع إلى
مطلع الفجر ، ثم قال للقوم : إيه ! قد طلع الفجر . اذكروا الله .

فطبيعة الجندى في الفاروق تامة متكاملة بأصولها وفروعها . ويندر أن
تتم طبيعة شاملة في رجل واحد إلا أن يكون كعمر في أصالة الطبع
وصراحته وخلوصه واتساقه ، فلا يخذل منه جزء جزءاً ، ولا تقبل
منه وجهة حيث تدبر أخرى ، وحينئذ لا عجب أن تتم له طبيعة واحدة
بالغة ما بلغت من تعدد العناصر والألوان والشيئات . كما أنه لا عجب
أن يشبه الولد أباه لأنه أصيل صريح النسب ، بالغاً ما بلغ التعدد في مشابهة
الأخلاق والجوارح والأعمال .

ولهذه الطبيعة أثرها في أمور لا تمت إليها على ظاهرها . كأثرها في تحرير
رق العربى وفي اخلاء الجزيرة من غير العرب ، فهى شينينة الغيور على
الحوزة ، الموكل بحماية الذمار (٢) .

ولها أثرها في سياسته مع الأمم حيث يأمر الجند بتصديق كلمة الشرف
والبر بالوعد ولو كان إشارةً باليد أو نبرةً من صوت . فقد أوجب على

(١) يضع راحلته : يحملها على السر السريع
(٢) الذمار : ما يلزمك حمايته وحفظه والدفاع منه ، والحرم والاهل والحوزة .

قاداته وجنوده إذا نزلوا بلاد الأعاجم فبدرت منهم إشارة أو نبأة يحسبونها عهداً أن ينجزوا هذا العهد ولا ينكثوا فيه ، ولو أتيح لهم أن يتعلموا بجهل اللغة وغرابة العادات والمصطلحات .

وإنك على الجملة لا تعرض عملاً من أعمال الفاروق العامة والخاصة على هذه الطبيعة إلا وجدت له قراراً فيها ووجدت عليه صبغة منها .

فهى بلا ريب أقرب مفتاح لهذه الشخصية العظيمة ، وبها تتميز خصائصه التى لا يشترك فيها أناس مطبوعون على غيرها وإن كانوا عظماء أقوياء .

وقد أسلفنا الإشارة إلى الايمان القوى وقلنا إنه ضابط لأخلاقه وسوراته ، وليس بمفتاح يكشفها ويفتح مغالقها ، لأن الايمان القوى نفسه يحتاج فى فهمه وتمييزه الى المفتاح الذى يفرق بين ضروب الايمان عند الأقوياء ، وليست القوة كلها كما لا يخفى معدنا واحداً فى البواعث والمظاهر والآثار .

وهكذا كان إيمان عمر فى سلوك دنياه وسلوك دينه : كان إيمان الطبيعة الجندية فى حالتها المثلى .

ففى سلوك دنياه كان يعيش أبداً عيشة المجاهد فى الميدان ... فأثر الشظف وقتع منها بأقل ما يكفيه ولا غنى عنه .

وفى سلوك دينه كان موقفه بين يدى الله أبداً كموقف الجندى الذى يعلم أنه لا يلقى مولاه إلا ليؤدى الحساب على الكثير والقليل ... فإن تجتته المسامحة جاءت عفواً لا ينسيه تحضير الحساب .

وكان معتمداً على الغيب موصولاً بالقدر يركن إليه كأنه يراه بعينه . ومن دأب كل طبيعة تستحضر الموت أن تنظر الى الغيب ، وتستطلع طلعه (١) وتنتظر منه الحماية والهداية .

فاشتهر عن كثير من كبار القادة أنهم يؤمنون لهم بنجم سعد يلحظهم ، أو بنساية أجل لا يعجلون عنها ، أو بإلهام يهديهم الى النجاة

(١) يقال : فلان اطلمنى على الامر ، او اطلمنى طعمه بكسر الطاء .

ويرون أماراته وعلاماته في الرؤى والهواتف وكلمات النبال والبشارة .
وكان عمر يتفعل بالأسماء ، وينظر في الرؤى والمنامات ، ويروى
عنه في روايات متواترة أنه أنبىء بموته في منام ، وأنه رأى كأن ديكا ينقره
فقرتين ، وفسروا له الديك برجل من العجم يطعنه طعنتين .

وروى محارب بن دثار أنه سأل رجلا : من أنت ؟ فقال : قاضى
دمشق قال : كيف تقضى ؟ قال : أقضى بكتاب الله . فسأله : وإذا جاءك
ما ليس في كتاب الله ؟ فأجابه : أقضى إذا بسنة رسول الله ، فسأله ثانية :
وإذا جاءك ما ليس في سنة رسول الله ؟ قال : أجتهد برأى وأوامر
جلسائى . فاستحسن قوله وأوصاه إذا جلس للحكم أن يدعو الله قائلا :
« انى أسألك أن أفتى بعلم ، وأن أقضى بحلم ، وأسألك العدل في
الغضب والرضا » .

ثم رجع القاضى بعد فترة فسأله عمر : ما أرجعك ! قال : رأيت الشمس
والقمر يقتتلان ، مع كل واحد منهما جنود من الكواكب .
فسأله : مع أيتهما كنت !
فقال : مع القمر !

فتأمل قليلا ثم ذكر قوله تعالى : « وجعلنا الليل والنهار آيتين
فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة » ثم قال : لا تلى
لى عملا (١) .

هذه رواية من روايات كثيرة عن المنامات ونظره فيها ، لا ندرى مبلغها
من الصحة في تفصيلاتها ، ولكنها كلها تدل على الغرض الذى قصدنا
إليه وهو استهداء الغيب من طريق الرؤى والعلامات ، الى جانب الايمان
القوى الذى لايسهو عن عالم الغيب طرفة عين .

ومن الحق أن نضيف هنا أن الإيمان القوى ليس بمستغرب في الطبيعة
الجنسية ، بل ربما كانت طبيعة الجهاد أقرب شيء الى طبيعة الإيمان .

(١) تلى : لا هنا نافية وليست ناهية ، فالفعل بعدها مرفوع .

وأن نضيف هنا استدراكا آخر لعله أدعى الى البحث من القول في الجهاد والإيمان ، وذلك أن العدل لا يناقض طبيعة الجند عامة ، وأن طبيعة الجند لا تستلزم العدوانَ في كل محارب ، ولا سيما المحارب نَضْحاً^(١) عن دين ووفقا لشريعة .

فالعدل يفتقر الى شجاعة وشرف ، وهما خَصْلَتَانِ مطلوبتان في الجندى المطبوع ، فأما الشجاعة في الرجل العادل فتحميه أن يحابى الأقوياء وهو جبن ، وأما الشرف فيحميه أن يجور على الضعيف وهو خِسَّةٌ ، ولا تناقض بين هذه الخصال .

إنما المحارب المعتدى هو الذى « يحارب لحسابه » كما يقولون ، أو يحارب لنفسه مَرَضَةً لطبعه وذهابا مع نزواته ، ومن هذا الطراز الاسكندر وتيمور و نابليون .

أما المحارب الذى تقيده إرادة غير إرادته ، ويحكمه قانون غير هواه ، فالحرب من مثله واجبٌ يُلَامُ على تركه وليست بجريمة يلام على اقترافها .

وقد يرى هؤلاء أن أشرف الجهاد جهاد النفس والهوى قبل جهاد الخصوم والأقران ، كما رأى عمر بن الخطاب .

ومصدق ذلك ظاهر في كل قائد تدعوه الى الحرب إرادة إله أو إرادة أمة ، أو إرادة ضمير له قانون . فطبيعة الجندى في هؤلاء لا تناقض العدل إلا كما تناقضه طبيعة الفيلسوف أو طبيعة الفن أو طبيعة التصرف في شئون المعاش ، ولا تناقض بينه وبين واحدة منها ، أو هى جميعاً في هذه الخلطة سواء .

هؤلاء لا يحاربون إلا مكرهين ، وإذا حاربوا لم يحاربوا لبغى ولا لتكيل ولو كانوا في ميدان القتال ، وسئلتهم هى سنة عمر حين نحذر المجاهدين أن يعتدوا لأن الله لا يحب المعتدين . ثم قال : « لاتجبنوا عند

(١) نضحا : دفعا

اللقاء ، ولا تمثّلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور (١) ، ولا تقتلوا
هرماً ولا امرأة ولا وليداً ، ونزّهوا الجهاد عن عرّض الدنيا ،
وأبشّروا بالإرباح (٢) في اليسع الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز
العظيم .

وذلك هو الجندي في حالته المثلى .
وذلك هو المفتاح الصادق الذي لا نعلم مفتاحاً أصدق منه لخلائق
هذا الجندي العادل الكريم .

(١) الظهور : النصر
(٢) الأرباح : الحصول على الربح

ارسله

يجوز أن نبحث عن سبب واحد للعمل الذي يعمله الرجل اليوم وينساه غداً ، أو يكرره كل يوم ولا يلتفت إلى عقباؤه ، أو يلتفت إلى عقباؤه ولا يتوقع لها أثراً يغيّر في مجرى حياته . فسبب " واحد " لعمل من هذه الأعمال كافٍ ولا حاجة بعده إلى استقصاء .

لكن العمل الذي تتحول به حياة الانسان تحولاً حاسماً لن يرجع الى سبب واحد ، ولن نستغنى في تفسيره عن عدة أسباب ، بعضها حديث وبعضها قديم ، ومنها الظاهر الطيّع والخفيّ المستعصى ، وقد يجهل صاحبها بعض هذه الأسباب وينسى المهم منها ويتعلق بالهين القريب . فالرجل الذي يغير موطنه أو معيشته أو زوجه لا يفعل ذلك عفوّ الساعة ولا تلبيةً لاقتراح يوحى اليه في مجلس فراغ . وقد يتوهم هو أنه سمع الاقتراح فلباه ، وأنه لم يكن ليلبيه لولا ماسمع في تلك اللحظة العارضة ، فهاجر أهله وترك موطنه وغيّر صناعته من أجل كلمة ... وإنك سائله ساعته : « انك قد هاجرت أهلك وتركت موطنك وغيّرت معيشتك لأنك لبّيت اقتراحاً ، فهل تعلم لم لبّيت الاقتراح ؟ » فإذا سأله ذلك السؤال رددته الى نفسه ، فعلم أن الأسباب الصحيحة وراء ذلك ، وأنه لم يتحول لأنه سمع الاقتراح المزعوم . بل سمع الاقتراح ولباه لأنه كان قبل ذلك مستعداً للتحول ماضياً في طريقه . ولو سمعه مائة معه لم يكونوا مستعدين مثله لما عملوا به ولا التفتوا إليه .

وأيّن تغيير المعيشة والموطن والزى من تغيير العقيدة الدينية ؟

إننا إذا استصغرنا السبب الواحد في تفسير تلك التغيرات فهو لا مرأه أصغر من ذلك جداً في تفسير التحول الحاسم إلى دين جديد .

لأن الانسان اذا غيّر معيشته فانما يغير صناعةً ، واذا غيّر موطنه

فانما يغير بلدا ، واذا غيّر زيه فانما يغيّر سمتا (١) بقوم على كساء ، ولكنه إذا غير عقيدته الدينية فقد غير كونه واستبدل به كونا آخر ، وقد غير ماضيه وماضى أهله ، وغير حاضره وحاضر أهله ، وغير مصيره في الدنيا ومصيره بعد الموت ، وغير آراءه ومقاييسه فيما يأخذ وفيما يدع من أمور الحياة وعلاقات الناس ، ومنها مآلف وأواصر ومحاب ومكاره متوشجات الأصول الى ماوراء الآباء والأجداد .

فسبب" واحد لا يغير هذا كله دفعة واحدة .

ولا بد لتنام هذا التغيير من أسباب سابقة وأسباب مهيئة ، وأسباب موقوتة هي أظهر تلك الأسباب ، وقد تكون أضعفها وأقلها تفسيراً لذلك الحدث العظيم في العالم ، وهل يتغير الإنسان هكذا إلا وقد أحاط بالعالم في نظره حدث" عظيم ؟

ونحن قد أشرنا فيما تقدم الى ندم عمر لشكاية المرأتين اللتين عارضهما في الإسلام ، وإلى ما كان لندمه من كسر حديثه واستلال ضفّنه ، وترويض عناده ، والتقريب بينه وبين الخشوع الديني والهداية الإسلامية . فهل نقف عند هذا الندم وكفى ؟ وهل اتهمنا به إلى حيث يستقر الوقوف ؟ إنه لسبب من أسباب ..

ومما لا شك فيه أن عمر كان مقرباً من الإسلام يوم رضى لأمر عبد الله بنت حنتمة وتركها تنطلق الى الهجرة وهو يدعو لها بالسلامة . وكانت هي على صواب حين طمعت في إسلامه ورجائها يأسون منه . فقد سألهامر بن ربيعة مستغرباً مستبعداً : كأنك قد طمعت في اسلام عمر ؟ قالت : نعم . قال : إنه لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب !

ولكن الرجل أخطأ وصدقت المرأة ، إذ ليس أسرع من المرأة أن تلمح جانب الرقة وجانب الغضب من قلب الرجل في خطفة عين ... أليست حياتها كلها من قديم الزمن منومة بذلك الغضب كيف تتلطف في

(١) السمت : الهيئة .

تحويله ، وبذلك الرقة كيف تتلطف في ابتعاثها من مكنها ؟ وهل تحجبها عنها القوة وهي ما تفككت الى نفس الرجل قطعاً إلا من وراء القوة ؟
فعمر كان مقترباً من الإسلام يوم رآى للمرأة المهاجرة ودعا لها بصحبه الله ، وكان على تمام الإسلام يوم رأى اندم على وجه أخته ورأى زوجها منطرحاً تحته لا يقوى على دفاع .

ولكنه كما قلنا سبب من أسباب ، أو أنه هو السبب العارض الذي يومئ (١) إلى السبب العميق : سبب عارض هو الأسف لشكايه الضعيف ، وسبب عميق هو الرحمة التي تجمل بذى نخوة كريم .
وليس الإنسان كله ندماً ورحمة وإن طال ندمه وطالت رحمته . فليس كل ما احتوى رحمته بمحتويه إلى زمن طويل .

وقد تعددت الروايات في إسلام عمر واختلف بعض هذه الروايات في اللفظ واتفق في المغزى ، وجعل أناس ينظرون فيها كأنما الصحيح منها لا يكون إلا رواية واحدة وسائرُها باطل لا يشتمل على حقيقة . فلم تكون صحاحا كلها ؟ ولم لا تكون أسبابا متعددة في أوقات مختلفات ؟ فمن المستطاع المعقول أن تسقط منها قليلا من الحشو هنا وهناك ثم نخلص منها الى جملة أسباب لا تعارض بينها في الجوهر ، وقد يمزج بعضها بعضا في نسق السيرة وفي لباب النتيجة .

رؤى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : « كنت للإسلام مباحدا ، وكنت صاحب خمر في الجاهلية أحبها وأشربها ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش .. فخرجت أريد جلسائي أولئك فلم أجد منهم أحدا . فقلت : لو أننى جئت فلانا الخمار .. وخرجت فجيته فلم أجد ، قلت : لو أننى جئت الكعبة فطفت بها سبعا أو سبعين ، فجيئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى ، وكان إذا صلى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، واتخذ مكانه بين

(١) يومئ : يشير

الركنين : الركز الأسود والركن اليماني . فقلت حين رأيته : والله لو أني استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول ! وقام بنفسى أننى لو دنوتُ أسمعُ منه لأروعه (١) فجئت من قبل الحجر (٢) . فدخلت تحت ثيابها ما بينى وبينه الا ثياب الكعبة ، فلما سمعت القرآن رق له قلبي فبكيت ودخلني الإسلام .

وروى ابن اسحق في سبب إسلامه كما نقلنا عنه في كتابنا « عبقرية محمد » : « أن عمر خرج يوما متوشحا بسيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطا من أصحابه .. قد اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين بين رجال ونساء ، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق وعلى بن أبي طالب في رجال من المسلمين رضى الله عنهم .. فلقبه نعيم بن عبد الله فقال له : أين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد محمدا هذا الصابى (٣) الذى فرّق أمر قريش وسفّه أحلامها وعاب دينها وسب آلها فأقتله . فقال نعيم : والله لقد غرتك نفسك يا عمر ! أترى بنى عبد مناف تاركك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال وأى أهل بيتى ؟ قال : ختنك (٤) وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه . فعليك بهما .

قال ... فرجع عمر عامدا الى أخته وختنه ، وعندهما خباب في مخدع لهما أو في بعض البيت . وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذه ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما . فلما دخل قال : ما هذه الهيمنة (٥) التى سمعت ! قالوا له : ما سمعت شيئا ! قال : بلى

(١) لأروعه : لافزعه

(٢) الحجر : بكسر الحاء عظيم مكة ، مدار البيت من جهة الشمال .

(٣) الصابى : الخارج من دين الى دين

(٤) ختنك : الختن : الصهر ، زوج البنت أو الاخت

(٥) الهيمنة : الكلام الخفى غير الواضح

والله . لقد أخسرتُ أنكما تابعتما محمدا على دينه ، وبطش بختنه سعيد ابن زيد فقامت اليه أخته فاطمة لتكفنه عن زوجها ، فضربها فشججها . فلما فعل ذلك قالت له أخته : نعم . قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك . فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى وقال لأخته : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون أنفا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد .. وقرأ سورة طه ، فلما قرأ منها صدرا قال : ما أحسنَ هذا الكلام وأكرمه . فلما سمع ذلك خباب خرج اليه فقال له ياعمر ، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإنى سمعته أمس وهو يقول : اللهم أئيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمرَ بن الخطاب . فالله الله ياعمر ! فقال له عند ذلك عمر : دلتنى يا خبابُ على محمد حنى آتياه فأسلم . فقال له خباب : هو فى بيتٍ عند الصفا معه فيه نفرٌ من أصحابه . فأخذ عمر سيفه فتوشحه ثم عمد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ف ضرب عليهم الباب ، وقام رجل من أصحاب رسول الله فنظر من خلل (١) الباب فرآه متوشحا بالسيف ، فرجع الى رسول الله وهو فرع . فقال : يا رسول الله ! هذا عمر بن الخطاب متوشحا بالسيف . فقال حمزة بن عبد المطلب : تأذن له ، فان كان يريد خيرا بذلناه له ، وان كان يريد شرا قتلناه بسيفه . فقال رسول الله ائذن له .. ونهض اليه حتى لقيه بالحجرة فأخذ بحجزته (٢) أو بمجمع رداءه ثم جبذه جبذة (٣) شديدة وقال : ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة (٤) فقال عمر : يا رسول الله ! جئتك لأومنَ بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله ! .. »

هاتان الروايتان هما أجمع الروايات للأسباب « المباشرة » التى قرئت بن عمر والاسلام ، وتتفرع منهما روايات متنوعة يزيد بعضها تارة أن عمر

(١) الخلل : الفرجة بين الشئين .
(٢) بحجزته : الحزمة موضع الأزار من الوسط
(٣) جبذ : جلب
(٤) القارعة : الداهية

قد أوفد لقتل النبي من قبلى قريش ، ويزيد بعضها تارة أخرى آيات من القرآن الكريم قرأها عمر في بيت أخته غير الآيات التي تقدمت الإشارة إليها في سورة طه . وأشبهها بالتصديق أنه لما اطلع على الصحيفة قرأ فيها اسم « الرحمن الرحيم » فذعر وألقاها ، ثم رجع الى نفسه فتناولها وجعل كلما مرَّ باسم من أسماء الله ذُعر . فلما بلغ « ... ومالكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم ان كنتم مؤمنين » .. قال : أشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله .

وهذه على اختلافها روايات متقاربة يبدو لنا أنها قصة واحدة شطرت شطرين وزيدت عليها الحواشي والأطراف ، فاختلفت في ألفاظها ومواعيدها واتفقت في جوهرها ومدلولها ، لأنها تمس نفس عمر من الناحية التي هي أشبه أن تهديته الى طريق جديد .

وهي - كما أسلفنا - تجمع لنا الأسباب « المباشرة » التي اقترنت بإسلام عمر ، ولا تغنيانا عن الأسباب الاخرى التي هي أساس هذه الأسباب ومرجعها ، ولأجلها كان خليقا أن تأخذ بلاغة القرآن ، وأن تميل به الرحمة الى الايمان .

فقد كان مهياً للإسلام لا محالة ، وكانت مجافاته للإسلام خليفة أن تنتهي بعد قليل ، وألا تطول الا ريثما تعين المناسبة للشهادة باللسان بعد التهيؤ بالفطرة والضمير .

فلم يكن بين عمر والإسلام في بداية الأمر الا باب واحد للعداء . وكل ما عدا ذلك من الأبواب فقد كان مفتوحا بينه وبين هذا الدين الجديد ، ما هو الا أن يراه بالعين حتى يندفع فيه .

كان باب العداء بينه وبين الإسلام أنه رجل قوى غيور عزيز في قومه . فاذا رجل يخرج عليهم فيفرق - كما قال - أمر قريش ويسفّه أحلامها ويعيب دينها وبسب آلهتها ، فلا جرّم يثور ويفضب ويتقمم ، ولا عجب أن يذود عن ذماره ويرحم (١) المعابة عن شرف آبائه ، ويرى أنه غير

(١) رخص الثوب : غسله . ويرخص المعابة عن شرف آبائه : يزيلها .

عاد ولا باغ ، وأن البغى والعدوان انما يجيئان من قبيل ذلك الرجل الخارج على قومه ، حتى يتبين له بالحق الذى يصدع به أن الذى هو فيه هو البغى والعدوان .

ذلك باب العداة الوحيد الذى كان بين عمر والاسلام ، وهو باب لا يطول مدخله فى نفس طُبِعَت على العدل والانصاف .
فما من سبب يصل بين الجاهلى الشريف وهذا الدين الجديد الا كان موصولا بنفس عمر أوثق صلة ، وما علمنا من سبب للاسلام الا كانت له عقدة فى نفس عمر وثيقة القرار .

فربما أسلم أناس لأنهم أمخدوا ببلاغة القرآن ، وأسلم أناس لأنهم كرهوا المنكر الذى كان يشيع فى الجاهلية ، أو لأنهم ورثوا النزعة الدينية والخلاق المستقيمة ، أو لأنهم جَبَلُوا على روحانية تصل بينهم وبين عالم الغيب وحظيرة الأسرار ، أو لأنهم قد عرضت لهم عارضة موقوتة حرّكت ما فيهم من كوامن تلك الأسباب .

وكل أولئك كان عمر على استعداد له عظيم .
وكل أولئك لم يكن عمر فيه بالوسط المكرر ، بل كان فيه العكس المترفع المضى بين الأعلام .

كان عمر بليغا حسن النقد للبلاغة ، هواه منها الصدق والطبع وجمال التفصيل ، فكان يطرب لقول زهير :

فان الحق "مقطعه ثلاث" يمين "أو نِفَار" أو جَلَاء (١)
ويقول كلما أنشده معجبا : ما أحسن ما قسم ا وسماه شاعر الشعراء
لأنه لا يعاقل (٢) بين القوافى ولا يتبع حوشي الكلام .
وربما قضى الليلة ينشد شعره حتى يبرق الفجر فيقول لجليسه : « الآن اقرأ يا عبد الله » .

وجاءه يوما بعض آل هَرَم بن سِنَان ممدوح زهير فقال عمر : أما وان

(١) يريد الشاعر أن مقاطع الحقوق ثلاثة ، يمين أو حكومة أو بينة
(٢) يعاقل : ما ظل بالكلام مقده وصعبه واستخدم حوشيه وغريبه

زهيرا كان يقول فيكم فيُحسِن ، فقليل له : كذلك كنا نعطيه فنُجزل .

فعاد عمر يقول : ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم .

وجاءه وفد من غطفان فسألهم من الذى يقول :

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريةً وليس وراء الله للمرء مذهبٌ

قالوا : نابغة بنى ذبيان . فسألهم : ومن الذى يقول :

أنتك عاريا خلقتا ثيابي على وجلٍ تظنُّ بي الظنون (١)

فألفيتُ الأمانة لم تخنّها كذلك كان نوحٌ لا يخونُ

قالوا : هو النابغة . فقال : هو أشعرُ شعرائكم .

وطالما أعجب بقول عبدة بن الطبيب :

والمرءُ ساعٍ لامرٍ ليس يدركه والعيشُ شحٌ واشفاقٌ وتأميلٌ

وينشده فيقول : على هذا بنيت الدنيا !..

وندر بين أئمة الدين من غاص في أدب قومه غَوْصه ، ووَعى من

أشعارهم وطرفهم مثل ماوعاه . قال الأصمعي : « ما قطع عمر أمرا الا

تمثل فيه بيت من الشعر » . ونحن نرجع الى الشعر الذى تمثل به فنراه

في أحسن موقع وأصدق شاهد ، ونلمح من قليل أخباره في خلوته أن

الأدب كان جانبا من جوانبه التى ترق فيه حاشيته ، ويأنس فيه الى قلبه ،

ويرجع فيه الى فطرته . جاء عبد الرحمن بن عوف الى بابه فوجده مستلقيا

على مزحفة له واحدى رجله على الأخرى وهو ينشد بصوت عال :

وكيف ثوائى (٢) بالمدينة بعدما قضى وطّرا منها جميلٌ بن معمر

فلما دخل عبد الرحمن وجلس قال له : يا أبا محمد : انا اذا خلونا قلنا

كما يقول الناس .

ولم يقصر اعجابه بالشعراء على الذين وافقوا المواعظ والسنن الدينية ،

بل نظر في فَنهم وفاضل بينهم في بلاغتهم ، ففضل امرأ القيس لانه « سابقهم ،

خَسَفَ لهم عن الشعر فافتقر عن معانٍ عورٍ أصح بصر » (٣)

(١) ثوائى : اقامتى

(٢) الثوب الخلق : البالى

(٣) خَسَفَ لهم عين الشعر فافتقر من معانٍ عورٍ أصح بصر : استنبت عين الشعر وشق طريق الممانى واتى بالشوارد الحسان . راجع باب « ثقافته »

ونوادره مع الشعراء والرواة كثيرة تدل على شغفه بالبلاغة الصادقة وحفظه لأجمل ما يحفظ بين أهل عصره ، كما تدل على ذلك خطبه ورسائله وشواهده وأمثاله .

وقد يصح أنه نظم الشعر أو لا يصح . فقد نسبت إليه أبيات وأنكر هو أنه شاعر حيث يقول : لو نظمت الشعر لقلته في رثاء أخى . ولكن الصحيح أنه كان يحب الشعر البليغ ويرويه ويوصى بروايته ، وأنه نشأ في قوم يحبون مثل ما أحب ويمجبون بمثل ما أعجبه ، ومنهم أبوه الذي نظم الشعر في أكثر من مناسبة ورؤى عنه أنه قال لما توعده أبو عمرو ابن أمية :

أيوعدني أبو عمرو ودوني رجالاً لا يثنونها الوعيد (١)

ربيع المعدمين وكل جار
هم الرأس المقدم من قريش
فكيف أخاف أو أخشى عدوا
فلست بعادل عنهم سواهم
إذا نزلت بهم سنة كتود (٢)
وعند بيوتهم تلقى الوفود
ونصرهم إذا أدعو عتيد
طوال الدهر ما اختلف الجديد (٣)

الى آخر ما نسب اليه .

فأقرب شيء الى الواقع - والى المتوقع - أن يؤخذ ببلاغة القرآن رجل " نشأ هذه النشأة وأحب الكلام البليغ هذا الحب ، وأن يخشع لآياته ويعجب لتفصيله ، فيفتح من قلبه مسالك الاصغاء .

وكان عمر مستقيم الطبع مغطورا على الانصاف ، فلم يكن رجل مثله ليستريح الى فساد الجاهلية أو يخفى عليه فسادها اذا ثبت اليه وهدى الى ما هو خير منه .

وكانت النزعة الدينية وراثية في أسرته على ما يظهر من مبادرة اخته فاطمة وابن عمه سعيد بن زيد الى الاسلام ، وكان له قبل الاسلام رجل " .

(١) لا يثنونها الوعيد : أى لا يهابون التهديد
(٢) سنة كتود : شديدة مظلمة
(٣) الجديدان : الليل والنهار ، يعنى أنه لا يمدل بهم قوما آخرين مهما تعاقب الزمان .

من عمومته يقدح في الوثنية ويبحث عن الحق في النصرانية واليهودية ،
ويبتلى أهلَه بالخلاف ويبتلونه بالأيذاء والحبس والارهاق ، ونعنى به
زيد بن عمرو بن ثَقِيل .

وعمر نفسه .. ألم يقل لنا إنه يش ليلة من السر ومن الخمر فذهب
يطوف بالبيت كأن طواف البيت شهوة من شهوات قلبه تنوب عنه مناب
المحجوب من الشهوات ؟ ألم يكن في الجاهلية ينذر أن يعتكف ليلة من
كل أسبوع ؟ بل لعل صلابة الخطاب أيه لم تكن في صميمها شيئا مناقضا
لعنصر الدين والايمان . فان هؤلاء الصّلاب الشّداد في المحافظة على
العرف هم أولئك المؤمنون المتزمتون (١) الذين لا يطيقون المساس
بعقائدهم اذا آمنوا بدين .

وزاد عمر على الوراثة الدينية أنه كان صاحب فِرَاسَة وزَكَانَة (٢)
وكان يستطلع الرؤى والمنامات ويتصل بالغيب ويبصر على البعد كما سلف
في حديث سارية حين ناداه : يا سارية الجبل ! يا سارية الجبل . وبينهما
مسيرة أيام ..

وكانت العوارض تمرّ به فتعطفه الى الاسلام تارة من طريق الرحمة
وتارة من طريق العدل والنخوة ، فيخشع ويندم ويراجع عناده وكبرياه .
اذ ليس أبغض الى الرجل الأبيّ المنصف من أن يحارب ألسا لا يحاربونه ،
ويلجّ في إيذاء قوم لا يقدرّون على أذاه .

فاذا تفتحت هذه الأبواب جميعا بين عمر والاسلام فباب واحد موحد
لن يحجبه طويلا عن هذا الدين ، ولن يحجب هذا الدين طويلا عنه .
وقد تفتحت في يوم من الأيام .

تفتحت كلها فدخلها دخول العاصفة من جميع الأبواب ، وأسلم الجاهلي
الشريف كما كان ينبغي أن يسلم ، وكما كان يقينا سيسلم في مناسبة من
المناسبات .

(١) المتزمت : الوقور المتشدد في دينه .
(٢) الزكّانة : الفطنة والفراسة

فاذا العالم الانساني قد تفتحت فيه صفحة جديدة :
صفحة يقرأ فيها القارىء قبل كل شىء ماذا يصنع الاسلام بالنفوس ،
ويعلم منها قبل كل علم أن هذا الدين كان قدرةً بانيةً منشئةً من لدن
المقادير التى تسيطر على هذا الوجود : كان قدرةً تلبس الضعيف فيقوى
وتلبس القوى فتسمى قوته وتجرى به فى وجهته ، وكان يدا خالقة حاذقة
تأخذ الحجارة المبعثرة فى التيه فاذا هى صرح له أساس وأركان ، وفيه
ماوى للضماير والأذهان .

جاهلى كسبه الاسلام فكسبه العالم الانسانى كله الى آخر الزمان ..
ونفس ضائعة ردت الى صاحبها فعرف منها ماكان ينكر ، واطلع منها
على ماكان يجهل ، ونفع بها أمته وأما لاتحصى ، وصنع بها الاسلام أعظم
وأفخم ماتصنعه قدرة بناء وإنشاء ، حيثما كانت قدرة بناء وإنشاء .
ونظرت الأمم فرأت كيف تعلو النفس الانسانية حتى يحار فيها الانسان
وهو ريشة فى مهب النوازع والأشجان (١)

رأت كيف يصبح العدل والحق طبيعة حياة ، وكيف يصبح مخلوق من
اللحم والدم وكأنه لا يأكل طعامه ولا يروى ظمأه الا ليعدل ويعرف الحق ،
وكانه لا يصحو ولا ينام الا ليعدل ويعرف الحق ، وكأنه لا يتنفس الهواء
الا ليمتنع الظلم عن الناس وتدول دولة الباطل بين الناس ، وكأنما العدل
والحق دين عليه يطالبه به ألف غريم ، وهو وحده أقوى فى المطالبة
بهما من ألف غريم .

لقد كان هذا الرجل المجيد يبغض أن يظلم غيره أشد من بغضه
أن يظلمه غيره . وهذه منزلة فى الأئمة لا تطاولها المنازل ، لأنها منزلة
الأبطال الذين يسمون على أنفسهم ، ولهم أنفس أسمى من عامة الأبطال .
واننا لنعلم كم حزاً فى قلبه الكريم أن يضرب بريثا على دين الحق كلما
رجعنا الى أيامه الأولى بعد الاسلام ، وهى أيام لاتنسى فى تاريخ البطولة
والأبطال .

(١) الاشجان « جمع شجن » والشجن : الهم والحزن والحاجة الشاغلة

فما شغله أمر بعد اعلان الدين الا أن يخرج ليضربه أناس كما كان يضرب أناسا في سبيل ذلك الدين

ثار الى الناس يضربونه ويضربهم ، فقام خاله يسأل : ماهذه الجماعة ؟ قيل له ان ابن الخطاب قد صبا .. فقام على الحجر فنادى : ألا انتي قد أجرت (١) ابن أختي : فانكشف الناس عنه . فكان لا يزال يثرى مسلما يضرب ولا يضربه أحد ، وثقل عليه ألا يصيبه ما يصيب المسلمين ، فذهب الى خاله وقد اجتمع الناس في الحجر وناداه : اسمع !.. جوارك مردود عليك (٢) . قال خاله وهو به وبما يستهدف له أدرى : لا تفعل يا ابن أختي . فأصر على رد جوارره ، وطاب له بعد ذلك أنه اقتص من نفسه للابرياء الذين ضربهم وهو يجهل دينهم ، فلا تمضي تلك الضربات بغير قصاص ، وان كفر عنها بالتوبة واعزاز الدين الذي آذاهم من أجله .

وأبى من اللحظة الأولى الا أن يواجه الخطر الأكبر في سبيل دينه ، وألا أن يقبض على الثور من قرنيه كما يقول الغرييون في أمثالهم ، وأن يتحدث قريشا بحقه مذكراً بآمن بأنهم على باطل . فسأل أناسا : أي أهل مكة أنقل للحديث ؟ قيل له جميل بن مكرم الجمحي .. فذهب اليه فصرح له بإسلامه !.. ولم يكذب الرجل الظن به ، فما هو الا أن سمعها حتى خرج وعمر وراءه الى أندية قريش حول الكعبة يصرخ بأعلى صوته على باب المسجد : يامعشر قريش ! ألا ان عمر بن الخطاب قد صبا .. وعمر يقول من خلفه : كذب ! ولكني أسلمت وشهدت أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، ثم تنشب المعركة بين هذا الرجل المفرد وبينهم فيشب على أذانهم منه وأجرئهم عليه - عتبة بن ربيعة - فيصرعه ويترك عليه يضربه ويدخل أصبعيه في عينيه لأنهما عياوان عن الحق لا تبصران النور ! ويتكاثرون عليه فلا يدنو منهم أحد « الا أخذ شرف من دنا منه » حتى أحجبوا عنه وركلت الشمس وفتّر من طول الصراع ، فجلس وهم

(١) أجاره : أي ادخله في حياه ورفايته وجواره
(٢) أي : اعفني من حمايتك .

قائمون على رأسه يثلبونه (١) وهو يقول لهم : « افعلوا ما بدا لكم . فوالله لو كنا ثلثمائة رجل لتركتموها لنا أو تركناها لكم » . افعلوا ما بدا لكم ! وهذا ما أراد .. فما يستريح وجدانه الحي أن يضرب مسلماً لاسلامه ولم يضرب كافراً لكفره ، وما يشعر أنه وفيّ الله دَيْنَه وقد ضُرب ولم يُضْرَب وآذى أناساً ولم يؤذ أحد ، وما تهذا حاسة العدل فيه — وقد كانت كأنها من حواس بدنه — الا أن يحسّ القصاصَ في نفسه كما أحسّ المضروبون بالأمس عدوانه في أنفسهم .

وراح يسألُ النبي : يا رسول الله ! ألسنا على الحق ان متنا أو حيينا ؟ فقال عليه السلام : بلى ! والذي نفسى بيده انكم على الحق ان متم وان حييتم . قال : فقيم الاختفاء ؟ والذي بعثك بالحق لتخرجن ! « فما لبث النبي أن خرج في صَفَتَيْنِ أحدهما فيه عمر والآخر فيه حمزة ، ولهما كديد (٢) كأنه كديد الطحين ، فدخلوا المسجد وقريش تنظر وتعلوها كآبةً فلا يجروا سليطاً (٣) منها ولا حكيم أن يقترب من صفيين فيهما هذان .. وسماه النبي يومئذ الفاروق

قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : « ما علمت أن أحدا من المهاجرين هاجر الا مخفياً الا عمر بن الخطاب ، فانه لما همّ بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه واتضى في يده سهماً واختصر عَنَزَتَهُ (٤) ومضى قبل الكعبة والملاّ من قريش بفنائها . فطاف في البيت سبعمائة متمكناً ، ثم أتى المقام فصلى ، ثم وقف على الحلق (٥) واحدةً واحدةً يقول لهم : شأنت (٦) الوجوه ! لا يرغب الله الا هذه المعاطس (٧) ! ومن أراد أن يشكّل أمّه أو يوتّم ولده أو يرْمِلَ زوجته (٨) فليلقني وراء هذا الوادى ... »

(٢) كديد : التراب الناعم

(١) يثلبونه : يشتمونهم ويعيرونهم

(٣) السليط : البدئ اللسان

(٤) العنزة : سبيلها زج كالرمح الصغير ، واختصرها ، اعتمد عليها في مشيه .

(٥) الحلق « جمع حلقه » والحلقة : القوم يجتمعون مستديرين

(٦) شأنت الوجوه : قبحت

(٧) المعاطس « جمع المعطس » والمعطس : الأنف .

(٨) أى يجعل أمه كلى ، أو ولده يتيماً أو زوجته أرملة : يعنى « ان أقتله »

لقد كان في تحدّيه هذا لقريش عدّتان : شجاعته وعدله ... فما كانت شجاعته في هذا التحدي بأظهر من عدله ولا كان عدله فيه بأظهر من شجاعته . اذ الشجاع الحق مطبوع على الأنفة من الظلم لأنه شديد الاحساس بذلّه ، ومن كان شديد الاحساس بذلّ الظلم فهو شديد الاحساس بعزة العدل من طريق واحد . وقلما أغضب العادل الشجاع شيء كاستطالة الظالم وظنّه أن المظلوم لا يستطيع عليه ، فذلك هو التحدي الذي يثير الشجاعة ويثير النعمة على الظلم أو يثير حب العدل في وقت واحد ، وانّ الموت لأهون من الصبر على هذا التحدي المرذون وهذا الصلّف القبيح . وما الشجاعة ان لم تكن هي الجرأة على الموت كلما وجب الاجترار عليه ؟ وأي أمرى أولى بالجرأة من الشجاع الذي يعلم أن الحق بين يديه ؟ ألسنا على الحق ان حيننا وان متنا ؟ فعلى الحق اذن فلنمت ولا نعيش على الباطل ، فالباطل كرهه والجبن كرهه . وذاتك ملتقى العدل والشجاعة في قلب العادل الشجاع

ونَهَجَ عمرُ طريقه في الاسلام كما نهجَ طريقه الى الاسلام : كلاهما طريق " عمرى " هو أشبه به وهو أقدر عليه ، وكلاهما طريق صراحة وقوّة لا يطيق اللف والتنطع ولا يحفل بغير الجد الذي لا عبث فيه .. فلا وهن ولا رياء ، ولا حذقة ولا ادعاء . وما شئت بعد ذلك من اسلام صريح قويم فهو اسلام عمر بن الخطاب

قال في بعض عظاته : « لا تنظروا الى صيام أحد ولا الى صلاته ، ولكن أنظروا من اذا حدث صدق ، واذا ائتمن أنى ، واذا أشفى - أى هم بالمعصية - وكرع » .

وقال في هذا المعنى : « لا يعجبكم من الرجل طنطنته ، ولكن ... من أدبى الأمانة الى من ائتمنه ، وسلم الناس من يده ولسانه »

وقال في عمل الدنيا والآخرة : « ليس خيركم من عمل للآخرة وترك

الدنيا ، أو عمل للدنيا وترك الآخرة ، ولكن خيركم من أخذ من هذه ومن هذه . وإنما الحَرَجُ في الرغبة فيما تجاوز قدر الحاجة وزاد على حدِّ الكفاية ... » .

ولم يكن أبغض إليه ممن يتوانى ليقال انه متوكِّل " على الله ، أو يتراءى بالضعف ليقال انه ناسك ، أو يثْغِرُط (١) في العبادة ليقال انه زاهد في الدنيا .

فكان يقول : « ان المتوكِّلَ الذي يُلْقَى حَبُّهُ في الأرض ويتوكَّل على الله » ... و « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول ارزقني . وقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، وأن الله تعالى يرزق الناس بعضهم من بعض »

وكان يضرب من يتماوت ويستكين ليظهر التخشع في الدين ، فنظر الى رجل مظهر للنسك متماوت فخفقه بالدرّة وقال : « لا تُثْمِتْ علينا ديننا ! أماتك الله » ، وأشاروا له الى رجل يصوم الدهر فضربه وهو يقول له : كل يا دهر ! كل يا دهر ! .. ينهاه عن الصوم الذي يعوقه عن معاشه ولا يوجبه عليه الدين .

وكان كلما رأى شابا منكّسا رأسه صاح به : « ارفع رأسك فان الخشوع لا يزيد على ما في القلب ، فمن أظهر للناس خشوعاً فوق ما في قلبه فأنما أظهر للناس نفاقاً الى نفاق »

وانما كان يعجبه « الشابُّ الناسكُ نظيفُ الثوب طيبُ الرائحة » ، ويرى المسلمين بخير ما علّموا أبناءهم الرمي والعموم والفروسية ، « فأنتم بخير » كما قال « ماتزو^٢ تسم (٢) على ظهور الخيل »

دين الرجل القوى الشجاع الذي ينتصر بدينه في ميدان الحباة ، وليس بدين الواهن المهزوم الذي تركته الدنيا فأوهم نفسه أنه هو تاركها ليُقبل على الآخرة

(١) الرط اقرطاً : اسرف وتجاوز الحد ، يعكس التفریط

(٢) النزو : الوثوب

وكانت شجاعته في دينه أندر الشجاعات في النفوس الآدمية .. لأنها الشجاعة التي يواجه بها تهمة الجبن وهو أرذل من الموت عند الرجل الشجاع . فان كثيرا من الناس ليعدلون عن الصواب الذي يظهرهم بمظهر الخوف ليقال انهم شجعان ، وانهم في عدولهم عنه لمن الجبناء المستعبدين للثناء ، ولم يكن عمر يعدل عن صواب فهمه ولو قيل في شجاعته ما قيل ، وتلك أشجع الشجاعات .

فشا طاعون عمواس وعمر في طريقه الى الشام ، فلقيه أبو عبيدة وأصحابه عند تبوك وأخبروه خبر الطاعون ، فاستشار المهاجرين والأنصار فاختلّفوا بين ناصح بالمضي وناصح بالقفول : ناصح بالمضي في طريقه يقول انه خرج لأمر ولا يرى له أن يرجع عنه ، وناصح بالقفول يقول انه اصطحب « بقية الناس وأصحاب رسول الله ولا يرى أن يتقدمهم على رباء » ... ثم دعا مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فلم يختلف عليه رجلان وأشاروا جميعا بالرجوع . فقال أبو عبيدة : أفراراً من قدير الله ؟ قال عمر : نعم نفر من قدير الله الى قدر الله ، رأيته لو كان لك ابل هبطت وادياً له عتوتان (١) احداهما خصبة والأخرى جدبة أليس ان رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ، وان رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟ .. وما رام (٢) مكانه حتى جاءه عبد الرحمن ابن عوف فحسم الخلاف برأى النبي في الخروج من أرض الطاعون والتقدم اليها ، حيث قال عليه السلام : « اذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، واذا وقع بأرض وأتمم بها فلا تخرجوا منها »

فكان ايمانه بصيرا لا يهجم به على عياء ، ولا يستسلم فيه استسلام المعزة وهو قادر على الحيطة والأخذ بالأسباب ، وكانت نصيحته العامة للمسلمين في أمر الطاعون كراهيه الخاص في أمر نفسه وصحبه ، فأمرهم بالاستنقاذ ما وجدوا له سبيلا ، وكتب الى أبي عبيدة : « انك قد أنزلت

(١) العدوة : المكان المرتفع (٢) رام : برح وترك

الناس أرضاً غَمِيقَةً - أى وخيمة - فارفعهم إلى أرض مرتفعة نَزَرَهُ (١) «
وهو أحوط ما يحتاط به أمير عالم في هذه الأيام .

كذلك لم يكن يؤمن بشيء ينفع أو يضر غير ما عُرِفَتْ أسباب نفعه
وضرره ، فكان ينظر إلى الحجر الأسود فيقول كلما استلمه (٢) : انى لأعلم
أنك حجرٌ لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسولَ الله صلى الله عليه
وسلم يقبِّلُكَ ما قبَّلْتُكَ «

وسمع أن الناس يأتون الشجرةَ التى بايع رسول الله تحتها بيعة
الرضوان فيصلُّون عندها ويتبركون بها ، فأوعدهم (٣) وأمر بها أن
تقطع ، مخافة أن تسرى إلى الاسلام من هذه المناسك وأشبابها
لوثَّة (٤) من الوثنية والتوكل على الجباد .

وربما التبس الأمر من نواذر عمر في التقشف واجتناب المتع والمناعم
فحُسِبَتْ فرائض يوجبها ويجرى فيها على طريقة أولئك النساء
المتخشعين الذين كان ينهاتهم أن يميئوا الدين ويهزأ بهم كلما تنطعوا فيه
وأوجبوا ما لا يجب على المؤمنين .

فلا يلتبس الأمر هذا الملتبس ، فهو واضح يبيِّن التفرقة من سيرته
ومن الأحاديث التى صحبت تلك النواذر ، ففسرتها ودلت على الغرض منها
فعمر كان مسلماً وكان خليفة للمسلمين . وفرق بين محاسبة المسلم
نفسه وهو مسئول عنها دون غيرها ، وبين محاسبة الخليفة نفسه حتى
يقع الشك في عمله وينزَّه يده وأيدي أهله عما ليس لهم بحق من
سلطان الحكم أو بيت المال ، ثم يفى لذكرى صاحبه الذى خلفه على
المسلمين ، فلا يعيش في مكانه خيراً من عيشته ، ولا يمنح نفسه وذويه
مالاً يمنحه النبى لآله وذويه .

(١) نزلة : مرتفعة (٢) استلم الحجر الأسود أى لمسه اما بالتقبيل او باليد
(٣) أوعد : تستخدم في الشر ، اما وعد فتكون في الخير
(٤) اللوثة : الحماة .

وعمر الذى كان يقنع بالخشن الغليظ من المأكّل والملبس ، ويأبى أن يذوق فى المجاعة مطعماً لا يسعُ جميعَ المسلمين انما هو الخليفة الذى يحاسب نفسه قبل أن تحاسبه الرعية ، وقد وُجد منهم من لأمه لأنه طرح كساءه وفيه فضلٌ ملبس . فالتقاء هذا الحساب وما وراءه من حساب الله هو الذى توخاه خليفة النبى فى معيشته ومعيشة أهله ، مما يشبه تقشف النساك

وعلى هذا كلّه كان أعلمَ الناس أن الطيبات حلالٌ ، وأن النهى عن الحلال تنطّح فى الدين يأباه الاسلام
كتب اليه أبو عبيدة أنه لا يريد الإقامة بأنطاكية لطيب هوائها ووفرة خيراتها مخافة أن يخلّد الجند الى الراحة فلا ينتفع بهم بعدها فى قتال ، فانكر عليه ذلك وأجابه : (ان الله عز وجل لم يحرم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات ، فقال تعالى فى كتابه العزيز : « يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » ، وكان يجب عليك أن تريحَ المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون فى مطعمهم ويريحون الأبدان النصيبة (١) فى قتالٍ من كفرَ بالله)

وحدث حذيفة بن اليمان أنه أقبل على الناس وبين أيديهم القصاع ، فدعاه عمر الى الطعام وعنده خبز غليظ وزيت ا فقال حذيفة : أمنعتنى أن أكلَ الخبزَ واللحم ودعوتنى على هذا ؟ قال : انما دعوتك على طعامى ، فأما ذاك فطعامُ المسلمين .

فلمسلمين حلّ " ماشاءوا من الطعام أما الرجل الذى ينفق من بيت المال فله مايكفيه . والخرج كلُّ الحرج عليه — وهو فى عدل عمر وحزمه وجلده — أن يأخذ منه ما لا حاجة به اليه ، وانه ليزداد حرجاً على ما فيه من قناعة أن يكون من أصحاب رسول الله ويعلم كيف كان رسول الله يأكل فى بيته وماذا كان يجد من الملبس له ولأهله ، ثم يصيب من هذا أو ذاك خيراً مما أصاب الرسول .

(١) النصية : التى اصابها النصب ، وهو التنب

وللولاة عنده مثل ما للمسلمين عامة من حق المتعة السائفة والنعمة التي
ترضاها الرجولة ، لا يأخذهم بمحركاته لأنهم يتولون الأمر كما تولاه ،
بل ربما لامهم على التقدير كما كان يلومهم على الإسراف .
أنكر على عامله في اليمن حثلا مشهورة ودهونا معطرة فعاد اليه العام
الذي يليه أشعث مغبراً عليه أطلاس (١) ، فقال : لا . ولا كل هذا ...
ان عاملنا ليس بالشعث ولا العافي (٢) . كلوا واشربوا وادهنوا ،
إنكم ستعلمون الذي أكره من أمركم .

ومن تمام العلم باسلام عمر أن نعلم فضل اسلامه مع من لم يكن من
أهل الاسلام . فان الحق الذي يتبعه الرجل مع أهل دينه وحدهم لحق
محدود يدخل في باب السياسة القومية أكثر من دخوله في باب الفضيلة
الانسانية . وانما يصبح حقاً جديراً باسم الحق حين يتبعه الرجل مع أهل
دينه ومع الخارجين عليه .

وعمر كان ولا ريب أشدك المسلمين في اسلامه .

فلو كان الاسلام ظالماً بطبيعته لمن لم يدخلوا فيه لكان عمر أشدك
المسلمين ظلماً لهم وقسوة عليهم . لكنه كان في الواقع أشدك المسلمين
رعايةً لعهدهم مذ كان أشدك المسلمين غيرةً على دينه وعملاً بأدبه .
فكان شأته مع من حاربوه شأن المحارب الشريف ، ولن ينتظر محارب
من محارب الى آخر الزمان معاملة أقوم ولا أصدق من معاملة عمر لمحاربيه
وكان شأنه مع من صالحوه وعاهدوه أن يكفي بعهدهم ويخلص في
الوفاء به اخلاصاً من يطالب نفسه به قبل أن يطالبوه ، ومن يراقب نفسه
فيه قبل أن يراقبوه .

كتب للنصارى في بيت المقدس أماناً على أنفسهم وأولادهم ونسائهم
وأموالهم وجميع كنائسهم لاتهدم ولا تسكن ، وحان وقت الصلاة وهو

(١) أطلاس : جمع طلس وهو الثوب الوسخ
(٢) العافي : طالب المروف ، والشعث : الوسخ الجسد . أو المتبلد شعر راسه

جالس في صحن كنيسة القيامة فخرج وصلى خارج الكنيسة على الدرجة التي على بابها بمفرده ، وقال للبترك : لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدى وقالوا : هنا صلى عمر ! ثم كتب كتاباً بوصي به المسلمين ألا يصلي أحد منهم على الدرجة الا واحداً واحداً غير مجتمعين للصلاة فيها ولا مؤذنين عليها .

أما عهده لهم فقد كان مثالا من السماحة والمروءة لا يطمع فيه طامع من أهل حضارة من حضارات التاريخ كائنة ما كانت .

فكتب لهم العهد الذي قال فيه : « ... هذا ما أعطى عبدُ الله عمرُ أمير المؤمنين أهلَ ايلياءَ من الأمان . أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها : انه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم ولا يُسْتَقْص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يُكْرَهون على دينهم ولا يضارَ أحدٌ منهم ، ولا يُسْكَن بيلياءَ معهم أحدٌ من اليهود . وعلى أهل ايلياء أن يُعْطُوا الجزيةَ كما يُعْطَى أهلُ المدائن ، وأن يخرجوا منها الروم واللصوص (١) ، فمن خرج منهم فانه آمِنٌ على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمِنٌ وعليه مثلُ ما على أهل ايلياء من الجزية ... ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويُخْلَى ببيعهم وصلبهم (٢) فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ... » وليس لذي عهد من ظافر أن يطمع في أمان أكرم من هذا الأمان .

وانه لقد كان يعطيهم عليه وعلى قومه هذه العهود ثم لا يقنع بها حتى يشفعها بالوصاية للولاة أن يمنعوا المسلمين من ظلم أهل الذمّة ، وأذ يوفى لهم بمعهدهم ويُنْصَح (٣) عنهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم : كتب بذلك الى ابي عبيدة كما كتب الى غيره من الولاة وأوصى به في وصيته قبل أن يموت .

(١) اللصوص : اللصوص ، مفردا لصت

(٢) البيع : جمع بيعة وهي معبد النصارى ، والصلب ، جمع صليب

(٣) ينصح عنهم : يدافع عنهم

وما شكّا اليه مظلوم" من أهل الذمّة واليا كبر أو صغر الا أنصفه منه .
بعث زيادَ بن حدير الأسدي على عشور (١) العراق والشام . فمرّ عليه
تغلبى نصراني معه فرس قوّموها بعشرين ألفا ، فخيره أن ينزل عن
الفرس ويأخذ تسعة عشر ألفا أو يمسكها ويعطى الألف ضريبة ، فأعطاه
التغلبى ألفا وأمسك فرسه . ثم مرّ عليه راجعا في سنته فطالبه بضريبة
أخرى ، فأبى وشكاه الى عمر وقصّ عليه قصته ، فمأزاد على أن قال له :
كنفيت ! ثم رجع التغلبى الى زياد وقد وطّن نفسه على أن يعطيه ألفا
أخرى ، فوجد عمر قد كتب اليه : من مرّ عليك فأخذت منه صدقة فلا
تأخذ منه شيئا الى مثل ذلك اليوم من قابل (٢)

وسمع أن بنى تغلب لايزالون ينازعون واليهم الوليد بن عقبة وينازعهم ،
وأهم أوغروا صدره فقال فيهم يتوعدهم :
إذا ما عصبتُ الرأسَ منى بمشوذٍ (٣)

فغيثك منى تغلب ابنة وائل
فخشى أن يضيق بهم صبره فيسطو عليهم ، فعزله ، وأمر غيره .
ولعل حاكما من الحكام لا يرام منه أن يبلغ في البر بسخاليه في الدين
مبلغا أكرم وأرفق من اجراء الصدقة على فقرائهم ، ولا سيما الحاكم الذي
يسعو الى دين جديد .

وقد تقدم أن عمر أجرى الصدقة على شيخ يهودى مكفوف البصر
وقال : ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم .

وقد جعل ذلك سنّة فيمن يبلغه أمرهم من الذميين والمعوذين . فمرّ
في أرض دمشق بقوم مجذمين (٤) من النصارى ، فأمر أن يعطوا سن
الصدقات وأن يجرى عليهم القوت .

واذا أحصيت له في سيرته الطويلة أوامر وخططا تحرم الذميين

(١) العشور : ضرب من الزكاة

(٢) ١٢١ من قابل : أى بعد عام

(٣) المشوذ : المعامة

(٤) مجذمين : مصابين بالجذام وهو مرض قد ينتهى بصاحبه الى تآكل الاعضاء وسقوطها .

بعض الحريات أو بعض الحقوق فكن على يقين أنه قد صدر في ذلك جميعه عن حكمة توجبها سياسة الدولة ، وبقراها العقل والعرف كما يقرها الدين والكتاب ، ولم يصدر فيه قط عن حيف مقصود أو عن رغبة في حرمان الذميين حرية يستحقونها أو حقا هم أحرار فيه .

ولعل الذى يحصى له من هذه الأوامر والخطط لا يعدو النهي عن استخدام بعض الذميين ، ومنعهم أن يتشبهوا فى الأزياء والمظاهر بالمسلمين ، واجلاء بعضهم عن الجزيرة العربية فى ابان الفتوح ، والحذر من الكيد والتجسس والاتقاض .

فأما نهيه عن استخدام بعض الذميين فارجع الى ما قاله فى ذلك تعلم أنه منع استخدامهم لمصلحة العدل وكراهة الظلم والمحاباة . فقال : « انى نهيتكم عن استعمال أهل الكتاب فانهم سستحلون الرثشا » (١)

وطلب يوما من أبى موسى رجلا ينظر فى حساب الحكومة فأثاه بنصرانى ، فقال : انى سألتك رجلا أشركه فى أمانتى فأنتيت بمن يخالف دينه دينى . وقلما نهى عن استعمال اليهود والنصارى الا ذكر بعدها : انهم أهل رشا ، ولا تحل فى دين الله الرثشا .

وكان له عبد من أهل الكتاب يقال له أسبق ، فعرض عليه أن يسلم حتى يستعين به على بعض أمور المسلمين فأبى ، فأعتقه وأطلقه وقال له : اذهب حيث شئت ! ..

فلم يكن نهيه عن استخدام أهل الكتاب فى مهام الدولة الا اثارا للعدل وكراهة الرشوة والزيغ فى الحكومة ، وما نطن أحدا ينكر أن استخدام الغرباء عن الدولة خليق أن يحاط بمثل هذا الحذر وأن تجتنب فيه مثل هذه الآفة ، اذ يكثر بين المرتزقة الذين يخدمون دولة من الدول وهم غرباء عنها كارهون لمجدها وسلطانها أن ينظروا الى منفعتهم قبل أن ينظروا الى منفعتها . وأن يساوموا على تفوذهم قبل أن يستحضروا الغيرة على سمعتها ، والرغبة فى خيرها وخير أهلها ، ولا سيما فى زمن كانت الدول

(١) الرشا : جمع رشوة

تميز بالعقائد قبل أن تميز بالأوطان .

وما من أمة في عهدنا هذا تبيح الوظائف العامة الا بقيود وفروق متفوق عليها : أولها تحريمها على الأجانب ما لم تكن في استخدامهم منفعة عامة . وهذه هي سياسة عمر في مسألة الوظائف القومية ، بغير اعنات للدولة ولا اعنات للرعية ، وكفى باتقاء الإعنات أن العبد المملوك يُخير في الوظيفة والاسلام فيأبى ، فلا يصيه من ذلك ضيم ، ويطلق له زمامه يفعل مايشاء .

أما نهيه عن تشبّه الذميين بالمسلمين وكرهته أن يبدّلوا أزياءهم التي ولدوا عليها فلا يلام عليه حتى نعلم لِمَ كان أناس من الذميين يودّون التشبه بالمسلمين في الزي والشارة ؟ أكانوا يتشبهون بهم حبا لدينهم فهم اذن مسلمون لايمنعهم مانع أن يجهروا بالاسلام .. أم يتشبهون بهم كيدا لهم ورغبة في التسلل بينهم والافلات من عهودهم والتزاماتهم وما توجبّه الدولة عليهم في تلك العهود والتزامات ! ..

ان كانوا يفعلونه لهذا فلا لوم على عمر أن يأباه ، وبخاصة في الزمن الذي كان المسلمون فيه جميعا في حكم الجنود ، وما من دولة ترضى أن تبيح أزياء جنودها لمن يشاء .

وأما اخراج بعض الذميين من الجزيرة فما خرج منهم أحد الا وقد غدر بدمّة وكرّر الغدر مرة بعد مرة ، كما صنع أهل خيبر . ومنهم من أجلى عن الجزيرة لأنه طلب الجلاء فضلا عن نقضه العهد كما فعل أهل نجران .

فقد صالحهم النبي على أن يبقوا في مساكنهم ولا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به ، وجاء أبو بكر فجلّد الصلح على ذلك ، ثم استخلف عمر فرجعوا الى الربا وأفرطوا فيه ، وكانوا قد بلغوا أربعين ألفا فتحاسدوا بينهم وأتوا عمر يسألونه اجلاءهم . فاستحب هذا الجلاء .

على أنه لم يكن يأبى على التجار المأمونين أن يدخلوا الجزيرة ويؤدوا

العشور . فلما كتب اليه المشركون من أهل منبج أن « دعنا ندخل أرضك تجارا وتعشّرنا (١) » شاور أصحاب النبي فأشاروا عليه بقبولهم ، فدعاهم اليه .

ولا يفوتنا في هذا الصدد أمران مقترنان بخطة الإجماع التي لجأ إليها عمر وأيقن بصوابها وضرورتها . فأول الأمرين أن الجزيرة حرمٌ الاسلام الذي كان يحيط به أعداؤه ويتربصون به الدوائر ويشيرون الفتنة على أطرافه كما صنع الفرس بالعراق والروم بالشام ولا أمانَ على حرم يسكنه أناس فيهم من يغدر بأهله ، بل فيهم من هؤلاء كثيرون .

وثاني الأمرين أن عمر قد سوّى بين الاسلام والنصرانية في هذه الخطة ، فحفظ حرمَ النصرانية بيت المقدس للمسيحيين لا يسكنه معهم من لا يقبلونه ، كما حفظ حرم الاسلام بالجزيرة العربية للمسلمين لا يسكنه معهم من يحذرون غدره .

وقد أجمل العوضَ حين ألجأته ضرورة الدولة الى اتخاذ هذه الخطة ، فاشتري بيوت أهل نجران وعقاراتهم وأقطعهم النجرانية عند الكوفة ، وكتب لهم وصاةً قال فيها : « .. هذا ما كتب به عمر أمير المؤمنين لأهل نجران . من سار منهم آمينٌ بأمان الله لا يضره أحد من المسلمين .. ومن مروا به من أمراء الشام وأمراء العراق فليوسعهم من حرث الأرض ، فما اعتملوا (٢) من ذلك فهو لهم صدقة لوجه الله .. ومن حضرهم من رجل مسلم فلينصرهم على من ظلمهم فانهم أقوامٌ لهم الذمة وجيزٌ يتهم عنهم متروكةٌ أربعةٌ وعشرين شهرا بعد أن يَقتدَموا ، ولا يكلفوا - الا من صنعهم - البرَّ غيرَ مظلومين ولا معتدى عليهم » .

ولم يفارق عمر الدنيا حتى أوصى الخليفة الذي يُختار بعده بالذميين كافةً « أن يثوفي بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وأن يقاتل من ورائهم (٣) » ودون هذا بالمراحل الشاسعة يقف عدل الدول القدامى والمحدثات في كل

(١) تعشّرنا : أى تدعنا نؤدى العشور .

(٢) اعتمل : اعتمل فلان ، عمل لنفسه وتصرف في العمل .

(٣) يقاتل من ورائهم : يحميهم

ما اتخذت من حيلة حرية أو حماية قومية أو معاهدة بينها وبين أمة أجنبية ، وإن عذرها لدون عذر عمر في خطئه ، وإن أسبابها لدون أسبابه في الاقتناع

كان مسلما شديدا في اسلامه ، فلم تكن شدته في اسلامه خطرا على الناس ، بل كانت ضمانا لهم ألا يخافه مسلم ولا ذمي ولا مشرك في غير حدود الكتاب والسنة .

وكان جاهليا فأسلم ، فأصبح اسلامه طورا من أطوار التاريخ ، ولو لم يكن الاسلام قدرة بانية منشئة في التاريخ الانساني لما كان اسلام رجل طورا من أطواره الكبار .

وكان هذا الرجل يحب ويكره كما يحب الناس ويكرهون ، ولكن لا ينفعك عنده أن يحبك ولا يضيرك عنده أن يكرهك اذا وجب الحق ووضح القضاء . قال يوما لأبي مريم السلولي قاتل أخيه : والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم المسفوح : فقال له أبو مريم : أتمنعني لذلك حقا ؟ قال : لا .. قال : لا ضير ! انما يأسى على الحب النساء .

وحسبك من اسلام يحمي الرجل من خليفة ييغضه وهو قادر عليه ، فذلك المسلم الشديد في دينه ، والذي يشتد فيأمنه العدو والصديق .

عُمَرَوالدَّوْلَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ

تأسست الدولة الإسلامية في خلافة أبي بكر رضى الله عنه لأنه وطئ
العقيدة وسيّر البعوث ، فشرع السنة الصالحة في توطيد العقيدة بين
العرب بما صنعه في حرب الردة ، وشرع السنة الصالحة في تأمين الدولة من
أعدائها بتسيير البعوث وفتح الفتوح . فكان له السبق على خلفاء الإسلام
في هذين العملين الجليلين .

إلا أننا نسمى عمر مؤسساً للدولة الإسلامية بمعنى آخر غير معنى
السبق في أعمال الخلافة . لأننا « أولاً » لا نجد مكاناً في التاريخ أليق به
من مكان المؤسسين للدول العظام .

ولأننا من جهة أخرى لا نربط بين التأسيس وولاية الخلافة في إقامة دولة
كالدولة الإسلامية ، إذ الشأن الأول فيها للعقيدة التي تقوم عليها وليس
للتوسع في الغزوات والفتوح . وعمر كان على نحو من الأنحاء مؤسساً
لدولة الإسلام قبل ولايته الخلافة بسنين ، بل كان مؤسساً لها منذ أسلم
فجهر بدعوة الإسلام وأذانه ، وأعزها بهيته وعنفوانه .

وكان مؤسساً لها يوم بسط يده الى أبي بكر فبايعه بالخلافة وحسم
الفتنة التي أوشكت أن تعصف بأركانها ، وكان مؤسساً لها يوم أشار
على أبي بكر بجمع القرآن الكريم وهو في الدولة الإسلامية دستور
الدساتير ودعامة الدعائم ، ولم يزل يراجع أبا بكر في ذلك حتى استدعى
زيد بن ثابت كاتب الوحي فأمره أن يتبع آى القرآن لجمعها من الرقاع
والإكتاف والعشب (١) وصدور الرجال ، فكان ذلك أول الشروع في
جمع الكتاب .

(١) الإكتاف : جمع كتف ، والسبب جمع عشب وهو جريد النخل ، كانوا ينزعون خوصه
ويكتبون في طرفه العريش ، وكان العرب يكتبون كذلك على صفائح الحجارة وعلى الأغصان
والإكتاف الخ ..

هذا إلى أن أبا بكر رضى الله عنه أسس ولم يتسع له الأجل حتى بفرغ من عمله ، وجاء عمر بعده فأتم عمله وأقام الأساس ثم أقام عليه البناء ، وكانت قدرته على التأسيس هي آية الآيات فيه وفي ذلك العصر من البداوة البادية ، لأنه التفت إلى مواضع الخليفة بالاهتمام والتقديم كأنه راجع تاريخ عشرين دولة مستفيضة الملك راسخة العمران . وهو قدرة تروعا وتدهشنا لو شهدناها من ملك تربي على الملك ، وسلكه^(١) على عرشه سبط^(٢) من الملوك . وأولى أن تروعا وتدهشنا من رجل البادية الذي يتقدم على أمر جديد لم ثعننه فيه السوابق ولم يهتد فيه إلا بما اختار هو أن يهتدى إليه .

فبعد جمع القرآن لا نعرف عملا يقترن به ويلازمه ويعد من أسس الدولة العربية كالعمل على تصحيح اللغة وحفظها من الخلط والفساد . وكلاهما عمل لا يفتن إليه الا من طبع على سليقة التأسيس وأخذ بها من أصولها وكلاهما فطن إليه هذا المؤسس الكبير على أهون ما يكون من البساطة والسهولة ، فأشار بوضع علم الهجو كما أشار بجمع آى القرآن ، وكان أثره في تدعيم الدولة الأدبية كآثره في تدعيم دولة الغزوات والفتوح .

وندر في الدولة الإسلامية نظام^٣ لم تكن له أولية فيه ... فافتتح تاريخا ، واستهل حضارة ، وأنشأ حكومة ورتب لها الدواوين ونظم فيها أصول القضاء والإدارة ، واتخذ لها بيت مال ، ووصل بين أجزائها بالبريد ، وحمل ثغورها بالمرابطين ، وصنع كل شيء في الوقت الذي ينبغي أن يصنع فيه ، وعلى الوجه الذي يحسن به الابتداء ، فأوجز ما يقال فيه أنه وضع دستوراً لكل شيء وتركه قائماً على أساس لمن شاء أن يبنى عليه .

وملاك^(٤) النظم الحكومية كلها نظام الشورى الذي أقامه عمر على أحسن ما يقام عليه في زمانه ، فجمع عنده ثخبة الصحابة للمشاورة والاستفتاء ، وضمن بهم على العمالة في أطراف الدولة ، تنزيها لأقدارهم

(١) سلفه : تقدمه (٢) سبط : خيط نظم فيه حبات المقد ، والمراد عمر (٣) ملك الامر : ترواه واسامه ، يقال : القلب ملك الجسد

وانقاعاً برأيهم واعتزازاً بتأييدهم له ومعاونتهم إياه فيما يتولاه من ثواب أو عقاب .

وجعل مَوْسَمَ الحج موسماً عاماً للمراجعة والمحاسبة واستطلاع الآراء في أقطار الدولة من أقصاها إلى أقصاها ، يفد فيه الولاة والعمال لعرض حسابهم وأخبار ولايتهم ، ويفد فيه أصحاب المظالم والشكايات لبسط ما يُشْكِيهم (١) ، ويفد فيه الرقباء الذين كان يشهم في أنحاء البلاد لمراقبة الولاة والعمال ... فهي « جمعية عمومية » كأوفى ماتكون الجمعيات العمومية في عصر من العصور .

وكان عمر يستشير جميع هؤلاء ويشير عليهم ، ويستمع لهم ويسمعهم ويتوخى في جميع ذلك تمخيص الرأي وإبراء الذمة والخلص إلى التبعة السليمة من العقابيل .

وإن أضعف الناس رأياً لمن يستضعف فضّل الأمير في عمل تولاه لأتقنه عمله بمشاوره غيره .

فإن باب المشاورة مفتوح لكل إنسان ، وليس كل إنسان مع ذلك بالذي يريد أن يستشير ، أو بالذي يعرف كيف يستشير إذا أراد ، أو بالذي يحسن الموازنة بين الآراء إن عرف من يستشيرهم ومن يقبل مشورتهم في حالة ويرفضها في حالة أخرى .

إن المشاورة لفن عسير .

وإن الذي ينتفع بمشورة غيره لأقدر ممن يشير عليه .

وقد كان عمر عبقرى هذا الفن الذي لا يجارى . وكان من بدعه المهمة في هذا الفن العسير أنه لم يلتمس الرأي عند أهل الحنكة والخبرة وكفى ، بل كان يلتمسه كذلك عند أهل الحدة والنشاط ممن يناقضون أولئك في الشعور والتفكير .. فكان كما روى يوسف بن الماجشون : « إذا أعياه الأمر المتعضل دعا الأحداث فاستشارهم لحدة

(١) ما شكّاهم : ما يحملهم على الشكوى

عقولهم » ، وانه لإلهام^(١) في فن الاستشارة لا يثلهما الا صاحب رأى أصيل . فمن رأى الأصيل أن يخبر^(٢) الإنسان كيف يستعير آراء المشيرين .

انظر إليه كيف يستشير في اختيار أمير ، تعلم أن الاستشارة كما قلنا فن ، وأنه فن عسير .

قال لأصحابه : دثوني على رجل أستعمله .

فسأله : ما شرطك فيه ؟

قال : « إذا كان في القوم وليس أميرهم ، كان كأنه أميرهم ، وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم » .

ان الذي يسأل هكذا ، لهو أقدر من الذي يجيبه بالصواب ، لأنه قطع له ثلثي الطريق السديد الى الجواب .

وكان ربما استشار العدو الذي لا يأمنه ، كما فعل في سماع رأى الهرمزان في أمر الحرب الفارسية ، لأنه بصير^(٣) يطلب نورا ، فاذا رأى النور استوى لديه أن يحمل له المصباح^(٤) عدو^(٥) أو صديق .

ومن اليسير ، اذا تعقبنا^(٦) مشاورات عمر ، أن نعلم أنه هو واضع دستور الشورى في الدولة الاسلامية ، وأن الشورى التي وضع دستورها هي شورى رأى الأصيل يستعين بكل أصيل من الآراء .

وقد وضع لقواده دستور^(٧) الحرب ، أو دستور الزحف من الجزيرة العربية إلى تخوم^(٨) أعدائها ، كأحسن ما يضعه رئيس دولة لقواده وأجناده .

فأرسل المدد إلى العراق وعليه أبو عبيد بن مسعود الثقفي ، وعلمه كيف يستشير مجلس الحرب الذي معه ، وكيف يتقدم في موضع الإقدام ويتريث في موضع التريث ، وأجمل له ذلك في قوله : « اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشر^(٩) كنهم في الأمر ، ولا تجتهد

(١) خبر الأمر يخبره من باب نصر : علمه
(٢) تخوم : تتبعنا
(٣) تخوم : حدود ، جمع تخم

مسرعا بل اتد ، فإنها الحرب لا يصلحها الا الرجل المكث (١) ، الذى يعرف الفرصة ، ولا يمنى أن أوثر سليطا (ابن قيس) الا شرعته الى الحرب . والسرعة الى الحرب - الا عن بيان - ضياع ... » ، وزاده تبصرة بالحيلة فقال له : « انك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية (٢) : تقدم على قوم تجرأوا على الشر فعلموه ، وتناسوا الخير فجهلوه . فانظر كيف تكون ، وأحرز (٣) لسانك ولا تفشين شرك ، فإن صاحب السر - ما يضبطه - متحصن لا يؤتى من وجه يكره ، وإذا لم يضبطه كان بمضيعة » .

فهى المشاورة ، ثم أناة في الاجتهاد ، الا أن تجب السرعة ، ببيان وثقة ، فليكن الاسراع . وهذه وصية عمر بن الخطاب الذى يظن به وثقة الاندفاع . وينسى من يظن به هذا الظن ، أنه قوى اندفاع وقوى ضابط في وقت واحد ، وعندما يقترن الاندفاع بضابط فهو مزية وليس بعيب .

وكتب إلى سعد بن أبى وقاص بعد اختياره لحرب فارس وفي كتابه نه قبس من هذا المعنى : « اذا انتهيت الى القادسية ، وهو منزل رغب خصيب دونه (٤) قناطر وأنهار ممتعة فتكون مسالحك (٥) على ألقابها (٦) ويكون الناس بين الحَجَر والمدَر (٧) ، على حافات الحجر ، وحافات المدر ، والجراع (٨) بينها ، ثم الزم مكانك ، فلا تبجره ، فانك اذا أحسوك أنفصتهم ، ورموك بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم ، وحدهم وجددهم (٩) - فان أتم صبرتم لعدوكم ، واحتبستم لقتاله ،

- (١) المكث : الذى لا يتملج في الامر
(٢) الجبرية : بفتح الجيم وسكون الباء مع تشديد الباء : الكبر مثل الجبروت
(٣) أحرز : الحرز المكان الحصين ، فالمراد حصن لسانك واضبطه ولا تثرثر
(٤) دونه : بينك وبينه
(٥) مسالحك : جميع مسلحة على وزن مصلحة ، جند المراقبة على الحدود
(٦) ألقابها : جمع لقب ، وههنا الطريق في الجبل
(٧) المدر : جمع مدرة وهى القرية والحضر ، وعكسها الوبر أى البادية ، والمراد ، بالحجر من أرض العرب الجبلية الوعرة
(٨) الجراع : جمع أجرع وهو الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل ولا تثبت
(٩) حدهم وجددهم : يقال « فلان له جد واحد » أى له بأس وقوة .

وقوله يتم الأمانة - رجوت أن تنتصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً ، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم . وإن تكن الأخرى (١) ، كان الحَجَرُ في أدياركم فانصرفتم من أدنى مَدْرَةٍ من أرضهم الى أدنى حَجَرٍ من أرضكم ، ثم كنتم عليهم أجراً وبها أعلم ، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل ، حتى يأتي الله بالفتح »

ثم كتب اليه يستوصفه المنازل التي نزل بها ويسأله : « أين بلغك جمعهم ؟ ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم ؟ فانه قد منعني من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمي بما هجمتم عليه ، والذي استقر عليه أمر عدوكم . فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفةً أنظر اليها ، واجعلني من أمركم على الجليّة » .

وكتب الى أبي عبيد وقد ترك حصار حلب يستضعف رأيه في ترك حصارها : « ... سرنى ما علمت من الفتح ، وعلمت من قتل من الشهداء وأما ما ذكرت من انصرافك عن قلعة حلب الى النواحي التي قربت من أنطاكية فهذا بس الرأى ... أترك رجلاً ملكنت دياره ومدينته ثم ترحل عنه وتسمع أهل النواحي والبلاد بأنك ما قدرت عليه ؟ .. فما هذا برأى .. يعلو ذكره بما صنع ، ويطمع من لم يطمع ، فترجع اليك الجيوش وتكاتب ملوكها . فايالك أن تبرح حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .. وقد أنفذت اليك كتابي هذا ومعه أهل مشارف (٢) اليمن ممن وهب نفسه لله ورسوله ، ورغب في الجهاد في سبيل الله ، وهم عرب وموال (٣) رجال وفرسان ، والمدد يأتيك متواليا ان شاء الله تعالى » .

فكان دستورهم في الحرب أن يضع الأسس العامة ويعهد في تنفيذها الى ذى خبرة وأمانة ، ولا يتخلى عن تبعته العظمى في مصائر الحرب كل التخلي اعتماداً على القائد وحده ، اذ ليس القائد بالمسئول الوحيد عن المصير .

(١) الأخرى : قصد الكفة أو الانهزام .
(٢) مشارف الأرض : اماليها (٢) الموالى : يطلق على المتقاء والنصران والحلفاء

فإذا رأى القائد رأيا وخالفه هو في رأيه أعانه بالمدد والمشورة على الأخذ بالرأى الذى دعاه اليه ، وأبطل معاذيرَه بتوضيح الأمر وإعانتته عليه ولقد كان الى جانب هذا السهر على الميادين عامةً لا يَغْلُ يد القائد فيما يحسن أن تنطلق فيه ، فإذا تجاوز الأمر سياسة الحرب العامة من فتح الميادين وفك الحصار وانتظار الهجوم فمن حق القائد عنده أن يختار لنفسه ولا ينتظر الرجوع إليه ، وأن يجرى في ادارة المعركة على الوجه الذى تمليه ضرورة الساعة ، ولهذا استشاره أبو عبيدة في دخول الدروب خلف العدو فكتب اليه : « أنت الشاهد وأنا الغائب ، والشاهد يرى مالا يرى الغائب ، وأنت بحضرة عدوك وعيونك يأتونك بالأخبار ، فن رأيت الدخول الى الدروب صوابا فابعث اليهم السرايا ، وادخل معهم بلادهم ، وضيّق عليهم مسالكهم ، وان طلبوا اليك الصلح فصالحهم .. » فهو يضع القواعد العامة للحملة كلها منذ بدايتها . وهو يختار القائد الضليع بتسيير تلك الحملة .

وهو بعد هذا لا يعفى نفسه من التبعة ، ولا يعفى القائد من واجب الرجوع اليه في المواقف الحاسمة ، ولا يَغْلُ يده فيما هو ادرى به وأقدر على الاختيار فيه ، ولا ينسى أن يعينه اذا خالفه في الرأى ليتفق الرأيان المختلفان . فاذا رجع القائد الى الحصار الذى أزمع أن يتركه رجع اليه وهو مؤمن بصواب ما يعمل ، ليستمد من الايمان بالصواب قوةً لن يشعر بها وهو يؤدى عملا يخالف الصواب في تقديره .

وهذه السياسة هي السياسة التى جرى عليها عمر في جميع بعوثه وغزواته وسراياه . وهى السياسة التى لا يستطيع حاكم أن يجرى على غيرها في حرب قديمة أو حديثة ، وقد جرى عليها فجعلته كاسب النصر كما يكسبه القائد في الميدان ، وجعلت بطل الفرس رستم المشهور في التسواريخ والأساطير يقول ان عمر هو هازمته في الميدان ، و « انه هو عمر الذى يكلّم الكلاب فيعلمهم العقل ؟ أكل عمر كبدى أحرق الله كبده ؟ .. »

وربما أخطأ القائد الذي يختاره فمسته التبعة من هذا الجانب لأنه هو المسئول عن اختياره . غير أنها لا تَمَسُّه من جانب إلا أَعْفَى منها من جانب آخر أو جوانب عدة ، كما حدث في وقعة الجسر التي قتل فيها قائده أبو عبيد المتقدم ذكره ثم انهزم فيها جيش المسلمين . فهو مسئول عن اختيار هذا القائد كما يسأل كل رئيس دولة في مثل ذلك ، ولكن أعذاره على التحقيق أكبر من أخطائه في كل مسألة من هذا القبيل ، وفي هذه المسألة بعينها كان اختياره لأبي عبيد انصافا له حجته الراجعة فيه ، لأنه كان أول من أجاب الدعوة الى القتال فلم ير من الانصاف أن يؤخر المتقدم ويقدم عليه المتخلفين ، وقد سوء الرجل اختياره اياه باتتصاراته الأولى التي رفعت شأنه بين القواد ، فلما أخطأ جاءه الخطأ من مخالفة عمر في وصاياه ، ومنها وجوب التريث والحذر من عبور الأنهار والجسور ، ولم يكن على عمر لوم في تقصير عن التنبيه والتحذير .

وقبل أن يضع دستورا للولاة وضع دستورا لنفسه قيومه أن الحكم محنة (١) للحاكم ومحنة للمحكومين ، و « أنه لا يصلح الا بشدة لاجبرية (٢) فيها ، ولين لا وهن فيه (٣) » ... وأن الخليفة مسئول عن ولاته واحدا واحدا في كل كبيرة وصغيرة ، ولا يعفيه من اللوم أنه أحسن الاختيار . قال يوما لمن حوله : رأيتم اذا استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل ، أكنت قضيت ماعلى ؟ قالوا : نعم . قال : لا ، حتى أنظر في عمله أعمل بما أمرته أم لا ؟ .

وعهوده على نفسه هي خير العهود التي تؤخذ على ولاة الأمر وأبينها للحدود القائمة بين الراعى والرعية ، وخير ما فيها أنه كان يحث الناس على الاستغناء عن التحاكم الى الحكام خلافا لأصحاب الأمر الذين يودون لو فرضوا لأنفسهم حكما في كل شيء . فكان يقول لهم : « أعطوا الحق »

(١) محنة : اختيار ، ومحنة من باب قطع وامتنعه اختبره ، والاسم المحنة ، ولدا سميت المصائب بالحن لأنها اختبار للانسان
(٢) جبرية : جبروت وطنيان
(٣) وهن : ضعف

من أنفسكم ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا الي .. »
وجَمَعَ صلاح الأمر (١) في ثلاث : « أداء الأمانة ، والأخذ بالقوة ،
والحكم بما أنزل الله » ، وصلاح المال في ثلاث : « أن يؤخذ من حق ،
ويتعطى في حق ، ويمنع من باطل » .

وعاهد الناس فقال : « لكم على ألا أجتني شيئاً من خراجكم ولا
ما أفاء الله عليكم إلا من وجهه ، ولكم على إذا وقع في يدي ألا يخرج مني
إلا في حقه ، ولكم على أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله وأسدت
ثغوركم (٢) ، ولكم على ألا ألقىكم في المهالك ولا أجركم - أي أجبسكم
- في ثغوركم ، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم .
فاتقوا الله عباد الله ، وأعينوني على أنفسكم بكفها عني ، وأعينوني على
نفسى بالأمر المعروف والنهي عن المنكر واحضاري النصيحة فيما ولائني
الله من أمركم » .

ومن أوائل عهوده في بيان الحق الذي يرشح الحاكم لولاية الحكم :
« أيها الناس : اني قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم ،
وأقواكم عليكم ، وأشدكم استضلاعاً بما ينوب من مهم أموركم
ما وليت ذلك منكم » .

فأحق الناس بالحكم أقدرهم على البر . والحزم والنهوض بالأعباء ،
وليس له في غير ذلك حق يرشحه للحكومة .

ومن أوائل خطبه بعد توليه الخلافة : « ان الله ابتلاكم بي ، وابتلاني
بكم ، وأبقاني فيكم بعد صاحبي » ، فلا والله لا يحضرنى شيء من أمركم
فيليه أحد دوني ، ولا يتغيب عني قالو (٣) فيه عن أهل الصدق والأمانة ،
ولئن أحسنوا لأحسنن إليهم ، ولئن أساءوا لأنكئن بهم » .
فهو يعاهدهم أن يلي الأمر بنفسه في كل ماحضره ، وألا يعهد فيه الي

(١) أي امر الدولة (٢) الثغور : جمع ثغر وهو من البلاد الموضع الذي يخاف منه هجوم العدو ، ويقصد بسد الثغور : الدفاع
(٣) قالو : ألا يالو : أي قصر يقصر من باب عدا . قالو ، أي انصر ، ومنه : لا يلوك نصحا أي لا أقصر في نصحك ولا أدخر جهداً ليه

غيره الا اذا غاب عنه ، ثم لا يكون وكلاؤه فيه الا من أهل الصدق والأمانة ، ثم هو لا يدعهم وشأنهم بعد ذلك بل يراقبهم ويتبع أعمالهم ، فيحسن الى من أحسن وينكّل بمن أساء .
وقد كان يقول ويعنى ما يقول ويعمل بما يقول .

وصارح القوم فيما لا يحصى من الخطب والاحاديث أن له عليهم حق الطاعة فيما أمر الله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وأن لهم عليه حق النصيحة ولو آذوه فيها . ومن ذلك الرواية المشهورة التي سأل الناس فيها أن يدلوه على عوجّه فقال له أحدهم : « والله لو علمنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » ، فحمّد الله أن جعل في المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه .

ولم يكن يبيع من مال المسلمين أجراً لعمله إلا ما يقيم آودّه (١) وأودّ أهله عند الحاجة اليه ، فان رزقه الله ما يغنيه عن بيت المال كف يده عنه : « ... ألا وإنى أنزلت نفسى من مال الله ، بمنزلة ولّى اليتيم ، ان استغنيت استغنيت ، وان افتقرت أكلت بالمعروف ، تَقَرُّشَمَ (٢) البهيمة الأعراية : القضم لا الخضم » ، أى كما تأكل ماشية البادية قضمًا بأطراف أسنانها لا مضغًا وطحنًا بأضراسها .

ولما سئل عما يحلّ للخليفة من مال الله قال : « انه لا يحلّ للعمر من مال الله الا حلّتين : حلة للشتاء وحلة للصيف ، وما أحج به وأعثر (٣) ، وقوتى وقوت أهلى كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم . ثم أنا بعد رجل من المسلمين » .

وقد كان أسخى من ذلك فى تقديره لأرزاق الولاة والعمال ، فقد مرّ لعمار بن ياسر حين ولاه الكوفة ستمائة درهم فى الشهر له ولمساعديه ، يتراد عليها عطاؤه الذى يوزّع عليه كما توزّع الأعطية على أمثاله :

(١) أود : أود يارب أعوج ، فالأود العوج ، والمراد ما يكفى حاجاته الضرورية
(٢) قرم : أى أكل أكلاً ضميماً ، والمراد أكل أخف أكل من أحسن طعام
(٣) الحج معروف ، والعمرة : الحج الأصغر ، وهى مأخوذة من الاعتبار أى الزيادة .

ونصفَ شاةٍ ونصفَ جَرَبٍ (١) من الدقيق .
وقدّر لعبد الله بن مسعود مائةَ درهمٍ وربيع شاةٍ لتعليمه الناسَ في الكوفة وقيامه على بيت المال فيها ، ولعثمانَ بن حنيفة مائة وخمسين درهما وربيع شاةٍ في اليوم ، مع عطاءه السنوي وهو خمسة آلاف درهم ... وهكذا على حسب الولايات والنفقات .
وكان يحنّظر على الولاية مظاهر الخيلاء والأبهة التي تبعد ما بينهم وبين الرعية ، ولكنه ينظر في أعمارهم فيقبلها أو يعضي عنها حينما توقّف صلاحُ الولاية على ذلك .

قدم الى الشام راكباً على حمار فتلقاه عاملة معاوية بن أبي سفيان في موكب عظيم ، فلما رآه معاوية نزل وسلم عليه بالخلافة فمضى في سبيله ولم يرد عليه سلامه ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : أتعبت الرجل يا أمير المؤمنين ، فلو كلمته ! فالتفت اذ ذاك الى معاوية وسأله : إنك نصاحبُ الموكب الذي أرى ؟

قال : نعم .

قال : مع شدة احتجابك ووقوف ذوى الحاجات ببابك ؟

قال : نعم .

قال : ولِمَ ويَحْكُك !

قال : لأننا ببلاد كثر فيها جواسيس العدو ، فان لم تتخذ العدة والعدد استخف بنا وهجم علينا ، وأما الحجاب فانتا نخاف من البذلة (٢) جرأة الرعيّة ، وأنا بعدُ عاملُك ، فان استنقصتني نقصت ، وان استزدتني زدت ، وان استوقفتني وقفت !
فقال عمر : ما سألتك عن شيء الا خرجت منه . ان كنت صادقاً فانه رأى لييب ، وان كنت كاذباً فانها خدعة أريب (٣) ، لا أمرك ولا أنهاك »

(١) الجرب : مكبال كان يستخدم ، يمكن ان يقدر بما يعادل ٣٦٠ وملا
(٢) البذلة : الابتذال وترك الكلفة

(٣) أريب : ذكي

أما دستور الولاية عنده فأساسه أن الولاية تميز بالواجب والكفاءة وليست تمييزاً بالوجاهة والاستعلاء ، فكان يقول للوالى : « افتحْ نهم بابك ، وباشرْ أمورهم بنفسك ، فانما أنت رجل منهم غيرَ أن الله جعلك أثقلهم حملاً » .

وشغله كلُّ الشغل ، أن تخضع الرعية لواليتها ، رغبةً في حكمه ، واطمئناناً الى عدله ، فكان يقول للوالى : « اعتبر منزلتك عند الله بمنزلتك من الناس » ، ويقول للرعية : « انى لم أبعث اليكم الولاية ليضربوا أبشاركم (١) ، يأخذوا أموالكم ، ولكن ليعلموكم ويخدموكم » . وتستوى عنده رغبة الرعية من المسلمين ورغبة الرعية من غيرهم . فلما رأى أقواماً ذميين ينقضون العهد ويشورون على الدولة طلب من صلحاء البصرة وفداً فيهم الأخنف بن قيس وهو مصدق عنده ، فسأله : « انك عندى مصدق ، وقد رأيتك رجلاً فأخبرنى : » الْمَظْلَمَةُ (٢) نفر أهل الذمّة أم لغير ذلك ؟ » .

فقال الأخنف : لا . بل لغير مظلمة ، والناس على ماتجب » .
فهدأ بآله وقال : « فنعم (٣) اذّا ... انصرفوا الى رجالكم » .
وربما ذهب فى إرضاء الرعية مذهبا لم يحلم به القلاة من المطالبين بحقوق الشعوب فى هذه العصور .

فكان من قوّاده وولاته سعد بن أبى وقاص قائدُه المظفر فى حروب فارس ، وقريبُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والرجل الذى جعله عمر واحداً من ستة يستشارون بعده فى أمر الخلافة ، فثارت به طائفة من أتباعه وشكته الى عمر وجيوش الفرس تتجمع للغزو والتأمر . فلم يشغله ذلك عن تحرى الأمر من مصادره ، وإيفاد مَنْ يبحث عن حقيقة الشكوى بين أهلها . فبعث بوكيله على العمال محمد بن مسلمة يسأل عن سعدٍ وسيرته فى الرعية . وكلما سأل عنه جماعة أثنوا عليه ، إلا

(١) أبشاركم : جلودكم .
(٢) المظلمة : يفتح الميم وكسر اللام : اسم لما تطلبه عند الظالم كالظلمة .
(٣) اى : الاخير الذن .

من شكوه فقد أحجم فريق منهم لم يمدحوه ولم يذموه ، وقال فريق منهم : « انه لا يَقسِمُ بالسوية ، ولا يعدل في القضية ، ولا يغزو في السريّة » .

فعاد محمد بن مسلمة الى المدينة وسعد معه ، وأعاد عرس سؤاله فلم تثبت له من أمره ريبه ، الا أنه اتقى الفتنة والخطوب منذرة ، فعزله وقال لشاكيه : « إن الدليل على ما عندكم من الشر فهو ضحككم لهذا الأمر ، وقد استعد لكم من استعد ، وإيتم الله لا يمنعي ذلك من النظر فيما لديكم وان نزل بكم » ، وقال لسعد يومئذ مبرئاً له من تهمة خصومه : « هكذا الظن بك يا أبا اسحق ! ولولا الاحتياط لكان سييلهم بيتاً » . ثم أبى أن يفارق الدنيا وفي ذمته شهادة لسعد يعلنها للأهل المسلمين ، فلما حضرته الوفاة وسأله أن يستخلف أبى أن يخلف أحداً من أهله ، وسمي علياً وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعداً « لأنهم نفر » توفي رسول الله وهو عنهم راض . فأيتهم استخلف فهو الخليفة ... ثم قال : فان أصابت سعداً فذاك ، والا فأيتهم استخلف فليستعين به ، فاني لم أعزله عن عجز ولا خيانة .

وهذا مثل من أمثلة الوفاء بجميع الحقوق ، والرعاية لجميع الذمم من حاكمين ومحكومين .

ولا يبعد أن يقع الغبن على بعض الولاة الكفاة من فرط العناية بشكايات الرعية ، الا أن عرس في حزمه وعدله لم يكن يفوته مفرق الصواب بين الأمرين . فغبن والٍ أو قائد أهون من غبن أمة أو جيش ... ومن أقواله في ذلك « هان شيء » أصلح به قوماً أن أبدلهم أميراً مكان أمير .

بل ربما جرى منه حكم العزل على الولاة الكفاة لغير سبب من أسباب الشكاية أو القصاص ، وانما هو سبب من الأسباب التي ترجع الى سلامة الدولة أو مانسميه في العصور الحديثة بالسياسة العليا . وهذه أسباب

لا يصح أن يغفل عنها ولاية الأمر في أيام تأسيس الدول وتجربة النظم الحديثة ، وأولها عصمة الدولة من فتنة الولاة المقتدرين المحبوبين .
فربما كان الوالى المقتدر المحبوب أخطر على الدولة الناشئة في تأسيسها من الوالى العاجز البغيض ، اذا لم يتعهده نظر ثاقب وحساب عسير .

فقد تزين له نفسه ، أو تزين له رعيته ، أن يستقل بالأمر وينتحلّ لذلك ماشاء من المعاذير .. فان فاته الاستقلال ورئيسه قوى مهيب^(١) لم يفتنه بعد زوال ذلك الرئيس ولو جاء بعده من يضارعه في القوة والمهابة ، لأن الفترة بين زوال عهد واستقرار عهد آخر تؤذّن بمثل هذا التقلقل ، وتفتح الثغرات لمن يريد أن يكلج^(٢) منها بعد طول تربص واستعداد .

ولم يكن عمر بن الخطاب يعرف تاريخ الاسكندر المقدونى وتواريخ العتاة من قياصرة الرومان ، ولا كان الغيب قد انكشف له فرأى ماتلاه من الأمثلة في دول المغول والعثمانيين ودول المسلمين من مشرقين ومغربين ، ولكنه لو استقصى أخبارهم جميعا وعرف فتنة الولاة بعد زوالهم لما ندم لحظة على عزل الذين عزلهم وهو يقول لهم : انما عزلتكم لكيلا أحمل على الناس فضل عقولكم ، أو لكيلا تفتنوا بالناس كما افتتن الناس بكم ، ولكان له سبب آخر وجيه بالغ في الواجهة يدعوه الى تغليب رغبات الرعية على مكانة الولاة ، وهو عصمة الدولة من أولئك الولاة أن يطول بهم العهد وتتم لهم القدرة ويحوطهم الحب والولاء فلا يبقى بينهم وبين الانتفاض^(٣) الا الفرصة السانحة ، وهى أقرب شيء سنوحا في ابان التأسيس والانتقال .

وما لم يكن عزل العمال لسبب من أسباب السياسة العليا التى من هذا القبيل فلا جزاء إلا بقسطاس دقيق محيط ولا سيما في الشؤون المالية ، لأنه يعتمد في محاسبتهم على وسائل متفرقة يستدرك بعضها نقص بعض ، فلا تكاد تخفى عليه خافية مما يريد الوقوف عليه .

(١) بلج : مضارع ولج أى دخل .

(٢) المراد : الخروج على الدولة والاستقلال بالولاية .

فمن هذه الوسائل أنه كان يحصى أموالهم قبل الولاية ليحاسبهم بها على مازادوه بعد الولاية مما لا يدخل في عداد الزيادة المعقولة ، ومن تملّك منهم بالتجارة لم يقبل منه دعواه لأنه كان يقول لهم : انما بعثناكم ولايةً ولم نبعثكم تجارا .

ومنها أنه كان يرصد لهم الرقباء والعيون من حولهم ليلغوه ماطر وما خفى من أمرهم ، حتى كان الوالى من كبار الولاة وصغارهم يخشى من أقرب الناس اليه أن يرفع نبأه الى الخليفة .

ومنها أنه كان يندب لهم وكلاء خاصا يجمع شكايات الشاكين منهم ويتولى التحقيق والمراجعة فيها ، ليستوفى البحث فيما ينقله الرقباء والعيون .

ومنها أنه كان يأمر الولاة والعمال أن يدخلوا بلادهم نهارا اذا قفلوا (١) اليها من ولاياتهم ، ليظهر معهم ماحملوه في عودتهم ، ويتصلّ نبيؤهم بالحراس والأرصاد الذين يقيمهم على ملاقى الطريق .

ومنها أنه كان يستقدمهم في كل موسم من مواسم الحج ليحاسبهم ويسمع مايقولون وما يقال فيهم ، وعليهم شهود ممن يشاء أن يحضر الموسم من أهل البلاد . ونوى في أواخر أيامه أن يستكمل الرقابة بالسير في البلاد « فيقيم شهرين شهرين في الشام ومصر والبحرين والكوفة والبصرة وغيرها ، فانه ليعلم أن » للناس حوائج تقطع عنه ، أما هم فلا يصلون اليه ، وأما عمالهم فلا يرفعونها اليه » .

وكان لا يكتفى بوسائله تلك اذا استراب ، فيعمد الى الحيلة للكشف عن الخبايا التى تريبه . ومن ذلك أنه سمع بعودة أبى سفيان من عند ولده معاوية والى الشام ، فوقع في نفسه أن ولده قد زوّده في عودته بمال . وجاءه أبو سفيان مسلماً فقال له : أجزيّنا (٢) يا أبا سفيان ! قال : ما أصبنا شيئا فنجيزك ! فمد يده الى خاتم في يده فأخذه منه وبشه

(١) قفلوا : رجعوا .

(٢) اجزينا : المقصود اعطانا .

الى هندٍ زوجها ، وأمر الرسول أن يقولَ لها باسم زوجها : أنظري الخرجين اللذين جئتَ بهما فابعثيهما . فما لبث أن عاد بخرجين فيهما عشرة آلاف درهم ، فطرحهما عمر في بيت المال .

وكانت سنته إذا ثبتت على الوالى شبهة التصرف في بيت مال المسلمين أن يصادرَ المالَ الذى ظفر به أو يقاسم الوالىَ فيما أربى (١) على كسبه المعقول ، فيترك له النصف ويضم النصف إلى بيت المال ، وهذا عدا ما يجزئ به من عزل أو عقاب .

أما حساب الشكايات من المظالم فكانت سنته فيه التحقيقَ ثم الجزاءَ على شريعة المساواة بين أكبر الولاة وأصغر الرعية بغير تفرقة بين السيئة وجزائها . فمن ضربَ ضرباً ، ومن غصبَ رذاه ماغصب ! ومن اعتدى قبول بمثل اعتدائه وعليه زيادة التأديب .

وقد يأخذ الوالى أحياناً بورز (٢) ولده أو ذوى قرابته اذا وقع في نفسه أنهم يستطيّلون على الناس بسلطان الولاية ولا ينهاهم الوالى المسئول عنها .

جاءه مصرى فشكا اليه واليه عمرو بن العاص ، وزعم أن الوالى أجرى الخيل فأقبلت فرسُ المصرى فحسبها محمد بن عمرو فرسه وصاح : فرسى ورب الكعبة ! ثم اقتربت وعرفها صاحبها فغضب محمد بن عمرو ووثب على الرجل يضربه بالسوط ويقول له : خذها وأنا ابن الأكرمين . وبلغ ذلك أباه فخشى أن يشكوه المصرى فحبسه زمناً ، ومازال محبوساً حتى أفلت وقدم الى الخليفة لابلأغه شكواه .

قال أنس بن مالك راوى القصة : فوالله ما زاد عمر على أن قال له اجلس ... ومضت فترة اذا به فى خلالها قد استقدم عمرواً وابنه من مصر فقداً ومثلاً (٣) فى مجلس القصاص . فنادى عمر : أين المصرى ؟ دونك (٤) الدرّة فاضرب بها ابن الأكرمين .

(١) اربى : زاد (٢) الوزر : اللنب
(٣) مثلاً : مثل بين يديه انتصب قائماً ، وبابه دخل
(٤) دونك الدرّة : اسم فعل بمعنى خد .

« فضربه حتى أنخنه (١) ونحسن نشتهى أن يضربه ، فلم يزع حتى أحببنا أن يزع من كثرة ماضيه ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين ! ثم قال : أجلبها (٢) على صلنعة عمرو ! فوالله ماضيك ابنه الا بفضل سلطانه ... قال عمرو فزعا : يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتقيت ، وقال المصري معتذراً : يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربى .. فقال عمر : أما والله لو ضربته ماحلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعته . والتفت الى عمرو مغضباً يقول له تلك القولة الخالدة التى ما قالها حاكم قبله : « أيا عمرو ! متى تعبدتم (٣) الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ » .

ومن هذا العدل فى شئون الولاية نستطيع أن نفهم دستورَه فى شئون القضاء ، فلن يكون هذا الدستور الا دستور العدل المحكم فى الجزاء والفصل بين الحقوق . الا أننا نعتقد أن وصاياه فى القضاء أحكم وأصلح لجميع الأزمنة من جميع وصاياه ، فلا تعقيب بعدها لمعقب فى زمانه أو فى زمانٍ يليه ، مهما تختلف الأقوام والأوقات .

أنشأ وظائف القضاء وتخبر لها العدول (٤) الأكفاء . ولم تكن به من حاجة هنا الى سنن الشريعة التى يحكمون بها فانها ماثلة فى الكتاب والسنة ، ولكنه كان فى حاجة الى تعليم القضاة كيف يتصرفون حين يلتبس عليهم الأمر ، فأحسن التعليم .

كان يكتب لأحدهم : « اذا جاءك شيء فى كتاب الله فاقض به ولا يلقنك عنه الرجال ، فان جاءك أمر ليس فى كتاب الله فانظر سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بها ، فان جاءك أمر ليس فى كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به ،

(١) الخنن : الضمف وأوجه وأوجه

(٢) أجلبها : استميدتم .

(٣) العدول : جميع عدل ، وهو العدل

(٤) أجلبها : ادما

فإن جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله ، ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاخترْ أى الأمرين شئت : ان شئت أن تعجده رأيك وتقدم فتقدم ، وان شئت أن تأخر فتأخر (١) . ولا أرى التأخير الا خيراً لك .

وضرب لهم أصلح الأمثلة باجتهاده واستفتائه ، فلم يقطع يد السارق في عام المجاعة رعاية للزمن ، ولم يقطع يد الغلام الذى سرق من سيده رعاية لسنه أو للعلاقة بين السارق والمسروق منه ، واشتركت امرأة وصاحبها في قتل رجل فتخرج من قتل الاثنين بواحد حتى أفتاه على رضى الله عنه بأنهما مستحقان للقتل كما يستحق اللصوص المتعددون أن يُقامَ عليهم الحد إذا سرقوا لحماً من بعير واحد ، فأخذ بفتواه .



ومن وصاياه للقاضى : « آسِر (٢) بين الناس في مجلسك ووجهك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك (٣) ولا يئأسَ ضعيف من عدلك ، والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين الا صلحاً حراماً وحللاً وأحل حراماً ، ولا يمنعك قضاء قضيتته بالأمس ثم راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه ، فان الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التماذى (٤) في الباطل . الفهم الفهم عندما يتلجلج (٥) في صدرك مالم يبلتغك في كتاب الله ولا سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، واعرف الأمثال والأشباه ، وقس الأمور عند ذلك ثم أعمد (٦) الى أحبها الى الله وأشبهها بالحق فيما ترى ، واجعل للمدعى حقاً غائباً أو بينة أمدأ ينتهى اليه ، فان أحضر بينته أخذت له بحقته ، والا وجهت عليه القضاء ، فان ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ في العذر ... المسلمون عدول (٧) بعضهم و بعض

(١) تقدم : تتقدم و « تأخر » : اى تتأخر

(٢) اس : سو

(٣) حيفك : ظلمك

(٤) التماذى : الاستمرار والامرار

(٥) يتلجلج : يتردد ويتحجر

(٦) اعمد : اقصد

(٧) عدول : تقبل شهادتهم

الا مجلوداً في حديد أو مجرباً عليه شهادة زور ، أو ظنينا (١) في ولاء أو قرابة ، فإن الله قد تولى منكم السرائر وكرأ (٢) عنكم بالشبهات . ثم اياك والقلق والضجر والتأذى بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ، ويحسن بها الذخر ، فإنه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه يكفيه الله ما بينه وبين الناس .

ومن وصاياه لمن يلثون الحكم : الزم خمس خصال يسلم لك دينك وتأخذ فيه بأفضل حظك : اذا تقدم اليك الخصمان فعليك بالبينّة العادلة أو اليمين القاطعة ، وأدّن الضعيف حتى يشتدّ قلبه وينبسط لسائته ، وتعهدّ الغريب فإنك ان لم تعهده ترك حقّه ورجع الى أهله وانما ضيع حقّه من لم يترفق به ، وآس بين الناس في لحظك وطرفك ، وعليك بالصلح بين الناس مالم يستبين لك فصل القضاء .

تلك نماذج متفرقة من وصاياه للقضاة وولاة الأحكام ، وهي فيما نراه أحكم وصاياه ، وأقربها أن يتبعها سواه .

ولذلك سبب لا يعسر تعليقه . فقد كان عمر في الجاهلية حكماً من قبيلة محكمين ، أو سفيرا يسعى بين الناس بالصلح من قبيلة سفراء ، فهو في هذه الصناعة عريق .

إلا أن المرء قد يجلس للحكم بين الناس كما جلس عمر ولا يحسن الوصية كما أحسنها . وانما بلاغ حسن الوصية أن تجمع الخصلتين اللتين اجتمعتا في وصاياه لقضاة . فما من أحد يستطيع أن يوصي قاضياً بخير مما أوصى ، وما من عتقة قضائية تأتي من قبل القضاء أو من قبل المتقاضين إلا وهي ملحوظة في كلامه ، وهاتان هما الخصلتان الباديتان في دستور القضاء كما أملاه .

(١) ظنينا : متهما
(٢) درا : منع العقوبة

ولا بد أن يكلّفَ النظرُ في سياسته للولاية وسياسته للقضاء أنه كان يأخذ بالواجب حيث وجب ، وإن اختلف الواجبان .
ففى الولاية كان يتحرى البواطن ويستمع في تحريكها ولا يكتفى من الناس بالظواهر .

وفى القضاء وما شابه القضاء كان يكتفى بالظواهر حتى تنقضى البينة^(١) القاطعة ، وكان يعلن هذه الخطئة على المنبر فيقول : « أظهروا لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر ، فإن من أظهر لنا قبيحا وزعم أن سريره حسنة لم نصدقه ، ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسنا » ، أو يقول :

« إنما كنا نعرفكم إذ الوحي ينزل ، وإذ النبى صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ، فقد رفع الوحي ، وذهب النبى صلى الله عليه وسلم ، فإنما أعرّفكم بما أقول لكم . ألا فمن أظهر لنا خيرا ظننا به خيرا وأثنينا عليه ، ومن أظهر لنا شرا ظننا به شرا وأبغضناه » .

بل كان له فى الأخلاق الاجتماعية مذهب ثالث يشبه مذهبَه فى القضاء ، فكان يكره أن يكشف المرء من أخيه ما يستره عنه ، وينهى أن تظن بكلمة شرا وأنت تجد لها فى الخير محملا .
وهذه فى الظاهر تقاض ، وفى الحقيقة واجبات متعددة كل منها فى موضع لازم .

فالعلم بخبايا الحكومة واجب على كل ولى مسئول لا تنصلح الأحوال بغيره ، وفى الغفلة عنه مضرة "مُحَقِّقَة" لجميع الناس .

والأخذ بالبينة دون الظاهر فى شئون القضاء واجب لا محيص عنه لضمان السلامة ومنع الجور ، وهو فى أحد طرفيه لا يخلو من الحذر الشديد من الطبيعة البشرية ، إذ فيه خشية من غواية الهوى أن تنطلق بالقضاة فى الحكم بغير برهان .

وفى الأخلاق الاجتماعية لا يؤمن التقاطع بين الأصدقاء إذا جرت

(١) البينة : الدليل والبرهان

العلاقة بينهم على التجسس والخدعة ، ولا رعاية للمودة ما لم تكن رعاية للحرمانات ، ومنها الأسرار .

والترفة بين الواجبات المختلفة هي دليل البصيرة في عرفان كل واجب منها ، وأنها تصدّر عن رأى أصيل ولا تصدر عن تسخير العرف واملاء التقليد والمحاكاة .

وأنشئت في عهد عُمرَ دواوين أخرى غير ديوان القضاء ودواوين الإحصاء والخراج والمحاسبه التي لم تكن من المؤسسات القائمة قبل عهده . فأنشأ البريد وبيت المال ومرابط الثغور ومصنع السكة لضرب النقود ودار الحبس للعقاب . ووكّل من عظم الدواوين إلى أبناء البلاد يزاولونها بلغاتهم لأنها ليست من أسرار الدولة ، وليس من الميسور أن ينصرف إليها فتیان العرب عما هو أولى بهم وهو فرائض الدفاع والجهاد فلو وجد منهم من يَفى (١) لتلك الأعمال عدداً لكانت خسارة الدولة في قيامهم بها أعظم من ربحها ، ولكنهم غير موجودين ولا عملهم فيها باللازم اللازم للمصلحة الكبرى ، وقد يكون عمل الفارسي في مصلحة فارس والسوري في مصلحة سورية والمصري في مصلحة مصر أخرى (٢) أن يَعَصِمَهُمْ إن كان بهم عاصم ، وإلا فلا تشريب (٣) .

ووضع عُمرُ نظاماً لتحصيل الجزية وتصرف في وضعها على حسب الأمم والبلاد . فأعفى التغلبيّين بالشام من الجزية وقرض عليهم بديلاً عنها ضِعْفَ المسلم ، لأنهم أنفوا أن يؤدوها وأزمعوا اللحاق بأرض الروم .

وكان له نظامٌ اقتصادي يوافق مصلحة الدولة في عهده ، فكان يحضّ على التجارة ويوصي القرشيين ألا يغلبهم أحد عليها لأنها ثلثُ الملك . ولكنه أبقى الأرض لأبنائها في البلاد المفتوحة ونهى المسلمين أن يملكوها على أن يكون لكل منهم عطاؤه من بيت المال كعطاء الجند

(١) أخرى : اجدر

(١) يفي : يكتفى ويصلح
(٢) تشريب : لوم وذنب

في الجيش القائم . وإذا أسلم أحدُ الذميين أخذتُ منه أرضه ووزعت بين أهل بلده وفترض له العطاء . وكان غرضه من ذلك أن تبقى لأهل البلاد موارد ثرواتهم ، وأن يعتصمَ (١) الجندُ الإسلامي من فتن النزاع على الأرض والعقار ، ومن فتن الدعة (٢) والاشتغال بالثراء والخطام وربما أغضى (٣) عن كثير في سبيل الإعانة على تعمير البلاد بأهلها . فصفح عن أهل السواد « العراق » ليأمنوا البقاء فيه ، مع أنهم حشِنُوا بالعهد وعاونوا الفرس على المسلمين في أثناء القتال .

ويلوح من كلامه في أخريات أيامه أنه كان على نية النظر في تصحيح النظام الاقتصادي وعلاج مشكلة الفقر والغنى على نحو غير الذي وجدها عليه ، فقال : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت (٤) لأخذتُ فضول (٥) أموال الأغنياء فقسمتها على الفقراء »

ولم يردْ في كلامه تفصيل لهذه النية ، ولكن الذي نعلمه من آرائه في هذا الصدد كافٍ لاستخلاص ما كان ينويه . فعمر على حُبِّه للمساواة بين الناس كان يفرق أبداً (٦) بين المساواة في الآداب النفسية والمساواة في الشئْن الاجتماعي . فكتب إلى أبي موسى الأشعري : « بلغني أنك تأذَنُ للناس جَمًّا غفيرا (٧) فإذا جاءك كتابي هذا فأذَن لأهل الشرف وأهل القرآن والتقوى والدين ، فإذا أخذوا مجالسهم فأذَن للعامة » ، ولكنه لما رأى الخدَم وقوفاً لا يأكلون مع ساداتهم في مكة غضب وقال لساداتهم مؤنباً : ما لقوم يستأثرون على خدامهم ؟ ثم دعا بالخدَم فأكَلوا مع السادة ، في جفانٍ واحدة .

فالمساواة في أدب النفس لم تكن عند عمر مما ينفي التفاضل بالدرجات ، ولم يكن يرضيه كذلك أن يعتمد الفقراء على الصدقات والعطايا

(١) الدعة : الخفض والرفامية

(١) يعتصم : يمتنع ويحصن

(١) أغضى : أغضى عينه وصفح

(٤) المراد لو رجعت من عمري ما فلت .

(٥) فضول : ما زاد من الحاجة ، جمع فضل .

(٦) أبداً : دائماً

(٧) جَمًّا غفيرا : جميعاً ، الشريف مع الوضيع في كثرة

ويُعرضوا عن العمل واتخاذ المهنة ، فكان يقول لهم في خطبه : يا معشر الفقراء ، ارفعوا رءوسكم فقد وضح الطريق ، فاستبِقُوا الخيرات ، ولا تكونوا عِيَالاً (١) على المسلمين . وكان يوصي الفقراء والأغنياء معاً « أن يتعلموا المهنة ، فإنه يوشك أن يحتاج أحدُهم إلى مهنة وإن كان من الأغنياء » .

فيسوغ لنا أن نفهم من هذا جميعه معنى ما اتواه من أخذ فضول العنى وتقسيمه بين ذوى الحاجة ، وهو تحصيل بعض الضرائب من الشروعات الفاضلة وتقسيمها في وجوه البر والإصلاح .

على أن عمرَ يصحُّ أن يُسمَّى مؤسساً لديوان الوقف الخيري على الوجه الذي نعهده الآن ، فقد أنشأ بيت الدقيق لإغاثة الجياع الذين لا يجدون الطعام ، وأصاب قبل خلافته أرضاً بخير فاستشار النبيَّ عليه السلام فيها فاستحسن له أن يحبس أصلها ويتصدق بربعها ، فجعلها عمر صدقةً لا تباع ولا توهب ولا تورث ، ويُنْفَقُ منها على الفقراء والغزاة وغيرهم ، ولا جناح (٢) على من وليها أن يأكل بالمعروف ، ويُطْعِمَ صديقا فقيراً منها .



وَعَرَضَتْ لِعمر مسائل التعمير على حسب الحاجة اليها في وقته فلم تَجِدْهَ مسألةً منها دون ما تحتاج إليه من إصابة الرأي وحسن الروية . فكانت نصائحه في تخطيط المدن واختيار مواقعها من أنفع النصائح ، وكانت دواعيه الى بنائها من أشرف الدواعي وأليقها بالأمر .

شاهد في الجند هزلاً وتغير ألوان فسأل قائدهم سعداً : ما الذي غيَّر ألوان العرب ولحومهم ؟ فأجابه : انها وخومة (٣) المدائن ودجلة ، فكتب اليه : « ان العرب لا يوافقها الا ما وافق إبلها من البلدان ، فابعث سليمان وحذيفة فليرتادا (٤) منزلاً برياً بحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحر

(١) لا تكونوا عيالا على المسلمين : لا تعتمدوا على أن يعولوك

(٢) لا جناح : لا أثم ولا حرج ولا ذنب .

(٣) وخومة : فساد الجو والبيئة

(٤) فليرتادا : فليختارا بعد البحث

ولا جسر » ، وأمر أن تبتلع مناهج^(١) المدينة أربعين ذراعا وما يليها ثلاثين ذراعا وما بين ذلك عشرين ، وألا تنقص الأزقة عن سبع أذرع ليس دونها شيء ، وألا يرتفع بناء الدور .

فبنيت الكوفة على هذا التخطيط .

وعلم أن الجند يشكثون الشتاء ويعوزهم الملجأ الذي يسكنون اليه بعد الغزو في حدود فارس ، فكتب الى عتبة بن غزوان أن « ارتد لهم منزلا قريبا من المراعى والماء » ، ووصف له ما يلتزم من مواقعه وخططه ، فبنيت البصرة عند ملتقى النهرين .

وهو الذى أشار على عمرو بن العاص أن يحفر خليجا بين النيل وبحر القلزم لاتصال المرافق بين مصر وعاصمة الدولة ، وضرب له الموعد حولا يفرغ فيه من حفره واعداده لمسير السفن فيه ، فساقه من جانب القسطنطين الى القلزم^(٢) ، ولم يأت الحول حتى جرت فيه السفن ، وسمى خليج أمير المؤمنين ، ولم يزل مفتوحا حتى ضيغته الولاة وغفل عنه الخلفاء .



فسياسته التعميرية وافية بالغرض منها لعصره ، وقد يلاحظ عليها أبناء العصر الحاضر شيئا لا يوافقهم كالحج من ارتفاع الدور والزهد في تشييد القصور . أما هو فالوجه الذى توخاه في سياسة التعمير أن يحصى الدولة في نشأتها من الترف والبذخ ، وأن يحول بين الجند وبين الاستئمان^(٣) الى متاع القصور المشيدة ، والصروح المردة ، وما فيها من بواعث الوهن والفتور . ومن فلاسفة العصر الحاضر من يحسب ضخامة البناء دليلا على ابتداء الضعف وعفاء^(٤) العقيدة ، ويقول « شبنجلر » أحد

(١) مناهج : طرق

(٢) القلزم : مدينة السويس الحالية ، وكان البحر الاحمر قديما يسمى بحر القلزم نسبة لهذه المدينة .

(٣) الاستئمان : الاطمئنان . والرغبة والرضا

(٤) عفاء : انتهاء وفناء

هؤلاء الفلاسفة : ان الأمم في نهوضها تعبر طريقين مختلفين : طريق العقيدة وقوة النفس ، وتلازمه بساطة الطواهر وعظمة الضمائر ، وطريق الفخامة المادية والوفرة العددية وفيه تتحلل الضمائر وتخلفها العظمة التي تقاس بالباع والذراع ، وتقدر بالقنطار والدينار ، وكانت قبل ذلك تقاس بما لا يحسن من العزائم والأخلاق .

وعمر على كلتا الحالتين ، لم يتعد طبائع الأشياء ، ولم يأخذ في زمانه بغير الصالح من الآراء .



وقصارى القول ، إن هذا الرجل لم تواجهه في ولاياته الواسعة صعوبة أكبر منه وأحوج إلى قدرة أعلى من قدرته أو هيبة ودراية أجل مما كان له من هيبة ودراية ، فاذا عرضت الصعوبة الطارئة فهناك الحزم اللازم لمواجهتها ، والحيلة الصالحة لتديرها ، كأنما كان لها على استعداد ، وكأنما عاش حياته كلها يتمرس (١) بهذه الأمور .

وكان اضطلاعه (٢) بتفريع الأزمات والكوارث كاضطلاعه بتدبير الحاجات الى التعمير والتنظيم . ففي السنة الثامنة عشرة للهجرة فاجأ قحط الرمادة المشهور ، وهو القحط الذي لا يقال في وصفه أوجز من قولهم يومئذ إن الوحش كانت تأوى فيه إلى الإنس ، وإن الرجل المتضور من الجوع كان يذبح الشاة فيعافئها لقبحها .

فنهض لهذه الكارثة نهوضه لكل خطب ، واستجلب القوت من كل مكان فيه مزيد من قوت ، وجعل يحمله على ظهره مع الحاملين الى حيث يعثر بالجوع والمهزولين العاجزين عن حمل أقواتهم ، وآلى (٣) على نفسه لا يأكلن طعاما أنقى من الطعام الذي يصيبه الفقير المحروم من رعاياه ، فمضت عليه شهور لا يذوق غير الخبز والزيت ، ونظر في كل شيء حتى في تعليم كل بيت كيف يتنفع بالرزق الذي يرسله اليهم مع

(١) يتمرس : يتدرب ويتعمق ويمالج (٢) اضطلاعه : احتماه وتياحه

(٣) آلى : حلف

عسالة ... فقال للزبير بن العوام : « اخرجْ في أول هذا العيرِ فاستقبلْ بها نجدا ، فاحمل الى أهل كل بيت قدرت أن تحملهم الى ، ومن لم تستطع حمله فمّر لكل أهل بيتٍ ببعيرٍ بما عليه ، ومّرهم فليلبسوا كساءين ، ولينحروا البعيرَ فليحملوا شحمه ، وليقددوا لحمه ، وليحتزوا (١) جلده ، ثم ليأخذوا كبّة من قديد وكبة من شحم وحفنة من دقيق فليطبخوا ويأكلوا حتى يأتيهم الله برزق »

وهذه السهولة في مواجهة كل حالة بما يوائمها هي التي تبرز لنا « مؤسس الدولة الملهم » في هذا الرجل العظيم .

فكل عمل من هذه الأعمال سهل على القِرطاسِ صعبٌ عند تصورنا إياه ، وإحاطتنا بما يستدعيه من تدبير وانجاز وخلق وهية . فكم بين المدينة وتلك الأطراف في زمن أسرع وسائله بعيرٌ سريع ! وكم عملٌ عمر للملاحقة كل جيشٍ يسيرٌ وكل بلدٍ يفتتحُ ، وكل أمةٍ تحكم ، وكل عارضٍ يطراً على غير رقبة (٢) ولا سابقة خبرة ؟

تجنيد الجيوش لشتى الميادين وليس بسهل ، واختيار القواد على حسب ما يثدّبون له وليس بسهل ، والأمرُ بكل حركة على حسب كل ميدان وليس بسهل ، والسؤال عن قادة الأعداء ومداوراتهم (٣) ليستقصى خبرهم ويعرف ما يقابلهم به من الكيد والمعدة وليس بسهل ، وإنشاء المدن والعمائر في مواضعها ، وإقامة الدواوين عند الحاجة إليها ، وإرضاء الأمم والجيوش بالإصغاء الى شكاياتهم ولو جاءت في غير أوانها ، والنهوض للكوارث والأزمات بما ينبغي لها ، والمشاورة لمن تستمع منه المشورة ، والاجتهاد بالرأى عندما تختلف الآراء ، والاشتغال بكل شاك كأنه لا يشتغل بغير ما شكاه ، وخدمة الناس في دينهم وخلقهم كخدمته إياهم في دنياهم ودولتهم ، وتجدد هذه المتاعب يوماً بعد يوم ، وشهراً بعد شهر ، وعاماً بعد عام ، وهي شاقة لا سهولة فيها على غير

(١) جز الجلد واحتزّه : قطعه

(٢) رقبة : ترقب وانظار

(٣) المداورة : المحاربة والافتتان في أساليب

صاحبها التقدير عليها ولو زاولها عرضاً الى أيام .

وجليل" بعض هذا غاية الجلال لو أن صاحبه قنّع منه بالإشراف والمراجعة ولم يعمل بيده فيه كأنه خادِم البيت المهرق وأجير الديوان الصغير ، لكنه كما نعلم كان يَكْنَدَحُ بيده ويحمِلُ على ظهره وَيَتَعَقَّبُ (١) بعينه ، ولا يَدْعُ أحداً من خدام الدولة الواسعة الا وهو شريك له في مثل مايتولاه .

وأكبر ما يستحق الإكبارَ في هذا الرجل الكبير أنه كان قادراً على تأسيس الدول وعلى فتح الأمصار ، ولكنه راضٍ (٢) القُدرَتين فلم يَتَقَدِّمَ على فتح الأمصارِ إلا بمقدار .

فليس الفتحُ شهوةً عنده ولا المجدُ الحربى لبانةً (٣) من لباناته ، وهو على علمه بأن الله وَعَدَ المؤمنين أن يورثهم الأرض لم يكن يرى في ذلك داعياً الى العجلة بالفتح ، كما كان يرى فيه دواعى للتبصر والأناة ، حتى لا يَسْتَفِكَ دَمٌ في غير مَوجِبٍ ولا تَعْتَسِفَ خُطَّةٌ بغير روية .

فكان همُّهُ الأكبرُ تأمين الجزيرة العربية من أطرافها وحماية الإسلام في عقر داره . ولولا أن الدول العظمى التي كانت تُحْدِقُ بجزيرة العرب تحفّزت (٤) للبطش بها وقمع دعوتها في مهدها لكانت للدولة الإسلامية سياسةً أخرى في مصاولة أولئك الأعداء .

فدولة الروم كانت ترسل البعوث الى تخوم (٥) الجزيرة ، وتهيج القبائل لحرب المسلمين من عهد النبي عليه السلام ، وكان المسلمون يعيشون في فَرْعٍ دائمٍ من خطر هذه الدولة وأتباعها . يدل عليه كلام عمر وهو يتحدث عن أزواج النبي حيث يقول : « ... وكنا تُحْدِثُنا أن غسان (٦) تنتعل النعال لغزونا ، فنزل صاحبى يوم توبته فرجع عشاءً ف ضرب بابى ضرباً شديداً وقال : أئمةٌ هو ؟ ففرغت فخرجت اليه ، وقال :

(٢) راضٍ : روض وذلك
(٤) تحفّزت : استعدت وتوّهت
(٦) غسان : عرب الشام

(١) يتعقب : يتبع ويفحص
(٣) لبانة : حاجة ورغبة
(٥) تخوم : حدود

حَدَّثَ أمرٌ عظيم ... قلت : ما هو ؟ أ جاءتْ غَسَّان ؟ قال : لا . بل أعظمُ منه وأطول .. طَلَّقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ ! » .
ومن هذا الحديث يتبين لنا مبلغُ الفزعِ من تهديدِ الروم للجزيرة العربية بالليل والنهار .

أما فارس فقد بلغ بِطُغْيَانِهَا أَنْ عَاهَلَهَا غَضِبٌ مِنْ دَعْوَتِهِ إِلَى الْإِسْلَامِ فَأَوْفَدَ إِلَى الْحِجَازِ رَسُولًا مَعَ نَفَرٍ مِنَ الْجُنْدِ لِيَأْتِيَهُ بِالنَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ حَيًّا أَوْ مَيِّتًا !! ولولا أنه مات قبل إنجازه وعيده واشتعلت نيران الفتن في بلاده لو طُتَّتِ الْجِيُوشُ الْفَارْسِيَّةُ أَرْضَ الْجَزِيرَةِ قَبْلَ أَنْ يَنْهَضَ الْعَرَبُ لِدِفَاعِهِ . وما هو إلا أَنْ حَفِظَ الْعَرَبُ حُدُودَهُمْ مِنْ قِبَلِ الْعِرَاقِ الْفَارِسِيِّ حَتَّى سَكَنُوا إِلَى ذَلِكَ ، وَوَدَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ « لَوْ أَنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ فَارِسَ جَبَلًا مِنْ نَارٍ لَا يَصِلُونَ إِلَيْنَا وَلَا نَصِلُ إِلَيْهِمْ » ، وَلَمْ تَتَغَيَّرْ خُطَّتُهُ هَذِهِ الْآحِينَ اسْتَوَى تَرْدُ جَرْدٍ عَلَى عَرْشِ فَارِسٍ وَتَأَهَّبَ لِلْفَارَةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَآخِرَاجِهِمْ مِنْ حَيْثُ نَزَلُوا ، فَتَجَدَّدَ الْقِتَالُ .

وقد طال تردد عمر في فتح مصر ، ولم ينبعث إلى غزوها حبا للغزو ولهجاً (١) بالفتوح ، ولولا أن علم أن أريطيون قائد الروم في بيت المقدس قد فرّ منها إلى مصر ليحشد فيها الحشود ويتأهب للكر على الشام لطال تردده في الزحف عليها . ومع هذا أوشك أن يسترجع عمرو ابن العاص بعد اشخاصه إليها ، ونهاه عن الأيغال في المغرب بعد فتحها ، لأن السطوة - وهو مقتدر عليها - لم تكن تزدهيه (٢) ولا تغويه ، لأن الضنّ بالأرواح أغلب في طبعه من الشغف بالفتوح ، و « أن رجلاً من المسلمين أحبّ إلى من مائة ألف دينار ! » .

فلا يخطيء القائل الذي يقول إن الأناة في السطوة أكبر ما يستحق الإكبار من هذا الخلق الرفيع ، وإن دلالاته الانسانية أكبر دلالة يشتمل عليها هذا السجل الحافل بالآثر . لأنه يرينا القوة كف تكون نعمة

(٢) تزدهيه : تستويه وتستغفه

(١) لهجاً : اللهج بالشئ الولوع به

انسانية عالية ولا تكون لازماً نعمة من نعيم الأثرة والأناية ، ويرينا الرجل كيف يتقوى فلا يخافه الضعيف بل يخافه من يخيف الضعفاء . وبحق يتزود بهذه القوة مؤسس دولة تقوم على دين ، لأن الدولة قد تقيسها القوة الطاغية ، أما الدين فلا يهدمه شيء كما تهدمه قوة الطغيان إن البأس الذي رزقته نفس عمر لحظاً عظيماً . ولكنه لو كان في يدي غيرها لقد يكون نصيبها منه أوفى من نصيبها وهو في يديها ، فام يشجده عمر قط لغرض يخصه دون غيره ، ولم يضرب به قط بمعزل عن الايمان حتى في أيام الجاهلية . فلو لم يقع في روعه (١) عمر أن محمداً أهان قريشاً وانتقص دينها لما تصدق له بأذى ، ولولا حرمة الايمان الجاهلي عنده لما ثار على ايمان محمد وصحبه .

وغاية ما هنالك أنه فرّق بين ايمان وايمان ، ففي الجاهلية كان ايمانه مضللاً فحَقَّقَ ولم يأت بباطل ، وفي الاسلام كان ايمانه رشيداً فأتى بأطيب الثمرات .



قبل أن يقال إن عمر كان أكبر فاتح في صدر الاسلام ينبغي أن يقال أنه كان يومئذ أكبر مؤسس لدولة الاسلام ، وإنه أسسها على الايمان ولم يؤسسها على الصولجان (٢) ، فكان مؤسساً لها قبل أن يلقى الخلافة وينفرد بالكلمة العليا ، وكان من يوم إسلامه أخذاً في تشييد هذا البناء الذي تركه وهو بين دول العالم أرسخ بناء .

إن تاريخ عمر وتاريخ الدولة الإسلامية لا يفرقان ، فإذا بدأت بهذا فقد بدأت بفصل من تاريخ ذلك ، ولن يطول بك الاستطراد ، حتى تثوب إليه كرة أخرى .

(١) الروح بالضم : القلب والعقل والبال .
(٢) الصولجان : عصا الملك ، فارسي معرب ، إذ لا يجتمع في كلمة عربية صناد وجيم ، الجمع الصوالجة ، والمراد أنه لم يؤسسها على الطغيان والابهة ، وفطرسية الملوك

عُمْرُ الْحُكُومَةِ الْعَصْرِيَّةِ

من الحقائق التي لا يحسن أن تغيب عنا ونحن نقدرُ الأبطال من ولادة العصور الغابرة أنهم أبناءُ عصورهم وليسوا أبناءَ عصورنا . وأئنا مطالبون بأن نفهمهم في زمانهم وليسوا هم مطالبين بأن يشبهونا في زماننا ، وأن الرجل الذي يصنع في عصره خير ما يُصنَعُ فيه هو القدوة التي يقتدى بها أبناءُ كل جيل ، ولا حاجة به الى اقتداء بنا ، ولا أن يَشْتَقَّ حجاب الغيب لينظر إلينا ويعمل ما يوافقنا ويرضينا .

ويحسن بنا أن نذكر مع هذا أن أشكال الحكومات بمرتبةٍ دون مرتبة المبادئ التي تقوم عليها ، وأن المبادئ التي تقوم عليها بمرتبةٍ دون مرتبة الروح الانساني الذي ينبغي أن يعمّها ويتخللها ، لأن المبدأ يعييه أن يخلو من الروح الانساني ، ولا يعيبُ الروح الانساني أن يخالف المبدأ في بعض الأحيان .. فالملكية والجمهورية شكلان من أشكال الحكومة قد يقومان على مبدأ واحد هو مبدأ الحكومة الشعبية أو الديمقراطية ، ولكن العدل والحرية هما الروح الانساني المقدم على المبدأ وعلى الشكل معا ، لأن فقد المبدأ والشكل لا يضرنا اذا وجدنا العدل والحرية .. أما فقدان العدل والحرية فهو الذي يضر ولو توافرت المبادئ والأشكال .

فاذا عرفنا العدل بروحه ولبابه فلا ضيرَ عليه أن تنكره مبادئ الثورة الفرنسية ، أو مبادئ الوثيقة الكبرى في البلاد الانجليزية ، أو مبادئ الدستور الأمريكي في أيام آباء الدستور هناك ، أو مبدأ من المبادئ التي لا تنسى تتجدد وتتغير كائنا ما كان .

ويحسن بنا أن نسأل أنفسنا كلما أعجبنا بعظيم من عظماء العصور

الحديث : ماذا كان هذا العظيم صائما لو نشأ في القرن الأول للهجرة مثلا أو القرن الأول للميلاد ؟ آكان يصنع فيه ما هو « عصرى » في زماننا ، أو يصنع فيه ما هو عصرى في ذلك الزمان ؟ فما لا مرء فيه أنه يخالف عمله في زماننا ولا يخالف عمله في زمانه الذى نشأ فيه ، ولا ملامة عليه فيما خالف وفيما وافق ، بل اللوم علينا نحن اذ ننتظر مالا يَنتظر ، ونقيس على غير قياس .

والى جانب هذا كله ينبغى أن نذكر ولا ننسى أن عصرنا ليس بخير العصور ! وأننا لو ملكنا تبديله في كثير من الأمور لبدلناه ، وأننا لا تتفق على استحسان الحسن ولا استقباح القبيح فيه ، وأن الفارق الأكبر بينه وبين العصور الأخرى انما هو فرق الألفة والاستغراب ، فعصرنا مألوف لنا وسائر العصور مستغربة في أنظارنا ، وكثيرا ما يكون الاستغراب عرضيا سخيفا متعلقا بالمظاهر والأزياء دون الجواهر وحقائق الأشياء .

أذكر من الصور التى رأيتها في الصحف الأوربية — ولا أنساها — صورة جامعة لبعض المشهورين والمشهورات في أزياء عصرنا وأزياء العصور السابقة على اختلافها ، عرضتها الصحيفة وأحسبها كتبت تحتها : هل تعرف هؤلاء لو مروا بك في الطريق ؟

فاذا تأملت الصورة رأيت فيها يوليوس قيصر في القبة الطويلة وكسوة السهرة السوداء ، ورأيت كليوبترا في زى الباريسية العصرية ، ثم رأيت أميرا من أمراء هذا الزمن وحكيما من حكمائه على نمط التماثيل التى حَفِظَتْ لقياسة الرومان وحكماء اليونان . فاذا بك تستغرب ما تألف وتألّف ما تستغرب ... وكأنك على استعداد أن تحدث يوليوس قيصر حديثك للرجل الذى يفهمك وتفهمه من الكلمة الأولى ، وعلى حذر أن تقارب الرجل الذى مثّله لك الصورة في زى الأقدمين المخالفين لك في العقيدة والشارة والذوق ونمط التفكير والنظر الى الأشياء .

هذه صورة نشرت يومئذ للتسلية والفكاهة ، ولكنها خليقة أن تعلمنا الكثير ، وأن تصحح لنا مقاييس المقابلة والتقدير بين كل عصر سابق وعصر آخر .

ونحن - اذ نظر الى أعمال عمر بن الخطاب نقيسها الى نظام الحكم في زماننا - واجدون فيها كثيرا من المستغربات التي تحول بيننا وبين تقديرنا الصحيح للوهلة الأولى . ولكننا لا نلبث أن نرفع القشرة وننفذ الى الباب حتى نزول الغرابة ونرى في مكانها الحق الخالد الذي تتغير العصور ولا يتغير ، بل نرى في مكانها أحيانا ما يصلح كل الصلاحية للتفسير حتى بمبادئ هذا العصر الأخير .

خذ مثلاً أنه - وهو أقدر المالكين في عصره - كان يقنع بالكفاف ويلبس الكساء الغليظ ويهتأ أبل الصدقة - أى يداويها بالقطران - ويراه رسل الملوك وهو نائم على الأرض نومة الفقير المدقع ، وتعرض له المخاضة (١) وهو داخل الى الشام فينزل عن بعيره ويخلع خنقه ويخوض الماء معه بعيره ، ويسافر مع خادمه فيساوى بينهما في المأكل والمركب والكساء .

حاكم من حكام العصر الحديث لا يصنع هذا ولا يطالب بأن يصنعه ، وهو وأبناء العصر الحديث على حق فيما ارتسموه لأنفسهم من السمات (٢) والشارة ، لأن حاكم الأمة يحتاج الى المهابة بين قومه وغيرهم من الأقوام ، وهذا حسن مشكور .

ولكن هذه وجهتنا نحن في هذا ، فما هي وجهة عمر فيه ؟

وهذه حجتنا نحن فيما ارتسمنا ، فما هي حجة عمر فيما ارتسم ؟ اننا اذا عقدنا المقارنة بين الوجهتين والهجتين ألفيناه في غنى عن وجهتنا وحجتنا ، وأنه كان يصل الى الغاية التي نرومها نحن من طريق أقوم وأثقل من الطريق الذي توخيناها . فكان يعيش عيشة الفقراء وأمثه

(١) المخاضة : موضع الماء يجوز الناس مشاة وركبانا
(٢) السمات : الهيئة

وأمر أعدائه أهيب له مما تهاب التيجان في القصور .

وكان عمل الرجل تثبيت سلطان وتثبيت عقيدة هي أساس الحكم قبل كل أساس ، فكانت عيشته الفقيرة أعون له على تثبيت العقيدة ، ثم لا غضاضة فيها على سلطان .

وكان يدين نفسه بهذه العيشة ولا يأبى على غيره أن يخالفها ، ويقنع باليسير ويعطى الحق الكثير لمن يستحقه على تفاوت في المآثر والأعمال . فلما ندب أبا عبيدة لتوزيع الطعام في عام المجاعة أعطاه ألف دينار وألح عليه في قبولها ، ولما قسم الولايات جعل لكل والٍ كفاء (١) عمله من أجر وطعام مكفولا له مع عطائه الذي يعطاه كسائر المسلمين . وهو الذي خالف أبا بكر في التسوية بين الأعطية لعلمه بتفاوت الحقوق ، فقال له : أتسوئ بين من هاجر الهجرتين وصلّى الى القبلتين وبين من أسلم عام الفتح خوف السيف ؟ أتجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ؟ ولقد ظل كلاهما على رأيه حتى قام عمر بالخلافة فأخذ بمذهب التفضيل وتوفية العطاء حسب الحقوق . أما المهابة فمن افتقر من الولاة الى المظهر فيها لم يمنعه عمر ولم يوجب عليه أن يقتدى به في خاصته (٢) وشطفه ، فله من ذلك ما تقضى به مصلحة الدولة حيث كان .

وبهذا يكون الحاكم عمر بن الخطاب قد أدى « الواجب الحكومي » على الوجه الأقوم ، فلا سبيل لأحد الى أن يؤاخذه فيه بقياس حديث أو بقياس قديم .

فاذا بقى أن نستدل بتشديده في المعيشة على تفكيره أو خلّقه فما هي الدلالة التي يدل عليها ؟ هل يدل هذا التشديد في محاسبة النفس على شيء يعاب ؟ هل هو أدنى الى النقص أو أدنى الى الرشحان ؟ ان أناسا يشددون على أنفسهم عن كزازة (٣) في الطبع وضيق في

(١) كفاء عمله : أى ما يكافئ عمله ويجازيه

(٢) الخصاصة : الفقر

(٣) الكزازة : الانتباه ، والمراد التزمّت والجمود

الحظيرة (١) وعجز عن ملابسة الدنيا ، وهذه نقائصٌ تُعابٌ في مقياسِ الفكر والأخلاق .

ولكن هل كانت خليفة عمر بن الخطاب خليفة المترعب المتوجس العاجز الذي يرجع الشظف عنده الى العجز عن ملابسة الدنيا ؟ أعجل الناس بالاتهام لايتهم عمر بهذا ولا بما يشبهه ويدانيه .. وانما تدل جملة أخلاقه على أن الخلق الذي ألزمه حياة الشظف انما هو خلقٌ قوى يروض صاحبه على ما يريد ، وليس بخلق ضعيف يُجفل من التصرف والتكليف إجمال العجز والرهبنة والوسواس .

وفي « طبيعة الجندي » التي قدمنا الكلام فيها بعض التفسير لنظرته في حساب نفسه ، وفي الموقف الذي اختار أن يقفه بين يدي الله . فهو يعلم أن الله شديد الحساب وأن الله رحيم ، ولكن الجندي القوي إذا وقف بين يدي مولاه جعل تعويله على الوفاء بالأمر وقضاء الواجب في أدق تفاصيله ، ولم يجعل معوِّله الوحيد على طلب الرحمة والصفح عن الخطيئة . فان جاءه الصفع من مولاه فليس هذا بمشغفه أمام نفسه من استقصاء الحساب ولو جار عليها . فأكرم لطبيعته الجادة القوية أن يجور على نفسه من أن يترخص في إعطائها ثم يتعرض للصفح والغفران .

وكان وفاؤه لحق الصداقة كوفائه لحق الله سببا من أسباب هذا الشظف الذي عاش عليه بعد النبي وخليفته الأول ، فقد أبى له وفاؤه أن يعيش خيرا مما عاشا ، وأن يستبيح — وقد صار الأمر إليه — حظا لم يستبيحاه ، وكثيرا ما توسل اليه خاصته أن يشفق على نفسه ، وأقنعوه بما علموا أنه أدنى الى اقناعه ، وهو أن يتوسع في العيش ليكون ذلك أقوى له على الحق ، فكان يقول لهم : « قد علمت نصحكم . ولكني تركت صاحبي على جادة (٢) ، فان تركت جادتهما لم أدركهما في

(١) شيق الحظيرة : الحظيرة مأوى المشاة ، والمراد ، « شيق الانق »
(٢) الجادة : وسط الطريق ، والمقصود طريق الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبي بكر

المنزل (١) ، وكلما نصح له ذووه ومنهم بنته حفصة أن يستكثر من الطعام الطيب والنعمة السائغة سألها : كم كان نصيب النبی من هذا أو من ذاك ، وأنت تعرفين نصيبه ؟ فيكون السؤال هو الجواب .

ثم كانت رغبته في إقامة الحجة على ولاته وعماله سببا آخر من أسباب شظفه وقناعته بالقليل . فقد يستحي أحدهم أن يخون ليفنئ وخليفته قانع لا يطمع في أكثر من الكفاف .

وما كان عمر بالذي يجهل ما عرفه الناس من مروءة «الأبهة والوجاهة» وهو الذي يعلم ما جهلوه ، ولكنه كان غنيًا عنها إثارا لغيرها مما هو أرفع منها وأدل على المروءة في حقيقتها . فكان يقول : « المروءة مروءتان : مروءة ظاهرة ومروءة باطنة ، فالمرءة الظاهرة الرياش والمروءة الباطنة العفاف » فهو في جملة أحواله يفرض الشظف على نفسه لأن قوته الخلقية تستطيع أن تريد فتفعل ، وتستسهل الجد الذي يصعب على غيرها . ففيها رجحان " تكبره العقل والخلق ، وليس فيها نقص " يعاب بمقياس التفكير أو مقياس الأخلاق .

انما كان الرجل يحاسب غيرَه فيعطيه حقه في غير بخس ولا حرج ، ويحاسب نفسه فيؤثر الشدة ليقطع الشك ويدرك الشبهة (٢) ويتقضى بصاحبيه ، ويترك القدوة المثلى لمن يليه ، فلا سبيل عليه لباحث في نظم الحكم ولا لباحث في معاني الأخلاق . على أن عصورنا الحديثة تستغرب الشظف من عمر وهي تهلل للموكها وتكبر لهم حين يستنون لأنفسهم سنته في بعض أوقات الضيق والمحنة ، وهي الأوقات التي يتنبه فيها شعور الرعية للفارق بينها وبين راعيها في المعيشة والتكليف . وأكثر ما يكون ذلك في أوقات المجاعات والحروب وشحّ المثونة على الإجمال . ففي الحروب الأخيرة تجاوبت الصحف بالثناء على الملوك الذين راضوا أنفسهم وراضوا أسرهم وحاشيتهم معهم على جرایة الحرب التي

(٢) يدرك الشبهة : يدلها ويبعدها .

(١) المنزل : المنزل والمكانة

توجبها ضرورات التموين ، وعدوا من مفاخر الملوك أنهم لا يأكلون الا ما تأكله شعوبهم ، وأنهم لا يرون لهم عزة في الترف الذى يعز على رعيتهم (١) ، فاققدوا بعمر فيما أوجبه على نفسه عام القحط (٢) وعلمنهم الشدة كيف ينفذون الى الواجب الانسانى من وراء زخارف الحضارة الحديثة وشئ" آخر يستغربه العصريون فى نظام حكومة عمر وإن كانوا ليتمنّون مثله لو استطاعوه ، ونعنى به طريقته فى محاسبة الولاة والعمال سواء لتحقيق العدل أو لتحقيق الأمانة .

فكان يجرى الوالى جزاء المثل عن كل مَظْلَمَة وقعت على أحد رعاياه ، ويأخذ الوالى بسيئات أبنائه وذويه ان أساءوا وهم مستطيلون (٣) بما للولاية من حول وجاه . وكان يحصى أموال الولاة ثم يستصفى مازاد عليها كلما فَشَتْ (٤) لهم فاشية من النعمة لا يخبرونه بمصدرها .

وفى هذا وذاك ضمان للعدل والأمانة يستغربه العصريون لأنهم لا يألفونه فى طرائق الحكومات العصرية .

ولكن أتراهم يستغربونه لأنه غير حسن أو لأنه غير مستطاع ؟

بل لأنه غير مستطاع ولا ريب ، أو لأن الحكومات العصرية لا تملك أن تتحراه وتنصف فى تنفيذه (٥) .

أما أنه حسن فلا شك فى حسنّه ولا فى أنه أحسن من نظائره بين النظم العصرية ، لأن حكومات العصر الحديث قد تحمى الوالى وإن ظلم واعتدى فلا تسمح بمقاضاته الا بإذن منها ! وقد تحميه مرة أخرى بالأحالة الى الثقة بالوزارة ومنع المناقشة فى عمله ، لأنها هى المختصة بمناقشته فيه ، وتعتذر فى الحالين بعذر المحافظة على نظام الدولة أن يهدده ما يهدد

(١) يعز على رعيتهم : يصعب عليهم تحقيقه

(٢) عام القحط أو عام المجاعة ، وقد سبقَت الإشارة اليه

(٣) مستطيلون : أى معتزون بسلطانهم وجاههم

(٤) فشَت لهم فاشية من النعمة : دأبت وانتشرت ، والفاشية كل شئ منتشر من المال كالغنم والابل وغيرها

(٥) تحاول الحكومات على عهدنا أن تتحراه بما تستطيع من وسائل . وقانون « الكسب غير المشروع » شرب من هذا الصنيع

مراكز الحكام . ولم يكن عمر يخشى هذا الخطر لأنه أقوى منه ، فله هو الحق وعلى النظم العصرية الملام .

أما الطريقة العصرية في ضمان أمانة الحكام فهي أن تحرّم عليهم الدساتير مباشرة الأعمال في الشركات وما إليها ، ثم هي لا تأخذ منهم درهما ولو دخلوا الخدمة صفر اليدين وخرجوا منها بالضّياح والقصور والأموال . فَمَنْ استغرب الطرائق العصرية في هذا الباب فليستغربها ماشاء وهو يعلم أن الغرابة ليست بعيب ، وأن المألوف هو المريب إن قصر عن الغرض المطلوب .

وما عدا هذا من اختلاف بين المهددين فقلّما يعدو اختلاف الأسماء وتغيير العناوين ، وقلّ أن ينفذ إلى ما وراء القشور . وهذه بعض الشواهد التي تقرب أسباب النظر إلى حقيقة هذا الاختلاف . مرّة عمر في سوق المدينة فرأى إياس بن سلمة معترضا في طريق ضيق فخفقه بالدرّة وقال له : « أميط^١ عن الطريق يا ابن سلمة ! » (١) .

ثم دار الحول (٢) ولقيه في السوق فسأله : أردتَ الحج هذا العام ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، فأخذ بيده حتى دخل البيت وأعطاه ستمائة درهم وقال له : يا ابن سلمة ! استعن بهذه ، وإعلم أنها من الخفّة التي خفقتك بها عام أول ! .. قال إياس : يا أمير المؤمنين ما ذكرتها حتى ذكرتنيها . فأجابه عمر : أنا والله ما نسيتها .

فالنظم العصرية تحار في وضع هذه الحادثة في باب من أبوابها المرتبة حسب الوظائف والأوامر والمراجعات .

ولكن ماذا يصنع جندي المرور في عصرنا إذا شاء أن يُميط الطريق ويفضّ الزحام وماذا تصنع المحاكم في تعويض من أصابه الضرب بغير ضرورة؟ ان جندي المرور ليضرب بالدرّة وبما هو أقوى منها ، وإن المحاكم لتعوّض المضروب بشيء من مال الدولة عن خطيئ الجنود والموظفين . وعمر

(١) أميط من الطريق : تنح والسح

(٢) دار الحول : انقضى مام

قد عوض الرجل من ماله كما يؤخذ من قول ابن سلمة أنه ذهب به الى بيته ، فان لم يكن هذا المبلغ من مال عمر^١ وكان من خزانة الدولة فقد غرّم عمر كل دين عليه قبل موته ، ولم يفارق الدنيا الا على ضمان^٢ وثيق أن يعاد كل درهم من دينه الى ذويه ، وقد يكون الخطأ يومئذ في الحساب لا في تصرف عمر^٣ بن الخطاب .

ورأى عمر امرأة في زى^٤ استغربه فسأل عنها فقيل له إنها الأمة فلانة ! فضربها ضربات وهو يقول لها : يالكعاء ! أتشبهين بالحرائر (١) وهنا مجال واسع للحذقة العصرية في الكلام على « الحرية الشخصية » وعلى حق من يشاء أن يلبس ما يشاء ويسير حيث يشاء .

ولكن ماذا تصنع الحضارة العصرية بالنساء المريات اللاتي يتنكرن بأزياء الحرائر ويأوين الى البيوت في أحيائهن ويخرجن معهن الى الطريق ؟ وبماذا يختلف شأن النساء المريات من شأن الإماء في زمن كن فيه متهمات الأعراض ؟ ورأى عمر رجلا يتبختر ويمشى مشية قبيحة لاتليق بالرجال فأمره أن يتركها فأبى وزعم أنه لا يطيق تركها فجلده . وعاد بعد جلده الى التبختر فجلده مرة أخرى . ثم مضت أيام وجاءه الرجل وقد ترك تلك المشية القبيحة ودعا له : جزاك الله خيرا يا أمير المؤمنين . إن كان إلا شيطانا (٢) أذهب الله بك .

الحرية الشخصية مرة أخرى ! ..

غير أن عمر في عقوبته هذه انما كان يعاقب على أمر نهى عنه القرآن وليس له أن يبيحه بحال ، فهو قانون يعرفه من أوقع العقاب ومن وقع عليه ومن شهدوه وأقرّوه ، وكلهم يأبى أن يمشى في الأرض مرحا ويعدّها من قبائح الآداب .

(١) الحرائر : الأمة ضد الحرة والجمع إماء ، والحرائر جمع حرة ، والكعاء الحمقاء

(٢) ان كان الا شيطانا : أى ما كان الا شيطانا

ولكننا في العصر الحديث نقسم النواهي والأوامر الى قسم يحاسب عليه القانون وقسم يحاسب عليه العرف المأثور . وعقاب العرف حق الأمة وليس بحق الحكومة والقضاء .

وحجة العصر الحديث أن العقاب القانوني هنا غير منصوص عليه وليس النص عليه بمستطاع ، وربما فتح الباب للاغراض والأهواء واستبداد الحاكمين اذا استطيع .

وعندنا أن حجة العصر الحديث في هذا ناهضة " لاشك في صدقها ، ولكنها ان نهضت فانما تنهض على العصر الحديث ولا تنهض على عمر ولا على من وثقوا بعدله وأسلموه زمام العرف والقضاء على السواء ... فماذا لو استطاع العرف في عصرنا أن يحاسب الناس بالحس والجسد والعرامة على رذائل الذوق وقبائح الآداب دون أن يخطيء أو يجور ؟ أيأبى الإصلاح وهو آمن " عقابه ؟ ان أباه فليس صوابه في إياهه بأكبر من صواب عمر في تقريره ، وليس على عمر ولا على رعيته جناح " أن يطمئنا الى عدل يعيننا أن نطمئن الى مثله .

وقد تقدم أن عمر غضب على الحطيئة لهجائه الناس ونهاه أن يهجو أحدا فصرع اليه الرجل وقال : اذن أموت ويموت عيالي من الجوع ، فأذره ليقطن لسانه .. ثم عطف عليه فساومه على ترك الهجاء بثلاثة آلاف درهم ، فسلم الناس من لسانه واستغنى عن هذه الصناعة ما عاش عمر ثم عاد اليها بعد موته .

ان أمين الحساب في خزائن الدول الحديثة يحار في أى باب من أبواب المصروفات يضع هذه الدراهم التي اشترى بها هجاء الحطيئة ، ولكنه لا يحار طويلا حتى يذكر باب الدعوة وماتنفقه الدول من الملايين ثمناً للشناء والهجاء ، فيضعها هنالك وهو أهدأ ضميراً مما وضع في الباب كله ، لأنه مال تنتفع به الرعية وتنتفع به الاخلاق ولا تقع فيه لذوات الحاكمين ولنضرب أمثلة من طراز آخر على الطريقة العمرية التي يستغريها

المصريون وهم مخطئون في استغرابها أو قادرون على النظر اليها كما ينظرون الى المألوفات لو أطلقوا عقولهم من عقال الصيغ والأشكال ونفذوا من ورائها الى الجواهر والأصول .

كان عمر يَعْشُ في المدينة فسمع صوت رجل وامرأة في بيت ، فتصور الحائط فاذا رجل وامرأة عندهما زرق خمر (١) . فقال : يا عدو الله ! أكنت ترى أن الله يسترك وأنت على معصية ؟ فقال الرجل : يا أمير المؤمنين : أنا عصيت الله في واحدة وأنت في ثلاث ، فالله يقول : « ولا تجسسوا » وأنت تجسست علينا ، والله يقول : « وأوتوا البيوت من أبوابها » وأنت صعدت من الجدار ونزلت منه ، والله يقول : « لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » ، وأنت لم تفعل ذلك .. فقال عمر : هل عندك من خيرٍ ان عفوت عنك ؟ قال نعم ، والله لا أعود . فقال : اذهب فقد عفوت عنك .

ما أسرع ما تقول الحذقة العصرية وهي مستريحة البال : هذه بدعات (٢) البادية في حكمها . تجسس ثم مُحاجة جدلية ، ثم نزول عن عقاب . وهي « طريقة تعوزها الاجراءات الرسمية » التي نحن عليها حريصون وبها جِدْث فخورين ! ..

لكن ما القول في مطابقة هذه الطريقة كل المطابقة لما يجرى عليه النظام الحديث في اجراءاته الرسمية بغير استثناء ؟

فالدساتير الحرة تمنع الرقابة وفض الرسائل واستباحة الأسرار .. والحكومات مع هذا المنع الدستوري تضطر الى استطلاع الأحوال واتقاء الجرائم بمراقبة المتهمين وذوى الشبهات . فاذا اتفق في حادث من الحوادث أنها استباحت سرا يدل على جريمة محظورة فماذا يكون من سير الاجراءات الرسمية ؟ يكون ماكان من عمر في الحادث الذى رويناه بغير اختلاف .. فالقضاء لا يأخذ بدليل يمنعه الدستور ، ولا تثبت عنده الجريمة الا بدليل

(١) الرق : السقاء (الإناء)

(٢) البدعات : جمع بدعة وهي الراى الذى - ج

مشروع ، والحكومة تضطر هنا الى السكوت ومتابعة الحالة حتى تسفر عن بينة يجوز لها أن تعتمد عليها أمام القضاء . وهى فيما تصنع من هذا القبيل أعجز من عمر فيما صنع ، لأنه جعل الاستطلاع سبيلا الى العظة والتوبة ، واستغنى عن الاجراءات الرسمية التى نحن عليها حريصون وبها جد فخورين !

ونقترب من حادث تطول فيه الألسنة العصرية أبعد مما طالت فى شتى الحوادث التى قدمناها ، ونعنى به كتابته الذى خاطب به النيل يوم قيل له إنه أمسك عن الفيضان .

وقد زعم المؤرخون أن أهل مصر ذهبوا الى عمرو بن العاص فى شهر بؤونة فأخبروه أن للنيل عندهم سِنَّة قديمة لا يجرى الا بها ، وهم « انهم اذا كانت ليلة ثلاث عشرة من هذا الشهر عسدا الى جارية بكتر بين أبويها فحملوا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم القوا بها فى النيل » .. فلم يجبه عمر الى مأسأئوه وقال لهم : هذا لا يكون فى الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله . فأقاموا بؤونة وأيب ومسرى لا يجرى فيها النيل قليلا ولا كثيرا ، ثم رفع عمرو الخبر الى عمر فاستصوب ماصنع وكتب له : انى بعثت اليك بورقة مع كتابى هذا فألقها فى النيل . وفى الورقة كتاب يخاطب به النيل يقول فيه : « من عبد الله عمر الى نيل مصر . أما بعد ، فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر ، وان كنت تجرى من قبلك الله فنسأل الله أن يجريك »

قال رواية هذه القصة : إن عمرو ألقى بالورقة فى النيل قبل يوم الصليب بشهر وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج ، فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعا (١) ، واستراحوا من ضحاياه فى ذلك العام وفيما بعده من الأعوام .

والرواية على علاقتها قابلة للشك فى غير موضع عند مضاهاتها على التاريخ . وقد يكون الواقع منها — ان وقعت — دون ما رواه الرواة بكثير

(١) ذراع القياس ثوبت كثيرا وتذكر قليلا . ١١ البيج : الكناس

ولتكن على هذا صحيحةً بحذفها ، فما هى الغضاضة فيها على العلم الحديث ، ولا نقول على العقل « البدوى » قبل نَيْفِ وألف سنة ؟
ان عمر لم يجد أهل مصر معولّين فى فيضانهم على القناطر والسدود وفنون الهندسة فأبى عليهم أن يعولوا عليها ، ولكنه وجدهم معولين على خرافة يعانها العقل والشعور فأنكرها وحقّ له أن ينكرها ، ولم يقل لهم ان ورقته الملقاة فى النيل هى التى تجريه ، بل قال لهم ان النيل ليجرى بغير تلك السئنة التى استنوها له وبغير القربان الذى يتقربون به اليه ، وليس فى هذه القصة كلها ما يستغرب من حاكم عصرى مؤمن بالله منكر للخرافات . فورقة عمر أقرب الى العقل فى زماننا هذا من الكؤوس والقوارير التى تكسر فى الأنهار عند فتح قناطرها وجسورها ، وأقرب الى العقل من البخور الذى يحرق فى البيع (١) والهاكل جلبا للفيضان واستغاثة بالسماء .

ونحن لا نعرض لهذه الأشتات من طريقة عمر فى حكومته لأنها هنات تلجىء المعجب به الى دفاع وتسويغ . وليس فى كل هذه الأشتات وأشباهها ما يلجىء عمر ولا المعجبين به الى دفاع أو تسويغ .
وانما عرضنا لها توسعةً لأفق النظر الى العظمة الانسانية فى مختلف أزمانها ، واستخفافا بالغرائب التى تخلقها العادة العارضة لعبادها ، ثم هى لا تستحق من هوانها أن نخسر من أجلها شعورنا بعظمة الإنسان وانها لأنفس مانصونه ونعتزّ به فى جميع الأزمان .
عدل عمر نخسره لأنه كان يقضى فيه بغير « استثمار » مدموغة ينص عليها قانون المرافعات ! أو لأنه كان يقضى فيه على غير « الاجراءات العصرية » فى مواجهة الحقوق الشخصية ! أو لأنه كان يقضى فيه قضاء يختلف الفقهاء فى عنوانه وفى الرف الذى يضعونه عليه بين رفوف الأضيائى يالها من حماقة تخجل العصر الحديث ! تخجله وهو واقف بين العصور يتناول عليها بتسخيف الحماقات وإدحاض الخرافات .

(١) البيع : الكنائس

عُمْرُ النَّبِيِّ

يندر أن يظفرَ الباحثون في طبائع الانسان بمغنى نفسى هو أوفر ثمره وأنفس محضولا من دراسة عمر بن الخطاب ، لأن الظواهر المختلفة التى تتجلى فى هذه النفس العظيمة ليست من ظواهر كل يوم ولا ظواهر كل دراسة ، ولأن اتفاقها البسيط مع تركيبها العجيب مما يتعذر جدا فى النفوس التى نعهدها ، ومما يتعذر جدا حتى فى نفوس الأفاضل من العظماء .

بَيندَ أن المغنى الأكبر فى هذه الدراسة انما هو مغنى علم الأخلاق . لأن علم الأخلاق أحوجُ الى الاستدلال بالظواهر الطبيعية ، وأفقرُ الى الأسناد والدعائم التى تقيمها أمثال هذه الدراسات .

فكل نفس — عظمت أو صغرت — فدراستها مغنى لعلم النفس لاشك فيه ، كائنة ما كانت النتيجة التى تئادى إليها من بحث خفاياها وتنظيم شواهدا .

لكن الوصول الى نتائج علم الأخلاق هو الصعب الجديد الذى أن يزال اليوم وبعد اليوم صعبا وجديدا الى أمد بعيد .

فالمفروض أن نتائج علم الأخلاق « فكرية تكليفية » يستنبطها الفكر الذى يختلف فى صوابه كما يختلف فى خطئه ، ويمليها التكليف الذى يطاع ولا يطاع ، ويراض عليه الانسان رياضته على الأمر الغريب « الأجنبى » عن نوازع الطباع .

فاذا اهتدينا الى نفس تعزز تلك النتائج الفكرية التكليفية التى هى أقرب الى الآمال المنشودة منها الى الوقائع الموجودة فقد ظفرنا بمغنى كبير واذا ظفرنا بحقيقة نفسية هى فى الوقت نفسه حقيقة فكرية وحقيقة خلقية فذلك هو المغنى المضاعف الذى قلما يثال .

ونفس عمر بن الخطاب هي تلك النفس التي تدعّم علم الأخلاق من الأساس ، وهي ذلك الصرح الشامخ الذي ننظر الى أساسه فكأننا تسلقنا النظر الى ذروته العليا ، لأنه قرّب بين الآمال والقواعد أوجز تقريب ، اذ هو التقريب الملموس .

آمال كثيرة من آمال محبى الخير ودعاة الإصلاح هي في نفس عمر بن الخطاب وقائع مفروغ منها ، كأنها وقائع المراتب والمسوعات .

فمنها فيما أسلفناه أن القوة لا تناقض العدل في طبيعة الانسان بل يكون العدل هو القوة التي تخيف فيخافها الظالمون .

ومنها فيما نحن بصدد الآن أن القوة لا تناقض الاعجاب على خلاف مايتبادر الى الأكثرين .

فان الأكثرين يحسبون أن الرجل الذي يعجب به الناس لا يعجب هو بأحد ، وأن البطل الذي يقده عشاق البطولة لا يعشق البطولة في غيره ، وأن التطلع الى الأعلى صفة ينطبع عليها الصغار ليرتفعوا بعض الارتفاع ويحسنوا الخدمة والعون للكبار ، ولكنها صفة ينفر منها الكبير ويحس فيها الغضاضة أن يصغر الى جانب المتفوقين عليه ، ممن هم أكبر قدرا وأحق بالاعجاب .

لكن البطل الذي ندرسه هذه الدراسة ينقض ذلك الحسبان أقوى نقض مستطاع ، لأنه بطل يرّوع ويعرف روعة البطولة .. ويستحق الاعجاب غاية استحقاقه ، ثم يخيل اليك من فرط ولائه لمن يفوقه أنه خلّق للاعجاب بغيره ، ولم يخلق ليكون هو موضع إعجاب .

فعمر كان يحب محمدا حب إعجاب ، ويؤمن به ايمان إعجاب . ويستصغر نفسه اذا نظر الى عظمة محمد ، وما هو فيما خلا ذلك بصغير في نظر نفسه ولا في نظر الناس .

كان محمد عليه السلام كما نعلم قدوة في الدعة وحسن المعاملة لجميع صحبه وتابعيه ، وكان يعاملهم جميعا معاملة الاخوان والزملاء ،

فلا يغمّرهم برهبة التفاوت الشاسع والتفوق البعيد . فلو جاز أن ينسى أحدٌ فارقا بينه وبين عظيم لنسى أصحاب النبي هذا الفارق بما يلقونه من مساواته وحسن معاملته ، ولو نسيانا الى حين .
الا أن عمر « العظيم » سمع مرةً من صديقه محمد عليه السلام كلمة « يا أخى » فظل يذكرها مدى الحياة .

استأذنه في العُمرَة فأذن له وقال : « يا أخى لا تنسنا من دعائك » .
فما زال عمر يقول بعدها كلما ذكرها : « ما أُحِبُّ أن لى بها ما طَلَعَتْ عليه الشمس ، لقوله يا أخى ! » .

شهادة لعظمة محمد أنه يؤاخى الناس كبارا وصغارا وأن الناس كبارا وصغارا لا ينسَوْنَ ما فى مؤاخاته من فخر وغبطة ، وما بينهم وبينه من فارق بعيد .

وشهادة لعظمة عمر أنه أهلٌ لذلك الاخاء ، لأنه يدرك ما فيه من عظمة ، ويشعر بما فيه من رضوان .

وما يدريك ماعمرٌ الذى يَشِيعُ فى قلبه الفرح بهذا الاخاء ؟

ليس بالرجل الذى يُحِبُّ تواضعَ المرائين ، وليس بالرجل الذى يجهل مقداره أو يَهَابُ مخلوقا بغير الحق ، وبغير الاعجاب .

عمر هذا هو الذى تولى الخلافة وحجَّته الأولى فى ولايتها أنه أكفأُ المسلمين لها غيرَ مُدافِع ، وأنه كما قال : « لو علمتُ أن أحدا أقوى منى على هذا الأمر لكان أن أقدم فتضربَ عنقى (١) أحبُّ الىَّ من أن أليَّه (٢) » .

نعم ، هو عمر أقدرُ المسلمين كما يعلم ، وهو عمر الذى يستصغر نفسه اذا نظر الى المثل الأعلى والقُدوة الفضلى ، وهو اذن أكبر ما يكون بهذا الاستصغار .

(١) المتق : يذكر ويؤثث
(٢) اليه : مضارع من ولى الامر فهو يليه وأنا اليه

لقد كان يُسمَع وهو خليفة يقول كالساخر وما هو بساخر : « بخ
بخ (١) يا ابن الخطاب . أصبحتَ امير المؤمنين ا »
اكان يقولها لأنه كان يجهل أنه أكفأ العرب للخلافة بعد صاحبيه ؟ ..
كلا .. بل كان يقولها لأنه يعرف النظر الى المثل الأعلى .. يعرف الاعجاب
بما فوقه ، يعرف محمدا ويعرف أن اللحاق به أمل " لا يطاق " ، يعرف
الإعجاب بطلا " معجبا بطل " ، ويشاء فضله أن تُحصى له هذه بين أصدق
شواهد البطولة فيه .

ومن الخطأ أن يتوهم المتوهم أن عمر كان يتصاغر لأنه يشعر
بصغره ، ويتواضع لأنه يشعر بضعة فيه .
ان الصغير لا حاجة به الى تصاغر لأنه صغير " ، وربما كانت حاجته
الكبرى الى مدارة شعوره الدخيل بتفخيم الرواء ، وتزويق الطلاء ،
والتخايل بالمسكن والكساء .

وانما كان عمر يتصاغر لأنه يشعر بعظمته ويكبح ما يخامر من
اعتداد بنفسه ، ومحال أن تمتلئ نفس " بمثل هذه القوة ثم تخلو من
شعور بقوتها واعتداد بقيمتها . فليس ذلك من معهود الطباع في حي
من الأحياء ، ولا نقصر القول على الانسان .

ولهذا كان عمر يتصاغر على قدر ما يراه من بواعث الكبرياء ، لا على
قدر ما يراه من بواعث الصغر ، فأبى أن يركب البرذون (٢) وهو
يغالب عزة الفتح داخلا الى الشام دخول المنتصر ، وقيل له في ذلك
فصاح بهم : خلثوا سبيل جملى ! انما الأمر من ها هنا ، وأشار الى
السماء !

وكلما اعتز من حوله من خاصة أهله وخلصاء رعاياه بما يرويه فيه
من بسطة السلطان وعلو الكلمة غض من اعتزازهم وأحضر في أذهانهم
ما ينسبهم السلطان المبسوط والكلمة العالية فقال لأصحابه يوما وقد مر

(١) بخ : كلمة تقال عند الرضا بالشيء
(٢) البرذون : ضرب من الدواب يخالف الخيل المرباب ، عظيم الخلقة غليظ الامضاء

بعض الشَّعَاب (١) على مقربة من مكة : « لقد رأيتنى فى هذه الشَّعَاب
أرعى ابلَ الخطاب ، وكان غليظا يتعبنى ، ثم أصبحتُ وليس فوقى
أحد ! » .

وضاقت هذه الكلمة ابنه فقال له : « ماحملك على ماقلت يا أمير
المؤمنين ؟ » .. قال : « ان أباك أعجبه نفسه فأحب أن يضعها » (٢) .
وانظر هنا الى كلمة « أمير المؤمنين » يقولها الابن ، ثم انظر الى كلمة
« أباك » يقولها أمير المؤمنين .

ومن قبيل هذا ركوعه لله ذليلا خاسعا يوم أمر أبا سفيان أن ينقل
الحجر من مكانه فنقله ، فخشع لله الذى جعله يأمر أبا سفيان فى شعاب
مكة فيستمع لما أمر .
وليس هذا وأشباهه تصاغرا يكشف الصغر ، انما هو تصاغر
يكشف القوة والاعتداد بها ، ويكبَّحها بعنان متين هو نفسه دليل
القوة والاعتداد .

بل يشاء بأسٌ هذا البطل أن تتمادى فيه الصفات الى غايتها وهى
مُتناقضَةٌ فى النظرة الأولى ، فاذا بهذا التمداد يردّها الى الوفاق والتكافؤ
ولا يوسع ما بينها من ظواهر الاختلاف .
فما رأيانه أنه عادل يفوق العدول ، وقوى يفوق الأقوياء ، فاذا
العدل والقوة فيه وفقان متساندان لا يختصمان ولا يتناقضان .
ومما رأيانه أنه بطل تُعجب بطولته الأصدقاء والخصوم ، ثم هو فى
اعجابه بالبطولة كأنه خلو من دواعى الاعجاب .
وبقى من موافقاته النادرة أن الاعجاب عنده لا ينقض الاستقلال ، ولا
يهدد « الشخصية » بالفناء والزوال ، فيعجب بمن يفوقه غاية الاعجاب ،
ويحتفظ معه باستقلال رأيه غاية الاحتفاظ ، ولا يتناقض الأمران .

(١) الشعاب : جمع شعب (بكر الشين) وهو انفراج بين الجبلين او هو الطريق
(٢) ان يضعها : ان يقلل من شأنها

فلم يكن أحد يُعجَب بمحمد أكبر من اعجاب عمر .
ولم يكن أحد مستقلاً برأيه في مشورة محمد أكبر من استقلال عمر
فهو آية الآيات على أن فضيلة الاعجاب لا تَعُضُّ من صراحة الرأي عند
ذى الرأي الصريح .

فما أحجم عمر قط عن مصارحة النبي عليه السلام برأى يراه ، ولو كان
ذلك الرأي من أخص الخصائص التي يقف عندها الاستقلال .
فبمحمد في بيته وهو صاحبه ، ومحمد في شريعته وهو صاحبها ، كان
يستمع الى عمر حين يقترح وحين يستنزل الأحكام ، وحين يستدعى الوحي
في أمر من الامور .

فكان يشير على النبي عليه السلام أن يَحْجُب نساءه ، ويبلغ ذلك
احدى أمهات المسلمين زينب فتقول له : انك علينا يا ابن الخطاب والوحي
ينزل علينا في بيوتنا ! .. وتخرج احداهن سودة وهى تحسب أن احدا
لا يعرفها لاستتارها بالظلام فيعرفها بطول قامتها ويناديا « عرفتكَ
يا سودة ! » ليؤكد ضرورة الحجاب . فيؤمر المسلمون بعد ذلك ؛ لا
يسألوهن الا من وراء حجاب .

ولما همَّ النبي عليه السلام بالصلاة على عبد الله بن أُبَيّ كبير المنافقين
يوم وفاته تحولَّ عمر حتى قام في صدره ، وأخذ يذكره مساوئ عبد الله
وأقاويله في النكايه بالاسلام ، وحكم القرآن فيه وفي أمثاله أن « استغفر
لهم أو لا تستغفر لهم ، ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » ،
وألح في التذكير حتى أكثر على النبي عليه السلام وهو يبتسم ويقول
له : « أختر عني يا عمر ، لو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له
زِدْت » ، ثم صلى عليه ومشى معه حتى فرغ من دفنه .. ثم ما كان الا
يسيرا كما قال عمر حتى نزلت هاتان الآيتان : « ولا تتصلَّ على أحد
منهم مات أبدا ولا تقم على قبره » .

وروى أبو هريرة عن النبي عليه السلام أنه أنفذه الى رهط من المسلمين

فقال له : اذهب اليهم » فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا اله الا الله مستيقنا بها قلبه فبشّره بالجنة » ، فكان أول من لقي عمر ، فصدّه وعاد به الى النبي يسأله : « يا رسول الله بأبي أنت وأمي ، أبشّرت أبا هريرة من لقي يشهد أن لا اله الا الله مستيقنا بها قلبه بشّره بالجنة ؟ » . قال النبي : نعم . فلم يترث عمر أن قال : « فلا تفعل يا رسول الله ! فاني أخشى أن يتكلم الناس عليها . فخلّتهم يعملون » ، فوافقه عليه السلام وقال : « فخلّتهم ! » .

وفي التشريع أو التحليل والتحريم كان عمر لا يقنع حتى يصل الى القول الفصل فيما يستفسر عنه ويتردد في حكمه ، فما زال يسأل عن الخمر حتى حرّمت وبطل في خلاف . وهو هو الذي كانت الخمر شهوة له في الجاهلية يحبها ويكثر منها ، ولو شاء لالتمس الرخصة فيها ولم يكثر من السؤال عن تحريمها ، ففي سؤاله عنها وحذره منها فضل أكبر من فضل الاستقلال بالرأي والاخلاص في المراجعة ، وهو فضل الغلبة على النفس والتحصن من الغواية بالأمر الذي لا هوادة فيه .

وجرى صلح الحديبية الذي كان ظاهره الغبن فيه على المسلمين ، وظاهره الفوز فيه للمشركين . فيستطيع قارئ التاريخ قبل أن يحصى أسماء المعارضين للصلح والصابرين عليه أن يعلم أين كان عمر بين الفريقين فقد غمّته هذا الصلح غما شديدا وذهب الى أبي بكر يراجع ويناجيه : علام نعطى الدنيّة في ديننا ؟ فأجابه أبو بكر : يا عمر الزم غرّك (أي رحلك (١)) فاني أشهد أنه رسول الله . وردد عمر أنه يشهد أنه رسول الله ، ثم ذهب في بعض الروايات اليه عليه السلام فسأله : ألسنا يا رسول الله على الحق وهم على الباطل ؟ أليس قتلتنا في الجنة وقتلهم في النار ؟ ورسول الله يجيبه : بلى ! بلى ! فيعود فيسأل : علام نعطى الدنيّة في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟

(١) الرجل : كل شيء يعد للرحيل من متاع ومركب الخ .

فلما ناداه : ابن الخطاب ! انى رسول الله ! ولن يُضيّعنى الله أبدا ، ثم علم أنه الفتح المنتظر ، ثاب الى الرضى وكفَّ عن السؤال .

والمحنة على ما هي عليه أعظم مما يطيقه صبر عمر وتسكن اليه سورة (١) طبعه . فمن شروط الصلح أن يرجع المسلمون عامهم ذلك فيردوا من جاءهم من قريش ولا تَرد اليهم قريش أحدا ممن يجيئون اليها ، وأن يكتب النبي اسمه في عقد الصلح فلا يكتب فيه أنه رسول الله ، وهذه محنة وردت على حَمِيَّة (٢) عمر بالوارد الجكل الذى ليس أقسى منه ولا أمر على هذه الحمية العزوف . ولكن الصلح لم ينته حتى تفاقمت المحنة وادلهمت الغاشية كأن ما ابتلاه منها لا يكفيه . فبينما هم يكتبون اذ جاء أبو جندل ابن سهيل يرسف في الحديد قد اتفقت الى رسول الله . فقام اليه سهيل (٣) - وكان وكيل المشركين في عقد الصلح - فضرب وجهه وأخذ بتلابيه ليدفع به الى قريش ، وأبو جندل يصيح : يامعشر المسلمين ، أأُرد الى المشركين يفتنوننى في دينى ؟ فواساه النبي ودعاه الى الصبر والاحتساب (٤) ووثب عمر اليه يمشى الى جنبه ويَدْنِي منه قائم السيف ويقول له : اصبر يا أبا جندل فانما هم المشركون ، وانما دمُ أحدهم دمُ كلب . ورجا - كما قال بعد ذلك - أن يأخذ أبو جندل سيفه فيضرب به أباه .. قال : ولكن الرجل ضَنَّ بأبيه ونفذت القضية .

فالمحنة أعظم مما تطيقه الحمية العمرية بغير وازع من هداية نبوية . ولا يا ما (٥) سكنت نفسك واطمأنت الى حكمة سيده ومعلمه وهاديه . ولا سيما حين ناداه : ابن الخطاب ! انى رسول الله ولن يُضيّعنى الله أبدا .. هذه المراجعة كانت من خلأق عمر التي لا يحيد عنها ولا ياباها النبي عليه السلام ، وكثيرا ما جاره واستحب ما أشار به وعارض فيه . فلا جرَم

(١) سورة الفص : ولويه ، وسورة السلطان سطوره واعتدازه .
(٢) الحمية : الأنفة ، والمراد انها نزلت على أنفة عمر وكبرياله نزولا عظيما .
(٣) سهيل : هو أبو .
(٤) الاحتساب : الصبر وادخار الاجر عند الله على هذا الصبر .
(٥) لا يا ما : الاى الشدة والمثقة . يقال فعل ذلك بعد لاي ، ولا يا مرلت الثوب ، او لا يا ما .

يراجع النبي في كل عملٍ أو رأىٍ لم يفهم مأناه ومرماه ما أمكنته المراجعة ، وما قلقت خواطره حتى تثوب الى قرار .

اللهم الا أن تستعصى المراجعة ويعظم الخطر فهناك تأتي الخليفة العمري بآية الآيات من الاستقلال والحب والحزم الذى يضطلع بجلائل المهمات . فلما دخل النبي عليه السلام في غمرة الموت ودعا بطرس (١) يملأ على المسلمين كتابا يسترشدون به بعده أشفق عمر من مراجعته فيما سيكتب وهو جد خطير ، وقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع ، وعندنا كتاب الله حسبنا (٢) . ومال النبي الى رأيه فلم يعد الى طلب الطرس واملاء الكتاب . ولو قد علم النبي أن الكتاب ضرورة لا محيص عنها لكان عمر يومئذ أول المجيبين .

وكانت هذه سنته في حياة النبي وبعد موته في كل عمل لا يستريح اليه ، فلم يثجج عن مراجعة أمره حيا وميتا في مسألة ليست من مسائل الوحي الذى فيه فصل الخطاب ، وما كانت المسألة مسألة رأى فهو ناهض لها برأيه حتى يؤمنَ بخطئه أو يرده عن المعارضة أمر مطاع .

كذلك صنع في قيادة أسامة بن زيد قائد الجيش الى البلقاء ، وفيه جيلة الصحابة من كبار السن والمقام . فقد ولاه النبي القيادة ومات عليه السلام وهو في أول الطريق ، فقال أسامة لعمر : ارجع الى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذنه يأذن لى أن أرجع بالناس ، فان معى وجوه الناس (٣) ، ولا آمن على خليفة رسول الله وثقل (٤) رسول الله وثقل المسلمين أن يتخطفهم المشركون » ، وقالت الأنصار : « فإن أبى الا أن نمضى فأبلغه عنا واطلب اليه أن يولّى أمرنا رجلا أقدم سنا من أسامة » .

وغضب أبو بكر وكان جالسا فوثب وأخذ بلحية عمر وهو يهتف به : ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب ! استعمله رسول الله وتأمرنى أن

(١) الطرس : الصحيفة
(٢) حسبنا : يكفينا .
(٣) وجوه الناس : أكابره .
(٤) الثقل : الحشم والناع .

أنزعه ؟ ..

فوجبت الطاعة ، لأنه أبرأ ذمته بالمراجعة وسمع أمر الرئيس الذي لا رجعة فيه ، وعمر جندي متى صرّح (١) له الأمر من صاحب الأمر لم يبق له الا أن يطيع .

وختمت سنة النبي بوفاته فلم يكن بين الصحابة أحد " أحرص على هذه السنة وألزم لها وأكثر رجوعا إليها من عمر ، ولم تكن له وصية " مقدمة على الأخذ بكتاب الله وسنة رسوله . الا أنه مع هذا لم يكن يغفل عن العلل اذا وجب البحث عن العلة التي وراء السنة النبوية ، فخالف أبا بكر رضى الله عنه في اقطاعه الأرض لعبيثة بن حصن والأقرع بن حابس وقال لهما : ان رسول الله كان يتألفكما (٢) على الاسلام وهو يومئذ ذليل ، وان الله قد أعز الاسلام .. « فاذهبا فاجهدا جهدكما .. »

فقد علم سنة النبي مع « المؤلفة قلوبهم » ولم يغفل عن سببها وموقعها ، فهي سنة تطاع لحكمتها ولا توضع في غير موضعها ، وليس على المسلمين حرج أن يختاروا للمؤلفة قلوبهم معاملة غير التي ألفوها من صاحب الرسالة ، اذا تغيرت الحكمة واختفت العلة ، واستغنى الإسلام عن فاصرين تتألفهم العطايا والأنفال (٣) .

ولمثل هذا السبب ولاشك نهى عن زواج المتعة ونهى عن التحلل من بعض مناسك الحج ولم يكن منهيًا عنهما كل النهى في حياة النبي عليه السلام . فكان الرجل يتزوج بالمرأة لأجل معلوم ثم يتركها . وكان منهم من ينوى الحج ثم يتحلل من بعض مناسكه ، فنهى عنهما عمر في أيام خلافته وقال : « مستعتان كاتتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أنهى عنهما وأضرب عليهما » .

وموافقات عمر للقرآن وللسنة كثيرة لا يدعونا المقام هنا الى احصائها واستيفائها ، وكذلك مراجعته ومناقشاته فيما يرد عليه من أحكام لا تنجلي

(١) صرح الامر : وضح . (٢) يتألفكما : يطيعكما ليستميل قلوبكما .

(٣) الأنفال : جمع نفل وهو الغنيمة .

مآتيها ومراميها ، فحسبنا منها دلائل استقلاله وصراحة عقله فيما سردناه ، وحسب الاسلام فخرا أن يؤمن به الانسان ايمان عمر ثم يستقل برأيه وطبعه استقلال عمر . فالايان في أقصاه لا يعطل الرأي المستقل في أقصاه ، وكل سفة في عمر فهي صفة مستقصية لا وسط فيها . اذا آمن فذلك غاية الايمان ، واذا استقل فذلك غاية الاستقلال ، واذا أعجب فذلك غاية الاعجاب .. وان الظفر الذي يظفره علم الأخلاق من دراسته لمبعثه هذا الشاهد من الصفات التي تتناقض في ظاهرها وهي على عهدنا بها في عمر متفقات متساندات لا تستغنى واحدة منها عن سائرهما .

فلو لم يكن في دراسة عمر الا أن نرى رجلا عادلا بالغا في عدله ، قويا بالغا في قوته ، معجبا بالطولة بالغا في اعجابه ، مستقلا بالرأى بالغا في استقلاله ، لكفى بذلك ظفرا لعلم الأخلاق ، وكفى بسيرة واحدة أن تقرر لنا هذه الحقائق التي تستكثر على عشرات السير ، وهي أن القوة لاتناقض العدل ، وأن البطولة لاتناقض الاعجاب ، وأن الاعجاب لايناقض الاستقلال وتلك الحقائق أثبت في عمر من معارف بدنه وملامح سيماه .



وكانت مودة النبي لعمر كمودة عمر للنبي شرفا له من جانبيه ، وشهادة لعظمته وعظمة معلمه ومؤديه وهاديه .

كانت نظرة محمد اليه نظرة عالية لا تعلوها نظرة أحد من أصحابه فلم يكن أحد يكبر عمر كما كان يكبره أكبر عارفيه ، ولم يكن رضاه عن مخالفاته ومراجعاته بأقل من رضاه عن موافقاته وتسليماته . لأنه كان ينظر الى بواعث هذه وتلك فيحمدنها ويرجو للاسلام خيرا منها ، بل يدخر للاسلام سورته (١) كما يدخر له تسليمه وطاعته ، ويسوسه في رفق وكرامة سياسة المعلم لتلميذه الذي يعينه ويستعين بغيرته ، ويروضه رياضة الامام لمريده الذي يهيئه للامامة بعد حين ، ويشجعه بقبول الحسن من رأيه تشجيع من يثبت فيه حسن الرأي ويستزيده منه .

(١) سورته : سورة الغضب ونوبه ، وسورة السلطان مطوّه .

ولا يتأتى أن ينظر النبي الملهم الى عمر دون أن يرى فيه أولى مشابهاته للطبائع النبوية وهي الالهام الدينى والبصيرة الروحية ، فكان عليه السلام يقول فيه : « لقد كان قبلكم من بنى اسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء ، فان يكن فى أمتى أحد فعمر » .

ومثله قوله فى بعض ماثقل عنه عليه السلام : « لو كان بعدى نبي لكان عمر بن الخطاب » وقوله : « ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » .. وقوله : « عمر بن الخطاب معى حيث أحب ، وأنا معه حيث يحب ، والحق بعدى مع عمر بن الخطاب حيث كان » .

وتلك لمحات نبي ملهم الى بصيرة ملهمة تقارب بصيرة الأنبياء .. وان فى هذه اللمحات لمعرفة بالنفس ونفاذا الى الضمير ، من أجلها كان محمد ، صلح نفوس وهادى ضمائر ، وفتح عهد روحى فى تاريخ الانسان . ومن تحصيل الحاصل أن تقول إن محمدا قد أحاط بكل فضيلة من فضائل عمر وكل خليفة من خلائق طباعه . وراقبه قبل اسلامه وبعد اسلامه فلم تفته كبيرة ولا صغيرة من مواطن العظمة فيه ، الا أنه لم يحمد منه شيئا كما حمد جبهه الحق وكراهته للباطل ، فهى الخصلة التى تلاقيا فيها وتقاربا من قبلها ، وان كان محمد لأرحب صدرا وأعلم بالناس من أن يكلف صاحبه أن يشبهه كل الشبه فى علاج الحق والباطل ، فلا بد من فارق بين الرجلين هو الفارق الذى لا بد منه بين المعلم والمريد وبين الامام والمأموم .

ولا نخالنا نلمس هذا الفارق كما نلمسه من قصة الاسود بن شريع ذلك الشاعر الذى كان ينشد النبي بعض الأماديح فاستنصته (١) مرتين اذ دخل عليهما عمر والشاعر لا يعرفه . فصاح : واككلاه (٢) ا من هذا الذى أسكت له عند النبي ؟ فقال النبي : هذا عمر ... هذا رجل لا يجب الباطل ! » .

(١) استنصته : طلب منه السكون والانصات .
(٢) الكلاه : فقد الحبيب ، وكلمة واككلاه .. صيغة من صيغ التذبة يراد بها التحسر وابداء الدهشة هنا .

وتلك قصة تكبر عمر مرةً وتكبر النبيّ مرات ، فلا يسمعها السامع فيخطر له أن محمداً كان يقبل الباطل الذي يأباه عمر . أو كان يهوى اللغو الذي يُعرضُ عمر عن سماعه ... وانما يسمعها فيعلم أى الرجلين يهدى صاحبه في مناهج الحق ويدربه على كراهة الباطل ، ويعلم أن الامام يطبقُ مالا يطيقه المريد ويتسع صدره لما تضيق به صدور تابعيه ، وأن محمداً أراد أن يعود الناس مهابةً عمر ، وأن يستبقى لعمر سورته في محاربة الضلال ، والأيام كفيّلةً بترويض تلك السورة فيما ينبغي أن تراض عليه ..

وهنا يتجلى مذهبان في كراهة الباطل ، ويتجلى فارق واضح بين مذهب العلم ومذهب المريد .
فعَمَرَ كان ينكر الباطل انكار المحارب ، ويرفع له سلاحه حيثما رآه ، ومحمد كان ينكره ولا يرفع له سلاحه حيثما رآه ... لأنه يعلم ضرباً من الباطل وضرباً من الانكار .

ومن الانكار أحيانا أن يتجاوز عنه ، وأن يشفق عليه اشفاق الرجل على سخف الطفل الصغير ، وأن يتربص به الأيام حتى يزول ، وأن يعالجه بسلاح المحارب وبغير سلاح المحارب ، وهو بذلك قد أعدّ له ضرباً من الانكار ، وكان أكمل عدة له من الراصدين له في ميدان واحد .

أنقول ان الفارق بين محمد وعمر في هذا هو الفارق بين نبيّ وخليفته !؟
ان قلنا ذلك فقد قلنا حقاً جامعاً لاشبهة فيه ، ولكننا لا نعدو به تحصيل الحاصل وتكرير الأسماء .. فمحمد " نبيّ " وعمر خليفة مافى ذلك خلاف . ولا بد بينهما من فارق مافى ذلك خبر " جديد " ، فما هو الفارق الذي لا يعدو تكرير الأسماء أو تكرير الصفات ؟

الفارق فيما نرى هو الفارق بين انسان عظيم ورجل عظيم .

فالنبي لا يكون رجلاً عظيماً وكفى ، بل لابد أن يكون انساناً عظيماً فبه كل خصائص الانسانية الشاملة التي تتم الرجولة والانوثة والأقواء

والضعفاء ، وتهينه للفهم عن كل جانب من جوانب بنى آدم . فيكون عارفا بها وان لم يكن متصفا بها ، قادرا على علاجها وان لم يكن معرضا لأدوائها ، شاملا لها بعطفه وان كان ينكرها بفكره وروحه ، لأنه أكبر من أن يلقاها لقاء الأنداد (١) ، وأعذر من أن يلقاها لقاء القضاة ، وأخبر (٢) بسعة آفاق الدنيا التي تتسع لكل شيء بين الأرض والسماء ، لأنه يملك مثلها آفاقا كآفاقها ، هي آفاق الروح .

ومن الصغائر الآدمية التي كثيرا ما يطيقها الانسان العظيم ويبرم بها الرجل العظيم كل غرور صياني يحيك بنفوس الناس ، وهو ضروب ليست لها نهاية : غرور الشاعر بأماذيجه ، وغرور الفنان بصنعتيه ، وغرور المرأة بجمالها ، وغرور الشيخ بترائه ، وغرور الأحقق بخيالاته ، وغرور انجاهل بعلمه .. وفي كل ضرب من هذه الضروب كان بين محمد وعمر فاروق واضح وتفاوت محسوس ، وكانت بينهما دروس تجرى بها الحوادث تعليماً وهدى كما تجرى عرضا غير ظاهر فيه قصد التعليم والتلقين .

وعمر رضى الله عنه قد استفاد من دروس معلمه وهاديه في هذه الضروب شتى الفوائد ، كما ظهر من سياسته في أيام خلافته ومن مراجعة نفسه والنبي عليه السلام بقيد الحياة .

فقد أشار على النبي بقتل عبد الله بن أبي بن سلول حين مشى بالفتنة بين المسلمين . فأبى النبي وترك عبد الله يمضى في شططه حتى أنكره قومه وعشقه ، وتصدى له من صلبه من يريد له الموت (٣) ، فقال النبي لعمر حين بلغه ذلك من شأنهم : كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقبله لأرعدت له أنف ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته ، قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى . وكان عمر يستكثر صلاة النبي على عبد الله بن أبي بعد موته ويستعظم

(١) الأنداد : جمع ند وهو النظير الكفاء . (٢) أخبر : أكثر خبرة .
(٣) كان من المنافقين وهو الذى قال في غزوة بنى المصطلق " لن رجعنا الى المدينة ليخرجن الامر منها الاذل " فغضب الرسول والصحابة لقولته .

أَنْ يَهَبَهُ قَمِيصَهُ وَأَنْ يَكْفَنَهُ أَهْلُهُ فِي ذَلِكَ الْقَمِيصِ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يَرْعَى فِي ذَلِكَ حَقَّ ابْنِهِ الَّذِي أَخْلَصَ فِي إِسْلَامِهِ ، وَبَلَغَ مِنْ إِخْلَاصِهِ أَنَّهُ اقْتَرَحَ عَلَى النَّبِيِّ قَتْلَ أَبِيهِ ، وَسُئِلَ النَّبِيُّ كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ : لِمَ وَجَّهْتَ إِلَيْهِ بِقَمِيصِكَ وَهُوَ كَافِرٌ ؟ فَقَالَ : إِنْ قَمِيصِي لَنْ يَغْنِيَ عَنْهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، وَإِنِّي أَوْمِلُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَدْخُلَ فِي الْإِسْلَامِ كَثِيرًا بِهَذَا السَّبَبِ ؟ فَقِيلَ إِنَّ أَلْفًا مِنَ الْحَزْرَجِ أَسْلَمُوا لَمَّا رَأَوْا زَعِيمَهُمْ يَطْلُبُ الْإِسْتِشْفَاءَ بِشُوبِ الرَّسُولِ ، وَخَرَجَتْ الصَّحَابَةُ وَعِشْرٌ فِي طَلِيعَتِهَا بِعَبْرَةٍ بَاقِيَةٍ مِنْ هَذَا الدَّرْسِ النَّبَوِيِّ الْحَكِيمِ ..

وَشَبِيهَ بِدَرَسِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي دَرَسِ الْخَطِيبِ الْمَفُوهِ سَهِيلَ بْنِ عَمْرٍو الَّذِي أَسْرَ فِي بَدْرٍ فَأُشَارَ عَمْرٌ عَلَى النَّبِيِّ بِكَسْرِ ثِيَابِهِ السُّفْلِيِّينَ لِيَعْجَزَ عَنِ الْكَلَامِ إِذْ كَانَ مَشْقُوقَ الشَّقَةِ السُّفْلَى .. فَأَبَى النَّبِيُّ « عَسَى أَنْ يَقُومَ مُقَامًا لَا تَذْمُهُ » ، فَمَا زَالَ وَمَا زَالَ عَمْرٌ حَتَّى رَأَاهُ فِي حُرُوبِ الرِّدَّةِ يَقْطَعُ بِلِسَانِهِ كَمَا يَقْطَعُ السَّيْفُ ، فَحَمَدَ لَهُ ذَلِكَ الْمَقَامَ .

وَجَاءَ الْفَتْحُ بَعْدَ صَلَاحِ الْحَدِيثِ فَرَأَى عَمْرٌ كَمَا رَأَى الْمَعَارِضُونَ مَعَهُ أَنْ قَرِيشًا خَسِرَتْ وَلَمْ تَرْبِحْ بِالصِّلَاحِ الَّذِي عَارَضُوهُ ، وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ رَبِحُوا وَلَمْ يَخْسِرُوا بِقَبُولِهِ ، وَأَنَّهُمْ زَادُوا عِدْدًا وَزَادُوا حُلَفَاءَ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنَّ الَّذِينَ رَفَضَهُمُ النَّبِيُّ مِنْ تَابِعِيهِ عَمَلًا بِالصِّلَاحِ لَمْ يَنْفَعُوا قَرِيشًا بَلْ كَانُوا بَلَاءَ عَلَيْهَا أَشَدَّ مِنْ بَلَاءِ الْقِتَالِ . وَبَدَأَ ذَلِكَ مِنْ مَبْدَأِ الْأَمْرِ لِعَمْرِ فَاغْتَبَرُ بِهِ وَقَالَ : « مَا زِلْتُ أَتُصَدِّقُ وَأُصُومُ وَأُصَلِّي وَأُعْتِقُ مِنَ الَّذِي صَنَعْتُ يَوْمَئِذٍ مَخَافَةً كَلَامِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ حَتَّى رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا » .

وَتَجْتَمِعُ خِلَاصَةُ هَذِهِ الدَّرُوسِ كُلِّهَا فِي خَبَرٍ وَاحِدٍ مِنْ أَخْبَارِ عَمْرِ بَعْدَ وِلَايَتِهِ الْخِلَافَةِ ، وَذَلِكَ حِينَ بَلَغُوهُ فَتَحَ « تَسْتَرُ » وَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ رَجُلًا ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ فَقَتَلُوهُ ، فَلَامَهُمْ عَلَى قَتْلِهِ وَقَالَ لَهُمْ : « هَلَا أَدْخَلْتُمُوهُ بَيْتًا وَأَغْلَقْتُمْ عَلَيْهِ وَأَطْعَمْتُمُوهُ كُلَّ يَوْمٍ رَغِيْفًا فَاسْتَبْتُمُوهُ (١) ؟ اللَّهُمَّ إِنِّي لَمْ أَشْهَدْ وَلَمْ أَمُرْ

(١) اسْتَبْتُمُوهُ : وَجُودُ تَوْبَتِهِ

ولم أرض اذ بلغنى .

فهذا عمر تلميذ محمد في الاسلام ، وهذا عمر شاهد دروس ابن سلول
ومن على شاكلته من المنافقين والمشركين ، وهذا عمر المستفيد بما وعى من
تلك الدروس ، ومعنى ذلك جميعه أن محمدا أعظم من عمر ، وليس معناه
أن عمر لم يكن بعظيم .

ومن تحصيل الحاصل أن نقول إن النبی علیه السلام كان يعلم ما يحتاج
إليه صاحبه وما يستغنى عنه من الدروس . فعمر لم يعوزه قط درس
قوى يعلمه حب الحق وكره الباطل لأنها خليفة متمكنة منه أصيلة فيه
موشوجة (١) بطبعه ، ولكنه قد يعوزه حيناً بعد حين أن يتعلم الصبر على
الباطل ولا سيما في فوعة الشباب (٢) والا يأسى على الحق أن تفوته
معركة زائلة في صراعه الدائم مع خصمه القديم ، فهي معركة لا تضيع بصدمة
ولا تؤخذ بهجمة ، ولا تزال سجلاً منظورة العواقب في ساعة النصر وساعة
الهزيمة على السواء .

وربما أعوزه ما يعوز الأقوياء في معظم الأحيان ، وهو أن يذكروا أن
الناس جميعاً ليسوا بأقوياء ، وأن الناس جميعاً ليسوا بعمر بن الخطاب ،
فاذا استطاع عمر أن يمنع الخمر مرة واحدة فقد يشق ذلك على آخرين ،
واذا استطاع أن يتصدى للموت في كل لحظة فليس ذلك في وسع كل مسلم
وقلما يستحضر الأقوياء هذه الحقيقة الا بعد تذكير وروية . أما على البداة
فهم يقيسون الناس على أنفسهم ويحسبونهم أهلاً لما هم أهل له وكفوا لما هم
قادرون عليه ، ولهم من الشرف في نسيان هذه الحقيقة فوق ما لهم من
الشرف في تذكارها ودوام استحضارها .

وقد كان تفكير عمر كله على البداة في عهد النبی علیه السلام ، فكان
يُفَضِّلُ إليه بما يوحيه عفو خاطره وتمليه بادرة فكره (٣) ، مطمئناً إلى
مرجع الرأي ومقنطع القول بين يديه ، شاعراً بواجبه الأول أحسن

(١) موشوجة بطبعه : أى موصولة به مرتطة
(٢) فوعة الشباب : حدة
(٣) تمليه بادرة فكره : أى بما يتأتى له من الراى السرى

شعور في هذا المقام ، لأنه شعور الرجل الكريم الذي لا يرضى بشيء من عونه ، فهو يعرض أقصى ما عنده من البأس ويدع لصاحب الأمر أن يكتفي باليسير منه اذا شاء ، ولكن ليس عليه هو أن يعرض اليسير ويترك لصاحب الأمر أن يطلب الكثير .

مثل عمر في هذه المواقف مثل صاحب المال تنزل الضائقة الحازبة (١) فيسقط ما عنده من المال جميعا ويدع للوالى القائم بالتدبير أن يختار من ماله مقدار ما يريد ، وذلك أفضل الحسنيين وأكرم الواجبين ، وهو الواجب الذى يليق بعمر في صحبة الرسول .

ولا يحسن "قارىء" أننا نعتسف (٢) التأويل والتخريج لننظر الى عمر في أجمل الصور ونوجه أعماله أحسن توجيه . فما نقوله هنا لا يعدو تفسير عمر نفسه لما اتصف به من الشدة في عهد رسول الله ، وتفسيره -- كما قال غير مرة -- أنه كان سيفاً للرسول ان شاء ضرب به وان شاء أغمدته في قرابه ، وأنه كان جلوازه (٣) القائم بين يديه ، وليس من شأن الجلواز أن يمسك كثيراً أو قليلا من بأسه حتى يؤمر بامساكه ، ويؤرد الى الهوادة واللين .

بل هذا الذى نقوله هو الذى قاله أبو بكر رضى الله عنه في شدة عمر ولينه ، فكلما تحدثوا اليه بغلظته قال : انما يشتد لأنه يرانى لنا ، ولا غلظة على الضعفاء فيه !

فكان جميلا بعمر أن يسهو عن تلك الحقيقة وأن يحتاج فيها الى تذكير واستحضار ، وكان أفضل واجيبه لا مرء أن يعرض البأس حتى يؤبى ، ثم يثوب الى اللين ولا جتأح عليه .

وهو اليقين الذى لا يخامرنا الشك فيه أن عمر كان خليقا أن يفهم تلك الحقيقة بتفصيلاتها لو جعل باله اليها ولم يجعل باله الى تقديم ما عنده

(١) الحازبة : الشديدة
(٢) الامتساف : الاخذ على غير الطريق ، يعنى أننا لا نحمل التأويل فوق ما يطبق .
(٣) الجلواز : الشرطى

« والجلود بأقصى جوده » في انتظار القول الفاصل من رأى النبي عليه السلام ، ولولا استعدادده لفهم تلك الحقيقة وما شابهها لما انتفع بالقدوة ولا أغنت معه المثلل والتجارب .

ومهما يكن من حاجته الى دروس معلمه وهاديه فالذى نعتقده أن مكانه من الخلافة لم تقرره الحاجة الى تلك الدروس ، لأن الصحابة كلهم على حكم واحد في هذا الاعتبار سواء منهم الخلفاء الراشدون وغير الخلفاء الراشدين . فما من رجل كان بين أصحاب محمد عليه السلام الا كان مفتقرا الى جانب من جوانب هديه وتهذيبه وتقويمه ، وما كان عمر على التخصيص بأشد افتقاراً الى ذلك من رفاقه وتابعيه وان اختلف مايعتوره وما يعوزهم من مواضع الهدى ، والتهذيب ، والتقويم .

وواضح مع هذا أن دعوة النبي عليه السلام أبا بكر للصلاة بالناس في مرض وفاته لم تكن بالمصادفة ولا بالاختيار الذى يتساوى فيه أبو بكر وعمر في ذلك المقام . فقد دعاه ثم دعاه حتى وصل الأمر اليه رضى الله عنه فلباه . وتفصيل ذلك كما جاء في رواية البخارى أن النبي اشتد عليه المرض فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس : قالت عائشة رضى الله عنها : إن أبا بكر رقيق القلب اذا قام في مقامك لا يكاد يسمع الناس من البكاء . فلو أمرت عمر ؟ فعاد النبي يقول : مروا أبا بكر فليصل ! فعاودته ، فقال مرة أخرى : مروه فليصل ، انكن صواحب يوسف (١) . وحدث عبد الله بن أبى زمعة أن بلالا دعا النبي الى الصلاة فقال : مثروا من يصلنى بالناس ، « فخرجت فاذا عمر في الناس ، وكان أبو بكر غالباً . فقلت : قم يا عمر فصل بالناس . فقام ، فلما كبتر سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته ، وكان عمر رجلاً مشجهاً (٢) : فقال : فإني أبو بكر ؟ يا بى الله ذلك والمسلمون . فبعث الى أبى بكر فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة فصلى بالناس » .

(١) العبارة تحمل معنى اللوم والعتب على النساء ، والإشارة الى موقف النساء في قصة يوسف عليه السلام . (٢) مجهر : مرفق المبروت .

قال عبد الله بن أبي زمعة^١ إن عمر لقيني فقال لي : ويحك ! ماذا صنعت
بي يا ابن أبي زمعة ؟ والله ما ظننت^٢ حين أمرتني إلا أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم أمرك . ولولا ذلك ما صليت بالناس ... قلت : والله
ما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ! ولكن حين لم أر أبا بكر
رأيتك أحق^٣ من حضر بالصلاة .

والواضح من كلتا الروايتين أن النبي عليه السلام قصد الى اختيار
أبي بكر للقيام في مقامه من امامة المسلمين وضمن ذلك ما ضمنه من معنى
الاستخلاف والتقديم .

فعلى أى وجه نفهم هذا الاختيار الذى صدر عن قصد وروية ولم
يصدر عن مصادفة واتفاق ؟ وعلى أى وجه تساءل النبي عليه السلام حين
سمع صوت عمر^٤ ولم يسمع صوت أبي بكر فقال : « يا أباي الله ذلك
والمسلمون » ؟

اننا لا نفهم ذلك الا على وجه واحد يجمل بمحمد ويجمل بأبي بكر
ويجمل بعمر كما يجمل بالمسلمين .

فمن البديه أن ينظر النبي في اختيار خليفته الى جميع الاعتبارات التى
تدخل في الحساب ولا يقنع بالنظر الى اعتبار واحد . . .

فاذا نظر النبي الى جميع الاعتبارات فأى غضاضة على عمر أن يقع
الاختيار على أبي بكر ولا يقع عليه ؟

ان اختيار أبي بكر يجمع للاسلام فضائل الرجلين ولا غضاضة فيه
على أحدهما ولا على المسلمين . ولكن الغضاضة أن يتأخر أبو بكر وهو
أسن^٥ وأسبق الى الاسلام وثانى اثنين في الغار ، وأقمن^(١) أن تبطل
حول منافسة الأنداد، وله رأى الصائب والشجاعة الماثورة والايمان الثابت
والمسألة المرضية والحق الظاهر فى الاثار كلما قول بغيره من الحقوق .
ومع هذا الرجحان الذى انفرد به أبو بكر ترجيح^٦ آخر لاستخلافه فى

(١) اقم : اجبر واولى .

الموقف الذى كان منظوراً بعد موت النبى عليه السلام ، وهو موقف رضى ومسالمة بين المسلمين يُغنيان اذا جرت الأمور فى مجراها الطيب المأمون . فاذا تأزمت واضطربت ونفدت حيلة اللين حتى نبذه أبوبكر فى رفقته وهوادته فذلك إذن موطن الاجماع ، واذا صلب غيره واجتمعت كلمتهم على الصلابة ولم يبق من يلين فى الأمر سواء فصلابتهم أقمنُ إذن أن تنعطف بليته الى الاجماع الذى لا شذوذ فيه .

فالنبى عليه السلام قد حسب للعواقب كل حساب ، وقد نظر فى استخلافه الى كل اعتبار ، وقد وازن بين أمور كثيرة ولم يوازن بين صاحبين ليس بينهما محل للتنافس والملاحاة .

ومما نظر اليه عليه السلام أن عمرَ أصغر من أبى بكر بعشر سنوات أو نحو ذلك . فدور أبى بكر لا يحجب دور عمر ، واذا انتفع الإسلام بمزايا أبى بكر فى حينها الذى هو أحوج اليها فسيستفيع الإسلام بمزايا عمر فى الحين الذى يتولاه فيه ، يومَ تغنى الصلابة فى مدافعة الأعداء ما أغناه الرفقُ فى تأليف الأوداء (١) .

ولا يحسبن قارئ هنا أيضاً أننا نستخلص النتائج من التاريخ وندرك ما كان بعد أن كان ، فالواقع المنصوص عليه أن الذى رأيناه بعد وقوعه قد كان منظوراً اليه قبل أن ينكشف عنه الغيب ، وقد نظر اليه النبى عليه السلام فقال : « أُرريت فى المنام أنى أنزع بدلو بكره على قلبه ، فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً أو ذنوبين نزعا ضعيفاً ، والله يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غزراً ، فلم أر عبقرىا يفري فريره ، حتى روى الناس وضربوا بعطن (٢) . ولم يخف معنى هذه الرؤيا على معبريها لأنها لا تحتمل غير تعبير واحد ، وهو الذى أشار اليه الشافعى رحمه الله ففسر ضعف الزرع بقصر المدة وعجلة الموت والاشتغال بحرب أهل الردة عن « الافتتاح والازدياد الذى بلغه عمر فى طول مدته » .

(١) الأوداء : جمع وديد وهو صاحب المودة .

(٢) القلب : البئر ، والذنوب : الدلو الملوئة ، والعطن : مبرك الإبل حول الماء والغرب : الدلو العظيمة .

ويجوز أن النبي عليه السلام قد أدخل في حسابه تقديرات أخرى من هذا القبيل لا يحيط بها أبناء عصره ولا نراها نحن في عصرنا . فلهذه المسائل في جميع العصور نواحيها الموضوعية ونواحيها الخاصة التي لا يدركها كل من عاش بينها ولا يتأتى نقلها بالكتابة والتدوين . ومتى كانت هذه هي التقديرات التي فصّلت في مسألة الترشيح للخلافة نأى غضاضة فيها على عمر .. ؟ انها شيء لا يتناوله وحده ، وليست لكفاءة أبي بكر ولا لكفاءته هو كل اليد فيه ، وان الذي حدث لا يعدو أن يكون موازنة بين أحوال ثم تقديم للصالح في تلك الأحوال ، أو هو تأخير موعد ومناسبة وليس بتأخير حق وكفاءة ، فأبو بكر كفاء للخلافة ، وعمر كفاء للخلافة ، ولكن تقديم أبي بكر أصلح وأولى وأوفق لأحوال الزمن ولكرامة الصحابة والمسلمين أجمعين .

وانك لتكونن على ثقة من حقيقة واحدة في رهط محمد تجزم بها وأنت آمن" أن تخالف التاريخ فيما بطن وفيما ظهر .. وذلك أنه عليه السلام لم يجزم قط أمرا فيه غضاضة على أحد من أصحابه ، ولا سيما في مسألة الاستخلاف أو التقديم للإمامة والصلاة بالناس ، فكل الذي حدث فيها فهو الذي يجعل بالنبي من تقدير وتدبير ، ويجعل بصاحبه من إثارة وتوقير ، ويجعل بالإسلام من تمكين وتعمير ، واتفاع بعمل كل عامل ، واقتدار كل قدير .

بقى جانب من جوانب العلاقة بين النبي وعمر لا يسكت عنه لكثرة ما قيل فيه ، فضلا عن وجوب النظر فيه لأنه يتم العلم بتلك العلاقة ويزيدنا فهما لها واستقصاء لمداها واطلاعا على طريقة عمر في الموازنة بين الواجبات والشئون حيثما اشتجرت بين يديه ، ونريد به جانب العلاقة بين عمر وآل البيت ، وبين عمر وابني عم النبي الكبيرين علي* وابن عباس بعد انتقال النبي الى الرفيق الأعلى .

فالذين أولعوا في التاريخ بخلق القضايا والمخاضات يقولون كثيرا في

هذه العلاقة ، ويمثلون عمر على صورة الرجل الذي كان يتحدى بني هاشم ويناجزهم مناجزةً لعصية فيه عليهم ، ولكنهم لا يذكرون من الوقائع ما يعزز شبهة أو يرجح بظن في هذه الوجهة . وكل ما حفظته لنا أنباء العصر فانما تخلص بنا الى الخلاصة التي تجمل بعمر وتحمّد منه . وهي الوفاء المحض لذكرى النبي عليه السلام في آله وخاصة بيته ، والأمانة المحض لمصلحة العرب والاسلام مقدمة على كل مصلحة خاصة أو عامة ، وكل ما عدا ذلك لغو وباطل .

فعند تقسيم الأعطية كان لآل النبي النصيب الأوفى والمكان المقدم بين الصحابة ، وكان لهم التفضيل في كل حق من حقوق المسلمين حسبما كان بينهم وبينه عليه السلام من رحيم وقربة ، وفضلهم عمر على أقرب الناس اليه في اللقاء والحفاوة ، فكان في بعض الأيام ينتظر الحسين بن علي رضي الله عنه فذهب اليه الحسين فلقى عبد الله بن عمر في الطريق فسأله : من أين جئت ؟ قال : استأذنت على عمر فلم يأذن لي . فرجع الحسين ولم يذهب اليه .. ثم لقيه عمر معاتباً وسأله : مامنك يا حسين أن تأتيني ؟ قال : قد أتيتك ولكن أخبرني عبد الله بن عمر أنه لم يؤذن له عليك فرجعت .. فعز ذلك على عمر وقال له : وأنت عندي مثله ! وأنت عندي مثله ؟ وهل أثبت الشعر على الرأس غيركم ؟

وكسا عمر أصحاب النبي فلم يكن في الأكسية ما يصلح للحسن والحسين رضي الله عنهما ، فبعث إلى ائيمين فأتى لهما بكسوة تصلح لهما وقال حين رآها : الآن طابت نفسي !

وسافر الى الشام فاستخلف علياً رضي الله عنه على المدينة . وأخذ نفسه باستفتائه والرجوع اليه في قضائه متخرجاً من دعوته اليه حين يحتاج الى سؤاله . استفته بعضهم في مجلسه فقال : اتبعوني ، وأخذهم الى علي* فذكر له المسألة فقال علي : ألا أرسلت إلي ؟ قال عمر : أنا أحق بإتيانك . وكذلك كان يستفتي ابن عباس في الدين والأدب ولا يلقاه باحثاً

مسترسلا في الحديث الا قال له معجبا متبسطا : غص غصا (١) وقلما سئل في أمر وابن عباس حاضر الا قال يشير اليه : عليكم بالخير بها .

ولم يحجم عن توليتهم الولايات الا كما أحجم عن تولية الجيكة من الصحابة ورؤوس قريش الذين أبقاهم عنده للمشورة وصانهم عن محاسبته وعتابه . وفي ذلك يقول لابن عباس : اني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وترككم .. والله ما أدري أصرفكم عن العمل أو رفَعكم عنه وأتم أهل ذلك ؟ أم خشي أن تساعدوا لمكانكم منه فيقع العتاب عليكم ، ولا بد من عتاب ؟

أما مسألة الخلافة فالذي يزعمه فيها الذين يخوضون في القضايا والمخاضات أن عمر رضى الله عنه تعمد أن يحول بين علي والخلافة بصرفه النبي عن كتابة الكتاب الذي أراد أن ييسط فيه وصاياه فلا يضل المسلمون بعده ، ويزعمون أنه هو قد حال بين علي والخلافة مرة أخرى يوم تركها للشورى ولم يستخلفه باسمه لولايتها .

واستكثروا من عمر صرامته في دعوة علي الى مبايعة أبي بكر كما جاء في بعض الروايات التي ترجع صحتها ، وخلصتها « أن عمر أتى منزل علي وبه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين فقال : والله لأحرقن عليكم الدار أو لتخرجن الى البيعة ، فخرج الزبير مئسلا بالسيف فسقط السيف من يده فوثبوا عليه (٢) فأخذوه .. » ، أو قال لهما في رواية أخرى : « والله لتبايعان وأتما طائمان ، أو لتبايعان وأتما كارهان » .

فاستكثر المستكثرون هذه الصرامة وعدوها من اصرار عمر على الاجحاف بعلي واقصاء بنى هاشم عن الخلافة .

(١) الفومس : النزول تحت الماء ، يقال : فلان يغوص على حقائق العلم ، اذا كان كثير البحث فيه .
(٢) مئسلا بالسيف : مجردا السيف من غده .

أما القول بأن عمر هو الذى حال بين النبى عليه السلام والتوصية باختيار على للخلافة بعده فهو قول من السخف بحيث يسىء الى كل ذى شأن فى هذه المسألة ، ولا تقتصر مساءته على عمر ومن رأى فى المسألة مثل رأيه .

فالنبى عليه السلام لم يدع بالكتاب الذى طلبه ليوصى بخلافة على أو خلافة غيره ، لأن الوصية بالخلافة لا تحتاج الى أكثر من كلمة تقال ، أو اشارة كالاشارة التى فهم المسلمون منها ايثار أبى بكر بالتقديم ، وهى اشارته اليه أن يصلى بالناس .

وقد عاش النبى بعد طلب الكتاب فلم يكرر طلبه ولم يكن بين على وبين لقائه حائل ، وكانت السيدة فاطمة زوجة على عنده الى أن فاضت نفسه الشريفة . فلو شاء لدعى به وعهد اليه .

وفضلا عن هذا السكوت الذى لا اكراه فيه نرجع الى كل سابقة من سنن النبى فى تولية الولاية فنرى أنه كان يجنب آله الولاية ويمنع وراثة الأنبياء ، وهذه السنة مع هذا السكوت لا يدلان على أن محمدا صلوات الله عليه أراد خلافة على فحيل بينه وبين الجهر بما أراد .

ولم يعتمد عمر على الشورى فى اختيار الخليفة بعده وله منسوخة عنها . فقد رأى من أصحابه — كما قال — حرصا سيئا وخلافا لا يحسمه رأى واحد ، وكانت حيرته عظيمة بين الاستخلاف وترك الاستخلاف ، فلما قيل له وهو طعين يودع الحياة : ماذا تقول لله عز وجل إذا لقيتك ولم تستخلف على عبادي ؟ .. أصابته كآبة ، ثم نكس رأسه طويلا ثم رفع رأسه وقال : « ان الله تعالى حافظ الدين ، وأى ذلك أفعل ؟ فقد سنن » . إن لم أستخلف فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستخلف ، وإن استخلفت فقد استخلف أبو بكر .

واختار للشورى فى أمر الخلافة أناسا ليس بين المسلمين أولى منهم بالاختيار ، وكانهم كانوا مشككين بأسمائهم لهذه المهمة لو لم يرشحهم

هو لرشحهم لها كل مختار .

ولم يكن الفسك من التبعة هو الذى أوحى اليه أن ينفض يديه ويلقى بالعبء على عواتق غيره . فعمد لاينجو بنفسه ليوقع أحدا فيما يحاول النجاة منه ، ولكنه قدّر أن الرجل الذى تختاره كثرة المحكّمين هو أولى أن ينعقد عليه الاجماع ، وينحسم بترجيحه النزاع . فمن خرج عليه فهو باغى فتنة يتبعها الأقلون ويردعها الأكثرون .

وكان مع هذا يود لو اجتمع رأى على اختيار على بعد المشاورة فقال لابنه : لو ولّوها الأجلح « أى المنحسر الشعر » لسلك بهم الطريق ، فسأله ابنه : فمّا ينعك يا أمير المؤمنين أن تقدّم علينا ؟ قال : آثره أن أحملها حيا وميتا .

وفيما عدا الاستخلاف بعد النبى والاستخلاف بعد عمر فالسياسة التى جرى عليها عمر كانت كلشها سياسة عامة قائمة على أساس عام لا تفرقة فيها بين بنى هاشم وغيرهم ولا بين على وغيره .

فكان يكره أن تستأثر بالأمر عصابة دون غيرها بالغة ما بلغت منزلتها ، ولم يكره ذلك من بيت هاشم دون سائر البيوت .

كان يحجّر على وجوه قريش أن يخرجوا إلى البلدان إلا باذن والى أجل ، وبلغه أنهم يشكونه فأعلن فى الناس « ان قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونة على ما فى أنفسهم . ألا ان فى قريش من يضمم الفرقة ويروم خلع الربقة (١) ، أما وابن الخطاب حى فلا . ان أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم فى البلاد » .

وكان يزجر قومه بنى عدى كلما أحس منهم الطمع فى خلافته لأنه واحد منهم ، فيصارحهم قائلا : « بخ بخ بنى عدى . أردتم الأكل على ظهري ، وأن أهب حسناتى لكم ، لا والله حتى تأتيكم الدعوة وإن أطبق عليكم الدفتر .. » أى وان كتبتم فى الأعطية آخر الناس . وهو

(١) الربطة جبل تشد به البهيمة . وفى الحديث « خلع ربطة الاسلام من عنقه » .

الذى أبى أن يختار ابنه للخلافة وقال للمغيرة بن شعبة الذى زين له استخلافه : « لا أرب^(١) لنا فى أموركم ، وما حمّدتها فأرغب فيها لأحد من بيتي . ان كان خيرا فقد أصبنا منه ، وان كان شرا فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد » .

وجمع عليا وعثمان فى مجلس الشورى لاختيار الخليفة فالتفت الى على فقال : « اتق الله يا على إن ولّيت شيئا ، فلا تحملن^٢ بنى هاشم على رقاب المسلمين » .

والتفت الى عثمان فقال : « اتق الله ان ولّيت شيئا فلا تحملن^٢ بنى مطيح على رقاب المسلمين » ، أو قال بنى أمية .

وكان أكبر همه أن يعصم الاسلام من الملك الذى يستأثر به مستأثر لأناس دون أناس ، وكثيرا ما سأل : والله ما أدري أخليفة^٣ أنا أم ملك ؟ مستعيذا بالله من كل سلطان لا يعم جميع رعاياه بالخير .. وكلمته لابن عباس حيث قال : « ان الناس كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة ، وان قرىشا اختارت لأنفسها فأصابته » هى كلمته حيثما تكلم فى هذا الصدد لا يخص بها بيتا دون بيت ولا معشرا دون معشر ولا قبيلة دون قبيلة ، الا الأمانة لمصلحة المسلمين جميعا حيثما اتفقوا عليها أو كان لهم رجاء فى الاتفاق .

وما كانت لعمر صرامة مع على^٤ لم تكن له مع غيره فى مآزق الخوف من الفتنة والذود^٥ عن الوحدة . فقبل أن يسلم الروح كانت وصيته وهو لا يعلم من^٦ الخليفة بعده : « ان اجتمع خمسة ورضوا رجلا وأبى واحد فاشدخ^(٢) رأسه بالسيف ، وان اتفق أربعة فرضوا رجلا وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما ، فان رضى ثلاثة رجلا منهم وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله بن عمر ، فأى^٧ الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم ، فان لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم

(١) الأرب : الغرض والغاية .

(٢) الشدخ : كسر الشوى الأجوف .

عبد الرحمن بن عوف ، واقتلوا الباقيين ، إن رغبوا عما اجتمع عليه
الناس .

وما اختار ابنه عبد الله للفصل بين الفئتين المتساويتين الا لأنه خارج
من الاختيار ، ثم لم يجعل له القول الفصل حتى يفتح للناس مخرجا من
رأيه ان شاءوا ألا يتبعوه .

ولن يَتَّقِىَ . بأمثل من هذا القضاء في مأزق الفتنة أحد له قضاء
عادل منزّه عن خبايا القلوب .

فما اتخذ عمر من حكم بين الناس فهو الحكم الذى يجمل به
ويحكمك منه ولا ينتفع به قبل أن ينتفع سائر الناس . هو الحكم
الذى يعم ويعدل ولا يخص ويحيز ، وهو الحكم الذى لو مثل فيه
النبي سيد بنى هاشم لأعاد فيه قوله : « عمر بن الخطاب معى حيث أحب ،
وأنا معه حيث يحب ، والحق بعدى مع عمر بن الخطاب حيث كان » .

عُمَرُ وَالصَّحَابَةُ

بايع عمرُ فبطلَ الخلافُ إلا ما لا خطر فيه .
وبويعَ عمرُ فبطلَ الخلافُ إلا ما لا خطر فيه .
وقد تواترت أقوالُ الصحابةِ في عمرَ بما يَشِيدُ بفضله ويشهد بقدره
ويُكبرُ في أعين الناسِ أكبرَ من تقال فيه . لأن الذين قالوها أناس لهم
حُلوُم راجحة ، وألسنة صادقة ، وعقيدة راسخة ، وقلوب لا تهاب أن تقول
الحق في إنسان . ولكن الشهادتين اللتين شهد بهما الواقع أدل على قَدْرِ
عمر بين الصحابة من كل ما قيل . لأن شهادة الواقع هي الشهادة التي
يقولها الصادق باختياره ويحاول الكاذب أن يكذب فيها فلا يستطيع .
وانما يجوز الصدق والكذب فيما يملكه اللسان أو يملكه الشعور . أما
الشهادة التي تعبر عن نفسها بلغة الواقع فهي قائمة من وراء كلام الألسنة
ومن وراء هوى النفوس : انكارها كإنكار المحسوس الذي تقع عليه
الأيدي ولا تغمض عنه العيون .

وقد انتهت مسألة الخلافة بعد النبي بسلام .
ولكن انتهاءها بسلام لا يعنى أنها كانت ستنتهى وحدها بسلام على أية
حال ، ولا يعنى أنها انتهت لأنها من المسائل التي يؤمن فيها الخطر وتمتنع
فيها الفتنة . إذ الحقيقة أن انتهاءها على هذا النحو قد كان أعجوبة من
أعاجيب التاريخ ، مع ما يحيط بها من دواعي النزاع ومن كوامن القلق
والخوف على غير سابقة يستقيم بها العرف وتتضح بها معالم الطريق .

فما هو إلا أن لحقَ النبيُّ بالرفيق الأعلى حتى تحفزت دواعي النزاع
من كل فج ، وتكشفت كوامنُ القلق والخوف من كل مكن ، وجهل
أعلم الناس كيف تنجلي الغاشية ويستقر القرار .

فالأنصار يقولون انهم أحق بالخلافة من المهاجرين لأنهم كثرة
والمهاجرون قلة ، ولأنهم في ديارهم والمهاجرون طارئون عليهم ، ولأنهم
جميعا عرب مسلمون ولهم فضل التأيد والايواء .

والمهاجرون على قلتهم غير متفقين على اتفاق ينقصد به الاجماع ،
وحجتهم الغالبة أنهم السابقون الى الاسلام ومنهم جلة الصحابة الأولين .
وتسايرت الأحاديث بحق آل البيت النبوى في الخلافة النبوية، وبين آل
وجلان قويان هما على والعباس ، لو أصغيا الى هذه الدعوة ومضيا فيها
لمتخضت عن خطب عظيم .

وكان هذه العصبية لم تكف دعاة الخلاف حتى جاء أبو سفيان
يزيدها عصبية أخرى بالمفاخرة بين أكبر القبائل وأصغرها في قريش ،
فدخل على علي والعباس يثيرهما ويعرض عليهما النجدة والمعونة ،
ويتهيب بعلي باسمه ، ثم بالعباس باسمه : « يا علي ! وأنت يا عباس !
ما بال هذا الأمر في أذل قبيلة من قريش وأقلها ؟ والله لو شئت لأملأها
عليه - يعنى أبا بكر - خيلا ورَجَلا^(١) وأخذتها عليه من أقطارها^(٢) ..
فيجيبه علي بما هو أهله « لا والله لا أريد أن تملأها علي خيلا ورجلا :
ولولا أننا رأينا أبا بكر لذلك أهلا ماخلىناه وإياها » ، ثم يبلغ من كرم
النحيزة أن يؤنب أبا سفيان من طرف خفي على سعيه في هذه العصبية
فيقول : يا أبا سفيان ! إن المؤمنين قوم نصحة^(٣) بعضهم لبعض ، وإن
المنافقين قوم غشاشة بعضهم لبعض ، متخاونون وإن قربت ديارهم
وأبدانهم ! » .

ولم تكن هذه العصبية كل ما هنالك من دواعي النزاع وكوامن القلق
والخوف ، فقد كان هنالك منافقون أسلموا وهم راغبون ، وكان هنالك
ضعفاء من المسلمين يقفون على شفير^(٤) من الفتنة لا يلبث أن يضطرب

(١) الرجل جيع راجل ، وقوله « لاخذنها عليه من أقطارها » تهديد بأنه سينزله من كل
ناحية وصوب .
(٢) شفير كل شيء : حافته .

تحت أقدامهم حتى ينهار ، وكان هنالك أناس لا ينصرون ولا يَخذُلون ، فهم إن لم يفسدوا في الأرض لا يصلحون .

وبين هذه المخاوف والنوازع تنتهى مسألة الخلافة بسلام فيكون انتهاؤها بسلام أعجوبة الأعاجيب . وتبحث عن سر هذه الأعجوبة أو عن سرها الأكبر فيغنيك فيها أن تذكر اسما واحدا هو اسم عمر بن الخطاب .. إلى أين كانت تلك الفتنة ذاهبة لو لم يقف في وجهها عمر وقفته المروية يوم السقيفة ؟

سؤال يدلك على سر تلك العجيبة قبل كل جواب . فما عثرف رأى عمر في البيعة حتى بطل الخلاف الا مالا خطر له . واطمأن من يوافق ، وعلم من يخالف أن خلافه لا ينفعه ، واجتمعت كلمة على مبايعة أبى بكر أو شكت أن تكون كلمات .

قال أبو بكر لعمر : أبسط يدك نبايع لك .

قال عمر : أنت أفضل منى . قال أبو بكر : أنت أقوى منى .

قال عمر : ان قوتى لك مع فضلك . لا ينبغي لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون فوقك يا أبا بكر . أنت صاحب الغار مع رسول الله ، وثانى اثنين ، وأمرك رسول الله حين اشتكى فصليت بالناس ، فأنت أحق الناس بهذا الأمر .

ووثب عمر فأخذ بيد أبى بكر ، فتواثب الجميع من عليّة الصحابة يتدرون البيعة ، ثم كان الغد فجلس أبو بكر على المنبر وتكلم عمر بين يديه يقول للناس : « ان الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثانى اثنين اذ هما فى الغار ، وأولى الناس بأموالكم فقوموا فبايعوا » ..

فكانت البيعة العامة ، وثررت شجرة الخلاف لجفاف ، فان لم تذبل لساعتها فى وشيكة ذبول ..

بايع عمر فقطعت جبهة قول كل خطيب .

وذلك قدر عمر عند الصحابة ، وقدره عند أبي بكر ، وقدره عند الله ،
تعني شهادة السرائر فيه عن شهادة كل كلام .

وفي تلك الكلمات الموجزات التي تبادلها الصديقان العظيمان خلاصة
نقد الناقلين وبحس الباحثين ، وحكم التاريخ في أبي بكر وعمر ، وفي
موقف الخلافة من بدايته الى منتهاه .

قال عمر : انك أفضل مني . وقال أبو بكر : انك أقوى مني .
وقال عمر : ان قوتي لك مع فضلك .

صدقاً غاية الصدق ، وجمالاً غاية الجمالة ، وقضياً بالعدل والحكمة
والإخاء ، وتركاً التاريخ يقول ما يقول ويسهب ما يسهب ، ثم لا يزيد في فحواه
كلمة على ما ضمنت تلك الكلمات الموجزات .

ولقد كان من قوة عمر أنه كان يراجع أبا بكر في خلافته حتى يرجع
عن رأيه ، وكان من فضل أبي بكر أنهم يسألونه مستشيرين : والله ما ندرى
أأنت الخليفة أم عمر ؟ فيقول : هو لو كان شاء !
وكان فضل أبي بكر وقوة عمر جمعا لا يشذ عنه مكابر ، ومن شذ
عنه فما له من فضل ولا من قوة ينفعانه .

بل كان الرجلان على اختلافهما في المزاج كأنهما رجل واحد يراجع نفسه
بين الرأيين المختلفين ، حتى يستقر على أحدهما فإذا هو رأى جميع " لاخلاف
فيه ، لأنهما يصدران عن عقيدة واحدة ، ويتجهان الى غرض واحد ، فهما
غير مفترقين الى أمد طويل

وأعجوبة الأعاجيب في هذا الأمر موقف الرجلين من المشكلة الكبرى
التي واجهتهما معا بعد موت النبي بأيام قلائل ، وهي مشكلة الردة
ونكوص العرب عن أحكام الدين ، وحيرة الصحابة الكبار فيما يعامل
به المرتدون .

وليس العجب أن يختلف أبو بكر وعمر في مشكلة كبيرة أو صغيرة ،
وانما العجب هو نوع هذا الخلاف الذي لم يتوقعه أحد . فيخالف أبو بكر

لأنه يجنح الى الشدة والصلابة ، ويخالف عمر لأنه يجنح الى اللين والهوادة
ثم يلتقيان ولا يتعارضان .

فأبو بكر يأبى الا أن يحارب الذين منعوا الزكاة ويقول مصرًا على
قوله : « والله لو منعوني عَنَّا قًا (١) لقاتلتهم على منعها » .

وعمر يقول له : « كيف تُقاتلهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ
عَصَمَ مِنْهُ نَفْسَهُ وَمَالَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ ، وَحَسَابُهُ عَلَى اللَّهِ ! » .

ويشارك عمر في رأيه جلة الصحابة كأبى عبيدة الذى قال فيه النبى
« انه أمين الأمة » ، وسالم مولى أبى حذيفة الذى قال فيه النبى « ان
سالمًا شديد الحب لله » ، وأناس من هذه الطبقة في صحابة الرسول .

ويعود أبو بكر فيقول : « ان الزكاة حق المال » ، وفيها نحارب بالحق .
ثم يتهيب بعمر : رَجَوْتُ نَصْرَتَكَ وَجِئْتُ بِخِذْلَانِكَ ؟ أَجِبَّارٌ فِي
الجاهلية وخوَّارٌ في الاسلام ؟

فإذا بعمر يثوب الى شدته بعد أن أفرغ أمانة الرأي كما قال : « ما هو
إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبى بكر للقتال حتى عرفت أنه الحق » ،
وما أسهل أن يُعرف الحق لمن يريد أن يراه ولا يغمض عينيه . أرجلان
هنا مختلفان أم رجل واحد ؟

قل هذا وذاك فالقولان مستويان . مادمت لاتنسى أن الرجلين المختلفين
معهما العقيدة الراسخة التى لاتفارقهما ، وطالما جمعت العقيدة جيوشا على
قاب واحد ، فضلا عن رجلين .

وانما كان يعيب عمر أن يعارض إذا كان في المسألة وجه واحد لا يحتمل
المعارضة بحال ، فأما أن يكون لها وجه آخر يبيده ويشرح حجته فالذى
يعيبه ويضير الاسلام أن يكتم ذلك الوجه وأن ينطوى عليه صامتا في
موقف البحث والمشاورة ، وهو الناصح الأمين .

ومسألة الردة قد كان لها وجه "آخر" غير الذي رآه أبو بكر رضي الله عنه ، وكان عمر خليفاً أن يرى ذلك الوجه الآخر لأنه موافق لمجمل آرائه في الحرب والسياسة . فقد كان بطيئاً الى الحرب كما عرفنا من عامة وصاياه وكان أبطاً ما يكون عنها اذا نشبت بين العرب أو المسلمين ، وكان جيش الاسلام بعيداً عن المدينة في غزوة الروم التي خرج بها أسامة بن زيد بعد قيام أبي بكر بالخلافة ، فالتريث الى أن يستكمل الاسلام عدته ويسترجع الغائبين من جنده وجه "غير ضعيف" ، أو هو في أقل الأمر وجه لا يحسن كتمانته عن الأمير المسئول .

وقد كان من عادة عمر أن يطيع صاحب التبعة متى وجبت الطاعة واستقر القرار ، فلا ضير إذن ألا يألوه جهده معارضة حتى يتبين مذاهب الرأي على اختلافها ، ثم هو مستعد بقوته لمعاوته بأقصى ما استطاع . ومثل هذا الرجل ، معارضته قوة "فوق قوة" وخير "لاضير فيه" .

وخليق بنا أن نفهمها على صوابها في مسألة الردة فنعلم بعد النظرة الثانية أنها من دلائل قوته المعهودة وليست من قسّات الضعف فيه ، لأنه رأى الرأي فلم يحجم أن يبيده ويشرح حجته ، جريئاً فيما رآه .

وعلى هذا الدأب ظل عمر قوة لأبي بكر بموافقته ومعارضته على السواء . وأصاب فيما قال له يوم بايعه : « ان قوتي لك مع فضلك » ، فكسب الإسلام خليفتين معا بتقديم أبي بكر للخلافة لأنهما لم يغييا بالخلافة مأرباً غير خدمة الاسلام .

ثم بويع عمر بالخلافة فبطل الخلاف الا مالا خطر فيه .

عرضها عليه أبو بكر فقال : لا حاجة لي فيها ، فقال أبو بكر « ولكن » لها بك حاجة "يا ابن الخطاب" ... وسأل خيرة أصحابه فقال له عبدالرحمن ابن عوف : هو والله أفضل من رأيك فيه ، وقال عثمان بن عفان : ان سريرته خير من علانيته ، وانه ليس فينا مثله ، وسأل أسيد بن الحضير فقال : « اللهم أعلمه الخيرة بعدك . يرضى للرضى ويسخط للسخط ، والذي

يسر خير من الذي يعلن ، ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى عليه منه .
وأجمع المهاجرون والأنصار على تزكية عمر وتصويب أبى بكر فى ترشيحه
ولعلمهم لم يذكروا من مناقبه الا ما هو به أعلم وأخبر ، فلم يزد ثناء المثنى
علما بصاحبه ! ولم يكن قدح القادح ليُخْلِفَ رأيه فيه ، لأنه على عرفانه
بالدنيا وعرفانه بالناس لا يجهل أن رجلا كعمر بن الخطاب فى حزمه وصدقته
أن يخلو من مبغض ، ولن يَبْغُضَهُ أحد لما يَحِبُّه ويحول بينه وبين ولايه
أمر المسلمين .

قال له وهو يمرض عليه الخلافة : « يا عمر ! أبغضك مبغض وأحببت
محب . وقد ما يَبْغُضُ الخير ويحب الشر » .
وان منهم لمن حذره شدة عمر وقالوا له : « انك كنت تأخذ على
يديه ولا تطيق غلظته ، فكيف وهو خليفة ؟ وما أنت قائل " لربك اذا
سألك عن استخلافه علينا ؟ »

فبلغ الصبر بالرجل الصبور مداه ، وأمر من حوله أن يجلسوه
فجلس ، فقال لمن خوفوه الله وعمر : « أبا الله تخوفوننى ؟ خاف من تزوّد
من أمركم بظلم . أقول : اللهم انى قد استخلفت على أهلك خير أهلك ! »
ولو شاء أبو بكر لقال ان ماخوفوه من شدة عمر لفضيلة من فضائله
اتى قدمته عنده على غيره ، فقد خاف عليهم الفتنة ، وكان أكبر حذره
أن تجيء الفتنة من أولئك الأعلام الذين يتبعهم الطغام (١) وليس له الا
غير عمر يرهبونه ويتقون الفتنة باتقائه ، فمن هنا وصاه فحذره « هؤلاء
النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين قد انتفخت
أجوافهم ، وطمحت أبصارهم ، وأحب كل امرئ منهم لنفسه » وقال
له : « ان لهم لحيرة عند زلة واحد منهم ، فاياك أن تكونه ، واعلم أنهم
لن يزالوا منك خائفين ماخفت الله ، ولك مستقيمى ما استقامت طريقتك »
فالذين حذروه عمر انما رغبوه فيه ولم يحذروه منه ، لأنه أراد لهم

(١) الطغام : جمع طغامة وهو الوغد .

من يخافونه ويستقيمون معه ، فكانت سيئته عندهم حسنة عند أبي بكر ،
ورجاء في صلاح أمر الأعلام والطفام .

فلما اتفق مدح المادحين ونقد الناقدين على إثارة عمر بالخلافة فرغ
أبو بكر من مشورته ، وأبرأ إلى الله ذمته ، ودعا بعثمان فأملى عليه :
« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ماعهد به أبو بكر بن أبي قحافة في آخر
عهده بالدنيا خارجاً منها ، وأول عهده بالآخرة داخلها فيها ، حيث يؤمن
الكافر ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب : اني استخلفت عليكم بعدى . »

ثم أخذته غشية فكتب عثمان « عمر بن الخطاب » ، ولم يترك الكتاب
خلوا من الاسم مخافة أن يذهب الموت بأبي بكر في تلك الغشية فيلج من
يلج بالخلاف ، وله شبهة يحوم عليها .

وانه ليكتبها إذ أفاق أبو بكر فقرأ عليه ماكتب ، فكبر وأدرك ماوقع
في روعه فحياه ودعا له : « جزاك الله عن الاسلام خيراً : والله ان كنت
لها لأهلاً (١) » .. ثم أتم الكتاب .

ثم بويع عمر بالخلافة باجماع لم ينعقد لخليفة قبله ولا بعده الا أن تكون
وراثته في دولة استقرت لها دعائم وثبتت لها أركان . فكانت شهادة من
الصحابة والمسلمين أجمعين بما هو أنطق من الألسنة والقلوب : بالبديهة
اننى لا تكذب في صادق ولا كذوب .

وجائز جداً أن يبدأ عمر خلافته وهذا رأى المسلمين فيه ، وأن يختتمها
آخر الأمر ورأيهم فيه على اختلاف ، اذ الحكم يخلق العداوات ، ويفتق
أسباب التباعد في الظنون والآراء ، ويفتن صاحبه حتى يتبدل من حيث
يريد ولا يريد . فشهادة أخرى من شهادات الواقع والبدهة أن عمر قد
فارق الدنيا والمختلفون فيه ينقصون ، والمتفقون على حمده يزيدون ،
ثم هم يزيدون في حمدهم إياه وثنائهم عليه .

دخل زياد على عثمان في خلافته بما بقى عنده لبيت المال ، فجاء ابن لثمان

(١) أى : انك كنت أهلاً لها .

فأخذ شيئاً من فضة ومضى به ، فبكى زياد" . قال عثمان : ما يبكيك ؟
قال : أتيت أمير المؤمنين (١) بمثل ما أتيتك به فجاء ابن له فأخذ درهما فأمر
به أن يشتري منه حتى أبكى الغلام ، وإن ابنك هذا جاء فأخذ ما أخذ
فلم أر أحداً قال له شيئاً .. قال عثمان : « إن عمر كان يمنع أهله وقربته
ابتغاء وجه الله ، وإنى أعطى أهلي وأقربائي ابتغاء وجه الله . ولن تلتقى
مثل عمر . لن تلقى مثل عمر . لن تلقى مثل عمر ! »

وبكى على " يوم موته فسئل في بكائه فقال : « أبكى على موتِ عمر .
إن موتَ عمر ثلثة" (٢) في الاسلام لا تترتق الى يوم القيامة » وقال
عبد الله بن مسعود : « كان اسلامه فتحة ، وكانت هجرته نصرا ، وكانت
إمارته رحمة » .

وقال معاوية يوازن بين الخلفاء : « أما أبو بكر فلم يثر الدنيا ولم
تثره ، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها ، وأما نحن فتمرغنا فيها ظهرا
لبطن » . وقال عمرو بن العاص وهو يحدث نفسه : « لله درك ابن حنتمة ! ..
أي امرئ كان ! »

ولم يقل فيه قائل راض ولا ساخط" الا ثناء" كهذا الثناء ، بعد خلافة
طويلة لو خرج منها بنصف الثناء لأربى على الأمل في انصاف بنى الإنسان
ورعى عمر قدر الصحابة والتابعين كما رعى قدره .. الا أنه كان
مفضلاً في هذا كما كان مفضلاً في جميع محامده وحسناته ، فإنه رعى
أقدارهم وهو مستطيع" ألا يرعاها ، وقليل" منهم من كان قادراً أن يعمل
غير ما عمل ويقول فيه غير ما قال .

جمع منهم مجلس المشورة لا يبرم أمراً ولا ينقضه إلا بعد مذاكرتهم
والاستئناس بنصيحتهم وسابق علمهم من مآثورات النبي وأحاديثه .
وارتفع بهم أن يكونوا أتباعاً له فجئتهم ولاية الأعمال قائلين راجعه
في ذلك : « أكره أن أدتسهم بالعمل (٣) » فسبق الدساتير العصرية بحسن

(١) يعنى عمر بن الخطاب .

(٢) الثلثة : الخلل ، ورتق الثلثة : اصلاحها .

(٣) يعنى بالعمل هنا الولاية والحكم ، اما العمل للانتاج فقد سبق أن عرفنا رأى عمر فيه .

تقسيمه وصادق حداثه وتدييره . هم مجلس الأمة وليس لأحد من مجلس الأمة أن يتلى عملاً من أعمال الحكومة ، فهما في الدولة وظيفتان لا تجتمعان .

وقدّم صغارهم على أعظم العظماء من رؤوس القبائل وقروم (١) الجزيرة العربية . فحضر بابنه سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام وأبو سفيان ابن حرب في جمع من السادة ينقطع ندهم بين الكابرين (٢) وحضره معهم صهيب وبلال وهما مولى ليان فقيران ، ولكنهما شهدا بدرا وصحبا رسول الله ، فأذن لهما قبل عليه القوم ! وغضب أبو سفيان فقال لصاحبه : لم أرى كاليوم قط ، يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابنه ؟ أما صاحبه فكان حكيما فقال : أيها القوم ! اني والله أرى الذي في وجوهكم .. إن كنتم غضايا فاغضبوا على أنفسكم . دعى القوم - الى الإسلام - ودعيتهم ، فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بكم اذا دُعوا يوم القيامة وتتركتهم ؟ .

ولو غير عمر لما تقدم عنده صهيب وبلال ، ولا أمين أن يغضب عليه أبو سفيان وسهيل .

لكنه الحق فوق كل قدر عند هذا القسطاس الذي يعطى كل ذي قدر قدره حيث ينبغي له من تقديم وتأخير . فيقدم من يقدمه عمله ويؤخر من يؤخره عمله ، ولا عليه من غضب الغاضبين ولوم اللائمين .

فلما ندب الناس الى غزور العراق فبادر اليه أبو عبيد بن مسعود وتخلّف من حضر الدعوة من الصحابة ولأه قيادتهم وأبى أن يوليها رجلا من السابقين من المهاجرين والأنصار . وأجاب من راجعوه قائلا : « لا والله لا أفعل . ان الله انما رفعكم بسبقكم وسرعتكم الى العدو ، فإذا جبّستم وكرهتم اللقاء فأولى بالرئاسة منكم من سبق الى الدفع وأجاب الى الدعاء . والله لا أؤمّر عليهم إلا أولهم اتدابا » .

ثم دعا معه ابن عبيد وسليط بن قيس فأبلغهما « إنكما لو سبقتما

(١) القروم : جمع قرم وهو السيد .
(٢) أي : ليس لهم مثل بين السادة الكبراء .

لوكيتكما .. » والتفت الى أمير الجيش الذى اختاره فقال له : « اسمع من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وأشركهم فى الأمر ، ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين ، فإنها الحرب » . هذا ما استحقوه ، فلا رجحان لهم إلا بالحق ، ولا رجحان عليهم إلا للحق .

ومن الحق الذى له الرجحان عليهم حق الأمة جمعاء ، وحق الأمان الذى يعم الدولة ويوطد أركانها . فإذا خيف على الدولة من بعضهم فأمان الدولة مفضل عليهم ، وحققها الأكبر مقلدكم على الكبير من حقوقهم . فربما حبسهم فى المدينة لا يسافرون منها الا بإذن ، وإلى أجل مخافة منهم على الناس ومخافة عليهم من الناس . ويستأذنه أحدهم فى غزو الروم والفرس محتجا بسابق بلائه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيتخذ من سابق هذا البلاء حجة عليه يزوده بها عن السفر ، ويقول له : « ان لك فى غزوك مع رسول الله مايكفيك ويبلغك ، وبحسبك ، وهو خير لك من الغزو اليوم ، وإن خيرا لك ألا ترى الدنيا ولا تراك » .

على هذا الوجه وحده ينبغى أن نفهم كل علاقة كانت بين عمر وبين أحد من أكابر الصحابة والتابعين ، فهو القسطاس الذى لايجور ، وكأنه لا يعرف الجور لو شاء .

بل على هذا الوجه وحده نفهم كل علاقة بينه وبين أحد من عامة المسلمين . فلكل رجل حقه ، ولاضير على أحد أن يتأخر قدره ويتقدم عمله ، ولا ينفع أحدا أن يتقدم قدره ويتأخر عمله . فكل عمل له حساب ، وكل قدر وله كرامة ، وأكبر الصحابة خليق أن ينزل منزلة المرءوسين لمن سبقهم الى العمل النافع . وأصغر الناس خليق أن ينال جزاءه الحسن اذا استحقه ، وكل قسطاس غير هذا القسطاس فإنما يقارفه الحاكم لظلم أو لخوف ، وليس لهذا ولا ذاك سبيل إلى عمر . لأنه عادل ، ولأنه لا يخاف ، وإذا وقع ما يخافه غيره فهو ضليع بالتبعات (١)

(١) ضليع بالتبعات : تقدير عليها .

على هذا الوجه وحده ينبغي أن نلتبس التأويل في محاسبات عمر ومعاملاته اذا وقع منها ما يحتاج الى تأويل ، وقل في محاسبات عمر ومعاملاته ما يحتاج اليه ، لأنه كان يحاسب نفسه قبل أن يحاسب غيره ، وحسابه لنفسه أعسر من حسابه للآخرين .

ففى جميع محاسباته للقادة والولاة من كبار الصحابة لم توضع مسألة في موضع التأويل الكثير والمناقشة الحادمة (١) كما وضعت مسألة خالد ابن الوليد رضى الله عنه .

ولا يعقل أن تكون هذه المسألة شذوذا عن خطته مع جميع القادة والولاة ، لأن الذى صنعه فيها عمر هو الذى كان منتظرا أن يصنعه ، سواء كان القائد خالدا أو كان رجلا غيره ... وهذا الذى ينفى الشذوذ والحيث ، أو ينفى المعاملة الخاصة التى تكيل للناس بكيلىن وتزن لهم بميزانين ، وتنتظر إليهم بنظرين مختلفين .

عزل عمر خالدا وهو سيف الإسلام وبطل الجزيرة والشام ، وإذا كان لابد لخالد بن الوليد من عزل أو قاض عادل فلن يكون عزله وقاضيه غير عمر بن الخطاب . هو على قدر عزله بلا مرأى ، وهو قدر كبير .

فقال أناس إنها منافسة الند للند والشبيه للشبيه ، وقال أناس عزله لغير خطئ أتاه ، وقال أناس إنها ترة (٢) قديمة ولولاها لما كان الخطأ الجديد بمستوجب عزله وحرمان المسلمين من بأسه وجهاده .

والذين ظنوا هذه الظنون لهم شبهات من ظواهر الأمور تخيلها لهم وتقربها إلى حدسهم ، لأن المشابهة بين عمر وخالد كانت مشابهة خلق وخلق توحى الظن بالتنافس والملاحاة ، وكانت مشابهة خالد لعمر فى خلقته تلتبس على بعض الناس فيكلمون عمر وهم يحسبونه خالد ابن الوليد .

(١) الحادمة : يقال : حدمته الشمس أو النار . أى : اشتد حرها عليه . واحتدمت النار أى اشتد حرها ، ومنه : احتدمت المناقشة .
(٢) الترة : النار .

فمن شاء أن يَخْطِبَ بالظنِّ فله أن يحسب أن عمر قد عزله لغير سبب يستوجب عزله ، لأن عمر نفسه قد صانَ على القائد الكبير كرامته وأمسك عن الخوض في أمر عزله بعد الفراغ من ضجته الأولى ، وكتب إلى الأمصار يرثه من الخيانة ويعلنهم « أنه لم يعزله لسخطة ولا خيانة ، ولكن الناس فتِنوا به » ... قال : « فخشيت أن ياكلوا به ويبتكلوا ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بعرض فتنة » . ولما سأله خالد في ذلك قال له : « إن الناس افتتنوا بك فخفت أن تفتن بالناس » .

فمن شاء أن يخطب بالظن هنا فقد يخطب ماشاء وله شبهة فيه ، ولكنه لا يرجع الى الوقائع من قديمها وحديثها حتى تسقط شبهاته بين يديه ، ويوقن أن عمر لم يحاسب خالدًا بميزان غير الذي حاسب به جميع القادة والنوالة ، وأن المدهش الحق أن يقيه في الولاية والقيادة بعد ما أخذه عليه ، لأنه حينئذ يكون قد وزن بميزانين وكال بكيلين .

والذي أخذه عمر على خالد يرجع بعضه الى أيام النبي عليه السلام ، وبعضه الى أيام أبي بكر رضي الله عنه ، وبعضه الى أيامه ، وكله مما يصح أن يؤخذ به في موقف الحساب ، وإن كان الذي حدث في أيام عمر وحدها كافياً لما قضاه في أمره .

ففي فتح مكة نهى رسول الله خالدًا عن القتل والقتال وقال له وللزبير : « لا تقاتلا الا من قاتلكما » . ولكن خالدًا قاتل وقتل نيفا وعشرين من قريش وأربعة نفر من هذيل ، فدخل رسول الله مكة فرأى امرأة مقتولة فسأل حنظلة الكاتب : من قتلها ؟ قال : خالد بن الوليد . فأمره أن يدرك خالدًا فينهاه أن يقتل امرأة أو وليداً أو عسيفاً - أى أجيراً - وبعث اليه من يسأله : ما حملك على القتال ؟ فاعتذر بخط الرسول في تبليغه . وشهد الرسول على نفسه بالخطي فكف عنه (١)

(١) يعنى الرسول الذى حمل رسالة النبي عليه السلام اليه .

ثم بعث رسول الله خالدا الى بنى جذيمة داعيا الى الاسلام ولم يبعثه للقتال ، وأمره ألا يقاتل أحدا ان رأى مسجدا أو سمع أذانا ، ثم وضع بنو جذيمة السلاح بعد جدال بينهم واستسلموا . فأمر بهم خالد فكتفوا ، ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم ، وأفلت من القوم غلام^(١) يقال له السميندع حتى اقتحم رسول الله وأخبره وشكا إليه . فسأله رسول الله : هل أنكر عليه أحد ما صنع ؟ قال : نعم . رجل أصغر رُبْعَة^(٢) ورجل أحمر طويل . وكان عمر حاضرا فقال أنا والله يا رسول الله أعرفهما . أما الأول فهو ابني ، وأما الثاني فهو سالم مولى بنى حذيفة . وظهر بعد ذلك أن خالدا أمر كل من أسر أسيرا أن يضرب عُنْقَه ، فأطلق عبد الله ابن عمر وسالم مولى أبي حذيفة أسيرين كانا معهما ... فرفع رسول الله يديه حين علم ذلك وقال : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد » ... ثم دعا عكبي بن أبي طالب وأمره أن يقصد الى القوم ومعه إبل وورق^(٣) ، فوَدَّى^(٤) لهم الدماء وعوضهم من الأموال .

وفي عهد أبي بكر رضى الله عنه وجَّه خالد الى بعض أهل الردة يدعوهم الى أحكام الإسلام أو يقاتلهم حتى يثوبوا إليه . فعزم على المسير إلى مالِك بن نويرة ولم يأمره الخليفة بالمسير اليه . وأحجم الأنصار ينتظرون أن يكتب إليهم الخليفة بما يراه ، وقال خالد : قد عهد الله أن أمضى وأنا الأمير ولو لم يأت كتاب بما رأيته فرصة وكنت إن أعلمته فاتنى لم أعلمه ، وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهد^(٥) إلينا لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به ، فأنا قاصد إلى مالك ومن معي من المهاجرين والتابعين ولست أكرههم ... » .

ثم جاءته الخيل بمالك بن نويرة في نفر من بنى ثعلبة بن يربوع فاختلفت السرية فيهم ، يشهد قوم أنهم أذنبوا وأقاموا وصلوا ، ويشهد

(١) ريمة : مبتدل الجسم .
(٢) الورق : بكسر الراء ، المال من الدراهم .
(٣) ودَّى : أعطاهم الدية وهي المال يعطى لأهل القتل بدل النفس .

آخرون أنه لم يكن من ذلك شيء . فلما اختلفوا فيهم أمر بحبسهم في ليلة باردة ، وأرسل فيما قيل مناديا ينادى : أدْفِئُوا أسراكم ، فظنَّ القوم أنه أراد قتلهم ... لأن إدفاء الأسرى كناية عن القتل في لغتهم .

ويروى أن مالكا قال لخالد : ابعثنا الى أبى بكر فيكون هو الذى يحكم فينا ، فلم يجبه خالد الى طلبته وقال له : لا أقالنى الله ان أقتلك ، وتقدم الى ضرار بن الأزور بضرب عنقه . وتزوج بامرأته في الحرب وهو أمر تكرهه العرب وتعايره .

وقد بلغ الخبر عمر بن الخطاب فقال لأبى بكر : ان سيف خالد فيه رهق (١) . فاعتذر له أبو بكر بأنه « تأول فأخطأ » وودى مالكا واستدعى خالدا اليه .

فقدم خالد فدخل المسجد وعليه قباء وفي عمامته أسهم غرزها للمباهاة ، فقام اليه عمر فنزعها وحطمتها وقال له : قتلت أمرا مسلما ثم نزوت على امرأته؟ والله لأرجمنك بأحجارك !

وكان أبو بكر رضى الله عنه همَّ بمزل خالد لاستثارته بتصريف المال الذى فى ولايته فسأل عمر : من يجرىء جزاء خالد ؟ (٢) فندب عمر نفسه ليخلفه ان لم يكن بدء من ذلك ، وتجهز عمر حتى أتىخ الظاهر فى الدار ، لولا أن مشى أصحاب رسول الله الى أبى بكر يوصونه أن يحتفظ بعمر لحاجته اليه ، وأن يبقى خالدا فى ولايته لحاجته اليه ، فعمل بما أشاروا .

ذلك ما كان فى عهد النبى وأبى بكر . فلما بويع عمر كتب الى خالد أن يراجعه فى حساب المال وألا يعطى شاة ولا بعيرا الا بأمره ، فأحاله الى ما جرى به العمل قبله . وكان قد أجاب أبا بكر بكلام مقتضب قال فيه : « إما أن تدعنى وعملى وإلا فشانك بعملك » فلم يطقها عمر وقال : « ماصدقت الله إن كنت أشرت على أبى بكر بأمر فلم أنفذه » .

(١) الرهق : الظلم والسفه والطفيان .

(٢) يعنى : من يقوم مقامه ويكون فى مثل كفايته ؟

وقد أبرمه منه أنه وهب الشاعر الأشعث بن قيس عشرة آلاف درهم،
ونُسي الأمرُ إليه كما كانت تنمى إليه أخبار الولاة والقواد من عيونه
وأرصاده . فكتب إلى أبي عبيدة أن يحاسبه على هذه الهبة « فإن زعم
أنها من إصابة أصابها فقد أقر بالخيانة ، وإن زعم أنها من ماله فقد
أسرف » .

وقد أبى خالد أن يجيب في مبدئ الأمر فاعتقله أبو عبيدة بعمامته كما أمر
عمر ، ونزعَ منه قلنسوته في موقف المحاسبة حتى قال أنها من ماله .
فقومت عروضه وضُمَّ مازاد منها إلى بيت المال ، وقال له عمر يومئذ :
« يا خالد ! والله أنك على لكريم ، وأنتك إلى لحبيب ، ولن تعاتبني بعد
اليوم على شيء » .

ولم يعزله عمرُ دفعةً واحدة على إثر قيامه بالخلافة كما جاء في بعض
الأخبار ، لأن اسم خالد كان بين أسماء الشهود على عهد بيت المقدس بعد
فتحه ، والأرجح أن في تاريخ القصة خطأ وقع فيه بعض المؤرخين ومنهم
ابن الأثير ، فكتب عن عزل خالد في أخبار السنة الثالثة عشرة للهجرة ثم
ذكره في أخبار السنة السابعة عشرة ، وأورد في الموضعين أقوالاً
متشابهات .

تلك جملة المآخذ التي أخذها على خالد من عهد النبي عليه السلام إلى
عهد خلافته ، وما من أحد يعرف عمر ثم يلوح له أنه أنكر من خالد
شيئاً كان يقبله من غيره ، وأنه نصب له ميزاناً غير الموازين التي يحاسب
بها القواد والولاة وكل صاحب عمل مسئول . فرأى عمر في انكار هذه
المآخذ معروف من بداية أيامه ، والذين لزموه وتأدبوا بأدبه ينكرونها مثله
ولو كانوا على البعد منه ، كما حدث من ابنه في بمشة جذيمة حيث أبى على
خالد بطشه بمن أوثقهم وغرضهم على السيف ، ثم أنكر النبي عليه السلام
ما أنكره واستصوب ما استصوبه .

فعمر كان يكره الإسراع إلى القتال ويوصى قواده جميعاً بالترث

فيه ، وربما نحى القائد المغوار عن القيادة وهو كفؤ لها لأنه يعجّل بالقتال كما قال لسليط بن قيس : « لولا أنك رجل عجل في الحرب لوليتك هذا الجيش والحرب لا يصلح لها الا الرجل المكث » .

وكان يتحرّج غاية الحرج أن يستبيح دم برىء أو مشكوك فيه ، وتقدّم في هذا الكتاب أنه لام أناسا من أصحابه لأنهم قتلوا رجلا ارتد عن دينه ، وقال لهم : هلا استبتموه وحبستموه ؟ وتبيّن من رأيه في أهل الردّة أنه كان يؤثّر الهوادة والاستتابة على القتال . فان كان قتال فالذى لا حيلة فيه ولا محيص عنه ، فانكاره لمقتل مالك بن نويرة وأصحابه هو رأيه الذى لا شذوذ فيه ، ويضاف اليه انكار البناء بأمراته (١) ، ووقوع البناء بها في أثناء المعركة ، وهو أمر لا ينفرد عثمراً بكرأته وانتقاده ، بل تكرهه العرب عامة مسلمين وغير مسلمين .

وكان عمر يحاسب جميع الولاة أدق حساب : يكتب عروضهم (٢) قبل ولايتهم ، ويسألهم فيما فشا من طارئ أموالهم ، ويأمرهم اذا عادوا الى أهلهم أن يدخلوا المدينة نهارا لينكشف ما عادوا به اليهم ، ويقاسمهم كل درهم يثرّبى (٣) على المحسوب من أرزاقهم . ويجرى على هذه السنة مع كل والٍ وكل عامل ذى أمانة . فلم يستثن منها أحدا قط ، ولم يثرف وال قط سلم من مصادرة أو حساب عسير .

فالذى صنعه مع خالد حين أنكر « سرعة هجماته وشدة صدماته » سنة عمرية لا شذوذ فيها ، والذى صنعه حين حاسبه على هباته وتوزيعاته سنة عمرية كذلك لا شذوذ فيها ، ولو أنه صنع غير هذا الصنيع لقد كان ذلك هو الشذوذ المستغرب الذى لا يقع من عمر بن الخطاب خاصة ، لأنه لا يحاطى ولا يفرّق في المعاملة ولا يبالى غضب قائد كبير ولا وال قدير . وليس يجب أن يقال ان رجلا من الرجال لا غنى عنه لدولة الاسلام ، فربما كان شيوع هذه العقيدة أخطر على الإسلام

(٢) العروض : الامتعة .

(١) البناء بالمرأة : الزواج منها
(٣) يربى : يزيد .

من عزل وال مظلوم أو ولاية مظلومين .

ولا ننسى الأمانة الكبرى التى هى أكبر من أمانة الرفق بالولاية والعدل فى محاسبة العمال ، ونعنى بها أمانة الدين والدولة أو ما نسميه نحن فى أيامنا « بالسياسة العليا » .

وعمر لا يتركنا تفسر أعماله هنا باجتهادا فى فهمها وتأويلها على ما نراه ، بل يصرح للناس فيها بما يغنيهم عن التفسير والتأويل .

فكان يرعى فى شئون الولاية الكبار والقواد المشهورين أمرين يجيزان له عزلهم ولو لم يقع منهم ما يوجب المؤاخذه .

أحد هذين الأمرين أن يفتتنَ بهم الناس فيفتتنوا هم بالناس كما قال لخالد بعد عزله . والخوف فى هذا الأمر من القائد الكفء أعظم من الخوف من قائد صغير لم يثبُلْ أحسن البلاء ولم تتسائر بذكره الأنباء ، فليس لهذا خطر فى بقاءه كخطر القائد الكبير .

وخطته هنا عامة لا يخص بها واليا دون وال ولا قائدا دون قائد .

فلما عزل زياد بن أبى سفيان عن ولاية العراق سأله زياد : لِمَ عزلتني يا أمير المؤمنين ؟ العجز أم خيانة ؟ فقال له : لم أعزلك لواحدة منهما ، ولكنى كرهت أن أحمل فضل عقلك على الناس . وقديما قال فيه عمر : لو كان قرشيا لساق العرب بعصاه . فالحبيطة منه وفاق رأيه فيه .

وقد كان من خلق عمر أن يقدم الحذر ويأخذ الحيطه ويطلق الرميّة ، ثم يجزم بالرأى السديد فى غير ابطاء ، ولهذا كان يكره ولاية الرجل الفخور وينهى عنها فى خلافته وقبل خلافته ، فأشار على أبى بكر ألا يولى خالد بن سعيد وكلمه فى عزله لأنه رجل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصب ... فعزله أبو بكر كما أشار .

فاذا اجتمع لعمر هذا السبب من أسباب السياسة العليا الى المآخذ التى أفكرها على خالد فلا جناح عليه ، ولا محل للشك والظن فى أسباب عزله .

لقد رأى زهوى خالد بالنصر والغلب قبل أن يفتح الشام ويسبق

بالشهرة أنداده من القواد : رأى ذلك يوم عاد من حرب أهل الردة فدخل المسجد وفي عمامته السهام . ورآه يوم استقل بيت المال في ولايته على عهد أبي بكر وعلى عهده ، ورآه في أمور كان يمتدئها ولا يستأذن فيها ، ورآه مما يحس ولا يلمس ومما يتقَدَّر ولا ينتظر ، « فإذا أشفق أن يفتن بالناس كما افتتنوا به فلا جناح عليه » .

وثانى الأمرين اللذين يخلان في تقديرات السياسة العليا ويجيزان العزل في غير جريرة فائدة أن يصبح القائد ضرورة لا غنى عنها لتسيير الجيوش وفتح الفتوح ، وأن يعزى إليه النجاح فتتخاذل العزائم وتصغر أقدار القادة دونه ، وأن تعظم العقيدة فيه فتضعف العقيدة بالله ، ويخسر الجيش بذلك أضعاف ما يخسره بإقصاء قائده ولو لم يكن له نظير . فان كان له نظير كما تبين من اختيار عمر لقواده في كل ميدان فلا خسارة هناك ، بل هو كسب العقيدة وكسب قائد جديد . وإذا حان اليوم الذى ينتفع فيه بالقائد المعزول فهو قمين أن ينفع مابقيت فيه بقية من صلاح وخير .

وتعويل عمر على العقيدة أمر تعزوه الى كل شئ فتراه فيه على صواب: تعزوه الى ايمانه بالله فهو فيه مصيب ، وتعزوه الى حسن سياسته فهو فيه مصيب ، وتعزوه الى تقديره للواقع فهو فيه مصيب . فكل أولئك كان خليقا أن يرجَّح كفة العقيدة عنده على كل كفة ، وأن يوجب عليه اسبغها قبل كل استبقاء . وألا يزال بالناس يذكرهم مذكرهم به حين كتب الى الأمصار بعد عزله خالدا « ان الله هو الصانع ، وألا يكونوا بعرض فتنة » .

ولو أن رئيسا لخالد غير عمر بن الخطاب في ايمانه المكين لما فاتته أن يعلم أين كانت قوة المسلمين وبم كان انتصارهم في جميع الميادين ، ولا فاتته أن يستبقى هذه القوة بكل وسيلة وأن يفتديها بجميع ما في يديه : تلك قوة العقيدة لا مرأى ، ان ضاعت فلا عوض عنها ، وان بقيت فللقادة عوض كثير .

فكيف بعمر بن الخطاب الذى يؤمن بهذا ايمان تسليم كما يفكر فيه تفكير سياسة وتدير ؟ لئن نسى ذلك لهو التحقيق باللوم على نسيانه ، ولئن ذكره فافتضاه ذكره أن يعزل خالدًا بغير جريرة لما كان عليه من لوم . وهو كما رأينا لم يعزله لغير جريرة ، أو لم يكن حسابه له مختلفًا عن حسابه للقادة والولاة ... وقد كان أبو بكر نفسه - وهو من أبقى خالدًا - يلح بعض الخطر من افتتاح الناس به حين قال : أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد ؟! ..

ويؤكد تعويل عمر على العقيدة فى كل نجاح واسناده كل فشل الى ضعفها والترخص فيها أن الجيش الذى غزا مصر أبطأ فى فتحها فالتمس عمر علة ذلك فى ضعف نياتهم وكتب اليهم يقول : « عجبت لابطائكم عن فتح مصر تقاتلونهم منذ سنتين . وما ذاك الا لما أحدثتم ، وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم ، وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوما الا بصدق نياتهم » فنظرته فى عزل خالد هى النظرة العامة التى لا تخصيص فيها لرجل ولا لمركة ولا لمكان ، وتقديمه العقيدة على كل عدة من عدد النصر هو الخطة التى جرى عليها فى مراقبة القادة ومراقبة الجيوش وتدير عدد النصر وتجنيب المسلمين مأزق الخذلان ... وهل أخطأ ؟ هل كانت منه حماسة ايمان ولم تكن روية تفكير ؟ هل يرى غير هذا الرأى ناقد عسكري من أعداء الاسلام لو بحث فى الأمر وتعد الى حقائق الأسباب ؟.. كلا . بل هو صدق الرأى وصدق الايمان معا مقترنين لا يشير هذا بغير ما يشير به ذاك .

ودون هذا من أسباب « السياسة العليا » يجيز لعمر ما استجازه من عزل خالد من القيادة والولاية ، ولا سيما بعد ما أخذ عليه ما أخذ وبعد ما علم الناس أنه لا يسامح أحدا فى أمثال هذه المأخذ . فما باله يسامح خالدًا فيها ؟ انه اذن لصانع النصر الذى لا غنى عنه ، وإن الخطر الأكبر الذى يخشاه لقد حق على الجند وعلى الدولة ، ولقد حق معه خطر آخر

لا يقل عنه : أن يسكن الناس الى التفرقة في الحساب ، وأن يألفوا ما يعاب اذا عيب من الرؤوس والأقطاب ، دون الأتباع والأذئاب .

ومسألة أخرى يجب ألا يغفل عنها الرجل العصري وهو ينظر في عزل خالد للأسباب التي قدّمنا أو لأي سبب غيرها .. وذلك أن حقوق الولاية في عصرنا غير حقوق الولاية في عصر عمر على التخصيص ، وهو العصر الذي بدأت فيه تجربة الولاية والعمالة في دول الاسلام .

فالولاية في عصرنا مركز يستحقه موظف الحكومة بعد مرانة طويلة ودراسة خاصة واستعداد مقصور على طائفة من المرشحين لها لم تشركهم فيه طائفة أخرى ، وكأنها صناعة العمر التي لا يحتمل عمر الانسان تجديد صناعتين مثلها . فاذا قيل ان واليا عزّل في عصرنا فكأننا نقول ان تاجرا صودر ماله أو زارعا حيل بينه وبين زرع أرضه . ومصادرة من هذا القبيل حريّ أن تلتبس لها أسباب من قبيلها في الرجاحة والإقناع .

غير أن الولاية في عهد عمر لم تكن كذلك بوجه من الوجوه ، ولم يكن لصاحبها مثل هذا الحق الذي اصطلاح عليه العرف وان لم ينص عليه القانون ، وانما كانت تجربة ارتجالية يتساوى فيها جميع الصالحين من المسلمين ، لا تنقطع بها صناعة العمر ولا سابقة الاستعداد والمرانة ، فيصح أن يعزل والي لأسباب أهون من تلك الأسباب التي قدمناها في الرجاحة والإقناع ، ويصح أن يكون للعزل معنى المناوبة في ندبة متساوية بين جميع المسلمين .

« لله در » ابن حنّمة « ا .. أيّ رجل كان ا »

كلمة قالها رجل يعرف الرجال . قالها عمرو بن العاص وكأنه لم يكن يود أن يقولها لولا أنطقه بها الاعجاب الذي لا يجدى فيه كتمان .

وهي كلمة يقولها الناظر في سيرة عمر كلما وقف من أخبارها موقف الناقد الذي يبحث عن الخطأ فيثلفه حيثما يبحث عنه عسيرا جدّ عسير ... أي رجل كان هذا الرجل ؟ أي عدل كان عدله ؟ أي قسطاس كان

قسطاسه ؟ أى حساب كان حسابه لنفسه ؟ وأى سبيل للناقد الى رجل
كان يحاسب نفسه هذا الحساب ؟

وربما اختلفت الأمزجة أو اختلف تركيب العقول والأبدان فقلّ في
ذلك ما تشاء ، وقلّ في خلائق عمر ماتشاء ... قل هي الشدة والصرامة ،
أو قل هي الخشونة والصلابة ، أو قل هو نسيان الضعف وفطر الغيرة
على الحق في عالم تستكثر فيه مصانعة الحقوق ويستعظم فيه تكلف
الصواب .. قل مابدا لك من ذلك واذهب ماشئت أن تذهب فيه ، فانك
لا تعطى المزاج حقه ولا تفرض له فرضه حتى تحار بعد ذلك في سبب
انتقاد أو علة اختلاف ، لأنه لا يزاوّل أمرا الا وهو صواب لا محل فيه
لسوء الطوية من وجهة ذلك المزاج .

كنا نقرأ عن عزل خالد ما تتفق قراءته من هنا وهناك ، وكنا نستمع
الى الذين يردونه الى المنافسة والتناظر فنجز هذا ولا نمنعه ، أو نرى فيه
منالا من قدر عمر ومنقصة تغض من اعجابنا بمزاياه . لأنه قد يفار من
خالد ويمزله لغير جريرة ، ويبقى له بعد ذلك قدره الجليل وأثره الضخم
في تاريخ الانسان .

وفي عصرنا هذا رأينا أبطالا خدموا أقوامهم ثم بلغ من ضيغهم على
منافسيهم أنهم قتلوهم ولم يقنعوا باقصائهم عن الحكم ولا بمحاسبتهم
بين يدي القضاء . ثم نصب الناقدون لهم موازين النقد فأسقطوا السيئات
من الحسنات وقرنوا قتل أفراد بإحياء أمة فبقى لأولئك الأبطال حقهم
الخالد في الثناء والتعظيم . واذا بلغ من صواب عمر أنك لا تحصي عليه
خطأ غير عزله لخالد وما جرى مجراه فما أكثر هذا صوابا على الآدمي
وان كان من أعظم العظماء !

بدأنا نقرأ عن هذه القصة وفي خلدنا هذا الفرض الذي لا يحملنا
على استبعادها ، وعندنا أنه خطأ يذكر الى جانب حسنات ، فلا خير أن
يكون له موضعه في جانب تلك الحسنات .

ثم نقرأ كل ما تسنى لنا أن نقرأه في هذه القصة فلا نزال نستبعد الخطأ
ونستبعده ، ولا نزال كلمة ابن العاص تعود الى لساننا وتعود ، حتى
نطلقنا بها كما هي ، وغفر الله لابن العاص .

وهكذا كنا نصنع في كل خطأ نُسب الى عمر وتواتر على السماع دون
تححيص واستقصاء . فلا نزال بنا الوقائع حتى يثبت بطلانه من أساسه
أو يضعف سنده ضعفا لا يبيح الاعتماد عليه ، الا لمن يتجنى ويتمحل
ذرائع النقد ودعوى التخطئة والعيب .

كلا . هذا رجل لا يسهل تقده ، ولا يتأتى لإنسان أن يحاسبه كما
حاسب هو نفسه ، ولن يقع الخلاف بين المنصب وبينه الا على أنه اختلاف
في الأمزجة وتركيب العقول والأبدان . فاذا وضع هذا موضعه من
التقدير فأعسر عسير بعد ذلك أن تلومه على خطأ ، وأن تَحصى عليه خطأ
فيه من سوء النية نصيب .

فالذي حصل والذي كان متوقما حصوله ينفيان الظنة عن مروءة عمر
وانصافه في قضية خالد بن الوليد ، وقد حكم فيها بما وجب عنده ، وانتهى
كل شيء بعد ذلك في هذه القضية بانتهاء الغرض منها في مصلحة الدولة
ومصلحة السياسة العليا . اذ لا موضع فيها لحزازات النفوس وصغائر
المنافسة وما تجرّء اليه من لغو المشاكسة وفضول الكلام .

قال لخالد : لن تعتب عليّ في شيء بعد اليوم ، ثم أمسك عن الخوض
في قضيته الا أن تثار في معرض عام ، فيشير اليها حيث تثار على سبيل
الاعتذار ، ويقبل ما شاء له كرم الخليفة أن يسمع من ملام الأقربين
والمشايخين وان أغلظوا في المقال ، على ما كان له من هيبة ترد الجامح
وتخيف من لا يخاف .

قال من خطبته بالجابية : انى أعتذر اليكم من عزل خالد بن الوليد ،
فانى أمرته أن يجلس هذا المال على ضَعْفَةِ المهاجرين فأعطى ذا البأس
وذا الشرف وذا اللسان .

فتصدى له أبو عمرو بن حفص بن المغيرة وجابهه بكلام غليظ يقول منه : « والله ما أعذرت يا عمر . ولقد نزعت غلاما استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعمدت سيفاً سله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووضعت أمراً نصبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقطعت رَحِمًا وحسدت بنى العم ... » .

فما زاد عمر على أن قال وهو يعذره : « انك قريب القرابة ، حديث السن ، تغضب في ابن عمك » .

ولم ينس أن يصون للرجل اسمه ومنزله في أمصار المسلمين ، فكتب ما ألعنا اليه آتفا يرحض عنه سمعة العجز والخيانة ، ويجعل العزل لفضيلة فيه لا لقصور منه ، ولا لتشريب عليه .

وعلم بموته فاشتد حزنه عليه واسترجع (١) مرارا ونكس رأسه وهو يكثر من الترحم عليه ، ثم قال : كان والله سداً لثور العدو ميمون النقية .

ولم يهتم أن يذكر صوابه أو خطأه في عزله بمقدار ما أهمه أن يعلن فضله ويذكر حسناته فقال : « قد ثلِّمَ في الاسلام ثلثة لا تترق » . وقيل له : لم يكن هذا رأيك فيه ، فلم يجهم أن يعلن قائلاً : « ندمت على ما كان منى اليه » ... وقال في غير هذا المعرض وبلغه أنه لم يعقب من حطام الدنيا غير فرسه وغلame وسلاحه : « رحم الله أبا سليمان ، كان على غير ماظنناه به » .

وقد كان عمر ينهى عن النذب والعويل ، فلما مات خالد واجتمع بنات عمه يكيينه وسئل عمر أن ينههن قال : « دعهن يكيين على أبي سليمان ، ما لم يكن تقع أو لقلقة (٢) . على مثله تبكى البواكى !

ودخل هشام بن البختري في أناس من بنى مخزوم على عمر فاستنشدوه شعره في خالد ، وقال له وقد أطال الاصفاء اليه : « قصرت في الثناء على

(١) استرجع : قال : « انا لله وانا اليه راجعون » .
(٢) النقع والقلقة : اثاره التراب والافراط في النحيب والبكاء

أبى سليمان . رحمه الله ، ان كان يجب أن يثذل الشرك وأهله ، وان كان الشامت به لمتعرضا لمقت الله . رحم الله أبا سليمان ! ما عند الله خير له مما كان فيه . »

ومن الحق أن يقال ان قضية خالد قد أرتنا مروءة خالد كما أرتنا مروءة عمر ، وقد عرضت لنا هذا البطل في صفحته فاذا هو بطل الفؤاد في ولايته وبعد عزله ، وفي شدته على عدوه وطاعته لأمره ... وما على مثله من خير أن يحق عليه العزل في ميزان عمر بن الخطاب فذاك ميزان تعلق فيه الكفة ولا يزال صاحبها راجحا أى رجحان . وقد استحق المجد بيقين واستحق العزل بظن ، ولولا مصلحة أعلى من مصلحة الابقاء على رضاه لقد كان ذلك الظن حقيقا بالنعص عنه والتجوز فيه .

وكفى بالرجلين فضلا أن يختلفا ومن وراء اختلافهما فضل يعترف به كلاهما ويعترف به كل محب وشانيء ، وكل منصف وجاحد ، وما نخال أن تقديرنا لخالد وتقديرنا عمر يدعونا أن ننصب الميزان في هذه القضية من جديد . فقصارى مانعنا من ذلك أن خالدا كان جديرا بالبقاء في منصبه ولم يكن مستحقا لعزله ، وليس ذلك بشيء الى جانب ما رأيناه حين نصب الميزان في القضية كما نصبه خليفة الاسلام ، فقد أرانا عدلا أعظم من بطولة الأبطال ، فان أخطأ البطل — على تقدير خطئه — فالعدل أعظم منه وأحرى أن يتعقبه كأنه من أضعف الضعفاء ، وذلك ميزان أشرف لعمر ولخالد وللإسلام من كل ميزان .

ثقافةُ عمر

إذا تكلمنا عن ثقافة عمر بلغة العصر الحاضر جاز لنا أن نقول إنه كان رجلاً وافر الحظ من ثقافة زمانه ، انه كان أديباً مؤرخاً فقيهاً ، مشاركاً في سائر الفنون ، مدرباً على الرياضة البدنية ، خطيباً مطبوعاً على الكلام ، فليس أرجح من نصيبه في ثقافة زمانه نصيب .

ظل في اسلامه كما كان في جاهليته عظيم الشغف بالشعر والأمثال والطشرف الأدبية ، بل ظل كذلك بعد قيامه بالخلافة واشتغاله بجلالها ودقائقها التي لا تدع له من وقته فراغاً لغيرها ، فكان يروي الشعر ويتمثل به ويحث على روايته ويعتدها من تمام المروءة والمعرفة كما قال لابنه عبد الرحمن « يا بني انسب نفسك تصل رحمك ، واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك ، فان من لم يعرف نسبه لم يصل رحمه . ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤد حقاً . ولم يقترب أدباً » ... وقال للمسلمين عامة : « اروا الأشعار فانها تدل على الأخلاق » .

ونظر الى فائدته العملية كما نظر الى متعته الأدبية ، فقال فيه انه جندل (١) من كلام العرب يسكن به الغيظ وتطفأ به النائرة (٢) ويبلغ به القوم في ناديمهم ، ويتعطى به السائل .

وكانت متعته بطرائف الأدب من متع الحياة التي لا يبالي الموت لو حرم نصيبه منها ، فكان يقول : لولا أن أسير في سبيل الله ، وأضح جبهتي لله ، وأجالس أقواماً ينتقون أطيب الحديث كما ينتقون أطيب الشر لم أبال أن أكون قد مت .

وإذا اقترنت العبادة باستطراف الحديث المهذب عند عمر فذلك غاية

(٢) النائرة : المياج .

(١) الجندل : الأصل .

ما يبلغه فضل الأدب عنده من ثناء وتقريظ .

وقد كان اعظام الرجل في عينيه بمقدار حذقه للحديث وقدرته على الابانة والمنطق الحصيف ، فنظر يوما الى هرم بن قطبة ملتفا في بَت* (١) بناحية المسجد وقد عرف تقديم العرب له في الحكم والعلم وهو ما هو من دمامة وضالة ومنظر زرى* ، فأحب أن يكشفه ويسبرَ حكمته ، فسأله في علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل : أرأيت لو تنافرا اليك اليوم أيهما كنت تَنفَرُ* (٢) ؟ فأجابه الرجل : يا أمير المؤمنين ! لو قلت فيهما كلمة لأعدتها جذعة ، أى لأعاد الحرب فتية* كما كانت ، فأثنى عليه وقال : لهذا العقل تحاكت اليه العرب !

وجاءه وفد فيه الأحنف فتركهم جميعا واستفتح ما عنده من الحديث فأعجبه وأعظم قدره وعقد له الرئاسة الى أن مات .

وسرّه أن عاد العرب الى رواية الشعر بعد أن شغلهم عنه الجهاد في سبيل الدين : فكان يقول ان الشعر « كان علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولتهيت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الاسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يثلوا (٣) الى ديوان مدوّن ، ولا كتاب مكتوب ، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقله وذهب منهم أكثره » .

ومن ناحية الأدب فيه وناحية الدين معا حثه على تعلم العربية « لأنها تثبت العقل وتزيد في المروءة » ، وقد أوصى بوضع قواعد النحو لأنه قوام العربية .

ولم يزل عمر* الخليفة هو عمر الأديب طوال حياته ، لم ينكر من الشعر الا ما ينكره المسئول عن دين ، ولم ينس قط أنه الأديب الحافظ الراوية الا

(١) البت : الطليسان من خز ونحوه .

(٢) نفر فلانا ينفره : غلبه في المنافرة ، ونفر فلانا بتشديد الغاء وانفره : امانه وقلبه وحكم له وهو المقصود هنا .

(٣) لم يثلوا : لم يرجعوا .

حيث ينبغي أن ينسى ذلك ليذكر أنه القاضي المتحرز الأمين .
فنهى عن التشبيب بالمحصنات كما نهى عن الهجاء ، وجيء له بالحطية
متهما بهجاء الزبرقان بن بدر حيث يقول فيه :
دغ المكارم لا ترحل^١ لبغيتها
واقعد^٢ فانك أنت الطاعم الكاسي (١)

فنى أنه الأديب الراوية ولم يذكر إلا أنه القاضي الذى يدرأ الحدود
بالشبهات ولا يحكم بما يعلم دون ما يعلمه أهل الصناعة ، وقال للزبرقان :
ما أسمع هجاء ولكنها معاتبة . ثم سأل حسان بن ثابت فقضى بأنه هجاء
وأفحش^٣ فى هجائه ، فحبسه وأنذره ونهاه أن يعود الى مثلها ، فانهى
طوال حياة عمر ، ثم عاد الى الهجاء بعد وفاته .
واستعمده تميم بن مقبل على النجاشي لأنه قال فى قومه بنى العجلان :
إذا الله عادى أهـلـ لؤم وذلة

فعادى بلى العجلان رهط^٤ ابن مقبل
فذكر عمر^٥ قضاءه ولم يذكر روايته للشعر ، وقال على سنة القضاة
يدفع الحدود بالشبهات : انه دعاء^٦ والله لا يعادى مسلما .
قال تميم : فانه يقول عنا :
قبيلته لا يغدرون بدمعة ولا يظلمون الناس حبة خردل^٧
فقال عمر : ليتنى من هؤلاء . قال تميم ، وإنه يقول :
تعاف الكلاب الضاريات^٨ لحومهم
وتأكل^٩ من عوف^{١٠} بن كعب بن نهشل^{١١}
فقال عمر : كفى ضياعا بمن تأكل الكلاب لحمه .
قال تميم : وانه يقول :
ولا يتردون الماء الا عشية^{١٢} إذا صدّر الوراء^{١٣} عن كل منهل
فقال عمر : ذلك أصفى للماء وأقل للسكاك (أى الزحام) .

(١) الطاعم الكاسي : أى الطعم المكسو

قال تميم ، وإنه يقول :

وما سُمِّيَ العجلانَ الا لقولهم

خذ القعبَ (١) واحلب أيها العبدُ واعجل

فقال عمر : كلنا عبد ، وخير القوم أتفهم لأهله .

قال تميم ، فسله عن قوله :

أولئك أولاد الهجين وأسرة اللـ تميم ورهطُ العاجز المتذلل

فقال عمر : أما هذا فلا أعذك عليه ، وحبس الشاعر وضربه وأنذره

لئن عاد ليضاعفن له العقاب .

وقد تجوَّزنا فقلنا ان عمر نسى علمه بالشعر ليذكر ابراء الذمة في

القضاء . وقد حاول ذلك جهده فأفلح لو يفلح أديب في نسيان أدبه .

ولكنه مطلب ما استطيع قط ولن يستطاع . فكان عمر في تخريجه

للكلام وعلمه بما تنصرف اليه معانيه أخبر بالشعر من قاض لا يفقه منه

الا ظاهر لفظه ومعناه .

ومن المشهور عن عمر أنه كان عليماً بتاريخ العرب وأيامها ومفاخر

أنسابها كعلمه بالمتخير من شعرها والسائر من أمثالها .

جنح الى ذلك بطبعه وثقله عن أيه ، وكثيراً ما كان يقول كما جاء

في البيان والتبيين : سمعت ذلك عن الخطاب ، ولم أسمع ذلك عن

الخطاب .

ومن وصاياه : « تَعَلَّمُوا النِّسْبَ وَلَا تَكُونُوا كَنَبِطِ السَّوَادِ (٢)

إذا سئل أحدهم عن أهله قال من قرية كذا » . ومنها « عليكم بطرائف

الأخبار ، فإنها من علم الملوك والسادة ، وبها ثنال المنزلة والحظوة

عندهم » .

وفقه عمر بالشرعة التي كان مسئولاً عن تنفيذها مشهور بين

الفقهاء كاشتجار أدبه واطلاعه على تاريخ قومه . فكان عبدُ الله بن مسعود

(١) القعب : قدح ضخم غليظ ، جمعه قعاب واقعب .

(٢) النبط : جيل من المجر ينزلون بالبطائح بين العراقيين

يقول : « كان عمرُ أعلمنا بكتاب الله ، وأفقهنا في دين الله » ، وكان إذا اختلف أحد في قراءة الآيات قال له : اقرأها كما قرأها عمر ، وأطنب فقال : « لو أن علمَ عمر بن الخطاب في كفة ميزان ووُضع علم الأرض في كفة لرجحَ علمُ عمرَ بعلمهم » ولقد كانوا يَرَوون أنه ذهب بتسعة أعشار العلم ... وقال ابن سيرين : « إذا رأيت الرجلَ يزعم أنه أعلمُ من عمرَ فشكَّ في دينه » ، وكل مفسر به آى القرآن في معرض الحكم والعظة فهو التفسير الراجح في وزن العقل والدين ، وكل ما استخرجه من أحكام الشريعة فهو الحكم الواضح الصحيح .

ونصائحه للعلماء والمتعلمين نصائح عالم يعرف ماهو العلم وماذا يجمل بالعلماء في طلبه ، فكان يقول : « تَعْلَمُوا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحليم ، وتواضعوا لمن تَعْلَمُونَ منه وتواضعوا لمن تَعْلَمُونَ ، ولا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم » . وكان يوصي طلابه « أن يكونوا أوعية الكتاب وينابيع العلم ، ويسألوا الله رزقَ يوم بيوم ، ولا يضيرهم ألا يكثر لهم » ولا يزال يذكرهم أن التفقه مقدّمٌ على السيادة « فتفقهوا قبل أن تسودوا » .

ولم يقصر نصائحه على علم الدين وحده ، ولا علم الأدب واللغة وحده ، بل تناول كل ماعرف من معارف زمانه فقال : « تَعْلَمُوا من النجوم مايدلكم على سبيلكم في البر والبحر ولا تزيدوا عليه »

ولا شك أن نصائحه العملية في طلب العلم كانت أغلب من نصائحه النظرية فيه ، شأنه في ذلك شأن رجل الدولة الذي يعلم الناس ماينفعهم ويصلح معاشهم ويهذب أخلاقهم ... ولكننا مخطئون ان فهمنا من هذا القول الذي رويناه في علم النجوم أنه كان يكره الزيادة الحديثة فيه كما عرفناها نحن في أيامنا ، فانما الزيادة التي كرهها هي تلك الزيادة التي كانت على عهده تخوض في التنجيم وتربط أقدار الناس بالكواكب وتجعل منها أرباباً تعبداً وأرصداً تؤتمن على أسرار الغيب

وذلك ما انتهى عنه الآن وتعدّ النهى عنه من تحقيق العلم الصحيح ولم يفتّه حرصه على المعرفة التي تختبر منها منافع للناس في أمر المعاش ، فطلب الى أبي لؤلؤة غلام المغيرة أن يتجنّز ما ادعاه من اختراع طاحون تدار بالهواء ، وهو علم الصناعات كما انتهى اليه في عصره ، لا يضيره أنه قسط ضئيل ، بل حرصه عليه مع ضآلته دليل على ما يلقاه منه تشجيع الصناعة يوم يراها جليّة كبيرة الآثار .

على أن زبدّة الثقافة كلها في أقطاب الحكم وعظماء الأعمال انما تتلخص في شيء واحد هو الدراية بالناس ، ونفاذ البصر في شؤون الدنيا ، وصدق الخبرة بدخائل النفس البشرية ، أو هو مانسميه في إيماننا هذه بالرأى السليم والحكمة العملية ، وهو مجال كان عمر بن الخطاب قليل النظراء فيه ، وحفظت له كلمات في معانيه يندر مثيلها بين كلمات الحكماء ، ولا يكثر مثيلها بين كلمات الحكماء .

فأى كلمة أدل على النفس البشرية من قوله : « ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر ، ولكنه الذي يعرف خير الشرين » .

وأي نفاذ في تركيب الطبائع أمضى من نفاذه اذ يقول : « ما وجد أحد في نفسه كبراً الا من مهانة يجدها في نفسه » ، أليس هذا بعينه هو مركّب النقص الذي يلهج به علم النفس الحديث ؟

وأي رأى في تجربة الناس أصدق من رأيه حين يقول : « لا تعتمد على خلّق رجل حتى تجربّه عند الغضب » ، أو حين أثنى بعضهم على رجل أمامه فسأله : أصبحت في السفر ؟ أعاملته ؟ فلما أجابه نقياً قال : « فأنت القائل بما لم تعلم ! »

وأي فهم لمعنى الاستعداد للعمل أقرب من فهمه حين ينصح العاملين : « اذا توجه أحدكم في الوجه ثلاث مرات فلم ير خيراً فليكدعه » ؟

كذلك سداد جوابه حين سئل فيمن يشتهى المعصية ولا يقارفتها ، وفيمن ينتهى عنها وهو لا يشتئها ، أيهما أفضل وأجزل مشوبة عند الله ؟

فكتب في هذا فصل الخطاب اذ قال : « ان الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر كريم » . وكذلك وصيته بكتمان السر وتبيينه لحسن عقابه حين قال : « من كتم سره كان الخيار بيده » .

وكذلك وصيته في الحُبِّ والبغض حين قال « لا يكن حُبُّك ككُفَّا ، ولا بغضُك تلفاً » .

وكذلك مخافته ميخنة الفراغ على الناس أشدَّ من مخافته محنة النحر حين قال : « أهدرُكم عاقبة الفراغ فانه أجمع لأبواب المكروه من السكر » .

وكذلك وصاياه التي كانت تحفل بها كتبه الى الولاية وخطبه في الصلوات والأعياد كلها آيات من هذه الحكمة العملية التي هي خلاصة الثقافة المحمودة في أقطاب الحكم خاصة ، وفي كل رجل يزاول شؤون الحياة على التعميم .

أما مشاركته في سائر الفنون والمعارف التي كانت ميسورة على عهده فمنها المستغرب عند من يتخيل صورة عمر من جملة أخباره ، ولا يتقصى فيها الى التفصيل .

فقليل من يتخيل أن عمر كان يعرف « جغرافية » الشرق كأحسن ما يعرفها رجل في وطنه ، ولكنه كان يعرفها حقاً عن سماع وعن رؤية وعن زكاة تعين السماع والرؤية . بل كان يفرض على الولاية أن يحيطوا بعلم مايتولونه من البلاد ويمزل من يرى فيه تقصيراً عن ذاك . فاستقدم عمار بن ياسر أمير الكوفة لما شكوه اليه وقالوا في شكواهم اياه « انه لايدري علام استعمل » وجعل يسأله عن المواقع والبلدان من بلاد العرب والفرس حول الكوفة سؤال مطلع خير ، ثم عزله لتقصيره بعد اختباره .

ومن الواجب أن نشكك في كل خبر يثوهم أن عمر كان يجهل معرفة

من المعارف العملية التي يحتاج إليها في تدبير الدولة ، فلا يعقل مثلاً أنه كان يجهل المعرفة العامة بالحساب وقد كان تاجراً منذ نشأته في الجاهلية ، وكان يحضّر الجيوش ويعرف ماهى الألو ف وماهى عشرات الألو ف ، فاذا استفسر عن رقم ظن يكون الا استفساراً تجاهل واستعظام وليس بجهل وغرارة كما جاء في أخبار الخراج من هَجَرَ والبحرين .

قال أبو هريرة ما فحواه : قدمت من هَجَرَ والبحرين بخسمائة ألف درهم : فأتيت عمرَ بن الخطاب ممسياً أسلمه اياه فسأل كم هو ؟ قلت خسمائة ألف درهم ! قال : وتدرى كم خسمائة ألف درهم ؟! قلت نعم : مائة ألف ومائة ألف خمس مرات ... قال : أنت ناعس ، اذهب فبت الليلة حتى تصبح !

فكل شيء يجوز أن يفهم من هذه القصة الا أن عمر كان يجهل ذلك الرقم ولم يسمع بمثله قبل ذلك ، وهو الذى شهد الدولة وحسابها من عهد أبى بكر وأحصى الجند والمال في عهده ... انما هى غبطة واستعظام وليس هو جهلاً بدلالة هذا الرقم في جملة الحساب

واذا قل من يتخيل علم عمر بالجغرافية والحساب فأقل من أولئك من يتخيل له حظاً من السماع والغناء ، ولكنه كان يسمع ويغنى في بعض الأحيان ، ولا ينهى عن غناء الا أن تكون فيه غواية تثير الشهوات . جئى له برجل يغني في الحج وقيل له : ان هذا يغني وهو مُحَرَّم ، فقال : دعوه فان الغناء زادَ الراكب .

وروى نائل "مولى عثمان بن عفان" أنه خرج في ركب مع عمرَ وعثمانَ وابن عباس ، وكان مع نائل رهطٌ من الشبان فيهم رباح ابن المعترف الفهري الذى كان يحدو وي جيد الحداث والغناء . فسألوه ذات ليلة أن يحدو لهم فأبى وقال مستنكراً : مع عمر ! قالوا : احنن فان نهاك فاتته . فحدوا ، حتى اذا كان السحرُ قال له عمر : كفف فان هذه ساعةٌ ذِكر . ثم كانت الليلة الثانية فسألوه أن ينصب لهم نصيب

العرب (١) . فأبى وأعاد استنكاره بالأمس قائلًا : مع عمر ؟ .. قالوا له كما قالوا بالأمس : انصب فإن نهالك فاته . فنصّب لهم نصب العرب حتى إذا كان السحرُ قال له عمر : كفّ فإن هذه ساعة ذكر . ثم كانت الليلة الثالثة فسألوه أن يغنيهم غناء القيّان (٢) . فما هو إلا أن رفع عقيرته (٣) بغنائهم حتى نهاه وقال له : كفّ فإن هذا ينقّر القلوب . وكان يخرج للحج ومعه من يحسن الغناء فيقترح عليه أن يغني شعراً ويؤثر أن يكون ذلك من شعره .

خرج مرة للحج ومعه خوات بن جبير وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف ، فاقترحوا على خوات أن يغنيهم من شعر ضرار ، وقال عمر : بل دعوا أبا عبد الله فليغنّ من بنيات فؤاده . فما زال يغنيهم حتى كان السحر ، فهتف به عمر : ارفع لسانك يا خوات فقد أسحرتنا .

وجاءه قوم فذكروا أن إمامهم يصلي بهم العصر ثم يتغنى بأبيات من الشعر ، فقام معهم إليه واستخرجه من منزله وسأله فيما بلغه عنه ، واستنشد الأبيات التي يغنيها ، فأنشده :

وفؤادي كلما نبهته عاد في اللذاتِ يعني تعبتي
لا أراه الدهرَ إلا لاهياً في تماديه فقد برّح بي
ياقرينَ السوء ما هذا الصبّا فتني العمرُ كذا باللعب (٤)
وشباب بانّ (٥) مني فمضى قبل أن أقضي منه أربي
نفس لا كنتِ ولا كان الهوى اتقي المولى وخافي وارهي

فأعاد البيت الأخير ، وقال لمن شكوا إليه : من كان منكم معنياً فليغنّ هكذا . وكان مرة في سفر فرفع عقيرته بالغناء وأنشد :

- (١) الحداء : الغناء للأبل كي تجد في السر ، والنصب : غناء أرق من الحداء وهو غناء الركبّان .
(٢) القيّان : جمع قينة وهي الحاربة البيضاء ، وقيل : تختص بالغنية .
(٣) عقيرته : صوته .
(٤) الصبا : من الشوق ، يقال منه « تصابى » ، والصباء اللعب مع الصبيان .
(٥) بان : ذهب وودع .

وما حَمَلَتْ من ناقةٍ فوق رحلها
أبرء وأوقى ذِمَّةً من مَحْمَدٍ

فاجتمع الركب اليه ، فقرأ فتفرقوا . فعل ذلك وفعلوه مرات ، فصاح بهم : « يا بني المتكء (١) ! اذا أخذت في مزامير الشيطان اجتمعتم ، واذا أخذت في كتاب الله تفرقتم ؟ .. » لا يلومهم على الغناء وسماعه ، انما يلومهم أن يؤثروه على سماع القرآن مرات .

ولاشك أن الشغف بالشعر الجزل والحديث الرائق والصوت الحسن لا يجتمع في نفس الا اجتماع معه ذوق للجمال وسرور بكل حسن جميل . ولكن أين يقع هذا من صرامة عمر وبأسه وشدة حَجْرِهِ على زينة الحسان ؟ فقد دخل في روع أناس أنها جميعاً تقاوض حب الجمال ، وقد سمعنا هذا فعلا من أدباء يُحِلُّون عمر ولا يحسبون ذوق الجمال من ماثور حسناته ، لأنه كان شديدا في الحجاب وكان ينفي الفتيان الحسان كما صنع بنصر بن حجاج ومعتل بن سنان ، وكان يقول : « استعينوا بالله من شرار النساء وكونوا من خيارهن على حذر » .

وعندنا نحن أن هذا جميعه ينثم على الاحساس بخطر الجمال وطفيان فتنته ، ولا ينم على غفلة عنه وقلة ميالة بآثره . وما نخال أحدا من المترخصين في الحجاب كان يؤمن بسلطان الجمال أبلغ من ايمان عمر بسلطانه ، أو كان يعرف حق المرأة في الشوق اليه كما عرفه وأمر برعايته ، فانه كان ينكر على الآباء أن يكرهوا فتياتهم على قبساح الوجوه ويوصيهم : « ألا تكرهوا فتياتكم على الرجل القبيح فانهن يحببن ماتحبون » . وجاءت له امرأة بزوج أشعث أغبر تسأله الخلاص منه ، فأمر به أن يحم وأن تثقلم أظفارهُ ويؤخذ من شعره ، ثم قال له ولمن في مجلسه : « هكذا فاصنعوا لهن فوالله انهن ليحببن أن تتزينوا لهن كما تحبون أن يتزينن لكم » .

(١) المتكء : المرأة لم تختن .

فكل ماروى عن عمر من الشدة والرفق في معرض الجمال فهو دليل على الاحساس به واكبار خطره ، وليس بدليل على الغفلة عنه واستصغار أثره ، وربما كانت الشدة والحجر أدل على ذلك من الرفق والمجانسة .



ومن الآداب العامة التى لها حظ من ذوق الجمال في معارض السياسة أدب الذكريات الذى لا يستغنى عنه ولادة الأمر الموكلون بإحياء معالم الدول والاحتفال بمراسمها وأعيادها .

ففى هذا الأدب كان لعمر النصيب الذى يغنيه ، فهو الذى اختار أو وافق على اختيار يوم الهجرة بداية للتاريخ الإسلامى . وانه لأصلح يوم يؤرخ به الإسلام لأن العقائد كما قلنا فى « عبقرية محمد » : « تقاس بالشدائد ولا تقاس بالفوز والغلب ، وكل انسان يؤمن حين يتغلب الدين وتفوز الدعوة . أما النفس التى تعتقد حقاً وتتجلى فيها اتصاف العقيدة حقاً فهى النفس التى تؤمن فى الشدة وتعتقد ومن حولها صنوف البلاء » .

وكلما اقترح على عمر اقتراح " فيه نفحة من ذوق الذكرى كان مجيباً له سريع الاصغاء اليه . فكان يحترم وفاءً بلال واقلاعه عن الأذان بعد وفاة النبى عليه السلام ، ولكنه دعاه الى الأذان تلبيةً لاقتراح الجيلة من الصحابة فى يوم وداع دمشق بعد الفتح المين . فبينما المسلمون يشهدون الصلاة الجامعة اذا بالصوت الذى انقطع بعد النبى يرتفع رويدا رويدا فى الفضاء ويسرى رويدا رويدا من الأسماع الى الصدور ، والتفتوا وكأنهم يسألون : ماذا ؟ هل عاد محمد الى الأرض ؟ ان لم يكن قد عاد فقد عاد الحنين الى أقوى ما ينبعث من صوت انسان الى صدر انسان .. فذابت قلوب لا يذيتها الهول ، وبكى أشيب أولئك الأبطال وأصبرهم على حر القتال .

واذا كان عمر المعجب بالجمال مستكننا وراء ستار يحوجنا الى النظر

من ورائه فعمر الرياضى المشغول بالرياضة البدنية ظاهر لنا بعمله وقوله ،
وبسيرته فى الجاهلية وسيرته بعد الاسلام ، وسيرته بعد الخلافة الى أن
فارق الحياة . فكان يصارع فى المواسم ويسابق على الخيل وكان ينوط مجد
العرب بالرياضة والفروسية ويكتب الى الأمصار أن « علّموا أولادكم
السباحة والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسّن من الشعر » ،
ولا يفتأ يذكرهم أنه « لن تخور قوى مادام صاحبها ينزع وينزو »
أى يرمى بالقوس ويركب ظهور الخيل بغير ركاب .

أما الخطابة فقد كانت فيه من صفات البنيّة ولم تكن من صفات
الذهن وكفى ، فكان له فم يمتلئ بالكلام حين يخطب كأنه خلق ليقول ،
ولوحظ عليه انه كان ينطق ببعض الحروف — كالصاد — من كلا شذقيه
وهى تنطق فى الأغلب من شذق واحد .

وكان جهورى* الصوت واضح النطق سليم الشفتين فى اخراج
الحروف ، وكتابته كلها كأنها خطب مرتجلات تقرأها فكأنك تصغى الى
خطيب لا تفقد منه الا الصوت المسموع .

ولا نطباعه على الكلام الذى لا تصنع فيه كان يستسهل كل كلام يوافق
طبعه ولا يستصعب من الخطب الا الذى يغير من نظرتة الى الناس ويلجئه
الى المداراة والباطل . فكان يقول : « ما يتصعّدنى (١) كلام كما
تصعّدنى خطب النكاح » ، والتمس ابن المقفع علة ذلك فقال : ما أعرفه
الا أن يكون أراد قرب الوجوه من الوجوه ، ونظر الحداق من قرب فى
أجواف الحداق (٢) ، ولأنه إذا كان جالسا معهم كانوا كأنهم نظراء
وأكفاء ، وإذا علا المنبر صاروا سوقة ورعية . والتمس الجاحظ علة ذلك
فروى عن أناس أنهم رجعوا باستصعاب عمر لخطب النكاح الى « أن
الخطيب لا يجد بدا من تزكية الخاطب ، فلعله كره أن يمدحه بما ليس
فيه فيكون قد قال زورا وغر* القوم من صاحبه » . وكلا القولين جائز

(١) ما يتصعّدنى كلام : ما يشق على . (٢) الحداق : جميع حدقة وهى سواد العين

في بيان وجه المخالفة بين طبع عمر والتكلم في محافل النكاح . فهو مطبوع على أن يتكلم الى الناس كلام رجل يقود الرجال ، ومطبوع على الصدق الذي تُثقل على صاحبه المداهنة ، وهي مما لا غنى عنه في هذا المقام ، ولو كان الخاطب من الأكفاء .

وقد اختلفوا في نظمه الشعرَ فزعم الشعبي أنه كان شاعرا ورؤيت أشعاره لا تشبهه ولا ترضيه ، ونفى هو نظمه للشعر حين قال : « لو كنت أقول الشعرَ لرئيت أخى زيدا » .

ولا طائل في هذا الخلاف لأنه لن ينتهي الى رأى قاطع يُسكت عليه ، ولكننا المهم في هذا الصدد أنه كان مطبوعا على التعبير وله عبقرية فيه ، أو أن تعبيره كان خاصا به لا يشبهه تعبير سواه ، فهو تعبير "عمرى" بمفرداته وتركيبه لا يلتبس بتعبير أحد من أهل عصره حتى ليسهل تمييز كلامه من كل كلام ، ويصعب تزوير القول عليه ولو أحكمت المحاكاة . فمن خصوصياته في التعبير أنه كان يقول : « لولا الخليفة لأذنت » ، وهو يعنى الخلافة ولا يقصد الاغراب .

ومنها وهو ينقل خبر اسلامه الى خاله : « وجئت الى خالى فأعلمته فدخّل الى البيت وأجاف الباب » أى أوصده .

ومنها وهو يصف ما وقع في نفسه من الآفة التي تلاها أبو بكر رضى الله عنه حين أنكر موت النبى فقال : « والله ما هو الا أن سمعت أبا بكر تلاها فعمرت حتى ماتت قلتي رجلاى » ، يعنى أنه عجز عن القيام .

ومنها في الكتابة والقراءة ينهى عن العجلة فيها : « شر الكتابة المشق وشر القراءة الهذمة ، وأجود الخط أبيته » (١)

ومنها وهو يذكر امرأة كانت تسقى الناس يوم أحد : انها « كانت تزفر للناس القرب » أى تحملها .

(١) مشق في الكتابة : مد حروفها واسرع فيها ، هلدم القرآن : أسرع في قرأه لا يتدبر معانيه .

ومنها في المشورة : « الرأيُ الفرد كالخيطة السَّحِيل ، والرأيان كالخِطَينِ المُتَبَرِّمين ، والثلاثة مرار لا يكاد ينتقض » (١)
ومنها حين كَتَبَ الى أبي عبيدة بعد ولايته الخلافة : « ... ولا تَبْعْ سَرِيَّةَ الا في كُثْف من الناس » (٢)
ومنها حين شكَا اليه الشاكى هجاء الشاعر الذي قال فيه :
ولا يردون الماء الا عَشِيَّةً اذا صدر الورداء عن كل مورد
فقال : ذلك أنفى « للسكاك » أى الزحام .
ومنها في سماحه بالبكاء « ما لم يكن نفع أو لقلقة » أى ما لم يثير التراب ويفرط في العويل ..
ومنها وقد حار بأهل الكوفة : « أَعْضَلَ (٣) بى أهل الكوفة ما يَرْضَوْنَ بأمر ولا يرضاهم أمير »
ومنها : « ان قرىشا تريد أن تكون مَغْنَوِيات لِمَالِ الله » أى مصائد نحتججه لها دون عباد الله .
ومنها : « تَمَعَّدُوا واخْشَوْشِنُوا واقطعوا الركب وانزوا على الخيل نزوا » أى تزيثوا بزى العرب من معد بن عدنان .
ومنها : « فرقوا بين المنايا واجعلوا الرأس رأسين ، ولا تَلِشُوا (٤) بدار مَعْجِزَة » أى تقيموا .
ومنها : « فمن بايع رجلا على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو ولا الذى بايعه تغرمة أن يقتلا » أى أن يتعرضا للقتل .
ومنها : « .. ان الاقتصاد فى السُّنة خير » من الاجتهاد فى الضلالة ، فافهموا ماتوعظون به ، فان الحريب من حرب فى دينه « يريد المسلوب .
ومنها وقد سمع بامرأة سافرة يبرزها زوجها فقال : « هذه الخارجة وهذا المرسلها لو قدرت عليهما لَشَتَّرَتْ بهما » أى لأغلظت القول نهما

(١) السحيل : الثوب السحيل الذى لا يبرم غزله ، مرار : قوية محكمة .
(٢) الكثف : الجماعة .
(٣) أمضى بى : أعيانى امرجهم .
(٤) فى المختار : ولا تقيموا ببلدة تمجرون فيها عن الاكساب والتميش .

ومنها لما سأله : لم حَصَبْتَ المسجد فقال : « هو أغفر للنخامة وألين في الموطن » أى أستر للبصاق .

ومنها : « ثلاث من الفواقر (١) : جار مقامة ان رأى حسنة سترها وان رأى سيئة أذاعها ، وامرأة ان دخلت عليها لَسَنْتُكَ وان غبت عنها لم تأمنها . وسلطان ان أحسنت لم يحمذك ، وان أسأت قتلك » ، ولستك : أى تناولتك بلسانها .

ومنها : وهو يخاطب سعد بن عبادة يوم السقيفة : « لقد هممت ان أألك حتى تنسدر عضدك » أى تسقط .

ومنها وهو يتكلم عن امرئ القيس : « خسف لهم عين الشعر فافتقر عن معان عثور أصبح بصر » ، أى استنبط عين الشعر وشق طريق المعاني وأتى بالشوارد الحسان .

ومنها وهو يتكلم عن نصيب المسلمين في الغنائم ويبت المال : « والله لئن بَقِيت لِيَأْتِيَنَّ الرَّاعِي بِجَلِّ صَنَعَاءَ حَظِّهِ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَهُوَ مَكَانَهُ قَبْلَ أَنْ يَحْمَرَ وَجْهَهُ » ، أى قبل أن يخجل ويحمر وجهه في طلبه .

ومنها قوله لأعرابي استفتاه في صيد ظبي وهو مُحْتَرَمٌ : « أَتَقْتُلُ فِي الْحَرَمِ وَتَمْنَعُ الْفَتَا ! » أى تعيها ولا ترضأها .

وأشبهه هذا كثير لا تخلو منه خطبة أو حديث أو كتاب ، تعمدنا أن نكثر شواهدنا لنرى أنه ليس بالمصادفة وليس بالتكرير لنمط واحد من العبارات .

ويُلْحَقُ بهذا تسمية مواليه بين أسبق وأسلم ويرفأ وفرقد وذكواز وفروخ وما شابه هذه الأسماء ، وهى تسمية مفردة تكاد تقتصر عليه ، وإنما هى الطبيعة العمرية تمثلت فى صيغة الكلام وفى اختيار الأعلام ، فلا تستطيع أن تسميها اغرابا أو عَسَلَطَةً أو تمثالا (٢) بنحو من أنحائه ، اذ ليس وراءها قصد "متفق" فى جميع هذه الصيغ ، وأيِّنُ

(١) الفواقر : جمع فاقرة وهى الداهية .

(٢) المِطْلَعَةُ : الكلام بلا نظام ، وكلام مملط أى مخلط . والتعمل : التكلف .

ما يبين فيها أنها من عفو البداهة هنا وهناك ، وأنها تترجم عن الطبيعة
العمرية أصدق ترجمة وأشبهها بصاحبها ، فهي قوية خشنة مستقلة جادة
خالية من الزخرف . وهكذا كان التكلم عمر ، وهكذا كان كلامه الذى
يَنْطَبِع عليه حين يكون منطبعاً على التعبير ، فلو أن كلمات تمثل رجلاً
لتراءى لنا من مثال هذه الكلمات شخصٌ عمرٌ فى خَلْقِهِ وخَلْقِهِ
كما كان .



ومحصل هذه الأخبار جميعاً أن عمر كان من نخبة المثقفين فى العربية ،
وكان وافر السهم فى ثقافة قومه وعصره . وكان الجانب العملى من
ثقافته أغلب وأظهر من جوانبها النظرية كما هو المهود فى مساهمة الأمم
وعواهل الدول . وإن كان هذا لا يمنع أنه اشتاق الى نقائس الشعر
وأطياب الأدب لما يجده من راحة النفس ومُتعة خاطر .

ويستطرد بنا الكلام على ثقافته العربية الى الكلام على موقفه من
الثقافات الأخرى فى زمانه ، وعلى حقيقة الرواية التى شاعت وتواترت عن
موقفه من مكتبة الاسكندرية التى قيل انه أمر باحراقها . فهل هو الأمر
باحراقها كما جاء فى تلك الرواية ؟ وإذا كان هو الأمر بذلك فما دلالة على
تفكيره ؟ وما وجه التبعة فيه ؟ فحوى تلك الرواية أن عمرو بن العاص رفع
اليه خبر المكتبة الكبرى فى الاسكندرية فجاءه الجواب منه بما نصه : « أما
الكتب التى ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه
غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة اليه ، فتقدم باعدامها »
قال مفصل هذه الرواية : فوزعت الكتب على أربعة آلاف حمار بالمدينة
ومضت ستة أشهر قبل أن تستنفد لكثرتها !

وأخرى شئ أن يلاحظ فى مسألة المكتبة هذه أن الذين أدمسوها
وأبرأوا عمر من تبعها كان معظمهم من مؤرخى الأوروبيين الذين لا يسمعون
بالتشيع للمسلمين ، وكانوا جميعاً من الثقات الذين يؤخذ بنتائج بحسبهم

في هذا الموضوع .

فالمؤرخ الانجليزى الكبير ادوارد جيبون Gibbon صاحب كتاب الدولة الرومانية في انحدارها وسقوطها يسرّدُ الحكاية ويعقّب عليها قائلا : « أما أنا من جانبى فأننى شديد الميل الى انكار الحادثة وتوابعها على السواء ، لأن الحادثة لعجية فى الحق كما يقول مؤرخها اذ يسألنا هو أن نسمع ماجرى ونعجب ! .. وهذا الكلام الذى يقصه أجنبى غريب يكتب على تخوم ميدية بعد ستمائة سنة يوازنه ويرجح عليه ولاشك سكوت اثنين من المؤرخين كلاهما مسيحي وكلاهما مصرى ، وأقدمهما البطريق يوتيخيوس Eutychius الذى توسع فى الكتابة عن فتح الاسكندرية وان القضاء الصارم الذى نسب الى عمر لبغيض الى أصحاب الفهم الصحيح المستقيم من فقهاء المسلمين الذى يثقتون بتحريم احراق الكتب الدينية التى تنغم من اليهود والمسلمين فى الحرب ، وما كان من الكتب دنيويا ظنينا سواء ألفتها المؤرخون أو الشعراء أو الأطباء أو الفلاسفة فحكمهم فيه أن يستخدم على الوجه المشروع لمنفعة المؤمنين . وقد تعزى الى متقدمى الخلفاء بعد محمد غيرة" أضرى من ذلك بالهدم والابادة . ولكن لو صح هذا لوجب أن تنفذ الأوراق سريعا لقلّة المادة المحترقة ! فلا نرجع الى نكبة المكتبة فى الحريق الذى أصابها على غير قصد يبدى قيصرى وهو يدافع عن نفسه ، ولا الى تعصب المسيحيين الأوائل الذين كانوا يدبرون الوسائل تدييرا لتعفية الآثار المتخلفة من أيام عبادة الأصنام ، ولكننا ننحدر شيئا فشيئا من عصر أتونين الى عصر ثيوديسيوس فنعلم من سلسلة الأنبياء المعاصرة أن القصر الملكى وهيكلى سَرايس لم تبق فيهما تلك الأسفار التى جمعها البطالسة وبلغت فى احدى الروايات أربعة آلاف وفى رواية أخرى سبعة آلاف ، ولا يبعد أن تحفل الكنيسة ومعهد البطارقة ب ذخيرة من الأوراق والأضابير ، فان كانت هذه هى الوقود الذى أفتته الحمامات بما كان فيها من جدل بين القائلين بتعدد الطبيعة المسيحية والقائلين

بتوحيدها فقد يرى الفيلسوف وعلى فيه ابتسامة أنها كانت في الحمامات
أنفَع لبني الانسان ! » .

والدكتور الفرد بتلر Butler المؤرخ الانجليزي الذي أسهب في تاريخ
فتح العرب لمصر والاسكندرية يلخص الحكاية وينقضا ابتداءً لأن حنا
فلبوتوس الذي قيل انه خاطب عمرو بن العاص في أمر المكتبة لم يكن
حيًا في أيام فتح العرب لمصر .. ثم ينقضا لأسباب شتى منها أن كثيرا من
كتب القرن السابع كانت من الرُّق (١) وهو لا يصلح للوقود ، وأنها لو
قضى الخليفة باحراقها لأحرقت في مكانها ولم يتجشموا نقلها الى الحمامات
مع مافيه من التعب ومع امكان شرائها من الحمامات بعد ذلك بأبخس
الأثمان ، وأتانا لو صرفنا النظر عن الكتب المخطوطة على الرق لما كفى
الباقى من ذخائر المكتبة لوقود أربعة آلاف حمام مائة وثمانين يوما ، وهذا
عدا الشك الذي يعتور القصة من تأخر كتابتها زهاء خمسة قرون ونصف
قرن بعد فتح الاسكندرية ، ثم كتابتها بعد ذلك خِلنوا من المصادر
والأسناد ، بل هذا عدا ما قيل من احتراق المكتبة في السنة الثامنة والأربعين
للميلاد ، وفيها تلا ذلك من الفتن والقتل بين طوائف المسيحيين .

والمستشرق كازانوفاسمى الحكاية أسطورة^٢ ويقول انها نشأت بعد
تاريخ الحادثة بستة قرون ، وينقضا لمثل الأسباب التي لخصناها من كتاب
بتلر ، ثم يقول : « .. وهناك اعتراض أخطر مما تقدم وهو أن ما ذكر عن
يحيى النحوى منقول^٣ عن كتاب القهرست لابن النديم في أواخر القرن
العاشر ، وفيه أن يحيى هذا عاش حتى فتحت مصر وكان مقربا من عمرو
ولم يذكر شيئا عن مكتبة الاسكندرية ، فحادثة المكتبة اذن من أوهام ابن
القبطى أخذها عن خرافة كانت شائعة في عصره » .

ثم يمضى في تنفيده فيقول : وقد تساءل ابن خلدون عن مخلفات الفرس
والأشوريين والبابليين والقبط التي حرقها عمر عند فتح العرب . وقال

(١) الرق : بفتح الراء ونسرها ، جلد رقيق يكتب فيه .

ابن خلدون في كلام آخر : ان العرب لما فتحوا بلاد الفرس سأل سعد بن أبي وقاص عمرَ عما يأمر به في شأن الكتب التي بها فأمره بالقائها في الميم فانتقلت القصة من فارس الى الاسكندرية مع الزمن ، وفعل الخيان فعُله في تحريفها .

« وقد وقع تحريف في هذه الخرافة في بعض دوائر المعارف حيث نقل عن سبرنجل أن مكتبة الاسكندرية حرقها العرب عند فتح مصر وأن الخليفة المتوكل أنشأها من جديد ، وأن الترك فتحوا الاسكندرية سنة ٨٦٨ وأضرموها فيها النار على عهد أحمد بن طولون .. ولكن أحمد بن طولون لم يفتح مصر وانما أقامه خليفة بغداد حاكما عليها ، فلا علاقة للترك اذن بهذا الحادث المزعوم » .

قال : « وفي سنة ١٨٧٧ ذكر الكونت دي لندبرج أن أحد الضباط الانجليز اتهم نابليون الأول باحراق مكتبة الاسكندرية » .
قال : « وسنلم هنا بالسبب الذي من أجله ظهرت هذه الخرافة في القرن الثالث عشر ولم تظهر قبل ذلك » .

« ففي أواخر القرن الثاني عشر رجعت مصر الى حكم خلفاء بغداد ، وأبلى صلاح الدين بلاءه في الحروب الصليبية واثتصر على المسيحيين فلقبه انشعب بقاتح مصر ، وقرن بين اسمه واسم عمر بن الخطاب . وكان لابن القفطى أب يعجب بصلاح الدين ولائه صلاح الدين قضاء القدس ، وعاصر عبد اللطيف البغدادي وهو من المعجبين مثله بصلاح الدين ، فتلاقيا في القدس وسمع منه هذه الأسطورة التي توسع ابن القفطى في نقلها . فكان أول من ألّف هذه الأسطورة من حاشية صلاح الدين لتزكية حاكم مصر الجديد . ومما يروى عن صلاح الدين أنه باع كنوز القصر والمكتبة فبقيت هذه الرواية الى القرن الثامن عشر يوشّيها ما ينسجه الخيال حول الخرافة العسرية . ثم اتخذت صورتها التاريخية منذ ذلك العهد تعززها خرافات أخرى لحقت بعمر ووافقت معنى قوله ألاّ كتاب الا كتاب الله .. »

ومن المشاركة الذين تناولوا حكاية المكتبة المؤرخ الكبير جورجى زيدان في الجزء الثالث من كتابه « تاريخ التمدن الاسلامى » حيث قال انه كان يميل الى نفى الحكاية ثم عدل عن ميله هذا الى قبولها وأورد من أسباب ذلك « أن حكاية احراق مكتبة الاسكندرية لم يخلقها أبو الفرج لتعصب دينى ، ولا دسها أحد بعده ، بل هو نقلها عن ابن القفطى وهو قاض من قضاة المسلمين عالم بالفقه والحديث وعلوم القرآن واللغة والنحو والأصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل ، وكان صدرا محتشما جمع من الكتب مالا يوصف ، وكانوا يحملونها اليه من الآفاق ، وكانت مكتبته تساوى خمسين ألف دينار ، ولم يكن يجب من الدنيا سواها ، وله حكايات غريبة عن غرامه بالكتب ، ولم يخلّف ولدا فأوصى بمكتبته لناصر الدولة صاحب حلب ، وله مؤلفات عديدة في التاريخ والنحو واللغة ، وفي جملتها كتاب أخبار مصر من ابتدائها الى أيام صلاح الدين في ستة مجلدات ، وكتاب تراجم الحكماء الذى نحن فى صدده وأن ابن القفطى وعبد اللطيف البغدادى أخذوا عن مصدر ضائع . وأما خُلتو كتب الفتح من ذكر هذه الحادثة فلا بد له من سبب ، والغالب أنهم ذكروها ثم حذفت بعد نضج التمدن الاسلامى واشتغال المسلمين بالعلم ومعرفتهم قدر الكتب ، فاستبعدوا حدوث ذلك فى عصر الخلفاء الراشدين فحذفوه ، أو لعل لذلك سببا آخر ، وفى كل حال فقد ترجح عندنا صدق رواية أبى الفرج ... »

ونرى نحن أن ابن القفطى كان أولى ممن تقدموه بالسكوت عن حريق المكتبة بأمر عمر بن الخطاب لو كان الذين تقدموه قد سكتوا عنه لعرفانهم قدر الكتب وغيرتهم على سمعة الخلفاء الراشدين ، فإن ابن القفطى لايجعل قدر الكتب ولا يسبقه سابق من المؤرخين فى المغالاة بنفاسة المكتبات فلا بد من تعليل أصوب من هذا التعليل لسكوت المؤرخين المسلمين والمسيحيين الذين شهدوا فتح مصر عن هذه الحكاية ، الى أن نجبت بعد

بضعة قرون ..

فمن جملة هذا العرض لآراء نخبة من الثقات في هذه المسألة يحق لنا أن نعتقد أن كذب الحكاية أرجح من صدقها ، وأنها موضوعة في القرن الذى كتبت فيه ولم تتصل بالأزمة السابقة له بسند صحيح ، وربما كانت مدسوسة على الرواة المتأخرين للتشهير بالخليفة المسلم وتسجيل التعصب الذمى عليه وعلى الاسلام .

وإذا كانت هذه الحكاية من تلفيق النيات السيئة فالمعقول ألا توضع قبل القرن السادس الهجرى الذى تسربت فيه الى الكتب المدونة ، وهذا يفسر لنا كل غموض يستوقف النظر فى الحكاية من جميع أطرافها .

لأن تلفيق هذه الحكاية يستلزم عناصر شتى لا تجتمع كلها فى وقت واحد قبل القرن السادس للهجرة .

فهو يستلزم أن يكون الملقن عليماً بالأقوال والأحوال التى أثرت عن عمر بن الخطاب ، وفيها ما يجعل حكاية المكتبة قريبة التصديق مشابهة لما يتوخاه الخليفة فى أوامره ونواهيه .. ولم تكن هذه الأقوال والأحوال معلومة مستفيضة الخبر بين المسلمين أنفسهم عند فتح الاسكندرية فضلاً عن المسيحيين أو الاسرائيليين ، وإنما عُلِمَت واستفاضت بعد ما دُوِّنت السير وجمعت المتفرقات .

ويستلزم تلفيق الحكاية ، للتشهير بالخليفة المسلم ، أن يكون الملقن عارفاً بما فى هذه التهمة من المعابة ، شاعراً بما فيها من الاعتساف والغرابة ولم يكن هذا أيضاً مفهوماً فى أيام فتح الاسكندرية بين خصوم الاسلام ، لأنهم كانوا قد تعمدوا احراق الكتب والتماثيل واعتبار الوثنية وبقاياها رجساً من عمل الشيطان يستحق نار الدنيا قبل نار الجحيم ، وما من عارف بالكتب بينهم الا كان يسمع بحماسة القياصرة المسيحيين فى تدمير التحف الاغريقية ولا سيما « ثاوديسيس » الذى أحرق هياكل شتى ، فيها ولا شك كتب كثيرة من بقايا المكتبة التى عليها الخلاف .

وقد يستلزمُ تَلْفِيقُ الحِكَايَةِ أن تكونَ مصرُ وأخبارُها موضعَ اهتمامٍ ومُشارَ قيل وقال ، ولم تكنَ مصرُ قط قِبلةَ أنظارِ العالمِ كما كانت في أوقاتِ الحروبِ الصليبية ، يومَ كانت هي ميدانُ الفصلِ ومناطُ الظفرِ والهزيمة بين جيوشِ الدنيا المحشودة فيها أو على أبوابها .

وقد يستلزمُ كذلك أن يكونَ العصرُ عصرَ حَزَاةٍ بين الإسلامِ وخصومه كما كان عصرُ الحروبِ الصليبية وما قبله بقليل .

وقد يستلزمُ مع جميع أولئك أن يشتركَ في القيل والقال حافظو الكتبِ الاغريقية في بيزنطية وشواطئ آسيا الغربية ، وهي البلاد التي كانت موطنُ أقدامِ الجيوشِ في الكرِّ والفرِّ والقدومِ والاياب ، ومنها تَدَفَّقَ حافظو الكتبِ الى أوربا عندما أغار التُّركُ على بيزنطية من تلك الأرجاء .

فتلْفِيقُ الحِكَايَةِ اذن كان عَجيباً في أيامِ فتح الاسكندرية وما تلاها من الأزمنة الى زمانِ القِفْطِيِّ والبغدادى وأبى الفرج المَلْطِى ، ولهذا لم تظهر حِكَايَةُ المَكْتَبَةِ في تلك الأيام .

وتلْفِيقُهَا في عصرِ الحروبِ الصليبية غيرُ عَجِيبٍ لاجتماعِ الأسبابِ التي يستلزمها ذلك التلْفِيقُ ، ولهذا ظَهَرَتْ فيه وأمدُّها ظهورُها فيه بالسببِ الذي يَبْطِلُ العَجَبَ ويفسِّرُ الغوامضَ التي لا يفسرها تعليلٌ معروف غير هذا التعليل .

الا أننا على الرغم من كل هذا نفرض أن عمر بن الخطاب أمر باحراقِ مكتبة الاسكندرية ، فما هي الوصمة التي تلحقه من هذا الأمر ؟ ولماذا كان يَحْرُمُ عليه أن يَحْرِقَهَا ويَجِبُ عليه أن يستبقِها ويفتح أبوابها ؟ ولماذا كان ينبغي أن يكون على يقين أنها شيء مفيد للمسلمين ولغيرهم من الأمم ، وأنها ذخيرة من ذخائر العالم لا يجوز التفريط فيها ؟

أمنَ النقصِ في تفكيرِ الإنسان أن ينشأ بمعزل عن بلاد اليونان وعن عصرِ حكماء اليونان فلا يطلع على الفلسفة اليونانية ؟ أكانت فائدة تلك الكتب واضحة كلِّ الوضوح من أحوالِ أقوامها الذين حفظوها ، ان

صح أنهم حفظوها ؟

ان أحوالَ الرومِ والقبطِ في ذلك العهدِ لم يكن فيها دليل واحد عسى أنهم محتفظون بينهم بمعرفة نفيسة ، وأن ضياع كتبهم فيه ضياع "لذخيرة من ذخائر العالم التي لايجوز التفريط فيها .

فقد كانوا على شر حال من الضعف والفساد والجهل والهزيمة والشقاق والتهاك على سفساف الأمور . فاذا كانَ عمرٌ غيرَ مطالب بعلم الفلسفة اليونانية أو غيرَ ملوم على فوات الاطلاع عليها ، واذا كانت أحوالُ الأمم التي هي أهلُها لا تدلُّ على قيمتها بل تسوِّغُ الاعتقاد بخلوها من كل قيمة ، فأين هو العيب في تفكيره ان صح أنه فكر على ذلك المنوال ؟

انما يعيبُ الانسانَ أن يكونَ عدوًّا للمعرفة على اطلاقها ولم يكن عمرٌ عدوًّا للمعرفة ولا مشعرًا عنها ، بل كان مشغوفًا بها حيث رآها دينية كانت أو أدبية ، ومن قومه أنت أو من غير قومه .

فكان يستشيرُ الغرباءَ في تدوين الدواوين ومنافع الصناعة ولا ينهي عن علم شيء الا أن تكون فيه فتنة أو ضلال .

وكان ولا ريب يؤثر للمسلمين أن يتقبلوا على دراسة القرآن ويتقدموا فهمه على فهم كل كتاب . وهذا واجبه الأول الذي لا مرأى فيه ، وما من أحدٍ هو مطالب بهذا الواجب قبل أن يطالب به عمر على التخصيص ، لأنه الخليفة الذي في عهده انتشر المسلمون بين أقطار المشرق وخيفَ عليهم أشدُّ الخوف أن ينحل المِقدُّ الذي جمعهم وبثَّ فيهم الهمة والبأس وسوءدهم على العالمين .

وفي الأخبار التي ثقلت بهذا الصدد أن رجلاً أنبأه أنهم لما فتحوا المدائن أصابَ كتاباً فيه كلام معجب ، فسأله : أمن كتاب الله ؟ قال لا . فدعا بالدرّة فجعل يضربه بها وهو يقرأ : « الر . تلك آيات الكتاب المبين . انا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون .. » ثم قال : « انما أهلك من كان قبلكم

أنهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم وتركوا التوراة والانجيل حتى
دَرسا وذهب مافيهما من العلم .

رُويت هذه الرواية عن عمر بن ميمون عن أبيه ، وليس فيها ما ياباه

العقل ولو حكمنا على عمر بحكم الدنيا وحكم التجربة الواقعية وتركنا
حكم الدين والايمان الى حين .

فبالتجربة الواقعية أيقنَ عمرُ أن المسلمين بكتابهم خرجوا من الظلمات
الى النور ، واتصروا على من حاربوه وعندهم كل كتاب .

وما فرغ المسلمون بعدُ من قراءة القرآن ولا انقضت على تداوله بينهم
سنوات . فكيف يرضى الخليفة الذى يهْمُهُ أمر رعاياه أن ينصرفوا عنه
الى كتب لا يؤمن مافيهما ؟ وكيف يكون الحال اذا تفرقوا شَذَرَ مَذَرَ (١)
ولهم فى كل بلد قراءة غير هذا الكتاب الذى لم يفرغوا منه ولم يستوعبوا
كل مافيه ؟ أمن عداوة المعرفة هذا أو من ايثار المعرفة التى تتقدم على غيرها ؟
واذا لم تتقدم هذه المعرفة على غيرها فى السنوات الأولى من تداول القرآن
الكريم فمتى تتقدم ؟ ومتى يُعطى القرآن حَقُّه من الفقه والوعى
والاقبال ؟ وأين هى الغنيسة الروحية التى تعدل فى كتاب من الكتب بعض
ماغنمه المسلمون بوحى القرآن فى صدر الاسلام ؟

فعلى أى فرضٍ من الفروض لم يكن فى تصرف عمرَ ما ياباه العقلُ
الذى ينظر الى الحقائق المشهوددة والآثار الواقعة ، ويجوز أنه أمر باحراق
مكتبة الاسكندرية على أبعد احتمال ، ولكن الذى لا يجوز لمنصف أن
يفهم من ذلك أنه عدو الثقافة وهو الأديب الفقيه الخطيب ، وهو قد
وازن بين معرفة ظاهرة النفع ومعرفة مجهولة ظواهرها كلها تغرى باتهامها .
ولا لوم عليه أن يولدَ حيث يجهلها ، ولا لوم عليه أن يتهمها وهى لم تنفع
أهلها يوم رآهم يخطون فى الضلالة والهزيمة ، ولا يُقال عن عقلٍ يفكر
هذا التفكير إنه لم يفكر على هدىٍ مستقيم .

(١) صدر ملر : اى متفرقين

عُمَرُ فِي بَيْتِهِ

كان الخليفةُ الأكبرُ - صاحب الأمر في الجزيرة العربية ، وصاحب الغلبة على ملكِ الأكاسرة والقيصرة والفراعنة ، ومدبر الحكم في الرقعة الوسطى بين قارعات العالم المعمور - رجلاً فقيراً يعيش في بيته عيشة الكفاف ، ويقنع من الغذاء والكساء بحظ لا يتمناه كثير من الرجال ، ويزهد فيه كثيرٌ من النساء .

فمن غير العجيب أن يخطب بعض النساء فيأبين عيشه ، وقد أبى مثل هذا العيش نساء النبي عليه السلام ، فلم يقبلنه الا وقد خيرت بينه وبين الطلاق .

وما ندرى أى الشهادات لحكم الخليفة الأكبر أغلى وأجمل ، فان الشهادات لحكمه أكثر من أن تحصى ، وهى جميعا مما تعالى به السير وتزدان بجماله ، ولكننا لا نعرف بينها ما هو أغلى وأجمل من هاتين الشهادتين أن يعيش في بيته عيشاً لا يُشْتَهَى ، وأن تكون في يده صولة الملك فلا ترى فيها امرأة من النساء خِلابة (١) تغرها ، ولا صولة تخفيها من أن ترفضها وتأبأها .

ان امرأة واحدة ترفض عمر لأغلى في الشهادة له من ألف امرأة يُقبلن على بيته ويطمعن في سلطانه .

وقد وصفته امرأة خطبها ورفضته وصفا لم نسمع فيما قيل عن إيمان به بالله أصدق منه ولا أوجز وأوفى ، فقالت أم أبان بنت عتبة بن ربيعة انه رجل « أذهله أمر آخرته عن أمر دنياه ، كأنه ينظر الى ربه بعينه »

والذى نعنيه من الوصف هو قولها عن مخافته الله انه كان يخافه كأنه

يراه بعينه .

(١) خِلابة : أى ما يغلب ويغدع

فهو في الحق أصدق وصف لايمان هذا الرجل المتفرد بإيمانه كما تفرد
بكثير من شئونه . انه تجاوز حد الايمان الى حد الرؤية والعيان ، وحقق
مبالغات أبى الطيب المتنبى حين وصف الغاية القصوى من الشجاعة والحكمة
فقال :

تجاوزت مقدار الشجاعة والشهى الى قول قوم أنت بالغيب عالم
ومهما يكن من ايمان بالغيب فهو لا يبلغ في اليقين والحضور مبلغ الرؤية
بالعين ، وهى قولة عابرة من قائلة أصابت مالم يصبه قائل ، ولعلها لا تدرى
مدى صوابها .

وخطب عمر أم كلثوم بنت أبى بكر الى أختها أم المؤمنين عائشة رضى
الله عنها فقالت له : الأمر اليك ، ثم سألت أختها فأبته وقالت : لا حاجة لى
فيه . فزجرتها قائلة : أترغبين عن أمير المؤمنين ؟ قالت : نعم ، انه خشن
العيش شديد على النساء . وكرهت عائشة أن تجبه (١) بالرفض فوسّطت
في الأمر عمرو بن العاص يحتال له برفقه وحسن تدييره ، فجاء عمر وفاجأه
قائلا : بلغنى خبر أعيذك بالله منه . قال ماهو ؟ قال : خطبت أم كلثوم بنت
أبى بكر . قال نعم ، أفرغبت بى عنها أم رغبت بها عنى ؟ قال لا واحدة ،
ولكنها حدثت (٢) نشأت تحت كنف أمير المؤمنين فى لين ورفق ، وفيك
غلظة ، ونحن نهابك وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك . فكيف بها
ان خالفتك فى شىء فسطوت بها ؟ كنت قد خلفت أبا بكر فى ولده بغير
ما يحق عليك ! .. ففهم عمر أن ابن العاص لا يتقدم على هذه الوساطة بغير
موسط ، وأن فى الأمر ممانعة على نحو من الأنحاء .. فسأله كأنه يستطلع
ما وراءه من الممانعة . كيف بعائشة وقد كلمتها ؟ قال : أنا لك بها ، وأدلك
على خير منها : أم كلثوم بنت على بن أبى طالب ، تعلق منها بنسب
رسول الله .

وأم كلثوم بنت علي حدثت أيضا ، والمحظور فى اغضاها أكبر من المحظور

(٢) حدثت : مشيرة السن .

(١) تجبه : تراجعه

في اغضاب بنت أبى بكر ، وان اعتمد ابن العاص على أن عمر يملك نفسه فلا يغضبها ، فقد كان حرياً به أن يعتمد على شيء من ذلك في خطبته لبنت الصديق .. فلن يفوت عمر - وهو يعلم من يخاطبه في الأمر - أن يفهم خبيثة سعيه ، وأن يتجاهله لئلا يكشف موقف الرفض والاعتذار من عائشة وأختها رضى الله عنهما ، ويعمل بما يراه الصواب .

والطريف في القصة - وكلها طريف - أن يذهب عمرو بن العاص الى خليفته ليواجهه بما يؤخذ عليه من خلائقه وهو آمن أن يغضبه ، بل هو فوق ذلك واثق من موافقته اياه مادام على صدق في مقاله .

وللمرأة أن تأبى الخشونة في رجلها ولا تستريح اليها ، ولكن دارس الأخلاق لا ينبغي أن يعيب هذه الخصلة الا بمقدار ما فيها من نقص في الطباع الانسانية الأصلية . اذ المحقق أن الخشونة حرمان من الصقل والمرونة ، ولكننا نخطئ كل الخطأ ان حسبناها حرماناً من البر والرحمة ، لأن المرء قد يكون ناعم الملمس وهو قاس مفرط القسوة ، ويكون خشن الملمس وهو رحيم مفرط الرحمة ، ويغلب في هذه الحالة أن تكون خشوته - كما أسلفنا في فصل سابق - درعاً يستر بها مواضع اللين في خلقه ، وضرباً من الخجل أن يطلع على ناحية فيه يتطرق اليها الضعف وتنفذ منها الرماية .

فالخشونة تقيض الصقل والنعومة ، وليست تقيض العطف والرحمة . وعسر بن الخطاب من أفذاذ الرجال الذين تنجلي فيهم هذه الحقيقة أحسن جلاء ، حتى في علاقاته بالأهل والنساء .

رحمة عمر رحمة في غلاف ، وليست بالرحمة المكشوفة لكل ناظر ولا مس ، ولا تطول بالناس عشرته حتى ينقشع هذا الغلاف عن قلب وديع مغمم بالعطف والمودة ، مفتوح الجوانب لكل عاطفة كريمة ولو لم تكن من ولي حميم .

ففساؤه اللائى عاشرنه قد كلفن بجه ورصين عيشه لرضاهن

بمودته وعطفه ، وكانت احداهن التى سُمِّيت العاصية وسماها النبي
عليه السلام الجميلة لا تطيق فراقه ، فاذا خرج مشيت معه الى باب الدار
فقبلته ولم تزل فى انتظاره .

وكانت من نسائه عائكة بنت زيد ، وهى على قسط وافر من الجمال
ومن الدين ومن البلاغة ، تولمت (١) فى رثائه حين قتل فلم يكن بكائها
عليه كبكاء كل زوجة على كل زوج فقيد ، وتعددت قصائدها فى تأيينه
بكلام لا يغيب عنه صدق المدح ولا صدق الحسرة ، وهى التى قالت فيه :

عصمة الناس والمعين على الدهر وغيث المتساب والمحروب
قل لأهل الضراء والبؤس موتوا قد سقته المنون كاس شعوب (٢)

وقالت فيه :

رءوف على الأدنى غليظ على العدا أخى ثقة فى النائبات منيب
متى ما يقل لا يكذب الله قوله سريع الى الخيرات غير قطوب

وقالت فيه :

جسد تقف فى أكفانه رحمة الله على ذاك الجسد

وقالت فيه :

يا ليلة حبست على نجومها فسهرتها والشامتون هجود
قد كان يسهرني حذارك مرة فالיום حق لعيني التسهيد
ولا يبكى الرجل هذا البكاء على ما فى عيشه من الشظف الا ومن وراء
خشوته مودة قلب تنفذ الى القلوب .

وأكفف ماتكون الدروع أرق ما يكون الموضع الذى يليها وأخوفه من
الاصابة . فانظر أين الموضع الحصين المحمى فهناك الموضع اللين الذى
يتخاف عليه ، ولا يخدعك عن ذلك خادع من اظهار أو تظاهر غير مشعور
به ، وغير مقصود .

أين اكفف ما تكاثفت الغلظة فيه من درع عمر التى عيناها ؟

(١) تولمت : كاد عقلها يلعب من شدة الحزن .
(٢) شعوب : اسم للحمية . الموت ، سميت كذلك لأنها تفرق الخلائق .

المرأة ولا نزاع !

فعلى المرأة كانت له غيرة اشتهر بها وعدت من دلائل شدته عليها ، وفي هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله غيور يحب الغيور ، وان عمر غيور » .

وعلى المرأة ومن المرأة كان حذرهم أن تتخيل للعيون وتبرج في مضطرب الفتون .

وكلما أوصى بوصية فيها فانما هي الفتنة التي يتقيا ، فلما قال عليكم بالأبكار لم يقل عليكم بالأبكار لأنهن أمتع وأنصر ، ولكنه قال عليكم بهن لأنهن أكثر حبا وأقل خبا (١) .

ولما توجس من زواج المسلمين بينات الأعاجم لم يتوجس منه لأنه حرام بل لأن « في نساء الأعاجم خلافة ، فان أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم » .

فبالخلافة هي المحذور الذي يتقى .

وهنا كثافة الدرع فابحث هنا عن منفذ الحذر . انك لا تبعد كثيرا حتى تلمس الموضع الذي نم عليه الرجل حيث قال : « لو أدركت عَفَاءَ وعروة جمعت بينهما (٢) » ... أو نم عليه الصبي الذي عناه ابن الخطاب حيث قال : « أحب أن يكون الرجل في أهله كالصبي ، فاذا احتيج اليه كان رجلا » .

ومتى كان فرط الغيرة على المرأة أو الحذر منها دليلا على أنها ذلك الشيء المهيئ ، وان قال الغيور الحذور بلسانه إنها لشيء مهين ؟ .. وابحث عن جانب واحد متعلق أو مقطوع من جوانب الرحم الذي ينبغي أن يوصل فانك لن تجده في نفس هذا الرجل بته ، وان جهدت في البحث .

فكان ابنا بارا لا ينسى التحدث عن أبيه ، ويعتز بذكراه على ما كان من

(١) الخب : الخداع .

(٢) مروءة بن حزام : شاعر من الشعراء المشاهير وصاحبه مفراء ، مات شهيد مشقه .

قسوته عليه في صباه ، ولم يزل يقسم باسمه حتى نهاء النبي ، فاتتهى وهو يقارب الكهولة .

وكان أبا يحب أبنائه ويعرف وجند الآباء بالأبناء ، وينزع الثقة من وال لا يحنو على صغاره .. أمر بكتابة عهد لبعض الولاة فأقبل صبي صغير فجلس في حجره وهو يلاطفه ويقبله ، فسأله المرشح للولاية : أتقبل هذا يا أمير المؤمنين ! ان لي عشرة أولاد ما قبلت أحدا منهم ولا دنا أحدهم مني .. فقال له عمر : وما ذنبى ان كان الله عز وجل نزع الرحمة من قلبك .. انما يرحم الله من عباده الرحماء . ثم أمر بكتاب الولاية أن يمزق وهو يقول : انه اذا لم يرحم أولاده فكيف يرحم الرعية ؟

وكان كلاب بن أمية الكنانى في غزوة فاشتاق اليه أبوه الهرم وحزن لغيابه ، واتصل بنؤه بعمر فكتب الى قائد الجيش يستعيد كلابا الى المدينة فلما عاد ودخل عليه سأله : ما بلغ من برّك بأبيك ؟ قال : كنت أكفيه أمره ، وكنت أعتمد - اذا أردت أن أحلب لبنا - أغزر ناقة في ابله وأسمنها فأريحها وأتركها حتى تستقر ، ثم أغسل أخلافها حتى تبرد ، ثم أحلب له فأسقيه .

ثم بعث الى أبيه فجاء يتراوح في مشيته ضعيفا بصره ، محنيا ظهره ، فسأله : كيف أنت يا أبا كلاب ؟ .. قال : كما ترى يا أمير المؤمنين .. ثم جاء بلبن حلبه ابنه ففطن الرجل وقال وهو يدني الاناء من فمه : لعمر الله يا أمير المؤمنين أنى لأشم رائحة يدي كلاب من هذا الاناء ! .. فقال عمر : هذا كلاب عندك حاضر قد جئناك به . فوثب اليه ابنه ، وطقق الأب الذى لم يكدره يراه يضمه ويقبله .. وبكى عمر ، وأمر كلابا أن يلزم أبويه ما بقيا ، وله عطاؤه كأنه يجاهد في سبيل الله .

ومن حنائه على الأطفال أنه كان يشتفق عليهم أن يحزنوا في لهوهم ولعبهم فلا يترك الخائف منهم حتى يأمن على لهوهم ومحصول لعبه ، فحدث سنان بن سلمة أنه كان في صباه يلتقط البلح في أصول النخل مع بعض

الصبية اذ أقبل عمر ففترق الغلمان وثبت هو في مكانه ، فلما دنا منه أسرع قائلاً : يا أمير المؤمنين ، انما هذا ما أَلقت الريح ! .. قال عمر : أرني أنظر فانه لا يخفى عليّ . فنظر في حجره ثم قال : صدقت . الا أن انصبي لم يقنع بهذا حتى يحرسه أمير المؤمنين الى بيته ! .. فقال : يا أمير المؤمنين ، أترى هؤلاء الآن ؟ .. وأشار الى الصبية الهاريين ، ثم قال : والله لئن انطلقت لأغاروا عليّ فانتزعوا مامعى ، فمشى معه عمر حتى بَلَغَهُ بيته ! ..

وكثيراً على المصدقين المفرطين في التصديق أن يعرفوا هذا عن عمر ثم يصدقوا أنه وأد بنتا في الجاهلية على تلك الصورة البشعة التى انتقلت اليها في بعض الروايات ، وخلاصتها أنه رضى الله عنه كان جالسا مع بعض الصحابة اذ ضحك قليلا ثم بكى ، فسأله من حضر فقال : كنا في الجاهلية نصنع صنما من العجوة فنعبده ثم نأكله وهذا سبب ضحكى ، أما بكائى فلأنه كانت لى ابنة فأردت وأدها فأخذتها معى وحفرت لها حفرة فصارت تنفض التراب عن لحيتى فدفنتها حيّة .

فهى قصة يَعتَوِّرها الشك من ناحية ضحكها ومن ناحية بكائها ومن ناحية اجتماعهما فى لحظة واحدة لتمكين واضع القصة من التفرقة بين عصر عمر فى جاهليته واسلامه ، وأدعى ما فيها من الشك تلك الخاتمة التى يتم بها اختراع الفجيعة والبلوغ بها الى ذروتها ، وهى نفث الطفلة الصغيرة تراب حفرتها عن لحية أبيها .

فالوَاد لم يكن بالعادة الشائعة بين جميع القبائل العربية ، ولم يشتهر بنو عدي خاصة بهذه العادة ولا اشتهرت بها أسرة الخطاب التى عاشت منها فيما نعلم فاطمة أخت عمر وحفصة أكبر أولاده وهى التى كَتَبَ أبَا حفص باسمها .

وقد ولِدَتْ حفصة قبل البعث الاسلامى بخمس سنوات فلم يَسِدْها . فلماذا وأد الصغرى المزعومة وهى فى السن التى تفهم فيها كيف تنفض التراب عن لحية أبيها ؟ .. ولماذا انقطعت أخبار هذه الصغرى المزعومة

فلم يذكرها أحد من اخوانها وأخواتها ولا أحد من عمومها وخنولتها ؟

ما نحسبها الا احدى جنائات الأغراب على من خُلِقوا وفي سيرتهم مثال للأغراب والاعجاب . فهي اختراعة تضعفها قرائن التاريخ وتضعفها خلائق عمر التي لا تتبدل هذا التبدل من النقيض الى النقيض بين جاهليته واسلامه . وقد كان عمر في جاهليته لم يسلم بعد يوم أشفق على أخته وهي دامية الوجه ، وكان في جاهليته يوم أحب أخاه حبه المفرط وبقي عليه فليس وقوع القصة المزعومة في الجاهلية مانعا لغرابتها ومقربا لتصديقها ، وغير هذا الأب وهذا الأخ يطبق هذه القسوة التي لا تطلق .

ان قليلا من الآباء من أحب أبناءه كما أحب عمر أبناءه ، وان قليلا من الاخوة من أحب أخا كما أحب عمر زيدا أخاه ، فما سمع اسمه بعد مقتله الا سالت عبرته ، وما هبت الصبا كما قال الا وجد نسيم زيد وتمنى نظم الشعر لينظمه في رثائه .

بل ان قليلا من الأصدقاء من أخلص لأصدقائه وعشرائه كما أخلص عمر لكل صديق وعشير ... وهو القائل : « لقاء الاخوان جلاء الأحران » ، وهو القائل حرصا على المودة وضنا بها : « اذا أصاب أحدكم ودا من أخيه فليستمسك به ، فقلكما يصيب ذلك » .

فاذا أردنا أن نتقب عن وشائج الرحم وصلات المودة في نفس هذا الرجل المهيب المخيف فلننتقب عنها في يناييعها الخفية التي تسرى منها وتترقرق في نواحيها ، ولا نتقب عنها في الصخور التي تكتنفها وتطفو عليها وترفع أعلامها .

أو نحن حريثون أن نتقب عنها بين هذه الصخور والأعلام ولكن على هدى وبصيرة . فلا نقنع منها برأى العين من بعيد أو قريب ، ولا نقتر بما تبديه كآله كل شيء تحتويه .

فما هذه الصخور والأعلام التي كانت تروع الناظر من هيئة عمر ومن ملامح سيماء ؟ ... هي مظهر قدرته على نفسه لا أكثر ولا أقل ، وهي

الحارس اليقظ الذي يحمي تلك النفس أن يتسرب اليها الوهن وأن تؤخذ على غرّة ، من حيث يخاف عليها .

والمرء لا يعتصم بقدرته على نفسه وهو آمن ، ولا يوقظ الحارس على دخيلته وهو وادع في سربه . انما يعتصم بقدرته ويوقظ حارسه حين يحذر ، وانما يحذر من الطارق الذي لا يستهين به ولا يزال على رقبة منه .

وقد كان عمر بن الخطاب أكثر ما يكون اعتصاما بقدرته في أمسّ الأمور بقلبه وسريرة طبعه : في خشية الخديعة من ناحية الترف والمتعة ، فهو لا يستسلم لشهوة مأكّل ولا ملبس ولا قنينة دنيوية ، وفي خشية الخديعة من ناحية ولده وأهله فهو يجفل من أن يرى لهم رزقا لا يعرف مأناه ، ويجفن من أن يرى لهم ابلا سمانا بين الابل العجاف مخافة أن يسمنها لهم الناس في مراعيهم .. لأنهم ولد أمير المؤمنين وتلك ابل أبناء أمير المؤمنين ! ..

وكان أكثر ما يكون اعتصاما بقدرته حين يلمح الفتنة الكبرى التي يقتدر بها شيطان الغواية . وتلك هي المرأة لا فرق بين خيارها وشرارها ، فمن شرارها استعذ بالله ! .. ومن خيارها كن على حذر ! ..

واذا اعتصم عمر بن الخطاب بنفسه فانتظر شيئا واحدا لن تجد حولا عنه ، وهو تقديره العدل تقدير الخائف أن يزيد فيه شعرة أو ينقص منه شعرة . فمتى اعتصم بنفسه استيقظ وانتصر ، ومتى استيقظ وانتصر فللحق يقظته وفي سبيل الحق انتصاره .

يعرض شأن المرأة فهو الفيور الحذور ، وهو الواقف على الميزان فيما تعطاه وفيما تعطيه ، فلا هي بظالمة ولا مظلومة في كل أمر يرجع اليه .

فمن همته كان ألا تظلم لضعفها ، ولا تغبن لحيائها وخفرها ، ومن حقها عنده ألا تذكره على زواج الرجل القبيح لأنها تحب لنفسها ما يحبه الرجل لنفسه ، وأن يعرف لها عذرها حيث يعرف للرجل عذره في الصلة بينهما وبينه . فسمع مرة أعرابية تشد :

فمنهن من تسقى بماء مبرّد (١) فتلحم (٢) عند ذلك قرمت
ومنهن من تسقى بأخضر آجن (٣) اجاج ولولا خشية الله فرمت
فتوهم في زوجها عيا وأرسل في طلبه فاذا هو متغير النعم ، فخيرته بين
خمسمائة درهم وطلاقها ، فقبل الدراهم وطلقها .

وسمع امرأة من وراء بابها تنشد :

تطاول هذا الليل تسرى كواكبهِ وأرمتني آلاء خليلٍ ألاعبه
فسوالله لولا الله لا شيءٌ غيره لزلزل من هذا السرير جوانبه
فسأل عن زوجها فعلم أنه خرج في غزوة طالت غيبته فيها ، فأمر بعد ذلك
الأ تطل غيبة الأزواج في الغزوات .

وكان يقبل شكوى المرأة من زوجها الذي يهمل النظافة والزينة ، لأن
النساء « يحببن أن تتزينوا لهن كما تحبون أن يتزين لهن » .

وقبل شكوى المرأة من زوجها الخاضب (٤) قبل البناء بها يوهمها أنه
شاب وهو موخوط الرأس بالشيب ، فأوجعه ضرباً وقال : عررت القوم
ولم يكن يتخرج مع المرأة مثل هذا التحرج أن تستر من سيرتها ما لا يضير
ستره ان عاق زواجها . فكاشفه رجل بأمر ابنة له أسلمت وأصابها حدث من
حدود الله ، فهمت أن تذيب نفسها ، فأدركها أهلها وقد قطعت بعض
أوداجها (٥) ، فبرئت وتابت واستقامت على الهداية . فسأله : أخبر
القوم الذين يخطبونها بما تقدم من سيرتها ؟ قال : ويلك !.. أتعمد الى
ما ستره الله فتبديه ؟ والله لئن أخبرت بشأنها أحدا من الناس لأجعلنك
كالا . « لكحها نكاح العفيفة المسلمة » .

فهى أولى عنده ببعض المحاباة حين لا خير في المحاباة . وقد عاهد الناس
فيما عاهدهم عليه « ليمنعن » النساء الا من الأكفاء .

وترى أنه قضى في الخلاف بين الزوج والزوجة بالقول الفصل في بناء

(١) النقاخ : الماء العذب الصافي .

(٢) الاجن : الماء المتغير الطعم واللون ، والاجاج : المالح المر .

(٣) الخاضب : الذي يخضب بالحناء او نحوه .

(٤) الأوداج : جمع وذج وهو مرق في العنق .

الأسر وتعمير البيوت ، حيث قال لرجل هم " بطلاق امرأته لأنه لايجبها :
أوكل البيوت ببنى على الحب ؟ فأين الرعاية والتذم ؟ »

فانه لبر " بربات البيوت لم يدركه متحذلة العصر الذين يلفطون بالحب
والزواج ويجهلون أن الرعاية والتذم أقتن بالدوام والتعمير من زواج
ينى على الحب وحده ، لأن الحب منوط بالأهواء التى تتغير بين آونة
وأخرى ، وأما مناط الرعاية والتذم فهو الأخلاق التى قل أن يطرأ عليها تغيير

وقد استشار النساء فيما يحسن كما استشار الرجال فيما يحسنون ،
ولم يتعال قط أن يرجع عن خطئه اذا ردت عنه امرأة بالبيئة الصاعدة (١) ،
ومن ذلك أنه نهى الناس فى بعض خطبه أن يزيدوا مهور النساء على أربعين
أوقية ، فصاحت به امرأة فطساء من صفوف النساء : ماذا لك ؟ فلم يأتف
أن يسألها : ولم ؟ قالت : لأن الله تعالى يقول : « ... وآيتيم احداهن
قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا » ، فرجع عن
خطئه واعترف بصوابها .

فما للمرأة من حق تعطاه ، وما ليس لها بحق لا تعطاه وتزداد عنه .
والذى ليس لها بحق فى رأى عمر - ورأى كل رجل ذى رجولة - ألا
تعرض لعمله الذى لاتفقهه ، ولا يترجع اليها فى مثله ، ولاسيما ان كان
شأنا من شئون الدولة ، ومهمة من أخص مهام الرجال ، فتشفت له امرأته
فى وال مقصّر تسأله : فيم وجددت (٢) عليه ؟ .. فالتفت غاضبا وقال لها :
وفيم أنت وهذا ؟ .. انما أنت لعبة تلعب بك ثم تتركين ! . كلمة
لا تلبس القفاز الناعم ، ولم يخلق القفاز الناعم ليلبس فى كل حين .

والذى ليس بحق للمرأة أن تعلق كلمتها على كلمة وليها ، وهذا الذى
كان ينكره عمر على أهل المدينة حيث قال : « ... كنا معشر قريش
نغلب النساء ، فلما قدمنا على الأنصار اذا هم قوم تغلبهم نساؤهم ،
فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار . وصيحت على امرأتى

(١) البيئة الصاعدة : بالمراد ، البيئة التى تحملك على الايمان والتصديق .

(٢) وجددت عليه : غضبت ، من الوجدة .

فراجعتنى ، فأنكرت أن تراجعنى . قالت : ولم تنكر أن أراجحك ؟ فوالله
ان أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ليراجعنه وان احداهن لتهجره اليوم
حتى الليل .. فأفرعنى .. »

نعم هذا مفزع لعمر ، وقد كان ولا ريب مفزعا لرسول الله أن تعلق
كلمة على كلمته فى بيته ، لكن طريقة محمد فى تغليب الكلمة طريقة نبى
يؤم متبعيه ، وطريقة عمر طريقة مريد مؤتم بنبوة ، ولا جناح على عمر
الا يلحق بشأو محمد فى كل ما سبق اليه .

فمحمد انسان عظيم ، وعمر رجل عظيم . وهذا هو الفارق بينهما كما
بيئناه فى مناسبة سابقة . وانما الفارق بينهما فى المناسبة التى نحن بصدها
أن الرجل العظيم يرحم المرأة كما يرحمها الجندى فى معرض القوة والنضال،
ولكنه يأنف أن يستكين لسلطانها فى معرض الهوى والفتنة ، فيكسرها ولا
ينكسر لها اذا لجت فى الغرور وانطلقت فى عنائه . ومن ثم استصغر عمر
ولدته نفسه — عبد الله — لأنه عجز عن تطليق زوجه . فلما أشاروا عليه
باستخلافه قال لمن كلمه فى ذلك : « ويحك ! كيف أستخلف رجلا عجز
عن طلاق امرأته ؟ »

أما الانسان العظيم فهو يشمل ضعف الانسانية كله ويعطف عليه .
ومنه ضعف المرأة فى غرورها واعتزازها بدلال الضعف على القوة ، لأنه
فى حقيقته اعتزاز بمكانها منها وتقدير لتلك القوة فى بعض نواحيها . فهو
يرى فى تكبر المرأة اذا كانت كبيرة عنده نوعا من الاعتراف بكبره ،
وهو لا يقف معها فى ميدان كما يقف كل ذكر وأنثى ، لأن ميدانه هو
يشمل الميدانين مجتمعين ، اذ هو ميدان الانسان كله والانسانية جمعاء .

على أن شأن الرجل مع المرأة لا يظهر من رأى الرجل فيها كما يظهر
من رأيها فيه ، فبعد معاملة عمر للمرأة وقوله فيها يبقى له شأن فى عالمها
يظهر لنا من رأيها هى فيه .

وقد اكبرت سيدة نساء العصر عمر فوصفته بأنه كان نسيج وحده ،

وهى عائشة رضى الله عنها ، وجمعت الثناء بنت عبد الله بعض صفاته فقالت انه « كان اذا تكلم أسمع ، واذا مشى أسرع ، واذا ضرب أوجع ، وهو الناسك حقا » . وصاحت أم أيمن مرضعة النبي يوم أصيب : اليوم وهى الاسلام .

وعلينا نحن أن نسأل المرأة في عصر عمر عن مثال الرجل في عصرها ولا نسأل فيه نساء زمان غير ذلك الزمان . وما نخالنا نعرف رأى المرأة يومئذ في الرجل الذى يكبر في عينها كما نعرفه من امرأة هى هند بنت عتبة زوج أبى سفيان وأم معاوية ، فليس أقدر منها على الجواب ولا أصرح فيه .

جاءها أبوها يشاورها في رجلين من قومها يخطبانا فاستخبرته عنها فقال يصفهما : « أما أحدهما ففى ثروة وسعة من العيش ، ان تابعته تابعك ، وان ملت عنه حط اليك ، تحكمين عليه في أهله وماله . وأما الآخر فموسّع عليه ، منظور اليه في الحسب الحسيب والرأى الأريب ، مِدْرَه أرومته (١) وعزّه عشيرته ، شديد العيرة لاينام على ضعة ، ولا يرفع عصاه عن أهله » .

فقالت : « يا أبت ! الأول سيد مضياع للحرّة ، فما عست أن تلين بعد ابائها ، وتضيع تحت جناحه اذا تابعها بعلها فأشِرتْ (٢) وخافها أهلها فأمنت ؟ .. ساء عند ذلك حالها ، وقبح عند ذلك دلالها ، فان جاءت بواد أحمقت . وإن أنجبت فمن خطأ ما أنجبت (٣) . فاطو ذكر هذا عنى ولا تسمّه على بعد ا .. وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة الحرّة العقلية (٤) ، وإنى لأخلاق مثل هذا لموافقة ، فزوجنيه » .

ونحن نحسب هذا رأى المرأة النجيية في زمان عمر ، ولو شئنا لحسبناه رأيها في كل زمان على أن تضره بباطن القلب ولا تلقيه بطرف اللسان .

(١) المدرة : السيد الشريف المقدم فى اللسان واليد ، والارومة : الاصل .

(٢) الاثر : البطر .

(٣) احمقت : ولدت احمق ، وانجبت : ولدت نجيبا .

(٤) الخريدة : العذراء فيها حياء وخفر ، والعقيلة : الكريمة .

نان زادت خشونة العيش في بيت عمر على القدر الذي ترضاه المرأة فهي خشونة غير محقورة السبب ، لأنها لا تحسب على عمر « الزوج » من ناحية حتى تحسب لعمر « الرجل » من ناحية أخرى . اذ هي لم تأت من قلة القدرة على العيش وانما جاءت من كثرة القدرة على النفس ، وهي خليقة تعجب بها المرأة في الرجل الذي تكبره ، لأنها من أقوى خلائق الرجولة فيه .

وليس لدينا بيان واف عن النساء اللاتي تزوج بهن عمر يعيننا على التمييز بين سماتهن والبحث في المياسم الشخصية التي يتعدن فيها أو يختلفن ، ويجيز لنا أن نسهب في الكلام عن موقع كل منهن من نفسه ، وأثرها في حياته ، ومبلغ حظوتها عنده ، وسبب هذه الحظوة في رأيه وشعوره ، وما يدل عليه جميع ذلك من نوازع فطرته وذوقه . فقد سكنت التاريخ وسكت عمر عن كل بيان واف في هذا الباب ، فلم يبق لدينا منه الا أسماء وأعوام ونوادير مقتضبات ، لاتساعدنا على تكوين سمات واضحات فضلا عن التفرقة بين تلك السمات .

غير أننا نعتقد أن التاريخ لم يثقفنا شيئا كثيرا في هذا الباب ، لأننا مستطيعون أن نموض ما فقدناه بالقياس الى ما عرفناه ، فلا نخطيء اذا رجحنا ان سمات هؤلاء النساء جميعا تدخل في نطاق الوصف الذي كان يستحبه عمر في المرأة ولا يطبق منها أن تخالفه وتخرج عليه .

فأفضل ما كان يشرطه في المرأة أن تكون ولودا ودودا ، وألا تثعاب بالحمق فيسرى حمقها في دماء وليدها ، اذ « لم يقم جنين في بطن حمقاء تسعة أشهر الا خرج مائقا (١) » كما قال .

أما ذوق الجمال فقد كان عمر فيه كما كان في جميع خلأئفه عربيا بحثا يستملح ما يستملحه كل عربي صميم ، ويستحسن الحسن عنده وهو أعم من الملاحظة ، ويروى عنه أنه قال : « تزوجها سمراء ذلفاء (٢) عينا (٣) » ،

(١) المائقا : الاحمق الفبي

(٢) صغيرة الانثى .

(٣) عينا : حسنة العين واسمها

فان فركتها (١) فعلى صداقها » وأنه قال : « اذا تم بياض المرأة في حسن شعرها فقد تم حسننها » ، وهذان هما الملاحاة والحسن كما وصفا في الشعر العربي من قديم الى حديث .

ومن القليل الذى بقى لدينا من أخبار نسائه نعلم أنه كان موفور الحظ من هذا الجمال فى الزوجات ، فقد وُصف أكثرهن بالحسن البارع ، وضرب المثل بملاحاة احداهن بين نساء قريش وهى قريبة بنت أبى أمية بن المغيرة . فروي فى مآثور الحديث الشريف أن سعد بن عبادة قال يوما فى حضرة النبى عليه السلام : ما رأينا من نساء قريش ما كان يذكر من جمالهن ! فقال له عليه السلام : « هل رأيت بنات أبى أمية بن المغيرة ؟ هل رأيت قريبة ؟ » ، وهى احدى زوجات عمر قبل اسلامه .



ويروى أن جميلة بنت ثابت سميت بهذا الاسم لجمالها ، وكان اسمها فى الجاهلية عاصية ، فكرهته بعد اسلامها وسألت عمر ثم سألت النبى فى تغييره فاتفقا على تسميتها بوصفها ، ونوديت بعد ذلك باسم جميلة . وروى عن عاتكة بنت زيد بن عمر بن نفيل أنها أعطيت شطر الحسن مع ما رزقته من الفصاحة والتقوى . وروي مثل ذلك عن زوجات أخريات ، وان لم يتفوقن هذا التفوق المشهور .

ومن أخبار زوجاته أنه طلق اثنتين من أشهر نسائه بالجمال وهما قريبة وجميلة ... تزوّج بالأولى وطلقها قبل اسلامه ، وتزوّج بالثانية وطلقها بعد اسلامه ، ولا ندرى على التحقيق ما سبب تطلق هاتين الزوجتين الجميلتين ، فهل هو دلال الجمال ضاق به صدر عمر وهو على شمس المرأة غير صبور ؟ .. لعله ذاك ، ولعل الذى أبقي عاتكة بنت زيد فى عصمته أنها تجاوزت دلال الصغر حين بنى بها ، أو غضّت من دلالها بالفطنة والتقوى .

(١) فركتها : ابفشتها وبركتها .

وكذلك بقيت في عصمته أم كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب وهي جميلة صغيرة ، وولدت له ابنا سماه باسم أخيه زيد الذي كان يحبه ويذكره ويطلق البكاء عليه ، وأعزّها عنده النسب والأدب والمحافظة على أسرة النبوة ، فلم يفرقا في الحياة ولم ينشب بينهما خلاف الا حين جاءتها الهدية من ملكة الروم فضمّها الى بيت المال .

وله مع احدى أولئك الزوجات قصة " صغيرة لا يفوتنا ايرادها في الكلام على حياته الخاصة لأنها كثيرة الدلالات عليه : تدل على عمر في أبويّه ، وتدل على عمر في سورة طبعه ، وتدل على عمر في مثوبته الى الحق كلما وجب أن يثوب اليه .

فقد طلق جميلة وله منها ولد " صغير " ، فرآه يوما يلعب مع الصبيان فحمله بين يديه ، فأدركته جكته الشموس بنت أبي عامر وجعلت تنازعه اياه حتى انتهيا الى أبي بكر رضى الله عنه وهو خليفة ، فقال له أبو بكر : خلّ بينه وبينها فهي حاضنته ، فردّه اليها ولم يراجعه بكلمة .

ولعمري ان في هذه القصة الصغيرة من الدلالة عليه لما يغنى عن قصص ، وفيها عمر انسان عطوف ، وفيها عمر رجل سوار الطبيعة ، وفيها عمر صاحب خلق مكين يكبح من طبيعته كل سورة جاوزت حدّ العدل والانصاف ، وهذا هو عمر في شتى نواحيه .

وقد تدل هذه القصة على شيء يبرّئه من بعض اللوم في تطليقه أم هذا الولد ، فاسمها عاصية واسم أمها الشموس ، وكأنهما — كما ينبىء عنهما هذان الاسمان — من أسرة تباهى بدلال بناتها وشموسهن وتختار لهنّ من الأسماء ما يدل على هذه الخصلة ، وقد يضيف الى توكيد هذه الخصلة فيهنّ أن " عاصية غضبت حين اختار لها عمر اسم جميلة وقالت له : سميتنى باسم الاماء ! ثم اختار لها النبي هذا الاسم فقالت : يا رسول الله ! أتيت عمر فسماني جميلة فغضبت ، قال عليه السلام : أو ما علمت أن الله عز

وجبل عند لسان عمر وقلبه ؟

فكانها نشأت في قوم يعتقدون أن التحسين والترغيب انما هو من شأن الاماء ، وأن الشتموس والعصيان أليق بالحرائر وان أحبين أزواجهن وأحبوهن ، فان كان في تطليقها مأخذ على عمر فقد يكون فيه مأخذ عليها تفسر لنا افتراقهما بعد ما أحبا وأحبته .

ورزق عمر الذرية من ذكور وإناث نجباء ونجيبات ، فقررت عينه بهم لأنه كان كاهل البداوة كافة يستكثر من الذرية ويوصي الناس أن يستكثروا منها ، وكانوا جميعا عنده بمكان الحب والمودة لا يخشى الانحراف عن العدل من جانب كما يخشاه من جانب هذه الذرية أو جانب أهله على التعميم ، ولهذا كان يجمعهم اذا نهى الناس عن حوزة حق من الحقوق فيبلغهم أنه قد نهى عنه ويذكرهم « ان الناس ينظرون اليكم نظر الطير الى اللحم » ، ويقسم لهم لئن فعله أحد منهم ليضاعفن عليه العقوبة !

وليس بنا أن نحصي فتاواه وأقضيته في محاسبة أهله أو محاسبة أبنائه خاصة قبل سائر أهله . فذلك عمل له لم ينقطع عنه طوال حياته ، ولكننا نكتفي بمثل من أمثال عديدة متواترة وهو قضاؤه في اتجار أبنائه بمال من بيت مال المسلمين ، وذلك أن أبنيه عبد الله وعبيد الله خرجا في جيش الى العراق ، فلما قفلا نزلا بالبصرة وذهبا الى أبي موسى الأشعري وهو أميرها ، فقال لهما : لو أقدر على أمر أنفعكما به ؟ ثم عرض عليهما أن يحملا الى أبيهما مالا من مال الله فيشتريا به متاعا من العراق يبيعانه بالمدينة ، ثم يؤديان رأس المال ويكون لهما الربح . فلما علم عمر سألهما : أكل الجيش أسلفه ؟ ثم أمرهما أن يؤديا المال وربحه ... فسكت عبد الله وقال عبيد الله : ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين هذا ، لو نقص هذا المال أو

هلك اضمئناه ! وقال رجل في المجلس : يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضاً؟ فأخذ رأس المال ونصف ربحه ، وأخذ أبناء نصف ربح المال .

وانما كان عمر يتقى محاباة الولاة لأبنائه وذويه واقرار هذه المحاباة يأذنه ، ولكنه كان يقترض من بيت المال ليتاجر ويربح ما يعيش به في أهله ، ويلجأ الى التجارة لقلة رزقه الذي فرضه لنفسه من بيت مال المسلمين ، وقد فرض رزقه لنفسه بعد مشاورة أصحاب رسول الله ، فقال عثمان : كل واطعم ، وقال على : ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف ، وقال هو : ان افتقرت أكلت بالمعروف ، وان أيسرت قضيت . وكان يقترض فيعسر فيتأخر قضاؤه ، فيأتيه صاحب بيت المال ويشتد في تقاضيه ، فيحتال له عمر ويؤجله الى أن يستحق عطاءه مع عطاء المسلمين ، فيسد به دينه .



ومع هذا كان يشفق أن يقترض من بيت المال الا أن يتعذر عليه الاقتراض من بعض صحبه . فأرسل مرة الى عبد الرحمن بن عوف في طلب أربعة آلاف درهم يجهز بها عيرا (٢) الى الشام ، فعاد الرسول يقول له : خذها من بيت المال ثم ردها . ! وشق ذلك عليه فلقي صاحبه وعلم منه صدق ما بلغه فقال : أفإن مت قبل أن تجيء قلتهم أخذها أمير المؤمنين دعوها له . وأوخذ يوم القيامة ؟ : « لا ... ولكنى أردت أن أخذها من رجل حريص شحيح مثلك ، فان مت أخذها من ميراثي » .

وحدث ما توقعه من مجيء الأجل قبل سداد ديونه جميعا فلم يشغله الموت ولا شغلته كبار الخطوب التي يضطلع بتصريفها قبل موته أن يسأل عن ديونه ويوصى بسدادها من ماله ومال أهله ، وقال لابنه : « ان وفي به — أى بالدين — مال آل عمر فأدّهم من أموالهم ، والا فاسأل فيه بنى عدي ، فان لم تف أموالهم فاسأل فيه قريشا ولا تعدّهم (٣) الى غيرهم » .

(١) القراض : قرضه قراضا ، أى دفع اليه مالا ليتجر فيه ، ويكون الربح بينهما على ما شرطا (٢) العير : الإبل التي تحمل الزاد (٣) أى لا تجاورهم وتتركهم لتسأل غيرهم

وكان عبد الرحمن بن عوف حاضراً فأشار عليه مقترحاً أن يستقرضها من بيت المال حتى تؤدي ، فلم يقبل عمر ، ودعا بأبنة عبد الله فقال : اضمنها ! فضمنها ، ووفى بوعده . فلم يُدفن أبوه حتى أشهد بها على نفسه أهل الشورى وعدة من الأنصار ، وما انقضى أسبوع حتى حمل المال إلى عثمان ، وأحضر الشهود على البراءة بدفعه ، وقد بيعت لعمر دار في هذا الدين وسُميت زمنا باسم دار القضاء ، لأنها بيعت في قضاء دينه .

ولأنَّ يموت عمر مديناً موفى الدين لهو أعظم الشرفين ... وأيسر من ذلك شرفاً أن يموت غنياً بغير دين .

صورة محمّلة

صحبنا عمر بن الخطاب في حالات كثيرة تختلف فيها صور الرجال .
صحبناه في جاهليته واسلامه ، وفي سره وعلايته ، وفي بيته وحكومته ،
وفي دينه وثقافته ، وفي اتصاله بالله واتصاله بالناس . فاذا الصورة المجملّة
من جميع هذه الصور المختلفة صورة رجل عظيم من معدن العبقريّة
والامتياز بين الناس على اختلاف العصور ، واذا هو صاحب مناقب
وأخلاق من أنبل الصفات الانسانية توافقت فيه على قوة نادرة وتلاقت
فيه الى غاية واحدة : وهي احقاق الحق وادحاض الباطل ، ووسمته جميعاً
بسمّة الجندية المجاهدة التي تحمى الحدود للناس وتحميها من الناس ،
وهو هو في طليعة من يحمى وفي طليعة من يختمى على السواء .
ورسخت في طويته خليقة المساواة في العدل حتى أصبحت كالوظيفة
العضوية التي لا تنفصل منه ، وحتى أصبح يتجرّد من نفسه أو يجرّد
منها شخصاً آخر غريباً عنه لا فرق بينه وبين أحد في حدود الله وحرّماته ،
وتمكنت هذه الخليقة منه حتى جرت على لسانه عامداً وغير عامد ، فكان
يتكلم عن نفسه كما يتكلم عن غريب : يخ يا عمر ! ويحك يا ابن
الخطاب ! ماذا يقول عمر ؟ وهذا فلان ابن عمر وليس بفلان ولدي ...
الى أشباه هذه التجريدات التي تنبعث فيه من خليقة التسوية بين جميع
الناس ، وبينهم وبين نفسه قبل جميع الناس .
وكانت فيه خشونة الأقوياء الصرخاء ، ولكنه كما قال عارفوه من
الصحابة « باطنه خير من ظاهره » أو كما قال فيه الصديق من كلام فحواء
أن مبغضيه هم المبغضون للخير .
وكان له محبوبون من كرام الناس لا يعدلون بحبه حب أحد من أمثاله ،

فكان عبد الله بن مسعود يقول : « لو أعلم عمر كان يجب كلبا لأحبته .
والله انى لأحسب العضاه (١) قد وجدت فقد عمر » .

والغالب فى أمثال عمر من أصحاب الطبائع القوية المهية أن تحجب عنهم
المهية ألفة الغرباء الذين لا يختلطون بهم فى السر والعلانية ، بل تحجب
عنهم ألفة الأقربين فى كثير من الأحيان ، لأنهم من تفردهم بالصراحة
والحق فى عزلة دائمة بين ألصق الناس بهم وأقربهم اليهم :

أعاذك أنسُ المجد من كل وحشةٍ فانك فى هذا الأنام غريب
ولكنهم لا يكرهون الا عن خطأ أو حسد لئيم . وكان عمر على
التخصيص من لا يثيرون شعور الكراهية فى قلب انسان ، لأنه كان
على عِظم « شخصيته » مبرأً من العنصر الشخصى ، فى معاملة الأصدقاء
والخصوم . وانما ينجم العداء الشديد من الاحساس بهذا « العنصر
الشخصى » ومقابلته بمثله مقابلة اصطدام وانتقام .

فالذين كانوا يذوقون انصاف عمر كانوا يستمرئون ويحبونه ، والذين
كانوا يذوقون عقابه كانوا لا يشعرون بعمر بن الخطاب معاقبا لهم
صوفاً الا عليهم ، وانما يشعرون بميزان الشريعة منصوبا على رؤسهم ،
يتساوون فيه وعمر وأبناء عمر لو وجب العقاب . فلا موضع هنا للضعف
ولا لاصطدام النفس بالنفس واحتدام الحزاة بالحزاة .

ولهذه الخصلة ذكره بالحب والاعجاب من ابتلوا بعدله أشد
ابتلاء ، وانطبعت نفوسهم على الدهاء أو الهجاء .

فعمر بن العاص ومعاوية كانا يثنيان عليه وشد ما ابتليا فى حياته
بضربات عدله وهيبته ، والحطية أهجى الشعراء وأبخلهم بالثناء كان
رفاقه يذكرونه اسم عمر بعد موته فيرتعب ثم يهدأ فيقول : يرحم الله
ذلك المرء .. ويثنى عليه .

وقد قال عمرو بن العاص اذ رأى عمر يبكى لاستعطاف الحطية اياه

(١) جمع عضاهة وهو شجر كبير له شوك . وجدت ، اى : علمت .

في سجنه : ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أعدلَ من رجل يبكى على تركه الحطيئة !

وقد شاء القدر أن يموت عسر قتيلا فلا يكون قتله دليلا على بغضاء « شخصية » أو خلة ترتبط بحياته الفردية . فانما البغضاء « الوطنية » هي علة التآمر على قتله بين المغلوين في ميدان القتال على التحقيق ، وهكذا كل بغضاء بقيت بعد موته مقرونة بذكره فانما هي في أصلها « بغضاء وطنية » كامنة وراء الدعاوى الطائفية والمجادلات المذهبية ، وان تطاولت الأيام .

فالمعلوم أن عسر مات بطعناتٍ من خنجر فيروز « أبى لؤلؤة » من سببايا الفرس بالمدينة ، وأن فيروز هذا جاء عمر قبل مقتله بأيام فشكا اليه مولاه المغيرة بن شعبة لأنه فرض عليه خراجا درهمين في كل يوم ، فسأته عسر عن صناعته فأنبأه أنه « نجار نقاش حداد » .. فلم يستكثر عمر هذا الخراج على من يصنع هذه الأعمال ، وقال له : قد بلغنى أنك تقول . « لو أردت أن أعمل رحي تطحن بالريح فعلت » ، وطلب اليه أن يصنع رحي على هذه الصفة ، فقال له : لئن سلمت لأعملن لك رحي يتحدث بها من بالشرق والمغرب .. ثم انصرف وهو يقول : « وسع الناس عدلته غيرى ! » . فقال عمر لسامعيه : لقد تواعدنى العبد آتفا ... ولم يؤاخذ بهذا الوعيد ، بل كان من نيته أن يلقي المغيرة ليخففَ عن مولاه .

هذا هو السبب الظاهر الذى لا يستر ما وراءه ، لأن أبا لؤلؤة لم يكن الا منفذاً للكيد الذى اتفق عليه كثيرون ، وقد روى عبد الرحمن بن أبى بكر أنه رأى هذا الرجل مع الهرمزان وجفينة قبل مقتل عسر جالسين يتحدثون . فلما فاجأهم قاموا وقوفا فسقط بينهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه ، وهو الخنجر الذى حمله فيروز لقتل عمر وقتل نفسه ان أخذ بقلته .

والهرمزان أميرٌ زالت عنه الامارة بعد ذهاب الدولة المجوسية ،

وجئفينة من أهل الأنبار وهم على ولاء للفرس ، وأبو لؤلؤة فارسي شديد الحقد على المسلمين لم ينس أسره ولم يزل كلما جئ إلى المدينة بأسرى من وقعات فارس مسح رؤوسهم وتوعد المسلمين أجمعين .

وقد شاركهم في هذه المؤامرة يهودى مغلوب "تظاهر بالاسلام وهو المسمى بكعب الأخبار . ولعله أراد أن يكسب شحنة العلم بالأسرار من علمه بالمؤامرة ، فذهب الى عمر قبل ثلاثة أيام من مقتله ينذره أن يختار ولى عهده لأنه ميت في ثلاثة أيام ... فسأله عمر : وما يدريك ؟ قال : أجد في كتاب الله التوراة . فلم تجز هذه الدعوى على عمر وعاد يسأله : « الله ! انك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة ؟ » ، فأشفق الرجل أن ينكشف دجله وقال : بل أجد صفتك وحليتك وأنه قد فنى أجلك . ثم كرر له النذير مرتين في اليومين التاليين .

فعمر انما ذهب رحمه الله شهيد مؤامرة من أعداء الدولة الاسلامية لا شك فيها ، وما كانت قصة الخراج الا الستار الذى يتوارى به المتآمرون بالمدينة والبلاد الأخرى مخافة القصاص الذى يحيق بهم اذا جهروا بما دبروه ، أو جهروا بالعلة التى من أجلها تربصوا بذلك التدبير .

ان مقتل عمر أحرى أن يعد جزءا من أكبر أجزاء سيرته ولا يحسب نهاية تختيم تلك السيرة دون أن تضيف اليها .

فقد تمثلت في مقتله مزاياه الكبار التى تمثلت في جلائل أعماله وعظائم مساعيه وخصاله ، فكان عمر الصريع قدوة في الشجاعة وتقديم الواجب والايثار على النفس ومحاسبة الضمير وسداد التدبير ، كما كان عمر في أصح ساعاته وأسلمها للعمل والتفكير .

وكان رضى الله عنه ينظر الى الحياة كأنها رسالة تؤدي ما استطيع أداؤها ثم لا معنى لها اذا فرغ من رسالتها أو حيل بينه وبين أداؤها ، فبعد الحجة التى مات على أثرها أناخ بالأبطح ثم كوى كومة من البطحاء ألقى

عليها طرف رداثة واستلقى عليها ورفع يديه الى السماء ، ودعا الله :
« اللهم كبركت سنى وضعت قوتي ، وانتشرت رعيتي ، فاقبضني
اليك غير مضيع ولا مفرط . اللهم ارزقني الشهادة في سبيلك ، واجعل
موتي في بلد رسولك » .

ومضت أسابيع فخرج يوما قبيل الفجر يوقظ الناس ثم يسوى الصفوف ،
للصلاة ، فلم يكذب يؤم الناس حتى فاجأه القاتل بطعنتين احدهما في كتفه
والأخرى في خاصرته ، وقيل ثلاث طعنات احدها تحت السرة وقد
خرقت الصفاقين (١) قضى بها نجه رحمه الله ، وقيل بل ست طعنات منها
تلك الطعنة القاتلة .

فلم تشغله هذه الطعنات المفاجئات عن الصلاة ، ولم يفكر أن يشغل
المسلمين بمقتله عن أداء فريضتهم في موعدها ، وسأل عن عبد الرحمن بن
عوف ليصلي بالناس .

ثم جعل يغمى عليه ولا ينتبه اذا دعوه ، حتى قال بعض عارفيه : انكم
لن تفزعوه بشيء مثل الصلاة ان كانت به حياة ... فنودي : الصلاة ..
الصلاة ! فلما سمع النداء فتح عينيه وفاه بكلمات متقطعات : « الصلاة !
ها .. الله .. اذن .. » ثم قال : لا حظ في الاسلام لمن ترك الصلاة

ولم يهمه من قتله بعد أن حُمِلَ الى منزله الا أن يعرف المظلمة كان
قتله أم لبغى من القاتل ؟ فلما علم أنه أبو لؤلؤة قال : ولِمَ قاتله الله
وقد أمرت به معروفا ؟ ثم حمِدَ الله قائلا : « الحمد لله الذي لم يجعل
قاتلي يحاجثني عند الله بسجدة سجدها له قط . ما كانت العرب لتقتلني » .

وهَمَّه بعد ذلك أن يلقي حسابه عند الناس وهو وشيك أن يلقي
حسابه عند الله . فأمر ابن عباس أن يخرج الى المهاجرين والأنصار يسألهم :
أعن ملا منكم ومشورة كان هذا الذي أصابني ؟ فصاحوا معلنين : « لا
والله . ولوددنا أن الله زاد في عمره من أعمارنا » .

(١) سلاق البطن هو الجلد الباطن عند سواد البطن .

واشتد البكاء كأن الناس لم يصابوا بمصيبة قبلها ، فنهاهم أن ييكونوا عليه . ثم سقوه نقيع التمر فخرج من الجرح أحمر كما هو فلم يعرفوا أدم^١ هو أم النقيع خرج بلونه .. فسقوه اللبن فخرج أبيض يشوبه صديد ، فأشار عليه الطبيب أن يعهد ... فقال : « لو قلت غير هذا لكذبتك » .

وكان قد أنكر على الناس أن يجيئوه بالطبيب قبل أن يفرغ من وصاياه : ويحكم أيها الناس ، أنظر في أمر نفسي قبل أن أنظر في أمور المسلمين ؟ .. فلما قال الطبيب مقالته أخذ في تدبير المهم من شئون الدولة وأولها الخلافة ، فجعلها شوري ليستقر بها القرار ما أستطيع إقراره ، ونجا بأهله منها وهو يقول : « ... أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي ، وإن نجوت كفافا^(١) لا وزر ولا أجر اني لسعيد » .

وهو في هذا كله لا يخالف ديدنه من صراحة ولا يكتم طبيعة أهل الفناء من حب الحياة ، ولا يخفى « أن للحياة لنصيبا من القلب وإن للموت لكربة ! » ولكنها لم تمنعه قط أن يعطى الحق حيث وجب للموت أو للحياة .

فلما فرغ من شئون الدولة نظر في أمر دينه فأبى أن يدفن قبل أن يضمن سداد^٢ه ، وأقبل يطمئن الى مضجعه في جوار صاحبيه وقد فرغ من حقوق الدنيا . فدعا بابنه عبد الله ينطلق الى عائشة أم المؤمنين ويقرأها منه السلام .. ونهاه أن يسميه عندها أمير المؤمنين لأنه ليس اليوم للمؤمنين أميرا ... ثم يستأذنها أن يدفن الى جوار صاحبيه يعنى النبی عليه السلام وخليفته الصديق .

ووجدها عبد الله تبكى فسلم عليها واستأذنها فأذنت وقالت : كنت أريده لنفسى ، ولأثرته به اليوم على نفسى !

فلم يكفه هذا حتى يستوثق كل الاستيثاق من رضاها ، فعاد يخاطب

^(١) نجوت كفافا : أي ، لا لي ولا ملي .

ابنه : « يا عبد الله بن عمر ! انظر ، فاذا أنا قُبِضْتُ فاحملوني على سريري
ثم قف على الباب . فقل : يستأذن عمر بن الخطاب ، فان أذنت لي
فأدخلني ، وان ردّتي فردني الى مقابر المسلمين ، فاني أخشى أن يكون
أذنّها لي لمكان السلطان » .

قال شهود دفنه : « فلما حمل فكأن المسلمين لم تصبهم مصيبة الا
يومئذ » ... وفارق الدنيا أعدل العادلين وهو مظلوم* أو متهم بظلم ،
فما دلّها شيء* على عظم فضله ولا عظم الحاجة الى العدل فيها كما دلّها
هذا الختام .

فهرس

عبرية محمد

صفحة

مقدمة	١١
علامات مولد	١٨
عبرية الداعى	٢٦
عبرية محمد العسكرية	٣٥
عبرية محمد السياسية	٦٥
عبرية محمد الادارية	٧٢
البليغ	٧٧
محمد الصديق	٨٧
محمد الرئيس	٩٦
الزوج	٩٩
الاب	١٢٦
السيد	١٣٥
العابد	١٤١
الرجل	١٤٨
محمد فى التاريخ	١٥٨

فهرسٲ

عَبْقَرِيَّنا الصِّدِّيق

صفحة	
١٦٧	تقديم
١٧٥	اسم وصفة
١٨١	الصديق الأول والخلية الأول
٢٠٥	صفاته
٢٢٥	مفتاح شخصيته
٢٤٥	غوذجان
٢٦١	إسلامه
٢٩٢	الصديق والدولة الإسلامية
٢٣٥	الصديق والحكومة المصرية
٢٤٣	الصديق والنبي وصحبه
٢٥٢	ثقافته
٢٦٠	الصديق في بيته
٢٧٠	صورة مجملة

عَبْقَرِيَّنا عُمَر

صفحة	
٢٧٧	مقدمة
٢٨١	عبرى
٢٨٩	رجل ممتاز
٢٩٧	صفاته
٤٣٣	مفتاح شخصيته
٤٥٠	اسلامه
٤٨٥	عمر والدولة الإسلامية
٥٠٤	عمر والحكومة المصرية
٥١٧	عمر والنبي
٥٤٤	عمر والصحابة
٥٦٩	ثقافة عمر
٥٩٢	عمر في بيته
٦١٢	صورة مجملة



THE
LIBRARY
OF THE
UNIVERSITY OF
MICHIGAN
ANN ARBOR
MICHIGAN
48106-1000
U.S.A.



**The Complete Works of
ĀBBAS MAHMOUD AL - ĀĀKAD**

Volume I

DAR
AL-KITAB
ALLUBNANI